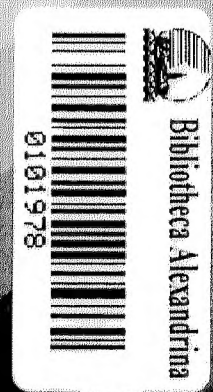


الألف
الكتاب
٢٧٨

فخرى ابوالسعود
في الأدب المقارن
ومقالات أخرى



إعداد: جيهان عرفه
تقديم: د/ محمود علي مكي

الهيئة المصرية العامة للكتاب

فِي الْأَدَبِ الْمَقَارَنِ وَمَقَالَاتُ أُخَرَى

الألف كتاب الثاني

نافذة على الثقافة العالمية

الإشراف العام
١١٠٠٠٠ / سميح سرخان
مجلس الإدارة

بسم التحرير
حمد صليحة

سليمة التحرير
عبد العزیز

الإخراج الفني والفلاحي
طيار محرم

في الأدب المقارن

ومقالات أخرى

تأليف
فخري أبو السعود

إعداد
جهان عرفة

تقديم
د محمود علي مكي

الهيئة العامة للكتاب رقم الكتاب ٨٥٩	رقم الترخيص ٢٢٦٤٥
--	----------------------



الهيئة العامة للكتاب

١٩٩٧

ليتني شتى شخوص اغتدي
سالكا في العيش أشتات الجهات
لى هنا هم ونصبى ها هنا
غرض اسمى له فى غدواتي
اجتبي فنيا وفنا ذانتنا
من فنون العيش شتى المتمات
عالما طورا وطورا كاتبنا
وصناع الكف موفور الأداء
عائشا فى كل قوم رائدا
كل جذب قارعا كل صفاة
نائلا من كل أمر ليه
حائزا شتى السجايا والصفات

فخرى أبو السموود

العدد (٨٣)

مجلة الثقافة ١٩٤٠

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٩	مدخل
١١	تقديم
٢٧	أولا : مقالات فى الأدب المقارن
٢٩	على ذكر رواية خسرو شيرين
٣٣	التصوير فى الشعر العربى
٣٧	الأثر اليونانى فى الأدب العربى
٤١	القصة فى الأدب العربى
	ظواهر متماثلة
٤٤	فى تاريخى الأدبين العربى والانجليزى
	النزعة العلمية
٤٨	فى الأدبين العربى والانجليزى
	الأثر الأجنبى
٥٣	فى الأدبين العربى والانجليزى
	طور الثقافة
٥٧	فى الأدبين العربى والانجليزى
	الفكاهة
٦١	فى الأدبين العربى والانجليزى
	اسباب التباهة والخمول
٦٧	فى الأدبين العربى والانجليزى
	الطبيعة
٧٢	فى الأدبين العربى والانجليزى
	أثر الدين فى الأديين
٧٩	العربى والانجليزى

الموضوع	الصفحة
الخرافة	
فى الأدبين العربى والانجليزى	٨٤
أثر الفنون	
فى الأدبين العربى والانجليزى	٩١
شخصيات الأدباء	
فى الأدبين العربى والانجليزى	٩٨
أثر البيئة	
فى الأدبين العربى والانجليزى	١٠٤
المثقف	
فى الأدبين العربى والانجليزى	١١٢
أثر نظام الحكم	
فى الأدبين العربى والانجليزى	١١٩
غرض الأدب	
فى الأدبين العربى والانجليزى	١٢٧
أثر الترف	
فى الأدبين العربى والانجليزى	١٣٤
أشكال الأدب	
فى الأدبين العربى والانجليزى	١٤١
الأدب العامى	
فى الأدبين العربى والانجليزى	١٤٨
الإنسان	
فى الأدبين العربى والانجليزى	١٥٥
التفاؤل والتشاؤم	
فى الأدبين العربى والانجليزى	١٦٤
البطولة	
فى الأدبين العربى والانجليزى	١٧٢
موضوعات الأدب	
فى الأدبين العربى والانجليزى	١٨٠

الموضوع	الصفحة
الرومانسية والكلاسيكية	
فى الأدبين العربى والانجليزى	١٨٩
الحرب	
فى الأدبين العربى والانجليزى	١٩٦
الطيران والحيوان	
فى الأدبين العربى والانجليزى	٢٠٤
الذاتى والموضوعى	
فى الأدبين العربى والانجليزى	٢١٢
الشعر والفنر	
فى الأدبين العربى والانجليزى	٢٢٠
الطور الفنى	
فى الأدبين العربى والانجليزى	٢٢٨
القصص	
فى الأدبين العربى والانجليزى	٢٣٥
أثر المجتمع	
فى الأدبين العربى والانجليزى	٢٤٤
الوصف	
فى الأدبين العربى والانجليزى	٢٥١
الخيال	
فى الأدبين العربى والانجليزى	٢٥٩
المساريح	
فى الأدبين العربى والانجليزى	٢٦٦
بينات الأدباء	
فى الأدبين العربى والانجليزى	٢٧٢
المعنى والأسلوب	
فى الأدبين العربى والانجليزى	٢٧٩
أثر الأخلاق	
فى الأدبين العربى والانجليزى	٢٨٧

الصفحة	الموضوع
	الحكمة
٢٩٥	فى الأديبين العربى والانجليزى
	التشابه والاختلاف
٣٠٣	فى الأديبين العربى والانجليزى
٣٠٩	ثانيا مقالات أخرى
	تشيسقرون
٣١١	زعيم الرجعية فى عصر التطور
٣١٨	الفن يعيد نفسه
٣٢٤	السياسة فى الأدب العربى
٣٣٣	فن الحياة
٣٤٠	الأجناس والقوميات
٣٤٩	علم السياسة عند العرب
٣٥٧	قصة المرأة فى المجتمع
٣٦٥	الجنة يحاكمون الأبرياء
٣٧٨	تطور فكرة السلام العالمى
٣٨٥	روسو ولتحد الدول الأوربية
٣٨٨	المثل الأعلى للدولة الحديثة
٣٩٦	الديمقراطية ضمان الرقى الانسانى
٤٠٣	ثالثا : مقالات عن فخرى أبو السعود
	أديب مات
٤٠٥	بقلم الأستاذ زكى نجيب محفوظ
	فخرى أبو السعود
٤١٠	للأستاذ أحمد فتحى مرسى
	شعر التصوير والعاطفة
٤١٥	بقلم الأستاذ محمد عبد الغنى حسن
٤٢١	ملحق بأسماء وتوازيخ وأماكن نشر المقالات

مدخل

هناك الكثير من الشخصيات انبثت الحياة الفكرية والأدبية في النصف الأول من القرن العشرين ، وكانت لها إسهامات كبيرة في تشكيل عقل ووجدان القارئ المصري ، ومع ذلك لم تحظ بشهرة واسعة في حياتها ، وسرعان ما طواها النسيان بعد موتها . ومن بين هؤلاء كان الشاعر والناقد « فخرى أبو السعود » . والحق أن أول من جذب اهتمامي كان مقالا للكاتب الكبير رجاء النقاش في أهرام ١٩٩٥/١٠/٢ بعنوان « شاعر ينتحز » ، وفيه طالب رجاء النقاش بجمع مقالات فخرى أبو السعود في الأدب المقارن والتي نشرها في مجلة الرسالة منذ عام ١٩٣٤ وحتى عام ١٩٣٧ . ولقد تحمست كثيرا لهذه الفكرة ولم أكتف بالبحث عن تلك المقالات بل رحلت أقلب في كثير من المجلات الثقافية التي كانت تصدر في تلك الفترة مثل الهلال وأبوللو والثقافة والمقتطف وذلك للتعرف على صدى تلك المقالات لدى أدباء جيله ، ولكن لم أعثر على مقالة واحدة أو حتى رأى في بريد القراء يشترك مع مقالاته مع أن تلك الفترة كانت تموج بمعارك أدبية حقيقية حينما ومختلقة أحيانا ، ولكن الصمت التام كان نصيب تلك المقالات . وتساءلت هل يرجع ذلك لشخصية فخرى أبو السعود حيث كان حاد الطبع لا يطبق النقد كما وصفه صديقه الأستاذ أحمد فتحي مرسى في مقالة عنوانها « فخرى أبو السعود » نشرها في مجلة الرسالة بعد وفاته بأسابيع قليلة . أم لأنه كان يطرق مجالا جديدا في الأدب العربي عرف بعد ذلك باسم الأدب المقارن ويرجع له إشاعة مصطلح « الأدب المقارن » في المقارنة بين أدبين بمقالاته التي تزيد عن الأربعين مقالة والتي طرحت العديد من الإشكاليات في تفسير الأدب العربي عند مقارنته بالأدب الانجليزي مما ينم عن معرفة واسعة لمبدع ومفكر كبير ، وقد ساعد على أن تمتد مساحات الصمت بعد وفاته ، أن مدرسة دار العلوم حينما قررت تدريس هذا الفرع من الأدب أرسلت البعثات إلى فرنسا وبذلك طغى المنهج الفرنسي في الأدب المقارن ، وهو منهج يقوم على مبدأ التأثير والتأثر الذي يفترض الاتصال التاريخي بين الأدبين ، وليس على مقارنة الجماليات ،

كما كان يقارن « فخرى أبو السعود » ، وبذلك أغلق الباب تماما على مقالاته .

وقد قررت مدرسة دار العلوم تدريس مادة « الأدب المقارن » في عام ١٩٣٨ أى بعد أن أتم فخرى أبو السعود مقالاته في مجلة الرسالة بعام واحد وأظن أن تلك المقالات كانت الباعث والدافع لأن يصبح « الأدب المقارن » قسما ضمن أقسام مدرسة دار العلوم والذي كان يرأسه « مهدي علام » آنذاك والغريب أن فخرى أبو السعود لم ينتدب بالتدريس في هذا القسم ودرس به أحمد خاكي الذي تبع فخرى أبو السعود في استخدامه لمصطلح « الأدب المقارن » في مقالات نشرها في مجلة الثقافة في نفس الفترة . وربما يكون في نشر هذه المقالات اليوم مما يثير حولها المناقشات والآراء التي حرمت منها آنذاك وخاصة أن كثيرا من قضاياها لا يزال حيا وفعالا حتى يومنا هذا .

وقد رأيت أن أخصص قسما من الكتاب للمقالات التي كتبها فخرى أبو السعود في قضايا مختلفة والتي نشرها في مجلتي الثقافة والهلل منذ عام ١٩٣٩ وحتى ١٩٤٠ بحيث يكون هذا الكتاب جامعا لكل الآثار الأدبية المتبقية من فخرى أبو السعود ، عدا أشعاره التي أشار رجاء النقاش إليها وأنها قد جمعت في كتاب نشره د . علي شلش رحمه الله . كما أضفت تلك المقالات القليلة التي كتبها أصدقائه بعد حادثة انتحاره ، وهي الضوء الوحيد الخافت الذي يكشف لنا جانبا من حياة هذا الأديب الكبير وشخصيته التي لا تزال جوانب كثيرة منها غامضة . وقد أضفت بيانا كاملا بكل تلك المقالات وتوارىخها وأماكن نشرها في المجلات المختلفة حتى يعود إليها القارئ المهتم .

وقد راعيت في إعداد هذه المقالات أن أضيف في هوامشها معاني الكلمات التي يحتاج إليها القارئ غير المتخصص وطالب الجامعة ليتواصل معها . وفي النهاية ، أشكر الأستاذ د . محمود علي مكى على قبوله متحمسا تقديم هذه المقالات .

جيهان عرفة

تقديم

كانت حياته كالشهاب الخاطف ، لم يكد يومض حتى انطفأ ولفه الظلام . . . ولم تكد مخايل نبوغه تلمع مبشرة بطلوع نجم فى فلك الأدب والنقد حتى اختضر الموت عوده وهو فى نضارة الشباب . . . وكان الرزء فيه كبيرا لو أنه قضى نحبه مثل سائر البشر لأجل مكتوب لا مرد له ولا مفر منه . . . ولكن الفاجعة فيه كانت أكبر وأوقع ، حينما اختار الموت بمحض ارادته ، فأنتهى حياته بيده .

كان هذا هو المصير المأساوى الذى اختطه لنفسه فخرى. أبو السعود وهو يستقبل أولى سننى العقد الرابع من عمره . . . فاذا أردنا أن نترجم له لم نجد الا بضعة سطور لا تتسع لأكثر منها حياته التى اختصرها بنفسه فلم يجاوز بها الثلاثين من عمره الا بعام واحد .

كان شاعرنا الجاهلى زهير بن أبى سلمى يقول وهو يتحدث عن ملله طول العمر :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثمانين عاما لا أبالك يسأم

ويقال ان فخرى أبو السعود كتب وهو يستدعى ملك الموت طائعا مختسرا :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثلاثين عاما لا أبالك يسأم

(١)

ولد فخرى أبو السعود فى بنها سنة ١٩٠٩ وتخرج فى مدرسة المعلمين بالقاهرة سنة ١٩٣١ ، وكان تفوقه فى دراسته هو الذى حمل وزارة التعليم على ايفاده فى بعثة الى انجلترا ، ف قضى هناك سنتين (١٩٣٣ و ١٩٣٤) عاد بعدهما الى أرض الوطن ومعه زوجة بريطانية ،

واشتغل بالتدريس في المعاهد الثانوية ، وأنجبت له زوجته ولدا ، فعاش سعيدا في الاسكندرية مع هذه الأسرة الصغيرة التي ملأت عليه حياته . ومضت سنوات نعم فيها بهذه الحياة الهادئة المستقرة الى أن نشبت الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩ فسافرت زوجته ومعها ولدها لزيارة أهلها . وحالت الحرب دون عودتهما ، ثم علم ب وفاة ابنه غريقا ، وانقطعت عنه أخبار الزوجة ، فإذا بالحياة تظلم في عينيه ، ويستبد به اليأس ، وتضطرب أعصابه ، فيقدم على الانتحار مطلقا النار على رأسه من مسدسه في حديقة داره . . . كان ذلك في صبيحة يوم خريفى فى الحادى والعشرين من أكتوبر سنة ١٩٤٠ .

وهكذا مضت حياة هذا الأديب فى غضاضة الشباب على حين كانت الأوساط الأدبية تتوسم فيه مستقبلا واعدة بجلائل الأعمال ، وكان خليل مطران كان يومئذ اليه وهو يرثى أديبا مثله ساقه اليأس الى الانتحار :

فى ذمة الله وفى عهد	شبابه الناضر فى لحد
لهفى عليه يوم جاش الأسى	به وفاض الحزن عن حد
واكتسح الآمال منتورة	كالورق الساقط عن ورد
بأغته اليأس وأى امرئ	يقدر فى حال على رده
واها لمبكى على فضله	مفتقد الآداب فى فقده
مات مرجى فى اقتبال الصبا	يا خيبة الدنيا ولم تفده

ومع قصر هذه الحياة التى عاشها فخرى أبو السعود فقد استنطاق أن يقدم خلال سنواتها القليلة انتاجا فكريا وفنيا يروع بغزارته وجودته ، فقد كان شاعرا مرهف الحساسية ، غير أن الشعر لم يصره عن البحث العلمى الذى جمع فيه بين الاستيعاب العميق للتراث الأدبى العربى والاطلاع الواسع على الآداب الأجنبية ولا سيما الأدب الانجليزى ، وهو ما تكشف عنه سلسلة المقالات التى نقدم لها بهذه السطور ، وترجماته التى نذكر منها نقله لرواية « تس سليلة دوبرفيل ، Tess of the D'Urbervilles » وهى تعد أحسن ما كتبه الروائى الانجليزى توماس هاردى Thomas Hardy (١٨٤٠ - ١٩٢٨) ، وفيها يقص علينا حكاية تلك الفتاة الطيبة الشجاعة التى تنتهى بها المواضع الاجتماعية وقواعد السلوك الصارمة بطغيانها الغاشم الى الموت . وله بجانب ذلك كتاب ألفه عن « الثورة العربية » ونشر سنة ١٩٣٤ ، وثلاثة كتب أخرى لا تزال

مخطوطة أحدها عن الخلافة السياسية والثاني عن الشاعر محمود سامي البارودي ، والثالثة في التربية والتعليم .

- ٢ -

حينما نتأمل مسيرة ثقافتنا المصرية وعلاقتها بالثقافة الغربية خلال العصر المعروف باسم « الاحياء » أى أواخر القرن الماضى وأوائل القرن العشرين فإننا نلاحظ أن توجه المثقفين المصريين كان فى البداية الى فرنسا . وكان ذلك أمرا طبيعيا فقد كانت فرنسا منذ القرن الثامن عشر هى مركز الإشعاع فى القارة الأوروبية . وأضيف الى ذلك عامل سياسى كان له تأثيره الفعال ، فقد كان التنافس على أشده بين فرنسا وبريطانيا العظمى وهما القوتان الأوربيتان الكبريان اللتان كانتا تتنازعان السيطرة على العالم . ومنذ أن ابتليت مصر بالاحتلال البريطانى سنة ١٨٨٢ وبدأ الشعب المصرى كفاحه فى سبيل الاستقلال - اتخذت فرنسا موقفا مؤيدا لهذا الكفاح متعاطفا مع زعمائه . ولم يكن هذا الموقف راجعا الى حرص أيديولوجى على مبادئ حقوق الشعوب فى الحرية والاستقلال ، اذ كانت أطماع فرنسا الاستعمارية لا تقل ضراوة عن أطماع انجلترا ، وانما كان موقفا أملا ذلك التنافس على حكم البلاد المستضعفة . ومع ذلك فلم يكن أمام زعماء الحركة الوطنية خيار ، فإيناهم يطمعون فى أن تعينهم فرنسا فى كفاحهم ، وهكذا ظلوا يتوافدون على فرنسا متخذين منها منطلقا لدعوتهم ومركزا لمنشوراتهم . كان هذا هو ما قام به جمال الدين الأفغانى وتلميذه محمد عبده ومصطفى كامل ومحمد فريد .

ولم يختلف موقف الأدباء عن موقف زعماء السياسة ، فقد كانت فرنسا هى محط أنظارهم يقدون عليها فيتعلمون لغتها ويعملون على استيعاب أدبها . فهذا هو شوقي يقضى مدة بعثته فى فرنسا بإشارة من مؤفده الخديو محمد توفيق الذى يوصيه « بأن يقتبس من الآداب الفرنسية قسما تستضىء به الآداب العربية » ، ويعود شوقي الى مصر فيصرح بشغفه بثلاثة من شعراء الرومانسية الفرنسية كاد « يفنى فيهم » ، وهم : ألفريد دى موسيه (ت ١٨٥٧) ولامارتين (١٨٦٩) وفيكتور هوجو (١٨٨٥) . وحافظ إبراهيم على الرغم من قلة حظ من الثقافة الفرنسية يترجم - بقدر ما وسعت له معرفته - رواية « البؤساء » لفكتور هوجو ، وخليل مطران ثالث شعراء الاحياء يتقن الفرنسية فى لبنان ، ويدرس الآداب الفرنسية فى باريس قبل أن يعود الى مصر ، فيترجم عددا من روايات شيكسبير ، ولكن لا عن الانجليزية وانما عن ترجمة وسيطة

فرنسية • واسماعيل صبرى يستكمل دراسته للحقوق في فرنسا • والذى نقوله عن الشعراء ينسحب أيضا على الناشرين فمحمد المويلحي يلحق بجمال الدين الأفغانى فى باريس ، وهناك يتقن الفرنسية ويصادق بعض الأدباء الفرنسيين مثل أليكساندر ديماس (الابن) (ت ١٨٩٥) • ومصطفى لطفى المنفلوطى يعرب عن الفرنسية على الرغم من معرفته المحدودة بها روايات لبرناردان دى سان بيير (ت ١٨١٤) وأليكساندر ديماس (١٨٩٥) وادمون روستان (١٩١٨) •

على أن الأمر يختلف بعد ذلك منذ أوائل القرن العشرين ، فقد ظلت انجلترا حتى ذلك الوقت، وعلى الرغم من احتلالها لمصر على مدى السنوات العشرين الماضية ، لا تتدخل بشكل مباشر فى نظام التعليم المصرى ، على أنها بعد ذلك غيرت سياستها فشرعت فى فرض اللغة الانجليزية على المدارس المصرية وشيئا فشيئا أصبحت مواد الدراسة أو معظمها تدرس بهذه اللغة على حين تضائل دور اللغة العربية وانكمش الى حد بعيد • وكان سياسة الاستعمار البريطانى قد فطنوا الى أن اللغة العربية هى قوام الوطنية المصرية ، فحاولوا اضعافها بشتى الوسائل : بدءوا بالدعوة الى احوال العامية المصرية محلها فى أواخر القرن الماضى • وكان المبشرون بهذه الدعوة ويلهم سبيتا والمهندس ويلكوكس وكارل فولرز • ولم تجد الدعوة الى العامية قبولا ، فاستبدل الاستعمار بها دعوة أكثر مباشرة وأشد صرامة وعنفا ، وهى جعل الانجليزية لغة التعليم • ولعل كثيرا من المصريين الذين لا يشك فى وطنيتهم لم يروا بأسا فى ذلك ، عملا بالمقولة المأثورة : « تعلموا لغة قوم تأمنوا مكرهم » واعتقادا بأن تعلم لغة المستعمرين وتعرفا لثقافتهم وأوضاعهم يجعلهم أقدر على محاربتهم بمثل سلاحهم •

وكان للعامل السياسى أيضا دوره فى ذلك التحول الى الثقافة الانجليزية ، فقد خاب أمل الوطنيين المصريين فى فرنسا ، وفقدوا ثقتهم فيما كانوا يعلقون عليه الآمال فى تأييدهم لقضيتهم منذ أن عقدت مع بريطانيا « الاتفاق الودى » (سنة ١٩٠٤) الذى أنهى التنافس بين الدولتين بعد أن اتفقتا على تقسيم العالم العربى بينهما ، فانفردت كل منهما بمجموعة من الأقطار تصبح منطقة نفوذ لها •

وهكذا رأينا الجيل الذى تلا الرعيل الأول من رواد النهضة يقبل على الثقافة الانجليزية ، وتتحول البعثات الى انجلترا وان لم يكن ذلك انقطاعا لتأثير الثقافة الفرنسية التى ظل لها حضور مائل فى تكوين شباب المثقفين ، الا أنه تقلص بعض الشيء بحكم مزاحمة الثقافة الانجليزية •

ولحسن الحظ لم تغلج سياسة الانجليز التعليمية في اقصاء اللغة العربية عن وجدان المصريين ، فقد كان الربع الأول من القرن العشرين هو الذى تصاعد فيه مد الحركة الوطنية المتمسكة بلغتها وثقافتها ، كما رافق ذلك حركة واسعة لنشر التراث العربى والعناية به .

ومن هنا برز جيل جديد استطاع أن يحذق الانجليزية ويحسن الاطلاع على ثقافتها وأدبها ، ولكن بغير أن يدير ظهره لثقافته العربية الأصيلة ، بل جمع بين الثقافتين على نحو جدير بالاعجاب ، وكان تعمق هذا الجيل لآداب الانجليز خيرا وبركة على أدبنا العربى ، اذ غذاه بروافد اثرته ووسعت من آفاقه ، وأفسحت الفرصة له لكى يستفيد مما احتوته هذه الثقافة من تجارب فكرية ونقدية . وكان أبرز أعلام هذا الجيل الجديد هم : عباس العقاد وإبراهيم المازنى وعبد الرحمن شكرى ، وهم الذين نألفت منهم الجماعة المعروفة باسم « مدرسة الديوان » . أما العقاد فقد كان رجلا عصاميا استطاع أن يستوعب الثقافة الانجليزية معلما نفسه بنفسه ، وأما أصحابه فقد تخرج كلاهما من مدرسة المعلمين العليا سنة ١٩٠٩ ، واشتغل كلاهما بالتدريس فى المعاهد الثانوية ، وكان شكرى قد أوفد فى بعثة الى انجلترا ، فازدادت صلته بالأدب الانجليزى ، ولم يقيض ذلك للمازنى وان لم يقل عن صاحبه اطلاعا على هذا الأدب وتمكنا منه . والطريف أن هؤلاء الثلاثة كانوا من أكثر أدباء عصرهم اقبالا على تراث الأدب العربى وأعمقهم دراسة له ، حتى انهم أصبحوا أول رواد لتجديد الشعر العربى بعد جيل الاحياءيين ، وكانوا يجمعون بين الابداع فى مجال الشعر والنثر والنهوض بأقوى حركة نقدية فى مطلع هذا القرن ، ولعلمهم خبر نموذج يبرز فضل الجمع بين الثقافة العربية والثقافة الأجنبية ، ويبين أن التعمق فى آداب الغير لا يعنى التكرار للتراث ولا القطيعة مع أدب الأسلاف .

وقد أشرنا الى أن اثنين من هؤلاء الرواد تخرجوا فى مدرسة المعلمين العليا ، وقد كانت من المعاهد التى قصد بها المهيمنون الانجليز على سياسة التعليم المصرى أن ينسلخ المتخرجون فيها عن ثقافتهم العربية ، فقد كانت المواد فيها تدرس بالانجليزية ، وكانت تعنى عناية خاصة بتدريس الأدب الانجليزى وتقدم لطلابها خيرا نماذج هذا الأدب ، غير أن المفارقة الطريفة كانت فى أن كثيرا من خريجي هذا المعهد ممن قدر لهم أن يضطلعوا بالتعليم فى المدارس الثانوية ، أصبحوا من أقوم الناس على ثقافتهم العربية وأحرصهم على النهوض بها ، والعمل على تجديدها بفضل ما استفادوه من تجارب فكرية ونقدية وفنية زودهم بها اطلاعهم على الأدب الانجليزى وغيره من آداب الغرب .

- ٣ -

الى الجيل التالى من هذه المدرسة ينتمى فخرى أبو السعود ، فقد ولد كما رأينا فى ذات السنة التى تخرج فيها فى مدرسة المعلمين العليا ابراهيم المازنى وعبد الرحمن شكرى (١٩٠٩) ، وكان تخرجه فى هذه المدرسة فى سنة ١٩٣١ وانخرط مثلها فى سلك التعليم بالمدارس الثانوية ، وأوفد فى بعثة الى إنجلترا حيث قضى نحو ثلاث سنوات استطاع خلالها أن يستوعب تاريخ الأمة الانجليزية وتاريخ أدبها ومذاهبها الأدبية والنقدية على نحو جدير بالاعجاب .

وشرع فخرى أبو السعود منذ عودته الى أرض الوطن فى مباشرة نشاطه فى الكتابة ، وكان من أول ذلك مقالاته التى نشرها فى مجلة « الرسالة » منذ يناير ١٩٣٤ حتى يونيه ١٩٣٧ .

وأول ما نلاحظه على هذه المجموعة من المقالات هو أنه يمكن تصنيفها فى قسمين رئيسيين : القسم الأول يضم المقالات الست الأولى التى نشرت خلال السنتين ١٩٣٤ و ١٩٣٥ . وفيها يعرض فخرى أبو السعود عددا من الملاحظات العامة حول الأدب العربى تاريخه وقيمه الفنية ، وآزائه فيها مجملة ليس فيها تفصيل المقالات التالية ، ولكننا نحس منذ المقالة الأولى وهى عن « الأدب العربى والأدب الغربى » أن الهدف من عمله هو المقارنة بين الأدبين ، مصدرا منذ البداية حكما قاسيا على الأدب العربى ، اد يصفه بأنه مقصر دون الأدب الغربى فى كثير من النواحي ، فقد سار دائما على نمط يكاد يكون واحدا ، ثم « كبا بعد العصر العباسى كبوة لم يقل منها الى اليوم ، وكان من عهدها الى العصر الحديث فى حكم العدم اذا قيس بأداب الأمم الرفيعة » .

وقد كانت هذه المقالة الأولى بمناسبة رواية خسرو وشيرين التى كان قد نشرها على صفحات « الرسالة » الأديب محمد فريد أبو حديد ، وقد كان هذا العمل وما أتبعه به أبو حديد من قصص من أمثال « الملك الضليل » و « سهراب ورستم » وغيرها جديرا بأن يثير اهتمام الأدباء والنقاد ، فهو يعد من أول من استخدم فى هذه القصص شعر التفعيلة غير الملتزم بالقافية ، وهو يعد بذلك من رواد هذا الشعر الجديد الذى شاع بعد ذلك استخدامه منذ منتصف هذا القرن ، والذى يعد أكبر ثورة فى تاريخ الشعر العربى بعد ابتكار الأندلسيين للموشحة فى أواخر القرن التاسع الميلادى . ومع ذلك ، فمن الغريب أن ما قام به أبو حديد (١٨٩٣ - ١٩٦٧) من النظم على هذه الطريقة الجديدة لم يفجر - كما كان يتوقع - حركة

نندية قوية . ولعل فخرى أبو السعود كان من القليلين الذين لفت نظرهم هذا الصوت الجديد المؤذن بثورة شعرية حقيقية . فاستحقت هذه المحاولة التي أطلق عليها اسم « الشعر المرسل » ثناء عريضا ، ومما يستحق التنويه في تعليق أبو السعود على هذا الابتكار أنه تنبأ في ذلك التاريخ المبكر بشيئين : الأول - ما سيقدر لذلك الشعر المرسل من « مستقبل باهر في العربية إذا عالجتة الأيدى القديرة » والثاني - ما حذر منه من أنه « يجب أن ينصدي لتجديد الشعر العربي كبار الشعراء الذين عالجوا القريض سنيين طوالا ومارسوا اللغة واستوعبوا ثروتها . . . أما أن يتصدى لذلك الناشئون المتحمسون للتجديد على غير بصيرة فلن يأتوا إلا بكل غث لا يؤدي أغراض الشعر العربي ولا يبقى على جمال هذا الشعر » . وكان فخرى أبو السعود كان ينظر من حجاب الغيب الى مستقبل شعر التفعيلة ، فقد استطاع أن يؤتى ثمراته الطيبة على أيدي كبار الشعراء المقتدرين من أمثال صلاح عبد الصبور ونازك الملائكة وبدر شاكر السياب ونزار قباني وأحمد عبد المعطي حجازي وعبد الوهاب البياتي وقلة غيرهم ، ثم أتت بعد ذلك أجيال من المتسورين على الأدب أورثهم الجهل والافتقار الى الوهبة جراءة ضارية ، فولفوا في شعر التفعيلة ، آتين فيه بكل غث من القول ليس بينه وبين الشعر أدنى سبب ، وكان هذا هو ما حذر منه أبو السعود قبل أن يحدث بسنوات طوال .

ويتناول كاتبنا في المقالات الثلاث التالية جوانب من الأدب العربي : التصوير في الشعر ، والأثر اليوناني في الأدب ، والقصة ، ويصدر أحكاما على الأدب العربي فيها كثير من القسوة ، فهو يتهم الشعر العربي بالتقصير في التصوير وان كان يستثنى بعض النماذج مثل بعض أوصاف امرئ القيس والمنبى ، وينعى على الأدب العربي قلة ما استفاده من الاحتكاك بالأدب اليوناني ، الأمر الذي جعله يخلو من الأنواع الأدبية كالملحمة والفن المسرحي والأدب القصصي ، وكلامه عن السلبيات يتسم بالتعميم . فمقالاته هذه لا تبدو دراسات متعمقة . وإنما هي خواطر أرسلها رسالا ، وكأنه كان بعد العدة في هذه الأثناء أجمع مادة نقدية وفيرة هي التي كان يستعد لنار حيا بعد ذلك في دراسات أكثر تفصيلا .

وفي المقالتين الباقيتين من هذا القسم ، وهما كل ما نشره خلال سنة ١٩٣٥ ، يبدأ فخرى أبو السعود في عقد مقارنة شاملة بين الأدبين العربي والانجليزى بسفة خاصة . فيخصص المقالة الأولى لعدد من الظواهر الأدبية في الأدبين وقد حددها فيما يلي :

- العصر الجاهلي شبيه بعصر ما قبل اليزابث (من القرن العاشر حتى السادس عشر) وفيهما كان الأدبان جافيين ساذجى المعانى بعيدين عن الصنعة الفنية .
- نهضة العرب بظهور الاسلام تشبه نهضة انجلترا فى عصر اليزابث. حينما خرج الشعبان من عزلتهما وكونا امبراطوريتين عظيمتين. فارتقى أدبهما ارتقاء عظيما .
- انتشار اللغة العربية بحكم هذا الاتساع الكبير يشبه انتشار اللغة الانجليزية حتى أصبحت كلتاها لغة عالمية للثقافة .
- انسلخ من كل من الأمتين شعب مستقل سياسيا لا ثقافيا : الأندلس عن الخلافة العباسية والولايات المتحدة عن انجلترا ، ولكن الزعامة الأدبية بقيت للأمة الأصلية .
- تأثر الأديان بالدين : فالقرآن الكريم أثرى اللغة العربية وأدبها ، وترجمة الأناجيل أثبتت مفردات الانجليزية وأدخلت اليها ثروة لغوية جديدة .
- على أنه يسجل بعد ذلك أن أوجه التباين بين الأدبين أكثر بكثير من وجوه التماثل .

وفى المقالة التالية من هذا القسم يعرض المؤلف مدى وجود النزعة العملية فى الأدبين ، وهو يعنى بهذه النزعة اتصالهما بالحياة اليومية الاجتماعية والسياسية فيلاحظ أن هذا الاتصال يسود الأدب الانجليزى على حين يكاد ينعدم فى الأدب العربى الذى كان فنا يكاد يكون منقطعا عن الحياة وذلك لأن المشتغلين به كانوا خدما للأمراء وأصحاب السطان ، الأمر الذى أدى الى غلبة المديح على الشعر فى ظل ملكيات استبدادية لا مجال فيها لحرية الأديب أو المفكر ، وعلى عكس ذلك كانت الحياة الديمقراطية فى انجلترا هى العامل الأول فى اتسام الأدب بالنزعة العملية ، وكان العامل الثانى هو الطباعة التى جعلت الأدباء دائما على اتصال قوى بالمجتمع .

- ٤ -

والقسم الثانى هو الذى يضم مقالات فخرى أبو السعود الست. والثلاثين التى نشرتها «الرسالة» فيما بين سبتمبر ١٩٣٦ ويونية ١٩٣٧ . ومن الواضح أنه استعد لكتابة هذه المجموعة خلال السنتين السابقتين. بقراءات أكثر استفاضة ومحاولات للتحليل أعمق غورا ، وإن كانت نظرته لا تختلف فى جوهرها عما أجمله فى المقالات السابقة .

وفي هذه المقالات عرض المؤلف لكثير من الموضوعات أبرز فيها وجوه الاختلاف بين الأدبين. وهو في كل هذه الموازنات يلج دائما على ما في أدبنا. من سلبيات ووجوه نقص ، فالأدب الانجليزي هو الذي ترجح كفته دائما. على حين تشيل كفة أدبنا العربي ، حتى انه يبلغ في ذلك مبلغا لا يصل اليه بعض غلاة المستشرقين ممن كانوا ينعون على أدبنا ما ينسبونه اليه من فقر في الفكر وضيق في الخيال واهتمام بهرج الالفاظ نات بهم عن العناية بالمعاني والأخيلة . ولسنا في حاجة الى التمثل بشواهد على هذه الحملة التي شنّها على كثير من خصائص الشعر العربي التي كان يراها دون ما احتوت عليه أشعار الغربيين سواء منهم القدماء (الاغريق والرومان) أو المحدثون والانجليز على وجه الخصوص . وهو يرد هذا القصور في الأدب العربي الى أسباب عديدة منها اختلاف الأصول العرقية . ففي المقالة الحادية والأربعين عن التشابه والاختلاف بين الأدبين يشير الى كون العرب أمة سامية ترعرع أدبها تحت سماء الصحراء ، والانجليز أمة آرية شاركت في تراث الاغريق والرومان . وهي مقولة طالما ردها المستشرقون الغربيون من منطلق أيديولوجية عنصرية استعمارية . وفي المقالة السابعة والثلاثين وهي حول الوراثة وأثرها في إنتاج الأديب يقول : « للوراثة أثرها الواضح في أدب ابن الرومي الذي جاء لانتماؤه الى الروم ، مخالفا أدب غيره من فحول العربية في النظرة الى الحياة والطبيعة وفي استقصاء المعاني وتوليدها » . فهو يرد تميز ابن الرومي في تصوير الطبيعة والتعبير عن متع الحياة الى أصله الاغريقي .

وبعد ، فهل لنا أن نتهم فخري أبو السعود صاحب هذه الأحكام القاسية على الأدب العربي وما تطرق اليه من ادانة للنظام السياسي والاجتماعي للدولة العربية بعد صدر الاسلام بالتبعية للمستشرقين في مطالعتهم على الأدب العربي الذي كان مرآة لحياة الأمة الاجتماعية والسياسية ؟

ان الانصاف يقتضي منا ألا نتسرع بالحكم ، اذ علينا أن نقوم آراء هذا الكاتب في سياق الظروف السياسية والفكرية التي كانت تسود الجشع المصري في الوقت الذي كتب فيه أبو السعود تلك المقالات . أما من الناحية السياسية فقد كانت البلاد تمر خلال أوائل الثلاثينيات بأزمة طاحنة ، فقد أعقب إلغاء دستور سنة ١٩٢٣ أن تتابعت على الحكم وزارات من أحزاب الأقلية فرضت على البلاد من القيود على الحريات ما أدى الى غليان شعبي متزايد . وكانت البداية هي وزارة اسماعيل صدقي التي دمغها القضاء ووصمها بالطغيان والارهاب . وزاد الأحوال سوءا تعثر المفاوضات مع الحكومة البريطانية بسبب مماطلتها في تحقيق مطالب

الشعب بالاستقلال وجلاء قوات الاحتلال البريطانية . وكانت السلطة الاستعمارية لا تكف عن التدخل في شئون البلاد متواطئة في ذلك مع القصر الملكي الذي كان يسعى الى فرض حكمه المطلق . وأخيرا استطاعت حكومة الوفد أن تعقد مع انجلترا معاهدة ١٩٣٦ التي كانت على الرغم من ديوبها خطوة في طريق الاستقلال .

ومع هذا الصراع السياسى كان هناك صراع اجتماعى وفكرى بين التيار التقدمى الذى يسعى لتحرير الفكر وبين معاقل الرجعية والتخلف . لم يكن العهد بعيدا بمعركتى الفكر التنويرى اللتين نشبتا فى أواخر العقد السابق حول كتاب « الاسلام وأصول الحكم » لعلى عبد الرازق ، وكتاب « الشعر الجاهلى » لطله حسين ، واستمر هذا الصراع خلال السنوات الأولى من العقد الثالث . وكان من مظاهر سطوة الفكر الرجعى أن وزارة التعليم التى كانت تسمى « المعارف » قد أسندت ما بين سنتى ١٩٣٠ و ١٩٣٤ الى محمد حلمى عيسى أحد عتاة التزمى ، فكان مما قام به اغلاق معهد التمثيل ، ومعارضة تعليم المرأة وايقاف كل نشاط فنى بحجة الحفاظ على التقاليد .

إذا هذه الهجمة الرجعية كان على المفكرين المتحررين أن يشحذوا أسلحتهم وينعموا النظر لا فى حاضر أمتهم فحسب ، بل فى ماضيها أيضا لتعرف جذور التخلف الذى كنا نعانى منه فى كل مجالات الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية . ومن هنا ظهرت حركة هى ضرب من « النقد الذاتى » الذى يرى أن أول خطى الإصلاح هو تشخيص ظواهر المرض وتحليل أسباب التخلف مهما كان ذلك مؤلما وموجعا . أما الطنطنة بأيجاد الماضى ورفع شعارات قومية غوغائية فانه لا يزيدنا الا ارتكاسا فى المحنة . واغماضا للعيون عما يجب علينا علاجه من الأدواء .

وتجلت مظاهر هذا التيار التنويرى فى عدد من الكتب والدراسات عمل فيها رواد التجديد الفكرى على طرح مشكلات الحاضر فى صراحة لا تعرف الهوادة ، وإعادة النظر فى ماضيها كله بروح نقدية صارمة ، وتناولت هذه المراجعات كل جوانب الحياة ، وأخذ المفكرون والأدباء فى فحص تراثنا القديم وتحليله مبينين ما يحتوى عليه من قيم ايجابية يجدر بنا أن نستبقها ، ومن نواقص سلبية يجب أن نميط عنها اللثام اذا أردنا أن نمضى فى طريق الإصلاح . ونذكر من هذه الكتب النقدية - على سبيل المثال « ثورة الأدب » لمحمد حسين هيكل ، و « مستقبل الثقافة فى مصر » الذى طرح فيه طه حسين مشروعا متكاملًا للنهضة الثقافية والتعليمية والتجديد الفكر والأدب حتى يمكن أن نلحق بالدول الراقية المتقدمة . وفى

كل هذه الدراسات نجد المحاحا على ابراز ما كان مجتمعا يعاني منه من تخلف وجمود .

من هنا ينبغي ألا نستغرب تلك الأحكام التي أصدرها فخرى أبو السعود على التراث الأدبي العربي والتي تبدو لقسوتها جارحة مستفزة، فهي لا تعدو أن تكون من نوع ذلك التقد الذاتى الذى جرى على أقلام شيوخه من رواد التنوير الذين كان هدفهم الاصلاح والتجديد . وإذا كان قد اتهم الأدب العربى بقلّة نصيبه من الخيال فانه لم يكن الناقد العربى الوحيد الذى قال بذلك ، بل شارك فى هذا الحكم نقادا ومبدعين تبوءوا مكانة رفيعة فى تاريخنا الأدبى الحديث ، مثل أحمد أمين الذى تابع فى كتابه « فجر الاسلام » المستشرق الانجليزى أولبرى على رأيه فى أن نصيب العرب من الخيال ضئيل ، وان كان قد خفف من مغالاة هذا المستشرق . ونادى بهذا رأى أيضا توفيق الحكيم الذى عزا الى ضيق الخيال العربى خلو أدبنا من الملحة والفن المسرحى . ولم تقتصر هذه المقولات على أدباء مصر ونقادهم ، بل رأينا شاعرا عربيا مبدعا هو أبو القاسم الشاذلى يفرد للخيال الشعرى عند العرب كتابا كاملا كان فيه أشد نكرا على تراثنا من أحمد أمين وتوفيق الحكيم ، اذ وصف الخيال العربى بالبساطة والسذاجة، وكان قد عقد مقارنة بين عدد من النصوص الشعرية العربية فى وصف الطبيعة ونصين من الأدب العربى : أحدهما للألماني جوته والآخر للفرنسى لامارتين وانتهى بعد المقارنة الى نتيجة هي أن « الخيال منشؤه الاحساس الملتهب والشعور العميق ، وشعراء العربية لم يشعروا بتيار الحياة المتدفق فى قلب الطبيعة ، الا احساسا بسيطا ساذجا خاليا من يقظة الحس ونشوة الخيال » . وهو حكم يشبه حكم فخرى أبو السعود حينما قارن بين نصيب الخيال من شعر سبنسر وتينيسون وكولردج من ناحية وشعر أبى العلاء المعرى ونثر مقامات بديع الزمان من ناحية أخرى - وهما أوسع أدباء العربية خيالا فى نظره - ، فانتهى الى أن الخيال عند أديبينا الكبيرين محدود ، فهو « شبيه بطيران الدجاجة الخفيف مقيسا بتحليق البازى الكاسر فى الأدب الانجليزى » .

ويرى فخرى أبو السعود فى المقالة الحادية عشرة التى يقارن فيها بين الأديبين فى وصف الطبيعة أن الشعر الانجليزى أغنى من الشعر العربى، اذ أن هذا الوصف يأتى غالبا عرضا فى ثنايا المديح ويمتلئ بالتشبيهات المكرورة الفاترة ، غير أنه يستثنى ابن الرومى من هذا الحكم ، فقلد حفل شعره بوصف الطبيعة لذاتها ، ويعلل لهذه الظاهرة فى المقالة السابعة والثلاثين وهى حول بيئات الأدباء فيقول : « للورثة أثرها الواضح فى أدب ابن الرومى الذى جاء ، لانتمائه الى الروم ، مخالفا أدب غيره من فحول

العربية فى النظرة الى الحياة والطبيعة وفى استقصاء المعانى وتوليدها .
وهو حكم يوافق ما قاله العقاد فى كتابه عن ابن الرومى حينما وصف
عبقريه ابن الرومى بأنها « عبقرية يونانية » وجعل من قرائن ذلك أنه
كان مخبأ للحياة فى خفة وطفولة وأريحية دائمة كالحب الذى عهدناه
فى جملة الفنون اليونانية » . على أن العقاد يخفف الوطء فلا يقطع بأنه
كان من سلالة اليونان « فذلك قول لا نجزم به ولا نجزم بنفيه » .

وهكذا نرى أن اصدار هذه الأحكام الصريحة على أدبنا العربى وقيمه
مهما كان فيها من خشونة موجعة كان من سمات النقد خلال هذه السنوات ،
ففخرى أبو السعود لم يكن بدعا فيما كتبه عن الأدب العربى خلال مقارنته
بالأدب الانجليزى .

- ٥ -

الأمر الآخر الذى يستوقف النظر فى مقالات فخرى أبو السعود هو
أنه اتخذ لها منذ المقالة السابعة عنوانا فرعيا يضم شتات كل المقالات
ويكون بمثابة عنوانها العام وهو « فى الأدب المقارن » . ويثير ذلك مسألة
بداية هذا الفرع من فروع الدرس الأدبى فى عالمنا العربى .

الذى يتفق عليه الدارسون على الأقل فى مصر - أن بداية البحث
الأدبى المقارن على أساس علمى منهجى كانت بكتاب الدكتور محمد غنيمى
هلال - رحمه الله - الصادر فى سنة ١٩٥٣ بعنوان « الأدب المقارن » .
وكان هلال قد عاد فى السنة السابقة من بعثته الى باريس وتولى منذ مطلع
عام ٥٣ تدريس الأدب المقارن فى كلية دار العلوم . وكانت هذه أول
خطوة فى سبيل استقلال هذا الفرع من فروع الدراسات الأدبية واسناد
تدريسه لمتخصص فى التعليم الجامعى بمصر ، صحيح أن بعض الأساتذة
الجامعيين قد سبقوا محمد هلال غنيمى الى تأليف كتب تحمل عنوان
« الأدب المقارن » وتعرضوا فى تدريسهم لبعض قضايا هذا العلم ، ومنهم
عبد الرازق حميدة والدكتور ابراهيم سلامة ، غير أن تلك المحاولات كانت
تقوم على اجتهادات فردية لا تستند الى أساس علمى منهجى ولا تقوم على
ادراك واضح لمفهوم الأدب المقارن ومناهج دراسته . وحول ذلك يقول
الدكتور على عشرين سنة على وفاة غنيمى هلال :

« من هنا نستطيع أن ندرك خطورة الدور الذى قام به الدكتور محمد
غنيمى هلال رائد الدراسات الأدبية المقارنة فى العالم العربى ، والريادة

إلا تعنى - من وجهة نظر هذا البحث - مجرد السبق الزمنى الى الاهتمام بهذه القضية أو تلك من قضايا العلم ، فذلك لا يعنى فى النهاية شيئا ما لم يقترب بوضع أسس علمية صارمة وبلورة مفهوم علمى محدد يلتف حوله التلاميذ والمريدون ، ووضع مناهج علمية دقيقة لمعالجة قضايا العلم وظواهره ، وهذا هو التحديد ما قام به الدكتور هلال سواء فى مجال تدريس الأدب المقارن فى جامعات مصر ومعاهدها ، أو فى مجال تأليف الكتب والأبحاث النظرية والتطبيقية التى تحدد مفهوم هذا العلم وتبلور ملامحه ومناهجه ومجالات البحث فيه على أساس علمى متين » .

وكان محمد غنيمى هلال خلال سنوات بعثته فى باريس قد تشرب المبادئ النظرية للمدرسة الفرنسية فى الأدب المقارن ، وكانت هى المهيمنة على هذا الميدان آنذاك . وظل هلال وفيما لمبادئ هذه المدرسة فى كل كتاباته ، وذلك بحكم تلمذته على فان تيجم ثم على فرانسوا جويار ، وهما صاحبا كتابين رئيسيين يحملان عنوان « الأدب المقارن » صدر أولهما فى سنة ١٩٤٦ وترجمه الى العربية سامى الدروبي ، وصدر الثانى فى سنة ١٩٥١ وترجمه الى العربية محمد غلاب . فالواقع أن كتاب غنيمى هلال لا يعدو أن يكون نقلا لمادة هذين الكتابين فى تنظيرهما للأدب المقارن وان كان هلال قد أثرى كتابه بكثير من الدراسات التطبيقية المقارنة بين الأدب العربى وغيره من الآداب .

ومن أول ما يلفت نظرنا فى تحديد مجال الدراسات الأدبية المقارنة حسب مفهوم المدرسة الفرنسية التى التزم هلال بمبادئها هو أن مصطلح « المقارن » يجب أن يؤخذ بمعناه التاريخى اللغوى ، أى تناول العلاقات التاريخية للأدب القومى بغيره من الآداب خارج نطاق اللغة القومية التى كتب بها ، وأن هذه العلاقات تقتصر على التأثير والتأثر ، ولهذا فان هلال فى شرحه لمفهوم الأدب المقارن يحكم فى صرامة قاطعة بأنه يجب أن يستبعد من مجال هذا البحث « ما يعقد من مقارنات بين آداب ليست بينها صلة تاريخية » .

على أن المدرسة الفرنسية لم تعد منذ الخمسينيات من هذا القرن هى الوحيدة التى تفرض مفاهيمها على الأدب المقارن ، فقد ظهرت مدارس أخرى تختلف معها فى التنظير لهذا الأدب لعل أهمها المدرسة الأمريكية التى أعلن شيخها رينيه ويلك « تمرده » على المدرسة الفرنسية ، ورفضه النظر الى العلاقات بين الآداب القومية بمنطق الحسابات التجارية المتبادلة بينها « أخذاء وعطاء ، تأثرا وتأثيرا » . ومن هنا وسع دائرة الأدب المقارن

بحيث يدخل فيها رسدا لأوجه التشابه بين أدبين - أو أكثر - وإن لم يشهد من الناحية التاريخية تأثير أحدهما في الآخر .

وأود بهذه المناسبة أن أنوه بالدراسة النقدية الجادة التي قام بها الدكتور مجدى يوسف للمبادئ النظرية التي قامت عليها المدرستان الفرنسية والأمريكية فى كتابه « التداخل الحضارى والاستقلال الفكرى » (القاهرة ١٩٩٣) . ففى بحثه « نحو مدرسة عربية أصيلة فى الأدب المقارن » أعلن اعتراضه على كلتا المدرستين ، أما الفرنسية فلما لها من نزعة قومية واضحة كانت موضع رفض من قبل رينيه ويلك الذى رأى أن يستبدل بها وحدة « الانسانية » فى الأدب . غير أن « انسانية » ويلك - كما أوضح مجدى يوسف - لا تتكشف الا فى الأدب الغربى الأوربى الأصل . ومن هنا كانت دعوة باحثنا المصرى الى التخلص من نفوذ تلك المفاهيم الغربية سواء أكانت فرنسية أم أمريكية ، فهى على الرغم من اختلافها الظاهرى تتفق فى جوهرها ، والأخذ بها بحذافيرها لا يعنى الا استدامة لهيمنة الثقافة الغربية على ثقافتنا .

- ٦ -

ونعود الى مقالات فخرى أبو السعود ، فنرى أنها بمنطق المدرسة الفرنسية تخرج عن مجال الأدب المقارن ، اذ أنها ليست الا رسدا لأوجه الشبه والخلاف بين الأدبين العربى والانجليزى . ولندكر أن التشابه لا يبرز الا بمقابلته بالاختلاف . وقد كان أبو السعود أكثر عناية بوجوه الاختلاف منه بوجوه التشابه . وقد كان حريصا على أن يبين أنه لم تقم بين الأدبين أية علاقة تاريخية بوجه من الوجوه .

على أننا اذا أخذنا بمنطق المدرسة الأمريكية القائلة بانسانية الأدب وعالميته - بمفهوم انسانى حقيقى لا على النحو الذى طرحه ويلك - فإن دراسة فخرى أبو السعود تكتسب مشروعية كاملة فى انتمائها الى الأدب المقارن ، والطريف فى الأمر أن كاتبنا المصرى كان على وعى كامل بهذا المفهوم قبل أن يبلغ العقد الثالث من عمره وقبل أن ينادى ويلك بنظريته بأكثر من عشرين سنة ، وذلك حينما اتخذ عنوانا شاملا لمقالاته هو « الأدب المقارن » .

وقد يقال حول أسبقية استخدام هذا المصطلح ان أول منسعمل له كان خليل مندوى الذى نشر فى مجلة « الرسالة » بحثا على أربع حلقات خلال شهر يونية ١٩٣٦ (فى الأعداد ١٥٣ - ١٥٦) وكان عنوان هذه

البحث « ضوء جديد على ناحية من الأدب العربي : اشتغال العرب بالأدب
المفسارن » . ثم يفسر هذا المصطلح الأخير بقوله أو ما يدعوه الفرنجة
Littérature Comparée . ويدور البحث حول تلخيص الفيلسوف
العربي أبي الوليد ابن رشد لكتاب أرسطو في الشعر . وبمقارنة التواريخ
تري أن خليل هنداوى قد سبق أبا السعود حقا باستخدام المصطلح ، غير
أن هذا السبق كان ضئيلا للغاية ، فهو لا يتجاوز شهرين ، اذ بدأ
أبو السعود في جعله عنوانا لمقالاته منذ شهر سبتمبر من السنة ذاتها ،
(١٩٣٦) . تم ان مقالات هنداوى وهى تتجاوز أربعاً تناول موضوعا
مطروقا معروفا هو ترجمة فيلسوف عربى لأثر من آثار الثقافة الاغريقية ،
ولا مجال للموازنة بين جهد هذا الباحث وما اضطلع به فخرى أبو السعود
فى مقالاته الاثنتين والأربعين التى قدم لنا فيها مقارنات ضافية بين الأدب
العربى وأدب الانجليز .



وبعد ، فاننا اذ نقدم هذه الباقية من مقالات فخرى أبى السعود
مجموعة بين دفتى كتاب واحد فانما نستحيى بذلك أثرا رائعا من تراث.
أدبنا النقدي استطاع صاحبه أن يتبوأ منزلة الريادة فى ميدان جديد من
مبادئ الدرس الأدبى وهو لم يناهز بعد الثلاثين من عمره ، وكان جديرا
بأن يشرى الحياة الأدبية والنقدية بمزيد من الدراسات لولا يد الموت القاسية.
التي قضت شبابه وهو فى عمر الزهور .

مصر الجديدة فى ١٥ سبتمبر ١٩٩٦ .

د . محمود على مكى

أستاذ الأدب الأندلسى والمغربى (المتفرغ)،
بكلية الآداب - جامعة القاهرة
وعضو مجمع اللغة العربية

»

أولا : في الأدب المقارن

على ذكر رواية خسرو وشيرين

لا ريب في أن الأدب العربي مقصر دون الأدب الغربي في كثير من النواحي . برغم ما له من الميزات الخاصة وبرغم عراقته وحدائه الأدب الغربي بالنسبة إليه . فقد سار الأدب بخطى واسعة وتطور في عصوره . على حين سار الأدب العربي دائما على نمط يكاد يكون واحدا . وكما (١) بعد العصر العباسي الزاهي كبوة لم يقل منها الا اليوم . وكان من عهدها الى العصر الحديث في حكم العدم اذا قيس بأداب الأمم الرفيعة .

ولا ريب في أن الأدب العربي يكسب كثيرا - وقد كسب بالفعل كثيرا - بلقائه بالأدب الغربي ، وهذا اللقاح يتأتى عن طرائق ثلاثة : الأول اطلاع أدباء العربية على الأدب الغربي . فان لذلك أكبر الأثر في نفوسهم وفي كتاباتهم وان لم يشعروا ولم يتعمدوا ادخال ما قرءوا فيما يكتبون . والثاني ترجمة الآثار الغربية المشهورة من نثر وشعر الى لغة الضاد . فان ذلك يؤثر في أبناء العربية الذين لم يطلعوا على آداب غيرها تأثيرا يكاد بدنيهم ممن اطلعوا عليها . والثالث ادخال الأشكال والمواضيع الشعرية الغربية في الأدب العربي اذا كانت غير موجودة فيه . فان ذلك يزيد اللغة ثروة وقوة ، ويقدر الأدب العربي على مجاراة آداب الغرب .

والشعر العربي خاصة خلو من كثير من الأشكال والمواضيع التي يتناولها الشعر الغربي كالدراما والملحمة والشعر المرسل والقافية المنوعة والأوزان المتداخلة في القصيدة الواحدة . فالشعر العربي فضلا عن كون مواضيعه محدودة قوامه الوحدة في الوزن والقافية ، والاحكام في القواعد، والصنعة والرصانة في الأسلوب ، وعلى المعنى أن يخضع لكل هذا فلا يخرج الا مصقولا في قالبه . بينما الشعر الغربي أكثر مرونة وأقل قواعد وأسهل في يد الناظم وأقدر على التحول والتنوع وزنا وقافية اتباعا لمعاني القصيدة المتتابعة ، ومن ثم استطاع الشاعر الغربي أن يودع شعره من دقيق المعاني وعميق الأفكار وخاصها وجزئها ما يشق على الشاعر العربي الذي لا طاقة

(١) كبا : انكب على وجهه (تعثر)

له بغير ذكر العام والكلى ، فكلما جاد الشعر العربى راع أسلوبه وأحكمت ديباجته وراقت موسيقاه ، وكلما جاد الشعر الأوروبى دقت معانيه ولطفت أخيلته وتجسم وصفه وتصويره وعبر عن الخوارج النفسية البعيدة الغور . وبالجمله كانت نتيجة الوحدة فى العروض والقافية فى الشعر العربى أن كان شعر أسلوب ، ونتيجة التنوع والمرونة فى عروض الشعر الغربى وقافيته أن كان شعر معنى .

وإذا كان شعراء العربية الأقدمون قد قنعوا بذلك الضرب المقيد الموحد من الشعر وأدوا به معانيهم وأغراضهم العامة ، فلن يقنع به عصرنا ، هذا إذا كنا نريد للشعر العربى مجازاة الشعر الأوروبى ، ونريد أن يؤدى من لطيف الأوصاف للمشاهد الطبيعية والحالات النفسية ما يؤديه ذلك الشعر ، ولا بد لنا - كما اقتبسنا من الغرب القصص القصيرة والطويلة والرواية التمثيلية والمقالة فى عالم النثر - أن نقتبس فى عالم الشعر الأوضاع والأشكال التى توسع أفق شعرنا العربى وتزيده قوة وخصبا .

والواقع أن القافية الموحدة التى ننتظم القصيدة من أولها الى آخرها غير معروفة فى الشعر الغربى ، وقد قال ملتون فى مقدمته للمحمته المشهورة «الفردوس المفقود» انه عول (٢) على نظمها شعرا مرسلًا وعلى نبذ القافية نبذا تاما لأنها أثر من آثار الهمجية ، وكثيرا ما عاقت الشعراء عن تسجيل سامى المعانى ، وبرغم مغالاة ملتون فى قوله هذا - اذ للقافية روعتها ولزومها فى كثير من ضروب الشعر - فلا شك فى أن القافية كثيرا ما تقف عقبة فى سبيل نظم دقيق المعانى وجليدها .

لا بد من رياضة الوزن العربى والقافية العربية على المرونة والسهولة والتنوع فى القصيدة الواحدة تبعا للمعانى . كى يساعد الناظم البارع على بيان أغراضه ، فلا يعتمد الاعتماد كله على المعانى والتشبيهات ونحوها ، بل يعتمد أيضا على جرس الألفاظ وموسيقى الوزن ووقع القوافى وتجاوبها واختلافها لإبراز أوصافه وأحياء صورته التى يريد فى خلد القارئ ، فقد برع الشعر الغربى فى هذا الضرب من الملاءمة بين المعنى واللفظ والوزن ولا سيما فى أشعار الوصف فبذ (٣) بتصويره ريشات المصورين فى كثير من الأحيان .

لا بد من التخلي عن بعض القيود والقواعد وإدخال بعض السهولة والحرية واقتباس ما يمكن اقتباسه من الأوضاع والأشكال الشعرية.

(٢) عول : اعتد .

(٣) نبذ : هاق .

الغربية ، على أننا يجب أن نذكر أولا أن ما سنقتبسه لن يلغى القافية الموحدة والوزن الموحد من العربية الغاء ، بل تظل هذه الطريقة العربية الخالصة قائمة ، لها ميزاتها من الرصانة والفخامة ، ولها مناسبتها التي تستعمل فيها فتؤدى غرضها أحسن الأداء ، لن نهجر طريقتنا الى طريقة غيرنا . بل نأخذ مما عند غيرنا ما يزيد لغتنا وشعرنا سعة وثروة ، ويجب أن نذكر ثانيا أن الناظم العربى انما يستخدم تلك الحرية والمرونة فى شعره ليؤدى بها أغراضا خاصة : تجسيم وصف ، أو تمثيل حركة ، أو تقليد صوت ، أو اسلاس قصص ، فيجب ألا نهجر القافية والوزن الموحدين الا أن يؤدى تنويع الوزن والقافية مثل تلك الأغراض ، والا كان الأمر مجرد تسهيل للنظم يغض من قيمة الشعر الفنية ويورث الناظم الكسل . وقلة التعب فى معالجة القصيد .

وأكبر اعتراض يقام أمام ادخال هذه الأساليب الشعرية الغربية . نبوها (٤) على السمع الذى اعتاد الوحدة فى الوزن والقافية العربيين . وهو اعتراض وجيه غاية الواجهة : فان اقتباس تلك الأساليب ان أدى الى فساد موسيقى الشعر العربى التى هى قوامه كان وبالا وكان علينا أن نقلع عنه مهما كان له من فوائد ، ولكن هذه العقبة يمكن تذليلها بوسيلتين :

الاولى التدرج فى التحرر من قيود الوزن والقافية تحررا يسير بطيئا مع الزمن ولا يفاجئ الأذان كبير مفاجأة ، فان التطور دون الطفرة جدير بتعويد الأذن على اختلافات العروض والقوافى فى القصيدة الواحدة ، حتى تستطيع تلك الاختلافات وتلتذذها وتصير لها فيها متعة كالمتعة التى نجدها فى النظم الموحد ، وقديما اخترعت الموشحات والأبيات المختلف شطراها طولا فكانت خرقا فى الطريقة السائدة وكانت بلا ريب نابية على الأسماع فى أول الأمر ، ولكنها بمرور الزمن صارت مألوفة ولم يعد أحد من كبار الشعراء يتحرج من اللجوء اليها فى بعض أغراضه .

والوسيلة الثانية هى أن يتصدى لادخال هذه الأساليب فى شعرنا العربى كبار الشعراء الذين عالجوا القريض سنين طوالا ، ومارسوا اللغة واستوعبوا ثروتها واستبطنوا أسرارها وحذقوا عروضها ، فهم وحدهم بخبرتهم ودربتهم وتمكنهم قادرون على أن يدخلوا فى اللغة ما يلائمها وينبذوا ما عداها ، ويصقلوا ما يدخلون بصقالها حتى يصير جزءا منها

(٤) نبوها : خروجها عن الحدود المعتادة ومنها (لفظة نابية) .

ويثبت فيها وينمو ويثمر ، أما أن يتصدى لذلك الناشئون المتحمسون للتجديد على غير بصيرة ، فلن يأتوا الا بكل غث لا يؤدي أغراض الشعر العربى ولا يبقى على جمال الشعر العربى ولا يكتب له بقاء .

والقافية أشد من الوزن قبولاً للتلقيح بالأساليب الغربية ، والشعر المرسل خاصة يكون ذا مستقبل باهر فى العربية اذا عالجتة الأيدى القديرة ، وقد مارسه الأستاذ فريد أبو حديد غير مرة ونجح فيه نجاحاً غير قليل ، ونشر فى «الرسالة» ترجمة لفقرات من «عطيل» امتازت بالسلاسة ولم ينقص من قدرها فى نظرى سوى أن الأستاذ اختار لها بحر الرمل ، وليس هذا ولا الخفيف المنظومة فيه رواية خسرو وشيرين بأليق البحور لبدء معالجة الشعر المرسل . بل أكثر البحور العربية استعداداً لذلك البحر الطويل الذى هو بطوله وفخامة موسيقاه واتنادها (٥) أقدر على الاستغناء عن القافية وأحق بأن يترجم اليه الشعر المرسل العربى المعروف « بالبلانك فيرس » وأن يحل عندنا محل ذلك الضرب الذى يختص عند الغربيين بشعر الدرامات والملاحم، ولا ريب فى أن ترجمة روايات شكسبير وأمثالها اليه أولى من ترجمتها نثراً .

ولقد كان شوقى فى أواخر أيامه أقدر الناس على ولوج هذه الأبواب ليرأى ، لولا شديد اعتداده بالوزن والقافية الموحدتين ، فانه كان قد مارس قرص الشعر نحو نصف قرن حتى حنق صناعه ، وكانت له موهبة فى الأسلوب عالية ، فبلغ فى النهاية غاية الجزالة والسلاسة . وكان له من الوقت متسع للتجريب والمحاولة ، ولو عمل على إخصاب اللغة ببدء هذه الأساليب الغربية فيها لخدمها خدمة أجل كثيراً من خدمته اياها بمعالجة النظم التمثيلية فى أخريات أيامه ، ورواياته التمثيلية ذاتها شاهدة بذلك : فان ميزتها الكبرى والوحيدة براعة الديباجة ، أما اذا قيست بمقياس التأليف التمثيلى وقوبلت بالمؤلفات الغربية التى كان يقلدها ويترسمها فلن تكون شيئاً مذكوراً .

على أنه اذا كانت العربية قد فقدت شوقيا وحافظا اللذين عالجاها حمبة وتمكنا منها ، فما يزال لها من كبار الشعراء المجربين من هم قادرون على توسيع أفقها ومضاعفة ثروتها بطرق هذا الباب من الاقتباس والابتكار ، فدلهم يتقدمون ، ولعل مجهودات الأستاذ فريد أبى حديد تكون الخطوة الأولى فى هذا السبيل .

(٢) اتنادها : تمهلها .

التصوير في الشعر العربي

الوصف من أهم أغراض الشعر وأخص فنونه . وكما كثر في شعر
الغزل وآثار شاعر ، دل على رقيهما الفني ، إذ أن مناظر الطبيعة خاصة ،
وروائع المشاهدات عامة ، من أشد العوامل تأثيرا في النفس الشاعرة
وتحريكا لعاطفتها وبعثا لها الى القول . والوصف في الشعر العربي غزير
يتناول شتى الموضوعات ، ويبلغ في يد كبار شعراء العربية غاية الاجادة .
فكثيرا ما تخلص شعراؤنا من قيود المدح والرثاء والنسيب الاستهلاكي
... مهما كان تقيدهم بهذه الأغلال الثقيلة التي كبلت الشعر العربي -
وعرجوا على وصف أثر من آثار الطبيعة أو المدنية ، فأبدعوا وأرضوا الفن ،
أشعاف ما أرضوه بمبالغات المدح والرثاء والنسيب المدعى .

ولكن الذي أريد الإشارة اليه في هذه الكلمة ، أن اعتماد الوصف
في الشعر العربي كان دائما على المعنى دون اللفظ ، على التشبيه
والاستعارة والمجاز دون جرس الألفاظ وتتابع التراكيب ووقع الأوزان
والقوافي . بينما الشعر الوصفي الغربي اعتمد على هذه الأشياء الأخيرة
اعتمادا كبيرا . فبلغ الغاية في المطابقة بين المعنى واللفظ مطابقة تملأ
الوصف حياة وجلال . وتوفر بعض الشعراء على هذا الضرب من التصوير ،
ومنهم ملتون وتينسون ، ولا سيما الثاني الذي بلغ في القدرة على تذليل
اللفظ للمعنى واستخدامه في تصوير ما يشاء حدا منقطع النظير . وأضحت
آثار أولئك الشعراء مهبط وحى لكبار المصورين يستلهمونها ما حوت من
روائع الأوصاف ومحكمات الصور ويسجلون ذلك على لوحاتهم .

إذا كان في المنظر المراد تصويره حركة كجريان نهر أو عدو جواد
استخدام الشاعر الغربي بحرا من بحور الشعر يلائم تلك الحركة ويحكيها .
وإذا كان به صوت أو أصوات مختلطة كهدير أمواج البحر أو قصف
المدافع في الحرب اختار من الألفاظ تلك التي تحتوى على حروف خشنة
قوية . وإذا كان يصف منظرا ساكنا وادعا لم يذكر ذلك في القصيدة
ذكرًا ، وإنما استعمل الألفاظ ذات الحروف اللينة كالسين مثلا ، وهناك
عدا هذا وذاك ضروب شتى من الملاءمة بين الصيغة والمعنى يفتن فيها

الشاعر الوصاف ما شاء له اقتداره : كثرة العطف وتكرار الحروف والكلمات والتراكيب والأبيات الكاملة .

ولقد وقع شيء من ذلك في بعض أشعار الوصف العربي ، ولكنه كان الهاما محضا أو اتفاقا عارضا ساقط الشاعر اليه المصادفة السعيدة أو السايقة المجيدة ، دون أن يتعمده أو يتكلف في صوغه عناء ، ويقرؤه القارئ العربي فيستطيعه ويعزو موقعه من نفسه الى مجرد معانيه وحسن تشبيهاته . ويجمل ذكر شيء من هذا للتمثيل والبيان :

ففى معلقته يصف امرؤ القيس الليل فى بيته المشهور :

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف اعجازا وناء بكل كل

وفضلا عن جودة المعنى وحسن التشبيه فى هذا البيت يزيد الوزن والتركيب الوصف المراد ظهورا : فالبحر الطويل ذو الحركة الوثيدة وتكرار العطف بالواو يمثلان بقاء مسير الليل ولجاجة فى الإقامة وتماديها فى الطول خير تمثيل ، وفى بيته الآخر حيث يصف جواده بقوله :

مكر مفر مقبل مدين معا كجلمود صخر حطه السيل من عل

نرى تنابع الصفات بلا فاصل فى الشطر الأول ، واستعمال الألفاظ الضخمة الخشنة فى الشطر الثانى يمثلان توثب الجواد وسرعة انطلاقه وارتداده ومفاجآت حركاته تمثيلا جيدا بصرف النظر عن تشبيهه بانحطاط الصخر من شاهق ، وفى قول المتنمى :

أتوك يجررون الحديد كأنما

سروا بجياد مالهن قوائم

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه

وفى أذن الجوزاء منه زمام

نرى وصفا رائعا لجيش كثيف وثيد الزحف لكثافته ، وليس فى البيتين معنى كبير ، وليس فيهما سوى مبالغة غير معقولة ، ولكنه البحر الطويل يمثل هذه الحركة البطيئة أتم تمثيل ، هذا فضلا عن فخامة الألفاظ التى تخيرها الشاعر ، ونرى البحر الطويل يؤدى مثل هذا الغرض ويرسم صورة أخرى رائعة فى قول جميل :

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالاركان من هو ماسح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الأباطح

فهنا حركة الابل البطيئة واضحة ماثلة ، وقد كان جميل ملهما حيث ذكر كلمة أعناق في البيت الثاني فانها وحدها ترسم الصورة التي أراد : فان ذكر الجزء الأهم من الصورة ، كثيرا ما يبعث الى المخيلة باقى الأجزاء ويبرز الصورة جلية كاملة ، ويترك البحر الطويل مثل هذا الأثر أيضا فى قول البارودى الذى أشار اليه الدكتور صبرى فى كتابه عن الشاعر :

— ونبهنا وقع الندى فى خميلة —

فاذا قرئ هذا الشطر يتأن وجدنا الوزن يمثل تساقط قطرات الندى متتابعة ، أما الحركة السريعة فيمثلها البحر الكامل ، ومن ذلك قول المتنبي :

أقبلت تبسم والجياد عوايس يخبين بالخلق المضاعف والقنا
عقدت سنا بكها عليها عثرا لو تبتغى عنقسا عليه لأمكنا

ففى البيت الثانى نرى مبالغة أخرى من مبالغات المتنبي ، وهى وحدها لا تكاد تؤدى معنى ، ولكن البحر الذى صيغت فيه القصيدة يؤدى خبيب (١) الجياد خير أداء ، حتى ليكاد يريك توثب الفرسان فوق ظهورها ، ولو حاول الشاعر وصف الخبيب فى البحر الطويل لما استقامت صورته .

ولتكرار الألفاظ أو التعبيرات أحيانا أثر بليغ فى إبراز الصور وبعث الأخيلا . ففى قول ابن هانئ الأندلسى :

وفوارس لا الهضب يوم مغارها هضب ولا الوعر الحزون حزون

يوحى تكرار كلمتى هضب (٢) وحزون (٣) الى المخيلة تتابع الهضاب والرعى أثناء عدو الفرس ، فكأنه يعرض أمام العين شريطا سينمائيا متحركا ، أضف الى ذلك صوغ البيت فى البحر الكامل واختيار الكلمات الفخمة ، وفى قول الأستاذ المازنى :

لغط اليم اذا اليم طمسا والتقت فيه هضاب بهضاب

ترى صورة رائعة لجيشان اليم ، ولا يرجع هذا الى معنى البيت .

(١) خبيب الجياد : هو عدوما السريم ، وفى المعجم الوسيط : خب الفرس أى نقل أياضه وأياضه جميعا فى العدو .
(٢) هضب : جمع هضبة .
(٣) حزون : جمع حزن (يفتح فـ مكرون) وهو ما غلظ من الأرض .

وحده ، ولكن الى وزنه وألفاظه كذلك : فيحجر الرمل يمثل الحركة المتضاربة أدق تمثيل : وتكرار كلمتى اليم وهضاب يوحى الى المخيلة تتابع اللجج ، وتكرار حرف الهاء ثلاث مرات فى الشطر الثانى يزيد الحركة تصويرا وبروزا .

كان ذلك فى الغالب كما ذكرت محض اتفاق أو الهام ، ولم يقم فى العربية فرد أو مدرسة تتوفر على هذا الضرب من النظم والتصوير وانما حين اتجه نظر الشعراء الى اللفظ صادف ذلك عصر انحلال الأدب فلم يستخروا اللفظ لإبراز المعنى ، بل صرفوا كل همهم الى اللفظ دون المعنى ، وولعوا بالألاعيب اللفظية التى سموها محسنات ، وأوغلوا هذه الغثائث على أجل فنون الشعر خطرا كالرثاء والنسيب فأسفت وانعدم فيها الحس والشعور ، فرأينا شاعرا ينسب فيقول :

ناظراه فيما جنى ناظراه أو دعانى أمت بما أودعانى

وآخر يتوجع فيقول :

لى مهجة فى النازعات وعبرة فى المرسلات وفكرة فى هل أتى

وثالث يمدح فيقول :

وان أقر على رق أنامله أقر بالرق كتاب الأنام له

وليس فى كل هذا تعبير عن شعور أو أداء غرض ، وما هو الا عبث بالألفاظ واقتناص للجناس والطباق والسجع والتورية ، وانما أكثرت من هذه الأمثلة الغثة لأوضح كم كان الشعر العربى يربح لو أن المجهودات التى صرفت فى مثل هذا التحايل العقيم وجهت الى تسخير اللفظ للمعنى والاستعانة بهما معا على إبراز الوصف المقصود كما يصنع شعراء الغرب .

وليس فى طبيعة اللغة العربية قصور يحول بينها وبين مجازاة اللغات الأخرى فى هذا الباب ، بل لها من الميزات ما يقدمها على غيرها : فهى كثيرة البحور التى يؤدى كل منها غرضا مختلفا ، غزيرة الألفاظ، الوعرة الضخمة والرقيقة اللطيفة التى توحى بخشونتها أو رقتها مختلف الصفات ، غنية بالحروف السلسلة اللينة والحروف الخشنة الجافية التى تطاوع النظم التقدير . ليس يعوز العربية شئ من ذلك وانما يعوزها الحرابة من الناطمين بها والعزم والجلد .

الأثر اليوناني في الأدب العربي

كانت الثقافة اليونانية خلاصة ثقافات البحر الأبيض القديمة : لأنها الى جانب ما استوعبته من الحضارات الشرقية تمثل نتاج العقل اليوناني الذي كان أخصب عقل ظهر في العصر القديم . فلما مضى ذلك العصر ودالت دولة اليونان وكان العصر الوسيط كان العرب هم السابقين الى التعرف بالثقافة اليونانية فأخذوا من علوم اليونان وفلسفتهم ، ثم تعرف الأوربيون بعدهم بتلك الثقافة في عهد النهضة ، وأوسعوا علوم اليونان وفنونهم دراسة ونقلًا ومحاكاة . فأغنوا بذلك علومهم وفنونهم الناشئة . وشادوا على ثقافة اليونان صرح حضارتهم الحديثة .

بيد أن الذي يسترعى النظر أن العرب حين اتصلوا بثقافة اليونان . اقتصروا على اقتباس بعض علومهم وفلسفتهم دون الآداب والفنون ، فدرسوا أرسطو وأفلاطون ، وعرفوا أبقراط وفيثاغورس ، ولكنهم أهملوا هوميروس وسوفوكليس ويوريديس ، على حين لم يفرق الأوربيون بين ناحية من نواحي الحضارة اليونانية وناحية أخرى ، بل أكبوا على دراسة الجميع ، وبينما تقدمت علومهم على مر العصور عن علوم اليونان أشواطاً بعيدة واستغنت عن معينها ظلت الآداب والفنون اليونانية مرجعاً دائماً للآداب والفنون الأوربية ومهبط وحى لا يفنى ، ولم ينفك كتاب الغرب وشعراؤه الى اليوم عن تمجيد الثقافة اليونانية والحث على الرجوع اليها . دائماً ، فما السر في اختلاف موقف العرب عن موقف الأوربيين حيال تراث اليونان ؟

السر راجع الى سليقة العرب المطبوعة على البيان ، المفطورة على فصاحة اللسان ، فان العرب نظروا لبيئتهم البدوية وحياتهم المتنقلة لم يكن لهم سوى اللسان أداة للتعبير عن شعورهم الفياض ، فلم يكن التصوير ولا النحت ولا غيرهما من الفنون ليزكو (١) في بيئتهم تلك ، ومن ثم تأصلت في العرب سجية البلاغة وارتقت بينهم مرتبة البلغاء وتوطدت.

(١) ليزكو : ليزمر .

لغتهم ونضج أدبهم وهم على بداوتهم وقلة حظهم من الحضارة ، وكان لهم بعصبيتهم ولغتهم اعتداد شديد ، فلما نهضت دولتهم بظهور الاسلام ودخلت الأمم فى طاعتهم ودينهم أفواجا ازدادوا اعتدادا بعريبتهم ولغتهم وشعرهم وقرآنهم المبين ، فلم يكن فى نفوسهم حافز على الاطلاع على آداب غيرهم ولا لديهم رغبة فى التثلمد لسواهم ، بل كانوا يرون أنفسهم هم الاجدر أن يحبذوا ويؤخذ عنهم ، ولقد أخذ كثير من الأمم المفتوحة لغتهم واصطنعوا أدبهم بالفعل ، وأصبح الناشئون فى الأدب من أبناء الأجيال التالية لا يرون أن شيئا يوصل الى نيل الفصاحة والحكمة وحذق الأدب وراء دراسة القرآن واستيعاب شعر فحول المتقدمين ، وانما كان العرب أميل الى الاعتراف بالقصور واظهار الرغبة فى الأمور الشئ لم يكن لهم فيها الى ذلك الوقت باع ولا يد كالعلوم والفلسفة ، فلم يروا ضيرا فى أخذها على أساتذة اليونان .

ولم يقتصر أثر اعتداد العرب بأدبهم وشعرهم على ذود (٢) الأدب اليونانى عنهم ، بل زاد عنهم غير الأدب من الفنون : فلقد اطلعوا فى أطراف دولتهم وبلاد جيرانهم على ما كان لدى اليونان والرومان والفرس والمصريين من تصوير ونحت ، فما خطر لهم أن يحاكيوا شيئا من ذلك ، وكان كل ما يساور شاعرهم حين يشاهد أثرا من هاتيك الآثار أن يتمثل بطش الدهر وحلول الفناء وسقوط الجبابرة فيقول :

أين الذى الهرمان من بنيانه ؟ ما قومه ؟ ما يومه ؟ ما المصرع ؟
تتخلف الآثار عن أصحابها حيناً ويدركها الفناء فتتبع

وما ذاك الا لانصراف كل قوى العرب الفنية الى ضرب واحد من الفنون هو الأدب واستغراقها فيه . فهى لا تحاول وسيلة أخرى سواء للتعبير عن نفسها ، ومن ثم ظل العرب طوال عصورهم لا يعرفون من الفنون سوى الأدب والموسيقى المعتمدة عليه المرتبطة به ارتباطا وثيقا ، فلا تصوير ولا نحت ولا تمثيل ، اللهم الا ذلك الضرب الوحيد من الزخرفة ذات الأغراض العملية المحضنة ، ومن الخطأ نسبة انعدام تلك الفنون بين العرب الى الدين : ففضلا عن أن الدين لا ينافى شيئا منها فانه لم يحل دون استمتاع العرب بالموسيقى وغيرها حين أرادوا .

فالعرب اذن اتصلوا بالثقافة اليونانية فى غير الوقت الملائم : فى وقت متأخر ، كان أدبهم فيه قد نضج وقوى ، وصار له من الاعتداد بنفسه

(٢) ذود . الذود هو الدفع والطرد .

ما يشنيه عن التتلمذ لغيره ، أما الآداب الغربية فعرفت تلك الثقافة في عهد طفولتها ونشأتها ، وهي لما نزل عاجزة تعترف بعجزها وتتلطف الى المعرفة حيث وجدتتها ، فلم تتردد في الانتفاع بتراث اليونان الى أبعد حد ، فأثرت أيما اثراء بما أخذت عن اليونان من المواضيع والأشكال الأدبية ، ومد الأدب اليوناني أمامها آفاق التفكير الواسعة وآماد المثل العليا وصور الجمال المختلفة ، ووجدت في تاريخ اليونان وأدبهم وأساطيرهم ومنتجات فنونهم من صور وتمائيل وآثار منادح (٣) للكتابة والدرس والنظم ومناسبات للوحي لا تنضب .

فلا غرو أن طفرت تلك الآداب الغربية التي لم تكد في عهد النهضة تكون شيئا مذكورا ، والتي كانت لغاتها ذاتها ما تزال في طور التكوين ، فاذا هي بعد قرون ثلاثة أو أربعة تسبق الأدب العربي وهو أعرق منها محتدا وتفوقه اتساع آفاق وتعدد مواضيع ، لأن الأدب العربي الذي لم يكده يستفيد بأدب أمة أخرى ظل في مكانه جامدا يكرر نفسه ويعيد على نفسه الأبواب عينها التي جال فيها المتقدمون من فخر وثناء ومدح وهجاء ، حتى اذا كان العصر الحديث اذا هو يقف من الآداب الغربية موقف التتلمذ والتلقن .

ان تمكن ملكة البيان من العرب - مما جعلهم لا يدينون الا لنبي يأنبهم بكتاب معجز ، وجعل خلفاءهم يتخذون وزراءهم من أئمة البيان - واعتدادهم بأدبهم واستغراق مجهودهم الفني فيه وحده ، هذا كله في مجموعه كان عاملا شامل الأثر بعيدة في تاريخهم وأدبهم ، ولقد كان أثره فيما يتعلق بالتراث اليوناني بليغ الضرر ، فخسر العرب خسارة كبيرة باغفال الأدب اليوناني المحي على توالي العصور ، الشديدا لإحياء القوى التأثير ، الذي كان بلا ريب أغنى من أدبهم . ولو لفتح به الأدب العربي لاتسعت جوانبه وانصرف عن تلك الأغراض العلمية التي احتبس فيها الى عوالم الفن الخالص وتغير مجرى تاريخه وأفاد العرب بذلك أضعاف ما أفادتهم دراسة الفلسفة اليونانية .

ونحن اليوم بدراسة الآداب الغربية والأخذ عنها بطريق غير مباشرة عن تلك الثقافة اليونانية ، ندخل في أدبنا ذلك العنصر اليوناني الذي لابد منه لكل أدب يريد له مكانا بين الآداب العالية ، واذا وقف شاعرنا العصري أمام الأهرام فلم ينصرف ذهنه الى بطش الدهر بالجبارين الذين

(٣) منادح : جمع مندوحة وهي الأرض الواسعة .

أعلوها ولم يتنبأ لها باللاحق بهم ، بل حيا فيها الفن وعظم قدرة الانسان.
وقال :

أهراهم تلك حى الفن متخذاً^١ من الصخور بروجاً فوق كيوان
لم يأخذ الليل منها والنهار سوى ١٠ يأخذ النمل من أركان هيلان
فما ذلك الا لأننا قد تأثرنا بتلك الروح اليونانية التى تعظم الفن
انخالص فى مختلف صوره وتمجد قدرة الانسان فى مصارعته للفناء ،
تلك الروح التى كان أغفلها أجدادنا العرب .

القصة فى الأدب العربى

حب تتبع الحوادث وحكايتها مركب فى الطبع الانسانى ، ولكن القصة كانت آخر صور الأدب ظهورا ، فلم تعرفها الآداب القديمة ولم تظهر فى الآداب الأوروبية الحديثة الا أخيرا ، ولذلك أسباب منها الوهم الذى وقر فى نفوس الأدباء المتقدمين وان يكن يبدو لنا اليوم غلطه. واضحا : أعنى توهم أن القصة ان هى الا أجبولة أكاذيب لا يليق بالأديب الراقى أن يلهو بحوكها ، وأن القصص مرتبة من التأليف سهلة يستطيعها كل من رامها فلا يجمل بالأديب التقدير أن يتدلى إليها .

ومن ثم كان العرب يؤثرون الأخبار التاريخية والأدبية ويخصونها بالحفظ والرواية مهما خالطها التحريف ، لاعتبار أنها حقيقة لا اختلاق ، وكثرت بينهم كتب التواريخ والسير دون كتب القصص ، ومن ثم أيضا لم يسلك سبيل القصص من الأدباء المجيدين الا من كان له غرض آخر دون القصص يوهم قراءه أو يوهم نفسه أنه الغاية التى إليها يقصد : اما باعطاء القصص مغزى وعظيا كما فى كتاب كليله ودمنة ، أو بالباسه ثوبا قشيبا من الصناعة البلاغية كما فى مقامات الهمداني والحريري ، بينما تركت الأفاضل المجردة للعامة الذين يفشو بينهم القصص فى كل العصور نتيجة لذلك الميل الطبعي فى الانسان ، وتداول (بضم التاء) بينهم أساطير المردة والسحرة ووقائع الأبطال الغازين ومخاطرات التجار والملاحين ونوادير الظرفاء والمعتوهين .

بيد أن القصة ان انعدمت من الآداب اليونانية والرومانية القديمة ومن الآداب الأوروبية الحديثة الى عهد قريب ، فقد قامت مقامها عند تلك الأمم الرواية التمثيلية التى تؤثر فى النفوس لا من طريق الميل الطبعي الى القصص وحده ، بل من طريق أخرى هى الميل الى محاكاة الأشخاص وتقليد الحركات ، ومن طريق ثالثة هى الثوب الخيالى الشعري الذى أسبغ على تلك الروايات التمثيلية ثم التفتت رويدا رويدا الى أحوال المجتمع فتناولت وصف شئونه وتصوير أخلاق أفرادها ، أما العرب فلم تقم لديهم لا القصة المقروءة ولا الرواية التمثيلية ، فالام يعزى ذلك ؟

يعزى الى امرين : أولهما ايجابى هو موقف أدباء العربية من مجتمعهم ،
وثانيهما سلبى هو مكانة الشعر لدى العرب .

فكتاب العربية وشعراؤها عاشوا دائما بنجوة عن مجتمعهم لا يشتركون فى تقلباته السياسية والاجتماعية ، ولا يعبرون عن شعوره وحاجاته ، ومن ثم ندر الأدب الوطنى فى العربية وإن كثر الأدب العصبى ، وندر الشعر الاجتماعى ، وكان جل شعر الشعراء فرديا يعبر عن عواطفهم وحاجاتهم الشخصية ويفيض بدم منافسيهم وأعدائهم الشخصيين ومدح أولياء نعمتهم من الكبراء والأمراء الذين يعتمدون عليهم دون الشعب ويتبعون رضاهم قبل رضا الشعب ، فلم يكن هناك تواصل وتجاوب بين الأدباء ومجتمعهم ولا رغبة لدى الأدباء فى معالجة شئون المجتمع وتحليلها ومحاولة اصلاح فاسدها عن طريق أدبهم ، فلم يقيم فى العربية أمثال أديسون وستيل ودكنز وجالزورذى من الأدباء الانجليز الذين جعلوا اصلاح الأخلاق أو ترقية المرأة أو انهاض العامل نصب أعينهم ، ولا ريب فى أن هذا التواصل والتجاوب بين الأدباء والمجتمع واعتماد الأدباء على جمهور القراء دون هبات النبلاء أساس نمو القصة التى تصف المجتمع وتحلل الأخلاق ، ولم تنشأ القصة الحديثة فى أوروبا فى القرن الثامن عشر الا بقيام ذلك التواصل والتجاوب بين الأدب والمجتمع ، وكانت الطباعة التى سهلت انتشار الكتابات مساعدة لذلك ولا ريب .

وأما مكانة الشعر الممتازة لدى العرب – والتى لعل لم ينفها لدى أمة أخرى – فانها ثبتت (١) ما عدا الشعر من صور الأدب . فقد كان الشعر لدى العرب هو الوسيلة للتعبير عن العواطف قبل كل وسيلة ، فصرفهم شديد اعتدادهم به وتوفرهم عليه عما عداه ، وأودعوه عواطفهم وأخبارهم وقصصهم ، فلو أن الشعر ترك مجالا لغيره لاحتمل أن يلجأ أديب كآبى نواس الى القصص يودعه أنباء لهوه ووقائع غرامه ويشرح فيه ما سهر من غور العواطف وبلا من سريرة المرأة سادلا على شخصيته ستارا رق أو كثف (٢) ، ولربما كان منه فى العربية نظير لموباسان فى الفرنسية، ولكن الشعر كان كما تقدم هو الوسيلة للتعبير عن العواطف قبل كل وسيلة ، فلم يتردد أبو نواس فى سلوك السبيل التى سلكها ابن أبى ربيعة من قبله ، سبيل الشعر القصصى أو القصص المنظوم شعرا .

ان الناظر فى أدب العرب وتاريخهم لا يسعه الا أن يرى هذه الحقيقة بارزة : حقيقة أن الشعر نال من المنزلة عندهم ما لم يبلغ عند سواهم

(١) ثبت : ضعيف .

(٢) كثف : غلظ .

حتى طغى على ما دونه من ضروب الأدب ، وأن الأدب على إطلاقه بلغ لديهم مكانة طغى بها على ما عداه من الفنون وصيغ ثقافتهم بصبغته - برغم بعده عن معالجة الحالة السياسية والاجتماعية فكان كاتبهم فى التاريخ وتقويم البلدان وغيرهما من العلوم يتحدث عن الأدباء ويرجع الى محفوظه من الأدب ، وكم من أعلام للشعر العربى لو كان التصوير والنحت رائجين لدى العرب رواج الأدب والشعر لانصرفوا اليهما دونه أو لمارسوهما معه .

ولقد كتب الأستاذ الفاضل محمود خيرت فى «الرسالة» أخيرا بثبت وجود التصوير لدى العرب فلم يعد أن أثبت أنه كان فى حالة أولية لا يفتخر بها ولا يغتبط : فان الفن الذى لا ترى له باقية ولا يمكث له أثر فى أدب اللغة وكتبها ، ولا يتوصل الى اثبات وجوده الا بشذرة شاردة فى صحيفة من كتاب ، لا يكون فنا قد نال حظا من الرقى وخالط نفوس الأمة واستدعى اهتمام مثقفيها ، والحكاية التى رواها الأستاذ عن المقرئ تشهد بذلك ، حكاية المصورين اللذين رسما صورتين احدهما كأنها داخلية فى الحائط والأخرى كأنها خارجة منه : فان تفاخر الرجلين بهذا العمل الضئيل ودهش الوزير له واسباغه عليهما المن من أجله ووقع القصة من نفس المؤرخ حتى أثبتتها فى كتابه ، كل ذلك لا يدل على ارتقاء الفن فى ذلك العصر بل يدل على كونه فى حالة بدئية ، وعلى ندرة المصورين المجيدين بل المتوسطى الحظ من الاجادة ، وكلام المؤرخ كله يدل على أن التصوير الذى عرف لذلك العهد لم يتعد الصناعة ذات الغرض العملى التى يزاولها الصناع كما يزاولون النقش والطلاء ، ولم يرق الى مرتبة الفن الخالص المنزه عن الأغراض العملية .

ان صور المدارس الايطالية والهولندية وغيرها منتشرة فى الأقطار تملأ المتاحف وتحدث عن نفسها وعن رقى الفن عند أهلها قبل أن تحدثنا عن ذلك مئات الكتب التى ألقت فيها ، فأين آثار مصورى العرب التى تحدثنا عن مثل ذلك ؟ بل أين الكتب المؤلفة فيها ؟ بل أين الصور العربية التى كانت وحيا لشعراء العربية كما كانت الصور الأوروبية وحيا لوردزورث وتينيسون وغيرهما ، أو كما كانت صور الأطلال الفارسية وحيا لسبيتية البحتري ؟

لن نظفر بشئ من ذلك اذا طلبناه ، ولن يسعنا الا الاقرار بالحقيقة التى تطالع قارئ تاريخ العرب وأدبهم : وهى أن العرب كادوا أن يكونوا أمة ذات فن واحد هو الأدب وبخاصة الشعر الذى استوعب ملكات جل نوايقهم واحتوى دراسات جل مثقفيهم ، ذلك بأن العرب كانوا منذ جاهليتهم أمة لسان وبيان .

ظواهر متماثلة

فى تاريخى الأدبين العربى والانجليزى

لا يكاد يكون بين الأدبين العربى والانجليزى من وجوه التشابه الا الامور العامة التى يتفق فيها كل أدبين يعبران عن نوازع النفس الانسانية ، وهما فيما عدا ذلك مختلفان جدا الاختلاف ، وهذا راجع الى امرين : أولهما اختلاف الامتين فى الجبله (١) والبيئة : فهذه أمة شرقية سامية خرجت من جزيرة صحراوية وورثت الدول الشرقية القديمة ، وتلك أمة غربية آرية خرجت من جزيرة شمالية وشاركت فى تراث الدولة الرومانية ، وثانى الأمرين اختلاف قسطى الأدبين من التأثير بالثقافة اليونانية : فبينما كان تأثر الأدب العربى بها غير مباشر كان تأثيرها فى الأدب الانجليزى شاملا غامرا للأصول والفروع ، فاكتمسب ذلك الأدب صبغة اغريقية ظل الأدب العربى بعيدا عنها .

ولكن هناك ظواهر فى تاريخ الامتين والأدبين متماثلة أدى اليها تماثل وقتى فى الظروف وأدت الى نتائج متماثلة : فعصر الجاهلية فى تاريخ الأدب العربى شبيه بعصر ما قبل اليزابث فى التاريخ والأدب الانجليزى : ففي ذينك العصر كان كل من الشعبين يعيش داخل جزيروته فى عزلة كبيرة عن العالم على حال شبيهة بعصر الأبطال فى بلاد اليونان الذى أنتج ملاحم هوميروس ، وكان الأدبان تبعاً لذلك جافيين ، وعزى الأسلوب واللفظ ، ساذجى المعنى ، بعيدين عن الصناعة الفنية ، وكانا أقل رقىا من الأدب الذى جاء فى العصر التالى . والواقع أن الشبه هنا بين الجاهلية العربية وعصر الأبطال اليونانى كبير : ففي الجاهلية كان العرب منقسمين قبائل وعشائر متناحرة كما كانت البلدان والعشائر اليونانية ، وإن كانت تحس بقوميتها العربية العامة متمثلة فى لغتها وفى مجامعها السنوية فى الأسواق وفى الحج الى مكة ، كما كان اليونان يجتمعون فى المواسم الأولمبية ويحجون الى دلفى ، وفى تميزها على الأهم الأخرى التى كان العرب يسمونها عجماً كما كان اليونان يعتبرون من عداهم برابرة ، وإن يكن العصر الجاهلى لم ينتج ملاحم كبارا كالياذة

(١) الجبله : الطبيعة والخلقة .

والاوديسا في اليونان أو كملحمة « بيولف » في انجلترا ، فان قصائده على قصرها هي من هذا الضرب . ولعل العصر الجاهلي لو طال قليلا لائلتفت تلك القصائد الصغيرة التي تمجد كل منها قبيلة واحدة ، فكونت ملحمة كبرى تتغنى بفروسية الأمة العربية قاطبة .

ونهضة العرب بظهور الاسلام تماثل نهضة الانجليز في عصر اليزابث بوصول النهضة الاوربية الى انجلترا واتجاه نظر الانجليز الى ما وراء البحر ، ففي كلا العصرين بدأت كل من الأمتين تخرج من محيط جزيرتها وتشب عن طوق عزلتها وتتصل بالعالم وتتصنع حضارته وتبنى لنفسها امبراطورية مترامية الأطراف ، وارتقى أدبها من جراء ذلك ارتقاء عظيما ورقت ديباجته ، وان يكن الرقي الأدبي في صدر الاسلام قد تمثل في النثر بينما تمثل في العصر الاليزابثي في الشعر ولا سيما الشعر الجاهلي .

وبانبعث هذه النهضة وقيام هذه الدولة انتشرت كلتا اللغتين في بقاع الأرض وافتتحت آدابها كثيرا من الأمم ، فاللسان العربي الذي لم يكن يتجاوز حدود الجزيرة في الجاهلية يتكلم (بضم التاء) من حدود الصين الى المحيط الأطلسي ، وأثر في اللغات وأزال غيرها وحل محلها ، وأصبح اليوم لسان شعوب كثيرة في آسيا وأفريقية . واللغة الانجليزية التي لم يكن يتكلمها الا ملايين تعد على الأصابع في عهد شكسبير أصبحت تتكلم وتدرس في مشارق الأرض ومغاربها ، وأصبح أدبها عالميا كما كان أدب العرب عالميا على عهد عظمتهم .

ولم تكد كل من الأمتين توطد أركان امبراطوريتها حتى انسلخ عنها جانب من أملاكها ونما مستقلا حتى طاولها في النفوذ والسلطان ، ودانها في ازدهار الآداب والعلوم ، فكما انفصلت الأندلس عن الخلافة العربية استقلت الولايات المتحدة الأمريكية عن الامبراطورية البريطانية ، بيد أن البلاد الأصلية احتفظت بالزعامة الأدبية على طول المدى فلم تنجب الأندلس من الأدباء من بذوا فحول العباسيين ، ولا ظهر في أمريكا ولا غيرها من أنحاء الامبراطورية البريطانية من داني شكسبير وملتون .

وباتصال كل من الأمتين بالأمم المتحضرة سرت اليها موجة عدوى من دواعي الثرف وبدا أثر ذلك في أدبها : فاختلط العرب بالفرس أدخل الثرف والعبت في البلاط العباسي وأثر في جيل أبي نواس من الشعراء ،

واتصال الانجليز بفرنسا فى ظل ملكها المترف لويس الرابع عشر أفسد بلاطهم على عهد شارل الثانى وظهر أثر ذلك فى الأدب ولا سيما فى الرواية التمثيلية .

وكلا الأدبين تأثر الى حد بعيد بالكتاب السماوى الذى تدين به أمته ، فأثر القرآن فى المجتمع العربى وتاريخ اللغة العربية وأصولها وآدابها وثقافة أدبائها وأساليبهم جسيم بين الجسامة ، فقد كان منذ جاء مثلا أعلى وثقافة قائمة بذاتها ، والانجيل منذ ترجم الى الانجليزية فى عهد الإصلاح الدينى كانت له اليد الطولى فى تثبيت الأسلوب النثرى الانجليزى ، وتثبيت مفردات اللغة ، وادخال مفردات جديدة واشتقاق غيرها ، واختراع طرق للاشتقاق أدت الى توسيع جوانب اللغة ، وكان دائما قدوة للأدباء يحتذونها فى اسلاس الأسلوب ، وله أثر مباشر جلى فى كتابين من ذخائر الأدب الانجليزى : أحدهما « رحلة الحاج » لـ بنيان والثانى « الفردوس المفقود » للمتون : ففى كليهما كان أساس القصة ما ورد فى الانجيل من أنباء الخلق والبعث والحساب ، بل ان دراسة الانجيل كانت هى الثقافة الوحيدة التى نالها (بنيان) الذى كان قسا ضئيل الحظ من المثقف ، ومع ذلك فأسلوبه المبني على أسلوب الانجيل يعد فى الذروة فى أدب اللغة .

وهناك التأثير بالتراث اليونانى الذى كان حتما على كل شعب أتى بعد اليونان أن يتأثر به : فاعترف أدباء الانجليزية من مناهل الأدب اليونانى اغترافا واستوعبوه دراسة فجاء أثره شاملا عاما لا يقتصر على فرع دون فرع ولا يمتاز به جيل أو أدباء أو أديب دون أديب ، على حين كان التأثير اليونانى فى الأدب العربى كما تقدم ضئيلا غير مباشر آتيا عن طريق دراسة فلسفة اليونان لا أدبهم مما بدا أثره فى حكم المتبنى والمعربى وأضرابهما .

لم يأخذ العرب عن اليونان ولا عن غيرهم اخذا بالجملة كما صنع الانجليز ، بل ظلوا فى زمانهم شامخين بأدبهم ينظرون من عليائه الى من حولهم من أمم وما لها من آداب ، أما عهد الأخذ بالجملة فى تاريخ الأدب العربى فهو عصرنا الحاضر الذى يوسع فيه أدباؤنا اللغات الغربية دراسة ونقلًا ومحاكاة ، فيغنون (يثرون) أدبنا أى اغناء ، ويخصبونه بالعنصر الأجنبى الذى كان يعوزه .

هذه ظواهر يتقارب فيها تاريخا الأدبين لتقارب فى ظروف الامتين فى شتى العهود ، أما ظواهر التباين فلا تكاد تعد ، ويجب حين نقابل

بين التاريخين أن نذكر أن دولة العرب أقدم عهدا وأدبهم أعرق محتدا (٢)،
وأن دولتهم وأدبهم قد غبر (٣) الفصل الأول من قصتهما ، وهما اليوم
في طور بعث جديد ، أما الدولة والأدب الانجليزيان فما يزالان في
الفصل الأول •

(٢) محتدا . (الحيد) وهو ما نشأ من نواحي الشام •

(٣) غبر : مضى •

النزعة العملية

فى الأدبين العربى والانجليزى

من الطريف والمفيد معا ألا نزال نوازن بين الأدب العربى والأدب الانجليزى فى شتى النواحي ، فان هذين الأدبين لاختلاف ظروفهما يختلفان كثيرا وقلما يتفقان ، والموازنة بين وجوه اختلافهما العديدة -- ووجوه اتفاقهما ان كانت -- تلقى ضوءا على مختلف الظواهر فى كليهما ، وتبرز شتى الأسباب والمسببات فى تاريخهما ، وقد قيل : وبضدهما تتميز الأشياء .

وأعنى بالنزعة العملية فى الأدبين اتصالهما بالحياة اليومية والاجتماعية والسياسية والوطنية ومساهمة أقطابهما فى تلك الشؤون ، والأدبان هنا أيضا على طرفى نقيض : فالنزعة العملية تسود الأدب الانجليزى من أقدم أيامه ، وهى تزداد باطراد عصرا بعد عصر ، بينما هى تكاد تنعدم فى الأدب العربى ، وما كان منها فى صدر تاريخه قد تضاعل بكر العصور .

فالانجليز بطبيعتهم العملية لم يترددوا فى زج الأدب فى غمار (١) الحياة العملية والاستعانة به فى شئونها ، وأدباؤهم لم يحجموا عن الأخذ بحفظهم من أشغال الدنيا ومخاطراتها ، أما العرب فعلى عظيم منزلة الأدب لديهم وشدة احتفائهم به ، كان أدبهم دائما بواد والحياة العملية بواد ، وكان فنا نظريا محضا من توفر عليه انقطع عن غيره وعاش فى عالم من الحفظ والرواية والتاريخ والتصنيف .

فكان من أدباء الانجليز من ضربوا بسهم فى الفن والعلم والدين والحرب والكشف الجغرافى وكبار وظائف الدولة ، ولهم مع ذلك مؤلفاتهم الشعرية والنثرية المعبرة عن خوالجهم النفسية ونفكراتهم فى شؤون الحياة مستقلة تمام الاستقلال عن وظائفهم فى الحياة العملية أو متأثرة بها ، ومن أولئك سبنسر وبيكون ورالى وبنيان وسدننى سميت ودزائيل .

(١) غمار . جمع (غمرة) وهى الشدة .

ومنهم من شاركوا فى التقلبات السياسية فكانوا دائما فى صف الحرية وفى جانب الشعب ، ولم يستظل منهم الا القليل بلواء الملكية ابتغاء السلامة والغنيمة . ومن ضربوا بسهم فى هذا الباب توماس مور مؤلف « اليوتوبيا » الذى قطعع اليزابث يده لدفاعه عن حرية الشعب الدينية ، ويقال انه بعد قطع يده رفعها هاتفيا بحياة الملكة لأنه كان يحب ملكته الباسلة ، ولكنه كان أكثر حبا للحرية والشعب . ومنهم ملتون الذى أيد الجمهورية فى ظل كرومويل وعمى بصره فى الدفاع عنها أمام أنصار الملكية .

ومنهم من اضطلوا بعقب الاصلاح الاجتماعى الأخلاقى عقب الفساد الذى تركته الملكية العائدة من فرنسا بعد موت كرومويل ، واديسون ، وستيل بطلا هذا الاصلاح الناجع الفريد فى بابة . ومنهم من كرس أعماله لاصلاح حال العمال عقب التطور الصناعى وزعيمهم دكنز ، او لاصلاح القانون الجنائى ومعاملة المسجونين تمشيا مع عصر النور والحرية ، ومن أولئك جالزورذى . ومن الأدباء الفكتوريين من صرف همه الى ترقية الجمهور والذوق العام بالمحاضرة عن الفن والأدب ، وكبير هؤلاء مرسكن . وزادت هذه النزعة الاجتماعية الاصلاحية بتشعب نواحي الحياة حتى طمت فى عصرنا الحاضر .

بل كان من أولئك الفكتوريين جماعة خاضوا ميدان الصناعة والتجارة ، فأنشأوا شركة لصنع الأثاث ، وكانوا يرسمون تطوير الأثاث بأنفسهم ، اذ ساءت الطرازات الشائعة فى عهدهم ، وأنشأ أحدهم وهو الشاعر المصور وليم موريس مطبعة ومعملا للحبر لكى يطبع كتبه على النمط الذى يختاره وبالحبر الذى يفضله .

بل كان من أدباء الانجليز من عاف الاجتماع الانسانى قاطبة ونقم على أنظمة الملكية والكنيسة ، وحاول انشاء مجمع جديد تسود فيه البساطة والمساواة والاخاء ، ومن هؤلاء شعراء عهد الثورة الفرنسية ، فالكتاب الفرنسية الذين مهدوا لتلك الثورة أمثال روسو وفولتير اكتفوا بالعمل النظرى وتركوا التنفيذ لغيرهم ، أما معاصروهم ومن جاء بعدهم من الأدباء الانجليز فحاول كثيرون منهم تنفيذ العمل بأنفسهم . وقد انتقل شيلى الى ايرلندة ثم الى اوربا لانشاء مدينته الفاضلة ، وان يكن قد منى بالفشل فى الحالتي ، وعاضد وردزورث الثورة الفرنسية بقوة لمناذاتها بمبادئها المعروفة حتى نقم على دولته اعلانها الحرب على فرنسا الشائرة ، وكاد ينتظم فى أحد احزاب الثورة ، ويركب تيارها الخطر .

أولئك بعض رجال العمل من أعلام الأدب الانجليزي المساهمين في الحياة الاجتماعية بفكرهم ومجهودهم ، وما نخلنا واجدين مماثلهم بين أعلام أدبنا : فقد كان من يتوفر على الأدب من أبناء العربية ينصرف كما تقدم عما عدا الأدب ، ويقصر أدبه على التعبير عن خواجه الفردية وذكر مآربه وحبه وسرابه وغضبه ورضاه ونعيمه وشقائه ، ويكاد لتوفره على الأدب لا يجد قوت يومه ان لم يكن له مورد سهل ، ويضطر الى التقرب الى مولى يمتدحه ويفوز بأعطيته ، وقد كان هذا من دواعي استئطالة هذه الظاهرة في الأدب العربي : ظاهرة المدح التي سرعان ما تلاشت من الأدب الانجليزي .

والقليلون من أعلام الادب العربي الذين شاركوا في الحياة العملية اسما صنعوا ذلك جريا وراء مطامعهم الشخصية لا دفاعا عن مصالح اقوامهم ، ولذا كان أقصى همهم أن يستوزروا للحكام ، ولم يدر بخلداهم مناقشة سياسة أولئك الحكام ، وانما ظلوا ابواقا لهم وكثبة مجيدين ، ومن لم كان ما يتصل بالسياسة من ذخائر الأدب العربي ، هو الرسائل الديوانية التي دججها أولئك المنششون على لسان أمرائهم .

والمجيدون من أعلام الادب العربي الذين ساهموا في حياة العمل بسناهضة السلطة القائمة كقطري بن الفجاءة مثلا قلائل ، وكان جلهم في صدر الاسلام ، ومن لم يفعل ذلك منهم طلبا لغاية شخصية فعله لعقيدته المدينية حين كانت العقائد الدينية مضطربة في الصدور .

لقد كان الشعر والخطابة في الجاهلية ادانين من أدوات الحياة العملية والسياسية في ذلك المجتمع البدوي ، فلما جاء الاسلام كان في أصوله شوريا يخول الرعية مشاورة راعيها ، ولكن دولته قامت على بقايا الملكيات المستنبدة القديمة ، فقامت الخلافة العربية على غرار تلك الملكيات التي تجمع الأمر كله بيدها ، ولم يعد الخليفة يشاور اذا هو شاور رعاي لحق الرعية عليه بل التماسا للرأي ان اعوزه ، ولا هو كان ملزما باتباع مشورة غيره ، وصار من المسلم به ان الحكم للأمير لا دخل للرعية فيه . وبدهى أن الأدب الذي ينمو في مثل هذه الظروف يظل مكفوبا عن شئون السياسة كما كانت بقية الرعية مكفوفة ، فهذا سبب انعزال الأدب العربي عن السياسة .

فالآداب ممثلو امهم : ففي الجلترا حيث كان الدستور والحياة النيابية هما العقيدة التي يدين بها الشعب شارك الآداب كما شارك غيرهم من أفراد الشعب في الحياة السياسية وتوطيد اركان الحرية ، وفي الاقطار

العربية حيث كانت الملكية المطلقة هي القاعدة أحجم الأدباء عن خوض غمار السياسة كما كان بقية الشعب محجما .

ولقد خفف من وطأة الحكومة المطلقة على الأدب أن أكثر الخلفاء والأمراء كانوا أدباء أو عشاقا للأدب ، وكانوا جميعا يقربون رجال الأدب . ويغدقون عليهم ، على أن هذه الحالة كانت لها مساوئها بجانب مزاياها : اذ زخر أدبنا دون غيره من الآداب العالية بأشعار المديح والتهنئة والاستجداء ، وشتان بين أدب ينمو في ظلال الحرية والاستقلال ، وآخر بين قيود الرعاية والحماية والمنحة .

كان الدستور محور السياسة في إنجلترا ، وكان الدين محورها . في الاقطار العربية ، فعليه انقسمت الأمة أحزابا في أول الأمر ، ومنه انبعثت الفتن والثورات وقامت الأسر الحاكمة وتقسمت الامبراطورية العربية دولا ودويلات ، وبخافز منه جاهد المسلمون الروم ثم الفرنجة . كان الدين في كل هذه الأطوار مبعث النشاط السياسي وزناد الروح الوطنية والقومية ، ولا ترى الشعر العربي يحفل بالحماسة وروح القومية الا في عصور الجهاد تلك .

فالحياة الديمقراطية في إنجلترا كانت العامل الأول في اتسام الادب الانجليزي بالنزعة العملية ومساهمته في الحركات السياسية والاجتماعية ، واختراع الطباعة كان عاملا آخر ساعد اتصال الأدباء بالحياة الاجتماعية واعتمادهم على جمهور القراء بدل الاعتماد على منح الأمراء ، ونتج من توثق هذا الاتصال نشوء الصحف الدورية فكانت عاملا جديدا في هذا الميدان أعقبه تعميم التعليم .

فعاملا امتلاء الأدب الانجليزي بالنزعة العملية هما الحياة الديمقراطية أولا وانتشار المطبوعات ثانيا ، وقد كان كلا العاملين يعوزان الأدب العربي ، ومن ثم يزخر الأدب الانجليزي بالشئون الاجتماعية والسياسية والوطنية بينما يقتصر الأدب العربي على وصف المشاعر الانسانية العامة وتصوير حالات النفس وأطوار الفرد .

الأثر الأجنبي (★)

فى الأدبين العربى والانجليزى

تتفق اللغتان العربية والانجليزية فى خروجهما من جزيرة منعزلة ، وانتشارهما فى امبراطوريتين متراميتين ، وفى تأثر أدبيهما بهذا التوسع العظيم وبالاختلاط بالأمم الأخرى وآدابها ، ولكنهما يختلفان فى كيفية هذا التأثير ونواحيه ومداه ، لاختلاف الظروف التى اكتنفت قيام الامبراطوريتين .

فقد صحبت قيام الدولة الاسلامية ظروف أربعة كان لها أبعد الأثر فى تاريخها السياسى وفى تاريخ أدبها : فهى أولا قد قامت على أساس دعوة دينية تنتظم الأمم ، وتسوى بين الناس ، وتعد المؤمنين بها من مختلف الأجناس اخوانا . وهى ثانيا جاءت مبكرة غاية التبكير ، ولم ينقض على تأسيس الدولة العربية الأصلية فى الوطن الأصلى - جزيرة العرب - غير سنوات قلائل . وثالثا تم تأسيسها بسرعة نادرة المثال فى التاريخ نتيجة نجاح العرب الحربى الباهر ، وأخيرا انبسط سلطانها على أمم تفوق العرب الفاتحين غنى وحضارة وثقافة .

هذه العوامل الأربعة - بما انطوت عليه من خير وشر - كانت حاسمة فى مستقبل الدولة العربية . فمساواة الاسلام بين الناس - مساواته بين العرب الفاتحين وبين الأعاجم المغلوبين - هيات لهؤلاء أن ينافسوا العرب فى الحكم والرياسة وكافة أسباب الحياة . وقيام الامبراطورية مبكرة قبل أن تتوطد الدولة فى وطنها الأصلى من جهة جعل قبضة الوطن الأول على ممتلكاته واهية سرعان ما انحلت ، وانفصلت جزيرة العرب أو كادت عن بقية الامبراطورية وعادت الى ركودها الأول ، وخرجت منها عاصمة الحكم ، ومن جهة أخرى جعل الحكم الفردى المطلق هو النظام الوحيد القادر على ادارة تلك الأصقاع المترامية ، فأهملت الضرورى التى حض عليها الاسلام ، والتى كانت مرعية قبل أن تمتد أطراف الدولة وتخرج العاصمة من الجزيرة . وسرعة تأسيس الامبراطورية

(★) بدءا من هذه المقالة استخدم لخرى أبو السعود مصطلح (الادب المقارن)

كعنوان للمقالات .

عمر الفاتحين بطوفان من الثروة نشر الترف والفساد نشرا يزرى (١) بكل ما عرفته روما عقب فتوحها شرقا وغربا . وامتداد سلطان العرب على أهم تفوقهم حضارة وثقافة جعل من الحتم استعانتهم بأبناء تلك الأمم فى الإدارات والصناعات التي لم يكن لهم بها عهد من قبل .

وقد استفاد العرب من سياسة المساواة والتسامح والعدل التي جروا عليها فى إدارة امبراطوريتهم أن انتشر دينهم ولغتهم فمحقا الأديان واللغات السابقة فى معظم أملاكهم وحلا محلها . ولكن دولتهم جاءت - من جراء أربعة العوامل آنفة الذكر - شعوبية لا عربية صميمة ، مستبدة الحكومة ، مترفة المجتمع ، متنافرة العناصر ، منطوية على عناصر كثيرة من الانحلال .



كانت الظروف التي لا بست قيام الامبراطورية الانجليزية وانتشار اللغة والأدب الانجليزيين عكس هذه تماما : فقد توطدت الدولة الانجليزية فى وطنها الأول توطدا تاما مدى قرون قبل أن تتجه الى التوسع الخارجى ، واقتبس الانجليز حضارة جيرانهم وثقافتهم حتى صاروا فى مقدمة الأمم . فلما راحوا ينشرون سلطانهم لم يخضعوا أما تفوقهم مدنية كما كانت حالة العرب مع الفرس ، أو حالة الرومان مع الاغريق ، وتكامل بناء امبراطوريتهم تدريجيا مع سير الزمن وتطور الحوادث ، فلم يبتلوا (بضم الباء) بسيل مفاجئ من الثروة والترف يززع دعائم مجتمعهم ويوهن متانة أخلاقهم ، ولم يكونوا بسبيل دعوة دينية أو انسانية تسوى بين القاهرة والمقهور ، بل كانوا وما زالوا يعتبرون رسالتهم اخضاع الآخرين وحكمهم لا مساواتهم بأنفسهم ، ومن ثم ظلوا متعالين عن الأمم المغلوبة مستأثرين بالكلمة العليا دونها محتاجين عن أفرادها فى المجتمع لا يخالطونهم ولا يزاوجونهم الا فيما ندر .

لذلك كله قامت دولتهم انجليزية صميمة . واتسق للنظام الديمقراطي أن يزداد تمكنا مع ازدياد اتساع الدولة ، بعكس ما كان فى حالتى العرب والرومان ، وظل للوطن الأول فى الامبراطورية الانجليزية المقام الأول ، وبقيت به حاضرة الحكم التي تجمع سلطتها الأطراف وتؤثر فى غيرها من أجزاء الامبراطورية أضعاف ما تتأثر بالغير .



(١) يزرى : يعيب ويعاتب عليه .

تلك الظروف التي صاحبت امتداد الامبراطوريتين واختلاط الأمنين بالعناصر الأجنبية كان لها جميعا أعظم أثر فى تاريخ أدبيهما كما كان لها أثر فى تاريخها السياسى ، وهو أثر مزدوج يشمل معالجة أبناء الأمم المفتوحة لأدب الأمة الغالبة ، كما يشمل اطلاع أبناء هذه الأخيرة على آداب الأمم المقهورة ، وهنا أيضا يتباين الأدبان العربى والانجليزى .

فالعرب قد سمحوا للمسلم من أية أمة أن يباريهم فى معاناة أدبهم كما باراهم فى شئون الحرب والحكم ، فما لبث الأجانب الداخلون فى العربية أن بدؤوا العرب فى هذا الباب بحكم قديم ثقافتهم وتليد (٢) حضارتهم كما بدؤهم فى غيره ، وما لبثوا أن صار منهم أئمة الأدب العربى ، واستأثروا أو كادوا بكتابة الدواوين ووزارة الخلفاء وصلات الأمراء .

ولم يكن من الخير فى شئ للأدب العربى أن يتسلط عليه أولئك الغرباء الواعلون ، وكانت لهم فيه آثار سيئة : فهم مهما تكن ثقافتهم ومهما بلغ انكبابهم على دراسة العربية غرباء بطبعهم عن الأدب واللغة والذوق الأدبى العربى وتقاليده ومراميه ، فلم يكتبوا أو ينظموا على السجعية بل كانوا دائما مقلدين متعلمين : قلدوا متقدمى العرب تظاهرا باندماجهم فى العربية ، فكانوا عنصر تقليد ومحافظة ، لا عنصر ابتداء وتجديد فى الأدب ، وتعملوا فى اللفظ تظاهرا بتفقههم فى اللغة ، فادخلوا الصنعة والبهرج والزيغ فى الأدب بدل أن يوسعوا أغراضه ويسموا بمعانيه .

فسريان العنصر الأجنبى الأعجمى فى الأدب هو مرجع تغلب الصنعة على الطبع فى كثير منه ، ومرجع تغلب نزعة التقليد على نزعة التجديد فى كل عصوره . وكفى بهذين داعيا الى جمود الأدب ثم تدهوره . ولا شك فى أنه لو بقى الأدب وقفا على العرب الصميمين ، وظلت الكلمة العليا للعرب نى الدولة ، وظلت هذه الدولة مهنددة المساحة لا تتجاوز كثيرا حدودها الطبيعية ، لجاأ الأدب أقرب الى الطبع وأحفل بمظاهر الفن وأوسع مدى وأسعى أفقا وأطول عمرا ، ولكان له تاريخ غير الذى كان .

أما الأدب الانجليزى – وسنن الانجليز التى جروا عليها فى توسيعهم واتصالهم بالأمم الأخرى هى ما قدمنا – فكان أقطابه بعد قيام الامبراطورية – كما كانوا قبلها – انجليزا أقحاحا (٣) يعبرون عن الطبع الانجليزى

(٢) تليد : قديم وأصيل .

(٣) أقحاحا : (قح) : أى خلا من الشوائب الغريبة .

والبيئة الانجليزية ، ويفقهون روح لغتهم وتراث أدبهم ، ويصدرون عن تقاليدهم المجيدة ، فلا غرو أن جاء الأدب الانجليزي طبيعيا فنيا صادقا التعبير سامي المقصد بعيدا عن التكلف ثوارا على الجمود .

فهذا فرق ما بين الأمتين في الاتصال بالأجانب . وهناك فرق بينهما في الاتصال بآداب أولئك الأجانب لا يقل خطورة عن سابقه . فالعرب الذين قبلوا الأعاجم أندادا في دينهم ولغتهم وأدبهم ترفعوا عن آداب ملك الأمم ، ولم يروا بأنفسهم - وهم معادن البلاغة وفحول الخطابة ، واختهم لغة الدين والدولة والقرآن - حاجة الى الاطلاع على آداب غيرهم ، فظفروا الى الأدبين الفارسي واليوناني وغيرهما شمرزا ، وخسروا بذلك كثيرا وضائق أفق أدبهم كثيرا لاعتزاله غيره .

على حين أن الانجليز الذين ضنوا بقوميتهم وترفعوا عن سموهم من الأمم في الحكم وفي المجتمع لم يترفعوا عن آداب تلك الأمم الجديرة بالدرس ، فانتفعوا قبل توسيعهم وبمساهم بالآداب الايطالية والفرنسية والألمانية ، بله (٤) آداب الأمم البائدة من اغريق ورومان ، أوسموا الى ذلك درسا واطلاعا ونقلوا ، فأخصبوا أدبهم أى اخصاب ، ووسعوا أطراف لغتهم ذاتها . وعلى هذا النحو استفاد الانجليز بخير ما فى الآداب الأجنبية دون أن يفقدوا شخصيتهم فى غمار تلك الآداب ، أو يسمموا للأثر الأجنبى أن يفسد ملكتهم الاصيل وطبعهم الخاص .

فالظروف التى أحاطت بانصاف العرب بغيرهم ، وتأثر أدبهم بالآداب الأجنبية ، والسنن التى استنها العرب فى معاملة الأجانب ، لم تكن خير ما يساعد الأدب العربى على النمو الصحيح والازدهار الطويل . واللغة العربية المحكمة البناء ، البارة التعبير ، الغنية الجوانب ، التى أينعت تحت سماء البادية لم يتح لها فى أرض الحضارة من يوجهون بالبحر أساليبها أحسن التوجيه الى دراسة النفس الانسانية ووصف المجتمع البشرى ، وكان رقيها العلمى فى ظل الامبراطورية الاسلامية اعظم بكثير من رقيها الأدبى .

(١) بله : ناعم رخى

طور الثقافة

فى الأديب العربى والانجليزى

يمر ادب كل أمة بثلاثة أطوار كبرى تتبع فى عهود رقى الجماعة :
 فطور الهمجية يليه طور البداوة ويلى هذا طور الحضارة ، وفى الطور
 الأول لا يكون للأدب وجود مستقل بنفسه ، بل يكون الشعر تعبيرا ساذجا
 عن بسيط العواطف ممتزجا بالغناء والرقص ، ويكون النثر سذورا من
 الخرافات والمعتقدات المتوارثة عن الآلهة والجان وقوى الطبيعة . ويأتى
 الطور الثانى بارتقاء عقلية الجماعة بممارستها أعمالا أرقى وأدق واختلاطها
 بالأمم الراقية ، وفى هذا الطور يتميز الشعر ويستقل عن غيره من الفنون
 وتتسع جوانب النثر . ولكن يظل الشعب على رغم ارتقائه العقلى فطريا
 متبديا ، حتى اذا عبر هذا الطور الى طور الحضارة ازداد ترفا فى الحياة
 ومارس العلوم المنظمة وعرف الكتابة . فظهر فى أدبه أثر الثقافة والفن
 والصناعة .

وقد مر الأدب العربى بالطور الثانى من هذه الأطوار فى عهد
 الجاهلية وصدر من الاسلام : وفى ذلك العهد كان العرب على جانب يعتمد
 به من الرقى العقلى لمزاولتهم التجارة ووقوفهم على حضارة الفرس والروم ،
 وفى ذلك العهد نضجت اللغة العربية نضجا عظيما وبلغ الشعر من الرقى
 شأوا (١) بعيدا ، بيد أن الأدب ظل فطريا بعيدا عن أثر الثقافة والدراسة
 والتدوين والصناعة ، ثم نهض العرب نهضتين علميتين فى مدى قرنين :
 أولاها بظهور الاسلام ونزول القرآن وفتح الأقطار ، والثانية بترجمة
 علوم الأقدمين ، وبذلك انتقل الأدب العربى الى الطور الثالث من أطوار
 رقيه : طور الحضارة والثقافة .

وقد انتقل الأدب الانجليزى الى هذا الطور أيضا بنهضتين متواليتين:
 الأولى فى القرن السادس عشر بوصول حركة احياء علوم الأقدمين — اليونان
 والرومان — من أوروبا الى انجلترا ، والثانية فى القرن التاسع عشر عقب
 التقدم الصناعى العلمى الذى كانت انجلترا رائدته وكان من أبنائها كثير
 من أئمة النهضة العلمية الحديثة فى علوم الفلك والحياة والطب والنفس
 وغيرها .

(١) شأوا : (الشاؤ) أى الأمد والغاية .

ويلاحظ أن هناك اختلافا في توالى النهضتين في الامنين : فقد كانت نهضة العرب العلمية الاولى داخلية وليدة الدين الذى نشأ بين أظهرهم ، وكانت الثانية خارجية آتية من نقل علوم الأمم الاخرى ، بينما فى انجلترا جاء هذا النقل عن الاقدمين أولا ثم كانت النهضة التالية داخلية نتيجة لتحسين أبناء البلاد لما نقلوه من علوم غيرهم .

وقد أوفى العرب على الغاية فى الشغف بالعلوم والجد فى نحصيلها ، وأظهر امراؤهم من التقدير للعلم وأهله والرغبة فى خدمته والبذل فى سبيله ما لم يظهره ملوك دولة فى التاريخ ، وكانت رعايتهم للعلماء - بعكس ما كان تقريبيهم للشعراء - جليل النفع بعيد الأثر .

وكان للعرب من اللغة العربية الرحبة الجوانب ، الطيبة الاسلوب ، الغنية بطرائق الاشتقاق ، خير معاون فى جدهم فى درس العلوم ، وامتلأت جوانب اللغة بضروب الدراسات والثقافات ، وكان رقيها العلمى فى عهد الدول الاسلامية يفوق كثيرا رقيها الأدبى : فبينما ظل أدباء الجاهلية دائما أساتذة للمتأخرين يحتذونهم فى الأدب ، أمعن علماء الاسلام وفلاسفته فى مذاهب من التفكير والبحث لم يسمع بها الجاهليون ولا خطرت لهم على بال .

ولم يقصر أدباء العربية عن غيرهم فى تلك الحبلبة العلمية المحتدمة ، ولم يكونوا دون سواهم شغفا بالعلم وطلبا لشوارده ، بل كان أكثرهم مثقفين ثقافة علمية وأدبية عالية ، وقد تلقوا علومهم على طريقة عهدهم : فمن نشأ فى يسار أحضر له المؤدبون ، ومن ترعرع فى بيت علم وفضل قام أبوه بتأديبه ، ومن قصر به جده عن هذا وذاك تنقل بين الأدباء واختلف الى العلماء حيث كانوا يجلسون للدرس ، أما المدارس والجامعات فلم تنشأ الا متأخرة ، قبيل بدء عهد الركود الفكرى ، ولم يكد يتخرج فيها علم من أعلام الأدب .

وكان من خصائص الثقافة الاسلامية ترامى أطرافها واختلاف أجناس الخاضعين غمارها وشمولها شتى العلوم والمذاهب والعقائد من متفرق الأمم وامتزاج العلم بالأدب والدين بالفلسفة فيها ، وقد ظهر أثر كل هذا فى المؤمنين وفى مؤلفاتهم : كانوا طموحين فى طلبهم العلم يبغون نمثل كل ما فى عصرهم من مناحى التفكير ، وكانوا كذلك طموحين فى مؤلفاتهم يحبون أن يودعوها كل فن . ولو أردنا أن نشير الى الأدباء الذين نالوا حظا عظيما من الثقافة لأحصينا أكثر أدباء العصر العباسى الزاهى بين

القرنين الثاني والخامس الهجري . ويكفي أن نذكر من الشعراء المعري الحكيم المعنى بشئون الكون والفلك والحياة الاجتماعية ، ومن الكتاب الجاحظ العالم الكلف (٢) بدراسة الحيوان وتذوق كل قديم وجديد وقريب وبعيد في الحياة والكتب ، والذي كان - كما قيل - يستأجر المكتبات ليلا ليبيت فيها يستوعب محتوياتها .

تمائل الكتاب والشعراء في الأخذ من الثقافة بنصيب ، ولكن كان الكتاب على العموم أوفر حظا من الثقافة عامة ومن العلوم خاصة ، واقتصر بعض الشعراء على الدراسة الأدبية ، لأن الكتاب كانوا يترشحون للوزارة وكتابة الدواوين والولاية وتأديب أبناء الأمراء ، ولا بد لتلك المناصب من دراية واسعة والمأم شامل . لأن كثيرا من الشعراء لم يكن للشعر عندهم غاية وراء استندار الصلات والجوائز ، ولم تكن وظيفته عندهم تسجيل الآراء والخوارج النفسية ، فلم يكن بهم كبير حاجة إلى دراسة العلوم التي تهذب الفكر ، بل كان حسبهم أن يقفوا على مذاهب القول التي سلكها المتقدمون من الشعراء المداحين ، والباحثين أبرز أولئك الشعراء الذين عاشوا في صميم عهد الثقافة (٣) بنجوة عنها ، فقد كان حريصا على استبقاء السداجة البدوية ، وجاء أكثر ديوانه الضخم مدحا لمن يرجو عندهم العطاء ، وهجوا لمن خيبيوا منه ذلك الرجاء .

كان أعلام الأدب الانجليزي كذلك على جانب عظيم من الثقافة - وقد حصلوا - عدا من قعدت بهم ظروف غير مواتية كشكسبير وجونسون - علومهم في الجامعات التي أخذ نظامها عن العرب وأصبحت مواطن العلم والدرس ، ونسب صيت بعضهم وهم ما يزالون طلابا بها ، وتشترك ثقافتهم مع ثقافة أدباء العربية في الاشتغال على الفلسفة اليونانية ، ولكن بينما كانت دراسة الأدب العربي القديم تتم البساقى من ثقافة الأديب العربي ، كانت دراسة الأدب اليوناني تكمل ذلك الجانب من ثقافة الأديب الانجليزي . ومن ثم كان معظم الأدباء الانجليز ملين باللغتين اليونانية واللاتينية ، ولعرفة اللغات أثرها العظيم في تكوين الأديب وتوسيع أغراض القول ، ويكثر الاملاص الى اليونان والرومان : تاريخهم وأساطيرهم ومشهورى رجالهم في الأدب الانجليزي ، كما تكثر الإشارة الى الجاهلية والجاهليين في الأدب العربي .

(٢) الكلف : المحب المولم .

(٣) بنجوة عنها : بعيد عنها .

ويتشابه رجال الأدبين في الرحلة عن الوطن في نشدان العلم :
فقد كان أدياء العربية يطوفون في البلاد في طلب أئمة العلوم يلزمونهم ،
وفي طلب نوادر الكتب يستنسخونها ، وربما أضافوا الى ذلك حج البيت
الحرام . وكذلك جرت سنة الأدباء والمتعلمين عامة من ذوى اليسار
الانجليز على الارتحال بعد نيل درجاتهم العلمية الى أوروبا وخاصة الى
إيطاليا مبعث النهضة الأوروبية ، وربما أضافوا الى ذلك الحج الى آثار
بلاد الإغريق مهد العلوم والآداب والغنون القديمة . ولهذه الرحلة عن
الوطن - فضلا عن كسب العلم ومصاحبة العلماء - اعظم الأثر في تكوين
نفس الأديب وتوسيع أفق حياته .

وكان لانتشار الثقافة في الأمتين آثاره المتشابهة في الأدبين : فارنقيا
خيالا وأسلوبا وأغراضا ومعاني ، واتسعت جوانبهما ، وظهر فيهما التفنن
والصنعة المقصودة ، وظهرت لغة علمية دقيقة التعبير بجانب لغة أدبية
أنيقة التحبير (٤) ، وظهرت روح النقد وتجلت نزعة الشك من جراء
اصطدام العلوم المستحدثة بالعقائد الموروثة ، واستدت المنازعات الأدبية ،
واحتدمت المشادات بين أنصار القديم وأتباع الجديد ، وظهرت آثار المذاهب
الفلسفية واصطلاحات النظريات العلمية في رسائل الكتاب وفصائد
الشعراء ، ونبغ من المثقفين من يجمعون بين سناعتي العلم والأدب .

ولا ريب في أن هذا الطور الثالث من أطوار رقي الأدب التي أسير اليها
في صدر هذه الكلمة - طور الحضارة والثقافة - هو أرقى ما يصل اليه
الأدب وفيه ينال ما قدر له من أسباب الكمال . وفيه أنتج الأدب العربي
خير نتاجه ، فالأدب لا يبلغ غايته الا في حضارة تحيط به ، وثقافة تغذيه ،
وروح نقد تستمخته . وقد دام هذا الطور الأدبي في العربية زهاء ثلاثة
آلاف سنة ، تخلف لنا منها تراث زاخر يشهد بشغف العرب بالعلم
وولوعهم بالأدب ، ثم عملت عوامل الفساد السياسية والاجتماعية عملها ،
فاضطرب المجتمع ، ونجست الأفكار ، ودخل الأدب في طور تدهوره
الطويل .

(٤) التحبير : (حبر الشيء) أى رينه ونمقه .

الفكاهة

فى الأدبين العربى والانجليزى

إذا انطوت الفكاهة على صادق حكمة أو نافذ نظرة ، وأودعت العبارة المحكملة اللاتقة بها ، كانت فى الفرد دليل صفاء الذهن ولطافة الحس ، وفى الأدب مظهر الرقى والحيوية ، وفى الأمة عنوان التحضر ورقة الطبع . والفكاهة عند ذلك لا تقل مكانة عن أرزن الجدد ، بل ربما بذته وكانت مرآة لميول الفرد والمجتمع أصدق تصويرا من مرآة الجدد الخالص ، والأدبان العربى والانجليزى حافلان بضروب الفكاهة وأوضاعها ، يتفقان فى بعضها ويفترقان فى بعض آخر ، تبعاً للأحوال الاجتماعية .

وإذا كانت الفكاهة كما تقدم دليل التحضر ورقة الحاشية ، قلت آثارها فى الأدب العربى حين كان أقرب الى البداوة زمن الجاهلية ومستهل الاسلام . وفى أدب ذلك العهد نرى آثار اللسن (١) وحضور البديهة وقوة العارضة (٢) ، ونخطىء مظاهر الدعابة الدمثة والعبث الرقيق . وما نحسب الا أن الرسول (ﷺ) الذى كان يمزح ولا يقول الا حقاً كان ممتازاً من معاصريه — فى جملة ما امتاز — بلطف الروح وعدوبة الدعابة ، فقد أثرت عن صحابته المقربين وخلفائه الراشدين أخبار تنبىء عن متانة الخلق وحرارة الايمان وقوة الجدد والكفاح ، ولم يؤثر عن كثير منهم براعة الدعابة ولا الميل الى الفكاهة .

فلما استوطن العرب الأمصار ، واصطنعوا حياة الدعة والاستقرار ، وتذوقوا الحضارة والترف ، ظهرت نتائج كل ذلك فى أدبهم ، وكثرت الفكاهة فى الشعر والنثر ، بل ظهرت طوائف من المجان المتطرفين الذين يصطنعون خفة الروح ويتهكمون بالجد والجادين من رجال العلم والدين ، جاعلين شعارهم قول أحدهم ابن هانىء :

دع عنك ما جدوا به وتبطل وإذا لقيت أبا الحقيقة فاهزل

(١) اللسن : الفصاحة والبلاغة .

(٢) العارضة : قدرة على الكلام .

ومن أظهر مواضيع الفكاهة فى العربية التبرم بالثقل ، والنيل من البخل ، ووصف الأكلين والمطفلين ، والتهكم بمدعى العربية من الموالي ، وعبت المجان بالمتخشين المتورعين ، والسخرية بالمنهزمين من القواد والمقاتلين ، وكل هذه أبواب من القول منتزعة من حياة العرب فى ذلك العهد ، وكلها صفات مضادة لما كان الرجل ذو المروءة العريض على حسن الأحذوثة يتحلى به أو يحب أن يعرف عنه .

وتفنن المتهكمون بالبخل ، فتحدثوا عن وعودهم المطولة ، وحجابهم الغلاظ ، وهباتهم الضئيلة : كالطيلس (٣) التى تتجنى الذنوب على الرياح ، وتعرف الطريق الى الرفاء ، من كثرة ترددها عليه صباح مساء .

ومن بارع التهكم بأدعياء النسبة العربية قول بشار :

أرفق بعمرى إذا حركت نسبته فانه عربى من قوارير
ما زال فى كير حداد يردده حتى غدا عربيا مظلم النور

ويشترك الأدبان العربى والانجليزى فى أبواب من الفكاهة خاصة ، لعلها تستثير روح العبث فى النفس الانسانية على اختلاف الأجيال والأمم ، كالمتهذلقين من أهل الفنون من شعراء وممثلين ومغنين والمدعين لتلك الفنون وأشباهاها . فالتحذلق والادعاء سببان خالدان من أسباب ولوع الناس بالمصنفين بهما ، وما يزال المرء بخير حتى يدعى ما ليس له ويتكلف الاغراب ، والنفس الانسانية بطيئة متثاقلة الى الاعتراف بفضل الأغيار ، دح عنك الاعتراف بالفضل لمن يدعيه وليس من ذويه ، هناك ثور النفوس وتلجأ الى أقسى أسلحتها وهو التهكم .

فشكسبير يسخر على لسان «هاملت» من متحذلقى الممثلين فى عصره ، ويجعل الشائرين المطالبين بدم قيصر ينصرفون هنيهة عن وجهتهم الى مهاجمة شاعر لغثاة شعره ، والجاحظ يقول فى صاحب له متحذلق متعالم : « يعد أسماء الكتب ولا يفهم مغانيها ، ويحسد العلماء من غير أن يتعلق منهم بسبب ، وليس فى يده من جميع الآداب الا الانتحال لاسم الأدب » ، وابن الرومى أوسع من لم يحمد من المغنين والمغنيات تهكما ، وصور أحدهم أقبح صورة فى قوله :

وتحسب العين فكيه إذا اختلفا
عند التنغم فكى بغل طحان

(٣) كالطيلس : الطيلسان وهو ما يعرف بالشال والجمع طيلالس .

وفى الأدب الانجليزى ضروب من الفكاهة منزعة من مجتمعه الخاصة: كالتهكم بالمدعين النبيل الاجتماعى ، والمحدثى النعمة ، والمتشدين بضخم الكلمات لا يفقهون معانيها ، ذلك أن المجتمع الانجليزى - على كون نظامه الحكومى ديمقراطيا - هو أرستقراطى شديد التفريق بين الطبقات ، يتعالى النبلاء فيه عن الدهماء تعاليا لا يقل عن ترفعهم عن أبناء الشعوب الأخرى ، ويكاد يجعلهم أمة داخل أمة ، وبعض العصاميين الذين يؤثلون (٤) ثرواتهم فى ميادين الأعمال أو فى المستعمرات يتطلعون الى الانغمار فيهم ، ويتشبهون بهم تشبها يتعلق بالظواهر ويستثير السخرية . أما التشديق بضخم الكلمات فمرجعه الى تكون اللغة الانجليزية من أصول كثيرة أبرزها اللاتينية الوعرة الألفاظ الكبيرة المشتقات .

ففى كثير من القصص والروايات الانجليزية يظهر الأشخاص المتصنعون السمو الاجتماعى المتكلفون رقة المظهر ودماثة الحديث ، والآخرون المكثرون باطلاعهم على اللغات الكلاسية المقحمون الجافى الألفاظ فى أحاديثهم ، خالطين صحيحها بخطئها ، حتى ليقولون عكس الذى يقصدون أحيانا .

وللفكاهة مجال رحب فى القصة ، حيث يتحرك الأشخاص ويعملون أعمالهم ويتبادلون الأحاديث ، ومن ثم تحفل القصص والروايات الانجليزية ببارع النكات ، وفكه اللغات ، ومضحك المواقف والشخصيات . ونجد الكثير من ذلك فيما قارب القصة من أوضاع فى الأدب العربى : ففى مقامات بديع الزمان ورسالة الغفران للمعرى فكاهات وسخریات هلى غاية فى الامتاع والبراعة .

والفكاهة من أمضى أسلحة الاصلاح الاجتماعى ، وقد استخدمها لهذا الغرض بعض فرسانها من الأدباء الانجليز . والمجال لها متسع فى الأدب الانجليزى ، حيث التمثيل والقصص يصوران المجتمع وينقدانه ، وفى المجتمع الانجليزى، حيث النقد النزيه مباح وحيث للرأى العام القول الفصل فى الحكم على الأنظمة والتقاليد . أما فى الأدب العربى فقلما اتجهت الفكاهة اتجاها اجتماعيا ، بل ظلت فردية كغيرها من أغراض الأدب ، اذ لم يكن الحكم المطلق الذى خضعت له الدولة العربية بمساعد على نمو النقد واشتداد ساعد الرأى العام .

(٤) يؤثلون : يدخرون المال ليسبضروه .

وهناك لون من الفكاهة يرمى به المتفكه الى ضد ما يقول : فيتنقع بالجد وهو يبغى الهزل ، ويبدى الوقار ويخفى العبث ، ويتظاهر بالمدح والقدح يريد ، ويغالى فى التفتيح قاصدا التهوين ، ويدعى هذا الضرب من الفكاهة بالانجليزية Trony ، وربما أمكن تسميته « التندر » ، والأدب الانجليزى حافل به ، ولعله يناسب الطبع الانجليزى ، وهو شديد المضياء (٥) فى أيدى الناقدين لأحوال المجتمع . ومن فرسانه المجلدين (سويفت) . أما فى العربية فهذا النوع من الفكاهة نادر ، ولعل أصلح مثال له مقطوعة المتنبى التى نظمها حين رأى أعرابيين يتفاخران بقتل جرد ، ومنها يقول :

وأيكما كان من خلفه ؟ فان به عضه فى الذنب

وقول بشار وفد تفاخر أمامه رجل بأنه شاعر من نسل شعراء :
« اذن أنت من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا » .

ويشترك الأدبان فى ضرب من الفكاهة هو هجاء المرء نفسه وضحكه من عيوبه . على أنه فى كلا الأدبين غرض من القول متكلف ، يطلب به النظر ويعوذ الصدق والعمق . فالانحاء على النفس بالتشريب (٦) ليس حلقا فى الانسان بله الأديب ، والذى يتصنع نقد نفسه لا يضع يده على مغامره وعوراته الصحيحة ، ولا يسطر لنفسه الا مدحا بما يشبه الدم ، ولو رماه غيره بما يرمى به نفسه طلبا للظرف لثار به وأنكر مزاعمه أشد انكار .

ولما كانت المرأة الانجليزية أكثر بروزا فى المجتمع والأدب من المرأة العربية ، فقد نالت دونها حظا عظيما من مداعبة الأدباء الذين أوسعوا غرائزها ومتناقضات أفعالها درسا وتصويرا . ومن أبرع من كتبوا فى ذلك (يوب) الذى نظم قصيدة طويلة على طراز الملاحم الكلاسيكية أودعها وصفا دقيقا لأحوال فتاة جعلها نموذج المرأة فى مجتمعه ، من احتفالها بالأزياء وتذبذبها بين المعجبين بها ، الى كل صغيرة وكبيرة فى حياتها المنزلية والخارجية فى أسلوب متهمك شائق .

(٥) المضاء : حادا

(٦) بالتشريب : اللوم

ومن الفكاهات ما قوامه التلاعب بالألفاظ المتشابهة في النطق أو الكتابة ، وقد كان هذا العبث اللفظي شائعا على عهد شكسبير الذي ضرب فيه بسهم ، ثم أهمل بعد ذلك في الانجليزية واستثقل . أما في العربية - حيث كانت للألفاظ عند الأدباء دائما مكانة عالية - فظل هذا الضرب من التفكه مألوفا . فأبو نواس يوافق مدعيا للنسبة العربية على انتمائه الى طلي ، ولكن مع اضافة نون وباء في أول الكلمة . ويقول في بخيل :

وما خبزه الا كآوى يرى ابنه ولم ير آوى في حزون ولا سهل

وقد ازدهرت الفكاهة في الشعر العربي في صدر العصر العباسي ، وبرز في مضمارها في أجيال متتالية طبقات على رأسها بشار فابو نواس فدعبل فابن الرومي ، وتمتاز في شعر الأولين بالاستهتار ، وفي شعر الثاني بالصرامة ولذع السخرية ، وفي شعر الأخير ببراعة التصوير . وازدهرت الفكاهة في الشعر الانجليزي في العهد الكلاسي أي في أواخر القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر ، وهو العهد الذي اشتد فيه الأثر الفرنسي في الأدب والمجتمع الانجليزين ، وكان من فحول الفكاهة فيه - ويقت وبوب ودريدن -

والحق ان ذلك العهد هو أشبه عهود الأدب الانجليزي بالأدب العربي . ففيه انضوى الأدب حينما تحت جناح الملكية وسار في ركاب الحاكمين . واختلط بالسياسة وخاض غمارها ، وانغمز في جو المدنية راكبا جانب الطبيعة ، وتأنق في اللفظ وأغرب في المعنى ، واحتدمت الخصومات الأدبية السياسية بين رجاله مماثلة لما كان بين جرير والفزدق ، وبشار وحماد ، والبيديع والخوارزمي ، من مصاولات ومعارعات ، وولع الأدباء بالوزراء والقواد ، وفشت الفكاهة واتخذها فريق سبيلا للمجون . وفريق ذريعة للنقد الاجتماعي والاصلاح .

وقد نظم دريدن أحد فحول ذلك العهد قصيدة هجاء لشاعر مزاحم لا أفعمها بالتهكم المكسو بشوب الجد ، وبوأ غريمه « عرش الغباوة » في جبر من الجلبابة والمراسيم والبراكب والشارات مماثل لتتويج الملوك ، وجعله يلى ذلك العرش معهودا اليه من شاعر غبي من شعراء الجيل السابق ابيلهما . ولهذا القصيدة الساخر مماثل في النثر العربي شديد الشبه به . وان يكن قد كتب قبله بنحو ثمانية قرون ، أعنى العهد الذي كتبه الجسابي على غرار عهود الخلفاء والأمراء الى عمالهم ، على لسان مطفل أكلول الى آخر هو المقصود بالدعابة ، وقد بدأه بقوله : « هذا ما عهد به على بن

أحمد المعروف بعليكا ، الى على بن عرس الموصلى حين استخلفه على احياء
سننه ، واستنابه فى حفظ رسومه ، من التطفيل على أهل مدينة السلام
وما يتصل بها من أرباضها (٧) وأكنافاها ، ويجرى معها فى سوادها (٨)
وأطرافها ، لما توسمه فيه من قلة الحياء ، وشدة اللقاء ، وكثرة اللقم ،
وجودة الهضم » .

هــ

وتتسم الفكاهة فى الأدب الانجليزى على العموم بالعفة التى هى
سمة الأدب كله كما سبق ذكره فى كلمة سالفه ، أما فى الأدب العربى
فتهوى أحيانا فى يد الهجائين الى حضيض السباب ، وفى يد المجان
المستهترين الى ومدة الأفحاش . وتتعلق الفكاهة الانجليزية بالصفات
والأخلاق والأعمال وتكشف المتناقضات من آراء الناس وأقوالهم ، وفى
العربية يتناول العبث الخلق (بفتح الخاء وسكون اللام) بجانب الخلق
(بضم الخاء واللام) . فدعابات ابن الرومى ملأى بذكر أعضاء الجسم
من أنوف وأقفية ولحى ، وعيوبه من حذب وصلح وعور . ويشبه المبعوث
بهم بالحيوان ، فيقول حماد وقد زعم بشار أن له جنيا يوحى اليه :

إذا خادما، الجنى قردا مشنفا فقل لخنازير الجزيرة أبشرى

وفى كلا الأدبين فحول من الأدباء نأى بهم طبعهم عن الفكاهة . وسما
بهم قصدهم فى الحياة عن العبث ، واتسمت آثارهم وحياتهم بالجدة
والعبوس ، منهم فى الانجليزية ملتون ووردزورث ، وتينيسون ، وفى
العربية المتنبى والشريف والرضى ، وأمثال أولئك عادة ذوو مطامع بعيدة.
يستغرق نشدائها أنفسهم ، أو رسالات لا ينفكون عن النظر إليها ، أو
مثل عليا يحسون أن التفكه يهبط بهم من عنانها .

(٧) أرباضها : ما حول المدينة .

(٨) سوادها : قرانها .

أسباب النباهة والخمول

فى الأدبين العربى والانجليزى

الممارسون للآداب نشرا ونظما فى كل أمة وفى كل جيل أكثر من أن يعدوا ، لأن الافصاح عن خوالج النفس وتأثراتها بما تحس وما ترى طبعى فى الانسان ، وانما ينبه من أولئك الممارسين للآداب القليلون ويخلد الأقل . يميزهم من غيرهم سداد الفكر ولطف الشعور وروعة الأسلوب . ومن أولئك يكون أعلام كل أدب ، ترفعهم عبقريتهم فوق رؤوس معاصريهم ونحشى بهم على عواتق (١) الأجيال .

غير أن للمصادفات والحظوظ والظروف دخلا كبيرا أو صغيرا فى صعود الأدباء وهبوطهم ، فتعدل أحيانا وأحيانا تجور . والأرجح أنها كانت كثيرة الجور والاجحاف فى الأدب العربى ، وكانت أشبه بالعدل والانصاف فى الأدب الانجليزى ، فقد صاحبت الأدب الانجليزى ظروف طليعية مساعدة تسمح للعبقرية الفردية أن تسلك سبيلها غير معتاقة (٢) . وأحاطت بالأدب العربى عوامل عارضة أدت الى رفع بعض من لا يستحقون الرفعة بجوار من يستحقونها ، والى خفض من هم أولى بالرفعة والنباهة .

فقد ترعرع الأدب العربى ونضج وقومه أميون لا يقيدون فى القراطس آثار أدبائهم وأخبارهم ، وانما يروونها رواية ويتوارثونها تواترا جيلا بعد جيل ، والرواية أقل من الكتابة نصيبا من الدقة وحفظ الآثار والتمييز بين الغث والسمين والبصر بما يستحق البقاء ، فكان من جراء ذلك أن ضاع شعر كثير ونثر أكثر ، واندثرت أخبار أدباء لعل منهم من كان أجدر بالخلود وأجدر باعجاب الأجيال التالية ممن خلد ، ولم يصلنا من أخبار قرون طويلة قبل الاسلام وبعده الا كل مبتور غير مستوثق .

فلما صارت الرواية صناعة يطلب بها علو الذكر ودر الرزق وتقريب الأمراء ، كان ذلك ضغثا (٣) على أباله ، اذ اشتد عنث الرواة .

(١) عواتق : العائق : ما بين المنكب والمنق والجمع (عواتق) .

(٢) معتاقة : اعتاقه أى عوقه ومنعه .

(٣) ضغثا : ملتبسا ومضطربا يصعب تأويله .

بما بين أيديهم من الأدب العربي ، وشوهوه بالبتر والوصل والاختراع والنحل ، وحملهم تنافسهم بسعة العلم على تخليد أسماء أنصاف الأدباء وأشياء الشعراء ، وخلقوا شعراء وفصحاء لم يخلقوا من قبل ، وعزوا الى غيرهم من الآثار ما هم براء منه، وهكذا خمل من رجال الأدب من عاشوا في عالم الأحياء ، وعاش في الأدب من لم يشهدوا نور الحياة .

ولما استعملت الكتابة الخطية وقل الاعتماد على الرواية ، ظلت الكتب نادرة والاستنساخ أمرا غير يسير ، ولم تكن الكتب في شيء من الكثرة التي صارت اليها بعد انتشار الطباعة . ثم تعاورت (٤) الدولة العربية الغزوات البربرية المدمرة ، فباد الوثنيون في الشرق ، والنصارى في الأندلس ، كرائم المؤلفات ونفائس الكتب العربية ، فذهبت بذهاب ذلك آثار أعلام من الأدباء واندثر ذكر آخرين .

وكان للمشادات والمقارعات الدينية والمذهبية والعصبية والسياسية والجنسية التي صحبت قيام الدولة الاسلامية ولازمتها في حياتها يد طول في العبث بالتراث الأدبي ، فأخمل ذكر أدباء انهزم حزبهم أو انخذل مبدؤهم ، ونشر عمدا ذكر من ناصروا الغالبين في كل تلك الحلبات ، وتبارى الغالبون والمغلوبون في العبث بتراث أسلافهم الأدبي ونسبة الروايات الملققة اليهم ، ولهم من انتشار الرواية وندرة الكتابة خير معوان .

ويتصل بهذا تقريب الخلفاء والأمراء لرجال الادب ، لا برا بالأدب ولكن طلبا للأبهة وبعد الصيت ، فقد أصبح اتصال الشاعر أو الأديب بالخليفة أو الأمير ضمان النباهة وسيرورة آثاره في البلاد ، كما كان الاخفاق في التقرب الى أولئك الحاكمين داعيا في كثير من الأحيان الى خمول الأديب ، فندر من أعلام العربية النابيين من لم يتصل بالخلفاء والوزراء . ولا يسمع المرء الا أن يتصور أن عصور أبي نواس ومسلم بن الوليد وأبي تمام والبيحري كانت حافلة بأندادهم ، وانما خلصت بهؤلاء لطافة حيلتهم الى حضرة الأمراء فاشتهروا ، وعثر بغيرهم مسعاهم فخملوا . ولقد خمل ذكر ابن الرومي طويلا وانه لأشعر ممن ذكروا جميعا ، ولعل من أسباب خمول ذكره فشل في الاتصال بالخلفاء والوزراء .

ولما استقرت جوائز الملوك أعناق الشعراء ، وأعمل هؤلاء الحيل ، وأذالوا الشعر في استرضاء الممدوحين واستجداء الأثرياء ، ترفع كثير من ذوي الشرف والاباء عن الهبوط الى ذلك المجال ، وأحجموا عن نظم الشعر أو التوفر عليه أو الاشتهار به ، ولسان حالهم قول الشافعي :

(٤) تعاورت : تداولت .

ولولا الشعر بالعلماء يزرى
لكنت اليوم أشعر من لبدي
وان يكن أبو تمام يقول :

ولولا خلال سننها الشعر ما درى
بغاة العلا من أين تؤتى المكارم

فإنما كان يعنى شعر المتقدمين من جاهليين ومخضرمين ممن تغنوا في شعرهم بالنجدة والمروءة والعزة ، وما نخاله كان يعنى الشعر الذى كان ينظمه هو وأضرابه تمليقا واستجداء للرؤساء .

وبذلك حرمت العربية طائفة من الشعراء لعلهم أسمى طباعا وأشرف أغراضا وأصدق شاعرية وأشد حبا للفن من مرتزقة المداحين الذين استأثروا بالجوائز ونباهة الذكر .

ولما فسدت الفصحى تدريجيا باختلاط العرب بالأعاجم ، اشتند الحرص على آثار المتقدمين وتعاطف الإعجاب بهم والرفع من شأنهم ، لا لشيء سوى صحة لغتهم واستقامة أساليبهم ، وان كانت أفكار كثيرين منهم على جانب من السذاجة ، وأغراض شعرهم على حظ من البساطة ، كالحطيئة وابن أبى ربيعة وكثير من الجاهليين .

فهذه عوامل شبتى فعلت فعلها البعيد المدى فى التراث الأدبى العربى ، وساعدت على اعلاء ذكر رجال وخفض آخرين ، وهى ندرة الكتب والاعتماد على الرواية ، والأغراض المذهبية ، وتسخير الأمراء للشعر ، وتكسب الشعراء به ، وفساد لغة الكلام ، وكوارث الغارات . تحكمت كل هاتيك فى أقدار الأدباء وحظوظهم من النباهة ، ولم يكن مرد أمرهم دائما الى النبوغ الشخصى والذوق الناقد ، فلا نبعد عن الصدق اذا قلنا ان الأدب العربى لم يحتو على خير عناصر المجتمع العربى أو يمثله أصح تمثيل ، وان سجل تاريخ الأدب العربى لا يحتوى على جميع أفذاذ الموهوبين من أصحاب البيان الذين أنجبهم المجتمع العربى .

ومن ثم احتل مكان الصدارة من تاريخ الأدب العربى بعض من لا يستحقون ذلك المكان ، ومن لا يعبرون خير تعبير عن أفكار عصورهم وشعورهما ، ومنهم من نال من رفيع الذكر ما هو أهله ، ولكنه لم ينله لمزاياه الصحيحة وأسرار نبوغه الحق بل لمساعدة بعض تلك العوامل السالفة الذكر له ، فقد كان وما يزال من النقاد من يعظم المتنبى لأشعاره الصادقة التى أودعها عصارة روحه الكبير ، بل لأختراعاته الكاذبة فى مدح سيف الدولة وتهنتته وتعزيتته ، من مثل قوله :

إذا نحن سميناك خلنا سيوفنا من التيه فى اعمادها تتبسم

وبجانب تلك النباهة غير المستأهلة أو المبنية على غير أساسها
الصحيح ، خمول ما كان أحق أصحابه بالذكر والتمجيد ، ولقد قال
البحترى :

إذا أرت الدنيا نباهة حامل فلا ترتقب الا خمول نبيه

ولعله هو خير من يعلم كم أخلت الدنيا بنباهته من شعراء ، حين
وفقه الحظ دونهم الى الاتصال بالولاة والخلفاء .

فمن أفذاذ الخوارج أمثال قطرى بن الفجاءة وشبيب بن يزيد من
كانوا أسمى غرضا وأشرف شعرا ونثرا من معاصريهم المداحين ولكنهم
أخل منهم ذكرا . ومن الأبيات السائرة المجهولة القائلين ما تشمل حكمة
يقصر مداها أشباه بشار وأبى نواس ، أو تحوى نسيبا تزرى روعته بكل
ما لفق فى صدور المدائح من نسيب مصطنع ، أو تعبر عن شاعرية صحيحة
ما كان أخرى صاحبها أن يتوفر على إثراء اللغة بفيض قريحته ، ولكن
طوفان تلك العوامل القاسية غمره ورفع غيره ، فمن تلك الآثار الشاردة
قول القائل :

أهابك اجلالا وما بك قدرة على ولكن ملء عين حبيبها
وما هجرتك النفس أنك عندها قليل ولكن قل منك نصيبها

وقول الآخر :

إذا زرت أرضا بعد طول اجتنابها
فقدت صديقى والبلاد كما هيا
فاكرم أخاك الدهر ما دمتما معا
كفى بالممات فرقة وتناثيا

ولم يخل الأدب الانجليزى من آثار الاجحاف وتقلب الظروف :
فإمام شعرائه شكسبير لم ينل فى حياته مثل ما له اليوم من مكانة ، وخمل
ذكره بعد مماته أجيالا . وعلا شأنه خارج انجلترا قبل أن يعلموا فيها .
وقريعه (مضاربه) فى سماء الشعر الانجليزى ملتون قضى أواخر حياته
فى غمرة من النسيان لانخدال مذهب المطهرين الذى كان هو لسانه
الناطق ، وباع ملحمته الذائعة الصيت لوراق بدراهم معدودة ، وظل حقبة

مهملا . وكبير النهضة الرومانسية وردزورث قضى زهرة عمره منبوذا معرضا عنه . . . وبعبكس ذلك سما تنيسون فى حياهه الى أوج الشهرة والاعجاب ، ولم يكد يقضى نحبه حتى هبط ذكره وانصرف الجيل التالى عن شعره .

على أن تلك كلها أمثلة لتقلب الأذواق بتعاقب الأجيال ، وهو أمر طبيعى لا محيد عنه . وقد خلا الأدب الانجليزى أو كاد من تلك الظروف العاتية التى لا بست الأدب العربى وتحكمت فى مصائر رجاله : فقد شب الأدب الانجليزى من عهد اليزابث وقد اخترعت الطباعة ، واطرد رقى الطباعة وانتشار الكتب والصحافة والتعليم مع اطراد رقى الأدب ، ولم يخضع الأدب طويلا لسيطرة الحكام ، وظل مرد الأمر فى تقدير الأدباء الى الرأى العام المتعلم الذى يقيم (بضم الياء الأولى وتشديد مع كسر الياء الثانية) الأديب لفنه الخالص ، فان رانت على بصيرته غشاوة من تقليد جوروث أو مذهب سائد أو مشادة محتدمة فى السياسة ، لم يلبث بعد أن ينبجلى ذلك أن يعود الى انصاف من أجحف بهم واسقاط من لم يستحقوا سمالف تقديره .

فالى أمرين اثنين يدين أعلام الأدب الانجليزى فى مراحلہ المتتالية بنباهتهم وخلودهم : نبوغهم الشخصى ، والذوق العام . وليس بين أقطابه الذين يعتد بهم من لا تؤهله عبقريته لما أوليه فى تاريخ الأدب من مكانة ، أو من مدين بخلود ذكره الى أهواء السياسة أو أغراض المحاكمين أو دسمائس الأحزاب أو تحريف الرواة أو عبث النقاد .

فالنابهون فى الأدب الانجليزى أكثر استحقاقا لمكانتهم من النابهين فى الأدب العربى ، والخاملون المغبونون فى هذا الأخير أكثر منهم فى الأول ، والأدب الانجليزى بما أحاط به من ظروف مواتية أسهل تأريخا ودرسا من الأدب العربى . وهذا الأخير محتاج الى مراجعة ودرس طويل وتاريخ جديد غير التأريخ الذى جرى عليه العرف حتى الآن ليمنح كل أديب حقه من التقدير أو التأخير ، ويؤحزح عن الصدر من لا تؤهله له آدابهم ونظراتهم فى الحياة ، ويستنقد من يستطاع استنقادهم من غمرة الخمول .

الطبيعة

فى الأدبين العربى والانجليزى

الطبيعة التى الشاعر الحميم ، وتوأم روحه ، ومرتع فكره ومتاع
بصره ، ومهبط وحيه ، ومعاهد متعاته وذكرياتة ، الى ظلالها يسكن ،
وبين محاسنها يهيم ، وعندها ينفذ أوشاب (١) العيش وي طرح أعباءه ،
ويستريح فكره الذى أضناه التعب ، ونفسه التى أضجرتها معاشره الناس ،
وتتهدى اليه عذارى الشعر طائفة ، وتسلس اليه شوارد الأفكار مقادها ،
ويظل يلتفت الى ماضى أوقاته بين مباحجها بحدن عذب ، ويأمل معاودتها
بقلب شيق ، فلا غرو أن يكون للطبيعة فى نفس الشاعر المطبوع مكان
أثير ، وفى أدب الأمة الراقية منزلة رفيعة .

وقد نالت الطبيعة لدى أدباء الانجليزية فى أغلب عصورها هذه
المكانة التى هى بها جديرة : فعكفوا جيلا بعد جيل وأديبا اثر أديب على
وصف مظاهرها وعبادة مفاتيها ، وملأوا جانباً كبيراً من نظمهم ونثرهم
بأوصاف الوديان اليانة ، والرعى الحالية والأمواء الجارية ، والأطيار
الصادحة والأفلاك الدائبة والغيوث (٢) الساجمة ، ووصفوا الطبيعة فى
حالى رضاها وغضبها ، وابتزادها ودفتها ، واكتسائها وعريها .

وتوسلوا للتعبير عن فرط هيامهم بمحاسنها المتجددة بشتى
الوسائل : فبثوا أوصافها فى رواياتهم الشعرية وقصصهم النثرية ، كما
فعل شكسبير وهاردى ، وطاروا على أجنحة الخيال الى الوديان السحرية ،
والغابات المجهولة ، والشواطئ النائية ، يرصعون كل أولئك ببدايح
الأوصاف ونفثات العواطف ، وعبادة الجمال الطبيعى ، متخذين مسرحاً
لذلك خرافات الأقدمين كما كان يفعل سبينسر وكولردج وتينيسون
وبراوننج ، أو جنات الفردوس كما فعل ملتون .

(١) أوشاب : الهموم والحزن .

(٢) الساجمة : الغزيرة .

ومن أولئك الشعراء من يدينون بخلودهم لأوصافهم الطبيعية .
الرائعة ، وكلما يهتم أحد اليوم لما نظموا في النسيب أو الاجتماع أو
السياسة ، مثل تينسون ، بل منهم من لم يكذب يؤثر عنه قول في غير
الطبيعة ، أو تخلو قصيدة له من أثر لها ، مثل وردزورث . ولا غرو
فالطبيعة مادة الشعر وصميمه ، ولربما عرض في القصيدة قد نظمت في
أي غرض كان بيت أو بيتان يحويان وصفا طبيعيا بديعا ، فإذا هما يرفعان
من قدرها ويحببانهما إلى النفوس ويكونان سبب اشتهاها وسيزورتهما .

ولا ندحة (٣) عن القول بأن الطبيعة لم تنل هذه الرعاية ولم تحتل
هذه المكانة في الأدب العربي ، ففي العربية لا ريب أوصاف طبيعية بالغة
غاية الجودة ، ولكنها قليلة إذا قيسمت بنظائرها في الانجليزية ، قليلة
إذا قيسمت بما نظم أو نثر في العربية ذاتها في غير الطبيعة من أغراض ،
فليس ما قيل في وصف جمال الطبيعة ببالغ عشر معشار ما قيل في
التشبيب بالجمال الانساني ، ولم يعرف من شعراء العربية من قصر شعره
على التغني بمباهج الطبيعة ، وإن منهم لمن قصر قوله على النسيب بهند
وليلي وأترابهما .

وقلما جاءت أوصاف محاسن الطبيعة مقصودة لذاتها مستقلة بنفسها
في قصيدة أو رسالة ، بل كان ذكرها غالبا يأتي عرضا كأنها غير جذيرة
وحدها بالتفات الشاعر وتكلفه عناء النظم ، وكانت تستعار مظاهرها
وأحوالها لبيان أغراض أخرى عن طريق التشبيه ترصع القصيدة بفنونه ،
وجاء أصحاب المجموعات الشعرية الذين اختاروا صفوة أشعار العرب في
أقوى عصور الأدب ، كأبي تمام والمفضل الضبي ، فما أفردوا للطبيعة
بابا من أبواب مختاراتهم ، وإنها لأجدر بالصدر .

وكان فحول الشعراء ينصرفون عن وصف محاسن الطبيعة التي
تكتنفهم ، ومفاتن الجنات الزاهية التي كانت مهاد (٤) الدولة الإسلامية ،
بمروجها وأنهارها وجبالها وأجوائها ، إلى وصف قصور الأمراء وحدائقها
ونافوراتها وبركها الصناعية ، فالبحتري يعرض ببصره عن جبال لبنان
الفاتنة متجها إلى مقاصير ابن خاقان :

تلفت من عليسا دمشق ودونسا للبنان هضب كالغمام المعلق.

(٣) ندحة : سعة .

(٤) مهاد : الاراضي المنخفضة - المستوية .

الى الحيرة البيضاء فالكرخ بعدما ذممت مقامى بين بصرى وجلق
رباع من الفتح بن خاقان لم تزل غنى لعديم أو فكاكا لم رهق

ولابن المعتز وابن حمديس وابن خفاجة شهرة بوصف الطبيعة ،
ولكن كثيرا من أشعارهم يتسم بالفتور ويصطبغ بالصنعة وترين عليه
مسحة التكلف والتظرف ، وتنقصه حرارة الهيام بالطبيعة والامتزاج
بروحها والنفاذ الى خفى معانيها وأسرارها ، وتجرى فى أشعارهم تشبيهات
تكررت حتى ملت : فالأصيل ذهب والخصباء در والنسيم ينسج من الماء
درعا ، ويفسد الكثير من تلك الأشعار الحرص على حسن التعليل كقول
ابن حمديس فى نهر :

جريح بأطراف الحصى كلما جرى عليها شكا أوجاعه بخريه

فستان بين خريز النهر الحى المتدفق وبين الجراح والشكوى
والأوجاع ، وأمثال هذا القول تدل على شعور زائف وملاحظة سطحية .

وبعض أولئك الشعراء اذا استهزتهم فتنة الطبيعة وصفاء الألوان ،
نظموا فى ذاك أبياتا شفعوها للثو بدعوة لصديق أو عشيق أو نديم
يناشدونه أن يتحفهم برفقته ويعجل لهم بالراح (٥) والأوتار (٦) ،
فالبحتري بعد أن تألق فى وصف الربيع قال :

فما يحبس الراح التى أنت خلها ؟ وما يمنع الأوتار أن تترنما ؟

وغيره يقول :

ولما حللنا منزلا طله الندى أنيقا وبستانا من النور حاليا
أجد لنا طيب المقام وحسنه منى فتمنيا فكنت الأمانيا

ولا يدل هذا على كبير شغف بالطبيعة أو حسن فهم لجمالها ، وليس
يمشغوف بالطبيعة ولا فاهم لأسرارها من لا تكفيه مفاتنها السافرة حتى
يستعين لأكمال سروره بالسمر والغزل والغناء والسكر ، وإن أحب
ما تكون الطبيعة الى عاشقها الصادق لحين يصحبها وحيدا ، فهو يرى
مفاتنها خير رفقة له وخير مؤانس لمهجته .

(٥) بالراح : بالخمر

(٦) بالأوتار : بالأفراد .

وقد حظى الربيع دون غيره من الفصول بالفتات شعراء العربية ،
تلكان الربيع وحده هو فصل الجمال والصفاء والحبور (٧) ، وبقيّة
الفصول أوان لكسب الرزق واحتمال قبيح الحياة ، كما قال الطائي :

دنيا معاش للورى حتى اذا جاء الربيع فانما هي منظر

ولو درى لعلم أن هذه الدنيا منظر لمن شاء أن يرى ويشعر في كل
الفصول وفي جميع حالاتها ومظاهرها ، وإن للشتاء لروائحه وجاذبيته
كما للربيع ، وإن جميع مجال الطبيعة وأشكالها لمسارح اللب الشاعر
ومجالات لفنه وتصويره ، وقد تغنى شعراء الانجليزية بفتنة الريف كما
ترنموا بسحر الربيع ، واستجاشهم غضب اليم وتجهم الأفق كما
استهواهم صفاؤهما ووداعتهما .

ومن شعراء العربية من يضيق بأعهم (٨) في وصف الطبيعة قبل
أن يقولوا في المنظر المجلو أمامهم أبياتا ، ويدركهم العجز والاحالة
فيصبحون بقدرة البارئ ، ووحدانيته ، كما قال النواصي :

على قضب الزبرجد شهادات بأن الله ليس له شريك

وقول أبي تمام :

صبغ الذي لولا بدائع لطفه ما عاد أخضر بعد اذ هو أصفر

فقدرة الخالق أمر لا شك فيه ، والاشارة اليها في هذه المواقف
سداجة في القول والتواء في استرسال الفكر ، وهرب من مواصلة التأمل
والوصف ، والموقف موقف استمتاع بالجمال وتصوير له ، لا موقف وعظ
وخشوع . وأذن هذين البيتين بقول تينسون في زهرة ضئيلة : « أيتها
الزهرة النامية بين شقوق الجدار ، ها قد انتزعتك أنامل ، وهأنت كلك
محمولة في كفى ، بيد أنى لو استطعت استكناه سرك لعرفت سر الله
والإنسان جميعا » فهذا شاعر يفكر ويتأمل ويتوق الى المعرفة ، وذاتك
شاعران يسلمان تسليم العجز ، فلا أجادا التصوير ولا استرسلا في
التفكير .

(٧) الحبور : النعمة والسرور .

(٨) بأعهم : الباع من المسافة ما بين الكفين اذا البسطلت اللراعمان بمينا ودسالا .

فاغلب شعر الطبيعة فى العربية - على قلته - تنقصه حرارة الشغف بها وطول مصاحبتها وممازجتها روحا بروح ، وإدماها التأمل فى محاسنها ومحاولة النفاذ الى معانيها ، وصدق التعبير عن وحيها ودقة الوصف لمجاليها المتعددة ، وظل الالتفات اليها دائما ثانويا ، والانتباه اليها عرضيا. والأنس بها وقتيا وشيك الزوال .

بل كان من فحول العربية من كان بينهم وبين الطبيعة حجابا كثيفا، فندر أن أعاروها بالا ، ولم يقع ذكرها فى شعرهم ونثرهم ، الا وقوع الغلط كالمتمبى والشريف الرضى ، برغم كثرة أسفار الأول بين العواصم والفلوات ، وقد صرف الكتاب صناعتهم الى كثير من وجوه البيان ، فلم يختصوا الطبيعة بكبير عناية . وتوخى بديع الزمان فى مقاماته أن يضرب فى كل ناحية من نواحي القول بسهم ، ليبدى براعته للقارئ ، الا الطبيعة فانها لم تفرز منه بالتفات .

فالعربية تكاد تقفز من الوصف الطبيعى السامى المقصود لذاته ، لولا شاعر فرد هو ابن الرومى الذى تنطق أشعاره بحب للطبيعة عميق، وانجذاب لبعدها لا يدافع ، ونظر فى محاسنها وأغوارها نافذ ، وقد أنشأ لوصف مختلف مظاهرها قصائد كثيرة ، أودعها خيرا ما فى العربية من وصف الجنان والفلوات ، والأصائل والأسحار ، والغيم والمطر ، والطير والوحش ، وشعره فى كل هذا يضارع أسمى ما فى الشعر الانجليزى .

وضألة حظ الطبيعة فى الأدب العربى راجعة الى عوامل متتابعة توالت على الأدب فى مختلف عصوره ، فحالت دون أن يكون ترجمانا صادقا مبينا لشعور أصحابه فى هذا الباب ، وهى أولا بدائة العرب فى أول تاريخهم ، وثانيا تكسب الشعراء بشعرهم فى عهد الحضارة والدولة ، وثالثا شدة محافظتهم وتقليدهم للمتقدمين وأخيرا تغلب الصنعة اللفظية فى عهد تدهور الأدب .

فوصف محاسن الطبيعة وآثارها فى النفس وصفا مسهبا محكما مقصودا لذاته عمل فنى لا يتأتى الا بأعمال الفكر ورياضة (٩) النظم ، وهو ما لا يتيسر فى عهد البدائة ، فضلا عن أن المناظر الصحراوية واحدة متكررة صارمة لا تحفز الى التصوير الشعرى المسهب كما تحفز الى التأمل

(٩) وياضة : راض أى ذلل القوافى الصعبة .

فى الخالق ورهبته وحكمة صنعه ، وقد ظلت هذه النزعة الدينية التى بثتها البادية فى نفوس العرب ، وكانت التنشئة الدينية فى العصور التالية تنميتها فيهم منذ الصغر ، مصاحبة لهم فيما بعد ، تغلبهم على الاستمتاع بروائع الجمال الطبيعى وآيات الفن الانسانى ، فنرى شاعرهم اذا وقف بمنظر فنان أو أثر خلفه القدماء فسرعان ما ينصرف عما ثمت (١٠) من معانى الجمال أو القوة الى التسليم بعظمة الخالق وضعف المخلوق وفناء الأفلاك وسقوط الجبابرة ، وقد سبق التمثيل لشيء من ذلك ، والبحترى يقول :

أناة أيها الفلك المـدار أنهب ما تصرف أم جبار ؟
ستفنى مثل ما تفنى وتبلى كما تبلى فيدرك منك ثار

ولما تحضر العرب وشاهدوا الأقطار الواسعة ونعموا فى الجنات اليانعة ، ودخل أدبهم فى طور الثقافة والصناعة الفنية ، ظهرت آثار الوصف الطبيعى فى بعض أشعارهم ، ولكنها كانت قليلة كما تقدم ، وعميت (١١) عيون أكثر الشعراء عن محاسن الطبيعة وأسرارها فى غمار المدينة ، حيث تكأكأوا (١٢) متزاحمين على عطايا الأمراء ، وزهدهم فى وصف المناظر الطبيعية قلة ما ورد منها فى شعر المتقدمين الذين كانوا يترسمون خطاهم ، حتى اذا كان عهد الاضمحلال الأدبى غلب التطرف واصطناع الرقة والنكتة اللفظية على الشعر ففقد كل روح وحرارة .

أما الأدب الانجليزى فلم يخنقه جو المدينة أو يرهقه تقليد القدماء الا فى عصر محدود ما لبث أن بددته النهضة الرومانسية التى كانت فى جوهرها عودة الى الطبيعة أى الى الشعر الصحيح وبين النقاد المحدثين من يأبى قبول ما نظمته أقطاب العهد الكلاسى فى عداد الشعر الصحيح ، وفيما عدا ذلك العهد كانت الطبيعة دائما قيلة الشعراء شغفهم بها حبا أسرا : تعدد مجالها (١٣) وتتابع تقلباتها واختلاف صورها فى بلادهم ، ودراساتهم للشعر الاغريقى الحافل بالصور الطبيعية ، وينتجلى أثر هذا العامل الأخير فى المقطوعة التى نظمها كيتس معبرا عن شديد حبه وبالعنقته عقب قراءة ترجمة الالياذة .

(١٠) ثمت : الثمام هو قريب سهل التناول

(١١) عميت : لم يدر وجه الصواب فيه

(١٢) تكأكأوا : تجمعا وازدحموا

(١٣) مجالها : أجلى أو حسن الوجه ومنها تبلى وجمعها (مجال)

بيد أن اللغة العربية ذاتها حافلة بالأسماء والأوصاف لشتى مظاهر الطبيعة وآثارها ، وحالاتها وأوقاتها ، غنية بكل ما يحتاج إليه الأديب. القدير لينقل على القرطاس أى المناظر الطبيعية شاء ، نقل المصور الصانع، وهنا أيضا يبدو لنا التفاوت بين مقدرة اللغة واستعدادها ، وتقدير أدباء العربية فى عهد ازدهار الحضارة دون كثير من غايات الأدب .

أثر الدين فى الأدبين

العربى والانجليزى

للدين فى أدب كل أمة أثر عميق متشعب ، بل هو أصل الآداب والفنون والعلوم ، تنشأ كلها فى الجماعات البدائية لخدمته ، ويستأثر بالتبحر فيها رجاله ، ثم تزدح عنهم فى بقية الشعب وتنفصل تدريجاً عن الدين ، ويستقل كل منها بنفسه ، ويظل للدين مع ذلك أثر فيها قل أو كثر ، يؤثر فيها من جراء تأثيره فى المجتمع الذى تستقى منه العلوم والفنون ، هكذا كان الدين عند قدماء المصريين واليونان والرومان واليهود وغيرهم من الأمم .

ولا يشذ الأدبان العربى والانجليزى عن هذه القاعدة : فقد تأثر كل منهما بالوثنية أولاً ثم بدين سماوى وكتاب منزل ، وشهد نهضة دينية كبرى كان لها أثر عظيم فى مجتمعه ، واختلط الدين بالسياسة فى كلتا الأمتين وتأثر الأدب بهذا الاختلاط ، وكان من رجال الدين فى الأمتين بلغاء ذوو أذواق أدبية أتشفوا أدب اللغة بآثار جليلة فى الحض على الفضيلة والكمال الروحى، وكان من أدباء كلتا الأمتين متشيعون للطوائف الدينية دافعوا عنها فى نظمهم ونثرهم .

شهد الأدب العربى أعظم النهضات الدينية طراً (١) بظهور الاسلام، الذى غير وجه المجتمع العربى وأغنى الأدب بخير ما فيه من الخطب الدينية والسياسية ، وإن يكن الأدب الانجليزى لم يشهد نشأة النصرانية فلم تفتنه نهضة دينية عظيمة الشأن هى الاصلاح الدينى الذى شمل أوروبا فى عهد الاحياء وامتد فى انجلترا الى القرن السابع عشر ، وانتهى بانتصار طائفة المطهرين ، وأنجب هذا العهد رهطاً من الكتاب والشعراء المبرزين أمثال ملتون وبنيان ودن وهريك وهربرت وكراشو ، الذين خلفوا أحسن ما فى اللغة من أشعار الورع والطهو والسمو الروحى .

وحبت تلك النهضة الدينية الأدب العربى بكتاب سماوى لن يزال مثلاً أعلى فى البلاغة ومعيناً لا ينضب للبلغاء ، ومنذ ترجم الانجيل الى

(١) طراً : كان طريراً ذا رواء وجمال .

الانجليزية ترجمة بليغة ، كان له فضل عظيم على اللغة وعلى أدبها ، فقد أقام قواعدها ووضح أساليبها ، ولم يزل مثلاً رائعاً للسلاسة والامتاع .

واختلط الدين بالسياسة في الدولة العربية ، وكان محور التفائهما مشكلة الخلاف التي اضطرت حوالها الأحزاب وقامت باسمها الدولات ، وامتزج الدين بالسياسة في إنجلترا عهداً ، وكان مدار امتزاجهما سلطة الملك وحقوق الشعب ، فالملكية تدعى الحق الإلهي والسلطان المطلق في شئون الدين والدنيا ، والشعب يريد الحرية في كلا الأمرين ويجد سلطة الملك في الناحيتين ، وتأثر الأدبان بهذا التداخل بين الدين والسياسة .

ويدين الأدب الانجليزي للديانة بثلاث أياد : الأولى وضع من أوضاع الأدب هو الرواية التمثيلية ، التي نشأت في العصور الوسطى في الكنيسة حيث كان يمثل عذاب المسيح وآلام الشهداء وخبائث إبليس ، وتمثل الفضائل والردائل شخصاً متحاوراً ، فمن هذا البدء الساذج نمت الرواية التمثيلية التي ازدهرت في عهد شكسبير ، والتفتت إلى دراسة الإنسان والمجتمع ، واليد الثانية أثر أدبي خطير من نفائس الأدب الانجليزي ، هو ملحمة ملتون «الفردوس المفقود» ، التي أوحى إليه بها الروح الديني الذي ساد عصره ، والعراك الديني الذي خاض غماره (٢) ، واستعار مشاهدتها ومعالمها من الانجيل الذي كان له في عهده اسمى مكانة ، وأخيراً للكنيسة فضل على الأدب الانجليزي إذ كان من رجالها من ساعدتهم الفراغ الذي ينعمون به على الانصراف إلى الأدب ، بل كان منهم من ألحقوا بالكنيسة عمداً ليحفظوا بذلك الفراغ وذلك الانصراف ، ومن مشهورهم سمويقت ودن وكنجزلى .

وليس في الأدب العربي ما يقابل هذه الأيادي التي أسندتها الديانة والكنيسة إلى الأدب الانجليزي : فقد أكبر المسلمون شخصاً نبههم عن كل تمثيل وتشخيص ، وانتهت حياته بالظفر الأكبر لا بمأساة كمأساة المسيح ، وإن يكن في تاريخ الإسلام ما يشابه تلك المأساة فهو مصارع أبناء الإمام علي التي خلدها الأشعار الباكية ، وإذا كانت رسالة الغفران تشابه الفردوس المفقود في امتداد مشاهدتها في العالم الآخر فهي تخالفها في كل شيء آخر لاختلاف المؤلفين ، ثم أنه لم تكن في الإسلام هيئة دينية رسمية تكاد تقصر على أبناء العلية ومن يلوذ بهم كالكنيسة الانجليزية .

(٢) غماره : الغمرة أي الشدة والجمع غمار .

وفى الادبين العربى والانجليزى آثار طريفة للنزعة الصوفية ، التى هى من أسمى مظاهر الروح الدينى ، وإن خرجت عن مألوف المتدينين فى أشياء ، وأنكر منها رجال الدين أحيانا أمورا ، واتخذت لها رموزها وطرقها الخاصة التى تستغلق على غير أربابها . وأظهر أصحاب هذه الطريقة الرمزية فى الادب الانجليزى بلبك ، وأجزلهم فى العربية شعرا وأسيرهم ذكرا ابن الفارض .

وجاءت النهضة العلمية والفلسفية بعد النهضة الدينية فى كلتا الأمتين ، تمثل ذلك عند العرب فى ذبوع الفلسفة اليونانية ، وعند الانجليز فى ارتقاء العلوم المادية كعلوم الحياة وطبقات الأرض والكيمياء والطب ، وتطبيق نظرية النسوء والارتقاء عليها وعلى العلوم الاجتماعية ، فقام الصدام بين الدين والعلم والفلسفة ، وانعكس ظله فى الأدب ، وأوضح مثال للشك العلمى فى العربية شعر المعرى ، وفى الانجليزية شعر تينيسون وهاردى .

كان انتصار المطهرين الذين وضعوا أساس حرية الشعب الدينية والسياسية أوج احتفال الانجليز بالمسائل الدينية وظهور آثارها فى أدبهم ، وبعدها هبط الى المحل الثانى من تفكيرهم ، ولم تقم له الا حركات فئيلة الشأن فى القرن الماضى ، اذ كان يحاول كل من فريقى البروتستانت والكاثوليك جمع الأنصهار حوله ، وظهر فى ذلك المعترك من الأدباء المتحمسين للدين جملة ، أشهرهم نيومان ثم تشسترتون المتوفى حديثا ، وكانت آراء داروين فى منتصف القرن الماضى ضربة شديدة وجهت الى روايات الانجيل فى شأن الخلق ، فانصرف جمهور الناس نهائيا عن التحمس للدين ورجاله ، وهكذا بعد الأدب الانجليزى عن الدين وتأثيره فى العصور الحديثة بعدا كبيرا .

أما تأثير الأدب العربى بالاسلام فكان أشمل وأبعد مدى وأطول أمدا من تأثير الأدب الانجليزى بالمسيحية لأسباب عديدة : أولا أن الاسلام نشأ بين أظهر العرب فشهدوا مبعثه وجهاده وظفروه على الوثنية ، وثانيا أنه كان أساس دولتهم وقطب (٣) سياستهم الداخلية ، وثالثا أنه ظل دائما مجاهدا أعداء مغيرا تارة ومدافعا أخرى ، فكان قطب السياسة الخارجية أيضا فى أحوال كثيرة ، ورابعا أنه كان بعد انتشاره محور العلوم والآداب

(٣) قطب : قوامه ومدرسه .

وكان القرآن أساس الثقافة التي يؤخذ بها الناشئون ، وخامسا أنه سوى بين الداخلين فيه فقام منهم مقام الوطنية في الأمم الأخرى ، وأخيرا أنه بإحكامه يشمل أمور الدنيا شموله شئون الآخرة ، ويحيط بقواعد المجتمع الذي هو مبعث الأدب فلا غرو أن تأثر الأدب العربي في كل عصوره بالدين روحا ومظهرا وغرضا وأسلوبا .

فظهر الاسلام بين العرب ترك أثره في شعر الشعراء ، بين مهاجم له ومدافع عنه ومداح للرسول ﷺ ، وظلت مدحة الرسول في كل العصور غرضا من أغراض الشعر ، وجهاد الاسلام أعداء فاتحا أو منافحا (٤) مدى القرون الطويلة ، تجل أثره في خطب الخلفاء والقواد وأشعار المادحين للأمراء المنتصرين على الروم أو الوثنيين أو الأسبان أو الصليبيين ، لا سيما وقد كان ذلك دائما مصطبغا بصبغة القومية ، فقد كان الاسلام يجمع شعوبه في عصبية أمم واحدة ذات شعور مشترك وأعداء مشتركين ، ومن أشهر آثار ذلك كله في الأدب يائية أبي تمام في فتح عمورية ، ومدائح المنتبى لسيف الدولة ، وقصائد الأبيوردي ، والبهاء زهير ، وابن مطروح في الحروب الصليبية ، ومدائحهم للأيوبيين ، ومراثي الأندلس وصقلية ، كل هاتيك يخفق فيها الروح الديني ، ممتزجا بالوطنية والسياسة وتمجيد الدولة القائمة .

وفي داخل الدولة كان الدين — متمثلا في مسألة الخلافة — محور السياسة ومصطرع الفرق ومشتجر الآراء ولثام المطامع ولواء الثورات وشغل الشعوب ، فلم يكن هناك صراع بين ملكية مستبدة وشعب متشبث بحرياته ، ولم يكن هناك محافظون وأحرار ، ولا اشتراكيون ورأسماليون ، ولكن كان هناك خوارج غلاة في الدين يجذون الشورى ويقررون الخلافة في الأصلح لها ، وأمويون وعباسيون وعلويون ، كل منهم يدعى الامامة ، ومرجئة ومعتزلة يحظون حينما بتقريب البلاط ، ويستهدفون حينما لمقتته ، وعامة الشعب في أغلب العصور مع شيعة على لمكانة سلفهم العظيم من النبي وفدومه (٥) في الاسلام ، ولما حاق بالقطاريف (٦) من ذريته من تشكيل جمع بينهم وبين الشعب المقهور بعطف متبادل .

ومرآة كل ذلك جليلة في أشعار أقطاب الخوارج ، ومتشيعي الشعراء من عهد الكميت وكثير والفرزدق ، الى زمن ابن الرومي الى عصر عمارة

(٤) منافحا : مدافعا .

(٥) فدومه : فسلمها عمر لها .

(٦) القطاريف : الغطريف هو السيد الكريم والجمع غطاريف .

اليمنى الذى رثى دولة الفاطميين رثاء موجعا ، وفى أشعار طالبى الدنيا المناصرين للدولة القائمة المؤيدين لدعواها ، كمروان بن أبى حفصة ، وفى نشر زعماء المذاهب ونظمهم فى بيان آرائهم والنضج (٧) عن مبادئهم، كخطب واصل بن عطاء وشعر صاحب المرجئة الذى يقول منه :

نرجى الأمور اذا كانت مشابهة
ولا نحاور فيمن جار أو عنيدا
ولا نرى أن ذنبنا بالغ أحدا
ما الناس شركا اذا ما وحدوا الصمدا

وشمول روح الدين أو مظهره الكل مرافق المجتمع وقواعده الدولة على هذا النحو ترك أثره فى الأدب عامة : اذ صبغ أكثره بصبغة الجسد والرزانة والقصد فى القول واجتناب الايغال فى الخيال ، والولع بالحكم والعبر والأمثال ، ورغب الأدباء فى الأخبار الصادقة عن السلف من جاهليين واسلاميين ، وزهدهم فى الأساطير ومخترق الأحاديث ، والى رهبة الدين الذى كان عماد الدنيا والآخرة ترجع أشعار الزهد والوعظ التى يحتفل بها الأدب كأشعار أبى العتاهية وابن عبد القدوس ، والى جلالتة وجلالة الانتماء اليه ترجع مسحة التسامى والعفة التى ترين على شعر الشريف الرضى .

كان الدين دائما منبث (٨) الروح ، والا فمتجسم المظهر فى شئون انحياتين ، وان صدمته الأهواء السياسية كثيرا ، وغلبته الأهواء الفردية ، وتغافل عنه حماته فلم ينشطوا للدود عن حرمانه الا أن يكون فى ذاك قضاء لمآربهم أو شفاء لسخائمهم ، حتى كان من المتناقضات حقا أن الأدب العربى الذى ازدهر فى ظل دول اسلامية حوى من جرىء القول ما لم يحو غيره .

وخلاصة القول أن كلا الأدبين العربى والانجليزى تأثر بدين قومه نائرا بينا ، ولكن بينما كان تأثر الأخير بالمسيحية مقصورا على عهود بذاتها وأمور بعينها ، ثم ركد أمر الدين ، وأحس الأدب أنه قد استفاد منه كل ما يمكنه أن يستفيد ، فانصرف عنه ، ظل للدين فى الأدب العربى مكانة عالية وأثر بعيد ، وسيظل له مثل هذه المكانة ومثل هذا الأثر ، فى كل أدب يدين مجتمعه بالاسلام وينطق بالضاد .

(٧) النضج : ناضج أى دافع .

(٨) منبث : نبت الأرض : نبش ترابها وحفرها .

الخرافة

فى الأديبن العربى والانجليزى

نفشو الخرافة - وهى الاعتقاد بالمستحيل عقلا - بين الجماعات الأولى ، حتى تشمل ديانتهم وعلومهم وفنونهم القليلة ، وعرفهم وتقاليدهم ، لأن تلك الجماعات فى نشأتها كالطفل فى صغره ، قليلة الإدراك للأسباب والمسببات ، سريعة الانقياد للعواطف والأوهام والمخاوف . فلا تلبث أن تنمو بينها شتى الأساطير ، تفسر بها قوى الطبيعة ومظاهرها ، وتمجد بها أسلافها ، وتدعم كيان مجتمعها * هكذا كانت لقدماء المصريين خرافاتهم المتعلقة بواديهم ونهرهم ، وآلهتهم وفراعنتهم ، وكانت لليونان والرومان أساطيرهم التى تدور حول أعمال آلهتهم وحروبها ، وجبها وغضبها .

وكانت للعرب خرافات شتى ، انتزعت من حياتهم البادية ، وما توحى الى النفس من رهبة وبأس ، بفلاواتها وحزونها (سهولها) ، وسباعها وأنوائها (١) ، وحيكته حول الآلهة والجن والغيلان ، وحول أبطالهم وملوكهم وغابر دولهم ، وتناولتها الأجيال المتعاقبة بالزيادة والتهويل ، والتغيير والتبديل ، فى حوادثها ومشاهدها .

وكانت للانجليز فى عهود همجيتهم أساطير متشعبة ، مشتقة من حياة أهل الشمال ، المضطربة بين ظلمات الأحراج (٢) ومتون البحار ، حافلة بأخبار هجراتهم وغزواتهم ، ممثلة بأوصاف شياطين البر والبحر ، ممجدة لبلاء ملوكهم أمثال الملك آرثر ، وألفرد الأكبر ، فى دفع هجمات المغيرين الذين تعاوروا الجزيرة على كر العصور ، من رومان وسكسون ونورماندين ، وتمازجت أساطير كل هؤلاء ، واختلط مسيحيتها بوثنيتها ، وجنوبيها بشماليتها .

(١) أنوائها : النوى : النجم اذا مال للغروب والجمع أنواء .

(٢) الأحراج : الحرج : غيضة الشجر الملتفة لا يقدر أحد ان ينفذ فيها والجمع أحراج .

والخرافة على ما بها من مجاوزة للمنطق ونهويل وتحريف. واستحالة - لا نقل عن حوادث التاريخ صدقا في وصف احوال المجتمع الذى هى وليدته ، والبيئة التى هى نتاجها ، فالخرافة العربية التى نمت فى البدايه ، مثلا ، ملاى بذكرى الغيلان والسعالى والعنقاء ، وبأسماء العدائين الذين يسبقون الأطباء ، وحديدى النظر يرون القادم والمغير من رأس أميال ، كزرقاء اليمامة • والخرافة الانجليزية التى ترعرعت فى الغابة ودرجت على اثباج (٣) اليم حافلة بحكايات عرائس الغاب وآلهة البحار ، ومناظر الغسق والضباب •

على أن الخرافتين ثلثتيان ، والمخيلتين تتقابلان فى نواح ، حتى لتخال احدهما صدى للآخرى أو محاكاة لها ، لولا بعد الأمتين فى تاريخيهما بعدا يحول دون كل محاكاة أو اقتباس ، فأخبار تأبط شرا ، وسليك بن السلكة وأشباههما من شذاذ العرب وطريدى العرف والمجتمع، مماثلة لحكايات روبن هود وأصحابه الذين كانوا يعيشون على اقتناص الأطباء فى غابات ملك انجلترا ، وقصة مقتل أحد أقيال (٤) اليمن على يد أخيه الطامع فى عرشه ، التى وردت فى كتب الأدب العربى وروى فيها شاعر لشاعر يدعى ذا رعين ، منه قوله :

فأما حمير غدرت وخانت فمعدرة الاله الذى رعين

واستئسار الخائن للعرافين قبل اقتراف جريمته ، والخدعة الحربية التى لجأ اليها جيش ابن الملك القليل من استتار كل مقاتل بشجرة اقتلها فى طريقه وحملها أمامه ، حتى بدا الجيش كأنه غابة تسير ، كل ذلك مشابه للحوادث التى اتخذها شكسبير موضوعا لروايته ماكبت ، والتى تدور حول مصرع بعض ملوك اسكتلندا ، وهى بلاد تشبه بوعورتها واستقلالها وبأسها وتأثيرها فى عقول أهل انجلترا ، حالة اليمن فى جزيرة العرب ، وقد عبثت الخرافة بكلتا القصتين ونمقتها بمظاهر السحر والنبؤ بالغيب •

حتى اذا ما ارتقت الجماعات البشرية ، وأخذت بأسباب العلم الصحيح ، وعرفت الفلسفة المنطقية ، واعتنقت ديننا راقيا ، فترت حماسها لخرافاتنا القديمة ، وقل تصديقها لها ، وسخر منها العلماء

(٣) اثباج : الثبج هو وسط الشئ تجمع وبرز ، وجمعها اثباج •

(٤) أقيال : القيل هو حاكم من ملوك اليمن فى الجاهلية دون الملك الأعظم والجمع

أقيال •

والفلاسفة والأتقياء ، وهبطت الى طبقة العامة ، فوجدت فيهم وحدهم أمناءها الأوفياء ، يتوارثونها كما توارثها آباؤهم من قبل ، وتروى من نفوسهم ما لا تروى العلوم الجافة ، فهم يؤثرونها على تلك العلوم ، ويمزجون رواياتها بحقائق العلم تارة ، ويخلطون عقائدها بعقائد دينهم الجديد الراقى تارة أخرى .

على أن أكثر الأمم ، كالليونان والرومان وأمم أوروبا الحديثة ، حين بلغت طور نضجها العلمى والدينى ، لم تنبذ خرافات طفولتها ظهريا ، وإن بطل تصديقها برواياتها ، وذهب إيمانها بخوارقها ومعجزاتها ، ولكنها اتخذتها غذاء دسما للعلم والفن ، فجعلها العلم موضع فحصه وبحثه وتنقيبه ، وأقامها مقام الشك حتى تثبت البيئة على ما فيها من بذور الصدق ، واستمد منها النحت والتصوير والشعر والنثر مادة لا تغنى للفن فى الوصف والتأمل والتجوال فى مشاهد الحياة ومرامى التاريخ ومنازع النفس الانسانية .

ذاك أن أكثر تلك الخرافات — على ما بها من وهم ومغالة — تحوى ما لا يحصر من صفات الجمال ومظاهر الروعة ، ودلائل العظمة ، وأحاديث البطولة والمخاطرة التي يغرم بها الطبع الانسانى ، وصور الفضائل والبرذائل ، التي يرتاح الانسان الى رؤيتها مصورة معروضة ، كما أن تلك الخرافات ، بما تقص من وقائع بعيدة العهد وتعرض من مشاهد نازحة المزار ، تروى فى النفس حب البعيد والشغف بالماضى القديم والولوع بالمثل الأعلى ، وهى النزعة التي تعرف فى الانجليزية بالرومانسية ، زد على ذلك أن استعارة مشاهد تلك الخرافات ووقائعها وأسمائها فى الوصف ، يكسب التشبيه قوة ووضوحا . فما أجود قول امرئ القيس ، وليت الشعراء أكثروا الضرب على وتيرته :

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرق كأياب أغوال ؟

لذلك حفل الأدب الانجليزى بالخرافات الانجليزية ، وما تحوى من جسيائم الأعمال وبدائع الصور ، كحروب الملك آرثر ومغامرات فرسان المائدة المستديرة ، تلك التي كانت وحيا لسبنسر وتينيسون فى أجود قصيدهما . ولم يكتف الأدباء بخرافاتهم الوطنية ، فاصطنعوا خرافات اليونان والرومان ، وتحدثوا طويلا عن آلهتهم واقتبسوا كثيرا من الايادى والأوديسة ، وزاد غيرهم فاستعاروا خرافات كل من عرفوا أو سمعوا عنهم من أمم الغرب والشرق : فاتخذ ملتون لقصيدته الكبيرة سمسون

النجيار موضوعا عبرانيا . وتحدث تنيسون عن هارون الرشيد ، وطار
كولردج على جناح الخيال الى قصر قبلاى خان عاهل الصين . أما شكسبير
فاستعار مواضيع رواياته من كل ما أصاب من تراث الأمم لا فرق بين
تاريخيتها وخرافيتها ، ورصعها بما كان لا يزال يساور أهل جيله من
اعتقاد فى عجائب السحر والمعجزات .

ومن الأدباء من لم يكفه كل هذا المدد الزاخر من غرائب الأساطير
وفانين خيال الأقدمين ، فأطلق الخياله هو نفسه العنان ، وابتكر مواضيع
لقصائده من صنعة الوهم ، وحلاها بروائع الصور وممتع الخطرات ، كما
فعل كولردج فى خريدته (٥) « الملاح القديم » ، وبراوننج فى فريدته
« تشايلد رولاند » ، وتوماس هود فى أنشودته « أينس الحسناء » ، وكما
صنع سويفت فى كتابه العالمى الصيت « رحلات جليفر » .

ألفى أدباء الانجليزية فى أرجاء تلك الخرافات ، مجالا رحبا لفهم
وخيالا . وتحريرا لأفكارهم من عقال الحقائق المتحجرة ، وغذاء لعقولهم
الجوالة فى مظاهر الكون وشئون الخلق ، المستطلعة الى المجهول ، ووسيلة
لتصوير المناظر الطبيعية ، بين جبال ووهاد ، وغياض ومياه ، ورصعوا
أشعارهم فى كل ذلك وكتاباتهم بأشتات الآراء ، فى المسائل التى كانت
تشغل أذهان معاصريهم ، ولونوا خرافات الأجيال المتقدمة بألوان أجيالهم
وجتمعهم الذى عاشوا فى مضطربه .

أما موقف العرب من خرافات أسلافهم – حين اعتنقوا دينهم الحنيف
ونحضرنا وتشققوا – فكان غير هذا : فقد أعرضوا عنها ترفعا وازدراء ،
ولم يحفظوا منها الا ما كان أشبه بالصدق ، وما دار حول يوم عظيم من
أيامهم ، أو شاد بمجد بعض قبائلهم . وفى تلك الحال كانت الروايات
تختلق اختلاقا ، ويبدل الجهد لوسمها بميسم (٦) الصدق . ولما اطلع
العرب على ثقافات الأمم الأخرى من يونان وفرنس وهند ، لم يهتموا
الا بما صدقوه من تواريخهم ، وما استملحوه من حكمهم وأمثالهم ، ولم
يعن لأحد من الأدباء أن يستخدم الخرافة مادة لفنه ، أو يستعير ما فيها
من جمال وروعة ليفيد بهما أدبه .

وغاية ما يذكر فى هذا الباب ، أن بعض الأدباء – كابن دريد أطلق
لخياله شيئا قليلا من الحرية ، ومضى يخترع الروايات وال نوادر ، يفسر

(٥) خريدته : الخريدة هى اللؤلؤة لم تشق .

(٦) بميسم : اسم للآلة التى يؤمم بها كالكواة والجمع مياسم ، ووسم الشئ أى

كواه لماثر فيه بعلامة .

بها بعض الأمثال السائرة المنحدرة من عهود الجاهلية ، كقولهم « عند جهينة الخبر اليقين » ، و « الصيف ضيعت اللبن » ، و « جزاء سنمار » ، وقد أخرج من صنعوا ذلك أحاديثهم مخرج الحق ، وأسندوا بعضها ، كى يضمنوا لها الرواج بين المتأدين ، كما أن أصحاب المقامات الذين أسلسوا لخيالهم العنان قليلا حرصوا على ألا يبعدوا كثيرا عن حيز الامكان ، لثلا يعرض عنهم أولو الألباب .

ذلك بأن العرب كانوا شديدي الحرص على العلم الصحيح حيث ثقفوه (٧) ، موكلين بالصدق التاريخي ، زاهدين جدا فى الأساطير وجمعات الخيال ، وهو خلق أورثهم إياه دينهم منذ اعتنقوه ، فانه وان أثبت وجود الجان وائتمارهم بأمر سليمان ، واستماع نفر منهم الى القرآن ، قد أوسع أساطير الأولين سخرا واستخفا ، وكثيرا ما جمع بينها وبين الشرك ، وهو قد جب (٨) ما قبله مما هو شبيه بالكفر والزيغ ، ودعا المؤمنين الى التفكير فى خلق السموات والأرض ، وطلب العلم الصحيح ، فلا غرو أن زهد المسلمون فى تخريف الجاهليين وأوهامهم ، وقد زادهم نفرة من الأساطير ومختلق الأقاصيص ما تنبهوا اليه من جرأة بعض الدخلاء والمعرضين على الأحاديث النبوية ، يخترعونها ويفسرونها بما تمليه أهواؤهم .

زد على ذلك أن الاسلام قد حرم الخمر ، وهو تحريم راعته أغلبية الأمة ، وان تجاوزه بعض الشعراء ، بل الخلفاء والكبراء . وهذا الامساك عن المسكر قد أكسب الأمة عامة صفات التؤدة (٩) والصحة والتوقر والاحجام عن مجازاة الخيال ، والتحقيق فى فضاء الأوهام ، وطبيعة بلادهم ذاتها تبث هذا الصحو فى طبائعهم ، فانها فى الغالب مصححة سريعة التحول من وضوح النهار الى حلك الظلام ، لا تطول بها كما تطول فى البلاد الشمالية فترات ذلك التحول ، من غلس (١٠) وغسق ، ولا يكثُر بها انتشار الضباب الذى يحجب الأشياء الا أشباحها ويوقع فى النفس التوجس والوهم ، والخرافة الانجليزية حافلة بتلك المشاهد بين غلس وغسق وضباب .

(٧) ثقفوه : ثقف الشيء : أقام المعوج منه وسواه .

(٨) جب : قطع ما كان قبله من الكفر .

(٩) التؤدة الرزاة والثانى .

(١٠) غلس : ظلمة آخر الليل اذا اختلطت بضوء الصباح .

كل ذلك جعل مثقفى المسلمين سريعين الى انكار الخوارق ونسند
الاغراب والسخرية من المغربين ، فدعبل الخزاعى مثلاً يهزأ ملياً بنفـر من
فبيلته ذاتها زعموا أن أحد أجـدادهم حادث ذئباً ، فهو يقول :

تهتم علينا بأن الذئب كلمكم
فقد لعمري أبوكم كلم الدنيا
فكيف لو كلم الليث الهصور ؟ اذن
افنيتم الناس مأكولاً ومشروباً

ومن جهة أخرى لم يحس أدباء العربية كبير حاجة الى ذلك الضرب
من الأدب ، تحفزهم الى التأول فى الدين وتمييز ما نهى عنه مما لم يـنه ،
فهم لم يكونوا شديدى الولع بتقصى مناظر الطبيعة وتصويرها ، فيتوسلوا
للتفنن فى ذلك بالطيران على أجنحة الخيال الى شتى المناظر والأودية
والشـطآن ، ولا كانوا شديدى التوفر على نقد أحوال عصورهم السياسية
والاجتماعية ، فينتزعوا لذلك الصور من خرافات الاقدمين مماثلة لصور
مجتمعهم ، أضف الى ذلك ما لازم الأدب العربى دائماً من نزعة محافظة
وولع بمحاكاة بدائع المتقدمين ، ولما لا طموح معه الى تجديد شديد
المباينة لمناهجهم فى الأدب .

تلك هى العوامل التى صرفت أدباء العربية عن الاحتفال بالأساطير ،
وجعلتهم جميعاً يسلكون الطريق « المباشر » للافصاح عن خواطرهم ،
طريقة القصائد المتوسطة الطول ، والأبيات المحكمة الموجزة ، ورائدهم
قول قائلهم :

وان أشعر بيت أنت قائله بيت يقال اذا أنشدته : صدقا

وقد روى أن سهل بن أبى غالب صنف كتاباً فى سير الجن وأحوالهم
ورفعه الى الرشيد ، فقال له الخليفة : ان كنت رأيت ما ذكرت فقد رأيت
عجباً ، وان كنت اخترعت ما رأيته فقد وضعت أدباً . ولكن أحداً من
معاصرى ذلك المؤلف أو من جاءوا بعده لم يحفل بهذا الضرب من الأدب ،
وأهمل الكتاب حتى ضاع .

أقصيت الخرافة عن حظيرة الأدب العربى ، وتركت للعامة يخفون
بالاستماع اليها أعباء عيشهم ، ويسرون بالانصات الى مغامراتها ومصاوماتها

هموم حياتهم المتشابهة الرتيبة ، ويلونها لهم القصاص بألوان الدول
المتعاقبة والأحوال المتوالية ، وتنفض فيها السياسة أحيانا أغراضها ، حتى
أتيح لها من دونها فكان منها أقاصيص ألف وليلة وليلة ، وعنصرة ومهلهل .
وسيف بن ذي يزن ، وقد اطلع عليها بعض أدباء العربية في العصر الذي
دونت فيه فاستخفوا بها ونبذوها .

بيد أن تلك الأقاصيص على عاميتها وركاكة أسلوبها ، وفحش بعض
مواقفها ، تحوى من روائع الوقائع ، وجميل المناظر ، وآثار الخيال ،
ما يعوز الأدب العربى كله ، ويفضل ما فيها من روعة وجمال وخيال قد
نالت الخلود وحظيت بالشهرة والترجمة الى شتى اللغات ، وأعجب بها من
الغربيين من لم يسمعوا بحكم المتنبي ، وأمثال الطائي ، وبديع ابن المعتز .

أثر الفنون

فى الأدين العربى والانجليزى

تختلف الفنون فى مجالاتها وبعض وسائلها : فلبشعر من القدرة على وصف الحركة وتناول الأشياء المتباعدة فى الزمان والمكان ما ليس للتصوير ، ولهذا من المقدرة على بيان دقائق الموصوف وتحديد ماهيته ما يعوز الشعر ، ولكن الفنون تتفق جميعا فى غايتها التى هى التعبير عن تأثير الانسان بروائع الحياة وشغفه بجمالها ، وفى كثير من وسائلها التى تتصل بطبائع الانسان وميوله : كالتناسب والتماثل والتكرار فى الشكل أو فى النغمة أو فى الروى ، والتقابل والتضاد فى كل أولئك .

فالفنون على تعددها مظاهر شتى لصفة انسانية واحدة ، وهى ترهف الشعور وحب الجمال . ولا يخلو المبرز (١) فى أحد الفنون من بصر بسائرهما وان قل ، وحب لها يعلو على حب الفرد العادى . وكثيرا ما جمع الفنان الموهوب بين فنون عديدة يبرع فيها جميعا ، وقد نبئت الموسيقى والشعر والرقص بين الجماعات الأولية من أصل واحد ونبت حتى استقل كل منها . وكان الشعر فى بدئه موسيقى عجماء وصيحات غنائية غير ذات معنى ، ثم داخلها المعنى تافها فى أول أمره ، وما زال يتعاضد شأنه حتى احتل المكانة الأولى فى الشعر ، وان لم تفقد الموسيقى أهميتها فى رصانة القصيد ، فأى شعر خلا منها قصر عن أوج الكمال مهما سما معناه .

وقد مارس العرب والانجليز تلك الفنون الثلاثة : الموسيقى والرقص والشعر ، منذ عهودهم الأولى ، وارتقت موسيقاهم بمخالطة الأمم الأخرى : فأخذ العرب عن الفرس ، والانجليز عن الايطاليين خاصة والفرنسيين ما لم يكونوا يعرفون من أصوات الموسيقى وآلاتها ومصطلحاتها وظهر أثر ذلك فى أدبهم . وأبدع أمثلة للشعر والغناء والرقص فى الانجليزية قصائد ملتون التى نظمها قبل انغماره فى حركة المطهرين . وممن تغنى من شعراء الانجليزية بتأثير الموسيقى والغناء دريدن فى قصيدته « مآدبة الاسكندر » ، وكولنز فى قصيدته « العواطف » .

(١) المبرز : المتفوق على أصحابه .

وبذلك تغنى أيضا شعراء العربية ، بل بلغ انكبابهم على غشيان مجالس الغناء والرقص حدا بعيدا ، بعد أن انتشر الترف عقب الفتوح ، حتى كاد شعر كثير منهم ، كبششار وأبى نواس ، ينقسم الى بابزين رئيسيين : المدح الذى يطلب من ورائه المال الوفير ، والتغنى بمجالس اللهو والطرب التى ينفق فيها ذلك المال . ومن جيد ما قيل فى وصف المغنيات وآلات الموسيقى قول ابن الرومى :

وقيان كأنها أمهات عاطفات على بنيتها حوان
كل طفل يدعى بأسماء شتى بين عود ومزهر وكران
أمه دهرها تترجم عنه . وهو يادى الغنى عن الترجمان
ذات صوت تهزه كيف شاءت مثلما هزت الصبا غصن بان.

وقوله فى راقصة :

إذا هى قامت فى الشفوف أضاءها
سناها فشفت عن سبيكة سبابك

وارتقى بين الأمتين حين تحضرنا فن العمارة ، وقامت فى بلادهما بيوت الملك والعبادة ، والحصون والمعازل ، وتأثر فن العمارة فى كليهما تأثرا كبيرا بالطراز القوطى ، واسترعت الأدباء تلك المباني الضخمة والحصون المشيدة ، تروى الناظر فخامتها ، ويعجب اللب من مغالبتها كز السنين ومصاحبيتها جيلا من الناس بعد جيل ، وشغل شعراء العربية خاصة بوصف قصور الملوك ، وما حوت من ضروب الزخرف . ولفتت أذهان شعراء الانجليزية وكتابتها القصور والبروج المتخلفة من عصور الاقطاع تلك التى تجيش بذكرىات الماضى والتى شهدت مصارعات الأمراء ومحنتهم فى غياباتهما (٢) . وكانت لكثير من الأدباء مواقف بالكنايس والكاتدرائيات ، ولا سيما «وستمنستر ابى» التى تعج رحابها بآثار الماضى .

ووصلت يد كل من الأمتين الى تراث اليونان ، فاختلف موقفاهما : فأما الانجليز فلم يتركوا شاردة ولا واردة من آثار ثقافة اليونان وفنونهم الا تزودا منها ، فأحدث اطلاعهم على روايات سوفوكليس ويوربيدس انقلابا فى « رواية المعجزات » التى ترعرعت فى الكنيسة فى العصور الوسطى ، فالتفتت الى تصوير طبائع النفس الانسانية أى صارت فنا ،

(٢) غياباتهما : غيبة كل شئ : قعره .

وأخذ الانجليز عن اليونان وتلامذتهم الطليان النحت والتصوير . وكانت بلاد اليونان وإيطاليا وما تزالان محج رجال الفنون الانجليز من شعراء ومصورين ونحاتين وموسيقين ، وكانت صورهم وتمثيلهم وما تزال وحيا ونماذج لفناني الانجليز ، وأنجبت انجلترا عددا عديدا من نوابغ المصورين والمثالين جاروا أسانذتهم من أهل القارة فى مجالات النحت والتصوير ، كما جاروهم فى مضمار الأدب .

وظهرت آثار تلك الفنون فى الأدب الانجليزى : فالتمثيل صار بابا من أبواب الأدب له خطره ، وتوفر عليه أكثر نوابغ العصر الاليزابيثى وكثير ممن تلاهم . والصور والتماثيل التى أبدعها رجال الفن الانجليز أمثال رينولدز وكنسابل وترنر ، والأجانب أمثال رافائيل ودورر وفان ديك ، وسير أولئك النوابغ ، صار كل ذلك مجالا لتأمل الشعراء والكتاب ، ومهبطا لآثار أخرى فى عالم الأدب لا تقل مكانة عن تلك الآثار فى عالم النحت والتصوير ، وصرف بعض الأدباء همهم الى نقد أعمال المصورين والنحاتين والممثلين ، ومن أولئك هازلت ورسكن ، والى الأخير يرجع الفضل فى اظهار المصور ترنر .

وقد قضى كيتس وشلى ويرون وبراوننج وهاردى ردحا طويلا أو قصيرا من أعمارهم فى إيطاليا ، حيث استطابوا مناظر الطبيعة وتقيأوا ظلال آثار الرومان واستلهموا بدائع المصورين والمثالين الطليان ، بين روما وفلورنسا والبندقية ، وقضى الشاعران الأولان نحيبهما هناك ، ودفنا فى أرباض (٣) تلك المعاهد التى ألفاها حين . وبين أطلال روما نبتت فكرة عمل من أكبر أعمال النثر الفنى فى الانجليزية ، ألا وهو تاريخ جييون عن انحطاط الدولة الرومانية وسقوطها ، فهو يحدثنا فى مذكراته أن الرغبة فى وضع مؤلفه عنت له أثناء تجواله هناك بين آثار الوثنية ومعالم النصرانية .

ولم تقتصر الصلة بين الأدب وغيره من الفنون على اقتباسه منها واستلهاها ، بل حدث العكس : اذ عمد أعلام تلك الفنون الى الأدب يطلبون الوحي وينشدون النماذج ، فوجدوا فى روايات شكسبير العديدة ، ومناظرها الكثيرة ، وشخصياتها الحية ، ومواقفها الحافلة بشتى العواطف ، وفى خرائد ملتون المملوءة بالأوصاف والصور والحالات النفسية ، وفى روائع تنيسون وبراوننج المنسوجة من أشعث الخرافات البديعة ، منادج

(٣) أرباض : الرياض : ما حول المدينة والجمع أرباض .

لفنهم ومسرى لخيالهم • والمتاحف الانجليزية ملأى بتلك الآثار المنتزعة من قصائد الشعراء • كصور اليدى شيلوت ، وأوفيليا ، والحسنة القاسية •

وكان من شعراء الانجليزية المعدودين من ضربوا بسهم فى الفنون الأخرى ، واشتهروا بها اشتهارهم بصناعة القلم : فشكسبير كان ممثلا كما كان شاعرا ومؤلفا للمسرح ، ووليم موريس كان مصورا وشاعرا ، وروزيتى ألف جماعة « ما قبل الرافائيليين » التى كانت لها مبادئها فى التصوير ، كما كان لها مذهبها فى الأدب ، وأكثر من هؤلاء من لم تدرىهم الشهرة فى غير الأدب من الفنون ، وإن كانوا شديدي الولع بها ، شديدي النشغف بممارستها والتشغف فيها •

وهكذا أصبح من غير النادر فى الانجليزية أن ترى الأسطورة أو القصة التاريخية ، كوقائع يوليسيز ومخاطرات فرسان المائدة المستديرة • وقد تناولها الشاعر والممثل والمصور والنحات كل من ناحيته مستقلا بنظره ، أو معتمدا على الآخرين ، مستلهما محاسنها ومغازيها ، مبرزاً من صورها وأفكارها ما يلائم فنه ويجرى فى مجال صنعته ، نافثا (٤) فيها من خلاصة تفكيره وعصارة شعوره واتجاهات عصره ما يزيدها جدة وروعة •

هذا التواصل والتجاوب والتعاون المستمر بين الفنون زاد الأدب الانجليزى خصبا على خصب أفسح أمامه أغراض القول ، وزاد رجاله بصرا بحقائق الفن وغاياته ووسائله ، واعتقادا بوحدة الفنون جميعا وتلاقيا فى الوسائل والغايات ، فحرصوا فى نشرهم ونظمهم على صدق النظرة وصحة الشعور ونشيدان الجمال ، واستعاروا وسائل الموسيقى والمصور والممثل والنحات ، فاهتموا بالأوصاف الجميلة للطبيعة والانسان ، واعتنوا بتوضيحها وإبرازها ، متوسلين لتصوير المعنى بجرس اللفظ ومناسبة التعبير واختيار القوافي • وتصرفوا فى الوزن والروى بما يلائم الحالة الموصوفة من سكون أو حركة ، وفرح أو حزن ، وقسوة أو لطف : وتألقوا فى صوغ الحوار بين أبطال قصائدهم ، معبرا حوارهم عن منازعهم ، فإذا قرأت القصيدة القصيرة أو الطويلة لأحدهم ، لم تجدك حيال معان ذهنية متزاحمة ، بل رأيت صورا محكمة التصوير ، وموسيقى مطربة النغمات ، وأشخاصا ممثلين حياة وقوة وألوانا وظلالا •

(٤) نافثا . نفث أى نفخ •

ولم يغفل الشعراء الذين مجدوا الفنون الأخرى ذلك التمجيد عن
فنهم الخاص : فنظم بوب وكتيس وتيسون وغيرهم من الأعلام قصائد
غراء في الشعر والشعراء • ولملتون وماثيو أرنولد أشعار في شكسبير
تفيض إعجابا وتقديسا ، ولوردزورث وتيسون وأبركرومبي الشداير
المعاصرة في ذكرى ملتون أشعار كهذه • وكان هاردي لا يمل ذكر شلي
وتعظيمه في قصيده ، وكانت لشعراء الأمم الأخرى لدى شعراء الانجليز
منزلة كهذه ، فاشعارهم ملأى بمحاكاة الشعراء الأقدمين كهوميروس
وفرجيل ودانتى والخيام ، والمحدثين كنسيلر وجوته وهييجو ، وترجمتهم
والنحدث عنهم ، لأن الفن يجمعهم طرا (٥) في صعيد واحد ، ويمحو بينهم
فوارق الزمان والمكان •

وما أعظم الفرق بين هذا الإعجاب النبيل بمتقدمي الشعراء ، وبين
ما نراه في العربية من وثوب بعض الشعراء ببعض ، ووقوع حماد في
بشار ، وحملة ابن الرومي على البحتري ، وحقد دعبيل على الطائي ، أذهلهم
التناحر على متاع الدنيا عن الصلة السامية التي يصلهم بها الفن ، وقد
نعلم أن البحتري كان يقدم أبا تمام ، وأن المعري كان يعظم أبا الطيب ،
ولكن ذلك التقدير لم يتخذ شكلا فنيا ، ولم يبرز في عالم الشعر قصصا
رائعا يفيض بتقديس الفن وتبجيل رجاله • وبينما كان ذاك التحاقد
ديدن (٦) شعراء العربية فيما بينهم كان جهلهم بشعراء الأمم الأخرى
مطبعا •

لقد حجب العرب عن تلك العوالم الفنية اعراضهم عن تراث اليونان
الفني ، ودعاهم الى ذلك الاعراض تمكن الملكة البيانية منهم ، تمكنت من
نفوسهم في البداية ، حيث لا تتوفر أدوات فن من الفنون سوى فن البيان
الذي لا يحتاج الى أدوات غير صفاء الذهن وطلاقة اللسان ، وقوى اعتداد
العرب بتلك الملكة وتوفرهم عليها نزول القرآن الكريم الذي زادهم كلفا
بالقصاحة ، وكان دائما أساس ثقافتهم التي يؤخذون بها من الصغر •
فالانجليز اتصلوا بتراث اليونان وهم بعد مقصرون دون جميع غايات
الثقافة ، فاغترفوا من جميع مناهله ، ولم يتصل العرب به وبغيره من تراث
الأمم الا بعد أن توطد أدبهم وتمكن سلطانه من نفوسهم ، فشمخوا به
على سائر الآداب ، واستغنوا به عن كل الفنون •

(٥) طرا : الطريد ذا رواء وجمال •

(٦) ديدن : العادة والدأب •

لذلك لم يحفل العرب بالتمثيل ، ولم يزدهر بينهم التصوير والنحت ، ولم يتعدى حدود الصناعة ذات الغرض المادى الى حدود الفن انسامى الذى هو غاية نفسه ، واقتصروا من التصوير والزخرفة والنحت على ما كان يزين قصور كبرائهم من تهاويل ودمى قليلة الحظ من الفن . لا تحمل وراءها من المعانى السامية ما تحمله الصور والتماثيل الفنية . واستبد الأدب بالتعبير عن أسمى مشاعر العرب وأرقى أفكارهم . وإذا تذكرنا أن الفنانين الآخرين سالفى الذكر - الموسيقى والرقص - لم يتخلصا من ربة (٧) المادية وشبهة الشهوات الى عوالم الفن المتسامى بالنفوس ، وظلا دائما مقرونين بالشراب والقصف (اللهو) وخلع العذار ، تبين لنا أن الأدب كان فن العرب الفرد ، وأن الشعر ظل ديوانهم فى مختلف عصورهم ، وأدعوه حوارهم فاستغنوا عن التمثيل ، وأوصافهم فاستغنوا عن التصوير ، وأمداحهم فقام مقام التماثيل .

ومن ثم نرى أثر فنون التمثيل والتصوير والنحت فى الأدب العربى ضئيلا : فلم يكن بين العرب ممارسون لتلك الفنون ينعكس ظلال فنونهم فى الأدب ، ولم يكن لدى أدباء العربية كبير اهتمام بمخلفات الأمم السالفة فى مشارق دولتهم ومغاربها . ومن القليل الجيد الذى نظهوه فى تلك المناحي سيئة البحترى التى يصف فيها نقوش ايوان كسرى . ورائية ابن حمدىس التى يصف فيها تماثيل الأسود فى بعض القصور ، وسينية أبى نواس التى يصف عرضا فى أثنائها تصاوير كاسه فى قوله :

قرارتهما كسرى وفى جنباتها مها تدريها بالقسى الفوارس
فللخمر ما زرت عليه جيوبها وللماء ما دارت عليه القلائس

وقول بعض شعراء الأندلس فى تمثال امرأة وولدها :

ودمية مرمر تزهو بجيد تنأهى فى النورد والبياس
لها ولد ولم تعرف حليلا ولا ألت بأوجاع المخاض
ونعلم أنها حجر ولكن تتيمننا بالحاظ مراض

ولا تخلو كل هذه الشواهد من آيات البراعة وحسن الملاحظة والوصف ، حتى لبأسى المرء على أن لم يول العرب هذه المناحي من القول اهتماما أكثر مما أولوها . وسينية البحترى مثل شروود من أمثلة الشعور

(٧) ربة : أسر وعبودية .

لصادق والعاطفة الانسانية والروح الفنية في الأدب العربي ، وأعجب من نفرادها في الادب العربي صدورها عن البحرى الذى سخر بياته للمدح والهجاء . وقد كان نغاد العرب يطربون لهذه الاشعار الفنية الجميلة . النبعيدة عن اثار المدح والهجاء والنسيب المتكلف ، فقد اعجب ابجاءظ وغيره بسينيتى البحرى وابى نواس سالفتى الذكر . وعدوهما من ذخائر الشعر العربي ، ولكن دواعى مثل هذا النظم كانت نادرة ، وتيار محاكاة السابقين كان يدفع الادباء فى غير هذا الاتجاه .

فالأمتان العربية والانجليزية تتفقان فى ظهور الأدب فيهما على سائر الفنون واجتذابه أغلب نوابغهما ، واستنهارهما بالسبق فيه بين الأمم ، فان الانجليز وان جاروا الأوربيين فى مجالات النحت والتصوير لم يبلغوا شأوهم كما بلغوا الشأو والغاية فى صناعتى الشعر والنثر ، ولم ينبجوا من اعلام النحت والتصوير من توازى مكانته العالمية مكانة شكسبير وملتون وبيرون ، ولكن تفرق الأمتان فى أنه بينما مارس الانجليز الفنون الأخرى وهاموا بها ومجدوا آثار الأمم الأخرى فيها ، أهمل العرب الفنون الأخرى اهمالا يكاد يكون تاما ، فلم تجتذب اهتمام نوابغهم ومثقفهم ، وظل ما عرفوه منها أدنى الى الصناعات منه الى الفنون ، وظل الأدب — ولا سيما الشعر — يشغل فى عالم الفن والوجدان مكانا عاليا وسلطة مطلقة فردية بين العرب ، كسلطة الخلفاء والأمراء المستبدة فى عالم السياسة ، متوحدا بالافصاح عن أفكارهم مستائرا برعايتهم واجلالهم .

وقد خسر الأدب العربى بتفرده هذا الشئ الكثير ، لأن الفن الواحد لا ينمو خير نموه بعزلته ، بل بمواصلته الفنون الأخرى ، خسر ما كان ينتظر أن تمده به تلك الفنون من الهامات ومناح للقول ، وما كان ينتظر أن تبثه فى رجاله من فهم دقيق للفن وسمو غايته وتعاليه عن المادة وبعد هراميه ، وما توحى اليهم من وسائل للتعبير والتصوير والملاءمة بين المعنى واللفظ ، وجعل الأخير دائما خادما للأول . وبالجمله خسر الأدب معاونة الفنون التى استأثر بالمكانة دونها ، كما خسر مساعدة الآداب الأجنبية التى ترفع عنها .

شخصيات الأدباء

فى الأدبين العربى والانجليزى

يكثّر التشابه بين أفراد الجنس الواحد فى عالم الطبيعة فى الطبقات الدنيا من الأحياء ، وكلما ارتقى الجنس فى سلم الحياة ازداد الاختلاف فى المظهر والصفات بين أفراد الجنس ، وكذلك الحال فى المجتمعات البشرية : يتشابه الناس ويتقاربون فى المشارب (١) والأغراض فى عصور الانحطاط ، ويختلفون خلقا وعبقريّة فى عصور النهضة ، ويتفرقون فى شعاب الحياة ودروب المطامح فلا يتفقون الا فى تدفع الحياة فى نفوسهم وعلو هممهم ولوعهم ببعيدات الأمور ، فالتشابه والاتفاق من أمارات الانحطاط . والاختلاف والتميز من دلائل الرقى .

وذلك الشأن فى آداب الأمم : فان أظهر ميزات عصور النهضة فيها اختلاف مشارب الأدباء وتباين شخصياتهم واستقلال نظراتهم الى الحياة ووجهاتهم فى الفن ، فهم وان اتفقوا على مبدأ أو مذهب فى الأدب ، لا يتشاكلون (٢) ولا يكرر بعضهم بعضا ولا يغنى أحدهم عن سائرهم ، بل ينتحى كل منهم ناحية من الحياة يوكل بها ، ويرى الحياة جمعاء بمنظار نفسه لا بمنظار غيره ، وينفث فى أدبه خلاصة عبقريته الفردية ، أما فى عصور ادبار الأدب فيتمثل الأدباء حذوك النعل بالنعل ، ويتهافتون جميعا على نموذج الأدب أو الانشاء الأدبى ، لا ينفكون يقلدونه ويعارضونه ويغفلون بمحاكاته عن حقائق الحياة ولباب الفن ، فيخرج أدبهم جميعا صورا مكررة من أنفسهم وأشكالا ممسوخة من ذلك النموذج المحتذى أو القالب المصبوب .

ويمتاز فحول الأدب الانجليزى ، ولا سيما فى عصور نهضاته ببروز شخصياتهم واستقلالها واختلاف بعضها عن بعض اختلافا تاما ، الا فى اقتباسها جميعا من نور الصديق ، وإصدارها جميعا عن معدن الشعور : فالنهضة الرومانسية فى مستهل القرن التاسع عشر مثلا ، كانت ذات

(١) المشارب : المشرب : هو الميل والهوى والجمع مشارب .

(٢) يتشاكلون : المشاكلة : المماثلة .

أغراض معينة مشتركة بين جميع أعلامها : كانت ثورة على قيود الفكر وصناعة اللفظ وتقاليده النظم وعودة الى الطبيعة والبساطة ، ونزوعا الى جمال الحياة ، ومع ذلك يتباين فحول شعرائها وتبدو شخصياتهم بارزة واضحة الاختلاف في الأخلاق والمشارب والأساليب :

فوردزورت كان موكلا بالطبيعة ومجاليها وأسرارها ، مؤمنا بضرورة استخدام لغة النثر السهلة في الشعر ، وشلي كان معنيا بالاصلاح الاجتماعي وعدوا لدودا للملكية والكنيسة والتقاليد الحمقاء ، وكولردج كان هائما في عوالم المجهول وأغوار الماضي السحيق ، وسكوت كان مغرما بالعصور الوسطى وتاريخها في بلاده اسكتلندا ، متغنيا بمجدها وفروسياتها ، محيا لأغانيها الشعبية ، ويرون كان بوهيمي النزعة جرىء الفكرة مشغولا بقصص الأبطال ، جزل الأسلوب رائعته دون تدبيج ولا ترو .

ولنضرب مثلا آخر مؤرخي الانجليزية الثلاثة ، الذين توخوا الفن والأسلوب الأدبي في تواريخهم : جيبون وماكولي وكارليل ، فأولئك شخصيات ثلاث متميزة : فالأول رصين الأسلوب واللفظ ، محكم البنيان ميال الى الموازنة في المعاني والازدواج في التراكيب ، والثاني يراوح بين طويل الجمل وقصيرها ، مولع بتصوير المناظر التي يمر بها تصويرا يقف بك أمامها وجها لوجه ، كلف بتاريخ مآثر وطنه وعظائم أبنائه ومواقف فخاره ، أشد تشبعا بالوطنية وأقل نصيبا من النظرة الانسانية الشاملة من صاحبيه ، والأخير قصير الجمل فجائي الأفكار ، معنى بعظماء الرجال أخلاقهم وسجناتهم وآثارهم في عصورهم .

وقل مثل ذلك في سائر مشهورى الأدباء الانجليز : كلهم مختلفو الشخصيات مستقلوها ، واضحو النفسيات ، متميزة شخصياتهم ونفسياتهم احداها عن الأخرى ، تقاربوا في العصور أو تباعدوا ، اتفقوا في المذهب الأدبي أو اختلفوا ، وذلك أول دليل على حيوية الأدب ، وأصدق شاهد باستمداده من ينابيع الحياة الجارية ، لا من بطون الكتب الجافة ، فالحياة لا تغنى صورها تعددا ، وهى تبدو لكل أديب صادق النظر والشعور في صورة جديدة .

وانما تشابهت شخصيات الأدباء وتماثلت آثار الشعراء في عصور تدهور الشعر في أواسط القرن الثامن عشر ، حين بعد الشعراء عن الطبيعة وانغمروا في المدينة ، وهجروا الحياة وغرقوا في صفحات

الكتب ، وأعرضوا عن وحى شعورهم وقلدوا من سبقوهم ، فعدوا بوب ودريدن المثل الأعلى الذى يحتذى ، والمطلب الأسمى الذى لا يطلب سواه ، واحتذوهما فى الغرض والأسلوب والعروض ، وتعاوروا (٣) أشعارهما معارضة واقتباسا واختلاسا ، فخرجت آثارهم جميعا متشابهة متشاكلة بعيدة عن الفن لا تصور شخصيات قائلها ، وخملوا جميعا من دون ذنبك الشعاعين اللذين احتذوهما • فلا يهتم بآثارهم اليوم الا مؤرخ الأدب المدقق المستقصى •

وفى تاريخ الأدب العربى شخصيات مستقلة واضحة متميزة ، مخالفة كل منها للآخرى قولاً وخلقاً وأسلوباً ، كالمعرى الحكيم المشفق على أمة الطير والحيوان ، المعنى بتنازع البقاء وبغى الأحياء ، والمتنبى الطموح « المتعاطى للكبر وعلو الهمه » كما قال بعض معاصريه ، وابن الرومى المشغوف بالجمال الطبيعى والانسانى ، المنهوم بنعيم الحياة ولذاتها ، الدقيق النظرة ، الرائع التصوير ، وأبى نواس الماجن المستهتر ، والجاحظ الموكل بفنون الثقافة ، وبديع الزمان المعتد بنفسه ، الحريرى على المادة المكاثرة بثروته اللغوية ومهارته الصناعية ، السهل الديباجة ، الرائق الفكاهة • كل هاتيك شخصيات بارزة متميزة •

ولكن بجانب أمثال أولئك حفل كبير مشهورى الأدباء الذين آتتنا آثارهم وانحدرت إلينا بعض أخبارهم ، ولكن شخصياتهم مبهمه مطموسة ، يكتنفها الضباب ولا يستجليها الخيال ، وتشابهه كثيرا حتى لنضيف آثار بعضها الأدبية الى آثار الأخرى فلا ترى فارقا ، ولا تحس مانعا يحول دون ذلك من تباين الأساليب أو اختلاف النفسيات أو تضاد النزعات ، بل ان شخصيات بعض من تقدم ذكرهم من فحول العربية ، على كثرة ما وصل إلينا من كتاباتهم وأخبارهم ، مبهمه فى كثير من نواحيها •

ولا ريب فى أن لطول العهد وكر الزمن أثرا كبيرا فى تبديد الآثار ، وتغيير الأفكار والمشارب والأذواق ، واحاطة شخصيات المتقدمين بغشائم من الغموض والغرابه مهما تحدث الشعراء بذكر الخلود ، ولكن هناك عدا هذا عوامل لا يستلزمها الأدب العربى فأدت الى غموض كثير من شخصيات كثير من أعلامه ، وتشابهها واختلاطها ، أولها شيوع الأمية فى الجاهلية وصدر الاسلام ، مما أدى الى تبدد أخبار كثير من الشعراء وضياع

(٣) تعاوروا : تداولوا الشيء بينهم •

أشعارهم واختلاطها ، ودخول الزيف والتمويه عليها ، مع أن شعر ذينك العصرين كان أصدق حديثا وأكثر إفصاحا عن شخصيات قائله من شعر العصور التالية ، لو لم تعبت به يد الامة والنسيان .

ولما انتشرت الكتابة لم تكن الطريقة التي جرى عليها المؤرخون هي ترجمة الأدباء هي المثل : فقد اقتصروا على توارخ ووقائع - كوفود الأديب على ممدوح أو اتصاله بديوان أمير - لا أهمية لها في شرح نفسياتهم ، ولا غناء وراءها في توضيح شخصياتهم ، وجاء كثير من التراجم مختزلا مجتزأ . وناقض بعض الروايات بعضا ، وصعب تصديق بعضها ، فظلت جوانب من تلك الشخصيات مغلقة ، فما أقل ما يعرف عن عبد الحميد وابن المقفع والطائي والبحترى وابن الرومي والمتنبي ، فهم لا يكادون يظهرون في ضوء التاريخ الا في جناح أمير أو ركاب عظيم ، أما نشأتهم فمهملة ، وهي التي لها أكبر الأثر في آدابهم ، وأما حياتهم اليومية فمغفلة ، كان ليس لها خطر ولا شأن !!

وما قصر فيه المؤرخون لم يعوضه الأدباء أنفسهم : فكثير منهم لم يصوروا أنفسهم في أشعارهم ورسائلهم صورا واضحة ، ولم يودعوها خلجات أفئدتهم ونظراتهم في الحياة ، بل ما أكثر الكتاب الذين قصروا بيانهم على إنشاء رسائل الأمراء ، والشعراء الذين توفروا بأشعارهم على مديح أرباب النوال (٤) ، فامتثلت آثارهم الأدبية بذكر أناس كثيرين ووصف أحوالهم وأفكارهم ، فلا غرو أن جاءت آثارهم متشابها ، لا توضح شخصياتهم ولا تنهض ببعض ترجمتهم ، ومن العجيب أن أكثر الشعراء إفصاحا عن أفكارهم الخاصة وحاجاتهم وشعورهم ، كانوا هم المجان والخلعاء الذين لم يكن لهم شعور ولا تفكير في سوى اللذة والعبت كبشار وحماد .

فالنظر في ديواني الطائي والبحترى ، وفي رسائل ابن العميد والصاحب ، لا يعثر الا نادرا على فقرة أو أبيات مصدرية عن شعور شخصي للأديب هو ببيانته محتفل ، أو فكر جليل هو في اذاعته جاد ، ولا يرى في الشعر الا مديحا وهجاء وشكوى للزمان وافتخارا بعلو الشأن ، أو ما كان يجب للشاعر من علو الشأن ، وضربا للأمثال واصطناعا للحكمة ، ولا يرى في النشر الا تنميحا وتديجا واقتباسا وتكاثرا بسعة الاطلاع ، فلا غرو أن يتشابه أولئك الشعراء الا تفاوتا قليلا في الصياغة ، وأولئك

(٤) النوال : العطاء .

الكتاب الا اختلافا بسيطا فى الأسلوب ، فاذا أنت نزعت جانبا كبيرا من نظم أولئك الشعراء ، أو نشر أولئك الكتاب ، لم تشوه آثارهم بانتزاع ما لا غنى عنه لبيان نفسياتهم ، واذا أضفت بعض آثارهم الى بعض لم يعقك عائق من تمييز شخصية عن شخصية أو اختلاف منحى عن منحى .

وهناك عامل خطير لا يقل عن هذا أهمية فى تشابه شخصيات الأدباء وتمائل آثارهم : ألا وهو نزعة المحافظة والتقليد التى صاحبت الأدب العربى منذ قامت الدولة العربية وانتشرت اللغة فى الأقطار ، فقد اتخذ الأقدمون مثلا عليا فى البلاغة والشاعرية ، وألح المتأخرون على آثارهم وأغراضهم فى القول ومعانيهم محاكاة وتوليدا وتخريجا ، وجالوا جولان المتقدمين فى ميادين المدح والهجاء ، والفخر ، وشكوى الدهر ، وضرب المثل واستخراج الحكمة ، واحتذوهم فى النسيب بليلى وهند ، والوقوف بالأطلال واستحثاث المطى وذرع الفلوات ، فكان للأدباء فى توالى العصور تراث أدبى واحد يتكرر ولا يكاد يتغير ، ويتشكل ولا يكاد يتحول ، ويأخذ منه كل أديب ويكاد يفنى فيه ، وينهل منه وتكاد شخصيته تغرق فى عبابه .

فتقليد المتقدمين دون الطبيعة ، واتخاذهم مثلا عليا يصدر عنها القول ، بدل أن يصدر عن الشعور الفردى المستقل ، من أكبر أسباب ركود الأدب وتشابه الأدباء وتقارب شخصياتهم ، ومن ثم جاءت آثار كثير من الأدباء المتأخرين متشاكلة مشابهة جميعها لآثار المتقدمين ، على تباعد الزمان واختلاف المواطن ، وظلت شخصياتهم غامضة لأنهم لم يجعلوها فى كتاباتهم جلاء صادقا .

ولما استفحلت الصناعة اللفظية ، واشتد الحرص على المحسنات البديعية ، غرقت معانى الشعر وأغراضه وشخصيات الأدباء جميعا فى سبيل من الألفاظ المرصوفة (٥) والعبارات المقتنصة من آثار المتقدمين ، وأصبحت دواوين الشعراء جميعا ديوانا واحدا مملوءا بالنكات اللفظية ، لا فرق بين أوله وآخره . وما أشبه ما قاله البهاء زهير بما قاله ابن نباتة بما قاله صفى الدين من نسيب متناه فى ادعاء الرقة والظرف ، ووصف لمجالى الطبيعة تخلط فيه محاسن الطبيعة وصورها ببهارج الألفاظ وزخارفها مزجا عجيبا ، وتتطلب البراعة باقحام مصطلحات العلوم كالنحو والمنطق والنجوم .

(٥) المرصوفة : رصف - رصافة : صار محكما .

ولا ريب فى أن أمتع الأدب للنفس ، وأعلقه باللب ، ما أبان عن شخصية قوية ، ونفسية مستقلة ، ومن ثم نرى أن ذوى الشخصيات الأصيلة والنظرات الصادقة فى حقائق الحياة ، كالمتنبى وأبى العلاء وابن الرومى والجاحظ ، هم الذين حظوا ، دون غيرهم من أدباء العربية الأقدمين ، بالدرس الطويل والترجمة المفصلة من كتاب عصرنا الحالى ، لأن آثارهم تشوق الدارس وتحفزها الى الكتابة والتعليق والنقد ، وتحوى صورا من انفسهم يطيب للمطلع التأمل فيها والنظر الى الحياة فى ضوء أفكارها . ولو حاول ناقد أن يترجم لمروان بن أبى حفصة ، أو مسلم ابن الوليد ، أو مهيار ، أو البحتري ، أو الصاحب ، أو الحريري ، ترجمة مفصلة تشرح نفسية المترجم وتميط عن نزعاته وميوله وعوامل ذلك ، مستمدا شرحه وتحليله من آثار الكاتب أو الشاعر الأدبية التى اشتهر بها ، لكلف نفسه شططا .

فالناظر فى الأدبين العربى والانجليزى ، لا يسعه الا أن يلاحظ أنه يجد فى تاريخ الأخير شخصيات قوية مستقلة ظاهرة التباين والاختلاف ، مصورة فى أعمالها الأدبية حتى لتكاد تغنى بها عن ترجمة المترجمين ، وتحوى كتاباتها صورها النفسية الداخلية فلا تكاد تترك للمؤلف أكثر من سرد التواريخ وبعض الوقائع وهى لذلك ممتعة جذابة يحس القارئ أن بينه وبينها على اختلاف اللغة والزمن والوطن تجاوبا وصلة شاملة هى صلة الانسانية ، ويطربه أن يراها تعالج نفس المشاكل وتخامر نفس الخواطر والخوارج التى تساوره ، وأمثال تلك الشخصيات الواضحة أقل عددا فى تاريخ الأدب العربى .

آثر البيئة

فى الأدبين العربى والانجليزى

طبائع الانسان ومواهبه متماثلة حيثما حل من بقاع الارض ، ومجتمعاته متشابهة الظواهر اينما قامت . تتشعب بين أفراد كل مجتمع انساني عوامل التعاون والتنافس والتحاب والتباغض والمطامع والمخاوف ، غير أن للبيئة أثرها فى تشكيل المجتمع الانسانى الذى تحيط به ، بما تعرض أمام أبصاره وأذهانه من مناظر ومسائل تحجب عنه غيرها ، وما تفرض عليه من أعمال يمارسها دون سواها ، ويكون لهذا وذاك أثره البين فى لغة المجتمع وأدبه ، مقرونا الى أثر الطبائع والمواهب التى تشترك فيها الأمم جمعا .

ف للبيئة فى أدب كل لغة ثلاثة آثار بعيدة المدى : فهى أولا تؤثر فى مبنى اللغة وأصواتها والفاظها وتعابيرها وتشبيهاتها ومجازاتها وأمثالها السائرة وحكمها المتواترة ، فكل ذلك منتزع من طبيعة اقليم ، وهى ثانيا تؤثر فى مهن المجتمع وعلومه وفنونه وعمرانه وينعكس كل ذلك فى مرآة الأدب ، وهى أخيرا تعرض دائما أبدا أمام أنظار الأدباء وحواسهم مناظر طبيعية بذاتها ، تسترعى انتباههم وتستجيش نفوسهم وتلهمهم كل ما تجود به قرائحهم (١) فى باب عظيم الخطر من أبواب الأدب هو باب الوصف الطبيعى .

وأثر البيئة فى الأدبين العربى والانجليزى واضح وضوحا شديدا يكاد لروعه يخفى أثر الطبيعة الانسانية التى تشترك فيها الأمتان ويتفق عندهما الأدبان ، فان تباين البيئتين تباينا شديدا أدى الى اختلاف اللغة والمهن والعمران والمناظر فى المجتمعين ، وأدى بالتالى الى اختلاف أشكال الأدبين وصورهما ومواضيعهما وأساليبهما ، ويمكن إيجاز التعبير عن الفرق بين الأدبين بالقول بأن أحدهما شب فى بيئة صحراوية والآخ ترعرع فى بيئة بحرية .

(١) قرائحهم : جمع قريحة وهى ملكة يستطيع بها الانسان ابتداع الكلام .

نشأ العرب في البادية فجاءت لغتهم مشرقة الديباجة متينة البناء
قوية التعبير غنية الاشتقاق منتظمة أوزان الشعر متعددتها وحفلت بأسماء
ظواهر الطبيعة البرية وحالاتها ، وأسماء حيوان البادية وأطوار حياته ،
واشتقت تشبيهاتها ومجازاتها وأمثالها من القمر والنجوم والكشيب
والقطا (٢) ، والمنبت الذي لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى ، وورود الماء بماء
أكيس ، والقاء الحبل على الغارب ، ولعدم ملاءمة البادية لغير الأدب من
الفنون عظمت مكانته بينهم .

واشتغل العرب في البادية بالتجارة ينقلونها بين الشرق والغرب ،
فامتألت لغتهم بمصطلحات التجارة بعضها عربي وبعضها منقول عن الأمم
التي بادلوها التجارة ، وامتألت أدبهم بالتشبيهات المنتزعة من أحوال
التجارة : فالقرآن الكريم يكرر في غير موضع تشبيه الخير والشر
بالنجدين ، وذكر الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم ،
وعنتره يقول :

حصاني كان دلال المنايا فحاض غمارها وشري وباعا

وبشت حياة البادية في العرب صفات الحمية والشجاعة والخبرة
والأنفة أن يدينوا الملك ، وظهر أثر كل ذلك جليا في أدبهم ، وأشهر أمثلة
ذلك معلقة عمرو بن كلثوم ، فهي ديوان العرب في الحماسة ، وأدى
إياهم ودوام انتجاعهم الكلا إلى استمرار المناوشات والوقائع بين قبائلهم،
وانعكس ذلك في مفاخراتهم ومنافراتهم. نثرا وشعرا .

وهذه الصفات الشماء التي تلزم حياة التبدى جعلت العرب
ينظرون شزرا الى الزراعة والصناعة اللتين لم يكن لهما بحال مجال في
البادية ، ويحتقرون الزراعة والصناع الذين تسترقهم الأرض وتستعبدهم
المادة ، ولا يرون الشرف والعزة الا في رعى الابل والتجارة والقتال .
فالأخطل يعير بنى النجار بمساحيهم ، وآخر يفاخر غريمه فيقول :

لما الله الأمانا نسبا - وأجدرنا أن ينفخ الكير خاله - يصوغ الشنوف
والقروط بيثربا .

والحق أن الشعر الجاهلي مهما يكن قد داخله من تزيف يمثل
الجانب الاجتماعي من حياة العرب في الجاهلية تمثيلا رائعا ، ولا يمكن

(٢) القطا : هو نوع من اليمام يؤثر الحياة في الصحراء .

تصور حالة العرب فى ذلك العهد الا على ما وصفت فى أسعار طرفة ومهلهم
وأمثالهما .

أما مناظر البادية الطبيعية المتشابهة الشديدة الوطاة ، فيبدو أنها
لم تشرب (٣) العرب من حب الطبيعة مقدار ما بثت فى نفوسهم من
رهبها والحرص على اتقائها ، ولم تلهمهم من أشعار فى وصف محاسنها
قدر ما أوحى اليهم من أشعار فى التأمل فى أحوالها والاستعبار والخشوع .
فلا غرو أن لم تخرج الصحراء شعراء طبيعيين يصفون محاسن المناظر، كذلك
التي تحفل بها الألياذة والأوديسة ، وإنما أخرجت أنبياء وحكماء فى شتى
عصورها .

وتحضر الشعب الانجليزى فى جزيرة تحيط بها البحار . وتجرى
فيها الأنهار ، وتتخللها البحيرات ، وتتوالى عليها الأمطار والثلوج
والسحاب والضباب ، ويتعاقب فيها الصحو والدجن (الظلام) ، وتنتشر
فى أرجائها الغابات والآجام (٤) ، وتتتابع فيها الربى والقيعان ، فامتألت
لغتهم بأوصاف البحر والغاب، وأسماء ما أسكنوهما من جان، واشتقت منها
تشبيهاتهم وأمثالهم ، فاستعير الضباب لحالة الشك والابهام ، والسحاب
للحزن والقلق ، وقالوا فى أمثالهم ان الوقت والمد لا ينتظرون انسانا ،
وحلت السفينة من مخيلتهم ما كان للجمل لدى العرب من منزلة : فهيئما
ترى حسان يشبه تراقص الخمر فى انائها بتهادى الناقة المسرعة فيقول :

بزجاجة رقصت بما فى قعرها رقص القلوص براكب مستعجل

يشبه ملتون « دليلة » وهى شاخصة فى عظم جرمها وتماز زينتها
وعتادها الى « سمسون الجبار » لاختداعه عن سر قوته بالسفينة
المنشورة الشراع .

وامتألت قلوب الانجليز بحب البحر ، وظهر أثر ذلك فى أدبهم
فى كل العصور : فى روايات شكسبير كالعاصفة وتاجر البندقية ، وفى
تواريخ أمراء البحر الانجليز ككتاب « وستوردهو ! » الذى سماه مؤلفه
كنجزلى باسم البلدة التى أنجبت معظم أولئك البحارين الذين يسمون
بأفذاذ ديفون ، وككتاب سودى عن نلسون ، والروايات الخرافية عن

(٣) تشرب : المشارب : الميل والاهواء .

(٤) الآجام : الأجمة : الشجر الكثير الملتف والجمع آجام .

البحارة الذين لاقوا الأهوال وطوفوا في مسالك البحار ، أمثال روبنسون كروزو ، واسكندر سلكر ك ، وجليفر ، وأوصاف البحر وقصصه تكون جانبا كبيرا مما يعرف بأدب الأطفال .

ولم يشغف الانجليز بالبحر وحده ، بل بالماء حيث حل من البقاع ، وأيا اتخذ من الأشكال ، فهموا حبا بالأنهار والبحيرات ، ونال اقليدس البحيرات في غرب انجلترا مكانة سامية في قلوب شعراء الانجليزية ، واتخذ شعراء النهضة الرومانسية مسترادا (٥) ومقاما ، وحفلت دواوينهم بأوصافه ومحاسنه ، فحل في انجلترا محل جبال برناس التي كانت ترتادها آلهة الشعر في بلاد اليونان .

وحفل الأدب الانجليزي كذلك بذكر الغاب ووصفه في مختلف أوقات العام ، واتخذ مسرحا لروايتي « كما تشاء » ، و « حلم في منتصف ليلة الصيف » لشكسبير ، وفي الأخيرة تمتزج الحقيقة بالخيال ، وتختلط الاناسي بعرائس الغاب وعفاريتهم ، وفي تلك العرائس المتخيلة نظمت أشعار كثيرة ، وفي تلك الغابات كان يعيش روبن هود وجماعته ذات الوقائع الممتعة ، وبالجمله بثت طبيعة بلاد الانجليز المتعددة المناظر والحالات ألفة الطبيعة والشغف بها في نفوس الانجليز ، فاحتلت من أديهم موقعا مكيئا .

ولموقع الجزيرة واحاطة البحار بها اشتغل الانجليز بالتجارة ، ينقلونها بين العالمين القديم والجديد ، وقد مارسوها بحرا على حين مارسها العرب برا ، فدخلت تعبيراتها وأوصافها في أدبهم ، واشتغلوا بالزراعة للملاءمة الاقليم وحفل جانب من أدبهم بوصف سكان القرى والبلدان الريفية ، وحياتهم ومجتمعاتهم ، وكثر ذلك خاصة في العصور الحديثة حين تقدم فن القصص وازداد التفات الأدباء الى الحياة اليومية والطبقات الوسطى والدنيا . ومن خير أمثلة ذلك روايات جين أوستن وتوماس هاردي ، واشتغل الانجليز كذلك بالصناعة الكبيرة لوفرة المعادن في بيئتهم ، فقام نوع من الأدب يدرس مشاكل الصناعة ويصور مجتمع الصناع ، وانصرف بعض الروائيين ، كآرنولد بنيت ، الى وصف حياة الرأسماليين ، وبعضهم ، كتشارلز دكنز ، الى درس أحوال العمال والمناذاة بتحسينها .

(٥) مسترادا : تردد ، أى رجع اليه مرة بعد أخرى

هكذا تأثر كلا الأدبين بالبيئة التي قام فيها ، فاختلغا لذلك مناسي ومواضيع وأشكالا ، بيد أن البيئة التي تقدم ذكرها ان هي الا البيئة المحلية المحض ، وهي على عظيم تأثيرها في المجتمع والأدب قلما تنفرد بالتأثير فيهما ، بل تشاركهما في ذلك بيئة أوسع أطرافا هي البيئة العالمية ، أي العالم كله بما فيه من ظواهر طبيعية وما يسكنه من أقوام ، فبهيات أن يعيش مجتمع في بيئته المحلية غير متأثر بالعالم الخارجى تأثرا قل أو كثر ، عن طريق التجارة والغارة والرحلة ، وذلك الأثر العالمى يعرض أمام أفراد المجتمع من الظواهر والمشاكل ما كانوا عنه بنجوة (٦) ، ويدخل في لغتهم وأدبهم ما كانوا به جاهلين .

تأثر الشعبان العربى والانجليزى بأحوال العالم الخارجى ، أى بالبيئة الكبرى ، ولكنهما اختلفا في هذه البيئة كما اختلفا في البيئة المحلية ، اذ تأثر كل منهما بما يليه مباشرة من أجزاء تلك البيئة العالمية : وما يلي بلاد العرب هو الأمم الشرقية من فرس وهند وروم شرقيين ومصريين ، ذات الحضارة الشرقية العتيقة والملكيات القديمة ، وما يلي الانجليز هو الأمم الغربية الوارثة لحضارة الاغريق والرومان ذوى التاريخ الحافل بالنظم الحكومية والآراء الحرة في السياسة والاجتماع ، وبذلك ازدادت صبغتا الأدب تباينا .

تأثر العرب بحضارة الأمم التي كانوا ينقلون تجارتها . ولا سيما الفرس والروم ، وكانت لهم بهؤلاء علاقات سياسية ولاكابرهم الى ملوكهم سفرات ، والى اشتغال قريش بتلك التجارة ومخالطتها تلك الأمم يرجع ذلك الرقى الأدبى والمادى الذى بلغته قبيل الاسلام ، وظهورها على القبائل فى الثروة والجاه والشرف واللغة ، وانجابهها عظماء الرجال الذين على أيديهم توطدت دولة الاسلام ، فكانت مكة قبيل الاسلام فى حال من الثمان وسط بين همجية البداوة ونعومة الحضارة .

ولو استمر تأثر العرب بالبيئة الخارجية طبيعيا محدودا هكذا لازدادوا رقىا وازدادت لغتهم بهاء وأدبهم ازدهارا ، ولكن التوسع الخارجى الذى أعقب نجاح المسلمين الحربى المفاجئ أوقف ذلك التأثير البطيء ، وأحدث انقلابا تاما فى مجرى الأمور ، فلم يعد تأثر الأدب العربى بالعالم الخارجى مقصورا على النقل التدريجى ، بل انتقل الأدب ذاته جملة من وطنه الأصلى وهجر بيئته الأولى الى بيئة أو بيئات جديدة فى الشام

(٦) : بنجوة : برى . سالم .

والعراق ومصر والأندلس وغيرها ، والأدب العربي في انتقاله هذا ومهاجرته هذه من وطن الى وطن نسيج وحده بين آداب الامم .

وجد الأدب العربي نفسه في بيئة جديدة ، في اراض مزروعة مثمرة ، وأمم مترفة مستقرة ، وبلدان عامرة متحضرة ، ذات علوم وصناعات ، فتأثر بهذه البيئة الجديدة في ثلاث النواحي سالفه اذكر : في مفردات اللغة وتعبيراتها التي ازدادت بالنقل والتعريب ، وفي المهن ومظاهر العمران ، وفي وصف مناظر الطبيعة الجديدة ، فنثر في الأدب ذكر الرياض والأزهار .

على أن تأثر الأدب في الناحيتين الأولى والثالثة كان قليلا نسبيا لفني اللغة في الاشتقاق الذي أغناها عن الامعان في التعريب ، ومحافظة العرب التي نفرتهم من استعمال ألفاظ اللغات الأخرى وأخيلتها الا ما جاء عفوا أو ضرورة ، وحرصهم على احتذاء أسلافهم حتى ظلوا يقلدونهم في وصف البيد والخيام والنوى (٧) والعيس (٨) ، وهم يعيشون بين الأرياف والعواصم ، فقامت هذه التقليدات للمتقدمين في الأدب العربي كالمتهجرات في عالم الجيولوجيا : قد فقدت كل حياة ولم تعد الا رموزا للماضي .

ولم يشغف العرب شغفا حارا بمظاهر الطبيعة التي صادفوها في بيئتهم الجديدة ، وكان نفرتهم القديمة من قسر الطبيعة لم تفارق نفوسهم ، وكان كل ما كانوا يطمحون اليه بعد أن طروا الأميال ضربا في فلات الجزيرة وهواجرها (٩) ، ظل ظليل وماء سلسبيل وهواء بليل ، تريح الجسم وترويه وترفه عنها بعد طول الكد ، ففص أدبهم الطبيعي بذكر راحة الجسم ولذات الحواس ، دون طويل تأمل في محاسن الطبيعة واجتلاء لأسرارها وتقص للذكريات والآمال عندها ، وأجمع الأمثلة لذلك قول الشاعر الأندلسية :

وقانا لفحة الرمضاء واد	سقاء مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحه فحنا علينا	حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالا	ألسن من المدامة للنديم
يصد الشمس أنى واجهتنا	فيحجبها ويأذن للنسيم

(٧) النوى : مجرى يحفر حول الخيمة أو الخباء يقيهما من العيل .

(٨) العيس : كرام الابل .

(٩) هواجرها : الهجرة : نصف النهار عند اشتداد الحر والجمع (هواجر) .

انما كان أشد تأثر الأدب العربى فى بيئته الجديدة بالناحية الثانية، ناحية العمران ، ناحية الحياة المستقرة فى البلدان ، المعتمدة على الزراعة والصناعة ، الخاضعة للملكية ، وهى عكس حياتهم فى البادية تماما ، فانغمروا الأدباء فى جو المدن ، واعتزلوا الطبيعة وتكأثروا على بيوت الأمراء ، وتزاحموا على مجالس الطرب والشراب ، واستفرغوا جهدهم فى انتهاب فرص الحياة من جاه ومال ورفاهية ولهو ، وتأثر الأدب بذلك : فلم يعد ينغنى بالنجدة والبأس والقناعة ، بل طاب له الاستغلال بسلطان الحاكمين، يترنم بمدحهم بعد أن كان أمثال عمرو بن كلثوم يثيرون على نيرهم (١٠) ، وتفنن فى وصف مظاهر التحضر وضروب الترف واللهو فى المدن .

أما الأدب الانجليزى ، فتأثر بالبيئة العالمية فى النواحي الثلاث .- نواحي مبنى اللغة ومظاهر العمران ومناظر الطبيعة - تأثرا كبيرا : فاللغة الانجليزية تدين للغات الأجنبية ولا سيما اللاتينية بأكثر مفرداتها وطرق اشتقاقها وكثير من تعابيرها ومجازاتها ، والمجتمع الانجليزى تأثر بالمجتمع الايطالى فى عصر الاحياء ، والمجتمع الفرنسى فى عصر لويس الرابع عشر ، ولم يخل فى عصر من التأثير بحالة العمران فى أوروبا ، اذ كانت الحضارة الأوروبية الحديثة مشتركة بين شتى الأمم ، وباطلاع الانجليز على أوصاف الطبيعة فى الآداب الكلاسيكية ازدادوا شغفا بمفاتيح بلادهم ، وزادوا فوصفوا محاسن الطبيعة فى ايطاليا وبلاد اليونان وغيرهما .

تأثر الأدب الانجليزى بالبيئة العالمية فى شتى النواحي ، ولكنه لاستقراره فى وطنه الأول وبيئته المحلية جاء تأثره بالأولى بطيئا محدودا لم يطف على خواصه المحلية ، بل ظلت للبيئة المحلية المكانة الأولى والآثار الواضحة فى الأدب ، ولم يزد الأثر الخارجى على أن أضاف الى العناصر المحلية ما يناسبها من العناصر الأجنبية ، وكلما احتجج (١١) الأدب جانبا من تلك العناصر مثلها ومزجها بنفسه وصبغها بصبغته الخاصة .

فالأدبان العربى والانجليزى قد نشأ فى بيئتين طبيعيتين مختلفتين وترعرعا فى مجتمعين متباينين ، وتأثرا بعوامل عالمية مختلفة ، وهاجر

(١٠) نيرهم : النير هو الخشبة المعتزضة فوق عنق الثور وتستعار الكلمة للدلالة على الظلم .

(١١) اخنجن : اختص نفسه به .

أحدهما من بيئته الأولى الى بيئة جديدة بينما ظل الآخر في وطنه الأول ،
فلا غرو أن يختلف الأدبان في الصبغة والمناحي والأوضاع والأغراض
والأخيلة ، اختلافا يروع الناظر فيهما فيخيل اليه أن ليس هناك تشابه
بينهما قط ، ولا وجه للموازنة والمقابلة ، ويكاد يخفى ما فيهما من تعبير
مشترك عن شتى النوازع النفسية والظواهر الاجتماعية ، التي تتفق فيها
الطبائع الانسانية ، في شتى المجتمعات ، ومختلف البيئات .

النقد

فى الأدبين العربى والانجليزى

ليس النقد الا ميلا طبيعيا فى الانسان الى الحكم على ما يجدر وما يرى ، واختيار الأحسن من ذلك • ونشاط النقد دليل على نشاط الفكر ، وهو مصاحب لارتقاء الأدب وانتشار الثقافة فى كل أمة ، بل هو ضرورى لتقدم الأدب : يقفه على مواضع احسانه ويظهره على مواقع تقصيره ، ويجلو أمامه غاياته وطرائفه ، ويستحثه على دوام الترقى والتزيد • فالأدب صدى الحياة ، والنقد صدى لذلك الصدى ، يظهر للأدباء والمتأدبين مدى نجاح الأدب فى تأدية رسالة الحياة وموقع أعمالهم فى النفوس •

فالنقاد النزيه خير صديق للأديب : يضح اصبعه على عيوبه فيتلافها ، ويستحسن اجادته فيزيده ثقة بنفسه واقبالا على ممارسة أدبه • ولعل أروع أمثلة ذلك ما كان من ملازمة كولردج لوردزورث : فقد وجد الأخير فى صاحبه - حين اعراض الجمهور عنه وغمط الجميع حقه - خير عارف بقدره معجب بأدبه ، وكان لاجاب كولردج وتشجيعه أبعد المدى فى أدب وردزورث ، وكان الشعر الذى كتبه فى عهد صداقتهما خير ما كتبه على الاطلاق •

بيد أن الأحقاد الشخصية سريعة الى نفوس الأدباء والنقاد ، والأهواء السياسية والمذهبية كثيرة الوغول على الأدب والنقد • وقد شهد الأدبان العربى والانجليزى ما لا يحصى من أمثلة النقد المغرض ، وقاسى الأدباء حملات الخصوم الشخصيين أو السياسيين باسم الفن والنقد • ومن أمثلة ذلك فى العربية حملة الصاحب على المتنبى واشلاؤه (١) عليه أذنباه (٢) • وفى الانجليزية عانى أعلام الأدب أمثال وردزورث وتنيسون وكيثس حملات الرجعيين والحاسدين ، وبلغ الكمد من الأخير حين هاجمه بعض ناقديه فاقذع أن مات محتضرا فى عنفوانه •

(١) اشلاؤه : الشلو العضو والجمع اشلاء •

(٢) اذنباه : ذنب أى تابع والجمع اذناب •

وقد كتب الكتاب فى العربية والانجليزية وغيرهما من اللغات فى النقد كثيرا ، وحاول كل من عالجه أن يستخلص من شتى الشواهد المنتزعة من آثار فحول الأدب قواعد عامة للأدب توضح غثه من سميته وتعين القارىء ، والناقد على استيعاب الحسنى واستهجان الهجين مما يكتب الكتّابون ، ولكن النقاد لم يتفقوا بعد جهودهم تلك على شىء ذى بال ، بل ناقض بعضهم بعضا ، واستجاد هذا ما استرذله ذاك ، وظل المرجع الأول فى نقد الأثر الأدبى الى ذوق الناقد وتكوينه الفكرى ، وظل كل أثر أدبى من شعر أو نثر يحمل فى طياته المبادئ التى يجب أن ينقد على حسبها ، بل رأى وردزورث - وأصاب - أن الناقد الذى يقبل على نقد أثر أدبى ، وقد كون لنفسه مبادئ ثابتة غير أهل للحكم على ذلك الأثر أو غيره .

وللنقد صور شتى : فالأديب هو أول ناقد لأدبه ، وانشاء الأثر الأدبى عملية مكونة من الخلق والنقد معا ، ومن الأدباء من يعرض ما ينشئ على رفاهه ، ويستمع الى ملاحظاتهم عليه ، وكان ذلك معروفا بين العرب قبل أن تذيع الكتابة ، كما كانوا يعرضون أشعارهم على النقاد فى الأسواق الأدبية ، ولتمكن الملكة البيسانية من العرب كان كثير من أمرائهم نقادة حفصاء (جامعين) للأدب . ويرى لعبد الملك والحجاج وسيف الدولة مع مداحهم : كثير ليلى الأخيلىة والمتنبى نوادر فى ذلك ، فكثيرا ما كان الأمير أبصر بالأدب ونقده من مادحه ، فلما ذاعت الكتابة وانتشرت الثقافة ظهرت كتب النقد .

وكتب النقد أنواع : فمنها ما يدرس مبادئ الأدب وغاياته ووسائله ويدخل فى هذا الباب كتب البيان والبلاغة والعروض والقافية ، وهى كل ما يمكن أن يتفق عليه النقاد من مسائل النقد . ويشترك الأدبان العربى والانجليزى فى وفرة هذا الضرب من كتب النقد الأدبى فيهما ، ومن كتب النقد ما يدرس أديبا واحدا أو جملة أدباء على منهج خاص من الدراسة ، كالكتب الكثيرة المؤلفة فى دراسة شكسبير وملتون ووردزورث وتينيسون وهاردى ، ومنها ما يدرس نوعا خاصا من الأدب كالقصة أو الشعر الغنائى ، ومن ذلك كتاب أبركرومبى عن الملحمة ، ومنها ما يدرس عصرا يوضح عوامل الأدب ومظاهره فيه وآثار فحوله ، كالعصر الاليزابيثى والعصر الفيكتورى ، ومنها ما يدرس من عصور أدب اللغة جملة ، وتلك شتى كتب تاريخ الأدب ، وليسست فى صميمها الا نقدا ، وهى حديثة العهد .

وكل هذه الأنواع نادرة فى الأدب العربى وبعضها لا يوجد به ، وإنما الضرب السائد فيه هو ذاك الذى توخاه مؤلفو البيان والتبيين

والكامل ويتيمة الدهر : من تناول الأدباء بغير نظام وسرد بعض آثارهم والتعليق المقتضب عليها ، وتلك هى كتب الأدب التى لم يكن الغرض منها درس أولئك الأدباء والاماطة عن جوانب نفسياتهم وأسرار نبوغهم . بل كان الغرض منها اقتطاف أطيب آثار المتقدمين وتقديمها للمتأدبين السالكين سبيل الأدب الطالبين أسرار بلاغة العرب ، فلم تكن الغاية درس الأديب المتقدم ، بل اخراج الأديب المقبل .

وقد استفاد النقد فى الانجليزية كثيرا بتقدم العلوم الحديثة حتى فاق النقد العربى فى نواح شتى : فتقدم علم التاريخ علم النقاد أن يهتموا بحالة العصر الذى يدرسون من حيث السياسة والاقتصاد والمذاهب السائدة ، وتقدم علوم الاجتماع علمهم أن يهتموا بالبيئة التى نشأ فيها الأديب الذى يدرسون والصفات التى ورثها عن أسرته ، ومزاجه النفسى وتكوينه الجسمى ، وأثر كل ذلك فى أدبه ، فجاء النقد الانجليزى الحديث واضح المناهج بين الأسباب والنتائج ، وأبرز للعصور والأعلام صورا جلية وشخصيات متميزة .

أما نقاد العرب فكانوا أكثر اهتماما بدراسة فنون الأدب وأساليب الصناعة منهم بدراسة الأشخاص والعصور ، وقد أسهبوا فى درس الفنون التى فشلت فى أدبهم واستأثرت بمعظم نشرهم وشعرهم : كرسائل الأمراء والنسيب الاستهلالى والمدح والهجاء والرثاء ، وهى المناحى التى لم تظفر من أدباء الانجليزية ونقادها بالثقات ، فقسم قدامة بن جعفر مثلا المدح والهجاء الى ضربين : فمدح ووزراء وكتاب وقواد وسوقة ، وحصر صفات المدح فى أربع : الشجاعة والعدل والعقل والعفة ، يجمعها قول زهير :

أخى ثقة لا تهلك الخمر ماله ولكنه قد يهلك المال نائله
فمن مثل حصن فى الحروب ومثله لانكار ضميم أو لخصم يجادله

والناظر فى كتب النقد فى الأدبين العربى والانجليزى ، يرى — عدا ما تقدم — فروقا واضحة بين نقدى الأمتين كالفروق التى يرى بين أدبيتهما ، بل يرى مواضع الاختلاف واحدة فى الحالين ، ولا غرو فالنقد كما تقدم صدى الأدب ، بل ان النقد والأدب يتجاوبان فيما بينهما صدى مستمر طوال العصور ، والخصائص التى تغلب على أحدهما لابد أن تغلب على الآخر ، ومن ثم نجد بين النقد فى العربية والنقد فى الانجليزية ما نجد بين أدبى اللغتين من فروق فى نواحى المحافظة والتجديد ، والتأثر بالآثر الأجنبى ، والمعنى واللفظ ، والفنون وهلم جرا .

فنزعة المحافظة هي الغالبة على نقاد العربية ، وقل منهم من دعا الى تجديد صحيح ، وذلك ابن الأثير مثلا يزعم أنه مجدد فاق الأوائل ثم يأتي بأمثلة من تجديده فإذا هي محافظة مغرقة وتقليد مفرط ، وأغلب نقاد العربية يقدمون المتقدمين دون تأمل ، ولا يرون عن مناهجهم حولا ويضعونهم فوق متناول النقد . وذلك أبو علي الحاتمي يحسبه أتى بجديد حين مثل القصيدة بالإنسان في تناسب خلقه ، فلا ينشب أن يقول : « وتأتى القصيدة في تناسب صدورها وأعجازها ، وانتظام نسيبها بسديحها ، كالرسالة البليغة » ، فهو لا يتصور القصيدة الا نسيبا ومديحا كما فعل الأوائل .

وتنتجلى نزعة المحافظة في النقد العربى فى أمرين : غرضه ، وممارسيه ، وهما أمران متصلان أحدهما بالآخر ، فقد كان غرض كتب الأدب والنقد فى العربية كما تقدم وقف الناشئ المتأدب على بلاغة المتقدمين ، وتفهمه أسرار اعجاز القرآن ، لينحو منحى أولئك المتقدمين ويضرب على وتيرتهم ، فكان غرض النقد الأول تعليم المتأخرين كيف يقلدون الأولين .

ولم يمارس النقد فحول الكتاب والشعراء ، ولم يؤثر عن فحول العربية مما يدرج تحت عنوان النقد الا شذرات مقتضبة بعيدة عن التنظيم ، كقصيدة عبد الحميد لمعشر الكتاب ونصيحة أبى تمام للبحتري ، وربما ثار بعض الشعراء بما درج عليه زملاؤهم من تقاليد ، كثورة أبى نواس بالوقوف على الديار فى مثل قوله :

لا جف دمع الذى يبكى على حجر ولا صفا قلب من يصبو الى وتد

وتمرد المتنبى على النسيب الاستهلالى فى قوله :

إذا كان شعر فالنسيب المقدم أكل أديب قال شعرا متيم ؟

ولكنها كانت خطرات عابرة لم تكون مذهبا ولم تغير سنة ، بل لم يتبعها قائلوها أنفسهم وجاروا التقاليد الجارفة فيما نظموه ، وانما مارس النقد فى العربية المقلون فى النثر والشعر كالجرجاني وأبى هلال العسكري ، أو من لم يؤثر عنهم شئ ، وهكذا كان الأدباء فريقا والنقاد فريقا آخر .

أما فى الانجليزية فاختلط الفريقان ، وكان أفذاذ الأدب عادة هم أفذاذ النقد أيضا ، وكان زعيم كل نهضة أدبية هو أيضا زعيم النقد فيها :

فكل من بن جونسون ودريدن وبوب وصمويل جونسون ووردزورث وكولاردج وديكونسى وماكولى وماتيو أرنولد ورسكن ، كان كاتباً أو شاعراً كما كان ناقداً ، وذلك لعمر الحق دليل حيوية الأدب وروح التجديد فيه : فلن يكون الأديب أديباً حتى يكون له رأى فى الأدب والحياة ينضج عنه فى كتاباته النقدية ، كما يصدر عنه فى آثاره الأدبية ، وكل من دريدن وبوب ووردزورث قد استجد مدرسة فى الأدب لا بأشعاره فقط ، بل بنظرياته فى النقد . فبينما كان غرض النقد فى العربية المحافظة على مناهج المتقدمين ، كان فى الإنجليزية ابتداء حركات جديدة .

ولا ريب فى أن الأدباء الذين يمارسون النظم والنثر هم أدرى الناس بنقدهما ، لأنه لا يعرف الشوق إلا من يكابده ، والأديب الذى يعلن للناس نظرياته النقدية مشفوعة بآثاره الأدبية أمثلة مؤيدة لتلك النظريات ، كما فعل وردزورث فى أغانيه الشعبية ومقدمته النثرية لها ، أخرى أن يتبع من الناقد الذى لا يمارس الأدب ، وإنما يملئ على الأدباء آراءه وهو بنجوة عن محيطهم ، فمن أعجب ظواهر الأدب العربى تنجى فحوله عن مضمار النقد ، وتركهم مجاله لعباد القديم ومقدسى السلف .

ولتقديمس النقد القديم وقفوا موقفاً متناقضاً : فكانوا ينكرون على الأديب أن يجهد عن مناهج القدماء ، ثم ينكرون عليه أن يتداول معانيهم التى سبقوه إليها ، وصرفوا جانباً عظيماً من اهتمامهم الى تتبع سرقات الشعراء ، فكتاب «الوساطة» للجرجانى أغلبه جهد ضائع فى تقصى المعانى الى مواطنها الأولى من أشعار الأجيال السالفة ، وتمزيق القصائد بيتاً بيتاً ، والحكم على الشعراء بالاختلاس لأوهى الشبهات اللفظية .

وكان نقاد العربية أكثر التفاتاً الى الألفاظ منهم الى المعانى ، وعد أكثرهم احكام اللفظ ميزة الأديب الفحل ، وعدوا المعانى مشاعاً بين الجميع ، قال أبو هلال العسكري : « وليس الشأن فى إيراد المعانى ، لأن المعانى يعرفها العربى والعجمى والقروى والبدوى ، وإنما هو فى جودة اللفظ وصفائه » ، وقال ابن الأثير : « ولقد رأيت كثيراً من الجهال الذين هم من السوق أرباب الحرف والصنائع ، وما منهم إلا من يقع له المعنى الشريف ، ويظهر من خاطره المعنى الدقيق ، ولكنه لا يحسن أن يزوج بين لفظتين ، فالعبارة عن المعانى هى التى تخلب بها العقول ، وعلى هذا فالناس كلهم مشتركون فى استخراج المعانى » .

ولهذا صرف أكثر النقاد همهم الى خصائص الألفاظ وضروب الأساليب ، وأسهبوا القول فيما سموه علم البديع ، واستقصوا أقسام

الجناس والطباق والسجع ، وطرق تضمين الآيات وحل الأشعار ، ووجود علم البديع فى العربية دون الانجليزية برهان ناطق على شديد اهتمام نقاد العرب باللفظ ، وكان للنقاد والأدباء معا ايمان وطيد بمقدرة اللغة على أداء أى معنى ، وثقة لا تتزعزع فى تفوق اللغة العربية فى الفصاحة على غيرها من اللغات ، وكانوا يرون ذلك ميزة العرب على غيرهم من الأمم التى بذت فى شتى العلوم .

أما موقف جمهور الأدباء الانجليز من اللغة فكان غير هذا : فهم وان لم يغفلوا أهمية الصياغة اللفظية وضرورة تمكن الأديب من اللغة ووقوفه على أسرارها ، ظلوا يعدون اللغة وسيلة لا غاية ، وسيلة للتعبير عن خوالج النفس ، بل عدها كثير منهم وسيلة ناقصة عاجزة عن التأدية الى تلك الغاية ، يجب على الأديب أن يستفرغ جهده ليجعلها تؤدي غرضه ، فلم يهتم أدباء الانجليزية ونقادها برنين الألفاظ الأجوف وزخرفها المموء ، بل استعانوا بمعانيها المصطلح عليها ، وجرس حروفها ودقة اختيارها والملاءمة بينها ، واشتقاقها وخلقتها حيث لا توجد لتأدية الحالة النفسية المتخيلة على ما يجب ، وتصوير الجو العاطفى أو المنظر المرئى : من رهبة أو جذل أو سكون أو سرعة ، ويفاضل النقاد الانجليز بين الأدباء حسب مقدرتهم على استخدام اللغة هذا الاستخدام وتطويعها لأغراضهم على هذا النحو ، لا حسب حظوظهم من المحسنات البديعة ، ويقولون ان الفرق بين لغة العلم ولغة الأدب أن الأولى تعتمد على المعنى المجرد للفظ ، والثانية على ما توحيه الألفاظ من أجواء معنوية .

ولما كان ايمان العرب بتفوقهم البيانى كما تقدم ، لم يهتموا بالأدب الأجنبية أو النقد الأجنبى كثيرا ، فهم واضعو علوم البلاغة فى لغتهم ، وهم نهجوا بكتب الأدب والنقد نهجهم الخاص بهم ، وجددهم فى هذا السبيل جسيم جليل ، أما الانجليز فجعلوا النقد الأدبى الأجنبى دائما نصب أعينهم ، قديما كان أو حديثا ، فمما كتبه أرسطو ومما نظمه هوراس فى النقد نشأ النقد الأدبى فى الانجليزية ، وغذى بعد ذلك بكتابات دانتى وبوالو ولسنج وجيتسه وسنت بيف وتين ، فالناقد الانجليزى يستعرض آراء هؤلاء أثناء استعراض آراء مواطنيه بلا تفريق .

ولا ريب فى أن اشتغال النقد الانجليزى على آراء أمثال أولئك ربح للأدب لا يقدر : فاطلاع الأدباء والنقاد على خير ما تنتجه القرائح فى العالم أجمع يوسع آفاق تفكيرهم ويفسح حدود أدبهم ، ويربأ بالأدب أن تثقله القيود وتقسده التقاليد ، ومن ثم قال ماثيو أرنولد بضرورة اتقان الناقد

فى أدب ما أدبا أجنبية واحدا على الأقل ، تزداد فائدته له كلما ازداد التباين بينه وبين أدب الناقد الأصلي .

فأكثر النقاد الانجليز كانوا كما تقدم من أعلام النظم والنثر ، وكانوا مطلعين على الآداب الأجنبية ، وما كتب فيها فى النقد ثم هم كانوا - ولا سيما متأخروهم - مهتمين بالفنون الأخرى بجانب الأدب ، واقفين على ما كتب فى نقدها ، بل كان منهم من جمع بين نقدها والنقد الأدبى : فدريدن واضع أساس النشر الانجليزى الحديث كتب رسالته فى « الموازنة بين الشعر والتصوير » وكذلك جمع لام وثكرى ورسكن بين نقد الأدب ونقد التصوير أو النحت، ولا ريب فى أن تفقه الناقد فى تلك الفنون أكبر معوان له على حسن النظر فى الأدب وصدق النقد له ، لتشابه الفنون فى وسائلها وغاياتها .

فالناقد الانجليزى كان أكثر أهلية للنقد وقدرة على النجاح فيه : لأنه كان يمارس الأدب بنفسه نظما ونثرا فهو أدرى بدقائقه ولأنه مطلع على الأدب الأجنبى والنقد الأجنبى ، فهو أدرى بمحاسن أدبه ومثالبه (١)، ولأنه متبصر فى الفنون فهو أعلم بمناحى فنه الخاص - الأدب - ومن ثم حفل الأدب الانجليزى بالدراسات القوية لعصور الأدب وفحوله وفنونه ، وجاء تاريخه أوضح منهاجا وأبين معالم من تاريخ الأدب العربى .

(١) مثالبه : المثلبة أى العيب ، والجمع مثالب .

أنس نظام الحكم

فى الأدین العربی والانجلیزى

تمر الأمم فى استقرارها وتحضرها بثلاثة أطوار عامة من أنظمة الحكم : فى الطور الأول تكون أزمة الأمور بأيدي رؤساء القبائل الرحالة أو القريبة العهد بالاستقرار ، وهو ضرب من الحكم أرسقراطى ، وفى الطور الثانى تتجمع مقاليد الحكم فى يد حاكم فرد يوحد أجزاء مملكة ذات مساحة يعتد بها وتخوم طبيعية ، وهو نظام الملكية ، وفى الطور الثالث يعود تصريف شئون الدولة فى أيدي جميع أبنائها القادرين ، وهو النظام الديمقراطى الذى هو أصلح الأنظمة جميعا ، اذ هو أدناها الى العدل والمساواة وأجدرها أن يفسح المجال للمواهب الفردية ويمهد الطريق لرقى الأمة .

ومن الشعوب البدائية ما لا تتجاوز الطور الأول ، ومن الأمم ما تقف عند الثانى كجميع دول الشرق القديم ، ومنها ما تصل الى الثالث كبعض مدن اليونان وروما ، وقد تعود دولة بعد بلوغ الطور الثالث فترتد الى الثانى ، لنكسة فى أحوالها تحرمها التمتع بمزايا الحكم الديمقراطى وتجعل الحكم الفردى ضربة لازب (أمرا واقعا) ، ومثال ذلك روما حين اتسع سلطانها وأفسد الترف أخلاق أبنائها ، فعجز السناتو عن تصريف شئونها ووقع حكمها فى قبضة الدكتاتوريين والباطرة .

وقد عرف العرب الطور الثانى من أطوار الحكومة فى جاهليتهم فى أطراف الجزيرة ، حيث ساعد خصب الأرض واستواؤها على توحد دولة متسعة وتوطد ملكية قوية ، أما فى سائر الجزيرة فظل الطور الأول ، طور الحكم الأرسقراطى ، سائدا ، وبلغ بين بعض قبائلها ولا سيما فى الحجاز مستوى عاليا من الاحكام ، وكانت لأشراف العرب دراية عملية فائقة بقواعد الحكم والاجتماع . تتمثل فى قول الأفوه الأودى :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم
ولا سراة اذا جهالهم سادوا
تبقى الأمور بأهل رأى ما صلحت
فان تولت فبالأشرار تنقصاد

وهو تلخيص شعري رائع لنظريات أرسطو في السياسة . وقد لُمى هذا النظام في نفوس العرب نزعات الحرية والحمية والشجاعة التي أدت الى دوام الخصام بينهم ، وأورثتهم الفخر بالعصبية والتمدح بالنسب ، وأثر كل ذلك بين في أشعار ذلك العهد التي أغلبها تكرار مستمر للمفاخر والمآثر القبلية ، وتمدح بالعز والمنعة ، فالى ذلك صرف شعراؤهم قولهم ، ولم ينصرف الشعراء الى مدح الملوك وتعداد مآثرهم دون مآثر القبيلة أو الأمة الا حيث قامت ممالك الغساسنة والمناذرة والتبابعة ، فكانت من ذلك مدائح حسان والنابغة والأعشى .

فلما جاء الاسلام خرج العرب دفعة واحدة من الطور الاول من أطوار أنظمة الحكم طور الأرستقراطية ، الى طور الملكية الذي توطدت بينهم قواعده وظلوا في حدوده لا يتعدونه الى الطور الثالث طور الديمقراطية ، ويرجع تمكن الملكية بين العرب بعد تعودهم التشاور في الأمور ورغم حض الاسلام على ذلك التشاور ، الى عوامل خطيرة أولها مكانة النبي عليه السلام: اذ كان أول حاكم فرد للجزيرة ، وكان له من جلال النبوة وعظمة الشخصية والقدرة الخارقة ما عود العرب الامتثال لأمير مطاع ، وزادهم انقيادا لهذا الضرب من الحكومة اقتفاء العميرين أثره في عدل الحكم ونجاحهما في الخارج والداخل ، وحرص المسلمين على وحدة الكلمة والدين ما يزال يجاهد أعداءه ، ومن تلك العوامل أيضا اتساع أطراف الدولة العربية السريع ، حتى عادت ادارتها متعذرة الا بيد حاكم فرد مطاع ، ومنها قيام الدولة على أنقاض ملكيات عتيقة ما لبثت تقاليدها أن سرت في كيان الدولة الجديدة ، ومنها الصفة الدينية التي ظل يتخونها الحاكمون .

لذلك هجر العرب تدريجيا تقاليد التشاور وتوطد لديهم نظام الملكية المطلقة ، فكان منذ قيام دولتهم النظام الوحيد الذي عرفوه ، أو فكروا فيه ، فلم يقم من مفكريهم من نادى بنظام مخالف له ، أو دعا الى ضرب من الديمقراطية ، بل كانت الملكية لديهم هي النظام الطبيعي الذي لا نظام غيره ، وظل لسان حالهم قول المتنبي : « وانما الناس بالملوك » ، وانما كان أحرارهم يفرضون في الملك العدل والاصلاح واتباع أحكام الدين والا وجب خلعه . وعلى هذا الأساس كان خلع عثمان والوليد بن يزيد ، وامتلاء تاريخ العرب بالثورات ، ولكنها لم تكن - فيما عدا ثورة الخوارج

الذين تمسكوا وحدهم بتقاليد الجاهلية وديمقراطية الاسلام - تمردا على نظام الملكية المطلقة ، بل كانت ثورة مظلوم على ظالم ، أو وثبة فرد بفرد ، أو فتكة أسرة بأسرة ، وفي ظل هذا النظام الملكى المطلق بلغ الأدب العربى غاية رقيه .

أما فى انجلترا ، فساعدت الظروف المحلية الجغرافية والتاريخية على خروج الشعب من الطور الثانى الى الطور الثالث من أنظمة الحكم ، فان عزلة الجزيرة أبعدها عن غمار الحروب التى تتخذها الملكية ذريعة لتقوية سلطانها ، وفرض الضرائب ، وجمع جيش قائم يخدم كل تمرد على مظلما فى الداخل ويشيد فى الخارج امبراطورية لا ينسحق حكمها لغير الملكية ، فلم يتجه الشعب الانجليزى الى التوسع الخارجى ، ولم يمن امبراطورية الا بعد أن وطد أساس حقوقه وحرياته ، وبني تلك الامبراطورية تدريجا ، فلم يستهدف لتضخم فجائى يوقع حكومته فى يد دكتاتور ، وبذلك ظل الشعب غنيا عن خدمات الملكية فى الخارج قادرا على كبح جماحها فى الداخل لقوته وضعفها ، فأحرز عليها النصر الحربى فى كل ثورة ثارها فى وجهها ، بينما كان نصيب الثورات الشعبية فى الدولة العربية السحق العاجل .

ترعرع الأدب الانجليزى وقد ثبت النظام الدستورى فى انجلترا بجانب نظام الملكية ، وشهد الأدب تضامنها أحيانا كما فى عصر شكسبير ، وصراعهما أحيانا كما فى عصر ملتون ، وكان رجال الأدب عادة فى جانب الحرية والديمقراطية يجاهرون المستبدين العداء ، وقد عميت عينا ملتون فى دفاعه بقلمه عن الجمهورية فى ظل كرومويل ، ولم يصلح ما بين الملوك والأدباء الا بعم انتصار الديمقراطية على الملكية ، وصيرورة الملكية جزءا من النظام الدستورى ، وشارة من شاراته ، وفى ظلال هذه الديمقراطية بلغ الأدب الانجليزى مبالغ عظمته .

فهذا فرق ما بين الأدبين فى هذا الصدد : أن أحدهما بلغ أوجه فى ظل النظام الملكى ، والثانى جرى الى مداه فى حمى النظام الدستورى ، ومن ثم نجد الأدب الانجليزى أعظم حرية فى النزعة وأصدق فى التعبير ، وأغنى بالمواضيع ، وأكثر تنوعا فى الأشكال ، لأن الملكية ليست بخير النظم التى يترعرع فى ظلها الفن الصحيح ، لأنها شديدة الأثرة والغيرة ، لا ترضى من ضروب النشاط الا بما يتوفر على خدمتها ، ولا تسمح للحق والفن بالذبوع اذا كان فى ذبوعهما تحد لسلطتها . أما النظام الدستورى فيفسح المجال للمواهب بلا عائق ، ويطلق العنان للحقيقة بلا كبح .

فمن شأن الملكية المطلقة أن تخدم الرأي العام في بلادها ، لأنها « هي الدولة » والرأي لها ، لا يكاد ينطق ناطق أو يعمل عامل الا بما ترضاه ، ومن ثم كفت الشعب عن ممارسة شئون الحكم ، وكفت الأدباء عن نقد أحوال المجتمع ، فعاش أدباء العربية بنجوة عن ذلك المجتمع لا يكادون يشعرون بشعوره أو يعبرون عن خوالجه أو يصفون أحواله ، ومن ثم لم تظهر في الأدب العربي القصة التي تدرس المجتمع وتحلل دخائل النفس ، وجاء شعر الشعراء ونثر الكتاب أكثره نظريا لا اتصال بينه وبين حقائق المجتمع والحياة اليومية . أما في إنجلترا فان توطد أركان الديمقراطية صاحبه ظهور القصة الاجتماعية وتعاطم مكانتها حتى طغت على أشكال الأدب الأخرى .

وفي ظل الملكيات المطلقة ذوى ضرب آخر من ضروب الادب ، هو الخطابة التي لا تزدهر الا حيث الديمقراطية والمشاورة وحرية الرأي ، فنراها بعد أن بلغت أوجها قبيل الاسلام وفي صدره تخمل تدريجا تحت الملكية التي تستأثر بالرأي والفعل ، وتبطل كل رأى آخر وكل فعل ، على حين ظلت للخطابة في الانجليزية منزلتها ، وأنجب البرلمان الانجليزي في عهده القريية خطباء مصاقع ، أمثال والبول وفوكس وبث وبرايث وجلادستون .

وفي نظير ابتعاد الأدباء عن نقد المجتمع والخوض في شئون الحكم ، ترك لهم الملوك عنان العبث مرسلا ، يقارفون ضروب المجون في منتدياتهم ، ويدونون صنوف الهجر في آثارهم ، ويتبادلون فاحش القول في أشعارهم ، فامتلا الأدب بذلك السقاط حتى ظن المتأخرون الذين شبوا على دراسته أن الرقاعة والخلاعة من صفات الأديب ، وحتى ترفع ذو الحسب عن معاطاة الأدب .

ولم يكتف الملوك بكف الأدب عن نقد أعمالهم بل اتخذوا رجاله أبوابا للتمدح بآثارهم ما صح منها وما بطل ، فكما اتخذوا من مرتزقة الجند أنصارا لهم على اخضاع الرعية ، اتخذوا من مرتزقة الشعراء أعوانا على تضليلها ، وقد هبط هذا الارتزاق بالأدب عن مكانته السامية درجات ، وحسبك أن يهبط الشاعر من قمة الفن والشعور والصدق الى وهمة الشحاذة والتمليق والكذب ، وهذه خلال تنزه عنها الأدب الانجليزي في أغلب عهوده ، لأن الشعب لم يمكن الملكية من ابتزاز ثمار اجتهاده وكده لنبعثها في مظاهر الأبهة الجوفاء ، وتنتشرها على المرتزقة من الجند والشعراء .

وفى سبيل استرضاء الحكام واستندار صلاتهم لم يحجم كثير من الشعراء عن امتهان الفن من جهة ، فأذالوا الشعر وملأوه بالأكاذيب ، وعن امتهان الخلق الكريم من جهة ، فمدحوا الظالم والقاتل ما دام فى دست الحكم ، وتقرّبوا إليه بدم أحفاد الرسول ، وتملقوه بهجاء من فتك بهم من قواد ووزراء ، وهجا البحترى الخلفاء المخلوعين ومدح من استعادوا العرش على التوالى ، ومدح بشار العلوى الخارج على المنصور ، فلما علم باندحاره حول القصيدة ومدح بها المنصور • وتحاسد الشعراء وتهاجوا لتنافسهم على جوائز الأمراء ، على حين نرى فى الانجليزية أن شلى لما بلغه امتداح سوذى للملك انجلترا فى ذلك العهد امتداحا متملقا ، كتب إليه يوسعه توبيخا ويجاهره بالقطيعة •

واذا ندرت فى الأدب العربى آثار انتصار الأدباء للشعب وماناصبتهم لملوك دفاعا عنه ، فلم تندر فيه أخبار الخارجين على الحكام طلبا للملك والمجد الشخصى كحكاية تميم بن جعيل الذى أنشد بين يدى المعتصم ثأنيته البديعة التى مطلعها :

يعز على الأوس بن تغلب موقف يسلى على السيف فيه وأسكت

ولم تندر أخبار الأدباء الطامحين الى الملك كالمتمنى الذى خرج فى هيباه وظل يتوق الى الخروج طول حياته ، والشريف الرضى الذى باح بدخيلة نفسه فأسقط عليه الخليفة ، بقصيدته التى أولها :

ما مقامى على الهوان وعندى مقول صارم وأنف حمى

وما كان مثل ذلك ليكون فى الأدب الانجليزى : فالأدباء الانجليز كانوا أشد حبا للأدب واعتدادا بمكانة الفن من أن يهجروهما الى شىء آخر ولو كان هو الملك ، كما كانوا من جهة أخرى أشد إخلاصا لوطنيتهم ووفاء لسعادة بلادهم من أن يفكروا فى اعتراض سبيل الحياة الدستورية التى رضىيتها لنفسها ، وما كانت الظروف لتعينهم لو حاولوا بأكثر مما أعانت أدباء العربية سالفى الذكر •

ولتزام شعراء العربية على صلات الملوك ومن تشبه بهم من الأمراء تجمعوا فى المدينة وانصرفوا عن محاسن الطبيعة ، فلم تفز من أغلهم بكبير التفات • وقل مثل ذلك فى شتى أبواب الشعر : فما يكاد يكون فى أشعار الفحول وصف لجيش أو أسطول أو بحر أو بلد أو قصر أو

منظر ، أو رثاء أو حكمة أو تفكير في الحياة والموت ، إلا مرثيا لكل ذلك من وجهة نظر الممدوحين وجاريا في ثنايا مدحهم والترنم بما حازوا من رفيع الشأن ، فكانت مدحة صاحب النوال هي الوحي الأول الذي يدفع الشاعر الى ملاحظة تلك المشاهد وتدبر تلك الحقائق .

ولاعتماد الأدباء في معاشهم على صلوات الأمراء ، وتوقف سعودهم ونحسهم على رضى الأمراء وغضبهم ، كثرت الشكوى في الأدب العربى ، وأنحى الأدباء على ما أسموه الدهر ذما وتقريعا وتفنيدا ، وعزوا أنفسهم بالتفاخر الأجوف ، وطال ذمهم لحرفة الأدب ، وما يزاملها من شقاء وحرمان ، ولا ذنب للأدب ، وإنما هم صيروهم حرفة وما هو الا فن ، بل هبطوا به الى ما دون الحرفة فصيروهم تسولا . أما فى الانجليزية فنرى جييون مثلا يستخر من السخرية ممن يزعمون أن الأدب أشقاهم ، ويعلن فى صراحة واغترباط أن كتابه عن تاريخ الرومان كان خير رفيق له وسمير لروحه أعوام تصنيفه ، ثم أناله من بعد ذلك صيتا وضمن له بعد مماته ذكرا ما كان يستحقه بدونه .

أما من قنطوا من صلوات الأمراء من بين شعراء العربية ، وقعد بهم عجز خيلتهم عن الوصول الى ساحات الملوك ، فاما هجروا الشعر جملة واما عكفوا على نظم أشعار الزهد ، فغزر ذلك الضرب من النظم فى العربية . وليس التزهيد فى الحياة بأسمى رسالات الآداب ، بل رسالتها الصحيحة الترغيب فى الحياة والتعبير عن جمالها والدعوة الى الاستمتاع بها .

ولطمع الأدباء فى جوائز الأمراء نزحوا من أطراف البلاد الى العاصمة ، فصارت دون سواها من المدن مجال الشعر وسوق الأدب ، وخمد فى غيرها نور الفنون ، أما فى انجلترا فقلما هجر أديب بلده الى لندن طلبا للحظوة والمال ، بل هجر بعضهم مقامه بالعاصمة الى منطقة البحيرات ، فاستقر حيث الجمال الطبيعى والحياة الشعرية والوحي الصادق ، وحيث عرش الطبيعة لا عروش المالكين .

ومن خلال المدح كان يتحدث شعراء العربية عن انتصارات الدولة فى الحروب ، فكل من أبى تسمام والمتنبى وابن هانىء الأندلسى يشيد بانتصار ممدوحه ، وينسب اليه كل الفضل فى تدبير الرأى والاقلام وهزيمة العدو ونصر الدين ، أما فى الانجليزية فكان شعراء الوطنية أمثال كامبل وتينيسون وكبلنج يرون فى انتصارات الدولة ظفرا للقيمة الانجليزية ، لا فخرا شخصا للملك ، فتغنى الشعراء بتلك الانتصارات ،

وشادوا ببسالة القواد وأمرء البحر الذين أكسبوا أمتهم مواقف الفخار ،
وقلما التفتوا الى الملك أو خصوه بذكر .

وكما طلب شعراء العربية الرزق بمدح الملوك ، طلبه الكتاب
بالاستيزار والانشاء فى دواوينهم ، فجاءت آثارهم الأدبية كآثار الشعراء ،
كثيرة المبالغة والاغراق ، قليلة النصيب من صدق الشعور وصحة النظر ،
كثيرة التلاعب بالألفاظ ، وكان لأولئك الوزراء شأن أعجب من شأن
الشعراء : اذ اتخذهم الخلفاء وسيلة لابتزاز أموال الرعية ، حتى اذا
ما حان الحين فتكوا بهم واستصفوا أموالهم ، وكتب الأدب حافلة بأنباء
نكباتهم .

ولا ريب فى أن غيرة الملوك على سلطانهم المطلق كانت من أسباب
الانصراف عن ترجمة تراث اليونان الأدبى والتاريخى ، كما ترجم تراثهم
الفلسفى الى العربية ، لأن هذا الأخير مشحون بالنظريات والقضايا الخيالية
التي لا تتعرض لسلطانهم بسوء ، على حين أن تراث اليونان الأدبى حافل
بمظاهر الديمقراطية ، وآثار اشتراك الشعب فى حكم نفسه (١) ، فالملكية
أكثر تسامحا مع العلماء وتشجيعا للعلوم التي تدرس ظواهر الكون
العمامة ، منها للآداب التي تترجم عن مشاعر النفوس ، ولا شك فى أن
اطلاع الانجليز على آداب الاغريق وتاريخهم كان من عوامل تمكين نفوسهم
وتشبثهم بحقوقهم . وهكذا كانت الملكية المتسيدة من أسباب حرمان
الأدب العربى من الأثر اليونانى الذى استفاد منه الأدب الانجليزى فوائد
جزيلة .

فالملكية فى ابان صولتها ليست بخير أنظمة الحكم التي تزدهر فى
ظلمها الآداب الرفيعة ، أما فى عهود عجزها فهي شر مستطير على الفكر
والحضارة عامة : فحين ضعفت قبضتها على الدولة العربية تقطعت أوصال
المملكة ، وتكاثر الملوك والأمراء وتنازعوا وتحاربوا ، فكل بلدة « فيها أمير
المؤمنين ومنبر » ، وظهروا فى جلود الأسود منتفخين ، وأفقروا البلاد
بحروبهم ومغارمهم ، وكان منهم الأعاجم الذين لا يقدرون الأدب ، فخبب
لديهم رجاء الشعراء فركد حتى ذلك الضرب من الشعر المملوء بالأماديح
والمبالغات ، ودخلت الحضارة عامة والآداب خاصة فى دور ذلك التدهور
الطويل الذى دام قرونا .

(١) ذلك رأى وجيهه اذ ثبت أن هؤلاء الملوك قد اطلعوا على مضامين الاسفار

الأدبية الاغريقية فى اصولها (الرسالة) .

فالآدب العربى قد شهد الطورين الأول والثانى من أطوار النظام
الحكومى التى تقدم ذكرها فى صدر هذه الكلمة : طور الأرستقراطية
فى الجاهلية ، و طور الملكية فى الاسلام ، فجاء فى الطور الأول أكثره حماسى
عصبى ممجد للقبائل وأبطالها ، وكان قائلوه عادة من الأشراف ذوى المكانة ،
وظل فى الطور الثانى مكفوفا فى حيز الحدود التى رضىيتها له الملكية
منصرفا عن أغراض كثيرة من أغراض الفن السليم ، وترعرع الآدب
الانجليزى فى الطور الثالث من أنظمة الحكم ، طور الديمقراطية . فجاء
حر النزعة ، متعدد النواحي ، واسع الأفق ، محتفظا بسمو الفن وتجرده
عن المادة ، وكان الفرق بينه وبين الآدب العربى ، أن الأخير بلغ أشده فى
ظل الحماية والمنحة ، والأول جرى الى غايته فى ظل الحرية والاستقلال .

غرض الأدب

فى الأديين العربى والانجليزى

التعبير عن خوالج النفس الانسانية وتأثراتها بمظاهر الكون المحيطة بها هو غرض الفنون جميعا ومن بينها الأدب . ولا يرقى الأدب الى مرتبة الفن السامى حتى يكون ذلك التعبير عن المشاعر النفسية غرضه الوحيد، منزها عن كل غرض خارجى أو مطلب مادى ، فاذا خالطه شئ من ذاك هبط الى مرتبة الصناعة ، ولم يعد له فى النفوس ذلك الوقع المطرب الذى تنركه فيها الفنون الجميلة .

وقد ظل التعبير الحر الصادق عن نوازع النفس غرض الأدب الانجليزى الوحيد فى أغلب عصوره ، فلم يكن غرض الكاتب أو الشاعر مما ينشئ الا الافصاح عما يشعر به أو يفكر فيه ، فزخر الأدب فى عصوره المتوالية بألوان الشعور وأشتات الأفكار فى مختلف مشاعب الحياة ومتباين حالات النفوس ، وتناول بالتصوير والتحليل دوائر النفوس وأغوار الطباع وأطوار الأفراد والمجتمعات ، ولم يدع فحوله شاردة ولا واردة من نوازعهم وبوادهم ومشاهداتهم وتأملاتهم الا أثبتوها فى منشآتهم وأبرزوها فى روائع الصور .

وكذلك كان التعبير الصادق المنزه عن الغرض الخارجى غاية الكثير مما نظمته الشعراء وسطره الكتاب فى العربية ، وحفل الأدب العربى بالرائع من الحكم والأمثال والدقيق من أوصاف النفس وغرائزها وميولها ، وأمثلة ذلك أكثر من أن تحصى أو يشار إليها ، وانما نذكر منها الوصايا المنسوبة الى بعض فحول العربية ، كذى الاصبع العدوانى وعلى بن أبى طالب ، ومنها وصية ابن هراسة لابنه حيث يقول : « ان من الناس ناسا ينقصونك اذا زدتهم ، وتهون عليهم اذا أكرمتمهم . ليس لرضاهم موضع فتقصده ، ولا لسيخطهم موقع فتحذره . فاذا عرفت أولئك بأعيانهم ، فأبدلهم وجه المودة ، وامنعهم موضع الخاصة ، ليكون ما أبديت لهم من وجه المودة حاجزا دون شرهم ، وما منعتهم من موضع الخاصة قاطعا بغيرهم » .

غير أن في الأدب العربي بجانب ذلك آثارا كثيرة لم يكن التعبير عن خوالج النفس غرضها ، ولا الصدق شعارها ، فهي لذلك لا ترقى الى مرتبة الفن الجميل ، ولا تؤثر في النفس تأثيره ، وانما هي أدنى الى الصناعة ، لها كالصناعة غرض مادي تؤديه وغاية خارجية تخدمها . ولا غرو أن كان العرب يسمون النظم والنثر بالصناعتين ، ويعدون الأدب « صناعة » أو « آلة » « يتعاطاها » صاحبها ، ولم يكن لكلمة « الفن » لديهم ما لها اليوم من المعنى السامي .

بلغ الأدب العربي مرتبة الفن السامي في عصر الجاهلية ، حين كان أشراف القبائل وحكمائها يودعون الشعر حكمتهم وأطرايبهم وأحزانهم ، فلما قامت الدولة العربية صحبتها عوامل لم تكن لتساعد على اطراد رقي الأدب في وجهته الصحيحة ، بل عملت في غير ناحية على تقيده وفقدانه ما كان له في الجاهلية من قوة وصدق وسمو ، وهي سمات الفن الصحيح ، حتى أصبح من السهل تقسيم الآثار الأدبية ، بل تقسيم آثار كل أديب منفرد ، الى قسمين : قسم صادق يصدر عن شعور صحيح ويدخل في دائرة الفن السليم ، وقسم كاذب مملوء بالمفارقات والمبالغات يمت الى الصناعة ولا يمت الى الفن .

وأول تلك العوامل ذبوع التكسب بالشعر ، فانه جعل للشعر غرضا سوى التعبير عن خوالج النفس الذي هو غرض الفنون جميعا ، وصبر له غاية مادية هي صلة الممدوح التي قامت مقام الحافز النفسي والشعور الصادق ، فسارع الى الشعر الكذب والمبالغة ، وهبط عن مرتبة الفن السامي وصار صناعة تمارس ويبرز فيها ذوو اللباقة والمهارة ، لا أصحاب العبقرية والنفوس الكبيرة ، وداخل النثر من هذه السمات ما داخل الشعر ، لانه مثله سخر نفسه لخدمة الحاكمين .

وثاني العوامل هو نزعة المحافظة والتقليد ، التي سرعان ما تمكنت من الأدب العربي ، حين أشفق العرب على أدبيهم ولغتهم ودمائهم مما اجتاحتها من هجنة الأعاجم الداخلين في دينهم ولسانهم ومجتمعهم ، أدى ذلك الى الضن الشديد بآثار المتقدمين والتبجيل العظيم لأشكال الأدب وصوره في عهدهم ، والاعجاب المطلق بأشعارهم وخطبهم ذات اللغة الفصيحة السليمة ، وتمادى الشعراء فقلدوهم في وعورة الالفاظ أحيانا ، وفي المعاني وضرب الأمثال والاستهلال بالنسيب ، وتمادى الكتاب فأنحوا على آثار المتقدمين محاكاة واقتباسا وتضمينا ، وفي مثل هذا الجو

من المحافظة والتقليد يخمد الفن الصحيح الذى يصدر عن صادق الشعور، ولا يسود الا الصناعة التى تتكلف الألفاظ وتتعمل المعانى .

وثالث تلك العوامل اعتزال الأدب العربى غيره من الآداب ، فهو قد أهمل الأدب اليونانى ولم يتأثر بالأدب الفارسى ، الا قليلا عن غير قصد ، واتصال الأدب بغيره من آداب الأمم شرط أساسى لدوام رقيه فى معارج الفن السليم ، لأن ذلك الاتصال يدخل فى الأدب صادق النظرات والأفكار ، التى تشترك فيها الانسانية جمعاء على اختلاف المشارب واللغات ، دون التفات الى زخارف الألفاظ وتلفيقات المعانى ، التى لا تمت الى الطبع السليم بصلة ، ولا تتعلق من الفن الصحيح بسبب . واعتزال الأدب وغيره ينحرف به شيئا فشيئا عن وجهة الفن القويمة ، ويميل به الى ناحية التكلف والتعمل والتقليد والجمود والصناعة .

ولما كان الكاتب يكتب والشاعر ينظم ونصب أعينهما غايتان : ارضاء صاحب السلطان الذى تسخر له الأقلام ، وارضاء النقاد الذين لا يريدون عن مناهج الأولين حولا ، لم يسعهما الا الاقلاص عن محاولة التعبير عن شعورهما الصادق ، واللجوء الى محاولة اظهار البراعة ليرضيا القريئين فصارت البراعة - لا صدق التعبير عن الشعور - هى غاية الأديب . فالبحترى وابن المعتز والبديع وابن العميد والحريرى وأضرابهم ، قلما نفلحوا أو نشرنا بغية التعبير الصادق البسيط عن مشاعر حارة تعتلج فى نفوسهم ولا يستطيعون لها حبسا ، وانما كان ابداء البراعة وطلب الاعجاب وتحرى الاغراب ديدنهم فى معظم ما أنشأوا ، وكتاباتهم لذلك - حتى حين يجيدون - فائرة الشعور باردة الوقع لا تنفذ الى القلب ولا تهز النفس ، ربما أوحى الى المطالع أن أصحابها بارعون ، ولكن قلما توحى اليه أنهم نوابغ عظماء ذوو نفوس كبيرة ونظرات بعيدة .

ولما جهد الأدباء فى تقليد معانى الأقدمين ومناحيهم ، واختراع أوصاف الممدوحين ومحامدهم ، حتى لم يعد فى مجال المعانى متسع لتكلف ، التفتوا الى الألفاظ يطلبون فى مجالها السبق والبراعة ، ففشت المحسنات اللفظية ، فكانت انحرافا جديدا للأدب عن جادة الفن القويم ، وشغل الأدباء بالسجع والجناس والمقابلة وحسن التعليل عن صدق الشعور وصدق التعبير ، وركبت الصناعة الأدب من ناحيتيه : ناحيتى المعنى واللفظ .

وطلب الأدباء البراعة من طريق آخر : فأجمعوا فى الأدب ما ثقفوه من مصطلحات العلوم ومسائلها ، كعلوم النجوم والكلام والنحو والمنطق ،

فتجملت البراعة فيما أنشأوه من ذلك ولكنه فقد ديبب الحياة ، فمن تقليد
قضايا المنطق قول المتنبي :

تقولين ما فى النفس مثلك عاشق جدى مثل من أحببته تجدى مثل

وقول الشاب الظريف :

رمى فأصاب قلبى باجتهد صدقتم : كل مجتهد مصيب

ومن استخدام مصطلحات النحو قوله :

لأى شىء كسرت قلبى وما التقى فيه ساكنان ؟

ووقر فى نفوس كثير من الأدباء أن الأدب مجال للصناعة والبراعة ،
وليس مظهرا لأحاسيس النفس ولا مستودعا لخوالبها . فإذا أعوزهم
ممدوح يثنون عليه بما هو ليس أهله من المبالغات ، طلبوا البراعة
واصطنعوا التطرف بوصف أمر تافه ، كحمل هزيل أو قرح خمر أو محبرة
أو يرار ، الى غير ذلك مما لا خطر له فى ذاته ، ولكنه يمنح الفرصة لطلاب
البراعة ليظهروا لطافة بديهتهم وحسن محاضرتهم ووفرة محصولهم اللغوى .
وكثيرا ما كانوا يتبادلون ذلك فى الرسائل الاخوانية ، والكتب التى
يستهدون فيها الخمر والأقداح والمزاهر والقيان .

ولاصدار الأدباء فى كتاباتهم عن أغراض مصطنعة بعيدة عن غرض
الفن الصحيح نجد الكثيرين منهم يقفون مواقف متناقضة : فيمدح أحدهم
الرجل أرفع المدح ثم يذمه أقبح الذم ، فان خاف بطشه عاد مستغفرا يقول
كما قال الأعشى :

سأمدحو بمدح فيك اذ أنا صادق كتاب هجاء سار اذ أنا كاذب

ويطلب أحدهم البراعة بتحسين القبيح وتقبيح الحسن ، أو بمدح
الشىء الواحد وتحسينه ثم ذمه وتقبيحه ، كما فعل الحريرى حيث جعل
أبا زيد يمدح الدينار بمقطوعة من الشعر ، ثم يذمه بأخرى حين اقترح
عليه بعض الحضور أن « يذمه ثم يضمنه » ، ويدعى المتنبي الغرام والصباغة
والنحول فى مطالع أماديجه ، فإذا أفصح عن صادق شعوره وسبوله قال
ان المجد ليس زقا وقينة ، وان للخود منه ساعة ثم بينهما فلاة ، وأنه
يرى جسمه يكسى شفوفا ترابه ، وقال :

ومن خبر الغوانى فالغوانى ضياء فى بواطنه ظلام

وجاء النقاد فأقروا الشعراء على هذا التناقض ، وأباحوهم ضروب
اللغو والهدر ، وأخذوا تلغيفاتهم فى قصائد المديح مأخذ الجد ، وأضاعوا
وقتهم ومنطقهم وحججهم فى الموازنة والمفاضلة بينها ، وفضلوا شاعرا على
شاعر ، لا لصدق شاعريته وصدق فهمه للحياة ، ولكن لبراعته فى احتيال
الحيل اللفظية والمعنوية لتفخيم شأن ممدوحه • فقدماءة بن جعفر مثلا يقدم
الأعشى فى قوله فى ممدوحه :

وإذا تجيء كتيبسة ملمومة شهباء يخشى الراهدون نهالها
كنت المقدم غير لابس جنسة بالسيف تضرب معلما أبطالها
على كثير لقوله فى ممدوحه :

على ابن أبى العاصى دلاص حصينة أجاد المرء نسجها وأذالها
يود ضعيف القوم حمل قتيورها ويستطلع القرم الأشم احتمالها

لأن الأول جعل صاحبه يغشى الوغى فى غير مدرع ، والثانى وصف
صاحبه بالتحصن وراء المدرع الثقيلة • يفاضل قدماءة بينهما بصرف النظر
صرفا تاما عما اذا كان المعنى المذكور فى كل حالة صحيحا ، فالمسألة تتعاقب
لديه بالتزام الصدق ، بل البراعة فى الاختراع والمبالغة وتهويل أمر
الممدوح ووصفه بكل عظيمة صحيحة مزعومة ، ممكنة أو مستحيلة •

وبهذا المقياس المجحف الذى لا يقيم اعتبارا لصدق الشعور والتعبير ،
بل يجعل الاعتبار كل الاعتبار للبراعة واللباقة والخفة والاحتيال ، قاس
كثير من النقاد آثار الأدباء وفاضلوا بينهم • بل ان النقاد صرفوا جل
اهتمامهم الى ذلك الضرب الصناعى من الأدب الذى قوامه العمل والاختراع ،
وعماده الأقيسة المنطقية ، بل المغالطات المنطقية ، وأهملوا الضرب
الصادق الذى يترجم عن شعور الأدب الصحيح • فإذا رأوا أثرا من هذا
القبيل مروا به كراما ولم يروه أهلا للنقد والتحليل ، لأنهم يرونه بسيطا
عاديا غير محتو على براعة لفظية أو معنوية • والأدب كان فى نظر كثير
منهم صناعة لا فنا • وقد سمي أحدهم وهو أبو هلال العسكري كتابه
فى أصول الشعر والنثر : « كتاب الصناعتين » •

والحق أن أكثر ما يعرف اليوم بالفنون الجميلة كان لدى العرب صناعات ، فالأدب والموسيقى والعمارة والنحت والتصوير كل هذه كانت أشبه بالصناعات ، لأنها كانت فى أكثر الأحيان تخدم أغراضا مادية خارج ذاتها ، وكانت تنتج نتائجها فى ظلال الملوك والكبراء الذين يسخرونها لأبهتهم ومتعتهم ، ولم تنل من الاستقلال الفنى والغرض الذاتى ما لها اليوم . ومن ثم ظل الفنان الأخيران دائما فى حالة بدائية لم يتعدياها الى أطوار الفن السامية .

ولقد تترعرع الفنون الأخرى كالعمارة والنحت والتصوير فى ظلال الرعاية والمنحة من جانب الأمراء ، كما حدث فى عهد النهضة الإيطالية التى أنجبت رافائيل وميكلانجو ودافنشى وعشرات من أمثالهم ، أما الأدب فهو أشد احتياجا الى الحرية وأسرع انحطاطا وركودا فى ظلال الاستبداد ، فان الملكية المستبدة اذا سخرته لأغراضها وسيرته فى ركابها حملته على اخفات الحق واغفال الصدق ونسيان رسالته ، ولهذا ازدهر الأدب فى انجلترا أكثر من ازدهار غيره من الفنون التى اقتبسها الانجليز عن أهل القارة ، حتى بارى الانجليز غيرهم فى الآداب وبذوهم ، فقد ألقى الأدب فى انجلترا من حرية الفكر والتعبير أكثر مما ألقى فى غيرها . ولنفس السبب ازدهر الأدب فى المدن الاغريقية ، على حين كان رقيه فى روما الملكية قصير العمر .

لم يسخر الأدب الانجليزى نفسه لتمليق الأمراء والكبراء ، كما سخر الأدب العربى نفسه ، ولم يصرفه طلب رضاهم عن طلب رضى الفن الصحيح ، وان كان بعض رجاله - منذ عهد شكسبير - قد تزلفوا الى سلطان آخر غير سلطان الحاكمين ، فطلبوا رضى الجمهور من رادة المسارح وقراء الكتب ، ولو بتضحية رضى الفن أحيانا . على أن ذلك قلما كان ، وأكثر الأدباء احتفظوا بسمو الأدب وأرستقراطيته ، ولم يلبث انتشار التعليم أن وسع دائرة القراء الذين يقدرون الفن الصحيح ويتساهمون عن الفضول ، وانقسم الكتاب الى فريق محافظ على سمو الأدب ، فهم عماد الأدب السامى ، وفريق ينشد اقبال العامة باللغو والهراء . وأم يحدث أن هبط الأدب جملة عن مرتبة الفن الصحيح المنزه الغرض .

كذلك ربا بالأدب الانجليزى أن تركبه الصناعة وتغلبه على غرضه الصحيح ، دوام تبصر رجاله فى الآداب الكلاسية والأوربية المعاصرة ، فكان معين تلك الآداب يجرى فى شرايينه من آن آخر ، فيجرد ما فتر فيها من دفعة الحيساسة ، فكلما من الأدب بطور ركود تغلب فيه الصناعة

الفن الصحيح - كذلك الذى مر به فى بعض القرن الثامن عشر - شعر
الادباء بعظيم الفرق بينه وبين الآداب الأخرى ، فانتشلوه من وهدهته .

ومما ساعد على احتفاظ الأدب الانجليزى بصبغته الفنية ، وجماءه
الهبوط الى درك الصناعة الرخيصة ، اطلاق فحوله على آثار الفنون الأخرى
الراقية ، من تصوير ونحت ، تلك التى تشترك جميعا فى غرضها الذى
ذكر فى أول هذه الكلمة ، وهو التعبير الصادق عن الشعور الصحيح ،
فكانت للأدب دائما من تلك الفنون أسوة ، تهيب به أن يجيد عن جادته
أو ينحرف عن غايته ، أو يضل فى تيه التلفيق المعنوية والزخارف
اللفظية .

وقد راجت فى الأدب الانجليزى ضروب من القول قد يتبادر الى الظن
لأول وهلة أن الأدب يتجرد عندها من نوازعه الشخصية وشعوره الصحيح
ويطلق العنان للخيال والصناعة ، كالرواية التمثيلية والقصة والملحمة
التي يتحدث مؤلفها عن أشخاص بعيدين عنه ، ويصف عواطف غيره
وتصرفاتهم ، ولكن الواقع أن المؤلف فيها لا يقل صدقا ووفاء للحياة
وحقائقها عن المؤلف فى غيرها ، ولا هو يتجرد من ميوله ، بل يخلع تلك
الميول على أبطاله ، وينطق أفكاره ومشاهداته على ألسنتهم ، فكل بطل من
أبطال شكسبير ، كهاملت وعطيل ولير ، يمثل حالة من حالات نفسه وفكرة
أو فكرات من أفكاره ، والقصى الانجليزى الذى يتحدث عن الآخرين فى
كتابات أصدق وأكثر افصاحا عن ذات نفسه من الشاعر العربى الذى
يشبب بليل ودعد ويصف ممدوحه بغير ما يعلم فيه .

ففى كلا الأدبين العربى والانجليزى ترى فى آثار الفحول دلائل
المطبع الجزل والشعور الصادق والفن الصحيح ، ولكن نظرا لتلك العوامل
التي صاحبت الأدب العربى فأفشت الصناعة فى كثير منه ، وهذه العوامل
التي لازمت الأدب الانجليزى فساعدته على الاحتفاظ بسمات الفن ، جاء
الأدب الانجليزى أحفل بصادق الشعور وجاد الأفكار من الأدب العربى ،
وكان التعبير الصادق عن النفس الانسانية غرضه دائما ، على حين زاحمت
هذا الغرض فى الأدب العربى أغراض أخرى : كالصناعة وطلب البراعة
والاغراب والتظرف ومحاكاة الأقدمين .

آثر الترف

فى الأدبين العربى والانجليزى

الترف من مستتبعات الحضارة ، تتجه اليه الأهم عقب عصر..ور النهضة ، اذ يلذ لها الركون الى الراحة واجتناء ثمرات مجهوداتها التى بذلتها فى عهود النهوض والكفاح والتمهيد ، وتميل الى الاستمتاع بخيرات الحياة من دعة ولذة وسرور فى ظل السلام والنظام اللذين تنشرهما الدولة بعد أن توطدت أركانها ، وفى بحبوحة الثروة والنعمة اللتين أثلهما (أصلهما) جهاد السنين والأجيال ، فيهجر الشعب رويدا رويدا حياة الخشونة والقتاعة والجد ويستكثر من أسباب الراحة والبهجة ، واشباع مطالب الجسم والنفس ، وبدوات الخيال والشهورة .

ويكون أشد الأهم اقبالا على وسائل الترف ومضيا الى غاياته ، أشدها من قبل تخشنا فى العيش ، وأعظمها جلادا فى ميدان تنازع البقاء ، وأتمها ظفرا وغلبة على البلدان ، لما تجنح اليه من الراحة بعد الجهد ، والاستمتاع بعد الحرمان ، ولما تغدقه عليها انتصاراتها من أسلاب أعدائها وأرزاقهم ، وما تطلع عليه من وسائل لهوهم وترفهم ، ومن ثم انتشرت موجات هائلة من الترف فى مصر الفرعونية عقب فتوحها الكبيرة فى آسيا ، وفى أثينا عقب امتداد سيادتها على سواحل بحر الأرخبيل وجزره ، وفى روما بعد اتساع سلطانها شرقا وغربا .

وكلتا الأمتين العربية والانجليزية خرجتا من بداعة وخشونة عيش الى حضارة وحياة دعة ، وكلتاهما أقامتا امبراطورية مترامية التخوم تعج نواحيها بالخيرات والكنوز ، وسرت اليهما من جراء ذلك عدوى الترف وبدا أثرها فى أدبيهما . بيد أنهما تفاوتتا تفاوتنا كبيرا فى مدى تأثرهما بذلك الترف ، فكانت الأولى على الأرجح أعظم الأهم أخذًا بوسائله وتفندنا فى ضروبه ، وكانت الأخيرة أقلها انقيادا لتياره وأشدّها تشبها بأهداب الاعتدال .

فالأمة العربية ينقسم تاريخها الاقتصاى الى ثلاثة أطوار كبيرة : فالطور الأول وهو عهد الجاهلية أقرب الى الفقر والخشونة التى فرضتها

على العرب طبيعة بلادهم الضنيّة ، الأمر الذى أورثهم صفات القناعة والصبر والجلد واحتمال المشقات، كما أورثهم الجود وقرى الأضياف، فتمدحوا بكل هاتيك الصفات وامتلاؤها بشعرهم ، وجاء ذلك الشعر فى جملة قويا متسما بالرجولة متيرا للاعجاب ، وندر فى ذلك العهد شعر المجون والخلاعة ورصف دواعى الرفاهية ومظاهر الحياة الناعمة ، بل كان السادة يتبرءون من الانقياد لشهوات الجسم والنفس . ومن روائع آثار ذلك فى الأدب قول حاتم الطائى :

وانى لأستحيى صديقى أن يرى مكان يدى من جانب الزاد أقرعسا
وانك مهما تعط بطنك حقه وفرجك نالا منتهى الدم أجمعا

وقول عنتره :

يخبرك من شهد الوقية أننى أغشى الوغى وأعف عند المغنم
وأرى مغانم لو أشاء حويتها فيصدننى عنها الحيا وتكرمى

وبقيام الدولة العربية دخل العرب فى الطور الثانى : طور الحضارة والرفاهية والترف ، وتدرجوا فى الأخذ بأسباب ذلك مع مرور الزمن حتى أوفوا على الغاية ولا غرو ، فقد اجتمع لديهم من أسباب الترف ما لم يكده يجتمع لغيرهم ، فان نجاحهم الحربى الفجائى أوقع فى أيديهم أغنى بقاع الأرض وأخصبها وأعظمها حضارة وترفا لعهدهم ، وأغدق على كبرائهم ومقاتلتهم فيضا متلاحقا من الأموال ، وأدخل فى حوزتهم شاسع الأملاك ، وأقام فى خدمتهم الحجم الغفير من الموالى ، وسمحوا هم لشتى الأجناس بمخالطتهم والاقامة بين ظهرائهم ، فجاءت الأمم المقهورة فى ميدان الحروب تسلمت على الأمة الغالبة ما بذتها فيه من أسباب الرفاهية واللذذة ، وهى التى كانت من قبل سبب سقوط عزيمتها وإدبار دولتها .

وكان كل ذلك جديدا على أعين العرب الذين قضوا الأجيال فى شظف البادية وتقديرها ، فاندفعوا يصيبون من تلك اللبانات (الربغات) ما حرموه طويلا ، وأغرقوا فى استمراء تراث الأمم المغلوبة كما يغرق الوارث الذى طال حرمانه فى تبذير ثروة الغنى الراحل . وكانما تعجل العرب فى تراث كسرى وقيصر ما وعدوه فى الدار الآخرة من طيبات ، ومن ثم ابتنى الخلفاء القصور وحشدوا التشييد لها الصناعات من شتى الأجناس ، ووفروا بها آنق أسباب الدعة والمتعة ، وحشروا فيها الغلمان والقيان ، وبالغوا فى

اعداد الموائد والأسمطة ، وأكثروا من الألوان والصحف ، واستمتعوا بالغناء والشراب ، ورفلوا فى فاخر الثياب ، واحتفوا بالمواسم والأعياد والمهرجانات ، وأسرفوا فى أعراسهم حتى ضربت ببعضها الامثال ، ولم يدعوا متعة من متعات النفس أو لذة من لذات الجسم الا استاموها .

واحتذاهم فى ذلك الأمراء والكبراء وكل من أطاقه من عامة الشعب ، فانتشرت مجالس الشراب والغناء ، وأحكمت أوضاعها وارتقت آدابها ، وراجت صناعة المغنين وحذقوا فنهم وجودوه ، وراجت تجارة الرقيق ونفقت سوق الجوارى ، وأخذن بالتهذيب والتثقيف والتنهيد ليجمعن فتنة اللب الى فتنة النظر ، وأولع الناس بالرق والظرف والكياسة ، ونفروا من الخشونة وتندروا بالجلافة والغفلة ، واحتفوا بالمواسم يشخصون فيها الى الرياض أو الأديرة فى أرباض المدن ، يتنادمون ويتغزلون .

وأثر تلك الحياة المترفة جلى فى الأدب العربى ، بل لعله أكبر فارق يفرق أدب ما بعد الاسلام والحضارة عن أدب الجاهلية ، اذ أن الأدباء اهتموا بتصوير مظاهر ذلك الترف كلها ، بل كانوا من أشد الناس حرصا على الانغماس فيه ، بل تجمعوا فى العواصم طلبا لأسبابه ، وكان منهم من صاحبوا الخلفاء والأمراء فى مجالس شرايهم وسماعهم وساعات تبذلهم واستمتعاهم ، وجلسوا الى موائدهم وشاركوا فى محافلههم ومهرجاناتهم ، وكل ذلك ضمنوه مدائحهم لأولئك الحكام ، وكان شهودهم تلك المشاهد وما يحكونه فيها من القصائد ، من مميزات السرور والأنس ، ومستلزمات الأبهة والعظمة .

ومن ثم يحفل شعر بشار وأبى نواس وأبى تمام والبحتري وابن المعتز وابن الرومى وابن حمديس وكثيرين غيرهم بأوصاف القصور والحدائق والنافورات ، وسفائن النزهة وكلاب الصيد ، واللوان الطعام والفاكهة والأسمطة ، ومجالس الشراب وحذاق المغنين وحسان المغنيات ، والمحافل والمواكب ، كما امتلأ بالنسيب الذى كان أغلبه نسيبا بالجوارى دون الحرائر ، والذى امتزج بكثير من الخلاعة والفجور ، وروى الشعراء فى كل ذلك عن ممدوحيه من الأمراء تارة ، وعن أنفسهم تارة أخرى ، وصوروا فى الحالين حياة الترف المغرق التى طغى سسيلها فى عهود العباسيين والفاطميين وخلفاء الأندلس وغيرهم .

وقد ظفرت الخمر من بين أسباب الترف هاتيك بالمكانة الاولى فى النفوس ، وفازت بالحظ الأوفر من حفاوة الشعراء ، فكانت معقد السرور

ومناطق الأنس ورمز الصفاء ، وتفنن الشعراء في تمجيدها ووصف تأثيرها ووصف مجلسها وساقها وكأسها ، وطلبوا البراعة بالابتكار في تلك الوجوه ، وخلعوا العذار واطرحوا التدين في التوفر عليها والتغنى بها ، وهزئوا باختلاف الفقهاء في تحليل بعض أنواعها وتحريم بعض ، وظفرت الخمر في الأدب العربي بمنزلة لا تبارى في أدب آخر ، وسما شأنها حتى زاحمت النسيب على مكانته الموروثة من عهد الجاهلية ، فأصبح الخمر كالتشبيب والوقوف بالدمن وسيلة تقليدية من وسائل استهلاك القصيدة .

ومن أجمل الشعر في وصف أسباب الرفاهية تلك ، قول ابن الرومي الذي يختمه بتحسره على حرمانه مما يصف ، إذ أصبح التلهف على أسباب النعيم ديدن الشعراء ، وكانوا من قبل في الطور السابق كما تقدم يتبرءون من الاستسلام للترفه والشهوات :

في أمور وفي خمور وسمو	ر في قاقم وفي سنجاب
في حبير منمنم وعبير	وصحان فسيحة ورحاب
في ميادين يخترقن بساياتي	من تمس الرؤوس بالأهداب
عندهم كل ما اشتوه من الآلات	والأشربات والأشباب
والطروقات والمواكب والول	مدان مثل الشوادن الأسراب
والغوالي وعنبر الهند والمسك	ك على الهام واللحي كالخضاب
لم أكن دون مالكي هذه الأشياء	لو أنصف الزمان المحابي

وقد بلغ من ولع كثير من الشعراء باجتناء ثمار تلك الحياة المترفة الغارقة في اللذات ، أن خصصوا أشعارهم لمدح الأمراء بغية أن يقربوا ويمنحوا طرفا من ظل تلك النعمة السابغة ، ويشاركوا ممدوحهم في أبهتهم ولذاتهم ، وبغية النوال ينفقونه في ارتياد مواطن اللهو التي حفلت بها العواصم ، ويبذرونه في مجالس الشراب والغزل يعقدونها في دورهم أو في دور المغنين والنخاسين أو في الحانات والأديرة ، ومن ثم امتلأ شعرهم بالمدح من جهة ، وبوصف الملاحى من جهة أخرى ، وراح بشار مثلا يفخر بكل الأمرين : باقتناص أموال الملوك ، وانتهاج سوانح اللذات ، قال :

واني لنهاض اليدين الى العلا قروع لأبواب الهمام المتوج

وقال :

قد عشت بين الريحان والراح وال
مزهر في ظل مجلس حسن

وبعد طور الثروة والترف هذا جاء الطور الثالث ، طور الفقر والانحلال ، حين استنزفت موارد البلاد ، وعظمت مفاصد الحكام ، وخدمت العزائم من جراء الانهماك في ذلك الترف ، وفدحت الضرائب الأهلين ، وتنازع الأمراء والولاة . وقد كان جانب كبير من الشعب يشقى ويألم في عهد الرخاء والترف السالف ، أما في هذا العهد فعم الشقاء ، وانتشر الخراب ، وكسدت الصناعات ، وظهر القحط وتتابعت المجاعات .

ولم يبق معتصما برؤية الترف فوق سبيل هذا البؤس الا القليلون ومنهم الأمراء الذين يتنازعون الحكم ويرهقون الأهالي بالمغارم ليتشبثوا بمظاهر الملك والفخفة ويتشبها بالسابقين في الجاه والأبهة ، يسلبون الناس أرزاقهم باليمين ليمنوا عليهم باليسار بالاثواب والأطعمة في المواسم والأعياد كأنما يأبون أن يطلبوا الرزق من وجوهه الشريفة ، ولا يريدونهم الا عجزة مستجدين يفزعون الى بر الأمير ويتمدحون بوجوده . تلك كانت حال مصر مثلا في فترات طويلة من حكم الفاطميين والمماليك ، وذلك كانت حال الأندلس على عهد بعض ملوك الطوائف الذين لم تكن الحرب بينهم تهدأ ، حتى لقد تشابه ثمة الأمراء ذوو الجيوش وقطاع الطرق أصحاب العصابات والمناسر . وقد أوجز بعض شعرائها وصف عبث الأمراء برفاهية البلاد في قوله المفعم بالحسرة :

أطاعت أمير المؤمنين كتائب
تصرف في الأموال كيف يريد

فثالث الأطوار المشار إليها في بدء هذه الكلمة هو طور العوز والبؤس الذي جاء رد فعل لطور الاسراف في الترف ، كما يجيء الخمار عقب الاسراف في الشراب . وفرق ما بينه وبين فقر الطور الأول أن الأول كان فقرا طبيعيا معتدلا قضت به البادية على أبنائها وحصنتهم منه بالخلق المتين ، والأخير فقر منشؤه الافراط والتفريط ، وحليفه الذلة والمسكنة واللثيم من الطباع ، وفي طيه الشره والشهوة المكبوتة والتلذذ والحرمان . وقد انعكس كل ذلك في أدب هذا الطور اذ جاء ضاويا سقيما مملوءا بالشكوى والتوجع ، منطويا على تمويهات المعاني ومخادعات الألفاظ التي تحكى ما كان يجيش به المجتمع من تمويه .

هكذا جرى العرب من الترف الى أبعد غاياته ، ثم كانت سقطتهم من بعد ذلك بعيدة المهوى . أما الانجليز فانهم وان شابهوا العرب ومن قبلهم الرومان فى تأسيس امبراطورية ضخمة ، كانوا نسيج وحدهم فى توقي أعراض الترف وتحاشى عقابيله التى يجرها على المجتمع ، والتى تحدث ابن خلدون وغيره من علماء الاجتماع بهدمها لصروح الدول ، لما تسبب أبناءها من صفات النخوة والجهاد والغلبة ، فلم يمس الترف المجتمع الانجليزى والأدب الانجليزى الا مسا خفيفا ، وفى عهود قصيرة ، وذلك للظروف التى أحاطت ببناء الامبراطورية .

فقد شيدت الامبراطورية الانجليزية ببطء وتدرج ، لا بسرعة كما شيدت الامبراطورية الرومانية ، ولا فجأة كما بنيت الامبراطورية العربية ، فلم يغمر المجتمع الانجليزى سيل مفاجئ من الثروة ، وبنيت الامبراطورية فى العصور الحديثة فلم يتبع الانجليز الطريقة القديمة من انتهاب أموال العدو المهزوم وأسر المقاتلين أو المسالمين واسترقاقهم ، ولم يستأثر الملوك والقواد بغنائم الحرب وثمرات الفتح ، فتتجصر الثروة فى طبقة محدودة تسرف فى اللذات بينما بقية الشعب محروم ، بل كان الاقليم المفتوح حربا يفتح للتجارة الانجليزية ورجال الأعمال الانجليز صغارهم وكبارهم ، فجاء توزيع الثروة بين طبقات الشعب أكثر تعادلا مما كان فى المجتمع العربى .

أضف الى ذلك أن الانجليز لم يخالطوا الشعوب المفتوحة ولم يسمحوها لأنبائها أن يملأوا عليهم وطنهم الأول ولم ينقلوا هم اليهم بحواضرهم كما فعل العرب ، ولم يأخذوا عنهم ضروب لهوهم وترفهم ولا غير ذلك من ظواهر الحياة ، لأنهم كانوا عادة يفتتحون أقاليم أقل منهم حضارة ، لا يستسيغون ما عندها من ضروب المتع ، وظل الانجليز فى بلادهم بعيدين عن تأثيرات أملاكهم ، متمسكين بتقاليدهم القومية وعوائدهم وأنظمتهم التى نمت وتوطدت قبل الالتفات الى ما وراء البحار .

هذا الى أن الامبراطورية لم تشيد الا وقد كسرت شوكة الملكية فى انجلترا واستتب النظام الدستورى ، والملوك المستبدون هم عادة رادة الترف فى ممالكهم والموحون الى رعاياهم باغتنام اللذات والملاهى ، يتوفر أوائلهم على تأسيس الدولة وتأييل السلطان ، ثم يعكف أخلافهم على الترف والأبهة واتباع الشهوات ، ويقتدى بهم من هم دونهم . كذلك كانت الحال فى الدولة العربية حيث توطد سلطان الملك بامتداد أطراف الامبراطورية ،

أما في إنجلترا حيث كُف الملك عن أموال الدولة أن يديرها ، فقل ظل الملوك متبعين سياسة الاعتدال، فلم يكونوا قدوة سيئة لغيرهم من الطبقات .

١٨

إنما فشا الترف والفساد في المجتمع الإنجليزي في أواخر القرن السابع عشر حين عادت الملكية منتصرة من فرنسا مستعيدة بعض ما ضاع من نفوذها ، مصحوبة بالفرسان الإنجليز الذين عاشوا زمنا في المجتمع الفرنسي ، والفرسان الفرنسيين الذين شربوا في بلاط لويس الرابع عشر، فعج البلاط الإنجليزي بمظاهر الترف وأسباب الغواية ، وفشا ذلك منه في طبقات الشعب ، وساعد على ذلك تبرم الناس بما كان حكم المطهرين الغلاة قد فرضه عليهم قبل ذلك من كبح وتزمت ، وبدا أثر ذلك الترف والفساد الخلقى في درامة ذلك العهد .

وانتشر الترف ككرة أخرى في بعض القرن الثامن عشر بين طائفة أرباب الأعمال الذين أثلوا لأنفسهم ثروات ضخمة بشريف الوسائل وخسيسها في الولايات الهندية قبل أن تشرف الحكومة الإنجليزية على إدارتها ، وعادوا إلى أوطانهم مكاثرين بطارف أموالهم مستكثرين من مظاهر الأبهة والفخفة ، وعرفوا بالنواب تشبيها لهم بأمراء الهند ، ورأى فيهم أدباء العصر مواضيع شائقة لكتاباتهم الساخرة ، وأولع بهم ماكنزي وكوبر وغيرهما طويلا ، على أنه في كلتا هاتين الحالتين كانت النوبة عارضة قصيرة الأمد ضيقة الحيز ، صمد لها الخلق القومي ، والطبع الإنجليزي الهادي ، وتغلبت عليها تقاليد الأيام المتعاقبة وعاد الاعتدال شعار البلاط والمجتمع والأدب .

فالأدب العربي قد حوى من آثار الترف الشيء الكثير ، بل حوى من ذلك ما لعل أدبا آخر لم يحوه ، وحفل بالرائع من الأوصاف لشملك الآثار ، وإن نبا بعضها أحيانا عن الذوق السليم والخلق الكريم . ولا ريب في أن ميله هذا إلى زخارف العيش وولعه بتصويرها كان مما جنح به أخيرا إلى زخرف الألفاظ وأنيق المعاني . أما الأدب الإنجليزي فظل رجاله غالبا بعيدين عن موائد الأمراء ، وظل الاعتدال في أغلب العصور رائده ، بعيدا عن زخارف الحياة المترفة وزخارف الألفاظ المنمقة معا ، وكان رجاله أشد شغفا بتصوير دخائل النفس الإنسانية ووصف محاسن المناظر الطبيعية منهم بوصف قصور الأمراء ومحافلهم ومواقبهم .

أشكال الأدب

فى الأدبين العربى والانجليزى

تبدأ العلوم والفنون الانسانية كلا مختلطاً كالسديم فاذا ما ارتفعت وتطورت تبينت أجزاؤها وانفصلت ووضحت أشكالها وتميزت ، وتعددت مناحى كل علم وفن وتوفر بعض ممارسى العلوم أو الفنون على ناحية من نواحي العلم أو فرع من فروع الفن وتوفر غيرهم على غيرها ، كل يتبع ما هو أقرب الى طبعه وأوفق لعبقريته وأتم تعبيراً عن منازعه وكلما ارتقى العلم أو الفن ، جدت فيه ضروب وأشكال لم تكن من قبل وتولدت من الأشكال القديمة أخرى غيرها .

وذلك شأن الأدب : يبدأ بانفصال الشعر عن الموسيقى فاذا هو الحان وأهازيج ساذجة المعانى ، ثم ما يزال جانب المعنى منه يقوى حتى يطفى على جانب النغم ، حتى يبلغ الشعر أشده . وما تزال الأمة متبعية ، فاذا ما نالت حظاً من الحضارة والثقافة ظهر النثر بجانب النظم ، حاوياً لكثير من مميزات الشعر الفنية : كالتعبير عن الوجدان وحسن اختيار الألفاظ المعبرة ، فاذا ما استمر الأدب فى رقيه تعددت أشكال النظم والنثر واختلفت صورهما ، واجتذبت كل شكل فريقاً من الأدباء يصطفونه دون غيره أو بجانب غيره ، لاجراج أفكارهم وأحاسيسهم فى قلبه ، وابرار نظرتهم الى الحياة فى أوضاعه وحدوده . فتعددت أشكال الأدب من دلائل رقيه وابتعاده عن عهود الابتداء وعصور الإبهام والعموم ، وهو أيضاً من دلائل سريان روح التجديد فيه : فمن طبيعة النفس الانسانية أن تسأم النغمة الواحدة اذا كررت ، مهما كانت عذوبتها أو براعة صاحبها ، وتستوى فى ذلك الموسيقى وغيرها من الفنون ، فاذا ما سئم جيل شكلاً من أشكال الأدب ، أو أصبح ذلك الشكل الأدبى غير ملائم لعصره ، فإن روح التجديد اذا كانت هناك تدفعه الى ابتكار شكل طريف ملائم ، وهجر الأشكال القديمة مهما كانت منزلة الأدباء المتقدمين الذين مارسوا تلك الأشكال ، ومهما يكونوا قد أودعوها من صادق الأفكار والشعور ، ومحكم الصور لعصورهم .

وقد شهد الأدب الانجليزي عصر اليزابث ، وهو ما يزال مختلط
الأجزاء ، مضطرب الصور ، لم تتميز أشكال منظومه ومنشوره ، بل لم
تستقيم بعد أساليبه الشعرية ولا لغته الكتابية ، فما لبث الشعر على أيدي
شكسبير ومعاصريه من مؤلفي المسرح ، وسبنسر وملتون ثم دريدن ، أن
كسب لغة نقية مختارة ، وأشكالا واضحة بيئة ، صالحة للتعبير عن شتى
الأفكار وتصوير مختلف الحالات النفسية . وضع شكسبير أساس الشعر
المرسى ، ورفع بعقريته مكانة ذلك الضرب من الموشحات المعروف
بالسونيت ، وهو موشح من أربعة عشر بيتا متداخلة القوافي على هيئة
تبرز الفكرة الوحيدة التي تتضمنها السونيت ابرازا رائعا ، ووضع
سبنسر موشحه المنسوب اليه والمكون من أبيات تسعة متداخلة القوافي
آخرها أطول عروضاً من سائرهما ، الأمر الذي يجعل الموشح أداة صالحة
للقصص الشعري الرصين .

وجاء ملتون فأدخل الملحمة في الشعر الانجليزي الحديث : والملحمة
أعظم صروب الشعر شأنها ، وأكثرها كلفة ، وأبعدها مبالا لما تحتاج اليه
من طول التنوير ، وعمق البصر من الأساليب الشعرية ، وامتداد الخيال ،
وقد قدر كولردج الزمن اللازم لإنشاء ملحمة بعشرين عاما : ينصرف الشاعر
في عشرة منها الى الاستعداد والتحضير ، ويتوفر في عشرة على الانشاء
والتجويد ، وجاء دور دريدن عقب ملتون فوطد أساس ضرب آخر من النظم
يدعى الأود Oad أو القصيد الخطابى ، يمتاز بوعورة عروضه وقوافيه ،
ويوجه الخطاب فيه عادة الى شيء مخصوص أو فرد معروف أو ذكران ،
ورفع دريدن كذلك مكانة «الدوبيت» في الشعر الانجليزي ، أعنى القصيد
المؤلف من أبيات ثنائية القوافي ، محكمة الوزن ، مصقولة اللفظ ، وهو
الضرب الذي تلقفه عنه بوب فزاده صقلا واحكاما ، وساد من بعدهما القرن
الثامن عشر .

توطدت دعائم الشعر وتميزت أشكاله فجاء دور النثر ، وهو دائما
متأخر عن الشعر في الظهور ، ودعت الأحوال السياسية والاجتماعية التي
سادت القرن الثامن عشر الى احتفاء الأدباء والمثقفين بالنثر : فقد كانت
النظم الدستورية قد استتبعت ، والرأى العام قد تكون ، والطبقة الوسطى
قد تعاطم شأنها ، والحركة العلمية قد نشطت بعد ما اقتبسته انجلترا
من علوم أهل القارة ، والصحف قد انتشرت معتمدة على الرأى العام
والطبقة الوسطى ، وقد غبر عهد المخاطر والجهاد الذي تجلى في حكم
اليزابث وثورة المطهرين ، وألهب خيال الشعراء ، وجاء عهد الإصلاح
والعقلي الرزين في الداخل والخارج .

وفي أول ذلك القرن كان النشر الانجليزي حطاما مبعثرا من الألفاظ المتناثرة والتعابير المبعثرة ، والأساليب العامية ، وزخارف اللفظ ، وبهارج المعنى ، والتقليدات الفاشلة للأسلوب اللاتيني المتطاول الجميل ، فما لبث دريدن وكاولي أن هذبا من حواشيه وقوما من معوجه ، ونقياه من الغريب والسوقي ، فظهر النشر الانجليزي الحديث المعروف ببساطة ألفاظه ، ولطافة مأخذه ، وسلسلة تعابيريه ، ثم تلاهما أديسون وسنيل فوطدا دعائم « المقالة » في الصحف التي تعاونوا في إصدارها ، فإذا المقالة شكل من أشكال الأدب جم المزايا . فهي تدور حول فكرة مفردة تكون وحدتها ونجم حولها شتى الأفكار الثانوية ، وتتناول ما شاء الكاتب أن يدرسه من مسألة اجتماعية أو نقد أدبي أو حالة نفسية ، أو نظرة في الفنون .

ومن المقالة نمت بذور شكل آخر من أشكال النشر دعت اليه طبيعة ذلك العصر : هو القصة التي تكونت من اجتماع عدد من المقالات تدور حول شخصيات معينة ، فما لبث الذوق العام أن استطرفها ودرس الأخلاق واستكنه دخائل النفس الانسانية ، وتوفر عليها من كبار الكتاب أمثال ريتشاردسن وجولدسميث ، وجين أوستن ، فأحكموا أوضاعها ، وهذبوا حوارها ووضحوا شخصياتها ، وأسلموها الى القرن التالي شكلا من أشكال الأدب جم المزايا مبشرا بمستقبل حافل .

وكان النشر لم يقنع بهذا الضرب الخيالي من التأليف وآثر أن يجعل من الحقيقة الواقعة مادة للفن كما جعل من القصص الخيالي ، ويتخذ من الماضي مرادا له كما اتخذ من الحاضر فالتفت الى التاريخ ، وكان من قبل يدون باللاتينية أو بالانجليزية ملتوية التراكيب مختلطة الحقائق بالأوهام والأكاذيب ، فبعث فيه الروح الفنية التي شملت نواحي الأدب ونفخ فيه النزعة العلمية التي تمشيت في سائر العلوم ، ولم ينصرم القرن الا وقد ظهر أكبر أثر تاريخي في اللغة ، وهو كتاب جيبون عن الدولة الرومانية ، وإذا النشر الفني قد كسب شكلا جديدا هو التاريخ الفني للعصور أو البوقائع أو الأبطال .

وهكذا صار الأدب الانجليزي أدبا رفيعا متسع الجوانب متميز الأشكال ، مشتملا على أرقى ما لدى الأمم الأخرى من الصور الأدبية ، يقدم لممارسيه ما يختارونه من أشكال الأدب ملائما لطبائعهم ، ولقرائه ما يؤثره موافقا لأذواقهم ، وورث القرن التاسع عشر عن القرنين السابقين له تراثا ضخما من أشكال المنظور والمنثور وآثار الفحول فيهما ، فلم يكن يحس حاجة الي استحداث أشكال أخرى ، بل انصرف الى استغلال ما بين يديه

منها ، ولاء بين بعضها وبين حاجاته ، وآثر بعضها منها على بعض : فعالج وردزورث وتينيسون الشعر المرسل ، وعالج سودى وموريس وهاردى الملحمة واختلفت حظوظهم من النجاح ، واستغل هازلت وثرى وهاردى المقالة فى النقد الأدبى ، وعالج ماكولى وكارليل التاريخ ، وهجرت الرواية التمثيلية الشعرية وحلت محلها أخرى نثرية أكثر التزاما للواقع وملاءمة لحاجة العصر ، وتعاطت مكانة القصة الطويلة والصغيرة حتى فاقت ما عداها ، والتفتت الى تصوير المجتمع الجديد القائم على الصناعة والمخترعات .

أما تاريخ الأدب العربى منذ نهضته بقيام الاسلام وتوطد دولته ، ودخوله فى طور الحضارة والثقافة ، فمغاير لهذا : فقد ورث عن الجاهلية لغة قوية غنية تبشر بمستقبل عظيم ، وشعرا رصينا محكم الأوزان متعدد موطد الأركان ممدد الأساليب مؤدنا برقى الى أبعد الغايات ، فاذا الأدب يجمد فى أول الطريق ، ويجتزئ بماضيه عن مستقبله ، ويطوى زهاء خمسة قرون من عهود الحضارة والثقافة ، فلا يتفرع كما تفرع الأدب الانجليزى الى أشكال متميزة ذات خصائص واضحة ، بل يظل كل من الشعر والنثر سديما مشوشا كما كان فى أول بدئه ، وينبغ من فحول العربية أمثال ابن المقفع والجاحظ وابن الرومى والمتنبى والمعري ، فلا يعينهم غير تقيل السلف فيما درجوا عليه من مناهج القول ، ولا تتوسط على أيديهم أشكال جديدة للنظم والنثر ، ولا يؤدون للعبية الخدمات الجلى التى أداها للانجليزية أبناؤها .

طوى الأدب العربى عصور ازدهاره وهو يضرب على نغمة واحدة فى النظم وأخرى فى النثر ، ففى النظم ظلت القصيدة المفردة القافية ، خير المحدودة الطول ، غير الموحدة الفكرة ، غير المعروفة العنوان ، هى الشكل الشعرى الوحيد ، يصوغ فيه ابن القرن الخامس أفكاره كما صاغ الجاهلى أفكاره من قبل ، وفى النثر ظلت كتب الأدب المبهمة العناوين المشتجرة الفصول والفقرات المتباعدة المواضيع ، المختلطة النظم بالنثر ، والأدب بالدين ، والقصص بالنقد ، هى الضرب السائد منذ انتشرت الكتابة الى أن خمد الأدب .

وفى الشعر ابتكرت الموشحات ، فلم تكن غير زخارف من القوافى ينمقها الناظم كما شاء دون أن تكون أوضاع قوافيها معينة على إبراز المعانى ، ولم ينتشر استعمال تلك الموشحات واقتصرت على ضروب من الشعر الوجداني الضئيل الحظ من المعنى . قال ابن رشيق : « وقد رأيت

جماعة يركبون الخمسات والمسمطات ، ويكثرون منها ، ولم أر تقدما حاذقا صنع شيئا منها لأنها دالة على عجز الشاعر وقلة قوافيه وضيق عطنه... وهذا الجنس موقوف على ابن وكيع والأمير تميم ومن ناسب طبعها من أهل الفراغ والرخس ، وفي النثر ابتكرت المقامة فإذا هي أشد من الموشح احتفاء باللفظ ، وإذا هي لا تفوقه ذيوعا ونجاحا ، وحاكته عقما فلم ينتج عنها ابتكار جديد ، كما مهدت المقالة في الانجليزية السبيل مثلا للقصة .

فإذا بحثت في الأدب العربي عن أشكال أدبية متميزة متعددة لم تجدها ، وإنما ظل الأدب كما بدأ سديما مختلطا متشابها : ارتقت معانيه وتعددت أغراضه ورقمت ديباجته ، ولكن جمده شكله فلم يتحول إلى أشكال جديدة ، وظل النقاد لا يقسمون الأدب إلى أكثر من نظم ونثر ثم يقفون ، ويفاضلون بين النظم والنثر مفاضلة ليس لها موضع ولا هناك ما يسوغها ، فان أرادوا التوسع فاضلوا بين الرجز والقصيد ، وقدموا شعرا على شاعر لبراعته في الطول أو في القلعة ، وهي مفاضلات كذلك لا موضع لها ولا مبرر ، لأن هذه الأشياء متقدمة الذكر ليست بأشكال للشعر متميز كل منها بخصائص في الأسلوب أو في الموضوع ، تجعل شكلها منها أصعب على الشاعر المعالج من شكل آخر أو أبعد متناولا .

وإنما جنح بالأدب العربي إلى هذه الحال من الجمود الشكلي التي لا يجد معها جديد ، ولا يحل طريف محل عتيق ، ولا يتسع أفق الأدب ولا تشعب مناحيه ، عوامل تقدمت الإشارة إليها مرارا وكان لها أبعد الأثر في تاريخ الأدب العربي ، بل كان لها فيه ضرر بليغ ، إذ باعدت بينه وبين أن يكون دائما تعبيرا حرا صحيحا عن شعور الفرد والمجتمع ، متطورا مع حاجات الأجيال وتجدد شئون الحياة ، وتلك هي تغلب روح المحافظة على روح التجديد فيه ، واعتماده على تشجيع الملوك واعتزاله الآداب الأخرى ، واحتفاله باللفظ قبل المعنى .

فلو عنى أدباء العربية بدراسة الآداب الأخرى حق العناية لاطلعوا على أشكال للأدب تستحق أن تنقل إلى العربية فتكون باعنا على ابتكار غيرها . ولقد اهتمدى الأدباء الانجليز في كل ابتكاراتهم سألغة الذكر بهدى الأمم الأخرى : فالسوييت اقتبسوها عن بترارك ، والشعر المرسل أخذوه عن الدراما الاغريقية ، والأود نقلت عن بندار ، والملمحة تأثر فيها ملتون أثر هوميروس وفرجيل ، والمقالة أوجت بها كتابات مونتين ، وليس يدين

الأدب العربي بشيء من هذا لغيره من الآداب ، ولو فعل لجاء أرحب آفاقا وأوضح مناهج وأبرز أشكالا •

استنقل الأدب العربي بنفسه واعتزل غيره ، ولم يكن له من داخله حافز الى التجديد والابتكار : فان نفس السبب الذى صده عن آداب الأهم الأخرى صدف (١) به عن تجديد نفسه ، ذلك السبب هو اكبار المتقدمين واجلال آثارهم اجلالا لا مطمع معه الى تنكب طرائقهم أو الحيدة عن أساليبهم ، وغير هذه النزعة المحافظة التى كانت تسود الأدب الانجليزى : كانت روح التجديد متمكنة من سائر فحوله ، لا يمنعه إعجابهم بمقدميهم من الأعلام عن اختطاط غير طرقهم ، وبفضل هذه الروح المجددة كان الأثر المنقول عن الآداب الأجنبية لا ينشب أن تتشابه الانجليزية ويونع فيها ، ويؤتى ثمرا جديدا لم تحظ به الآداب المنقول عنها ، فالسونية أصبحت فى الانجليزية ضربين : الشكسبيرى والملتونى ، والمقالة هذبت واستخدمت فى مقاصد لم تخطر لمونتين على بال ، وكانت أداة اصلاح اجتماعى نادر المثال ، وخرجت من غصونها القصة الاجتماعية •

وولوع أدباء العربية بالآلغاز استغرق كل تفكيرهم واجتهادهم : ألهاهم احتيال الحيل فى تنسيق الألفاظ وإظهار البراعة فى استخدامها عن التفكير فى المعنى أو الشكل الأدبى الذى يصاغ فيه ، فابتكروا كثيرا فى البديع الذى يتعلق باللفظ ولم يبتكروا فيما يتعلق بالشكل الأدبى • ولما أراد شاعر مجيد كالمعري أن يأتى بجديد فى القوافى لم يتجه الى تحرير الشعر من بعض قيودها أو تذليلها لإبراز المعنى على أحسن صورة ، بل زادها قيودا فضاعف حروف الروى فى لزومياته ، لأنه كان يحس أنه يفعل ذلك دون أن يخرم التقاليد الأدبية المتخلفة عن الأقدمين ، ودون أن ينتهمه متهم من النقاد كابن رشيق « بعجزه وقلة قوافيه وضيق عطنه » •

واعتماد أدباء العربية على نوال الأدباء ، وترددهم على أبوابهم ، ومشاركتهم إياهم فى لذاتهم وترفهم أحيانا ، أو دوام طموحهم الى تلك اللذات والمتعات ، وذهاب أيامهم بين مرارة الحرمان ونشوة اللذات وخامة البشيم والخمار ، كل ذلك لم يدع لهم وقتا للتوفر على الأدب الصحيح والانصراف الى الفن الرفيع ، ولم تقم أمامهم حاجة الى الابتكار والتجديد ، إذ كان الأمراء قانعين أن يقال فيهم مثل ما قيل فيمن قبلهم من الملوك

(١) صدف : اعرض ومالي •

الفخام وكما قيل فى أولئك الملوك ، فكان حسب الشاعر أن يقتفى أثر من قبله ويحذق وسائله فى اقتناص معانى المديح .

أما فحول الانجليزية فكان معظمهم بمنجى من هذه الحاجة الملحة ، ومعتصم من حياة الفلاكة واللذذة التى كان يحياها كثير من أدباء العربية ، وكان لهم بفضل كدهم فى سبيل الحياة أو بفضل ما ورثوه من ثروة غنى عن سؤال الأمراء ، ومتسح من الوقت للاعتزال فى صومعة الفن الخالص من شوائب المادة ، بل كان منهم أفراد كوردزورث وشلى وتنيسون عاشوا فى رغد دون أن يعملوا فى حياتهم عملا سوى أن يقرأوا ويكتبوا ما يسر نفوسهم ويرضى الفن وحده . ولا ريب فى أن أمثال هؤلاء أشد رغبة فى التجديد والاختراع ، وأقدر على القيام بالتجارب الأدبية فى الأشكال والصيغ والمواضيع ، ممن يقضون العمر نظما للمدح والسؤال وترقبا للرضى والانععام . وقد فطن ابن رشيق فى عبارته السالفة الى ضرورة اتساع الفراغ للتفنن فى ضروب القول وان يكن قد قرن ذلك بذكر الرخص وأضافه الى البطالة والعبث .

فالأدب الانجليزى ظل دائما على صلة بالحياة وحقائقها ، يعينه على ذلك ما به من روح التجديد ، وما أخذ نفسه به من التزود من الآداب الأخرى ، وما تمتع به أقطابه من وقت قصره على فنههم والحياة دائبة التحول والتجديد ، فلا ندحة للأدب اذا توثقت صلته بها عن تحول أشكاله وتجدد صوره وأزيائه . أما الأدب العربى فباعده بينه وبينها تلك العوامل السالفة الذكر ، فلا غرو أن جمده فلم تتجدد أشكاله مع مرور الزمن ، وتحول الأدب الانجليزى فى قرنين من أدب ناشئ مختلط الأوضاع الى أدب راق متجدد الصور متعدد الأشكال .

الأدب العامي

فى الأدبين العربى والانجليزى

بداوة الأمة هى عهد طفولتها : فيها يكون أدبها ساذجا على صديق عاطفته ، ضئيل الحظ من الفكر المستقيم على قوة شعوره ، ويشبه دخول الأمة طور الحضارة والثقافة بلوغ الناشئ الحلم : اذ تنضج أفكارها وينتبه وعيها بما يحيط بها من مظاهر الكون ويزداد تأملها فيها واتصالها بها ، ومن ثم يزداد أثر الفكر السليم والنظر الثاقب فى آدابها بجانب الشعور الحار والعاطفة المتدفقة ، على أنه لما كانت العاطفة عادة تقتصر على فريق من أبناء الأمة دون فريق ، فانه يصير للأمة المتحضرة أدبان : أدب راق للخاصة وأدب عامي للدهماء ، ولا ريب فى أنه كلما ازداد انتشار التعليم فى الأمة كان ذلك كسبا للأدب الراقى ، ولم توجد بعد الأمة التى يتوحد فيها الأدبان .

وتزداد الهوة بين الأدبين تدريجا بارتقاء الحضارة وازدهار الثقافة وترفع المجتمع : فتدخل الأدب الراقى النزعة العلمية، وترتقى لغته وتوسع جوانبها ، وتشهد لهجته وترق حاشيته ، ويزداد تراثه من جيل الى جيل لاستعانتها بالكتابة ، أما الأدب العامي فيتداول بالرواية ، ولذا يظل فى تجدد وتحول وزيادة ونقص ، تلونه المجتمعات المتعاقبة بألوانها ، وتترك فيه العصور المتتالية مياسما ، ويظل ساذجا كأدب البداوة الأولى : يهتف بالغرائز والعواطف البسيطة ، ويتحدث بأحلام النفس الانسانية فى السعادة المطلقة وميلها الدائب الى الجمال والقوة والحق والفضيلة ، ويظل على ما يشوبه من خرافة وغرارة هو الثقافة الوحيدة التى تتمتع بها الطبقة العاملة .

وقد كان للعرب على عهد حضارتهم أدبان كذلك : ساعد على قيام الأدب الراقى اعتداد أشرف العرب بأدبهم القديم ، وتمسكهم بلغتهم ، وانتشار الثقافة والعلم التى ورد مناهلها فريق من الأمة دون فريق ، وساعد على ظهور الأدب العامي اختلاط العرب بالأمم وفساد لغة الكلام . وصار للانجليز كذلك أدبان منذ تحضروا وتشفقوا وامتزجت اللغة الانجلوسكسونية باللاتينية ، واستخدمت فى العلوم والآداب ، وتوطدت

قواعدها واتسعت جوانبها وأصبحت لغة مجتمع راق ، فأنفصال الأدبين الخاص والعامى أحدهما عن الآخر جاء مختلف الكيفية فى الأمتين : ظهر الأدب العامى فى العربية بفساد اللغة الفصحى وانحطاطها ، وظهر الأدب الفصيح فى الانجليزية بارتقاء اللغة العامية وارتفاعها .

تختلف الأمتان فى هذا ، وتختلفان أيضا فى علاقة الأدبين الفصيح والعامى فى الأزمنة التالية لانفصالهما : ففي العربية كانت الهوية بينهما سحيقة والاتصال يكاد يكون معدوما ، لشدة ترفع الأدب الفصيح عن صاحبه ، بل تجاهله لوجوده ، أما فى الانجليزية فكانت المسافة بينهما أقرب ، والاتصال أوثق ، وظل للأدب العامى دائما للمثقفين اعتبار ، ورحب به الأدب الفصيح مرارا وخلطه بنفسه ، واقتبس أساليبه وصوره ، واصطنع مواضيعه ونغماته ، فأفاد بذلك فائدة كبرى .

فالأدبان الفصيح والعامى وان اختلفا تهذب لغة واستقامة تفكير وعمق نظرة وتنوع أشكال ، يستقيان من معين واحد ، هو النفس الانسانية ، بميولها وأحلامها وآمالها . وإذا امتاز أولهما بصفات هى وليدة الحضارة العالية والمجتمع الراقى والعلم المنظم ، فان الثانى يمتاز بصفات الصدق والبساطة والقرب من الطبيعة التى هى مرجع كل فن ، والأدب الفصيح عرضة من أن الى آن لغلبة اللفظ فيه على المعنى ورجاحة الزخرف على الجوهر ، وظهور التأنق والتحذلق على الشعور الصحيح والطبع المرسل ، فهو بحاجة دائما الى العودة الى الطبيعة ، وخير سبيل له اليها الأدب العامى ، اذا نقاه من أوشابه واستخلص أجود عناصره .

ظل للأدب العامى فى انجلترا دائما اعتبار ، وظل كبار الأدباء مهما سمت ثقافتهم واتسعت نظرتهم الى الحياة على علم به : فشكسبير وسبنسر وملتون طالما استقوا من معينه قصصا سائغا ضمنوه آثارهم ، والتقطوا من كنوزه ألفاظا معبرة ألحقوها باللغة الشعرية الراقية فصارت من بنييتها ، وأتيح للأغاني الشعبية من حين الى حين أفراد من خاصة المثقفين عنوا بجمع ما وصل الى عهودهم منها ، فكانت تلك المجموعات نصب أعين الشعراء ، يتخذون منها مواضيع لأشعارهم أو يحاكونها فى الأسلوب والنظم .

وكان لتلك الأغاني فضل عظيم فى بعث النهضة الرومانسية فى أوائل القرن التاسع عشر ، بعد أن اختنق الشعر فى جو المدينة وأثقلت قيود الألفاظ والتقاليد ، فقد انصرف جمهور المتأدين عن ذلك الضرب

المتكلف من النظم الى مجموعات الأشعار الشعبية التي توفر على جمعها ونشرها اذ ذاك نفر من الأدباء ، وضمنوها ما وصل اليهم من مقطوعات منذ عهد القرون الوسطى تنازلا ، بعضها يدور حول السحر والطلاسم ، وبعضها من نسج الخرافة ، وبعضها مزيج من الخرافة والتاريخ ، وكلها مملوءة بحب الطبيعة ووصف مناظرها ، وكان لاسكتلندا وأدبائها فضل كبير في تلك الحركة ، فقد أخذ الكثير من الأغاني من أدبها العامي ، وقام أدباؤها بالجانب الأكبر من ذلك الجمع والنشر ، وقاموا بالرحلات بين أريافها وحزونها ينقلون عن الزراع والرعاة أغانيهم وأسمارهم .

ومن الاسكتلنديين أيضا كان الرعيل الأول من الشعراء الذين نظموا أشعارهم في التغنى بالطبيعة وحياة البسطاء من الفلاحين والرعاة وحياة الفروسية الغابرة ، ومن أولئك ألان رمزي وروبرت برنز ووالتر سكوت . وقد كان ثاني هؤلاء فلاحا قححا ، فعبر في شعره عن حياة فلاحى اسكتلندا وتقاليدهم وأفراحهم وأتراحهم ، أما الثالث ، فقد كان على نقىض ذلك أرسطقراطيا سليل أسرة تمت الى فرسان العصور الوسطى ، فاحتفى شديد الاحتفاء بالأغاني الراجعة الى تلك العصور ، وازداد شغفا بالأغاني الشعبية حين اطلع على ما ترجم منها عن الألمانية ، فطاف في اسكتلندا طلبا للاستزادة ، وجعل محصوله من كل ذلك مادة لأشعاره وقصصه التي رفعته في زمنه وبعده الى مصاف كبار الأدباء ، وأكسبته شهرة عظيمة في القارة الأوروبية .

وفى هذا الجو المملوء بحب الطبيعة والبساطة والشعور الصادق ، نشأ وردزورث وكولردج ثم شلى وكيثس ، وهذه الروح الخافقة المأخوذة عن الأغاني الشعبية هي التي اوحى اليهم أشعارهم البديعة وجعلتهم ينهجون بالشعر نهجهم الطريف . وكان وردزورث أحرص الجميع على اختيار المواضيع البسيطة لقصيدته ، واختيار أشخاصه من بين الريفين والدهماء ، واستعمال ألفاظهم بذاتها في شعره ، وقد جمع باكورة ما نظمه على ذلك النمط في كتابه « الأغاني الشعرية » الذى أخرجه بالاشتراك مع كولردج ، وصدره بمقدمة شرحا فيها المذهب الجديد المستمدة روحه من روح الأغاني والأقاصيص العامة .

ووجد الأدب العامي لنفسه مسلكا جديدا الى الأدب الفصيح ، حين تقدمت القصة وتناولت الحياة الاجتماعية بالوصف الدقيق ، وأولعت بتصوير شتى الشخصيات من الطبقات الفقيرة والأوساط الريفية ، وتناولت معاملات تلك الطبقات والأوساط ومحاوراتها وعقليتها بالعرض

والتحليل ، وتوخت الأمانة للواقع بشقل ألفاظ القوم ومحاكاة أساليبهم
فى الخطاب ، وفى روايات هاردى تصوير لكل ذلك دقيق لا يبارى دقة
ونفاذ بصيرة ، وهكذا كسب الأدب الفصيح كسبا جديدا من الأدب
العامى .

أما فى العربية فكان نصيب الادب العامى دائما الزراية والتجاهل ،
وكان أول ما يأخذ به المتأدب نفسه التخلص من شوائب العامية لفظا
ومعنى وأسلوبا ، وشر ما يوصم به لفظ أنه عامى ، أو معنى أنه سوقى ،
وأبعد ما يفكر فيه الأديب أن يخالط العامة أو الزراع ليأخذ عنهم
ما يتحدثون فيه وما يتأدبون به ، من قصص ممزوج بالخرافة ، وغناء
متسمم بالسذاجة ، أو يطوف فى الأرض طلبا لذلك كما طاف سكوت
وأمثاله فى شعاب اسكتلندا ، انما كان أدباء العربية يشدون الرحال الى
البادية طلبا للفصيح من الكلام والأصيل من الأساليب ، والمأثور من أقوال
العرب يتخذ حجة فى المناظرة ، وأنموذجا فى الانشاء وقد عيب على بشار
قوله فى جارية :

ربابة ربة البيت تصب الخل فى الزيت
لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت

لأنه تناول موضوعا بسيطا عاميا ، وتحدث فى سذاجة لا تليق
بالشعر الفصيح . وانما كان الأدب العربى فيما ارتضى له أصحابه ،
واستثن له نقاده ، أدب بلاط يحفل بذكر الملوك لا السوق ، ونديم
أرستقراط يشارك فى حياة العلية ويشمخ عن دونهم ، ولا يرى فى حياة
الدهماء وحيا لقول ، ولا موضوعا لتفكير ، فلم يكن من شعراء العربية
من يحتفى بوصف أشخاص قريته كما فعل جولد سميث فى « القرية
المهجورة » وصفا كله حب وحرارة ، ولا من يرثى أبناء القرية فى مراقدهم
الأخيرة ، وهم الذين أفنوا العمر كذا دون أن تسمع الدنيا بأسمائهم أو
يصعدوا الى المجد على أكتاف غيرهم أو دمائهم ، كما فعل جراى فى مرثيته .

وقد أثر عن بعض شعراء العربية كإبى نواس وأبى تمام ، أنهم
كانوا يتلقفون أحيانا أقوال العامة فيصوغونها شعرا ، كالذى رواه
ابن الأثير من أن أبا تمام وصل من بعض قصيده الى قوله : « وأحسن
من نور يفتقه الصبا » وأرتج عليه ، حتى مر بالباب سائل يقول :
« من بياض عطايكم فى سواد مطالبنا » ، فأكمل أبو تمام البيت :
« بياض العطايا فى سواد المطالب » ، على أن ذلك كان نادرا ضئيل

الأثر • أما الاحتفال للأدب العامي ، ومحاولة الانتفاع به ، والرغبة في جمعه ، والعمل على تلقيح الأدب الفصيح بعناصر الحياة فيه ، فذلك كان بعيدا جدا عن أذهان أدباء العربية •

لم يستفد الأدب العربي الفصيح من سقيقه العامي شيئا ، مع أنه كان أحوج كثيرا من الأدب الانجليزي الى تلك الاستفادة ، بل لعل رفضه الاستفادة من أدب العامة كان من أسباب اضمحلاله وسقوطه : فقد ابنى الأدب العربي الا اعتزال أدب العامة بنفس الاصرار والشموخ اللذين اعتزل بهما آداب الأمم الأخرى ، وتعالى عليه تعاليه عليها ، ورأى المسعودي وابن النديم نسخا من قصص انف ليلة وليلة ، التي بدأت تتجمع حولها آداب العامة فاستخفا بها وحقراها ، ولم يخطر لهما أن بها مادة لعبقريّة الأديب أو لقاحا للأدب ، سمخرا من الاقاصيص الشعبية في القرن الرابع الذي كانت الصنعة اللفظية فيه قد ركبت الأدب ، والثقاليذ قد كبّلت المنظوم والمنثور ، ولو التفت الأدباء الى ذلك الأدب الشعبي الناشئ واستوحوه جديدا من القول ، لربما شهد الأدب العربي نهضة جديدة واحياء كالذي شهدته الأدب الانجليزي في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن الذي يليه •

والحق أن الأدب العربي العامي قد احتوى من المواضيع الأدبيّة والأشكال الفنيّة ما أعوز الأدب الفصيح ، بل انه احتوى من ذلك على ما هو أشبه بالأدب وأنهض بوظيفته وأقرب الى التعبير عن الشعور • والحق أن الأدب الفصيح ليس بالترجمان الصادق المستقل للمجتمع العربي ، ولا هو بالسجل الكامل لنتاج الذهن العربي وخلصاة النفس العربيّة في تعاقب العصور ، والأدب العامي أصدق وأوفى منه في كل ذلك •

فالأدب العامي حافل بآثار الخيال ، مملوء برائع القصص ، وهو ما يعوز الأدب العربي الفصيح منشوره ومنظومه ، فالقصة الاجتماعية ضرب من الأدب لم يألّفه أدباء العربية ، والخيال الذي أولع به الشعراء واشتهر به الباحثري خيال كاذب ، انما هو وهم ومغالطات صبيانية : من توهم أطياف أحبة لا وجود لهم ، واختراع مواقف للوداع لا طائل تحتها ، ولو فطن الأدباء لأخذوا بيد القصة فرفعوها من عاميتها الى لغة الفكر المثقف والوضع المهدب ، فأضافوا بذلك الى الأدب فنا يجد فيه متحولا عن فنونه العتيقة •

والأدب العامي حافل بضروب الأوزان والقوافي الشعرية المتداخلة ، وهي الأشكال التي رفضها الأدب الفصيح وظل متمسكا دونها بالقصيدة

الموحدة القافية ، وأبعدها عن حظيرته فلجأت الى حظيرة الأدب العامى ، على أن تلك الموشحات التى راجت فى الزجل دون الشعر ، أدل على الرقى الأدبى وأقدر على التعبير عن شتى المقاصد من القافية الموحدة ، فنتلك فائدة أخرى ما كان أحرى الادب الفصيح أن يستفيد منها من الأدب العامى ، ولكن الأرجح أن ذبوع تلك التوشحات فى أدب العسامة زاد الأدباء صدودا عنها فيما يحتفون به من أغراض القول .

وأسباب هذا الجفاء الذى استحكم بين الأدبين الفصيح والعامى فى العربية هى : روح المحافظة التى سادت الفصيح ، والتسجيل العظيم لآثار الأقدمين ، والاعتداد الشديد بلغة الضاد التى هى لغة الكتاب المنزل والدولة ، وهى عوامل نماها وقواها اعتزاز العرب فى صدر الاسلام بقوميتهم وتعاليتهم عن عداهم من الشعوب ، وحرص أبناء تلك الشعوب على التشبه بهم بحذق لغتهم وتقليد أساليبهم ، كل ذلك جعل للفظ عند الأدباء التقديم على المعنى ، فكل قول عدم اللفظ الفصيح هو عامى سوقى حقير لا قيمة له ، وجعل لأساليب العرب الأقدمين مكانة رفيعة ، فكل قول شذ عنها ناب مستهجن ، وكل احتذاء لها مهما أرهقه التكلف وخرج به التقليد عن طور المعقول والمحسوس ، فهو مقبول محدود فى الأدب ، هذا الى ما تقدمت الإشارة اليه من تعلق الأدباء بأهداب الملكية والعلية ابتغاء النوال ، مما نأى بجانبهم عن جانب العامة .

فالادب الفصيح استحال فى حين تلك التقاليد والمراسيم الى قوالب متحجرة ، وأوضاع متصلبة ، غير حر الحركة ولا سهل التجديد ولا قابل لتأثير من الخارج ، لا يتأثر الا بماضيه ، بتراث العرب الاقتحاح الذين قصدوا (بتشديد مع فتح الصاد) القصائد ونسبوا (بتشديد مع فتح السين) وفخروا وهجوا وارتجلوا الخطب ، وتلك حال اذا صار اليها الفن جمد وبعد عن الأمانة للحياة والتصوير لحقائقها . وشبيه بذلك ما صار اليه فن النحت وفن التصوير عند قدماء المصريين من جمود وزيف عن الحقيقة ، حين كبلتها الأوضاع والرموز الدينية .

وقد أصبح لزما على الأدب الفصيح وقد كبلته التقاليد بالقيود ، وأحاطته الصناعة بالسدود ، أن يترك التعبير الفصيح عن شعور المجتمع للادب العامى ، وذلك هو الذى تم دون أن يشعر رجاله ، ودون أن يقلعوا عن كبرياتهم وترفعهم عن الشعب . فظلوا فى تقاليدهم الجامدة وبراعانهم اللفظية سادرين ، وقد نما الأدب الشعبى واتسع ، وحوى من صادق المشاعر والعواطف ، وجميل المحاورات والمناظر ، ما أعوز الأدب الفصيح ، وما قرب به الى نفوس الشعب والى نفوس الأمم الأخرى معا :

فقد فطن الأوروبيون من عهد الحروب الصليبية الى ما في الأدب العربي من جمال وعبقورية ومنتعة ، فتداولوا أقاصيصه وأغانيه وحاكوها في آدابهم الشعبية وخلطوها بها ، وترجموا مجموعات منها الى لغاتهم في شتى الأزمنة ، ولم يألوها حفاوة وامتداحا ، وعرفوا فضلها في ادخال العنصر الرومانسي في آدابهم العالية ، وهي نفس الوظيفة التي أداها أدبهم الشعبي ، أما موقفهم من الأدب العربي الفصيح فكان خلاف ذلك : فانهم كلما حاولوا دراسته والانتفاخ به في آدابهم صدمهم عنه ما فيه من غرابة معان متكلفة لا تمت الى الحياة الصحيحة ، ومن زخارف ألفاظ يحتفى بها ادباء العربية كأنها حقائق مجسمة ، فاذا ترجمت لم تعد شيئا مذكورا ، فرجعوا خائبين وعزوا تلك الغرابة الى اختلاف عقليتي الشرق والغرب ، وما هو كذلك وانما مرجعها ما خالط الأدب الفصيح من تقاليد جامدة شبيهة بالرموز الدينية ، بعدت به عن التعبير عن شعور النفس الانسانية، شرقية كانت أو غربية .

فالأدب العربي العامي قد احتوى من عناصر الصدق في الشعور ، وتصوير المجتمع ، ووثبات الخيال ما أعوز الأدب الفصيح كثيرا ، وهو مع ذلك قد لقي الاهمال والازدراء من المتقنين وخسر الأدب الفصيح معونته في العصور الماضية ، وهو ان لم يكن أخرى من الأدب الفصيح بالدرس ، وأكثر منه فائدة لمؤرخ الأدب والمجتمع ، فليس دونه في تلك الوجوه ، وهو خليق أن يدرس معه جنبا الى جنب ، وتجمع آثاره المتخلفة من شتى العصور ، ففيها هي ذاتها متعة جليلة ، وفيها بجانب ذلك للشعاعر والقصص ما يبعث الالهام ، ويبسط منادح التفكير والقول ، ويدنى من الطبيعة والصدق .

الانسان

فى الأدبين العربى والانجليزى

إذا ما استقر الانسان فى موطن آمن ، وارتقت عقليته ، لم يعد يكتفى بتوفير حاجاته الجسدية واثقاء قوارع الطبيعة ، بل بدأ يفكر فى نفسه ومنشئه وغايته ، لم يعد يكتفى بقبول الحياة على علائها ومدارة غوائلها ، بل راح يتساءل عن ماهيتها وغايتها وما بعدها ، وأجاب على تساؤله ذاك بما تتيح له عقليته البدائية من تفسيرات فطرية ، بعضها صادق وأكثرها وهمى ، ثم ما يزال كلما ترقى فى مدارج الفكر يعاوده الشك من حين الى حين فى تلك التفسيرات ، ويشور على عقانده المتوارثة ، ويتناولها بالتعديل والنهذيب ، فيكون من ذلك الدين والفلسفة .

ويشارك الأدب الدين والفلسفة فى التعبير عن تأمل الانسان فى نفسه ، وتساؤله عن نشأته ومصيره ، فيحفل الأدب شيئاً فشيئاً بآثار تفكير الانسان فى الحياة والموت ، وافتخاره بقوته وسيادته ، وجزعه من ضعفه وقصور حياته، واعتداده بمتعته فى مجال العلم والفن والصناعة، وارتياحه من تساؤل آثاره تلك جميعاً ازاء قوى الطبيعة وأبعاد الكون ، وتصطبغ تأملاته تلك فى عالم الأدب بصبغة البشر والتفاؤل حيناً ، وبصبغة التشاؤم والقنوط حيناً ، حسب ما يسود المجتمع من عوامل الحيوية والثقة بالنفس والاقبال على أسباب المتعة والخبور ، أو دواعى الانخزال وسقوط الهمة وفنور العزيمة ، وحسب ما يخالج الأديب الفرد من بشر ملازم أو طارىء ، وتشاؤم مصاحب أو عارض .

فتأمل الانسان فى نفسه ، وتساؤله عن مكانه فى الكون ، واهتمامه الدائب بسبر قواه وامتحان قدرته واستكناه غاياته ومراميه ، كل هاتيك من أظهر مميزات المجتمع المتحضر والأدب الحى ، وقد كان ذلك الاهتمام الملح بالانسان : قواه وطباعه وموطن ضعفه ، ومفاخره ومعاييه ومصائرهم ومطامحهم ، من أبرز ظواهر الحضارة الاغريقية وخصائص الأدب الاغريقى والفنون الاغريقية ، ففيها تنويه بالجمال الانسانى وترنم بالبطولة الانسانية ، وفيها بجانب ذلك عرض لنقائص الانسان ومغامزه ، وفيها اشادة بما تمهد له الحياة من أسباب المجد والابتداع والتمتع والسرور ،

وَتصوير لما تفرضه عليه من هوان وصغر وقهر وألام . وما تبسط له من فجاج الحربة وما تكبله به من متشعبات القيود ، وليست مواضيع الدراما اليونانية المتعددة في صميمها الا موضوعا واحدا : هو اصطدام مطامع الانسان بصرامة الأقدار .

ولحفل الأدب الاغريقى على ذلك النحو بدراسة الانسان ، سميت الآداب الاغريقية أو الكلاسيكية عامة منذ عهد النهضة الأوروبية ، « بالانسانيات » ، فان الاطلاع عليها لم يكن كشفا للعالم القديم فقط ، بل كان كشفا للنفس الانسانية ذاتها . تلك النفس التي كانت قد أهملت في العصور الوسطى أشد الاهمال . وازدريت شر الازدراء ، بتأثير الكنيسة التي ذهبت في تضليل العقول مذهبا بعيدا ، فزعمت الانسان خاطئا بالطبع ، وعلمت الانسان أن فيه نزعة من الشيطان ، لا يذهب مسها عنهم الا العصا في الصخر ، ودوام التندم والاستغفار في الكبر . وهكذا عكست الكنيسة بجهالتها غاية الدين الذي لم يأت الا لتوطيد ثقة الانسان بنفسه وتمكين اعتقاده بحاضره ومستقبله . فلا غرو أن خمد الأدب في تلك العصور . اذ لا أدب ولا حياة الا حيث للانسان ثقة بالانسان .

وقد ورث الأدب الانجليزى فيما ورث عن الأدب الاغريقى تلك النزعة الانسانية ، وحفل كما حفل أدب اليونان بتمجيد الانسان من جهة ، والأسى لتلاعب الأقدار به من جهة أخرى : فمواضيع روايات شكسبير الكبرى كهملت وعطيل وماكبث هي مواضيع الدراما اليونانية : فهي تدور حول أبطال أو عظماء نالوا من المجد شرف المحتد وفضائل الشجاعة والقوة والعقل شأوا عظيما ، ولكن كل مزاياهم تلك تذهب هدرًا من جراء مغامز في شخصياتهم تتسلل منها أصابع القدر الى سعادتهم فتتغصصها ، الى مجدهم فتشله ، ورواياته بجانب ذلك تعج بشتى الدراسات للطبائع الانسانية ، التي تثير الروعة والاكبار تارة ، والشفقة والأسى مرة ، والاحتقار والاشمئزاز حينًا ، والسخر والضحك طورا .

واذا انتقلنا الى العصر الحديث في الأدب الانجليزى ألفينا نفس ذاك العراك المستمر بين النفس الانسانية الجادة في تحقيق مطالبها ومطامعها ، واثبات شأنها وخطرها ، وبين القدر الصارم القوانين السادر في جبروته . لم يزد بعد تقدم العلم وتذليل قوى الطبيعة الا تجسما واستفحالا . وقد نقله هاردى من عالم الرواية التمثيلية التي تدور حول الأبطال والملوك ، الى القصة المقروءة التي تدرس المجتمع العادى ، وتتناول

أوساط الناس ودهماءهم ، وليست « تس » الفقيرة الا نظيرة « أوفيليا »
المنعمة ، ولا « يهود المغمور » فى طموحه الى القوة الا قريع « ماكبت »
المشهور فى تطاوله الى العرش : مطامح انسانية ، وآمال فى المنعة
والسعادة ، وأقدار ماضية تعترضها وتبطلش وهى عمياء بطلش جبارين .

وقد كان الموت ولن يزال عدو الانسان اللدود ، وبلاء الأكبر ،
واللغز الأعظم الذى استغلق على فهمه ، ووقف له بالمرصاد كأنما يسبح
من كل ما يبنى وما يجمع ، ويتهكم بكل ما يأتى وما يدع ، ويقنعه فى
ذروة نجاحه ومجده وسعادته بعبث سعيه وإدراكه ، ومن ثم امتلأت الآداب
بذكر الموت وصولته وازرائه بالحياة والأحياء . واتيانه على الجبابرة ،
وتسويته بين العلية والسوقة ، وبين العالم والجاهل ، وتمزيقه شمل
الآلاف ، وتعقيته لآثار السرور والفوز بوصل الأحبة ، وعبثه بحور العيون
وبياض الأجياد والنحور . وقد تفنن الخيام فى رباعياته فى صوغ هذه
المعاني وتحليلتها بالصور الفاتنة المنتزعة من الطبيعة ومن الجمال الانساني،
ومجالس الصفو والشراب .

وبجانب الموت تمثلت الرهبة لعينى الانسان فى مظاهر الطبيعة
الرائعة ، وقواها المصطرة ، وفجاجها المترامية ، ومخلوقاتا المقتتلة فى
سبيل الغلب والبقاء ، وصممها عن آلامه وأشجانه ، وغفلتها عن أفراحه
وأتراحه . ومضيها على عاداتها حسنت به الحال أو ساءت ، وخلودها
على رغم فنائها ، وطبيها جيلا من الناس بعد جيل ، فامتلا الأدب بذكر ذلك
كله . ومن جميل أمثلته مقطوعة هوجو « الطبيعة والانسان » التى يقابل
فيها بين شباب الطبيعة وشيخوخته ، ونضارتها وجفاف عوده ، وبقائها
ووشك ذهابه ، ويتنبأ بقيام جنازته بين معالم أعيادها ، وبمضيه غير
مأسوف عليه منها ، ولا محسوس فقده .

وقد كان شكسبير معنيا بالموت موكلا بالتفكير فيما بعده ، ينطق
بذلك أبطاله كهاملت ، الذى يتأمل فى الموت فى خلوته ، ويؤم المقابر
حيث يرى الحفارين يعبثون بالجماجم . ولا يمل شكسبير ذكر الموت
واليل ، حتى فى شعره النسبيى ، الذى يتسم لذلك بمسحة الحزن
والكتابة . ولشيرلى مقطوعة رائعة فى الموت سارت بعض أبياتها مسير
الأمثال ، وهى تطابق فى شتى المواضع معانى رباعيات الخيام . ومن أحسن
أشعار التأمل فى الموت فى الانجليزية قول كيئس ، وقد كان لطيف بنيته
ما يزال متمثلا شبح الموت : « حينما يخامرنى الخوف من أن أقضى قبل
أن أجنى ثمار عقلى الوافرة ، وقبل أن تحويها الكتب المكسنة كما تحوى

البيادر المحصول الناضج ، وحينما أشاهد على وجه الليل المرصع بالنجوم رموزا من الغمائم لرواية تجرى فى علو ، وأذكر أنى ربسا لا أعيش حتى أرسم ظلا لها بيد الالهام السحرية ، وحينما أشعر يا جميلتى الوشيكة المضى أنى لن أراك بعد ، ولن أنعم بتلك القوة الساحرة : قوة الحب الأعمى . عند ذلك أقف وحيدا على شاطئ الدنيا الرحبية ، وأفكر حتى يصير الحب والمجد هباء » .

وتمثلت رهبة الطبيعة لأدباء الانجليزية فى البحر وهياج أواذيه واصطخاب عواصفه ، واطراد ثورته وبعد غوره . ومن روائع آثار الشعراء فى هذا الصدد أبيات تنيسون التى نظمها وقد قصد البحر مفكرا مهموما ، يبغي العزاء عن فقد صديق له حميم ، ومنها قوله : « تكسر أيها البحر على صخورك الباردة الكالحة ، وطوبى لابن الصائد اذ يتصايح هو وأخته لاعبين ، وتمضى الجوارى المنشآت الى مرافئها بسفح التل . ولكن من لى أنا بمصافحة تلك اليد التى غابت ، وذلك الصوت الذى سكت » . واستعار شلى رجب البحر وشدة أسره وصرامة صروفه ، للتعبير عن صرامة الزمان وبطشه بالانسان . قال يخاطب الزمان : « أينما البحر الذى لا يسبر غوره ، والذى أمواجه السنون ، والذى غدت أواذيه أجاجا من ملح دموع الانسان ، والذى يطوى فى مده وجزره أطراف الانسانية ، ويبشيم من فرائسه وان يكن ما يزال يعوى طلبا لسواها فيلفظ بقاياها على شطوطه غير الكريمة ولا الوثيرة » .

واسترعت تفكير الأدباء أحوال المجتمعات التى رضيها الانسان لنفسه مقاما وما يداخلها من نقائص لا يخلو من بعضها مجتمع أو جيل ، وما فى بعض أنظمتها من تقييد للحريات وهضم لحقوق بعض الأفراد أو الطبقات ، فنددوا بتلك المساوىء ونادى بعضهم باصلاح تلك المفاسد التى تهبط بالانسان عن رتبته التى هو جدير بها فى الكون ، وتعرض سيره الى ما ينشده من كمال ، فكان منهم رادة حركات النهوض والاصلاح ، بل نادى بعضهم بفض المجتمع والعودة الى الطبيعة . وبمثل تلك الكتابات الاجتماعية تحفل كتابات فولتير وروسو . وقد كانت هذه النزعة ضئيلة المظهر فى الآداب القديمة ، أما فى الآداب الحديثة فهى تتعاطم وتشتد جيلا فجيلا . فالنقد الاجتماعى والحض على الاصلاح غرض حديث من أغراض الأدب يضارع غرضه القديم من التعبير عن الجمال والافصاح عن الشعور الفردى .

فالتفكير فى شأن الانسان ماضيه وحاضره ومستقبله من مميزات الانسان المتحضر المثقف ، وهو لا يكف عن هذا التفكير طوال حياته ، ولا تزال أشباح الماضى والمستقبل والحياة والموت ماثلة أمامه ، يكون لنفسه فى شأنها فلسفة تختلف عمقا واتساعا واقناعا وتختلف فى مدى قربها من اليقين والجزم ، أو قيامها على الشك والرفض . على أن هذا التفكير الانسانى يفرض نفسه فرضا شديدا على كل أديب أو كل مثقف أو كل انسان ، فى فترة خاصة من فترات حياته ، بل أزمة من أزمنة وجدانه ، يشتمد فيها تفكيره فى نفسه وبنى جنسه ، ويحفزه الى التساؤل والثورة على الحياة الانسانية حادث نفسانى يؤثر فيه أثرا عميقا : من ناحية أمل واخلق حب أو موت عزيز ، فتتسم آثار الأديب فى تلك الفترة بالتمرد والتشاؤم والكآبة ، وقد يحاول اصلاح العالم دفعة واحدة ويدعو الناس الى حياة جديدة تصور لها أحلامه ثم ما يلبث أن تخلف الحقائق المتحجرة ظنونه وتثبط هياجه وتروض جماحه ، فيعدل حياته بما يلائم ظروف الحياة الانسانية البطيئة التغير الوثيدة الخطى ، فتعود آثاره الادبية مشرقة بالبشر متغنية بمباهج الحياة بدل الامعان فى التفتيش عن معانيها ولسريان الحيوية فى دماء الشعب الانجليزى وغلبة التفاؤل على أمزجة أبنائه ، كان أدباؤه اذا راعتهم نقائص الحياة الانسانية وشروها . وأحزنهم ضعف الانسان وشقاؤه ، لم يلبثوا أن يتحولوا عن ذلك الجانب الأسود من الصورة الى جانبها الأبيض ، ويطلبوا العزاء بما فى الحياة من جمال عما فيها من قبح ، فيشيدون بمقدرة الانسان على الجلال وبراعته فى الابتكار ، وبطولته وماضيه الجافل بالعظام ، ويترنمون بمفاتيح الطبيعة وما يصيب الانسان عندها من رخاء وراحة بال ونفس ، ويطلبون السلوى قبل كل شئ بممارسة فنهم الذى صور تلك الحياة ويحكى حكاية تروى من نفوسهم ما لا ترويه الحقيقة الواقعة ، يصور آلامها تصويرا يخفف وقع تلك الآلام عن نفوسهم ، ويحكى مفاتها ونعمها التى فائتتهم حكاية تشفى صدورهم . فتمثيل الأديب للحياة فى فنه يشعره كأنما قد أحاط بتلك الحياة وتمكن من أعنتها ، ويكسبه ثقة بنفسه وإيمانا بقدرته على الابتداع والاتيان بجديد من عنده .

فتنيسون حين فقد صديقه الحميم سالف الذكر توفر على انشاء قصيدة طويلة فى ذكراه ، ولكنها لم تقتصر على ذكراه بل امتدت الى شتى نواحي الحياة وشملت نظراته العامة اليها ، وشكسبير حين مرت به أزمته النفسية الكبرى باخفاق آماله فى الحب والصدقة ، نفس عن صدره بمآسيه الكبرى ، وفيها لا نرى الانسان ألوبة عاجزة فى يد الأقدار ، بل نرى من آثار بطولته ما يملؤنا روعة ويبقى أمامنا نور الأمل ، ووردزورث

حيث تسددت أحلامه في المجتمع الانساني الفاضل الذي خال الثورة الفرنسية منجلية عنه ، مرت به غيمة قنوط عابسة لم يقشعها عنه الا تعزیه بمحاسن الطبيعه وقضاؤه الوقت متفينا ظلالها مصورا آثارها في شعره . وفي عبادة الجمال الطبيعي والانسان كان كيتس يجسد مفرع روحه مما يتكفنه من بأساء الحياة وما يمض عيشه من فتكات الدار .

ومن أبدع الأشعار التي تعرض جانبي الصورة ناصعهما وحالهما ، وتجسم ضعف الانسان وفناءه ، وتمجد قوته وعبقريته ، مقطوعة شلي المسماة « أوزيماندياس المصرى » وفيها يقول : « قابلت مسافرا من ارش قديمة قال : تقوم في الصحراء ساقان من الحجر ضخمتان عديمتا الجذع ، وقد ارتمى بجانبهما وجه مهشم يكاد يغور في الرمال ، تنطق تقطيعته وشفته المعوجة كبرياء وعظمة هادئة ، بأن المسال قد أجاد قراءة تلك الصفات التي ما تزال حية مطبوعة على ذلك الحطام الجامد ، وقد فنيت اليد التي صورتها والقلب الذي غذاها ، وقد لاحت على القاعدة هامة الكلمات : اسمى أوزيماندياس ، ملك الملوك . انظروا الى آثارى أيها الجبابرة وأقروا يائسين ، وليس بجانب ذلك شيء باق ، قد أحاطت بذلك الحطام الهائل المهدم رمال موحشة منبسطة جرداء تمتد الى ما لا نهاية » ، فهنا وصف شائق أخاذ لعظمة الملك وبراعة الفنان ، وتصوير رائع لسقوط الموت وبطشة الفناء .

وفي الأدب العربي نرى تزايد هذا الاهتمام بالانسان نشأته وأحواله ومصيره ، بتزايد حظ العرب من الحضارة والثقافة : ففي الأدب الجاهلي وفي صدر الاسلام لا نعثر الا بالأبيات المتفرقة يتأمل فيها الشاعر في ضعف الانسان وقصر حياته ، وتلاحق همومه ، واتصال آماله برغم ذلك ، وشدة اقباله على الحياة وتغاضيه عما وراءها . وفيما عدا تلك النظرات الخاطفة والمواعظ المعارضة ، لا يكثر الشعراء أنفسهم كثيرا بالتساؤل فيما كان وما سوف يكون ، بل لكل منهم شأن يعنيه من حاضره ، فمتنزل عاكف على هواء مترنم بليله ، ومفتخر يشيد بمجد نفسه ومكان قبيلته ، ومداح مجتهد في استندار صلات الأمراء ، وهجاء معين في اثخان غريبه . ومما أثر عن متقدمي الشعراء في التأمل في حال الانسان قول القائل :

منع البقاء تقلب الشمس وطلوعها من حيث لا تسمى

وقول الآخر :

آلا تسألان المرء ماذا يحاول ؟ أنحب فيقضى ؟ أم ضلال وباطل ؟

ويتزايد التفكير فى خلق الانسان وغايته كلما انتشر العلم والفلسفة : فنرى فى شعر بشار وأبى نواس وأبى تمام من آثار ذلك فوق ما نجد فى شعر الأخطل والشماع وجميل ، حتى يبلغ ذلك التفكير مداه بنضج العلوم والفلسفة فى القرنين الثالث والرابع ، ويبدو ذلك واضحا فى آثار شعراء العربية الكبار : ابن الرومى والمتنبى والشرىف والمعرى : لكل من هؤلاء فلسفة انسانية منثورة فى أنحاء شعره ، ونظرة الى الحياة تلائم طبعه ومذهبه : فابن الرومى يرى الحياة فرصة من الجمال الطبيعى والانسانى يجب أن تغتنم ، ومتعة للحس والروح يجب أن تباكر . والمعرى يرى حياة الناس شقاء وشرا متصلا . والشرىف يرى مثله الأعلى فى الفضيلة والمعالي . والمتنبى يرى الناس سواما يحرق فيهم القتل ويحق لمثله أن يسود فيهم ويعتلى ، فلسان حاله قوله :

ومن عرف الأيام معرفتى بها وبالناس روى رمحه غير راحم

كما أن جماع فلسفة المعرى قوله :

فأف لعصريهم : نهار وحندس وجنسى رجال منهم ونساء

والحق أن المعرى كان أشمل هؤلاء جميعا نظرة ، وأنفذ شعراء العربية جميعا فكرة ، وأشدهم شغلا بالحياة ، وعناء بأمر الانسان والأحياء عامة ، وتفكيراً فى ماضى الانسان ومستقبله ، وتبصرا فى أحوال مجتمعاته ودياناته ، وله فى كل ذلك من مستنير الأفكار المصبوبة فى جزل الألفاظ والأساليب ما ينزله أرفع مكانة بين الشعراء المفكرين ، على ما يشوب تفكيره فى أكثر مواضعه من مسحة التشاؤم القاتم المغرق الذى هو وليد عصره المضطرب ، وحياته الكثيبة ، وبنيتة السقيمة ، وأعصابه المرهقة . وفيما عدا المعرى نرى أدباء العربية عامة أقل عناء بشئون الانسان وشغلا بالحياة وغايتها من أدباء الانجليزية ، وهم أكثر منهم قبولا للحياة على علاقتها . ورغبة فى اغتنام متعتها والتغاضى عن سوائها ، وأقل تمردا ولجاجة فى الأزمات النفسية . والأديب العربى أكثر تحذرا عن نفسه . وعاداته وآدابه ولباناته منه عن الانسان عامة ، وهذه النزعة السمجة الراضية ترجع الى عوامل أهمها طيب المناخ الذى يبعث البشر والثقة ،

والايمان الدينى الذى بعثه الاسلام فى نفوس أبنائه وبثه فى مجتمعاتهم ،
والاسلام أكثر تغلغلا فى حياة معتنقيه وتسربا فى أرواحهم وتجسما فى
مظاهر مجتمعاتهم من غيره من الأديان . هذا الى أن الحكم المطلق لم يكن
يسمح للأدباء بنقد المجتمع والنظم نقدا جريئا ، وانما كان يروضهم على
الاندماج فى ظروف الحياة المحيطة بهم ، والتعود على اجتناء خيرها واتقاء
شرها ، كما قال الشاعر :

وان امرأ أمسى وأصبح سالما من الناس الا ما جنى لسعيد

فلم يكن أدباء العربية يطيلون الوقوف بمهامه الشكوك ومضايق
الأزمات النفسية ، بل سرعان ما كانوا يشيخون عما يطوف بهم من
خيالاتها علما بأن من أطال الفكر فى الحياة وغايتها ، والانسان ومصيره ،
أقامه الفكر بين العجز والنصب ، كما قال المتنبي ، وحين كانت تطيف بهم
تلك الحالات النفسية العابسة ، ويشير شجونهم وجزعهم ما يلاحظون فى
حياة الانسان ومجتمعه من نقص وشر ، لم يكونوا يتأسسون كما يتأسى
شعراء الانجليزية بمحاسن الطبيعة ، فقلما أعاروا محاسنها التفاتا ، كما
أنهم قلما اكثرثوا لفجائعها وأحوالها ، ولو كانوا يتعزون بذكر البطولة
الانسانية ، فما يكاد يكون لها فى آدابهم أثر ، أو بتاريخ الأمم العظيمة ،
فما كانوا يذكرن من أمرها الا غرور مشيديها وتقويض الزمان لأركانها ،
ولا بالتأمل فى مخلفات فنون تلك الأمم ، فما كانت توحى اليهم الا بضعف
الانسان وبطلان مساعيه . وقد التفت المتنبي الى شرقى الامبراطورية
الاسلامية المترامية فقال :

أين الأكاسرة الجبابرة الألى كنزوا الكنوز فما بقين ولا بقوا
من كل من ضاق الفضاء بجيشه حتى ثوى فحواء لحد ضيق

والتفت الى غربيها فقال :

أين الذى الهرمان من بنيانه ؟ ما قومه ؟ ما يومه ؟ ما المصرع ؟
تتخلف الآثار عن أصحابها حينما ويدركها الفناء فتتبع

انما كان أدباء العربية اذا جزعوا لضعف الانسان وقصر مدته وشرور
مجتمعه ، يجدون مفرزهم من الحزن والقنوط فى « الفضيلة الاجتماعية » :
فى الأخلاق القوية التى تكسب الانسان حسن الأحداث الموروثة حجبها عن

العرب الأقدمين ، وتنجيهِ من شرور المجتمع الذى لا يد له باصلاحه ، والذى لا تنال شروره عادة الا من يستهدف لها بسوء فعله ، وتكسبه رضى ربه وتضمن له عقبى الدار . ومن ثم زخر الأدب العربى بروائع الحكم ونبيل التمدح بمكارم الأخلاق ، وهذا باب من أشرف أبواب الأدب العربى وبه يمتاز على غيره ، ومن محاسن ما فيه من ذلك قول اياس بن القائف :

إذا زرت أرضاً بعد طول اجتنابها فقدت صديقى والبلاد كما هيا
فاكرم أخاك الدهر ما دمتما معا كفى بالممات فرقة وتناهي

وقول الشريف :

لغير العلا منى القلى والتجنب
ولولا العلا ما كنت فى العيش أرغب
غرائب آداب حبانى بحفظها
زمانى ، وصرف الدهر نعم المؤدب

فالعرب كانوا منذ جاهليتهم أمة اجتماعية ذات ميل غريب الى الاجتماع ، وفضيلة اجتماعية أصيلة ، واستعداد متمكن للتحضر والتعاون ، وأن يكونوا أمة مصلحة ، يأنسون بالاجتماع ويتفاخرون بحسن الجوار وسيادة العشيرة وخدمتها معا ، ويشغلون بمتعات تلك الحياة الاجتماعية عن طول الندب لنقائص الحياة وشوائبها ، وطول التشكك والتحير فى منشأ الكون ومنتهاه ، وميلهم الطبيعى ذاك واضح الأثر فى شعر شعرائهم . وفضيلتهم الاجتماعية تلك هى مرجع ازدهار العمران فى كل بلد وطئوه ، حالما وطئوه ، على حين نشر الاغريق الخراب فى شرق البحر الأبيض حين هبطوه ، واستغرقوا قرونا طويلة فى الاستقرار وتثرب الحضارة .

التفأول والتشاؤم

فى الأدبين العربى والانجليزى

حب الحياة كائن فى طبيعة كل حى ، والرضى بها والاطمئنان اليها والاقبال عليها شيمة جميع الأحياء ما دامت بنياتهم صحيحة وحاجاتهم حاضرة ، والمرح واللعب غايتهم الأخيرة ما دامت غرائزهم مقضية اللبانات مشبعة المطالب . ولما كان الانسان يمتاز بالخيال والفكر فان له مطالب نفسية غير مطالب جسده الغريزية ، يرضى ويرتاح اذا قضاه ، ويقنط ويكتئب اذا أخطأها ، وليس يشكو الحى أو يألم ، وليس يسخط الانسان أو ينقم ، الا أن يغدو وهو سقيم الجسم أو محروم الغريزة أو ممنوع المطالب . فحب الحياة والاقبال عليها والرضى عنها هى الحال الطبيعية العادية ، وذم الحياة والعزوف عنها والسخط عليها حال طارئة استثنائية ، نتيجة لامتناع وسائلها وعدم مواتاة أسبابها .

فالمتشائمون قوم قسيت الحياة عليهم فحرمتهم قليلا أو كثيرا مما حبت به سواهم ، فثاروا عليها وكالوا لها قسوة بقسوة ، وجزوها على حيفها بمرير الذم والتفنيد ، فلسنا نرى بين المتشائمين الزارين على الحياة والأحياء رجلا صحيح البدن معتدل المزاج مجدودا واثقا بنفسه ، بل كلهم ممن أكسبتهم الورثة والنشأة والبيئة أجساما معتدلة أو أعصابا مختلة ، أو ألحت عليهم الخطوب فحطمت مساعيهم . أو اقتنعوا بعجزهم عن مصاولة الأحياء فى ميدان الحياة ، فأورثهم ذلك حسا مرهفا متيقظا الى مواطن الشر والقسوة والنقص فى الحياة ، فقعدها يبرون لها وللمقبلين عليها السهام .

وفى الحياة مواطن للنقص لا تحصى ، يهتدى اليها الناقمون عليها بلا عناء ، وهى تعرض مثالبها عليهم وتضع أصابعهم على نقائصها ، بيد أن المتفائل المعافى الجسم الناجع المسعى قلما يلتفت الى تلك المساوىء ، واذا التفت اليها فبرهة قصيرة يأسى فيها ويعتبر ، ثم يعود الى ما كان فيه من استمراء لمتعات الحياة واجتلاء لمفاتها ، متعزيا بهذه المفساتن والمتعات عن تلك النقائص والمقايح ، باذلا جهده لتوفير السعادة لنفسه ولن حوله ، ومحدو ما يستطيع من أسباب الشقاء ، على حين يظل المتشائم

امام ما يروعه من مساوئ الحياة قائما ، لا يريد أن يحول بصره الى سواها ، بل يهول تلك المساوئ كما يسول له حسه المرهف وخياله المغرق .

والادباء وغيرهم من رجال الفنون عادة أرهف حسا وأبعد خيالا ممن عداهم ، وما من أديب الا تتجسم له مقابح الحياة جهمة مقرزة في فترة من فترات حياته ، فتعاقبها نفسه ، وينقم عليها وعلى نفسه وعلى الأحياء جميعا ، فاما من كان متفائلا بطبعه معتزا بنفسه واثقا من قدرته على خوض وغى الحياة ، فسرعان ما يخرج من تلك الغمة وتنتصر فيه دفعة الحياة القاهرة ، فيلتفت الى ما بالحياة من مباهج بجانب ما بها من مأس ، ويطلب العزاء ببعض تلك عن بعض هذه ، ويستن لنفسه مثلا أعلى جديدا في الحياة ، وأما المتشائم المحس بوطأة الحياة الثقيلة على جسمه المتعب وأعصابه المنهوكة ونفسه الخائرة ، فيرفض كل عزاء ويأبى كل ايمان ويسخر من كل مثل أعلى .

فالفرق الرئيسى بين المتفائل والمتشائم هو أن الاول يرضى العزاء والثانى يرفضه ، والاول يؤمن بمثل أعلى والثانى يأبى الايمان بشئ ، فالمتشائم يرفض الدين فيما يرفض ، فالتشاؤم والدين ضدان لا يلتقيان : التشاؤم ازراء بالحياة وانكار لجدواها وتحقير لأبنائها ، والدين يبشر بجدوى الحياة الصالحة ويبث العزاء فى النفوس عن آلام الحياة . وما كانت الديانات الاولى كديانات المصريين والفرس الا محاولة حاول بها الانسان أن يفسر ما راعه من تجاور قوى الخير والشر فى الحياة ، وأن يتعزى بجانب الخير عن جانب الشر منها ، أما والتشاؤم هو فقد الايمان بالحياة ورفض العزاء عن شروها ، فالتشاؤم والدين نقيضان ، ولا ترى متشائما الا يسر الانكار للدين أو يعلنه ، ولا مؤمنا معتصما بدينه قد هوى فى لهوات التشاؤم .

وليس فقد الايمان بالحياة ومثلها العليا — أو التشاؤم — ينتهى بصاحبه فى كل حالة الى الاسراف فى رفضها واعتزالها ، بل هو ربما اذى الى اسراف مناقض لهذا : اسراف فى انتهاب لذاتها القريبة واشباح الغرائز النهمة منها ، تناسيا لمنغصاتنا وتخلصا من لذعات التفكير فى نقائصها ، فالمتشائمون المعتزلون للحياة الناقمون على الأحياء الساخرون من المجتمع ، والمتشائمون المستهترون بالذات المتهمكون بتقاليد المجتمع وأخلاقه ، الخارجون على عرفه المصادمون له فى عقائده ، أولئك وهؤلاء سيان فى التشاؤم ورفض الايمان والعزاء النفسى ، أو قل هما طرفان

متباعداً بينهما الوسط الذي يحتله المتفائلون الراضون بالحياة على
علاقتها ، المتسبلون بنعمائها عن بأسائها في قصد واعتدال ، المتشبهون
ببعض مثلها العليا .

على أن المتشائمين أنفسهم لا يخلون من عزاء وإن توهموا سوى
ذلك ، وأشهدهم أمعاً في التشاؤم لا ينضب من نفسه حب الحياة ،
وعزاء أكثرهم هو ذلك الفن الذي يزاوونه ، هو أدبهم الذي يودعونه
فلسفتهم المتشائمة وخطراتهم القائمة ، ففي كتابة أفكارهم تلك راحة
لنفوسهم المعذبة وشقاء لغرائزهم الظائمة ، ولولا أنهم ما يزالون يحبون
الحياة في صميم أفئدتهم ، على رغم إعلانهم الحرب عليها ، لما لبثوا
يساحتها ، ولو أنهم يزدرونها ويزدرون أبناءها بقدر ما يزعمون ، لما
حفلوا بتدوين آرائهم فيها وعرض تلك الآراء على أبنائها ، ففلسفتهم
المتشائمة تناقض نفسها بنفسها .

فاذا كانت فلسفة تصدق أو تفسير للحياة يقبل ، فليست فلسفة
المتشائمين بالتى ترجح وتفسر الحياة ، وليست رسالتهم التى يؤدونها
الى الانسانية بالتى تقبل ، لأن فلسفتهم كما تقدم تناقض نفسها ،
وتناقض طبيعة الحياة التى بثت حبها فى جبال أبنائها ، ومهدت من
متعاتها ما يرجح شوائبها ، وزودت بينها بالسلاح اللازم لهيجائها ليست
فلسفة المتشائمين بالمقبولة فى جملتها ، وإن احتوت فى أطوائها من صائب
النظرات وبيدع اللغات وآثار الفكاهة والسخر والوصف والتحليل
ما يمتاز به أصحاب ذلك المزاج ، وما يهديهم اليه حسهم المرهف المستوفر
وخيالهم المتيقظ المسترسل .

وفلسفات المتشائمين فى مختلف الأمم والأجيال متماثلة ، ومواضيعهم
مقاربة : اسباب فى شرح مظاهر تنازع البقاء ، وإطباب فى ذكر لئيم
الطباع فى الأحياء وفى الانسان خاصة ، وإصرار على تذكر الموت وكروار
الزمن وحلول الليل ، وتهويل لضعف الانسان إزاء جبروت القدر ، وتصوير
لنفاق المجتمع وجور أنظمتة ، وتحقير للمرأة وموازنة بينها وبين الحياة ،
وآراؤهم فى كل ذلك مردها الى اضطراب تكوينهم وتزعزع ثقتهم بأنفسهم
وحرمانهم من شتى مطالب الحياة ، فلسفة المتشائمين لا تدلنا على حقائق
الحياة والكون ، بمقدار ما تدلنا على نفوس أصحابها وأمزجتهم وعوامل
تكوين أذهانهم .

فهم يجزعون لمراى تنازع البقاء لاحساسهم بأنهم عزل ضعفاء ، وينحون على المجتمع يقوارع الكلم لأنهم عاجزون عن الانغمار فيه ونيل الخطوة والصدارة به ، ويذكرون الناس بالموت والدثور لأن الناس يتمتعون دونهم بالطيبات ، فهم يسلون أنفسهم بتكرار القول بأن تلك الطيبات عما قليل ذاهبة ، ويخوفون الناس بجبروت القدر لأن غيرهم يتمتعون بالقوة والاقتدار ، فهم يلوحون أمام أعينهم بالقدر الذى يتلاعب بهم ويضحك من تدبيرهم ، ويرمون المرأة بالغدر والتقلب لأنها تقي لغيرهم ، ويجسأهرونها بازدرائهم اياها ، لأنهم يسرون الاحساس بازدرائها اياهم واعراضها عنهم .

ولما كان مرد المزاج السوداوى المتشائم الى عوامل فردية محض ، من وراثية أو بيئة ، يظهر المتشائمون فى شتى الأمم والأجيال متفرقين لا اتصال بينهم من مدرسة أو مذهب ، على أن مسحة التشاؤم تغطي عادة فى آداب عصور الادبار السياسى والضيق الاقتصادى والفوضى الخلقية ، فيسود الشك والرفض والتهكم المرير ، كما كان الشأن فى الأدب الروسى تحت الحكم القيصرى ، كما أن صبغة الايمان والبشر والتفاؤل تغلب فى تصور الرخاء والنجاح والمغامرة ، وهى الصبغة التى سادت الأدب الاغريقى فى عصره الذهبى عقب الانتصار على الفرس . فلما تلا ذلك عهد الادبار ظهر السخر والسك ومذاهب الرفض والاعتزال من جهة ، ومذاهب الاستهتار والاباحية من جهة أخرى .

ولعل أشد أدباء الانجليزية تكبرا على الانسان وتهكما بمساعيه وتهويها لشأنه هو جوناثان سويفت ، وهو أديب نشأ نشأة ضنكة مقلقة ، ولازمه داء فى أذنه جشمه آلاما مبرحة ، وما زال حتى طفى على عقله فى أواخر حياته ، وحالف الاخفاق مظامحه السياسية وصاحب النحس غرامه ، فلم يبق له الا الانزواء فى عزلته ببعض بلدان ايرلندة ، والا أن يقول لبعض أصحابه انه يمقت ذلك الحيوان المسمى الانسان من أعماق قلبه ، وما ذاك الا لما كابد من عنت الظروف والأمراض ولدد الخصومات وغصص الاخفاق ، وهو الذى كان فيما عدا ذلك من أوفى الناس عهدا وأصفاهم ودا ، وهو الذى عطف على الايرلنديين ودافع عنهم ، على حين ناصبهم من قبل ذلك مواطنه وزمبله فى حرفة الأدب ادموند سبنسر . وكتاب سويفت « رحلات جليفر » على ما به من سلاسة وفكاهة وبراعة تصوير ، مملوء بالسخر المرير من الانسانية .

وزعيم التشاؤم فى العصر الحديث توماس هاردى ، الذى كانت اشباح الموت والبلى والقدر لا تبرح ناظريه ، وكان لا يمل تكرار موضوعه

انوحيد فى شئى قصائده وقصصه : موضوع ضعف الانسان وقلة حيلته وعبت مسعاه ، حيال ضربات القدر الأعمى ، ودوران رحى الزمن المطحون ، وكان دائما يتعنن فى اختراع المواقف المفجعة والظروف المنحوسة ، ينفذ مشاهدتها فى المقابر والبرارى وفى الأيام الداجنة الكالحة ، ويطيّف أشخاص روايته بين الموتى ، وينطق الموتى فى أشعاره ، ويغالى فى تصوير فجائع الحب : بين الغدر والسلو والنسيان والغيرة وجفاف الجمال : فأشعاره لا تكاد تنتقل بك من غمة الى غمة ، ولا من محنة للانسان الا الى انتصار وخشى للأقدار عليه .

ومعاصره أو خليفته فى هذه النظرة المتشائمة الى نصيب الانسانية فى الحياة هو هاوسمان ، الذى كان يحاكيه كثيرا فى اختيار مواضيعه وطريقة معالجتها وإجرائه الحديث فيها بين الأحياء والأموات ، ومن نماذج ذلك الضرب من شعر التشاؤم قوله : « - أما برحت خيلى تحرث الأرض كعهدي بها ، اذ أنا حى أسوقها وأسمع صليل شكائهما - ؟ بلى ما تزال تنقل خطاها وشكائهما تصل ، ولم يتغير شيء برغم أنك قد رقدت تحت الأرض التى كنت من قبل تحرثها - أو ما تزال الكرة تتراعى ويتسابق خلفها الرفاق على شاطئ النهر ، وإن أك لا أستطيع اليوم نهوضا ؟ - نعم تتراعى الكرة بينهم وكلهم باذل فى اللعب جهده ، وذلك مرماهم قائما وحارسه لا يننى - وفتاتى التى شق على فراقها ، أسئمت البكاء واستطابت طعم الغمض ؟ - نعم هى ناعمة فى خدرها ، فتم أنت وقر - وهل صديقى صحيح معافى وقد نعلت أنا وبليت ؟ وهل وجد بعد فراشى فراشا وثيرا ؟ - أجل أنا يا صاح لى ضجعة كأروح ما يشتهي الفتى : أسلى حبيبة رجل قضى ، ولا تسألنى حبيبة من » .

ومن أمثلة الوراثة المختلة والمزاج السوداوى فى تاريخ الأدب الانجليزى كوبر وبيرون : كلاهما كان مضطرب التكوين اضطرابا أدى الى ظهور الغرابة فى مسلكيهما وأدبيتهما . على أنها رغم اتفاقهما فى ذلك كانا يختلفان ثقة بالنفس : كان أولهما ضعيفا متناهيا فى الخجل ، وكان الثانى مفرطا فى الزهو والاعتداد بمواهبه ونسبه ، ففنع كوبر بحياة العزلة ولم يعلن على الناس حربا ، وإن ظهرت أعراض التشاؤم فى كثير من شعره ، أما بيرون فصادم المجتمع بمسلكه الخلقى كما هاجمه فى شعره ، ولما لفظه المجتمع الانجليزى زاد عتوا وجرأة ، وتحديا لخصومه وتشفيا من مؤيدى النظم الاجتماعية التى كان يمتقتها . هذا فضلا عما حفلت به آثاره عامة من تصوير لضعف الانسان وقصر مدته وعبت جهوده .

ورمز التشاؤم في العربية هو ولا شك المعري ، الذي اجتمع عليه من أسباب التشاؤم ما لم يجتمع على غيره : من اعتلال التكوين الجسمي ، واختلال الصحة ، والحرمان من شتى اللذات ، واضطراب العصر الذي عاش فيه ، فجاءت فلسفته مثالا نادرا لفلسفات المفكرين المتشائمين : حقر الانسان ، وأنذر ببطش الأقدار ، وذكر بالموت ، وشك في الدين ، وأزرى بالمرأة ، وندد بالمجتمع ، وفند الحكام ، وأطنب في تنازع البقاء ، ورثى مع ذلك للانسان ورأف بالحيوان ، وضاق بنفسه كما ضاق بغيره وحرم على نفسه اللذات وعاش نباتيا ومات عزبا لم يحن على أحد ، وعبر عن نظراته النافذة الحكيمة التي سبق بها عصره ، تعبيرا شعريا عربيا جزلا ممتعا ، وكان صادقا صريحا : اعترف بأنه لم يختر تلك الحياتة الضنكة الا لأن سواها قد شآء ، فهو القائل :

ولم أرغب عن اللذات الا لأن خيارها عني خسنه

فقد كان لدقة حسه شديد الحرص على كرامته ، شديد التوقى لمواطن السخر والزراية ، فكان ذلك حائلا بينه وبين ما تصبو اليه غرائزه من متعات ، وكانت حياته معركة طويلة قائمة داخل نفسه ، بين الرغبة في الاستمتاع بطيبات الحياة والاصرار على رفضها ، لاستعصاء سبلها على الكفيف المجذور ، الا أن يبيح كرامته ويهدر حياته . وما أطار خياله الى طيبات الفردوس الا حرمانه من طيبات الحياة وطول نزوع نفسه اليها . وما كان وصفه لمتعات الخلد الا ارضاء لشهواته المخمدة تحت رماد التوقر والتقشف . وما كان تأليفه رسالة الغفران أو اتخاذه الخلد مسرحا لها الا تنفيسا عن مكتوم نوازعه ، وبفضل هذه النوازع المكبوتة خلف المعري الكفيف أثرا من آثار الخيال فريدا في اللغة ، كان المبصرون من أدباء العربية منصرفين عن مثله .

والمعري نسيج وحده في التشاؤم في العربية ، يرفع راية الزفر، للحياة والاعتزال لها والازراء عليها ، ويمارس في حياته ما ينادى به في أشعاره ، ولا ينضوى تحت تلك الراية سواه : انما كانت غالبية المتشائمين في العربية الذين نبذوا الايمان ورفضوا العزاء وهانت عليهم الحياة فلم يجدوها أهلا لسعي ولا لحفاوة ، هم طائفة المتشائمين المستهترين ، الذين ظهروا حين طغت تيارات الترف المادية والشكوك ، على المجتمع والعقائد في العهد العباسي كبشار وأصحابه ، وأبى نواس وأضرابه ، أولئك ساقهم تفكيرهم الى تصغير الحياة وما يقدر الناس من مثلها العليا ، فلم ينبذوا الحياة جملة بل راحوا يطفئون غليل نفوسهم المتحرقة في لذات الحياة

الدنيا ، ويشبعون غرائزهم الحيوانية متهمين بما عدا ذلك مما يسميه المجتمع فضائل وعظائم وعقائد . وأبو نواس هو القائل :

وما هنأتك الملهي بمثل اماتة مجسد واحياء عار

والقائل :

قلت والكأس على كفى تهوى للتشامى :

أنا لا أعرف ذاك اليوم فى ذاك الزحام

وإنما حرصهم على سلوك تلك السبيل ما كان يسود عصرهم من حرية تقرب من الإباحية ، وما كان يسود المجتمع العربى دائما من صراحة لا نظير لها فى المجتمع الانجليزى ، حيث التقاليد الاجتماعية شديدة الصرامة ، فعلى حين كان يتأتى لبشار وأبى نواس وأضرابهما أن يباشروا وهم معافون حياة الاستهتار التى باشروها ، ويتحكموا بعقائد غيرهم ما شاءوا ، ويترنموا بمخازيهم شعرا ، نرى يرون الذى لم يجر الى مداهم يلفظ من المجتمع الانجليزى الذى بجله من قبل لشعره وحسبه .

وحياة المعرى وبشار موضع لموازنة ممتعة : كلاهما عاش كفيفا ، أى مكفوفاً الى مدى بعيد عن كثير من مسرات الحياة ومتعات المبصرين ، فخلقت فيهما تلك الحال وحشة وشذوذا وزرابة على الحياة والأحياء ، ولكن المعرى كان دقيق الحس مرهف الأعصاب ضعيف البنية ، فنفض يده من الحياة ونجا بالسلامة والكرامة ، وبشار كان مفرط الجسم متنزى الحيوانية مضطرم الشهوة ، فأكب على اشباع شهواته مستهدفاً لزراية الآخرين وتهكمهم ، وشهر عليهم سوط لسانه المقدع ، كما يشرع السبع المنهمك فى تمزيق فريسته مخلبه لذب غيره من السباع عنها .

تلك مظاهر التشاؤم ، أو فقه الايمان بسمو الحياة والعزاء النفسى عن شوائبها ، فى الأدبين العربى والانجليزى ، وفيما عدا ذلك كان أقطاب الأدبين - لما يتدفق فى شرايينهم وشرايين أمتيهم من دفقة الحياة - متفائلين متشبهين بأهداب المثل العليا التى ترضاهم لهم طبائعهم وبيئاتهم ، يغبر لهم وجه الحياة حيناً فيبدو أثر ذلك عابسا فى آثارهم ، ثم يجنحون الى التعزى والايمان : فملتون فى الانجليزية مثلاً على فرط ما لاقى من خذلان فى حياته الفردية والعامة وما حل به من فقدان البصر ، ظل وطيد الايمان متطلبا للعزاء الى منتهى حياته ، وكتب ملاحمه فى أواخر أيامه طلباً للترفيه

عن نفسه ولكى « يبرر للناس أعمال الله » ، والمتنبى فى العربية رغم ما أصاب من اخفاق متوال فى مطلب حياته الاسمى ، الذى « جل أن يسمى » ، ورغم ما كابد من حسد وكيد وعداوة ، وما صب على الناس من قوارص كلمه ، ظل أبدا « من نفسه الكبيرة فى جيش وفى كبرياء ذى سلطان » ، متدعرا متأهبا للجلاد .

وان يكن هناك مجال للمقابلة ، فالأدب العربى لا شك أكثر اصطباغا بالتفاؤل والايمان ، على كثرة ما به من الشكوى ، والأدب الانجليزى أحفل منه بآثار التشاؤم ، ولا سيما فى العصور الحديثة التى زادت الحياة فيها تعقدا ووطأة ، وانما يبت ذلك التفاؤل فى المجتمع والأدب العربيين أمران : صحو الجو الذى يعدل المزاج ويبعث البشر والطلاقة ، والدين الاسلامى الذى يبت الايمان فى النفوس ويحض على اجتلاء متع الحياة التى أحل الله ، والذى هو كما تقدم القول أكثر تغلغلا فى سرائر معتنقيه ، وشمولا لجوانب حياتهم من غيره من الأديان .

البطولة

فى الآدين العربى والانجليزى

البطل فرد يمتاز عن غيره من أفراد مجتمعه بمواهب عقلية أو خلقية أو جسدية ، يظهر بها بينهم وينال من أجلها اجلالهم ويبذلها فى خدمتهم ويتولى قيادتهم فى معترك الحياة ردحا من الزمن ، ويترك فى تاريخهم أثرا يطول فى عهده أو يقصر ، فالبطل لا يكون الا فى مجتمع ، وهو عادة نموذج لصفات أبناء ذلك المجتمع ومثل أعلى لنوع حياتهم ، ومواهبه اجابة لمطالب ذلك المجتمع وحاجاته فى فترة من الزمن ، فالأمة المحاربة اذا كانت الحياة تجرى فى عروقها قوية وتتمتع بالصفات اللازمة للبقاء ينبغ فيها القائد ، والأمة الشاكة الحيرى يظهر فيها النبى ، والشعب الذى يشكو فساد أنظمتة الاجتماعية يقوم فيه المصلح .

والأمة المتبدية الساذجة التى لم تستقر بعد ولم تبرح حياتها سلسلة متواصلة من الحروب ، لا يكاد يظهر فيها من أنواع البطولة الا القواد البسلاء ، الذين يقودونها فى مهاجراتها ومعارباتها لجيرانها ، ويبدون من ضروب الشجاعة ويفتقون من أفانين الحيلة والرأى والمكيدة ما يبلغون به الفرصة فى أعدائها ، ولأولئك الأبطال فى تلك الجماعات مكانة لا تطاول وأثر لا يبارى وكلمة لا ترد ، وإن أحدهم ليغنى غناء الجحافل ، ويعدل بين قوله ما لا تعدل الآلاف ، ولا غرو : فالحروب فى أمثال تلك العهود أكثرها مصاولات فردية ، وتسمى تلك العهود لذلك عصور الأبطال .

وفضلا عما يناله البطل فى عصره من تهجيل وتقدير ، فانه اذا ما مات وخلا مكانه وافتقد مثاله ، زاد ذكره ارتفاعا وزاد ذاكروه مبالغة فى تعظيم آثاره وتصوير وقائعه وتخيل صفاته ومواهبه ، وما يزال جيل يزايد على جيل حتى تقوم حول بعض الأبطال أقاصيص طويلة السرد ، تنطوى على شىء من الحقيقة الأولى ويتكون أغلبها من صنعة الخيال ومما تصبو اليه النفس الانسانية دائما ، من أمثلة القوة والشهامة والنجدة والغلب وحماية الذمار ، وما تنفق دائما الى تصوره من روائع المشاهدات ، وجسم الوقائع ، بل كانت بعض المجتمعات البدائية تغالى فترتفع بأبطالها الى

مصاف الآلهة • كما فعل أوائل قدماء المصريين بأوزيريس وأخته وابنه ،
وكما فعل أوائل الاسكندناويين ببطلهم أودين ، أو الى مراتب أنصاف
الآلهة كما فعل الاغريق القدماء بأبطالهم •

وإذا ما استقرت الأمة وتحضرت ، وجنحت الى السلم ولم تعد الحرب
هى الحالة الطبيعية العادية التى تعيش فى ظلها ، تغيرت حالها الاجتماعية
وضوئت مكانة أبطال الحرب وحكام وأرباب علم وفن ، وهبطت قيمة
القائد فى الجيش قليلا فلم يعد هو وحده المهيمن على مصائر الحرب ، بل
صار للعدد والنظام والسلاح وغير ذلك حساب كبير ، وبطل تصديق
المتعلمين بوقائع الأقايسى المتخلفة عن عصور الأبطال ، ولكن البطولة
على صورة من الصور خالدة ، وعبادة الناس فى كل العصور لها قائمة ،
بل ان احتفاء الأمة بأبطالها من أبرز دلائل حيويتها ، كما أن من دلائل
حيويتها حفول تاريخها بأسمائهم ، بل يغالى كارليل ويزعم أن تاريخ
الأمة هو تاريخ أبطالها ، وتاريخ العالم ان هو الا سير الأبطال •

وتلك الأقايسى المتخلفة عن عصور الأبطال اذا فقدت اعتقاد الناس
بصدق كثير مما فيها فما فقدت الا هينا يسيرا ، ولن تفقد ما يعجز به من
روائع الأوصاف وبدائع الصور وممتع الأخيلة وشائق المواقف والوقائع ،
والعرض الصادق لأحوال المجتمعات المتخلفة عنها تلك الآثار ، والتأمل فى
طبائع الانسان ومذاهبه فى الحياة ، فتظل تلك الأقايسى تحفظ
لنفاسها ، وتظل كنزا ثميننا لقرائح الأدباء وأخيلتهم ، يطيب لهم الهيام
فى عالمها البعيد ، واجراء أفكارهم على السنة أشخاصها العظماء ،
واستعارة وقائعها وتشاهدها فى التمثيل لوقائع عصورهم وأحداثها ،
وابراز معانيهم وأغراضهم بالاشارة الى حوادثها وملابساتها ، وخير مثال
لكل ذلك عصر الأبطال فى بلاد الاغريق :

فعصر الأبطال فى بلاد الاغريق ، الذى امتد زمن استقرارهم فى
شرق البحر الأبيض وتشربهم حضارته ، هو أشهر عصور الأبطال وأسيرها
ذكرا ، لأن أشعار هوميروس قد خلدت روائع الصور لأحواله وعظائم
أبطاله ، وبدائع الأوصاف الشاملة لمعتقدات القوم وتصورهم لآلهتهم ،
حتى اذا ما انقضى ذلك العصر وبرزت اليونان فى عالم التاريخ الواضح
وطلعت فى عصرها الذهبى وحلت الفلسفة محل الخرافة ، وبطل الاعتقاد
بكثير من أخبار الياذة والأوديسة ، اتخذت أشعار الملاحم تلك مادة لضرب
جديد من الأدب هو الدراما ، التى ظهرت لتسد من حاجة ذلك العصر ما لم

يعد يسده شعر الملاحم الذى يلتفت الى الماضى ويتوفر عليه ، ولا يعير
الحاضر التفاتا •

وكلتا الأمتين العربية والانجليزية قد مرت فى استقرارها وتحضرها
بعصر أبطال ترك أثره فى أدبها : وعصر الأبطال فى التاريخ العربى هو
عهد الجاهلية الذى انتهى بظهور الاسلام وظهور الأمة العربية فى ضوء
التاريخ المستيقن ، فالجاهلية العربية شديدة الشبه بالعصر الهوميرى :
فيه كانت الأمة منقسمة على نفسها لا تفتر عن القتال ، ولا يزال يظهر
فيها من الأبطال أمثال عنتره ومهلل ودريد بن الصمة ، ولا تزال تتحدث
بأيام المواقع وتتفاخر وتتفاخر كما تفاخر أبطال الحروب الطروادية ،
ولولا أن الاسلام وضع حدا فجائيا لذلك العصر ، لما بعد أن تتجمع أشعاره
وأقاصيصه فى ملحمة أو ملاحم كبرى ، وكان العرب على تفرقهم يشعرون
بوحدهم فى الجنس واللغة ويجمعون فى مواسم الحج وأسواق التجارة
والأدب ، كما كان اليونان يجمعون فى دلفى وأوليمبيا ، وكما كان اليونان
يزدرون غيرهم ويلقبونهم بالبرابرة كذلك كان العرب يعتدون بعربيتهم
ويلقبون غيرهم بالأعاجم ، ولم يفتهم أن يجمعوا شملهم تحت لواء العربية
لدفاع الفرس فى موقعة ذى قار ، كما فعل الاغريق من قبل اذ تجمعوا
بزعامه أثينا لرد عادية الفرس أيضا ، وفى موقعة ذى قار يقول الأعشى :
لما أمالوا الى الشباب أيديهم ملنا ببيض فظل الهام يقتطف
وخيل بكر فما تنفك تطحنهم حتى تولوا وكاد اليوم ينتصف

ومر الإنجليز بمثل ذلك العصر فى عهد استقرارهم فى الجزيرة ،
وأهم الآثار الأدبية المتخلفة عن ذلك العصر ملحمة بيولف ، التى تصف
كيف تغلب أمير انجليزى على وحش هائل أقض مضاجع الناس فى ذلك
العصر فى التاريخ الانجليزى شديد الغموض ، ولغموضه ذاك ردت اليه
خرافات لعلها لم تكن منه فى شيء كقصص الملك آرثر وفرسان مائده
المستديرة ، وهى قصة قد نالت من احتفال أدباء الانجليزية ما لم تنله قصة
بيولف ، لسداجة هذه وشدة امتاع تلك ، واحتوائها على كثير من تقاليد
العصور الوسطى وأنظمة فروسيتهام ومغامراتها •

ولما ظهر الأدب الانجليزى الحديث ، بعد انتشار الحضارة والعلم ،
اتخذ الشعراء والروائيون من تراث العصر السابق مادة لخيالهم ، ولم
يكتفوا بذلك بل استعاروا خرافات عصر الأبطال الاغريقى مضافا اليها

تاريخ الاغريق والرومان ، بما انطوى عليه ذلك التاريخ من سير الأبطال ، فحفل الأدب الانجليزى بذكر البطولة وتمجيد الأبطال ، سيان انجليزهم وأجنبيهم ، تاريخيهم وخرافيهم ، عجت بذكر هؤلاء وأولئك روايات شكسبير ، وتفنن سبنسر وتينيسون فى سرد قصص آرثر وفرسانه ، واستعار شلى أبطال اليونان وآلهتهم لبعض مواضعه ، كما فى قصيدته « بروميشيوس المقيد » ، ولم يأل سكوت جهدا فى تصوير بطولة القرون الوسطى فى قصصه .

تناول الادباء سير اولئك الأبطال بالدراسة الفنية لشتى الأسباب : لما ركب فى الطبع الانسانى من عبادة الأبطال والشغف بحديثهم ، ولما يضيفه مجدهم وبأسهم على الموضوع المتناول من عظمة وجلال ، ولما يبعثه حديثهم فى النفس من تسام وصبو الى المثل الأعلى ، وما يبعثه ذكر أبطال الوطن فى نفوس أبنائه من فخر وثقة : فلعبادة البطولة فى اطلاقها وتمجيد العظمة الانسانية فى عمومها تناول شكسبير سير قيصر وبروتس وكريولانس وعطيل بالوصف ، وكتب ماثيو أرنولد قصيدته الطويلة سمهراب ورستم ، ولتجليل البطولة القومية والاعتزاز بأبوة الوطن الذين شادوا مجده تناول شكسبير مواقف هنرى الخامس فى حرب مائة العام ، وألف سكوت قصصه الاسكتلندية مثل خرافة منتروز وكونتين دروارد .

ولم يقتصر أدباء الانجليزية فى تمجيدهم للبطولة واحتفائهم بالأبطال على الماضى الخرافى أو التاريخى البعيد ، بل التفتوا الى الحاضر والماضى القريب ، ووفوا أبطال جزيرتهم الذين وطدوا مكانتها وأعلوا كلمتها جحهم من الذكر والتعظيم ، فى جانبى المنشور والمنظوم ، بل كان الأبطال الخرافيون يستعارون أحيانا رموزا للعظماء المعاصرين ، كما فعل ادموند سبنسر فى قصته الشعرية « الملكة الحسناء » . وكما قيل ان شكسبير قد قصد من الرمز لشخصية هاملت الى شخصية ارل اسكس ، وقد احتفل سودى وكامبيل وتينيسون وماكولى بتمجيد أبطال الانجليز وعظمائهم فى البر والبحر أمثال نلسون وولنجتون وكلايف . وكتب كارليل كتابه « الأبطال وعبادة الأبطال » فأسهب فى الكلام على مظاهر البطولة فى شتى الأزمان والأمم ، وأثر الأبطال فى تقدم العمران البشرى وما هم جديرون به من حفاوة .

فالأدب الانجليزى ، بعد انقضاء عصر الأبطال المحاربين ، لم يخل من ذكر البطولة وتمجيد الأبطال ، بل ظل معنيا بأبطال الماضى ولم يجعل الحاضر دبر أذنه : لأبطال الماضى البعيد بوقائعه الخارقة التمجيد والتصوير

الحضور عاب على الطائي نسببيه ممدوحه « بأجلاف العرب » حين أنشد
سينيته في مدح أحمد بن المعتصم فقال منها :

أقدام عمر في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس

ومن مثل هذا الحديث تتبين بعض أسباب اعراض الأدب عن حديث
البطولة : كالتكسب بتمليق امراء أنانيين يآبون الا أن يكون كل المدح
لهم ، بيد أن هناك سببا أهم هو انعدام روح القومية بين العرب : فقد
كانت العصبية القبلية فوق القومية العربية في عصر الجاهلية ، فلما وحد
الاسلام العرب تحت لوائه وحض على التآخي ونبد العصبية ، لم يستمر
العرب دولة واحدة مستقلة منعزلة زمنا طويلا كافيا لتوحد عناصرها
نوحدا صحيحا ، واعتناقها جميعا للقومية العربية مكان العصبية القبلية ،
بل اندفعوا وهذه العصبية ما تزال على أشدها يفتحون شرقي العالم
وغربيه ، فاذا هم في بضع سنين يمجون في امبراطورية مترامية ، ضلت
قوميتهم العربية في قومياتها المتعددة ، وظلت عصبيتهم المتأصلة تستأثر
بولاثهم وتثير الفتن بين قبائلهم ، وكان هذا التناحر القبل من أكبر أسباب
انتصار الفرس ، ووثوبهم الى السلطان على أيدي العباسيين .

فالمجتمع العربي عرف العصبية القبلية الضيقة الحدود والامبراطورية
العالمية الفضفاضة الجوانب ، ولم يعرف القومية العربية التي تسمو على
العصبية وتفخر بأبطال العرب الغابرين من أي الأحياء كانوا ، والتي
تضييق دون مدى الامبراطورية الواسعة ، التي لا يجمعها ماض واحد
ولا تشترك في تراث عمراني ثقافي فرد . فلم يكن العربي المسلم يفخر
بأبطال العرب المشتركين كابن الوليد وابن الخطاب قدر ما يفخر بأبائه
الذين تنتسب اليهم قبيلته . فابن الرومي في القرن الثالث يمدح
أبا الصقر فلا يفوته أن يمدح قبيلته شيبان ، وأبو الصقر يرى أن
ابن الرومي لم يوف شيبان حقها فيحرمه العطاء ، وأبو فراس في القرن
الرابع يفخر ببنى حمدان الذين يراهم لم يخلقوا الا « لمجد أو لباس أو
لجود » ، ولا يرد ذكر العرب في شعره ، وهذه النزعة القبلية الضيقة
لا تنتج شعر بطولة فنيا راقيا ، بل تنتج الروح القومية المشدقة .

انما كان الدين يحل محل القومية من نفوس العرب ، ومن ثم كان
له في أدبهم أثر بعيد المدى ، ولذلك نرى أن جانبا عظيما مما قد ندعوه
شعر بطولة في العربية يدور حول أعظم الشخصيات الدينية في الاسلام
بعد الرسول الكريم ، شخصية الامام علي ، وشخصيات أبنائه : ففي

الغنى المبالغ المخرق فى الخيال والشاعرية ، ولأبطال الحاضر التكرير والتأريخ الذى هو أدنى الى الحقيقة دنو عصرهم من الأذهان ، وأبعد عن الخرافة والخيال بعد الانسانية عن عصور طفولتها ، أما فى الأدب العربى فقد انقطع ذكر الأبطال أو كاد بانتهاى عصر البطولة الجاهلية : أهمل الأبطال الجاهليون أو فازوا بالنظرة العابرة والذكرة العارضة ، ولم يكن أبطال الاسلام أوفر منهم حظا من عناية الأدباء ، مهما كان نصيبهم من اهتمام المؤرخين ومكانهم فى التاريخ .

ولم يخل تاريخ العرب بعد الاسلام من أبطال يمجدون وتنسج حولهم القصائد الطوال ، ولا أقفر تاريخهم من حوادث مملوءة بالوحى الشعري الصادق ، بل ان تاريخ نهضتهم وبسط سلطانهم لهو ملحمة التاريخ الكبرى التى تزرى بكل ملحمة ، وتسخر من الوقائع الموضعية الضئيلة التى حاك حولها هوميروس قصيده الفاجر . وقد أنجبت تلك النهضة — بعد شخصية الرسول الكريم التى لم يجد بمثلها الزمن — نخبة من أبطال السلم والحرب ، خالد وعمر وعلى وابن العاص ومن عاصرهم وتلاهم من فحول الأبطال الذين لم تنجب أمة أعظم منهم ، واحتوى تاريخ العرب على سير أفاذ يستفزون الوحى الشعري خاصة ، لما انطوت عليه سيرهم من طرافة وجاذبية : كالحسين الذى استشهد على أسنة الرماح آبيا أن يستأسر ، وصالح الدين الذى رفع لواء الاسلام وقصم ظهر الصليبيين فى سورية ، وعبد الرحمن الداخل الذى شاد من الفوضى دولة من أزهى دول التاريخ ، ومحمد بن القاسم ، الذى فتح السند وهو يافع والذى قيل فيه :

ساس الجيوش لسبع عشرة حجة يا قرب ذلك سؤددا من مولد

ولكن الأدب العربى قد نبذ ذكر أولئك جميعا ظهريا ، ولم يحتو من ذكر البطولة والحماسة والحروب الا على وقائع ثانوية كفتح عمورية وأعمال أنصاف الأبطال ، كبدر بن عمار ، وغيره من ممدوحى الشعراء الذين كانوا يطمعون فى رضاهم ونوالهم ، فجاء مدحهم لهم شديد التكلف مغرقا فى التهويل ، أما اذا لم يكن نوال ولا سلطان حاضر فلا بطولة تستهز نفس الشاعر ، ولا عظمة تستدعى إعجابه وتستجيش وحيه ، ولا يرد ذكر عظماء الجاهلية فى القصيد الا مستعارة صفاتهم وفصائلهم للممدوح مهما ظهرت فضفاضة عليه داعية الى السخرية ، بل كان أولئك العظماء يزدرون فى موقف الملق لأرباب السلطان : فقد قيل ان بعض

الأشعار التي تندب مصارعهم - رغم اتسامها بالحزن والفجيعه ، وقلة ما تسجله من عظام أولئك الأبطال الذين نهضوا في الحقبة بعد الحقبة ، وساروا الى الموت مملوئين ثقة وبسالة - تمجيد صادق الشعور للممثل العليا مشخصة في أولئك النفر الغر الميامين ، ولدعبل وابن الرومي وغيرهما أشعار حارة فيهم ، ومن ذلك قول الأول :

وليس حي من الأحياء نعلمه من ذى يمان ومن بكر ومن مضر
الا وهم شركاء في دمائهم كما تشارك أيسار على جزر
قتل وأسر وتحريق ومنهبة فعل الغزاة بأرض الروم والخزر

وسبب آخر عظيم الأثر في خلو الأدب العربي من تمجيد البطولة ، هو أن هذا الضرب من الأدب ضرب فني يحتاج في ممارسته الى تفرغ وطول معاناة وكثرة مراجعه ، ومثل هذا الفراغ لم ينتهيا لأدباء العربية ، ومثل هذا العنوف أو الترهيب الفني الذي حظي به ملتون ووردزورث وتينيسون وغيرهم من شعراء الانجليزية لم يفز به شعراء العرب وكتابتهم ، أضف الى ذلك أن الأدب العربي كان دائما يؤثر التقليد ويحجم عن اتخاذ مواضع أو صور جديدة لم يرثها عن العرب الأولين ، ولهذه النزعة المحافظة قد نفى من حظيرته كثيرا من فنون القول ومنادح الفن ، لم يرها من شأنه ولم يحسبها جديدة بالتفاتة ، لأنه لم يرثها عن الأقدمين ولم يطلع على أدب الاغريق فيقف على بدائع النظم التي تأتي من ذلك الباب .

وكان الأدب العربي كلما نفى من حظيرته بابا من أبواب القول يمت الى الطبيعة الانسانية بسبب لا يجذ ، ويروى من النفس البشرية غليلا دائم الحاجة الى الرى ، تلقفه عنه الأدب العامي فنهض عنه بالعبء الذي طرح ، وأثر ارضاء النفس الانسانية حين أثر الأدب القصص ارضاء التقليد ، ومن ثم حاك الأدب العامي ، أو الخيال العربي ، حول أبطال الجاهلية كعنتر وكليب ، وعظماء الاسلام كعلي بن أبى طالب وهارون الرشيد ، روائع قصص البطولة ومنازلة الصناديد ومقابلة الانس والجان واجتلاء أسباب المتعة والبهجة والفكاهة ، وما كان بالأدب العربي القصص قسور عن ذلك الضرب من القول لو أراد . انظر الى روعة الوصف في قول المتنبي :

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه

وفي أذن الجوزاء منه زمازم

وقول ابن هانيء الأندلسى فى جيش جوهر :

إذا حل فى أرض بناها مدائننا

وان سار عن أرض ثوت وهى بلقع

فهذا وصف للجيشون لن تحوى أبلغ أشعار الملاحم أروع منه ،
ولا غرو : فقد كانت المادة متوفرة لأدباء العربية لينسجوا من أحاديث
البطولة وأوصاف المواقع ما شاءوا ، فقد تفنن المسلمون فى وسائل
الحروب البرية والبحرية وحازوا فيها غايات سبق ، والدول والانقلابات
كانت تتوالى على أعين الأدباء تباعا واللغة العربية الرحيبة المساعدة
بالألفاظ ، الغنية بالأوزان الرصينة والقوافى المتعددة ، خير معوان على
نظم قصيد الملاحم ووصف عظماء الأبطال ، فلو التفت الشعراء الى هذا
المجال من القول لرأوا سعة ولكنهم أغفلوه فيما أغفلوا ، وعدوا البطولة
والأبطال شأنا من شئون التاريخ ، لا فنا من فنون الأدب .

موضوعات الأدب

فى الأدبين العربى والانجليزى

يعبر الأدب عن شتى خوالج النفس وخواطر الذهن . ويصنف تانى النفس بمختلف صور الحياة وظواهر السكون وصروف الدهر ، وكلها أمور لا يحدد مداها ولا تحصى مذايعها . ومن ثم لا تحد ولا تحصى اشتتات الموضوعات التى يعالجها أدب أمة من الأمم فى مختلف عصوره ، فأدب الأمة الحى يشمل أطراف حياتها المترامية ، مما يوحى به الشدين والورع الى ما يمليه التبذل والاستهتار ، وما يمليه الحزن والألم الى ما توحى به الغبطة والسرور ، وما يدعو اليه التفكير والتأمل الرزين أو يحمل عليه التفكه والسندر ، ومن كل ما يبعث اعجاب الانسان ورهبته وخشوعه أو ينير احتقاره أو نفوره ، ومن كل ما يوقظ حب الاستطلاع والدرس والمعرفة المركب فى طبع الانسان ، ويمتد مجال الأدب حتى يختلط بشتى فروع العلم فى بعض أطرافها .

على أن موضوعات الأدب وان تعذر استقصاؤها يتجمع أكبرها واطرها شأنا حول مواضيع رئيسية يكثر طرقها ويعزى الى واحد منها كل اثر من آثار رجال الأدب ، كالنسيب والرثاء مثلا ، كما أن أدبا قد يختلف عن أدب فى فن يحتفى به ولا يكاد يوجد فى غيره ، أو فنون يدمن طرقها دون غيرها ، بل يختلف الأدب الواحد فى عصر من عصوره عنه فى عصر آخر من حيث فنون القول التى يحتفى بها ويقدمها على غيرها . فالببئة والعصر يتركان أثرهما فى فنون الأدب التى تعطى بالرواج والاقبال : ففى عصور الجهاد والصراع مثلا تسود أشعار الحماسة وتمجيد الحمى والأبطال ، وفى عصور النزاع بين المادية والترف وبين الدين والتقاليد ، تكثر آثار المجون والزيغ من جهة ، وآثار الوعظ والزهد من جهة أخرى ، وعصور البداوة تتسم آثارها بالسداجة والعاطفة المتدفقة ، وعصور الثقافة تمتلئ آدابها بآثار التأمل والأزمات النفسية ، وكلما ارتقى المجتمع وصدق أدبه فى التعبير عن حياته كثرت فنونه التى يطرقها ، وطال طرقه للفنون الرئيسية التى تمت الى النفس الحية والفكر الملهذ بأوثق الأسباب ، واختلف أدباؤه كل منهم يخص فنا أو فنونا منها باحتفائه . أما فى عصور التدهور والركود فتضيق دائرة تلك الفنون ويتعلق كثير

منها بالسطحي والتقليدي من الأقوال ، ويتفق أكثر الأدباء في طريقة تناول تلك الفنون المحصورة .

والأدبان العربي والانجليزى قد تناولا أشتاتاً من فنون القول ، وعبرا عما لا يحصى من أفكار الانسان ومشاعره ، واتفقا في كثير من ذلك لاتفاق الطبيعة الانسانية في كل مكان ، واختلفا في مدى الاحتفال ببعض الفنون والاعراض عن بعضها لاختلاف بيئات الانسان من اقليم الى آخر ، وظهرت في كل منهما على تعاقب العصور مواضيع لم تكن معروفة من قبل ، وحظيت مواضيع دون أخرى بالحفاوة والصدارة ، فالشعر الحماسى كان في العصر الجاهلى هو الفن الرئيسى ، لما كانت تتطلبه الحياة القبلية من التعبير عن صفات القوة والغلب ، ثم حلت الخطابة السياسية في صدر الاسلام محل الشعر ، ثم احتل الصدارة في العصر الأموى النسيب والمهاجاة ، وهلم جرا . وفي الأدب الانجليزى بلغت الخطابة الدينية الوعظية شأوها في عهد المطهرين ، وملكت الطبيعة جل اهتمام الشعراء في العصر الرومانسى ، وفاز التحليل القصصى النفسى والاجتماعى بالصدارة في العصر الحديث .

ولعل النسيب أحظى فنون الأدب باحتفال الأدباء في شتى الأمم ، لما يصدر عنه من عواطف وغرائز متأصلة في النفس الانسانية على اختلاف البيئات . وقد بلغ من احتفاء العرب به أنهم لم يقتصروا على الحديث عنه في مكانه ، بل استهلوا به منذ عهد الجاهلية قصيدهم . ولم تخل من حديث الحب أكثر روايات شكسبير في القديم وقصص هاردي في العصر الحديث . فوسع الأدبان شتى الأوصاف لحالات الحب الراضية وأطواره . الغاضبة . والى الحب يرجع الفضل في كثير من الآثار الأدبية وفي تكوين نفوس كثير من الأدباء ، وحول حديثه يدور جانب عظيم من كل أدب ، وقد غلا قوم فعدوه مصدر كل أدب وفن .

والرثاء فن محدود من فنون الأدب في العربية والانجليزية ، يمتاز كثير من آثاره بالصدق وحرارة العاطفة وعمق التأمل . وذاك لأن حلول الموت ينقض الشمل وينغص المسرة ويذهب بالألف (بكسر الهمزة وسكون اللام) ، فيبعث في نفس الأديب ثورة ، ويدفعها الى مراجعة التأمل في الحياة ، ويستخرج خير ما في النفس من صفات الوفاء والمودة وعذب الذكريات وخليجات الحنين . ومن غرر المراثى في العربية رثاء مهلهل لأخيه ، ودالية المعرى ورثاء البحترى للمتوكل ورثاء ابن الرومى لأوسط صبيته ورثاء التهامي لولده . ومن روائع المراثى في الانجليزية مراثية ملتون المسماة ليسيداس ومراثية شلى المسماة أدونيس ومراثية

تنبسسون المسماة الذكرى . وقد نظم كل منهم قصيدته فى رثاء صديق له رفيق لصباء مات معتبطا . ومن بدائع المراثى الانجليزية أيضا خطبة مارك أنطونى على جسد قيصر فى رواية شكسبير الذائعة الصيت ، ومرثية جراى التى نظمها فى مقبرة قرية .

والتدين والوعظ فن يشترك فيه الأدبان ، ينمثل فى العربية فى خطب الرسول الكريم وكثير من خلفائه ، وكثير من أشعار أبى العتاهية وأبى نواس وابن عبد القدوس وابن الفارض وأصحاب المذاهب النبوية ، وفى الانجليزية فى كثير من شعر ملتون ودن ونشر هو كروبنيان ونيومان ، وأكثر ما كتب من ذلك فى الانجليزية انما كان بأقلام رجال الدين المنتمين الى الكنيسة . اما العربية حيث لم تكن للدين هيئة رسمية ذات نفوذ كالكنيسة فجاء أدب التدين متفرقا يستوى فى معالجته رجال الدين المتفقهون فيه ورجال الدنيا غير المتوفرين عليه . ومن أنبغ رجال الدين فى الأدب العربى الامام الشافعى الذى يمتاز شعره برصانة ونقاء رائعين ، ومن آثاره قوله :

ثلاث هن مهلكة الأنام وداعية الصحيح الى السقام :
دوام مدامة ودوام وطء وادخال الطعام على الطعام

وقوله :

ومن لم يذق ذل التعلم ساعة تجرع ذل الجهل طول حياته
حياة الفتى والله بالعلم والتقى اذا لم يكونا لا اعتبار لذاته

والميل الى الصداقة طبع فى الانسان لا يكاد يقل عن الحب تمكنا وقوة ، فما يزال الانسان فى حنين الى الأليف الروحى الذى يباده الفهم والشعور ، ويقاسمه الحزن والسرور ، ومن ثم تشغل الرسائل والقصائد الاخوانية فى الأدبين العربى والانجليزى مكانا معدودا ، بين مخاطب فى شتى الأمور وبين تعارف وتقاطع ، وبين تعاتب وتقريع . ومن آثار الصداقة فى الانجليزية كثير من مقطوعات شكسبير ، وما كان بين يوب وكوبر وليدى متاجيو وبعض معاصريهم من تراسل ، وما كان بين جونسون وجولد سميث وبوزويل وجماعتهم من أحاديث دونها الأخير فى كتابه عن الأول ، وما كان بين جراى وشلى وبيرون وكثيرين غيرهم وبين أصدقائهم فى الوطن من مراسلات ، حين كان أولئك الشعراء يطوفون فى

ربوع أوربا ، وللمحافظ والبديع والصايى وابن العميد رسائل الى
أصدقائهم بارعة تعد فى صميم الأدب العربى . ولم تكن رسالة الغفران
الا رسالة بين صديقين . ومن قصائد التعاتب المشهورة لامية معن
ابن أوس التى مطلعها :

لعمرك ما أدرى وانى لأوجل على أينما تعدو المنية أول

وممنه ابن الرومى الطويلة التى مطلعها :

يا أخى أين عهدك ذاك الاخاء ؟ أين ما كان بيننا من صفاء ؟

ونقد الأدب موضوع مهم من مواضيع الأدب ، تلذ فرائده كما تلذ
فراة آثار الأدب الأخرى . لما يحوى من عام النظرات وخاص فى مخلفات
الأدباء وعصور الأدب . ومما يزيد أكثر كتب الأدب فى العربية ككتاب
الفنائين وكتاب الوساطة امتاعا حقولها بالكثير من بدائع المختارات
والمفتبسات . وفى الانجليزية يحتفى بعض النقاد أمثال ماكولى وماثيو
ارنولد واديسون بأساوبهم الأدبى فى تقديمهم لآثار غيرهم ، حتى ترى
آثارهم النقدية مضاهية لما ينقدونه لذة وامتاعا . ويمزج بنقد الأدب فى
الانجليزية نقد الفنون الجميلة عامة ، والاشارة الى القواعد التى تشملها
عى والأدب . ففى مقاله عن بيرون مثلا يوضح ماكولى آراءه بأمتلة من الفنون
الأخرى من موضع الى آخر .

وأحوال المجتمع وأحداث السياسة ليست مما يمر بالأديب المثقف
دون أن يكرنه . بل لابد أن يترك ذلك أثره الواضح فى أدبه . وقد كان
شعر الجاهلية سجلا موجزا لكبريات أحداثهم ، فلما خضع العرب للملكية
بعد الاسلام كفكت تلك النزعة ، وقل نقد الأنظمة الاجتماعية والسياسية
فى الأدب والتعليق على الحوادث الى حد كبير ، الا أن يكون فى ذلك
مجازاة ومظاهرة لأصحاب السلطان . وقد قتل المنصور ابن المقفع الذى
رفع اليه رسالة فى شئون الحكم وان عزي مقتله الى سبب آخر وأحيط
بالغموض . انما أثر السياسة والحوادث فى الأدب بعد الاسلام باد فى
الرسائل الديوانية التى كان يتألق الوزراء الكاتبون أمثال سهل بن هارون
والقاضى الفاضل وابن زيدون فى كتابتها الى عمال الأمبر وأنصاره وأعدائه
والخارجين عليه ، كما أن فى كتابات الجاحظ ومقامات البديع تدميرا
واضحيا أكثر من أحوال مجتمعاتهم وأنبائه . ومن أشعار الأحداث السياسية

قصيدة يزيد المهلبى فى رثاء المتوكل وقصيدة ابن الرومى فى ثورة الزنج
التي منها يقول :

بينما أهلها بأحسن حال اذ رماهم عبيدهم باصطلام
صبحوهم فكابد الناس منهم طول يوم كأنه الف عام

وهذا الفن أوسع محيطا وأحفل بالآثار فى الانجليزية ، حيث مهدت
الحكومة الديمقراطية السبيل للنظرات الحرة والنقدات الصادقة . وكان
استقلال الأمة الانجليزية عن غيرها واعتزالها سواها الى حد بعيد داعيا
الى اشتداد الشعور القومى والاحساس بوحدة المجتمع والاهتمام لشئونه
كأنها شئون كل فرد الخاصة . وقد قال الامام على : كلكم راع وكلكم
مسئول عن رعيته . وما أسماه مبدءا انسانيا ومذهباً ديمقراطيا وحكمة
عمرائية ، بيد أنه كان شعار المجتمع الانجليزى أكثر منه شعارا للمجتمع
العربى ، ومن ثم كانت لأدباء الانجليزية نظراتهم الاصلاحية الخاصة ،
التي تتراوح بين الخطرات العارضة وبين الرغبة فى الانقلاب الكلى ، وظهرت
القصة نتيجة هذا الاندماج الاجتماعى تصور المجتمع تصويرا دقيقا لا يغادر
منحى ولا مذهباً .

ولكن الحياة ليست كلها جدا مرا ، ولا النفس الانسانية تحتل الجهد
المتواصل ، وانما يميل الانسان بطبعه الى الترفيه عن نفسه بالتهلكة والنظر
الى الجانب الهزلى من الحياة . والأدباء لدقة احساسهم ونفاذ نظراتهم
سريعون الى ملاحظة مواطن التناقض ومواضع الفكاهة فى اخلاق الناس
وأعمالهم ، ومن ثم يحفل الأدباء العربى والانجليزى بصور عديدة من صور
الفكاهة، تتراوح درجاتها بين العبث البرىء فى أيدي شكسبير وجولده سميت
وأديسون والجاحظ ، وبين السخر المرير فى أيدي سويفت وبوب
وابن الرومى والمعرى ، ويتناول بها الأدباء منافسيهم ومعاصريهم ويفندون
حماقات المجتمع .

وهناك مواضيع احتفى بها الأدب العربى حفاوة بالغه تفوق ما نالته
فى الانجليزية ، وأولها الحكمة : فآدباء العربية كانوا منذ الجاهلية
يعشقون الحكمة ويحبون نظمها والاستماع الى أشعارها ، بل كانوا كما
قليل لا يعترفون لشاعر بالفحولة حتى يوفق الى شئ منها . وظل الأعشى
مزويا عن مصاف الفحول حتى قال فى مدحه سلامة ذا فائس : « والشئ
حيثما جعلنا » ، فجنع صدق النظرة الى ايجاز اللفظ وهما سمتا الحكمة
عند العرب . ولما اطلع العرب على ثقافات الأمم كان أهم ما احتفوا بنقله

من آدابهم الحكمة . ومن كتب الحكمة مؤلفات ابن المقفع ومقصورة ابن دريد والخطب المنسوبة الى قس ابن ساعدة والامام على ، والجم الغفير من أشعار المتنبي التي سارت مسير الشمس ، وليس من محض الصدفة أن كان أكبر شعراء العربية وأسيرهم ذكرا حكيما مكثرا لصوغ الحكم وضرب الأمثال . وبالحكمة الصادقة البليغة الموجزة كان الأديب العربي يستغنى عن فنون وأشكال من الأدب ازدهرت في الانجليزية ، كالقصة والرواية التمثيلية والملحمة ، فالعبرة التي تنطوى عليها احدى هذه يجمعها الشاعر العربي في بيت واحد يلقيه اليك وخلاه ذم .

واقتباس الحكمة والمثل والاستشهاد باقوال السلف أقل حدوثا في الانجليزية منه في العربية ، لأن الحكم الموجزة التي تغزر في الأخيرة قليلة في الأولى . وكثيرا ما يلجأ المقتبس في الانجليزية الى الأديب الاغريقي واللاتيني ، وحتى هذا يبطل تدريجا في العصور الحديثة . وأكثر أدباء الانجليزية حظوة لدى المقتبسين والمستشهادين شكسبير ، وليس ذلك لأنه كان يعتمد صوغ الحكمة أو يحرص على التكثر منها ، بل لأن رواياته من جهة قد أحاطت بشتى أحوال الحياة والنفس الانسانية ، بحيث يجد فيها كل كاتب شيئا مقاربا لما هو بصده ، ولأن مقدرته اللغوية العظيمة من جهة أخرى كانت تهديه الى صوغ أفكاره صياغة موجزة متمعة ، ويليهِ سيرة أقوال بوب ، زعيم الأسلوب المحكم الرصين الذي كان شعاره في الأدب التعبير « عما قيل من قبل كثيرا ، ولكن لم يقل أبدا بهذا الاحكام » ، فسار كثير من أبياته المحكمة الموجزة على الأقدام والأفواه .

ومما يتصل بالحكمة في الأدب العربي ويمتاز هذا الأدب به التمدح بحميد الخصال كالجود والشجاعة وحمى الذمار وحسن الجوار وحفظ السر وكظم الغيظ ومداراة السفه ، الى غير ذلك من الدساتير الخلقية التي كان كثير من أشراف العرب الأدعياء يسنونها لأنفسهم ، وامتداح تلك الصفات في الغير والحث عليها ، وهذا من أنبل مواضيع الأدب العربي ، ولحاتم الطائي ومسكين الدارمي والمقنع الكندي والشريف الرضى والامام الشافعي آثار في ذلك ، تروى برصانة أسلوبها ومتانة أسرها وعظمة خلقها ، فلما غلب التقليد على الأدب ، ودخل الشعر في طور التقهقر انقلب مثل هذا التمدح المحبوب الصادق المقرون بالفعال فخرا عاجزا أجوف ، بمآثر وهمية وعزائم مزعومة ، وتبها على النجوم ودلا على الزمان ، كقول السرى الرقا :

وانك عبدى يا زمان واننى على الرغم منى أن أرى لك سييدا

والغريب أن أحد أولئك الشعراء المتشبهين بالفخر ربما قرنه في القصيدة الواحدة بشكوى سوء الحال وقعود الجدود وخيبة الآمال . والشكوى موضوع من مواضيع الأدب العربي كانت أقرب الى متناول أدبائه منها الى أدباء الانجليزية ، وقد فشلت خاصة في آثار المتأخرين ، والأدب العربي من جهة أخرى أحفل بوصف آثار الترف ومظاهره : من القصور والمحافل ومجالس الشراب وآلات الطرب ودواعي المجون . وللخمر خاصة منزلة في الأدب العربي لا نظير لها في الانجليزية ، وقد حظيت من جزالة أسلوب الأخطل وأبى نواس وابن الرومي بما خلد أوصافها وأعلى ذكرها ، ولما يرد ذكر الخمر في الأدب الانجليزي الا نظرفا وتنسبها بالاغريق الأتيمين وإشارة الى باخوس إله الخمر عندهم .

وراج في الأدب العربي فنان ليسا من صميم الأدب في شيء ، وما زالا برقيان حتي احتلا مكان الصدارة من الأدب ، وموضع الحفاوة من الأدباء . وهما المدح والهجاء اللذان استفجلا أمرهما من عهد الأمويين فزالا ، حتي استبدلا بأجزاء كبيرة من دواوين بشار وأبى نواس وأبى تمام والمتنبي . وكادا يشغلان كل دواوين آخرين غير هؤلاء . وما كان ارتفاع شأنهما هكذا الا نتيجة فساد تقاليد قديمة ، كانت في الجاهلية تقاليد محمودة لا ضير فيها ، ثم استمرت بعد ذهاب عصرها واندثار بيئتها بظهور الاسلام . وقيام الدولة المتحضرة المركزية ففسدت تلك التقاليد وصارت بلاء على الأدب الصحيح .

كان العرب الجاهليون يحرصون على حسن الاحدثة ، ويتمدحون بكريم الصفات ، وينافحون خصومهم بالشعر ، ويجزون من فعل ذلك عنهم ، وكان ذلك كله وليد بيئتهم البدوية ، فلما كان الاسلام والدولة والحضارة لم يعد لمثل ذلك التفاسخ والتهاجي موضع ، ولكن الشعراء استبقوا ذلك التقليد طلبا للنوال ، والأمراء قبلوا منهم ذلك الاحياء المفتعل لنقله عبر عصره طلبا للمجد الزائف . ومن العسير أن تحصى المساويء التي جرها هذان الفنان من القول على الأدب العربي : مواضيعه ومعانيه وأساليبه .

ولم يكن في الإنجليزية شيء من هذين الفنين يقاس بما كان في العربية ، وحتى القليل من المدح الذي كان في بعض الفترات يستفز الأدباء الأداة الى مثل قول بوب : « فلأعبر عن رأيي في الأمر في كلمة : ابن وصف الرجل بأكثر مما نعلم فيه عمل بعيد عن الأمانة اذا قصد من ورائه الريح ، وعمل أخرق اذا لم يقصد ، وكل من نجح في مثل هذا العمل لابد أن

يعتقد في قرارة نفسه أنه هو نفسه دجال لأنه فعل ذلك ، وأن ممدوحه أحق لأنه صدق ما قيل فيه » .

وعلى حين احتفى شعراء العربية بهذين الفنين الزائفين من فنون القول ، أهملوا إلى حد بعيد فنا هو من صميم الأدب والحياة ، وهو الوصف الطبيعي : فديوان المتنبي الذي يعج بمعاني المدح والهجاء المخترعة لا يضم إلا أبياتا معدودة منشورة في التغني بمباهج الطبيعة . أما في الانجليزية فالطبيعة وحى ما لا يعد من قصائد بين مقطوعات ومطولات ، ووصفها يتخلل أشتات المنظوم والمنثور في مختلف الأغراض ، وهى المنظر الخلفى لكثير من روايات العصر الاليزابيثى وملاحم ملتون وسبنسر ومطولات تينيسون وقصص هاردى ، بل بلغ من دقة دراسة تينيسون أياها أن أصبح شعره يقتبس في كتاب الجيولوجيا والجغرافيا أحيانا ، وبلغ من معرفة هاردى بطبيعة الاقليم الذى أجرى فيه حوادث قصصه ، أن كان يخصص الصفائف الطوال لوصف المنظر الواحد فى قصصه بدقة العالم لا القصصى .

وهناك مواضيع أدمن أدباء الانجليزية ورود مناهلها وغزرت آثارها فى أدبهم ، فكانت فيه مادة فن وامتاع وغبطة : كالتحدث عن المغامرات وروائع القصص وعجائب الرحلات ، وجسام حوادث الماضى وعظائم أبطال الأمم ، وممتع خرافات الأحياء وأغنيات طبقات الشعب وأقاصيصهم ، كل هاتيك وجد فيها أدباء الانجليزية منساح للفن والخيال ومعارض لميول النفس الانسانية وطباعها وسجاياها المرسله ، أما الأدب العربى فيمتاز بكفكة غلواء الخيال والتجافى عن البعيد من الأمكنة والأزمنة ، والازورار عن الأمم الأخرى والترفع عن العامة وثقافتهم المتواضعة ، واحتقار الخرافة وأساطير الماضى .

واتخذ الأدب الانجليزى التاريخ الواقعى مادة لموضوعاته : منه اتخذ الاليزابيثيون مواضيع بعض رواياتهم ، وفيه جال جيبون وسوذى وماكولى وكارليل ، يدرسون كبريات الوقائع وعظماء الرجال واليه رجع الشعراء والقصصيون ، وقد صور سكوت فى قصصه حوادث التاريخ تصويرا يفوق كتب التاريخ أحيانا دقة ووضوحا ، ولم يكده يلتفت إلى التاريخ من أدباء العربية ويتناوله فى أسلوب أدبى جزل سوى الجاحظ .

فالأدبان العربى والانجليزى قد تناولا مواضيع مشتركة بينهما ، وطرق كل منهما مواضيع لم يحتف بها الآخر . على أن الأدب الانجليزى أغزر موضوعات وأكثر شغلا بأسباب الحياة ، والأدب العربى لم يظل

دائما ترجمانا لكل عواطف المجتمع العربى ، وكانت روح المحافظة التى سببت عدم تطور أشكاله سببا فى قلة تطور مواضيعه أيضا ، فأهمل مواضيع شتى تمت الى الطبع الانسانى بأوثق الأسباب وتدخل فى حظيرة الأدب أول داخل ، وتناول غيرها لا تمت الى الفن بسبب ، ومرجع ذلك ما خالطه من نزعة تقليد جامدة ، وما اعتمد عليه من رعاية الأمراء ، على حين كان الأدب الانجليزى دائما حر النزعة حر الحركة والنمو .

الرومانسية الكلاسيكية

فى الأدبين العربى والانجليزى

ينشأ أدب الأمة المتبدية ساذجا بسيطا صريح التعبير قريب المتناول، مطلق السجية فى الاعراب عن الشعور الانسانى ، وتظل له هذه السمة حينئذ ، حتى تتحضر الأمة وينتقل الأدب من جو الطبيعة الطلق الى حياة المدينة ، بما تشمل من وسائل الحضارة المادية وأسباب الثقافة الذهنية ، فيرتقى الأدب لذلك كله وتتسع جوانبه وتبعد أغواره ، بيد أن الحضارة المادية التى توفرها المدينة لسكانها ولا توفرها الطبيعة للمتبددين ، ربما طغت فأفسدت على القوم حياتهم ، وكذلك الثقافة العقلية فى ظلها يرتقى الأدب رقىا عظيما ربما زيفت على الإنسان شعوره ، وتعاونت مع تلك الحضارة المادية على افساد الأدب بتغليب الصنعة والتكلف فيه على الاحساس الصادق ، وتكبيله بالتقاليد والأوضاع ، وتضييق حدوده ومد آفاقه ، وإيلاء الألفاظ فيه المكانة الأولى دون المعانى .

إذا بلغ الأدب هذا الطور الصناعى التقليدى انحط ولم يعد يسير الا من تدهور الى تدهور ، وصار الأدب المتبدى على سذاجته أرقى منه وأصدق ، ولم يعد للأدب الذى غلبت عليه الصناعة من سبيل للنهوض ، الا الرجوع الى الطبيعة والاقتباس من الأدب البدوى المرسل الطبع ، والاطلاع على آداب الأمم الأخرى التى لم يرهقها التكلف ولم تفسدها الصنعة ، بهذا وحده يتأتى له معاودة الحياة وأن يعود ترجمانا صادقا مبينا لها ، وبغير تلك العوامل الخارجية هيهات أن ينهض الأدب العاثر من سقطته ، وإنما يزداد امعانا فى التكلف السمج جيلا بعد جيل ، واغراقا فى اختراع كاذب الأخيلا والأحاسيس ومزجها بالأعيب الألفاظ ، والخروج بكل ذلك عن كل ما يسيغه ذوق أو يقبله عقل .

فحياة الطبيعة المطلقة فى أعنتها ، وحياة المدينة ذات الحضارة والثقافة ، تتنازعان الأدب وتؤثر كل منهما فيه تأثيرا خاصا ، ولكل منهما مزايا هى قادرة على ايداعها الأدب : تمنحه الطبيعة شتى مناظر جمالها وصدق شعورها وبعيد آفاقها ورائع أسرارها ومخاوفها ، وتمنحه المدينة وسائل التفكير العميق والنظر الشاقب والطموح الى المثل العليا ، وأسباب

الذى أصبح فى حاجة اليه ، حين انتقل الى المدينة وشغل بآثار الحضارة والثقافة .

وقد كانت الرومانسية هى الصفة الغالبة على الأدب الانجليزى فى العصر الاليزابيثى ، وفى ذلك العهد كانت البساطة والخشونة تسودان المجتمع والهلل ، والحركة والنشاط والتطلع تتجلى فى شتى نواحي الحياة : فى العلم والأدب والكشف والمخاطرة والحرب . كان عهد نهضة تتحضر وتتستشرف الى الجديد وترمى الى التوسع ، لا تقنع بالقليل الحاضر ولا تقبل القيود والحدود ، وزمن شباب يولع بالقوة والجلاد ويبرم بالأنيار والأقياد ، فهو لا يرضاه فى الأدب ، ومن ثم جاء أدب ذلك العصر غزير المادة مثلظم العباب مترامى الآفاق ، جياشا بشتى العواطف والمعاني ، حافلا بمختلف الأوضاع الأدبية والمذاهب الفنية ، لم يتقيد رجاله بتقاليد فنية غير معقولة : فعلى حين تقيد أدباء الفرنسية بالوحدات الثلاث التى أثرت عن الدراما الاغريقية ، انتفع الأدب الانجليزى بخير ما فى تلك الدراما وضرب بتلك الوحدات عرض الحائط ، ولم يتقيد بألفاظ خاصة فى الشعر ، مما أصبح فيما بعد يسمى « الألفاظ الشعرية » ، بل زاد على استعمال كل ما فى لغة الكتب أن اقتبس من لغة العامة واصطنع بعض ألفاظ اللغات الأجنبية ، واشتق ما راقه من ألفاظ . وأخرج هذا العصر الحافل كبير شعراء الانجليزية شكسبير ، وأنجب بجانبه أحد كبراء شعرائها سبنسر ، وامتد هذا العصر حتى انتهى بظهور علم ثالث من أعلامها هو ملتون .

تصرم ذلك العهد المملوء بالحرية والنشاط والجرأة والقوة ، وتلاه عصر كلاسي طويل ، بين أواخر القرن السابع عشر وأواخر القرن الذى يليه ، خمدت فيه روح المغامرة والتطلع التى كانت هتنبهة فى عصر اليزابث ، واستراح الناس الى حياة المدينة ومنتدياتها ، وانغمز الأدباء فى المعارك الأدبية فيما بينهم ، فكان نزاع بين كل من دريدن وأديسون وستيل وديفو وسويفت ومعاصريهم ، محتدم حيناً ومتروك حيناً ، ومعلن تارة ومستتر أخرى ، وانغمزوا كذلك فى المشادات السياسية وانضوا تحت ألوية الأحزاب ، وشجعهم رجال تلك الأحزاب على الانخراط فى سلوكهم والدود عن مبادئهم بأقلامهم ، فكان سويفت فى صف المحافظين ، وأديسون فى جانب الأحرار ، وكان ستيل يختلف من هؤلاء الى أولئك . وخلا أدب ذلك العصر أو كاد من ذكر الطبيعة ومجاليها ، وحتى أولئك الأدباء الذين كانوا يرحلون الى الاقطار الأجنبية ، لم تكن تحرك نفوسهم مناظرها الجديدة ، فكانوا يتناولون فى رسائلهم الى أصدقائهم فى الوطن

الانشاء الأدبي الفنى والجهد الأدبي المتصل ، والتفنن فى ابتكار صور الأدب وأوضاعه ، والخير كل الخير أن يأخذ الأدب من كلتا الناحيتين. بنصيب ، والأدب الذى اجتمع له ربح الطبيعة وحرارة شعورها وجمالها ، الى ثقافة المدينة ووسائل التوفر الأدبي فيها ، أدب لا شك بالغ من الرقى غاياته ، أما الأدب المتبدى فيظل على صدقه وجماله قاصرا ساذجا ، وأما أدب المدينة الذى بالغ فى الانغمار فى جوها وأهمل جانب الطبيعة ، فسائر الى الفساد والانحلال لا محالة .

والرومانسية هى الصفة التى ينبعث بها عادة الأدب الذى يؤثر جانب الطبيعة ، ويخفل بمظاهر عبادتها والتأمل فى ظواهرها ووصف مشاهداتها. والنسب فى آفاقها ، يؤثر كل ذلك على اللفظ. فلا يهتم بهذا الا بقدر ما يستخرج فى إيضاح أغراضه ، وعلى حياة المدينة فلا تستغرق شؤون السياسة وعلاقة رجاله برجالها وبرجال البلاط والحرب كل جهده. والثقافة ، ولا يصرفه الحاضر عن الولوع بالماضى والتأمل فيه وفى المستقبل ، ولا ريب فى أن ذلك لا يعنى اهماله لجانب الحضارة والثقافة ، بل هو بهما شديد الولوع ويدررس ماضيهما ومستقبلهما شديد الشغف ، والكلاسيكية هى النعت الذى يطلق على الأدب الذى استغرقته حياة المدينة وشغل بها عن جانب الطبيعة وانغمر فيها رجاله ، فى مجتمعيها ومنندياتها ومعاركها السياسية والحزبية والشخصية ، وآثر التألق فى اللفظ والشكل الأدبي وكفكف العاطفة فحل محلها الذكاء والبراعة واللياقة ، وضيق مجالات القول وحدد أغراضه ، وكل هاتيك صفات ولوازم تعلق بالمجتمع المترف وتنعكس عنه فى الأدب .

وقد كانت الصيغة الرومانسية هى الغالبة على الأدب الاغريقى فى عهد عظمته ، لأنه ترعرع فى مجتمع قريب من البداوة ، وفى حياة شديدة النشاط مطردة الحركة ، تجيش بالمغامرة والجلاد ، وفى حرية فى الفكر والسياسة . أما الأدب اللاتينى فكان أكثر اضطباغا بالكلاسيكية لأنه لم يبلغ ذروته الا فى الملكية المطلقة والامبراطورية الموطدة المستقرة . فكان أدب مدينة وثقافة متأنقة ، واشتهر أعلامه كفيرجيل بأحكام الأسلوب والتشبيث بمبادئ وتقاليد أدبية خاصة ، ومازالَت اليأذة هومير وانياد. فريجيل. موضوع مقابلة من هذه الناحية . وكان أدباء الانجليزية أكثر احتفالا باللاتينيين واقتداء بهم فى العصر الكلاسي فى الأدب الانجليزى ، كما كانوا فى عهده الرومانسى أميل الى اليونان وأكثر تغنيا بآثارهم ، وبعدم اطلاع الأدب العربى على الأدب اليونانى فقد هذا العصر الرومانسى.

شنتى المواضيع فاعداها . واهتم أدباء ذلك العهد باللفظ كل اهتمام
وقدموه صراحة على المعنى ، وجعلوا للشعر الفاظا لا يتعداها ومواضيع
لا يتخطاها ، واتخذوا للشعر وزنا واحدا مزدوج القافية لم يكد أحد ينظم
فى سواه ، وقلدوا الأقدمين من أدباء الاغريقية واللاتينية ونقادهما ،
وانصاعوا لمبادئهم انصاعا أعمى ، وبهذا كله ضاقت حدود الأدب ضيقا
شديدا ، وأرهقه التكلف وفدحته القيود ، فسار الى الانحلال .

وزعيم هذا المذهب الكلاسى الذى بلغ أوجه على يديه هو بوب الذى
نال الغاية من احكام اللفظ ، وقد قال عنه بعض مترجميه ان شعره ليس
الا نثر ، جيد النظم ، وذلك حق : فهو يتناول فى شعره مواضيع هى أقرب
الى النثر وأبعد عن الخيال والشاعرية ، وكان يسمى بعض قصائده
« مقالات » ومنها مقالته فى النقد التى نظم فيها مبادئ المذهب الكلاسى
فى الأدب ونقده ، فظلت مرجعا لمن تلاه من شعراء المذهب ، ومنها يقول :
« تعام اذن التقدير الحق لمبادئ الأقدمين ، فصحاكاتها هى محاكاة للطبيعة ،
فتلك المبادئ القديمة - التى انما اكتشفت ولم ت اخترع - ان هى
الا الطبيعة ، غير أنها الطبيعة منظمة مهيبة » ، وقد ترجم بوب الياذة
هوميروس ترجمة قدسها معاصروه ، ولكنها قلما تذكر الآن أو يعتمد عليها
أو تعد صورة صحيحة لشعر هوميروس ، اذ كان من المستحيل على أديب
مشبع بالروح الكلاسى أن يخلص الى روح الشاعر الاغريقى الرومانسى .
ثم دبت فى المجتمع الانجليزى روح جديدة ، وانتعش الأدب الانجليزى من
خموله باطلاعه على آداب الأمم الأخرى الناهضة كالآداب الالمانى ، والعودة
الى صدر الطبيعة الرحب الحافل بالأسرار والحياة والوحى . تمخض كل
ذلك فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل الذى يليه عن نهضة رومانسية
جديدة فكت الأدب من عقالة ونبهت الشعر من غفوته ، ورحبت آفاقه
وبسطت جوانبه ، وسبحت به فى آماذ الكون والطبيعة والانسانية ،
وانجبت هذه النهضة جمهرة أخرى من أفذاذ الأدب الانجليزى : أنجبت
وردزورث وبيك وكولردج ، ثم بيرون وشلى وكيثس ، ثم تنيسون
وبراوننج ، عدا من أخرجت من أفذاذ النثر الذين جاء نثرهم حافلا بمظاهر
النهضة الجديدة ، ولا غرو : ففى العهود الرومانسية يتجلى الروح
الشعرى حتى فى النثر ، وفى العصور الكلاسية يفيض الروح الشعرى
حتى فى النظم ، وما تزال تلك النزعة الرومانسية ملحوظة فى الأدب
الانجليزى ، على ما داخله من نزعة واقعية ، واقبال على درس مسائل
المجتمع كافة .

والعصر الرومانسى فى الأدب العربى هو ولا شك عصر الجاهلية
والعهد الراشدى وصدر العصر الأموى : فى تلك العهود وكان المجتمع

العربي أدنى الى البساطة والتبدي ، وكان الأدب مرسل السجية صادق التعبير عن خلجات النفوس : من حزن وطرب ولذة وألم ، وحب وبغض وحماسة ووصف ، خالياً في أكثر نواحيه من مظاهر التكلف اللفظي أو العمل في المعنى أو التصنع في الموضوع . وماتزال لحكم بعض الأعراب والأعرايات ومراثيهم ، وحماسيات قطري بن الفجاءة وغزليات جميل وقيس ، روعة في النفوس وغبطة شاملة ، لصدورها عن طبع سليم وشعور صميم ، هذا على رغم بساطة ذلك الأدب وخلوه من مظاهر التشقق والتعمق في التفكير .

تجرم ذلك العصر بطول عهد العرب بالحضارة والثقافة ، ومهدت حضارة المدينة وثقافتها من أسباب القول ودواعي النظم ووسائل التفنن الأدبي ما لم يتوفر في البداية فنشأ من ذلك أدب جديد يفوق أدب العصر السالف تعدد مواضيع وعمق نظرة ووفرة محصول ، وتجلى ذلك في خير آثار ابن الرومي والطائي والمتنبي والمعري والجاحظ والبديع والجرجاني وأضرابهم . على أن الأدب في طوره هذا انغمس في جو المدينة انغماساً تاماً ، فكان هذا عهداً كلاسياً صميماً : فيه تزايد ولوع الأدباء تدريجاً باللفظ واحتفاؤهم به ، ثم استعبادهم أنفسهم له وللأوضاع والمبادئ الموروثة عن المتقدمين . وضاعت مواضيع القول رويداً رويداً وكبلها التكلف والاعراب ، وتجمع الأدباء حول موائد الأمراء ورجال السياسة والحكم والحرب ، وخاضوا غمار مشاحناتهم ، وتشاحنوا هم أنفسهم فيما بينهم ، وهي مشاحنات تذكرنا بحملات سويقت ودریدن من الأدباء ، فمن هجاء الوزراء قول دعبل في وزير المأمون :

أولى الأمور بضیعة وفساد أمر يديره أبو عباد
يسطو على جلاسه بدواته فمضخ بدم ونضح مداد

ومن تهاجى الشعراء قول ابن الرومي في البحتري :

أف لأشسياء يأتي البحتري بها من شعره الغث بعد الكد والتعب
البحتري ذنوب الوجه نعرفه وما عهدنا ذنوب الوجه ذا أدب

وقول المتنبي في معاصريه :

أفنى كل يوم تحت ضبتي شويعر ضعيف يقاويني ، قصير يطاول ؟
وكم جاهل بي وهو يبجل جهله ويجهل علمي أنه بي جاهل

فى ذلك العصر الكلاسى الطويل أعرض الشعراء اعراضا يكاد يكون تاما عن الطبيعة وحديثها ومجاليها ، واقبلوا على حياة المدينة أى اقبال • وما منهم من له أمل أبعد من أن ينال النجاح فيما تهينه لابنائها من أسباب اللذة والمتعة والشهرة ، فكان منهم طامح الى الملك كالمتمننى والشرىف الرضى ، وحريص على الوزارة كالصاحب وابن العميد ، وراغب فى الولاية حظى بها كالمطامى وقصر عنها كابن الرومى ، ومغتبط بالحظوة والمناذمة كابى العتاهية والبحترى ، وغير هؤلاء واولئك ممن سعوا سعيهم ولم ينالوا مثل شهرتهم ، ومن طمحوا فيما هو دون ذلك من متعات الحياة ، ونظير ذلك كله تراه فى العصر الكلاسى الانجليزى سالف الذكر : فقد قلب دريدن بين الأحزاب وحرس على الحظوة فى البلاط ، وتدرج أديسون فى المناصب حتى صار وزيرا للخارجية ، ولم يقنع سويقت بما تولى من مناصب فى الكنيسة ، وكان اخفاقه فى مطاعمه البعيدة أحد أسباب نغمته وتشاؤمه •

وتجلت هذه الصفة الكلاسية فى الأدب ذاته : حددت مواضيعه وقصرت على ما اتصل بالحاضر القريب من شؤون الحياة فى المدينة ، وأهملت المواضيع الرومانسية الصبغة ، كالالتفات الى الماضى واستعراض حوادثه الطريفة واتخاذها مادة للنظم والنثر ، ومعالجة خرافاته واستلهاها ما بها من معانى الجمال والعظمة والبطولة ، وأهملت أحاديث الرحلات وأوصاف البلاد البعيدة والأصقاع المجهولة ، ما وجد منها فى الحقيقة وما يتخيله الشاعر ، وكفكف الخيال ونبتت آثاره من عالم الأدب •

خلا الأدب العربى فى ذلك العهد من كل هذه المواضيع ، وهى من صميم الشعر ولباب الفن وجوهر الادب اذا ما تحضر أهله وانتفعوا بالثقافة ، وانما تركت هذه المواضيع الجليلة للأدب العامى ، فظل الأدب القصصى أدبا كلاسيا وصار الأدب العامى هو الممثل للرومانسية •

دام ذلك العصر الكلاسى الطويل فى الأدب العربى طوال عهد ارتقاء الأدب ، أى زهاء ثلاثة قرون ، ثم طوال عهد انحطاطه أى الى العصر الحديث ، لم تعقبه خلال تلك الأجيال المتوالية نهضة رومانسية تخفف من غلواته وتصلح من فسادة ، وتقيم ما اعوج من مبادئه الأدبية ، وتعود به الى الطبيعة التى هجرها واستغرق فى النوم فى أحضان المدينة : لم تنبعث فيه تلك النهضة التى انبعثت فى الأدب الانجليزى فى أعقاب القرن الثامن عشر ، حين بلغ العهد الكلاسى مداه من التحكم فى أساليب الادب •

وبلغ الأدب الدرك من الاسفاف والامحال ، ذلك لأن الأدب العربى كانت تعوزه تلك العوامل التى تساعد على النهضة وتعاون على الرجوع الى الطبيعة وتنبت الميل الرومانسى ، فكان استمرار النزعة الكلاسية المحتدمة فى الأدب أكبر أسباب تدهوره الطويل .

فالأدب العربى لم يكن على اتصال بآداب أجنبية فيأخذ عنها حب الطبيعة وإيثار البساطة ، ويلتفت بإطلاعه عليها الى حقائق الحياة الكثيرة التى أهملها ، أو هو لم يكن يتنازل فيتصل بآداب العامة وأقاصيص الزراع والرعاة ، التى تنسم فيها نسائم الطبيعة والبساطة والشعور الصميم ، وهو لم يكن يرجع الى ماضيه الرومانسى الذى سبقته الإشارة اليه ، فينظر فيه نظرة حرة مميزة ، تستخلص اللباب وتنظر من خلاله الى حقائق الحياة ، انما يرجع اليه طلبا للأسلوب واللفظ ، دون المعنى والموضوع ، كان يعبه كنز لغة فصيحة الأساليب والألفاظ لا كنز حقائق منتزعة من الحياة الصميمة . فاذا نظر الى المعانى حاول حكايتها وتقليدها تقليدا كاملا على ما هى عليه ، أى حاول الأديب أن يحيا فى أدبه حياة البدو ويشعرهم بشعورهم كله ، وكان الأجدر أن ينبذ ذلك جميعا ، ولا يهتم الا بصدق تعبير أولئك المتقدمين عن شعورهم ، ووجوب صدقه فى تعبيره عن شعوره الصحيح ، فى عصره وحياته المخالفين لما كان قبله .

ظل هذا المذهب الكلاسى التقليدى سائدا الأدب العربى ، يقلد المتأخر المتقدم ، يزد عليه تقييدا وتضييقا فى مجالات القول وأوضاعه ، مادام الأدب محجوبا عن غيره من الآداب بعيدا عما جهله أو تجاهله من حقائق الحياة والأدب ، حتى أتيح له الاتصال بالآداب الغربية فى العصر الحديث ، فصحا من غفوته ونفض عنه تدريجا غبار التقليد والتقييد اللفظى والمعنوى ، وفتن بحقائق الكون ومحاسن الطبيعة التى كان عنها فى شغل . وتناول شتى المواضيع التى كان حرما على نفسه ، وبالجملة تقشع عنه عصره الكلاسى الطويل ، وأشرق عليه فجر نهضة رومانسية جديدة .

الحرب

فى الادبين العربى والانجليزى

حب الحياة والاقبال على متعانها والرغبة فى التكثر من خيراتها مركب
فى طبائع الأحياء . وليس لحاجات الحى ورغباته ومطامحه نهاية . بل
تبقى له حاجة ما بقى كما قال الشاعر ، والنزاع بين الأحياء على خيرات
الحياة من اجل ذلك متصل لا يفتر . وهيهات يفتر وحب الخلاف والنزاع
والجلاد ذاته بعض طبائع الأحياء . والشغف بالقلب والتخايل بالقوة
والزهو بالسيادة من أكبر مطامع الأحياء والانسان خاصة . ومن ثم عرف
الانسان الحرب من أول عصوره واشتغل منذ همجته بمكافحة الأحياء من
الوحش ومن أبناء جنسه ، وتم له النصر من قديم على أمة الوحش ،
وما تزال معارك الانسان مع أخيه - أو عدوه - الانسان متصلة تسب
بين حين وحين .

وقد كابد الانسان فى شتى العصور أهوال الحروب وعلم علم اليقين
عواقبها الوخيمة ، بيد أنه لم يستطع بعد أن ينبذها ، لقيامها على غرائز
فى طبيعه راسخة متأصلة ، ولما تليح به أمام عينيه من مزايا النصر ومغانمه
ومجده ولألائه ، ومن ثم كانت مهمة دعاة السلم من أشق المهام ومطلبهم
من أبعده المطالب ، وقد هبوا فى الفترة بعد الفترة ينددون بالحرب وبلاياها
ومغباتها ، فكانت صيحاتهم تترك صداها فى نفوس الكثيرين ، لا سيما فى
أعقاب الحروب الطاحنة التى أهلكت الحرث والنسل ، ثم لا تلبث غرائز
الانسان الفطرية أن تعاوده على أشدها ، وتبدأ الأمم سيرتها الاولى من
الطمع والتفانى وتحكم القوة التى لا يفصل سواها بين المطامع
المتضاربة .

وللحرب آثارها المشهودة فى أدب كل أمة بلا استثناء . ولتلك
الآثار ثلاث نواح : فالحرب أولا من أهم وسائل اتصال الأمم واختلاط
الأفكار وتلاقح الثقافات ، وهى ثانيا وحى الجيم الغفير من نظم الشعراء
ونثر الكتاب الواصفين لوقائعها وسلاحها ورجالها ، المدجدين لأبطالها

وانتصاراتهم ، المفاجئين بما كان دحر (١) الأعداء وحماية الدمار وسلامة الشرف الرفيع من الأي ، والحرب من جهة ثالثة أوحث بآثار أدبية شتى. فى تبغيض القتال ، وتسفيه اعتداء الانسان على الانسان ، والحض على السلم والدعوة الى الاخاء والصفاء وان كان أثر هذه الدعوة فى الأدب أقل كثيرا مما فيه من الترنم بمجد الانتصار والتغنى بالعز والغلب ، ولم تكثر آثار تلك الدعوة فى الأدب الا فى العصر الحديث .

وكل هاتيك الآثار بيئة فى الأدبين العربى والانجليزى ، فقد خبت الأمتان وأوضعتا فى مجال الحروب . وكان بين كل منهما وبين جيرانها وأعدائها ملاحم ومواقع جسام ، وشهد أدبها قيام نهضة حربية عظيمة وتشبيد امبراطورية واسعة ، وأنجبت كل منهما عظماء القادة وحازت مشهود الانتصارات ، وذوقت أحيانا مرارة الهزيمة ، ووقفت مرارا حيل الأخطار الجائحة التى تهدد كيائها وحريتها وتقاليدها ، وشهدت الكثير من أمثال هذا كله يجرى بين الدول المجاورة والأمم المعاصرة لها ، وعلى كثرة ما يحتويه الأدب الانجليزى من آثار كل ذلك ، فان ما فى الأدب العربى منه أكثر ، وذلك لأسباب عديدة .

فأولا ارتقى الأدب العربى وتوطد والأمة العربية ما تزال منشقة متناضلة ، تتفاخر قبائلها بأيامها وانتصاراتها ، أما الأدب الانجليزى فلم يبلغ عظمته الا فى ظل القومية الموحدة ، ولم تنشق الأمة على نفسها ويمتشق بعضها الحسام لقتال بعض الا مرة واحدة فى عهد الصراع بين الملكية المطلقة والنظام الدستورى ، وهى الفترة التى أنجبت القائل العظيم كرومويل ، وفيما عدا ذلك يمتاز التاريخ الانجليزى بخلوه من الحروب الأهلية .

وثانيا كانت الحروب أكثر طروءا (٢) فى تاريخ العرب منها فى تاريخ الانجليز ، حتى بعد توطيد الامبراطورية : فان تلك الامبراطورية ظلت - مادامت لها قوتها - تجالذ أعداءها فى الدين من روم ووثنيين ، حتى اذا ما وهنت قوتها انقسمت على نفسها ، وكثرت فى داخلها الدويلات والحروب .

وثالثا لأن كثيرا من اعلام الأدب العربى كعنترة وقطرى بن الفجاءة والمتنبى وأبى فراس ، كانوا جنودا يشهدون الوغى ويتمدحون بمآثرهم.

(١) دحر : دفع وطرد الأعداء .

(٢) طروءا : حدث لهجة

فيها ، وقل من أدباء الانجليزية من كان كذلك ، بل لقد ذكر أن المقاتلة في عهد التلاحم بين على ومعاوية والخوارج كانوا اذا تهادنوا ليلا تقابلوا تقابل الأصفياء يتناشدون الأشعار .

رابعا كان جل شعراء العربية المتأخرين متصلين بالأمراء والقواد ، فلم يكن لهم ندحة عن وصف أعمال ممدوحهم الحربية .

كان العرب في الجاهلية في قتال لا يكاد يهدأ ، وكانت بين قبائلهم وأشرافهم ثارات وعداوات لا تكاد تنتهي حتى اضطروا الى أن يتخذوا لهم موضعا حراما ووقتا حراما ما تهدأ فيه الخصومات وتغمد الصوارم وتتصل أسباب الحياة والتعاون ، وبالتمدح بالنصر في تلك الحروب والتفاخر بأيامها والتوعد والتربص ، كان أكثر ما قيل من شعر في الجاهلية . وظلت لهذا الباب من الشعر المسمى بالحماسة مكانته بعد انقضاء عهد الجاهلية بطويل ، وبه بدأ أبو تمام مختاراته الشعرية وبه سماها ، وكثر في الشعر الجاهلي ذكر السيوف والرماح والخيول وغيرها من وسائل الحرب ، وكثرت في العربية أسماؤها وأوصافها ، وارتقى بين العرب البصر بالحروب وتأصلت فيهم ملكاتها ، حتى أخرجت الجزيرة صنابير الاسلام الذين اضطلموا كتائب قيصر وآل ساسان ، ومن الشعر الذي يعرض صور حروب ذلك العهد معلقة عمرو بن كلثوم التي يقول منها :

على آثارنا بيض حسان نحاذر أن تقسم أو تهونا
وكننا الأيمنين اذا التقيننا وكان الأيسرين بذو أبيننا

وكانت الرسالة النبوية ، وكان صاحبها يجمع الى عبقرياته العظيمة المتعددة التي لم تجتمع لانسان ، البصر بالحرب والبلاء فيها فتخلف في أشعار ذلك العهد ولا سيما شعر حسان أثر ما كان بين المسلمين والكفار من كفاح ، حتى اذا ما وجد الاسلام قلوب العرب انصرفوا الى جهاد أعداء الدين ، ومن عجب أن عصر الفتوح الباهر الذي تلا ذلك لم يترك في الأدب العربي الا أثرا ضئيلا . وليس امتلاء النفوس برهبة الدين هو كل السبب في ذلك ، بل يرجع ذلك أيضا الى جدة الحالة التي وجد العرب بها أنفسهم : من قتال أمم مخالفة لهم في الجنس واللسان والمسكن ووسائل القتال ، ولعلمهم لم يجدوا من اللذة والغبطة ودواعي الفخار في اجتياح تلك الجيوش المرتبة ، ما كانوا يجدونه في مصاولاتهم البدوية المملوءة بالكر والفر والمساجلات الفردية .

وأهم من هذا وذاك أنهم لم يتعودوا الفخر بالأعمال القومية ، التي يشترك في فخارها المضرى والبكرى والتغلبى ، ولم يتعودوا أن ينظموا القصيد في الفخر على أعجمى ، وإنما هم كانوا يترفعون على الأعجمى ترفعا بدهيا بسيطا لا يكلفون له عناء النظم ، ولا يحتفون بالقول ، وآية ذلك حكاية الأعرابي الذي سئل : أتحب أن تكون ابن أعجمية ولك قصر في الجنة ؟ فقال : لا أحب اللؤم بشيء • قيل : فان أمير المؤمنين ابن أمة ، قال : أخزى الله من أطاعه !

إنما كان الفخر كل الفخر عند العرب في الظفر بعربى مثله ، من قبيلة معادية لقبيلته ، قد توارنت قبيلتاها العداوة والتراث جيلا بعد جيل • وما هي إلا أن دبت الفتنة من جديد بين العرب حتى ظهر أثرها في الشعر : فمهدد لمعاوية وحزبه ، ومناصر لبنى هاشم أو مناصب لهم • ومفاخر بكلب أو بتغلب أو معير لهذه أو لتلك ، الى عهد بشار الذي يتمدح — على كونه من الموالي — بالغضبة المضرية التي تهتك حجاب الشمس ، وظل الشعراء الذين يمدحون الخلفاء والأمراء والقواد ويمدحون بلاءهم في الحروب ، لا ينسون أن يذكروا مفاخر قبائلهم من قبل وبلاءهم في الوغى ، فإذا مدح الشاعر الحجاج ذكر ثقيفا ، أو عبد الملك ذكر أمية ، وظل الشعر العربى دائما يردد ذكر بنى مطر وبنى شيبان وبنى تنوخ وبلاء كل أولئك في الحروب ، وكان التساجل بين الشعويين وأنصار العربية فلم يكده يترك أثرا في الشعر العربى ، وحتى المتنبي يحفل شعره بذكر قبائل من مدحهم على التوالي ، رغم تعصبه للعربية ، وطول تأله من أن يرى عربا • ملوكها عجم •

بجانب تلك العاطفة القبلية نمت تدريجا عاطفة أخرى هي الرابطة الاسلامية ، اذ تمكن الاسلام من نفوس معتنقيه ومجتمعهم تمكنا أحله محل القومية ، وترددت تلك العاطفة في أشعار الشعراء الممجدين لبلاء الخلائف والأمراء في دفاع أعداء الملة ، وكان للاسلام في أول ظهوره عدوان كبيران : الوثنية وزعيمتها فارس ، وقد فرغ من شأنها عاجلا ، والنصرانية وممثلتها الدولة الرومانية ، وقد ظل جهادها دائما من أول مهمات الخلفاء وولاة الشغور ، وظلت حربها من أهم ما يشغل بال المسلمين ويغذى عاطفتهم المشتركة وشعورهم القومى ، ويتجلى أثر تلك الحروب بين الدولتين ، أو بين الديانتين ، في أشعار أبى تمام والبحتري والمتنبي ، ولما أعييت الدولة الرومانية الحيل استنجدت بغيرها من أمم النصرانية ، فكانت الحروب الصليبية ، التي ظهر أثرها في شعر شعراء مصر والشام ، ومن ذلك قول البهاء زهير فى السلطان الأيوبي :

فابلق رسول الله . أن سمية حمى بيضة الاسلام من نوب الكفر
وأقسم ان ذاقت بنو الأصفر الكرى فلا حامت الا بأعلامه الصفر

وبلق المسلمون المبالغ فى فنون الحرب البرية والبحرية ، وعنهم
أخذ الصليبيون ، ومن لغتهم نقل الغربيون كلمة الأدميرال أو أمير البحر
وغيرها من مصطلحات القتال ، وحفل شعريهم بوصف المعارك والجيوش ،
وما توقعه بأرض العدو من دمار ، كوصف أبى تمام لتخريب عمورية ،
ووصف الأساطيل ، والمتنبى هو أصدق وصافى الحرب فى المتأخرين
وأروعهم ، لأنه كان يصف ما يميل اليه بطبعه وما يمارسه ويشاهده
بنفسه ، ولا تكاد ترتوى منه لهفته ، ومن ثم لا تقل أشعاره الحرية عن
أشعار الجاهليين والاسلاميين صدقا وفطانة وتفوق بعضها جزالة وتجويدا .
ومن جيدها وصفه لخييل سيف الدولة الذى منه :

رمى الدرب بالجرى الجياد الى العدا وما علموا ان السهام خيول
شوائل تشوال العقارب بالقنا لها مرج من تحتها وصهيل
كتائب يمتطرن الحديد عليهم فكل مكان بالسيوف يسهل

ومن جيد وصف الأساطيل قول ابن هانىء الأندلسى :

أنافت بها آطامها وسمالها بناء على غير العراء مشيد
وليس بأعلى كوكب وهو شامق وليس من الصفايح وهو صلود
إذا فرت غيظا قد ترامت بماوج كما سب من نار الجحيم وقود

ولم يقتصر ذكر الحرب على مواضعها الخاصة بها ، ومناسباتها بين
الحين والحين ، بل كان أمرها من الشمول والاتصال والحضور فى أذهان
الناس بحيث تسرب ذكرها فى شتى أبواب الأدب ، واستعيرت صفاتها
وأحوالها لمختلف الأغراض : ففى النسب استعيرت السيوف والسهام
للجفون واللواحظ (١) ، والقتل لشدة التئيم ، وبالسيف شبه الممدوح
صقلا ومضاء (٢) وبه جرت الأمثال فليل : سبق السيوف العذل (٣) ،
وشبه المتنبي المنون (٤) بعسود لا تجدى المشرفة والعوالى فى قتاله .

(١) اللواحق : جمع لاحظة وهى المقلة .

(٢) مضاء : أى حادا سريع القطع .

(٣) العذل : فى المثل : « سبق السيوف العذل » يضرب لما قد فات ولا يستدرك .

(٤) المنون : الكثير المن .

ولا تنجى السوابق المقربات من خبئه ، وقرن التمدح بالبلاء فى الحرب
بالتشبيب ، كما كان يفعل عنتره ، وكما قال أبو عطاء السندى وهو البيت
الذى تمثل به صلاح الأيوبى فى بعض رسائله :

ذكرتك والخطى يخطر بيننا وقد نهلت منا المثقفة السمر

وفى الأدب الانجليزى أوصاف رائعة للحروب ، وتمجيد شائق
لأبطالها ، وتفاخر بانتصاراتها وما كسبته الأمة من اعتزاز وهيبة ، وللمتون
ومارفيل وكامبيل وتينيسون وكبلنج فى ذلك أشعار ماثورة . وقد كان
مجال القول أمام أمثال أولئك الشعراء ذا سعة : فتاريخ الامبراطورية
حافل بعظائم جنودها . نعم كانت سياسة بناتها دائما سلمية لا تلجأ الى
الحرب الا فى الحالة القصوى . ولا تندفع الى ميدان القتال لمجرد الرغبة
فى الظفر والافتخار . ولكن الدولة كانت دائما عزيزة فى وطنية أبنائها
وقوة أسطولها ، وقد كسب لها جيشها وأسطولها انتصارات باهرة خالدة ،
ودوخ أبطالها أمثال كرومويل وملبرا ونلسون وولنجتون الأهم ، وأعلوا
كلمتها فوق كل كلمة .

ولا يستأثر الشعر دون النثر بحديث الحرب ووقائعها وأبطالها ، بل
هناك كتاب سوذى عن نلسون ومقالات ماكولى عن كليف وهستنجر
وفردريك الأكبر ، وتاريخه وتاريخ جيبون ، كل هاتيك خافلة بالوصف
الدقيق البليغ لشتى المواقع والحروب ، هذا الى ما فى مختلف
القصص من ذلك ، ولا يكاد يكون فى العربية من مثل ذلك سوى بعض
خطب الامام على بن أبى طالب ، ورسائل فى بعض الخلفاء الى ولائهم
ينهونهم أن يؤذوا المسلمين أو يعيشوا فى الحرث والنسل ، وخطب بعض
القواد كتلك المنسوبة الى طارق بن زياد والتي تفيض بلاغة وشجاعة .
ولا غرو فقد كان للشعر دائما التقديم على النثر ، وقد ظل طويلا يستأثر
دونه بالحفاوة .

ولم يقتصر شعراء الانجليزية على نظم القصيد فى تمجيد انتصارات
وطنهم وعظائم أبنائه ، بل التفتوا - كدأبهم فى كل فنون القول - الى
الماضى والى الخارج ، ونظموا فى المواقع التاريخية والخرافية ، ارضاء
للفن وتسريحا للخيال وتنشيطا للفكر ، فوصف تينيسون آخر معارك الملك
آرثر وصفا أصبح من ذخائر الأدب المعدودة وآثاره السائرة ، أودعه كل
مقدرته على تجسيم الوصف وخلق المنظر الكامل بدقائقه وألوانه وأصواته ،
ونظم هاردي قصائد شتى فى حروب نابليون والثورة الفرنسية ، وكان

له بحروب نابليون غرام كبير لقرب عهدها منه واشتراك بعض اقربائه فيها ، وفي تلك الحروب نظم ملحمة الكبيرة التي تعد اكبر آثار الشعر الانجليزى الحديث ، وفيها ينتقل بين شتى المناظر والأوصاف والنظرات والتأملات .

ولم يخل الأدب العربى من ذم للحرب ودعوة الى الاخاء ، ومن آثار ذلك أبيات زهير بن أبى سلمى المعروفة ، من معلقته حيث يمدح السيدين اللذين أصلحا بين عيسى وذبيان بعدما تفانوا ، ويستطرد الى قوله : « وما الحرب الا ما علمتم وذقتهم » ، غير أن ذلك قليل نادر . وقد كان الجهاد دائما شعار الدولة الاسلامية ، وكان النزاع والغلاب دأب أمرائها ، وبذلك تفاخر فرسانها وبه امتدحهم مادحهم من الشعراء ، وظل السيف والرمح والبند والخيول فى شعر شعراء العربية مرادفات للجز والمجد والسيادة ، ولم يخل الأدب الانجليزى من محبذين للحرب متغاضين عن مغباتها (١) كتنيسون الذى كان يرى الحرب وسيلة لا غنى عنها من وسائل العمران وتطهير النفوس من شوائب المادية والترف والأنانية ، غير أن الأدب الانجليزى أغنى بآثار النظرة الانسانية ، التى تبغض الحرب وتصور بشاعتها وبلاياها .

فى قصيدته « البطولة » يقول كوبر معرضا بملوك فرنسا : « أيها الملوك الذين يستهويكم المجد وتؤيدون بالدم دعواكم ، وتهوون بالضربة ثم تبررونها بالدفاع عن النفس ، المجد بغيتكم والحق ذريعتكم ، تسكن عبر النهر الذى يحد ملككم الحق ، ويريكمدى ما يجوز لكم أن تنشروا عليه حكمكم ، أمة لا مطعم لها فى تاجكم ، حريصة على السلام ، سلام جيرانها وسلامها ، ولكن يا لشؤم طالع تلك الأمة ! ويا شدة ما تتقاضاها جريرتها الوحيدة ، جريرة مجاورتها اياكم ، أما هى الا أن تنطلق الأبواق حتى تزحف كتائبكم الى الخارج شاقة طريقها وسط المحصول الناضج ، يطأون فى كل خطوة حياة جماهير وخبز أمة ، فالأرض امامهم جنة يانعة ، وهى خلفهم يباب (٢) بلقع » (٣) .

وفى قصيدته عن موقعة بلنهايم التى كسبها القائد النابغة ملبرا ، يصف سوذى شيخا ألمانيا جالسا ذات مساء أمام كوخه فى أرباض البلدة

(١) مغباتها : عاقبتها .

(٢) يباب : خراب .

(٣) بلقع : الخالى من كل شىء .

التي دارت حولها وحى المعركة ، بعد جيل من حدوثها ، وحفيداه يلعبان حوله ، فاذا الطفلة ترى أخاها يدحرج شيئا مستديرا قد عثر به بجانب الجدول ، فتناول الشيخ ذلك الشيء والطفلان مشرئبان اليه يريدان أن يعلما ما هو ، حتى هن الجد رأسه قائلا : هذه جمجمة مسكين سقط يوم النصر العظيم ، وكثيرا ما أعتز بهذه الجمجمة فى الحديقة « وحين أحرث الحقل كثيرا ما يثيرها المحراث من التربة ، ولا غرو فقد سقط آلاف مؤلفة فى ذلك النصر العظيم . فيتساءل الطفلان بفارغ الصبر عن تلك الحرب وسبب تناحر الفريقين ، فيقول جدهما : شنت الانجليز صفوف الفرنسيين ، أما سبب ذلك فلا أعلمه ، بيد أن الجميع يقولون انه كان نصرا عظيما . ويمضى واصفا كيف أحرقت مزرعة أبيه وألجئ الى الفرار وكيف هلكت الجبالى والرضع ، ثم يردف قائلا : ولكن مثل هذه الأشياء يا ابنى تحدث فى كل نصر عظيم، فالمجد لدوق ملبرا ولأميرنا الطيب برجين، فتصيح الطفلة : كيف ؟ لقد كان ذلك أمرا ادا (٤) ! فيراجعها الشيخ . كلا يا بنيتى بل كان نصرا عظيما ، وكل انسان أطرى الدوق الذى كسب تلك الموقعة ، فيصيح الطفل . وماذا كانت فائدة كل ذلك ؟ فيسلم الشيخ تسليم العاجز قائلا : أما ذاك فلا علم لى به ، بيد أنه كان نصرا عظيما .

فأثار الحرب واجاديتها على مختلف ضروبها ظاهرة محسوسة فى جوانب الأدبين ، ولا ندحة هن أن تكون ظاهرة محسوسة فالحرب ناحية من نواحي حياة المجتمع الانسانى جليلة الخطر حاضرة الأهمية دائما ، تتصل برفاهية الأفراد ومستقبل الجماعات ومصائر الدول والمدنيات ، وبالحرب تتعلق كل معانى القوة والحرية والدود عن الحقيقة ، وقد كانت الحرب أحيانا ممهدة لانتشار الحضارة وازدهار الثقافة ، كما كانت اذا استفحلت وبالا على العمران وبلاء على الانسان بيد أنها قد تركت فى الآداب تلك الأوصاف الممتعة للملابسات الحروب ومشاهدها وأعقابها ، وقد خلدت هذه الآثار الأدبية الرائقة عبرة ومتاعا للألباب ، بعد أن غبرت تلك الحروب وهدأت تلك المطامع والشارات ، وذهب مسعروها ومن اصطلوا بها واستوى فى الترب القاهر منهم والمقهور .

سباع وهمية ، وعلم العرب أن الغول والعنقاء مستحيلان استحالة الخل
الوفى ، وظهر من المثقفين ذوى النفوس الرقيقة من انتهوا ونهوا عن قتل
الحيوان والتغذى بلحمه والتلهى بصيده وتعذيبه وسجنه كأبى العلاء
الحكيم العربى ، وكالمصور الايطالى ليوناردو دافنشى ، الذى كان يبتاع
الطيور الحبسية ليطلقها ويشمى نفسه المتألمة برؤيتها تضرب أجنتها
ذاهبة الى الفضاء ، وظهرت آثار تلك العلاقات المختلفة بين الانسان
والحيوان فى الآداب : ففى الأدب الاغريقى وصف المغامرات حملة
الارجونوت التى خرجت لاستخلاص فراء ثمين يحميه غول فظيع ، وفيه
وصف لجماعة السيكلوب أو المردة ذوى العيون المفردة ، وما كان بين
كبيرهم وبين يوليسيز من كفاح ، وفى الأدب الفرنسى قطعتان بديعتان
تفيضان رحمة وجمالا ، تصور احدهما مصرع غزال والأخرى مصرع ذئب
على أيدي الصيادين .

والأدب العربى حافل بذكر أنواع الطير والحيوان التى عرفها
العرب فى باديتهم ، كالجمل والحصان والأسد والقطاة (١) والحمامة ،
وكان من عاداتهم أن يمنحوا بعضا منها كنيايات : فأبو قيس للقرود
وأبو خالد للأسد ، وكان لبعضهم أسماء فى لغتهم عديدة ، وبها ضربوا
الأمثال فقالوا : أهدى من قطاة وأحذر من غراب وأعدى من ظليم (٢) ،
وسيروا الكنى فقالوا : جبان الكلب ومهزول الفصيل للجواد المضيف ،
واستعاروا أوصافها للانسان فقالوا : جيد كجيد الغزال وعيون كعيون
الجتآذر (٣) وشبهوا خوذات المقاتلين ببيض النعام ، وتشاءموا بأصوات
بعض الحيوانات كالغراب والبومة ، وزجروا الطير يتفاءلون بالسارح منها
ويتشاءمون بالبارح ، وأجروا الأمثال على أسنتها كقصة الثيران الثلاثة
المنسوبة الى الامام على ، وكالقصص التى أنطق فيها الحيوان ابن المقفع ،
والمحاورات التى نحلها اياها اخوان الصفا ، واسترعت أحوال الحيوان
ومسمعاته انتباههم فتدبروها مليا كما فى تلك الرسالة البليغة عن النمل
المنسوبة الى الامام على أيضا ، وفى التدبر فى أحوال كثير من الطير
والحيوان والهوام أفاض القرآن الكريم فى شتى المواضع ، ودعا الانسان
الى التفكير فيها ، وألف الجاحظ كتابه المعروف جامعا بين العلم والأدب .

وقد أطنب أدباء العربية خاصة فى ذكر الابل ووصفها فى أشعارهم ،
ووصف سيرها وحنينها الى أعطانها واستحاثها ومناجاتها ، ولا غرو فقد

(١) القطاة : نوع من اليمام يؤثر الحياة فى الصحراء .

(٢) ظليم : ذكر النعام .

(٣) الجتآذر : جمع جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية .

الطيران والحيوان

فى الادبين العربى والانجليزى

وحدة الأحياء واشتراكهم فى صفات ترفعهم جميعا عن الجماد وتميزهم بالشعور بالغبطة والألم ، كل هاتيك حقائق من الموضوع بحيث اهتدى إليها الأولون قبل أن يحققها العلم الحديث ويفصل دقائقها وخوافيها ، وتنازع الأحياء البقاء ، وعدوان أقواها على أضعفها وفوز القوى بالغلب والبقاء ، هذه كذلك أمور واضحة رأى المتقدمون مظاهرها وظهرت لمحاتها فى آدابهم ، وقد كان موقف الانسان منذ عصوره البدائية من الحيوان غريبا لا يخلو من تناقض وطرافة : كان فى أول أمره ينازع السباع البقاء ويفترسها ليتغذى بها ، ثم استأنس بعضها وسخره فى أعماله تسخير العبيد ، واتخذ بعضها للزينة والمسرة ثم عاد فقدس بعض عبيده أولئك ورفعهم الى مصاف الآلهة ، لأنهم يدرون على حياته خيرا وبركة ، بينما ظل يتلهى باقتناص أوبد الوحش . ويجرب بأسه وفروسيته بأصماء حشاشاتها ، والتفريق بين الأمهات منها وبين الصغار .

واخترع خيال الانسان فى تلك العهود البعيدة عجائب الحيوان وغرائب الأطيار ومخيف الكائنات ، كما توهم البابليون وحشا هائلا يقذف الماء من فيه فيغمر السهل والجبل ، وكما تخيل الاغريق الجيصاد الطائرة والسباع ذوات الرؤوس المتعددة وخلائق شعور رؤوسها أفاع باغية ، وتوهموا الأبطال المغامرين منطلقين لقتال تلك السباع والأفاعى ، وكما تصور العرب الغول والعنقاء ، وزعم السندباد أنه سافر على جناح طائر ميمون يدعى الرخ ، وكما توهم أوائل الانجليز سبعا ضاريا قد ألقى الرعب فى مملكة بأسرها ، حتى صارعه فصرعه الأمير بيولف فى الملحمة المسماة باسمه ، ولم تكن كل هذه السباع الوهمية التى هدى بذكرها الانسان فى عهوده الأولى ، الا صدى لذكريات الوحوش الهائلة التى كانت تقطن البر والبحر فى غابر الأزمان ، وكان الانسان المتوحش على فزع منها وحذر دائبين .

فلما بلغ الانسان طورا من الحضارة أرقى ، انزل تلك العجماوات التى كان ألها من محاريب عبادته ، ونبتذ تلك الخرافات وما بها من

كانت قوام حياة العربى فى حله وترحاله ، بل كان لها أثر جليل فى
تطور الشعر العربى ذاته ، اذا صح ما قيل من أن أوزان الشعر اشتقت
من مشياتها وتدفعها ، وهو قول وجيه ، وقل شأن الابل قليلا حين تحضر
العرب ، ولكن ظلت لها أهمية عظيمة ، وظلت من أهم وسائل الانتقال
وحمل المتاجر برا ، وحافظ أدباء العربية على تقاليد الجاهليين من الاطناب
فى ذكر الابل وتقديمه بين أيدي المديح حتى استقلت الابل بجانب عظيم
من الشعر العربى ، ومن خير أوصافها قول طرفة فى معلقته :

وانى لأقضى الهم عند احتضاره بعوجاء مرقال تروح وتغتدى
تبارى عتاقا ناجيات وأتبعته وظيفا وظيفا فوق مور معبد

وأطنب أدباء العربية أيضا فى ذكر الخيل ووصفها فى أشعار
الحماسة ، وما ذاك الا لأنهم فى جاهليتهم واسلامهم كانوا أمة جلاذ
وكفاح ، الخيل أول عدتهم فى القتال والذود عن حقيقتهم ، فكان أعز
مكان فى الدنى لديهم ظهر سابح كما قال المتنبي ، وطالت صحبتهم
الخيال ، وأطردت ملازمة الخيل لهم ، فكانما ولدت قياما تحتهم كما قال
المتنبي أيضا ، وكانما ولدوا على صهواتها ، ووصفوا مواقفهم فى الحروب
ومواقف جيادهم ، كما فعل عنتر فى معلقته ، حيث يذكر كيف ازور
حصانه من وقع القنا بلبانه ، وكيف شكا اليه آلامه بعبرة وتحميم ،
وصار لكلمة الخيل أو كلمتى الخيل والرجل مغزى خاص بالحرب ، بعد
أن استعملها القرآن الكريم فى تلك الآية البليغة : « **وأعدوا لهم**
ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » ، وتأنق أبو تمام والمتنبي فى
وصف الخيل وسماتها وأخلاقها وزخوفها (١) ، ومن بديع أوصافها فى
العربية قول الفرزدق فى جواد أغر معجل :

فكأنما لطم الصباح جبينه فاقتص منه فخاض فى أحشائه

وأبيات أبى تمام التى يقول منها :

ذو أولق تحت العجاج وانما من صحة افراط ذاك الأولق

وقول أبى الطيب فى وصفه للمعركة التى دارت على ربه حصن

الحدث :

اذا زلقت مشيتها ببطونها كما تمشى فى الصعيد الأراقم

(١) زخوفها : الزحف : الجيش الكثير والجمع زخوف .

وفاز الأسد والذئب باهتمام أدباء العربية ، وتركوا في الشعر العربي أوصافا شائعة وقصصا ممتعا ، من ذلك وصف بعض المقاتلة أمام أمير المؤمنين عثمان بن عفان طلوع أحد الليوث عليهم في جلجلة ورهبة زلزلت الأرض وخلعت قلوب الفرسان وجيادهم ، ومنه أيضا وصف الفرزدق للأطلس العسال الذي رأى ناره موهنا فأناه ، فقامه عشاءه ، حتى امتلأ الذئب فتكشر ضاحكا ، ولكن الفرزدق حين رأى نيوذ الذئب بارزة لم يظن أن الذئب يبتسم ، بل جعل قائم سيفه في يده بمكان ، وتاه على الذئب بما أناله من قرى (١) بدل أن يرشقه بشبابة (٢) سنان ، أما الباحثرى فلم يكن بهذا المكان من الجود ، بل كان يحدث نفسه بصاحبه الذئب ، كما كان الذئب يحدث نفسه بصاحبه الباحثرى ، فرمى الانسان الوحش فأصماه ، ونال من لحمه قليلا ، كذلك يصف المتنبي في أبيات هي من غرر الشعر العربي ملاقة بعض ممدوحيه للأسد ، وتغفيره (٣) اياه بالسوط ، وهناك كذلك وصف البديع في بعض مقاماته لمثل هذا اللقاء الرائع بين فارس مقدم وبين ملك الحيوان ، ومنه قوله على لسان الفارس :

وقلت له : يعز على أنى قتلت مناسى جلدا وقسرا
ولكن رمت شيئا لم يرمه سواك ، فلم أطق ياليت صبرا
تحاول أن تعلمنى فسرارا ، لعمر أبيض قد حاولت نكرا

ولما تحضر العرب وانتشر في عليتهم الترف ، تألقوا في اتخاذ الحيوان للزينة والمتعة ، وكان الخروج للقنص من وسائل لهوهم وترويحهم عن النفس ، وكثر في الشعر وصف تلك الأفيال التي كان الخلفاء الفاطميون يسيرونها في مواكبهم ، والمها التي كانوا وكان غيرهم يزينون بها حظائرهم وقصورهم ، ووصف الخروج للقنص وكلاب الصيد ، وقد وصف أبو نواس في أبيات مشهورة كاسا له قد صورت عليها مها تديرها بالقسي الفوارس ، ووصف المتنبي لبؤة مقتولة وأشبالها حولها جائمة ، وكان قد هبى ذلك المنظر في حفل استقبال فيه سيف الدولة سفراء قيصر ، ولابن الرومي عينية بارعة في وصف يوم طرد (٤) تمتع به في رفقة له ، ومن نوادر أبي دلالة أنه خرج مع الخليفة المهدي وعلى بن سليمان للصيد ، فأخطأ على الرمية وأصاب أحد كلاب الصيد فقال أبو دلالة :

(١) قرى : كرم

(٢) شبابة : حد طرفه

(٣) تغفيره : العفوة : بياض تخالطه حمرة فيصير كلون العفر

(٤) طرد : مزاوله الصيد

قد رمى المهدي ظيما
وعلى بن سليمان
فهنئا لهما : كل
شك بالسهم فؤاده
رمى كلبا فصاده
امرىء يأكل زاده

وكان من عادة أدباء العربية أن يمثلوا لأحوالهم بأحوال الحيوان ، ويستعبروا صفاته لما هم بسبيل وصفه ، فيمثلون لحنينهم بحنين الابل الى أعطانها ، ولوجدتهم بوجد الظبية على خشفها (١) قد صرعت نبال الصائد ، أو مزقته برائن السبع الضارى ، يصفون مصرع طفلها واقتقادها اياه وجزعها وتلدها (٢) لهلاكه ، فى أبيات كثيرة يبدءونها بقولهم : « وما ظبية ... » أو نحو ذلك ، ويعقبون عليهم بقولهم : « بأوجع منى يوم بانوا ... » أو ما اليه ، كما كان من التقاليد المتبعة فى أشعار النسب والوجد مناجاة الحمائم وسؤالها عما يشجيجها ، ومقابلة شجوها بشجوج الشاعر ، ووصف تهييجها لذكريانه وتجديدها لآلامه ومن محاسن ما قيل فى الحمائم قول أعرابي :

وقبل أبكى كل من كان ذا هوى
وهن على الأطلال من كل جانب
مزرجة الأعناق غر ظهورها
ترى طررا بين الخوافى كأنها
ومن قطع الياقوت صيغت عيونها
هتوف البواكى والديار البلاع
نوائح ما تخضل منها المدامع
مخطمة بالدر خضر روائع
حواشى برد زينتها الوشائع
خواضب بالحناء منها الأصابع

أما أشد شعراء العربية شغلا بأمر الأحياء وتأملا فى أحوالها وذكرا لها فى شعره فهو المعري ، الذى بلغ من نفاذ البصر فى شؤون الحيوان وشدة الرحمة له حيناً ، والانكار للؤم طباعه حيناً ، وطول التأمل فيها تأملا موضوعيا لا ذاتيا ، ما لم يبلغه غيره من شعراء العربية فهو تارة ينعى على الضرغام مغادرته غابه لينازع ظبى رمل فى كناس (٣) ، وتارة يسمي للذئب بالشاة علما بما بالذئب من داء السغب (٤) ، وتارة يبكى للحمامة البريئة يعاجلها الصقر عن نقرها وهديلها ، وطورا يرميها بمائلة غيرها من الحيوان فى الجور والعدوان ، وهو ينهى عن فجاعة

(١) خشفها : الخشف : ولد الظبية أول ما يولد .

(٢) تلدها : التلد هو الالتفات يمينا ويسارا تحيرا .

(٣) كناس : مدخل فى الشجر يأوى اليه الظبى ليستتر والجمع اكناسة .

(٤) السغب : سغبا وسغابة : جاع مع تعب .

النحل فى شهبها أو الناقة فى فصيلها فى حائته الرصينة من لزوم
ما لا يلزم .

لا يكاد يوجد فى الأدب الانجليزى شئ من ذكر تلك الأنواع من
الحيوان سالف الذكر ، التى احتفى بها أدباء العربية أى احتفاء ، وحفل
بذكرها الشعر العربى فى شتى عصوره ، فلا الجمل ولا الحصان ولا الأسد
والدئب ، ولا الحمائم والظباء ، تمثل ذلك المكان الظاهر من موضوعات
الأدب وتشبيهااته وكنائياته وأمثاله ، وذلك لاختلاف البيئة الاقليمية
والاجتماعية ، فتملك ضروب من الحيوان لا تكثر فى انجلترا كثرتها فى بلاد
العرب ، بل لا يوجد بعضها أصلا ، والانجليز كانوا جوابى بحار لا رحلى
صحار ، ومقاتلة على الماء أكثر منهم على البر ، فلا غرو ألا يملأوا بتلك
الأنواع الا عرضا ، وأن يمتلئ أدبهم بوصف ضروب أخرى من الأحياء
غير هذه .

انما يحفل الادب الانجليزى بذكر الطيور الجميلة المغردة ، ووصفها
ومناجاتها ، ووصف أغاريدها والاسترسال معها الى آماذ الخيال البعيدة
والطيران معها على أجنحة الشعر ، فالأدب الانجليزى غنى بالشعر الطبيعى
الذى قصده به الوصف الطبيعى وحده ، وهذا الوصف حافل بوصف
الطيور ، والأدب الانجليزى غنى أيضا بالوصف الطبيعى لم يقصد لذاته ،
وانما يتخلل شتى أغراض القول ، وهذا مملوء بذكر الطير أيضا ،
والشعر الانجليزى غنى فوق ذلك بالقصائد التى كتبت خاصة فى مناجاة
الطيور وعبادة أصواتها المطربة ، ولم يخل الأدب العربى من شئ من
ذلك ، ومن محاسن ما فيه منه وصف الصابى للبيغاء ، وهو من غرر
الشعر العربى ومنه يقول :

عدت من الأطيوار ، واللسان يوهمنى بأنها انسان
نظير من عينين كالغصنين فى النور والظلمة بصاصين
تميس فى حلتها الخضراء مثل الفتاة الغادة العذراء

بيد أن الشعر الانجليزى أغزر وأحفل بتلك الآثار . ولكل من
وردزورث وكيثس وشلى وتيسون وسوينبرن قصائد فى ذلك بالغة غاية
السمو العاطفى والكمال الفنى ، ولم يكتف الشعراء بمناجاة أطيوار جزيرتهم
الغريبة الكثيرة ، فلجأوا على عادتهم الى الخرافة وتصور كولردج طائرا
غجيبا سماه الالباتروس جلب اليمن والبركة لأصحاب الملاح القديم ،
ثم جزاه هذا الأخير جزاء سنمار فقتله ، فكان ذلك سبب ضلاله وهلاك
أصحابه .

ومن غرر تلك الأشعار فى الانجليزية قول وردزورث : « أيها
القادم السعيد ، هانذا أسمعك فأطرب ، أسمعك طائرا أم صوتا محلقا ؟
أنا أسمع هتافاتك المرددة وأنا مضطجع على العشب ، ويخيل الى أنها تمر
من ربوة الى ربوة ، قريبة بعيدة فى آن واحد : ترسل أغاريدك فى الوادى
المكسو بالأزهار وضياء الشمس ، فتثير فى نفسى رؤى بعيدة ، مرحبا بك
يا رسول الربيع ! يا من كنت اليه أستمع اذ أنا صبى بالمكتب . وطالما
جعلنى هتافك هذا أنلفت فى كل ناحية باحثا فى الشجيرات والادواح
والسما ، وطالما ضربت فى الغابات والأعشاب فى نشمدانك ، وظللت أنت
دائما أملا أو حبا يطول التشوق اليه ولا يرى أبدا ، وما أزال أستطيع
الاستماع اليك والانبطاح فى السهل مصيخا اليك ، حتى أستعيد فى
مخيلتى ذلك العهد الذهبى » .

ولجون لوجان من شعراء القرن الماضى مقطوعة عذبة فى مناجاة.
الطائر عينه ، قد وقع فيها على بعض معانى وردزورث وتعبيراته ، وان
لم يقل عنه جمالا وابتكارا ، قال : « مرحبا يا غريب الأراكة الجميل ،
يا رسول الربيع ، ها هى ذى السماء تعد لك مقعدك من الريف ، ويردد
الغاب صدى الترحيب بك ، اذا ما رتث (١) الأقحوان العشب أبنا أن
سنسمع صوتك من جديد ، فهل لك نجم يهديك السبيل أو يوقت لك
دورة العام ؟ أيها الزائر المطرب ، انى معك أرحب بأوان الأزهار وأسمع
الموسيقى العذبة التى ترددها الاطيار فى حواشى الخمائل ، ويسمع صدى
المكتب صوتك المنبى بالربيع الجديد ، وهو يطوف فى الغاب يقطف آخر
زهيرات الشتاء ، فيتوقف منصتا ويقلد تغريدك ، أيها الطائر المطرب :
ان خميلتك خضراء أبدا ، وسماك أبدا صافية ، وليس فى أغاريدك شجن
ولا فى عامك شتاء ، فياليتنى أستطيع الطيران فأخف معك على جناح
الحيور ، نطوف طوفتنا السنوية حول الأرض ، رفيقى ربيع مستمر »

بأمثال هذه الأوصاف الطبيعية الشائقة ، والمناجاة الحارة الصادقة
يحفل الشعر الانجليزى ، ومثل هذا الولع بالطيور والشغف بمناجياتها
ووقف القصائد والمقطوعات على الترجم بحبها غير شائع فى الأدب العربى
فالشعر العربى أحفل بذكر الحيوان ولا سيما الضروب سالفة الذكر
والشعر الانجليزى قليل الاحتفال بها عظيم الحفاوة بالطير ، ولا غرو
فقد كان العرب رجال مجتمع مقبلين على أسبابه ووسائله ، يحمدون الابل
التي هى قوام حياتهم والخيول التى هى عمادهم فى معركة الحياة.

(١) رقص : حسن وزين .

ويتمدحون بالبأس والشجاعة فيذكرون قتال الأسود وجندلة الذئاب ، وفيما عدا ذلك لم يكن لهم كبير التفات، الى الطبيعة ، ولا شديد عطف على أبنائها ، وأشعارهم في هذا الباب لا تنم عن حب للحيوان أو شغف بحياته ، وكان حب الطبيعة والهيام بجمالها من أكبر مميزات الأدب الانجليزي ، والطيور أكثر تمثيلا لجمالها وجورها من الأسود والذئاب ، فكثر في الأدب الانجليزي وصف الطيور ، كما كثر وصف الأزهار والآجام والأنهار ، وفي شغف الأدب الانجليزي بهذه واحتفاء الأدب العربي بتلك رمز وبيان للمصبغة الاجتماعية التي ترين على الأدب العربي ، والنزعة الطبيعية التي تتجلى في الأدب الانجليزي .

الذاتى والموضوعى

فى الادبين العربى والانجليزى

تتأثر النفس الانسانية بكل ما تحس من مظاهر الحياة ، فاذا ما عبر المرء عن تأثره ذاك نثرا أو نظما فى لفظ نقي ، كان تعبيره ذاك أدبا ، فالأدب نتاج عاملين : مؤثر هو مظاهر الحياة التى تحفز الأديب الى الانشاء ، ويتخذها موضوعا لانشائه ، ومتأثر هو ذات الأديب التى يترجم القول المنظوم أو المنثور عن خوالجها ، وليس يخلو عمل أدبى من آثار هذين العاملين ممتزجين ، فكل عمل أدبى هو ذاتى وهو موضوعى ، غير أن الأعمال الأدبية تتفاوت حظا من هذا ونصيبا من ذاك ، فاذا استرسل الأديب فى وصف ما هو بازائه من مظاهر الحياة وشرح أحوالها على علائها . مكفكفا (١) من عنان عواطفه محكما دونها الفكر ، كان العمل الأدبى موضوعيا ، وإن أرخى الأديب العنان لعواطفه ملما بالموقف الذى هو حياله الماما خفيفا ، كان عمله الأدبى ذاتيا .

فمظاهر الحياة المختلفة هى مادة الأدب لأنها مادة الاحساس والتفكير ، وبدونها لا يتصور تفكير ولا شعور ، ولا تكون النفس الا خواء تاما ولا الفكر الا فضاء مطلقا ، والنفس الانسانية هى العامل الفعال الذى يعكس صور مظاهر الحياة تلك ، ويمنحها من الصفات ما يروق المرء حيناً ويطر به ويحببه فيها ، وما يسوؤه حيناً ويؤله ويبغضه فى بعض تلك المظاهر ، والأديب مهما توفّر على موضوعه الذى هو بصده ، ومهما كان موضوعه ذاك بعيدا عن نفسه وعن محيطه وزمنه ، ومهما حكم فيه الفكر السليم والرأى المنزه ، لا يخلو من أن يكون معبرا فى عمله الأدبى عن ذاته ، مصدرها عن طبيعته ، وهى طبيعة يتفق فيها مع الآخرين الى مدى ، ويختلف عنهم فى بعض نواحيها .

بل لا يعدو الحق من يقول ان الأديب لا يزيد مدى حياته على ان يعرض نفسه على قرائه ، مهما تباينت موضوعاته وتعددت أشكال أدبه ، فسواء راح مادحا أو ذاما أو واصفا أو قاصا ، أو ملاحظا لأحوال الناس

(١) مكفكفا : مصرعا .

أو متأملا في ماضيهم ومستقبلهم ، فهو لا يعدو محيط نفسه وتجاريبه وعواطفه ، بل ان بعض كبار الأدباء انما بلغوا أوج نجاحهم الأدبي في العمل الأدبي الذي يصف كل منهم فيه قصة حياته ، أو أهم تجربة من تجاربه ، أو أزمة نفسية عبرت به ، كما قص لامتري قصة حبه في « رفائيل » ، وكما وصف كل من شاتوبريان وأناطول فرانس نشأته في آثاره الأدبية ، وكما وصف تشارلز دكنز قصة طفولته في « دافيد كوبرفيلد » ، وبلغ القصصيون ذروة نجاحهم في قصصهم التي كان أبطالها صورا من أنفسهم أو من بعض حالاتهم النفسية ، كما كان جوته فاوست ، وكما كان أناطول فرانس بعض أشخاص كل رواياته .

وأناطول فرانس نفسه يقول اننا لا نكتب الا عن أنفسنا ، ويؤيد فيقول اننا لا نقرأ حين نقرأ الا أنفسنا . ولا غرو فالمرء لا يدمن الا قراءة الضرب الذي يعجبه من القول ويصادف همى في فؤاده ، ولا يصطفى من الكتاب الا من يشاكله نفسا ، وهو حتى حين يقرأ موضوعاته الأثيرة من آثار أدبائه المختارين يصيغ كل ما يقرأ بصيغة نفسه ويؤوله على حسب أذراكه وطبعه ، ويستخلص منه ما قد لا يستخلصه غيره ، وما لعل المنشئ نفسه لم يقصده ، والناس انما يقرءون الشاعر أو الكاتب وهو يتحدث عن نفسه لأنهم يرون في نفسه صورة من أنفسهم ، وفي ذاته صدى من ذواتهم ، فاذا ألفوه قد أغرب وباعد بين ما يصف وما يحسون نبذوه واستهجنوه ، ولم يعنهم مما يصف من أحوال ذاته التي لا يحسونها في ذواتهم ، أكثر مما يعنهم من أحوال معيشتهم الخاصة ومطعمه وملبسه .

والذاتي في أدب اللغة أسبق ظهورا من الموضوعي : يبدأ الأدب في عهده الأول بتعبير الانسان عن خواطره العاجلة وأحاسيسه السانحة وتجاريبه الحاضرة ، يرسل ذلك على سجيته وبديته قولا سائرا أو أبياتا شاردة ، لم يعد لها العدة ولا تكلف فيها عناء طويلا ، ويرقى الأدب رقى كبيرا وما تزال الصبغة الذاتية هي السائدة فيه ، وتظل له هذه الصبغة ما دام قريبا من البداوة غير آخذ أهله بشيء من الثقافة أو مقيد لآدابهم بالكتابة ، فاذا ما انتفع الأدب بالثقافة والتدوين ظهر فيه الضرب الموضوعي اذ تنبسط أفكار الأدباء ويمتد أفق نظراتهم ويقصدون التأمل في نشئون الحياة قصدا ، غير منتظرين التجارب التي تسنح (١) عرضا ، ويطلبون من مناحي الحياة ومذاهب التفكير الأبعد فالأبعد ، فتزاحم الصفة الموضوعية الصفة الذاتية .

(١) تسنح : تعرض .

فغزارة الضرب الموضوعى فى الأدب من لوازم رقيه ووصوله الى الطور الفنى ، بيد أن العنصر الذاتى لا يحى ببلوغ الأدب هذا الطور ، بل يبقى ويزداد رقيا وحرارة وعمقا ، ويظل صدقه وعمقه وحرارته خير مقياس لصدق الأدب ورقيه ، ويقترن ضعفه وتلاشيه بضعف الأدب وفقره العاطفة فيه وتغلب اللفظ على الشعور الصحيح ، ففى عصور تدهور الأدب ييسود الضرب الموضوعى ، وتنفق موضوعات بذاتها. يصطلح الأدباء على طرقها على أساليب مخصوصة لا يعدلون عنها ، ويكفكون عواطفهم الذاتية ، فلا يكاد يتميز واحد منهم عن الآخر فى السمات والميول ، فالضرب الموضوعى يظهر متأخرا عن الضرب الذاتى فى الآداب ، ثم يبقى متخلفا عنه عند اضمحلال الأدب ، يبقى على حال من الضعف والتكلف والابهام .

ولما كان الضرب الذاتى من الأدب أسبق الى الظهور فى تاريخ الأدب ، كان مقترنا بالشعر الذى هو أسبق الى الظهور من النثر الفنى فالأدب فى عهده لا يكاد يزد على أن يكون شعرا ذاتيا ، فإذا دخل الأدب طوره المتحضر الفنى ظهر فيه النثر وظهر الضرب الموضوعى فى الشعر والنثر معا ، بيد أن الشعر يظل دائما متعلقا بالضرب الذاتى ، بينما يستأثر النثر منذ نشأته بالجانب الأكبر من الأدب الموضوعى ، فالشعر لما له من مزايا الموسيقى والخيال أقدر على التعبير عن الوجدانيات ، والنثر لما له من مزايا الرحب والدقة والتحرر من قيود الوزن والقافية أقدر على تتبع الوصف لموضوع الانشاء ، والاستهسا. فى شرح دقيقه وجليله ، فإذا جمع أديب بين الصناعتين رأيته يندفع اندفاعا تلقائيا الى النظم ، اذا حفزته ثورة نفسية متدفقة ، وينساق بداهة الى النثر اذا أراد التأمل الهادى والتوسع فى الشرح والاستقصاء ، على أن هذا ليس بمائع أن يحتوى النثر أحيانا على بدائع من آثار الضرب الذاتى ، وأن يشتمل الشعر على لطائف من آثار الضرب الموضوعى .

ولما كان الشعر أشبه بالضرب الذاتى من الأدب ، والنثر أقرب الى الموضوعى ، كان الشعراء بطبيعتهم أدباء ذاتيين أو أنانيين كما قد يلقبهم بعض المنكرين عليهم ، وكان الكتاب أدباء موضوعيين ، يتناولون من مجالات القول ما لا يمس أنفسهم وشخصياتهم الا قليلا ، بينما لا يكاد بعض الشعراء يخوض فى غير شؤون نفسه ، من طرب وشجن وغضب ورضى وحب وبغض ، حتى تلوح دواوين بعضهم كأنها صخب مستمر مزعج ، أو بكاء طفل مدلل وضحكه يتتابعان بلا انقطاع ، والبكاء أظهرهما جلبة والسخط والنقمة والشكوى أبين أثرا ، فإذا فرغ الشاعر من صخبه

وثورانه جاء الكاتب من بعده هادئا وقورا ، يصرف في شعره نظر الحكيم الخبير ، ويحكم على شعره وخلقه وحياته وفهمه للدنيا بحكم القباضى المتمكن ، فلا يزال الشعراء يلوحون كأنهم فريق من المتهورين الأغرار ، ولا يزال النقاد يظهرون فى مسرح الراشدين الأكبر منهم سنا وخبرة بالأمور .

ولا يقتصر التفريق على الشعر والنثر فى هذا الصدد ، بل هناك أشكال من الأدب هى أصلح للذاتى وأخرى هى أوفق للموضوعى : فالقصة والترجمة والتأريخ والملحمة كلها ضروب موضوعية يتحدث فيها المنشىء عن غيره من رجال الحقيقة أو الخيال ، ومن أبناء الحاضر أو الماضي ، ويدرس حوادث لم يساهم فيها ولم يختص بها ، وان تكن لذاته فى كل ذلك آثار ثقل أو تكثر ، والرسائل الأخوانية والمذكرات ، والتراجم الشخصية والاعترافات وما جرى مجراها ، كلها أشكال من الأدب ذاتية يخصصها الأديب لتحليل ذاته وعرض صور من حياته ، وان خالط ذلك سبى النظرات الموضوعية ، أما المقالة فيتراوح حظها من كل من الضربين ،

وكما تفترق أشكال الأدب وتتميز فى هذا الصدد ، كذلك تفترق وتتميز موضوعاته : فالوصف والمدح والهجاء والحكمة أقرب الى الضرب الموضوعى من الفخر والحماسة والنسيب والشكوى ، أما الرثاء فيجمع الى وصف خلل المرثى وهو أمر موضوعى ، وصف مشاعر الزائى وهى أشياء ذاتية ، على أن موضوعات الأدب هذه قلما ترد فى أثر الأديب خالصة مستقلة ذاتية عن موضوعيها ، بل يتمازج الضربان كما أن الأشكال الأدبية كثيرا ما تختلط ، فيتصل بالأثر الأدبى الواحد الترجمة بالقصص مثلا ، ويمتزج الوصف بالنسيب ، وتبدأ القصة أو القصيدة بوصف منظر وتنتهى بخواطر وجدانية ، ومن ثم تمتزج الذاتية والموضوعية فى أكثر الآثار الأدبية .

ومن التعسف تفضيل ضرب من الاثنين على الآخر : فللذاتى من آثار الأدب معاصنه ، وللموضوعى مزاياه ، كما أن الشعر لا يفضل النثر ولا الأخير يرجح الأول ، بل لكل فضائله ومواقفه ودواعيه ، فالعمل الأدبى الذى ترين عليه مسحة الذاتية يروع بحرارته وإخلاصه وصراحته ، ويشوق بكشفه عن نفس صاحبه وتحديده لشخصيته ، كما تحدد خطوط المصور شكل الصورة وجوانبها ، ويروع بقدره صاحبه على التأمل فى نفسه وتوضيح خلجاتها ، والضرب الموضوعى يسر اذ يعكس فى صفحة القن ما نشهد وتحس فى عالم المشاهدة والخبرة ويروع بقدره الأديب

المنشئ على الملاحظة والتقصي والتجرد من أهواء نفسه والتوفر على ما هو
بصدده ، لكل من الضربين مكانته وروعته ما اتفقت له صفتان : الصدق
والعمق .

وكل من الأدبين العربى والانجليزى حافل بآثار الذاتية والموضوعية
فى مختلف نواحيه ، ترين هذه أو تلك على بعض آثاره أو تغلب على
أدبائه ، أو تظهر فى بعض عصوره ، أو تتجلى فى أشكال وموضوعات دون
أخرى ، بيد أنه لاختلاف تاريخى الأمتين واختلاف ظهورهما فى عصر
الحضارة والثقافة ، يحتل الطور الذى كان الأدب فيه ذاتيا عهدا مهما
من عهود تاريخ الأدب العربى قبل أن يظهر الضرب الموضوعى ويشيع فى
الأدب ، على حين لم يتخلف فى الأدب الانجليزى من ذلك العهد شئ
ذو بال ، وانما يبدأ تاريخ الأدب الانجليزى الحديث من عهد اليزابث
والضربان الذاتى والموضوعى فرسا رهان فى حليته ، بل كاد الضرب
الموضوعى أن يستأثر بالصدارة فى ذلك العصر .

ففى عهد الجاهلية وحقبة من الاسلام كان الأدب العربى — اذا
استثنى القرآن الكريم والحديث الشريف — أغلبه ذاتى الصبغة ، وكانت
للشعر فيه المكانة العليا ، وكان الشعراء دائبين يبدعون القول ويعيدونه
فيما خالج أنفسهم من خواطر ، أو مس حياتهم من قريب من حوادث
فامتلا قصيدهم بالحماسة والنسيب والمنافرة والمهاجاة والفخر والتمدح
بكريم السجيا ، فلما توطدت الحضارة وشاعت الثقافة اتسعت جوانب
الشعر وتعددت مجالاته ، وظهر بجانبه النثر الفنى ، وتناول كلاهما
موضوعى الشؤون بجانب ذاتيها ، فكان من الفنون التى جددت فى الشعر
أو توسعت فيه الوصف المسهب والمدح المطنب ، وتناول النثر رسائل
الأمراء ، كما جال الجاحظ والبديع وغيرهما فى نواحي الحياة ومذاهب
التفكير وأحوال الماضى وخصائص الأحياء وأخبار الأمم ووجوه النقد
الأدبى ، فأفرزت فى الأدب العربى منظومه ومنثوره فى هذا الطور آثار
الذاتية والموضوعية . يتحدث المتنبي مثلا عن عظمتة وفتوته ومطامحه
وأشجانه ، فيجئ شعره ذاتيا صادقا رائعا ، ويمدح سيف الدولة أو
سواه ويصف مآثره ومواقفه فيميل الى الموضوعية ، والأرجح أن الموضوعية
كانت أظهر فى هذا العصر ، لرواج ضربين من القول موضوعيين عج
بهما الأدب : عج الشعر بمدح الأمراء ، وعج النثر بوسائل الدواوين

ذالك هما الطوران الأولان من أطوار الأدب العربى من جهة الذاتية
والموضوعية : الطور الأول هو عهد نشأة الأدب الذى كانت الذاتية فيه

غالبية ، والثاني طور نضج الأدب الذي فيه اجتمع الضربان ، أما الطور الثالث فهو عهد اضمحلال الأدب تدريجيا ، وهو طور تغلب الضرب الموضوعي وتلاشى الضرب الذاتي تدريجيا : جمد الأدب على موضوعات خاصة اصطفاها الأدباء ، في مقدمتها المدح والهجاء - وعدوها وحدها مجال الأدب وشغل الأديب ، وطرفوها على أساليب خاصة يتنازعهم في ممارستها عاملان : الحرص على تقليد الأقدمين ، والرغبة في اظهار البراعة بالتلاعب بالألفاظ والمعاني ، أما المشاعر الذاتية الصادقة ، والخصائص النفسية المميزة ، فاخترت من الأدب ، وحتى في شرح عواطفه كان أديب ذلك الطور مقلدا ، لا يشرح عواطفه الا على نحو خاص قد جرى به العرف ، وحض عليه النقد ، وبذلك جاءت الآثار الذاتية نفسها موضوعية عامة مبهمه .

ومن أحسن أمثلة الضرب الذاتي الصريح في الطور الأول قول .
عنتره :

فإذا ظلمت فإن ظلمي بأسـلـل مر مذاقته كطعم العلقم
وإذا شربت فأنى مسـتـهـلك مالى ، وعرضى وأفر لم يكلم
وإذا صحوت فما أقصر عن ندى وكما علمت شمائلى وتكرمى .

ومن أمثلة أشعار الطور الثانى التى يمتزج فيها الذاتى والموضوعى .
قصيدة المتنبي التى يعاتب بها سيف الدولة ، ومنها قوله :

مالى أكنتم حبا قد برى جسـدى وتدعى حب سيف الدولة الأهم
فوت العدو الذى يممته ظفر فى طيه أسف فى طيه نعم
صحبت فى الفلوات الوحش منفردا حتى تعجب منى القور والأكم

ومن أمثلة أدب الطور الثالث الذى طغت فيه الموضوعات الماثورة .
وطمست الشخصية الذاتية قول القائل :

ولفت بأطلال الأحبة سائلا ودمعى يسقى ثم عهدا ومعهدا
ومن عجب أنى أروى ديارهم وحظى منها حين أسألهما الصدى

وكانت للشعر المكانة الأولى فى الأدب الانجليزى فى العصر الاليزابيتى ، وكان يتناول الضربين الذاتى والموضوعى من النظم ، تختص بالآخر

الروايات التمثيلية التي ازدهرت اذ ذاك ازدهارا عظيما ، وتختص بالأول القصائد المرسلة طويلا وقصيرا ، وفي القرن الثامن عشر هبط فاضمحلته فيه النزعة الذاتية ، وأصبح أكثره موضوعيا مبهما ، واحتل مكانه النشر شمل شتى النواحي الذاتية والموضوعية ، ففي الأولى كتب كاولي واديسون وستييل كثيرا من مقالاتهم ، وفي الثانية كتب جيبسون وبوزويل ورتشاردسون وديفو وآخرون لا يحصون كتبهم في التاريخ والترجمة والقصص والمغامرات ، فلما كانت النهضة الرومانسية عادت للشعر أفضليته ، وحفل بشتى الآثار الذاتية والموضوعية بين وصف الطبيعة وسرد الخرافات المثاقفة ، ووصف تأثر النفس بهذه وتلك ، وتمجيد الجمال وشرح أطوار الحب ، ولم يزل الشعر والنثر منذ ذلك العهد فرسى رهان ، يطرقان شتى المناحي بين ذاتيها وموضوعيها .

بيد أن الذاتية ما زالت منذ عهد شكسبير الى العصر الحاضر تطفئ على الموضوعية رويدا ، ولستأثر شيئا فشيئا بالثغات الأدياء وتفوز بأشكال أدبية جديدة . ففي عهد شكسبير كان الروائي يحرك روايته حول أشخاص تاريخيين أو خرافيين بعيدين عنه بعدا كبيرا وفي القرن الثامن عشر عهد النشر الذهبي كان الأدياء يكتبون القصص يضمنونها من طرف خفى صورا من حياتهم وجوانب من أنفسهم ، فيكتب سمولت الأفاق قصة كونت فاثوم المغامر ، ويكتب جولد سميث ابن القسيس قصة قس ويكفيلد التي ليست الا حكاية عهد نشأته في أسرته ، ثم يكتب تشارلز دكنز في القرن التالي قصة صباه في كتابه دافيد كوبرفيلد ، ثم تزداد الذاتية بروزا ويرفع الأدياء حجاب التخفى وينبدون الاسماء المستعارة ، فيكتبون قصص نشأته ومذكرات رجولتهم وينشرون رسائلهم وتراجهم الشخصية ، والأدب الانجليزي المعاصر حافل بآثار هذه الذاتية السافرة .

وقد امتاز بالذاتية الواضحة ، أو الأناية الأدبية ، كثير من الأدياء الانجليز ، كانوا لا يملون التأمل في نفوسهم والتحدث عن ذاتهم صراحة أو تحت غشاء شفاف : فملتون يعرض لكوارثه وعماه ومبادئه السياسية والدينية والاجتماعية في ملاحمة الثلاث ، ووردزورث يؤلف المطولات الشعرية في تصوير صباه وخواطره من طفولته الى كهولته ، ويرون ينظم القصيدة تلو القصيدة ويصور البطل تلو البطل ، ولا يزيد أن يتحدث عن نفسه وميوله وآرائه ، وشلي يسمى نفسه « ارييل » باسم اله اغريقي ، ويكتب عن نفسه تحت ذلك العنوان أشعارا ، وكل من هازلت ولام يصور تصويرا دقيقا أمينا ما يحس عند خروجه للرياضة على الأقدام أو حين سماعه النواقيس تتجاوب مؤذنة بانتهاء العام أو نحو ذلك .

ومن جهة أخرى نرى أدباء من أمثال جرای وكولردج ورسكن يستثرون وراء حجاب من الوقار والتفكير الهادئ الشامل ويتحدثون مصورين أو قاصين أو ناقدین ، عن غيرهم من رجال التاريخ والأساطير وأعلام الفن والأدب ، فأكثر آثار هؤلاء موضوعية ، وأكثر مؤلفات الأولين ذاتية ، كما كان من الأدباء من أخذوا من كلا الضربين بنصيب وافر ، ومن برزوا فى مجال الشعر والنثر ، ومن أنهوا حياتهم الأدبية باصدار تراجمهم الشخصية ، ومن خلفوا فى النقد آثارا تبارى آثارهم فى النظم والانشاء ، أو تفوقها ، مثل دریدن وماكولى ومائيو أرنولد .

ويعد بعض المغالين تزايد هذه النزعة الذاتية فى الأدب الانجليزى علامة ضعف وانحلال ، ولا شك فى أن غلبة أحد العنصرين الذاتى أو الموضوعى على الأدب من دلائل نقصه ، وانما يكون رقيه مقترنا برقى العنصرين فيه معا . يدل ما فيه من آثار الذاتية على صدق الشعور وعمق التأمل وتميز الشخصيات ، ويدل ما فيه من آثار الموضوعية على شمول المنظرة واتساع أفق التفكير وتناول الأدب لمختلف نواحي الحياة .

الشعر والنثر

في الأدبين العربي والانجليزى

الشعر أسبق ظهورا من النثر فى عالم الفن الذى يحتفى صاحبه بانشائه وتنميته ، ويتعمد ايداعه شعوره وأفكاره على نحو جميل يراد له السيرورة والبقاء . فالشعر يظهر ويرتقى والأمة ما تزال متبعية قليلة الحظ من الثقافة وأسباب العمران ، أما النثر الفنى فلا تدعو الحاجة اليه. ولا تتم وسائله الا فى أمة متحضرة مستقرة واسعة الثقافة منتشرة فيها الكتابة الخطية ، فالكتابة الخطية تتيح للكاتب أن يتوفر على انشاء النثر المنمق ، الذى يحوى تعمقا فى التأمل واتصالا فى المجهود الأدبى وتديجا للفظ ، وتتيح أيضا للنثر الفنى أن يبقى ويذيع . أما الشعر فهو غنى بموسيقاه ورويه عن تقييد الطروس(١)، وهو أهل للنهوض بحاجة الأمة المتبعية ، من التعبير عن عواطفها وأفكارها البسيطة ، ومن ثم ارتقى الشعر الاغريقى كما يتمثل فى ملاحم هوميروس رقىا عظيما ، والأمة ما تزال الى البداءة أقرب ، وتطور حتى تفرغ منه فن جديد هو فن التمثيل ، كل ذلك قبل أن تتوطد قواعد النثر اليونانى ، وقبل أن يبلغ مبالغه على أيدي هيرودوت وتيوسيد وأفلاطون .

وكلا الشعر والنثر مدينان فى ظهورهما وريقيهما – كسائر الفنون – للدين والدولة بفضل عظيم : ينشأ الشعر مختلفا بالموسيقى مصاحبا للرقص فى الحفلات الدينية ، التى تحفلها الجماعات الأولى فى مواسم آلهتها ، وينفصل عن الموسيقى والرقص ويخرج من حظيرة الدين الى حظيرة الدولة ، فيمدح الملوك ويزين قصورهم كما كان يفعل الشعر الاغريقى فى عصر الطغاة ، وعلى أيدي الكهنة يتألف أول ما تعرف الأمة من مبادئ النثر الفنى ، من نبوءات مسجوعة وحكم وعقائد مدونة أو شفاهية وقصص عن الملوك والآلهة ، ثم ينحاز الكتاب الناثرون كما انحاز الشعراء الى بلاطات الملوك ودواوينهم ، يزجون بضائعهم وينزلون آمالهم ، ثم يستقل الشعر والنثر عن حظيرتى الديانة والدولة قليلا قليلا ، بشيوع الرقى العقلى وانتشار الثقافة وتميز شخصية الفرد عن شخصية الجماعة ،

(١) الطروس : الصحف

فيصبح كل منهما فنا غايته التعبير الجميل عن شعور الانسان بالحياة ، وعلى قدر تحرر كل منهما من العلاقة بالكهان وبالحكام ، وتخلصه من الغرض المادى يكون رقيه الفنى وصدقه فى أداء رسالة الحياة .

فبانتشار الحضارة والثقافة يرتقى الشعر عما كان عليه فى عهد البداوة ، ويظهر بجانبه النثر فنا ثانيا مترجما بالألفاظ عن شعور الانسان وتفكيره ، منافسا له فى كثير من مواضعه ومعانيه . فيتقاسمان النهوض بهمة الأدب ، ويظهر من الأدباء من يجمعون بين الفين ، يبرزون فى كليهما أو يشتهرون بأحدهما فوق اشتهاهم بالثانى . ويشارك النثر الفنى الشعر فى كثير من خصائصه ، أى خصائص الفنون جميعا كالموسيقية ، والخيال ، والتقابل ، والتماثل ، والتجاوب ، بيد أنه وإن تشارك الفنان فى شتى الخصائص والموضوعات ، فما يزالان متميزين فى خصائص مستقلة كل منهما دون الآخر بموضوعات هى به أشبه وهو على تأديتها أقدر . فللشعر قصب السبق فيما هو أدخل فى باب الخيال والعاطفة والشمول والغموض أحيانا ، وللنثر ما هو أقرب الى التفكير والمنطق والدقة والترتيب والاستقصاء ، ومن ثم يلجأ الشاعر النثر الى الشعر طورا وإلى النثر تارة .

فالشعر والنثر كلاهما قادران على تأدية أغراض الوصف والحكمة والعتاب والاعتذار والفكاهة ، وربما رق النثر فى كل ذلك وتشبع بالخيال حتى صار أشبه بالشعر ، لا يميزه عنه سوى انعدام الوزن وإن ساواه فى الموسيقية ، أما الحماسة والنسيب مثلا فالشعر أمهد لهما سبيلا وأرحب مجالا ، إلا أن يجيء النثر الحماسى خطابة فيكون له من رهبة الموقف وتعبير سيماء الخطيب وهيبة محضره عوض عما يمتاز به الشعر من خيال وروعة واستجابة للعواطف ، ومن ثم كانت الخطابة من أشبه فنون النثر بالشعر ، وأما فى سرد الوقائع التاريخية أو القصص الفردية ، أو تقرير الحقائق العلمية والأدبية ، فالنثر أرحب بكل ذلك صدرا وأطول باعا . ومن ثم كان نقد الشعر والأدب عامة وتسديد خطى الأدباء واطهار محاسن الشعراء من أهم وظائف النثر التى يضطلع بها اذا ما توطد وساير الشعر جنبا لجنب .

وقصارى القول أن موضوعات الشعر والنثر يتباعد طرفاها ، ويلتقى الطرفان الآخران حتى يختلطتا ، وإن الروح الشعرى قد يكون فى النثر الجيد كما قد ينعمد من النظم الردى ، ولما كان الشعر والنثر يعبران عن مشتركين عن شتى خوالج النفس الانسانية ، فمن الطبيعى أن يرتقيا معا

فى عصور الرقى الانسانى وينحطا معا فى عصور الانحطاط . بيد انه يلاحظ بجانب ذلك أن أحدهما زبما ارتقى وقاز باحتفاء الأدباء والثانى فى انخزال وقعود ، تبعا لما تميل اليه نزعة الشعب فى عصر من عصوره ، فكما يختلف الفرد الواحد بين نزعة الخيال والعاطفة والخفة أحيانا ، وبين نزعة الشامل الوقور والاستقصاء الهادى للحقائق أحيانا حسب اختلاف أطوار النفس الانسانية الخفية الأغوار المتقلبة الأطوار ، كذلك تمر الأمم بعصور طموح ومغامرة يزدهر فيها الشعر والنثر الشعرى وبعصور هدوء وركود ، وتأمل علمى وفلسفى ، يفرز فيها النثر ويلعب دورا كبيرا ويخفت صوت الشعر .

فاذا نحن زسمننا لأطوار الشعر والنثر دورة ، كتلك التى رسمها أرسطو لنظم الحكم فى المدن اليونانية ، بين ملكية وأرستقراطية وهلم جرا ، كان أول أطوار تلك الدورة طورا شعريا طويلا ، يبلغ ذروته بنهضة الأمة بين الأمم ، ونيلها نصيبا وافرا من الحضارة والثقافة ، يلى ذلك طور نثرى يشتغل فيه النثر بنقد ما تجمع لديه من آثار الشعراء المتقدمين ، وينخذل الشعر فى أثنائه أو عقبه مباشرة ، فاذا ما انبثت فى الأمة روح جديدة جاء طور شعري جديد سابق أيضا ، يليه طور نثرى وهلم جرا . ولعل فى تاريخ الأدب الفرنسى مثالا لذلك واضحا : اذ سبق الشعر الفرنسى بالظهور على أيدي التروبادور ورونسار ، ثم نهض الشعر على أيدي رابليه ومونتيني فى عهد النهضة الأوروبية ، ثم نهض الشعر مرة أخرى فى عهد لويس الرابع عشر على أيدي كورنى وراسين ، ثم كان القرن الثامن عشر عهد نثر طويلا ظهر فيه فولتير وروسو ، ثم كانت النهضة الرومانسية الشعرية فظهر لامرتين وهوجو ، ثم نهض الشعر بانتشار الحركة العلمية وذيوع القصة ، وظهر القصاصون كبلازاك وموباسان ، والنقاد كرينان وثن :

يتشارك النثر والشعر – منذ ظهور النثر الفنى – فى تأدية رسالة الأدب ويتشابهان موضوعات وغايات ، وبتراوحان صعودا وهبوطا مع تعاقب العصور ، ويظهر النوايخ فى كل منهما ، وينال هؤلاء وأولئك حب المثقفين واعجابهم ، بيد أن الشعر يظل أثر لدى المثقفين وأكثر استئثارا بحفظهم واستشهادهم ، ويظل الشعراء أحظى بالرعاية والاهتمام ، وآثارهم أحظى بالدرس والنقد . وإلى الشعر والشعراء ينصرف الذهن أول ما ينصرف اذا تحدثنا عن الأدب أو فكرنا فى الأدباء ، أو أردنا الموازنة والاستشهاد أو التدليل على صحة نظرية . وبأسماء فحول الشعراء تسمى عصور الأدب المتتابعة فى تاريخ الأدب الانجليزى ، كل ذلك لما يمتاز به

الشعر من تضمين المعنى الشامل اللفظ الموجز ، والنظرة النافذة القول .
الرصين ، وما يتوفر عليه من شرح العواطف والذكريات ، والآمال والأشجان
والأطراب ، وما زال الانسان أكثر انجذابا الى العاطفة منه الى الفكر ،
وهو من ثم يؤثر الشعر على النثر .

نشأ الشعر العربى وارتقى فى البادية ، سابقا للنثر ، اذ بلغ
ما بلغه من الرقى على أيدي أصحاب المعلقات وأضرابهم ، والنثر لا يتعدى
بعد الخطب القصار والحكم المنثورة والأسجاع الماثورة والوصايا
المتفرقة . نعم كان للمقائل خطباء كما كان لها شعراء . ولكن العرب كانوا
بالشعر أولع حتى عدوه معرض مفاخرهم ، وقالوا : « الشعر ديوان
العرب » ، ولم يقولوا : « الادب » ولا « الخطابة » . ولم تدع كلمة النثر
حتى تحضروا وثقفوا وانتشرت بينهم الكتب . وكان الشعر والنثر
معا فى بدء أمرهما مختلطين بالدين والدولة ، فشاعر القبيلة كان وزير
دعائنها بتعبير العصر الحاضر ، والشعر والسحر والكهانة والعرافة
والتنبؤ والسجع كانت معانى وألفاظا متلاحمة الوشائج . وقد كان للدين
بين العرب من أقدم عصورهم مكان ، وأخرجت جزيرتهم عددا من الأنبياء
عديدا ، وكان الشعر الى ظهور الاسلام ينشد فى المواسم الدينية ، وتخطب
به الآلهة ، من ذلك قول بعض اليمانيين فى طوافهم .

عك اليك عانية عبادك اليمانية

ولم يفصم الشعر والنثر العربيان يوما علاقتهما بالدين والدولة ،
بل ظلّا طول عصورهما على اتصال بهما متين ، بل بفضل الدين احتوى
النثر العربى على أثر فنى لا يجارى بلاغة ، بل هو نموذج البلاغة الذى
ظل يحتذى ويدرس ويقتبس فى النثر والشعر معا طول العصور ، وهو
القرآن الكريم ، وبقيام الملك على أساس دينى اتصلت علاقة الأدب بكلا
الملك والدين ، وظل الشعر يتقرب الى الحكام بالمدح ، والنثر يعمل فى
دواوينهم ، ولم يخرج الأدب العربى خروجا تاما من طور خدمة الملوك ،
الى الطور الفنى الخالص المنزه عن كل غرض خارجى أو مطلب مادى ،
والما ظل الشعراء والكتاب يعتمدون على رعاية الأمراء ، ويسخرون فنهم
لخدمتهم .

وتوالى أطوار الشعر والنثر فى تاريخ الادب العربى : فسبق
الشعر فى الجاهلية ، وحل محله النثر فى صدر الاسلام متمثلا فى
الكتاب الكريم وخطب الرسول وخلفائه وكتبهم وكتب عمالهم ، واستعاد

الشعر مكانه فى عهد الأمويين على السنة جرير والفرزدق والأخطل وجميل وكثير وابن أبى ربيعة وأضرابهم ؟ وعند ذلك كان العرب قد تشربوا الحضارة والثقافة ، فظهر النثر الفنى على أقلام عبد الحميد وابن المقفع والجاحظ والبديع ، وبلغ الشعر فى الوقت نفسه أوجه على أيدي معاصري هؤلاء من الشعراء ، كبشار وأبى نواس والطائي والبحترى وابن الرومى والمتنبى والمعري ، ثم أقل نجم الشعر بدءا من القرن الخامس وأفسده التعميل ، وأعوزته روح الطموح والمغامرة التى غاضت من نفوس الأمة التى أرهقها المتسلطون ، وبقيت للنثر بقية من قوة مستمدة من نضج الثقافة الإسلامية ، فكان العصر التالى طور نشر طويلا أنجب من النقاد والمؤرخين والكتّاب أضراب ابن خلكان والتويرى والقلقشندي وابن رشيق وابن خلدون ، ممن كان هم أكثرهم جمع الآثار الأدبية والتاريخية المتخلفة من العصور السالفة ، وتنظيمها والتعليق عليها . ثم لحق الوهن والاسفاف للنثر كما لحق الشعر . فلما كانت النهضة الحديثة ، كان الشعر أسبق الى انهوض والحياة والتخلص من شوائب الصنعة والتقليد ، فالشعر أسبق من النثر الى الازدهار وأسبق منه الى الذبول .

كان الشعر أسبق الى الظهور والرقى فى الجاهلية ، وكان العرب يعدونه ديوانهم ، وكانت له لديهم مكانة عظيمة ، وقد ظلت له هذه المكانة على توالى العصور ، على رغم ظهور النثر الفنى ورقبه وحصول الكتّاب دون الشعراء على المراتب السامية كالوزارة ، وظل الشعر أعلق بالنفوس وأثر بالحفظ والذكر ، ولم يسايره فى الحفظ والسيرورة من آثار النثر الا القرآن الكريم ، وهو مملوء بالروح الشعرى حافل بالتشبيهات والمجازات البليغة . ولما ارتقى النثر الفنى راح يتتبع خطى الشعر : يقتبس أبياته ويضمن شطراته ، ويتناول موضوعاته ، ويحاكي موسيقاه ووزنه ، فاصطنع السجع والازدواج والجناس ، وأصبح السجع فى النهاية للنثر لازما لزوم القافية للشعر . والحق أن الأدب العربى بفنیه الشعر والنثر اتسم دائما بالاحتفاء باللفظ وجرسه وتنميته ، والأسلوب وتقسيمه وتدبيجه ، وقد ظل ذلك مستسما مقبولا جينا ثم أقرط وسمج . وظل الشعر العربى شديد الحرص على فخامة الموسيقى ووضوحها واطرادها بلا اخلال ، كالاخلال الذى يكثّر فى الشعر الانجليزى وبلغا اليه شعراء الانجليزية قصدا للتنويع واجتناب الاطراد المبل ، وظلت القافية فى الشعر العربى كذلك واضحة جزلة مكونة فى الواقع من قافيتين صوتيتين ، كما فى « عانيه » و « مانيه » فى البيت السالف الذكر ، وهذا ما يعرف فى الانجليزية بالقافية المؤنثة ، وقد دخلت الانجليزية نقلا عن الايطالية ولكن الشعراء سرعان ما نبذوها ، لعدم

ملاءمتها لطبيعة اللغة الانجليزية التي تمج (١) الافراط في الموسيقية نثرا
أو نظما .

ولما ظهر النثر الفنى بجوار الشعر ، ونبع فيه الكتاب واحترفوا
انشاء الرسائل الديوانية ، وحرصوا على التزود بكل أسباب الثقافة ،
والتحلى بكل موجبات الفضل ، عالج أكثرهم الشعر طبعاً أو تكلفاً ،
فأثرت عن الحسن بن وهب وابن الزيات وابن الصول وسعيد بن حميد
وابن العميد وابن عباد والخوارزمي والبديع والجرجاني والعسكري ،
أشعار قالها بعضهم نظراً ورياضة للقريحة ، وقالها بعضهم جادين فى
التعبير عن خوالج صميمة وآراء صادقة . وقد قيل ان الجاحظ عالج
قرض الشعر طويلاً ثم أقلع حين لم يفلح . وكان البديع والحريرى يخالقان
فى مقاماتهما بين شعر ونثر لا يكاد يتميز أحدهما عن الآخر الا بالعروض ،
وفيما عدا ذلك يتساويان تنميق لفظ وبلاغة انشاء ، ومن أجمل أشعار
الكتاب قول الجرجاني من أبيات هى من غرر الشعر العربى :

يقولون لى : فيك انقباض وانما رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
إذا قيل : هذا مشرب قلت: قد أرى ولكن نفس الحر تحتل الظما

وقد كانت المقابلة والمفاضلة بين الشعر والنثر من هم نقاد العربية
وكان أكثرهم يميل مع الشعر ، على أنها مفاضلة لا موضع لها : فليس
الشعر خيراً من النثر ولا النثر خيراً من الشعر ، وانما كلاهما ضروريان
وكل منهما جميل فى موضعه ، زد على ذلك أن أولئك النقاد كانوا
يدخلون فى حسابهم اعتبارات خارجية لا صلة لها بالفن الصميم ، بل
هى شؤون اجتماعية أو سياسية أو فردية صاحبت الأدب فى بعض
العصور ، فأصحاب الشعر يستدلون على أفضليته بأن الشاعر يخاطب
الأمير باسمه مجرداً وباسم أمه وبصيغة المفرد ، وبأن الشعر رفع قبائل
كانت الناقة ووضع أخرى كنمير ، وبأن الكذب ومدح النفس يقبلان فيه
ولا يستساغان نثراً ، وأصحاب النثر يؤيدون حجتهن بأن الرسول الكريم
لم يقرض الشعر ، وأن الشعراء يخدمون الكتاب ويأخذون هباتهم . وأن
الكاتب يجلس والشاعر ينشد وهو قائم وهلم جرا .

نشأ الشعر والنثر الانجليزيان كذلك على صلة بالدين والدولة ،
وكان من أولوهما الأوائل أمثال تشوسر وسبينسر وهوكر من رجال السياسة

والدين والحرب ، أو كانوا على اتصال بالساسة والمحاربين وعلماء الدين .
ومن الكنيسة خرج فن التمثيل ذو الصلة الوثيقة بالأدب ، فكان قوامه
الشعر أولا على عهد شكسبير ، ثم انحاز تدريجا الى النثر ، وكان للانجيل
أثر بليغ فى اللغة الانجليزية ، غير أن الشعر والنثر ما لبثا بعد ذلك أن
انسلخا تدريجا عن الملك والكنيسة والأحزاب والأعيان ، واعتمد كلاهما
مكان أولئك جميعا على الجمهور القارىء ، ودخلا فى طور الفنون الخاصة
التي لا غاية لها سوى وصف مشاعر الانسان وشعوره بجمال الحياة
وغبظاتها ، وهو الطور الذى لم يبلغه الشعر والنثر العربيان تماما ،
بل قام من الأدباء الانجليز من ناصبوا الملكية والكنيسة ، مثل شلي
وبيرون .

وكان الشعر الانجليزى أسبق الى الازدهار من النثر : فبلغ أوجه
فى عهد اليزابث فى آثار شكسبير ومعاصريه ، وتجلت الروح الشعرية
حتى فى النثر القليل الذى خلفه ذلك العصر الحافل بروح الاقدام ،
فهو كرمثلا وهو يدرس مسائل دينية يعرج فيصف الموسيقى وصفا شعريا
رائقا ، وتلا ذلك طور نثرى طويل فى القرن الثامن عشر ، بلغ فيه النثر
الغاية من السلاسة ورحب الجوانب ، ثم كانت هبة قومية جديدة فنهض
الشعر فى العهد الرومانسى نهضة باهرة ، وكان كثير من شعرائها كتابا
حذاقا أيضا تفيض كتاباتهم النثرية بما تفيض به أشعارهم من روح
رومانسية ، ثم ارتقى النثر فى أعقاب ذلك مرة أخرى ، فظهر من النقد
ماكولى وارنولد ، ومن القصصيين ثكرى ودكنز ، وما زالت القصة فى
ازدهار مطرد .

وبلغ النثر الانجليزى من الرقى الشكلى والموضوعى ما لم يبلغه
النثر العربى : فظهرت فيه المقالة والصورة والترجمة والتأريخ والقصة
الفنية . وبهذا كله تهيأ له أن يزاحم الشعر على مكانته ، لا سيما بفضل
القصة والرواية التمثيلية ، بل هو انتزع الرواية التمثيلية من الشعر
واستأثر بها . والقصة اليوم تستقل بأسماء أعلام الأدب الانجليزى ،
وقد مارسها أكبر شاعرين محدثين : كبلنج وهاردى ، بل كانت ممارسة
النثر بجانب الشعر دائما من أدب شعراء الانجليزية ، يبسطون فيه
آراءهم فى النقد الأدبى والأحوال الاجتماعية . فكان دريدن وكاولى
وبوب الشعراء مثلا من أوائل من كتبوا المقالات ، أما كبار شعراء العربية
فقلما روى لهم نثر مطنّب .

على أن الشعر الانجليزي وان زاحمه النشر في العصر الحديث هذه
 المزاحمة • واستأثر دونه بأكثر احتفال الأدباء والقراء ، لم يفقد موضعه
 الأثير من نفوس المثقفين ، وانما هو يحتاز مثل عصر الركود الذي شهده
 في القرن الثامن عشر ، اذ أن النشر والشعر كما تقدم يتجاذبان النفس
 الانسانية على اختلاف العصور ، بيد أن الناس حتى في مثل هذا الطور
 لا ينزعون عن حبهم للشعر • بل يلتفتون الى الماضي يروون صداهم من
 عبايه الزاخر ، ولا تزال لشكسبير وملتون ووردزورث وشلي منازل في
 قلوب قراء الانجليزية ، كمنازل ابن الرومي والمتنبي والمعري في قلوب
 قرائهم ، لا يحتل مثاها الكتاب الناثرون في كلا الأدبين •

الطـور الفنـي

فى الأدبين العربى والانجليزى

مما عرف به الانسان أنه حيوان يتذوق الفن ، فحب الفن طبع فيه ، تبدو مظاهره حالما يأمن على نفسه وتتوفر له قوته وحاجاته ، فاذا ما فرغ من الضرورى من أموره التفت الى الكمالى ، وطاب الفن والجمال ، ومن ثم تظهر بعض الفنون بدائية بين الجماعات المتبدية ، وترتقى بينها وتنوع بقدر ما تسمح به بيئتها ودرجتها من الرقى المادى والعقلى . والرقص والموسيقى والشعر من الفنون السابقة الى الظهور ، لقلة ما تحتاج اليه من المواد الأولية ، أما التصوير والنشر الفنى والنحت والعمارة ، فأكثر تأخرا عنها ، لما تحتاج اليه من تقدم الصناعة والمعرفة بالكتابة والاستقرار فى موطن .

ومهما بلغ الشعر من التقدم فى عهد البداوة فما يزال محدود الجوانب قريب الأغوار متشابه الآثار ، فاذا كانت الحضارة والاستقرار والثقافة والتدوين ، اتسعت مواضع الشعر باتساع جوانب العمران ، وبعد غوره باستفادته من العلم ، وجاد أسلوبه باستخدامه التدوين والثروة ، واتصلت الجهود فيه وتكاثر الابتكار بتوفر الوقت للتفرغ والتفنن ، وظهر بجانب الشعر أخوه الأصغر سنا وهو النشر ، وظهر بجانب الشعراء الكتاب ، وبظهور النشر يمتد مجال الأدب حتى يتأخم مجال العلم أو يتداخل وياه ، واذا يدون الأدب يطلع عليه أبناء الأمم الأخرى ويطلع أدباؤه على آداب تلك الأمم ، فيتأثر بها ويؤثر فيها ، بعد أن كان الشعر فى عهد البداوة معزولا لا يحس به سواه ولا يعلم هو بوجود غيره ، ويتقيد الأدب يتوارثه جيل عن جيل ، ويزداد تراثه باطراد ، بعد أن كان فى عهد بداوته سريعا الى التلاشى فى ضباب النسيان ، لا يكاد يذكر منه جيل عن أجداده الا القليل المحرف غير المصدق .

فحين تتحضر الأمة وتتشفق ، يصبح شعرها فنيا ويظهر بجانبه النشر الفنى ، على أن هذا يستغرق زمنا ، ولا يجيء الفن الا متأخرا عن الصناعة وعن العلم . فالانسان يعمد دائما الى الضرورى ، حتى اذا ما قضى منه وطره تحول الى الفن ، أو تحولت الصناعة ذات الغرض المادى الى فن

لا غرض له خارجا عن ذاته ، وهكذا ينشأ التصوير والنحت والعمارة والنثر جميعا ، تكون فى أول أمرها صناعات تخدم أغراضا مادية وتسد حاجات الانسان ، من اتخاذ المسكن وزينته وتدوين المهم من الأحكام والمواظم والأخبار ثم العلم ، فإذا ما أطرد سلم الرقى تخلص الفن من تلك الأغراض الخارجية وصار غرضا فى نفسه ومتعة فى ذاته ، وتعبيرا عن الشعور خالصا ، وعبادة للمجمال منزهة *

إذا ما دخل الأدب هذا الطور الفنى ، صارت الصنعة الفنية فيه أظهر والتجويد أوضح ، وليس يخلو الشعر حتى فى بداوته من صنعة ومعالجة وتجويد ، وبغير هذه لا يتصور له وجود ولا لسلكه انشطار ، بيد أن الأديب فى الطور الفنى يصبح أكثر بصرا بتجويد اللفظ وتنسيق الأسلوب وتجميل المعنى ، لما يمتاز به دون شاعر البداوة من ترفه المعيشة ورقة الذوق وسعة القراءة ، والاطلاع على الآثار الأدبية والقواعد والآراء ، فكلاما أمعن الأدب فى طوره هذا زاد الأدباء لألفاظهم تخيرا وتسهيلا ، ولأساليبهم تقسيما وتذليلا ، ولعانيهم استقصاء وتوضيحا *

وتزداد موضوعات الأدب اتساعا وبعدا عن أسباب الحياة الشخصية الحاضرة ، وتحليقا فى عنان الفكر وأجواز (١) الخيال وآفاق الماضى والمستقبل : فعلى حين يكون أكثر ما ينظم من شعر البداوة نتيجة حادث طارئ أو خاطر عابر ، يتوفر الأدب فى الطور الفنى على تقصى غايات التفكير ، ارضاء لنزعة التأمل والتفكير فى ذاتها ، وعلى توخى منحى الفن حبا للفن وحده ، ويمسى الأديب ويصبح ولا هم له الا استقصاء الحسن والمشاهدة وتصويرها فى أدبه ، وتكثر فى الشعر والنثر آثار التأمل الطويل والوصف الفنى *

وإذا ما تكاثرت الآثار المتجمعة بالتدوين جيلا بعد جيل ، وزخر التراث الأدبى بما تجود به قرائح الأدباء من فيض ، إذا انقضت سمحات منه أعقبت بسحائب كما يقول الطائي ، وكثر نظر الأدباء فيها واستظهارهم لها وحتمواؤهم اياها ، لم يعدوا أن ينتبهوا الى شواهد فيها تتكرر ، وحقائق تتماثل ، وجزئيات تدرج تحت كليات ، فاستخلصوا من كل ذلك قواعد يجعلونها نصب أعينهم فى الانشاء ، ثم يحتفى بعضهم بجمعها وتبويبها والاستكثار من أمثلتها ، فتكون من ذلك علوم المعانى والبيان والبديع ، وكتب النقد والموازنة والتحليل ، وبرغم أن الفن سليقة والأدب ملكة

(١) أجواز : الجوز من كل شئ وسطه والجمع (أجواز) *

لا اكتساب ، والشعر طبع لا تطبع ، فان تلك العلوم وهاتيك الكتب المستحدثة تترك أثرها فى تقويم السلائق ، وتوجيه الملكات وتحسين البصر بالأدب وأسبابه ، وجمع أشناته ولم أطرافه ، ولا يستأثر النشر بهذا التبصر فى الأدب ، بل ينظم الشعراء القصيد فى مزايا الشعر وأطواره وأحوال الشعراء •

ومن ذلك التراث الأدبى الزاخر يكتسب الأدب شيئا آخر : يكتسب على مر الأجيال لغة أدبية خاصة ، والفاظا خاصة للشعر وأخرى للنثر ، قد صقلها الاستعمال الطويل ورفعها استخدام كبار الادباء اياها الى مرتبة عالية ، وارتبطت بمعان سامية ، الأمر الذى يجعلها أهلا لما ينزع الى تصويره الأدباء من عواطف رفيعة ، فتصير للشعر والنثر من كل ذلك لغة خاصة متمسكة على لغة العصر المستعملة فى الكلام ، الممتازة بسهولة واسفافها أحيانا ، وتطورها المستمر بتطور الحضارة المادية ، وتظل لغة الشعر والنثر الخاصة تلك فى ازدياد كلما أضاف إليها أقطاب الأدب ألفاظا من اختراعهم أو اشتقاقهم أو مما يرفعونه بعبقرياتهم من لغة العامة ، أو يقتطفونه من لغات الأمم الأخرى ، وتتوارث فى الأدب بجانب ذلك تعابير خاصة جارية ومجازات وأخيلة وأمثال ، يموت بعضها تدريجا ويحيا بعض ، ويزداد بمرور الزمان صقلا وانسيانا •

هذا الطور الفنى لا شك طور نضج الأدب وبلوغه أشده : فيه يجمع بين حرارة الشعور وعمق الفكرة ، وبين طرافة الموضوع وجودة الأسلوب ، وفيه يتخلص من أقداء (١) المادية وشوائب الصناعات ، وفى هذا الطور لا فى طور البداوة يظهر أكبر أدبائه وفحولته شعرائه ، وما يزال الأدب فى رقيه المطرد ، وتراثه فى ازدياده المستمر ، مادامت فى الأمة فورة الحياة وصدق الشعور وصحة النظرة ، فاذا خمدت النفوس وزاغت النظرات ، انقلب الفن صناعة ، والحرية قيودا ، وتمسك الأدباء بالقشور دون اللباب ، وبالألفاظ دون الحقائق •

كان أدب الجزيرة العربية فى الجاهلية وصدر من الاسلام بدويا : الشعر قوامه والبساطة سمته والقريب الحاضر من شئون الحياة مادته ، محدود المواضيع ، غير متنسق الأسلوب ولا منظم الأفكار ولا ظاهر الوحدة فى القصيدة • وقد استعاض العرب عن التدوين بالرواية : يروى أشعار

(١) أقداء : القذى ما يتكون فى العين من رمص وغصص وغيرها والجمع (أقداء) •

كل فحل ناشئ يقوم له مقام الديوان المخطوط ، ويقوم الشاعر من رايته مقام الأستاذ يبصره بالشعر ووجوه القول ، وبطريقة الرواية هذه حفظ من شعر العرب شيء كثير ، وبها ترعرت الصناعة الشعرية حتى بلغت في هذا العصر مبلغا من التقدم يعتد به ، وصارت لها تقاليد خاصة في الأوضاع والمعاني والألفاظ ، كتصريح البيت الأول من القصيدة وتقديم النسب في مستهاها ، تتجلى كل هذه الميزات في المعلقة ، التي يتحدث صاحب كل معلقة منها في نفس القصيدة ، عن أحبابه وشرابه ، وحر به وأسفاره ، وحكمته وآدابه وقبيلته وعزها وهلم جرا .

وبازدياد حظ العرب من الرفاهية والتثقف والتهدب ، ازداد الشعر تهذيب لفظ واتساق أسلوب ، كما يتمثل في شعر ابن أبي ربيعة وجميل ، وظهر النشر يستخدم أولا في تدوين العلوم ورسائل الأمراء وأجراوات الحكومة ، ثم مازال حتى استحال على أيدي ابن المقفع والجاحظ والبيديع ، فنا يتطلب الجمال اللفظي والمعنوي ويتوخى نواحي الفن ومذاهب التفكير بعيدة عن النفع المادي والغرض الحاضر . وبلغ الشعر الغاية من الصناعة الفنية والحلاوة اللفظية ، والتقسيم الموضوعي ، والتقصي في المعاني ، والتفنن في الوصف . على أيدي أبي نواس وأبي تمام وابن المعتز وابن الرومي وغيرهم ، وهؤلاء وأضرابهم هم لا شك فحولة شعراء العربية ، وإن ظل كثير من الأدباء لنزعتهم من المحافظة يقدمون أمرا القيس وأصحابه من الجاهليين . وظهرت كتب النقد وعلوم البلاغة ، ونظم الشعراء القصيدة في اطراء فنههم ، ودبجوا أشعارهم بالتنسيب والامثال يحتفون بطلبها ويكاثرون بعرضها ، كقول الطائي :

واذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيها جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

وقد سئل بشار فيما قيل : بم فقت أهل عصرك في حسن معاني الشعر وتهذيب ألفاظه ؟ فأجاب : بأني لم أقبل كل ما تورده على قريحتي ، ويناجيني به طبعي ، ونظرت الى مغارس الفطن ، ومعادن الحقائق ، ولطائف التشبيها ، فسرت اليها بفكر جيد وغريزة قوية ، فأحكمت سبورها وانتقيت حرها ، وكشفت عن حقائقها واحترزت (١) عن متكلفها . فهذا قول أديب صناع يروض المعاني والألفاظ ، ويعرف خطر الشروى وأعمال الفكر ، ولا يرسل القول على عواهنه ، ولا يطمئن الى الارتجال الذي كان

(١) احترزت : توقيت .

شيمة الجاهليين . ومن أمثلة التدقيق في انتقاء الألفاظ ونقدها ومراعاة تناسب حروفها ومخارجها أيضا ، أن ابن المعتز عاب على أبي تمام تكرار كلمة « أمدحه » مع الجمع بين الحاء والهاء ، وهما معا من حروف الحلق ، وذلك في قوله :

كريم متى أمدحه أمدحه والورى معى واذا ما لته لته وحلى

هكذا يجرى تاريخ أدب كل أمة : يبدأ بطور أولى ، الأدب فيه ظاهراً البداوة ، يليه طور فنى تابع لتحضّر الأمة وأخذها بأسباب الكتابة والعلم ، وقد استطال الطور الأول فى العربية وغزر ما حفظ من آثاره لظروف خاصة ، وإن يكن الكثير مما أثر من ذلك موضع الشك . أما الأدب الانجليزى فلا يحتوى تاريخه على آثار ذات بال تمت الى الطور الأول المتبدى ، إلا أساطير وشذورا اتخذها الأدب فيما بعد مادة لسبحاته الغنية ، وإنما يبدأ تاريخ الأدب الانجليزى الصحيح بعصر اليزابيث الذى كانت الأمة فيه قد تشربت ثقافة اللاتين والاغريق ، واقتبست كثيرا من حضارة أوروبا ، وخمدت فيها الفتن واستتب السلام فى ظل آل تيودور . ومن ذلك العصر يبدأ الطور الفنى للأدب الانجليزى وهو طور تاريخه تاريخ رقى مطرد للأدب فى الأشكال والمواضيع والأفكار والأساليب ، وتخلص مستمر من شوائب الصناعة وتجرد تام فى عالم الفن الصحيح . والأدب الانجليزى فى هذا كله يمثل التطور الطبيعى المعقول لكل أدب : جرى الشجر الى غاياته وتلاه النشر ، وتوسعت جوانب كل منهما تدريجا ، وتعددت مجالاته وتميزت أشكاله وتبينت أغراضه .

تهيأت لكلا الأدبين العربى والانجليزى أسباب الدخول فى الطور الفنى . فازدهرت الحضارة وذاعت العلوم ودونت الكتب وانتشرت الرفاهية وتوفر الوقت للعمل الفنى المتصل ، بيد أن الأدب الانجليزى كان أبعد شوطا فى مضمار الفن الخالص ، وأكثر تجردا من شوائب الصناعة والمادة التى تلازم الأدب أو الفنون عامة فى بداعتها ، اذ أحاطت بالأدب العربى ظروف حالت بينه وبين التخلص من جميع هاتيك الشوائب، فجاء الأدب الانجليزى أكثر فنية فى الموضوع وفى الأسلوب .

ففى الموضوع احتوى الأدب الانجليزى من تصوير الطبيعة وسير الأبطال وخرافات الماضين وأوصاف الرحلات وآثار الفنون الأخرى كالنصوير ، ما يفيض جمالا وتنسج منه نسمات الفن الخالص والفكر البعيد والانسانية الشاملة ، وكل هاتيك مواضيع لم يولها الأدب العربى

مكانة أولى ، وفى الأسلوب توفر الأدباء الانجليز على استخدام اللفظ قدر المستطاع لأداء المعنى وتصوير المنظر مستعينين بجرس اللفظ ونغم الوزن فى النظم ، فى حين اهتم أدباء العربية للفظ فى ذاته لا على كونه مجرد وسيلة للمعنى ، وظهرت الوحدة الفنية أو الفكرة الجامعة فى القصيدة وفى المقالة وغيرهما من أشكال الأدب فى الانجليزية ، على حين ظلت القصيدة فى العربية وإن أصبحت أكثر تقسيما وأجود ترتيبا مما كانت عليه من قبل ، عديمة الوحدة مختلطة الأجزاء ، تثب من قريب الى بعيد ومن نسيب الى مديح ، ومن مديح للغير الى فخر بالنفس ، ومن فخر الى شكوى .

ولم يتخلص الأدب العربى من شبهات الصناعة والغرض المادى قط : إذ ظل أكثر الشعراء والكتاب يخدمون الأمراء ويتوخون مواقع رضاهم . وليس يخرج الأدب من حيز الصناعة الى غالم الفن الحر مادام ذا غرض خارج نفسه ، وذلك ما لم ينكره أدباء العربية أنفسهم ، فظلوا يسمون الأدب صنعة أو حرفة أو آلة ، وكان النقاد يوازنون بينها وبين صناعة المغنين ، ويقول ابن رشيق فى تعليقه على حكاية شاعر مدح علويا ثائرا فدقنه المنصور حيا : ان ذلك الشاعر قد جنت عليه حماقته ، إذ ما للشاعر وللزج بنفسه فى أمثال تلك المأزق وإنما هو « طالب فضل » ؟

واحتفى أدباء العربية بالألفاظ احتفاء متزايدا : فنشأ السجع والطباق والجناس والتورية وما إليها فى الشعر والنثر معا ، حتى بدا اللفظ منافسا للمعنى مزاحما له على انتباه القارئ وفهمه ، بل صارت له فى النهاية المكانة الأولى ، وتضاءل المعنى بين يديه واختفى ، وأصبحت همه الأدباء موجهة لا الى الغوص على حقائق الوجود وبواطن الشعور . بل الى اقتناص شوارد الكلام وبارع النكات اللفظية ، فعيسى بن هشام مثلا يقول انه كان يطوف البلدان « وقصاراى لفظة شرود أصيدها ، وكلمة بليغة أستزيدها » وعيسى بن هشام أيضا يعيب على الجاحظ أنه « قليل الاستعارات قريب العبارات ، منقاد لعريان الكلام يستعمله ، نفور من معناه يهمله ، فهل سمعتم له لفظة مصنوعة ، أو كلمة غير مسموعة ؟ » .

وانما قصر بالأدب العربى عن غايات الفن المطلق ، ما قيد به من اتصال بالأمراء ، وما أرقق به من تقليد للتقديم : أدخلت الأولى فيه التكلف والصناعة ، وأبقت فيه غرضا خارجا عن نفسه وصرفت الثانية همه الى

اللفظ البليغ والعبارة الطنانة ، التي تدل على بصر باللغة وتمكن من آثار فحولها المتقدمين ، ويتجلى الفرق بين مدى الادب الانجليزى من الفنية الخالصة ، ومدى الادب العربى منها ، من موازنة حياة الفن الخالص والتأمل الدائب ، والمعالجة المستمرة لأشكال الادب ومواضيعه ، والطرق المتكرر لمذاهبه ومناحيه ، التي كان يحياها وردزورث وشلى وتينيسون مثلاً ، وبين حياة البحترى والطائى والمتنبى المتصلة أوثق اتصال بالأمراء ومنادمتهم وتملقهم ، كان الأولون كأنهم كهنة الفن المنقطعون الى آلهته فى محاربه المقدسة المصونة ، وكان الآخرون يعيشون فى جلبه البلاطات وضجة المحافل والمواكب .

فالأدب الانجليزى بعد ان توفرت له أسباب الحضارة والثقافة والتدوين والفراغ ، التي لا بد منها لبلوغ الأدب أوج رقيه ، توفرت له أيضاً مزيتا الاستقلال بنفسه عن ارادة الحكام وخدمتهم ونزعة التجديد والحرية التي لا تقلد الماضى ولا نقف عند حدوده وبهاتين الميزتين الى تلك الأسباب تجمعت للأدب الانجليزى كل وسائل التطور الطبيعى وبلوغ آماذ الفن الخالص ، أما الأدب العربى فأعوزته هاتان الميزتان ، فقعد به اعوازهما فى مجال الفن ، وأبقى به بعض شوائب الصناعة ، ومن ثم أمكن القول بأن الأدب الانجليزى بلغ طور الفن ، أما الأدب العربى فى جملة فظل أقرب الى الصناعة الفنية .

القصص

فى الادبين العربى والانجليزى

الميل الى تأليف القصص والاستمتاع بسماعه طبيعيان فى الانسان ، فهو كما يميل تبعا لغريزة الاستطلاع الى مشاهدة حوادث الحياة تشرى أمام عينيه ، يميل الى حكايتها لغيره كما رآها أو تخيلها ، ويميل الى الاستماع الى غيره يرويها له ، يشبع بها غريزة الاستطلاع وملكة الخيال من نفسه . والحياة ذاتها ليست سوى قصة متتابعة الحوادث متوالية الفصول . وليس بد لمن شاء وصف بعض مظاهرها أو ظروفها من اللجوء الى القصص ، وإلى القصص يلجأ بداهة كل صديقين تلاقيا بعد طول فراق ، وبالقصص يشغف الأطفال أشد الشغف ، وبه شغف الانسان فى عهد طفولته التاريخية .

كان القصص أول صور الأدب ظهورا ، بل كان جماع الأدب والعلم والثقافة العامة لدى الجماعات الأولى ، يشمل معارفهم بالخلق والطبيعة والتاريخ وعقائدهم وتقاليدهم ، فما من شيء من ذلك كله الا حاكوا له قصة ، ولا مظهر الا اخترعوا له حكاية تعلله ، فكان قصص تلك العهود مملوءا بالخرافات والأوهام ، دائرا حول الآلهة والملوك والأبطال والقبائل ، وبالجملة كان قصصا رومانسيا تكثر فيه الخوارق والعظائم والمفاجآت والمخاطر . وقد تخلف من كل ذلك تراث حافل من نشر وشعر ، يتمثل فى أساطير الأولين من مصريين وفرس واغريق ورومان ، وبارتقاء الجماعة العقلية يتخلص العلم رويدا رويدا من آثار القصص والخرافة ويختص الأدب بتلك الآثار وتتمثل فى شعر الملاحم وما شاكله .

واذا ما ظهر النشر الفنى فقد ولت فى آثاره أساطير الأولين تلك ، وان بطل الاعتقاد فى كثير منها ، وخطا القصص الى المرحلة الثانية من مراحل تطوره ، فاتخذ وسيلة لاسداء المواعظ واذاعة التجارب وتحسين الفضيلة . أو لشرح النظريات العلمية أو الفلسفية ووضع لذلك على السنة الطير والحيوان ، أو أفواه الأرواح والجنان ، وصيغ أحيانا فى شكل حوار ، كما يرى فى قصص إسوب وجمهوريّة أفلاطون وحكايات لافونتين وكتاب أميل لروسو ، ويتطور القصص الشعرى أيضا فتظهر الرواية

الشعرية التمثيلية ، وتحل محل الملحمة ، وينفصل التاريخ مستقلا عن الأدب متخلصا جهده من الأساطير ، وان ظل الاتصال بين التاريخ والأدب وشيخا طول العصور .

فاذا اطرده رقى الحضارة ونمو العلم وازدهار الأدب ورواج النشر الفني ، خطا القصص الى مرحلته الأخيرة نحو الكمال ، فصار فنا مستقلا من كل غاية خارجية ، غايته الوحيدة غاية كل الفنون ، وهي الجمال والشعور وتصوير النفس الانسانية ، وصارت له قواعده وتقاليده المفهومة ، وبلغ مكانة ضرب راق من ضروب الأدب كالمحكمة والدراما والخطابة ، وسامى به النشر الشعر وباراه جولانا في ميدان النفس الانسانية وأداء لوظيفة الأدب ، وظهر في مضماره من فحول الكتاب من يضاهون فحول الشعر منزلة ونبوغا ، بل ظهر من الأدباء من يجمع بين الشعر والقصص ، وذهب الوهم الذي كان سائدا من قبل من أن القصص مطلب هين ، وقنص شهب البزاة سواء فيه والرخم (*) .

وللقصص ، اذا ما بلغ هذا الطور السامى من أطوار رقيه مزايما يختص بها دون غيره من ضروب الأدب منظومه ومنشوره فهو يمتاز برحب المجال رحبا يمكن من يمارسه من تناول أطراف الحياة المترامية ، بين جد وفكاهة ووصف وحكمة وعلم وأدب ، وهو يفسح للخيال متسعا بعيد الآفاق ، ويمتدح اللب بما يعرض من دقائق الحياة وتفاسيلها الى جانب جلائها وبعيد أقطارها ، وبه يعرض من أحوال الحب وأطواره ما يضيق الشعر نفسه ذرعا باستقصائه الى لمحات خاطفة ، وقبل القصص كان النسب وقفا على الشعر دون النشر ، والقصص لسهولة متناوله يذيع فى الخاصة والعامة على حد سواء ، على حين كان الشعر وقفا على خاصة المثقفين .

ولذبيوع القصص فى الخاصة والعامة وجد فيه المصلحون وسيلة عديمة النظر لنشر آرائهم ودعائياتهم ، بتصوير الحال التى يكرهون وأبراز

(*) قنص شهب البزاة سواء فيه والرخم .

شهب : خالط بياض شعره سواد .

البزاة : البازى جنس من الصغور الصغيرة أو المتوسطة الحجم تميل أجنحتها الى القصص وتميل أرجلها وأذنانها الى الطول ومن أنواعه الباشق والبدق والجمع (بزاة) .
الرخم : طائر غزير الريش أبيض اللون مبقع بسواد له منقار طويل مدبب يبلغ طوله نحو نصف متر والذنب طويل .
« والمقصود بالعبارة أن الأمر سهل » .

مساوئها وعرض ضحاياها والتنديد بجناتها وتشخيص سبل ملاقاتها ، كان ذلك فى أسلوب قصصى شائق تقبله النفس وتستسيغه وتقتنع به اقتناعا كان صعب المنال لو عرض عليها الأمر صورة النصح أو الوعظ . ومن أشهر القصصيين الدعاة تولستوى الذى كان له أكبر الأثر فى الفكر الحديث وأعظم الضلع فى التطور العقلى والمادى ، وهو أثر قل أن يجاريه أثر الشعر فى سالف العصور .

فالقصة ضرب من الأدب مرن ، يجمع مزايا الشعر كالخيال والعاطفة الى مزايا النثر كالرحب والدقة والاستقصاء والفائدة العملية ، وهى بهذا تلائم العصر الحديث أكبر ملاءمة ، وهذا سر ذيوعها حتى كادت تعطل ما عداها من ضروب القول ، فقد تهيأت الأسباب من القرن الثامن عشر الى اليوم لنهوض القصة الفنية ، التى تدرس نفس الفرد وحياة المجتمع وتحلل العواطف وتشرح الآراء والمبادئ ، وذلك برقى السواد الأعظم من الأمة بعد أن كان هملا فى غابر العصور ، وانتشار التعليم العام وبروز شخصية الفرد وذىوع مبادئ الحرية والديمقراطية ، هذا الى ارتفاع الطباعة واعتماد الأدباء على الجمهور القارىء لا على رعاية الأمراء والوجهاء .

ولم تقتصر القصة فى رقيها هذا الحديث على أن تميزت واستقلت ضربا قائما من ضروب الأدب ، يتوفر على ممارسته بعض أقطاب الأدب ، بل تطورت القصة تطورا داخليا ، وتميزت فيها ضروب من القصص يتوفر على كل منها بعض القصصيين : فهناك القصة التاريخية التى تدور حول الملوك والعظماء السابقين ، والقصة البيئية التى تصور المجتمع المتواضع تصويرا شائقا ، والقصة النفسية التى تحلل بواطن النفوس معتمدة على نظريات علم النفس الحديث أحيانا ، والقصة الإصلاحية التى تحاول تحسين حال العامل أو تعديل بعض النظم القانونية أو الاجتماعية ، أو تقويم بعض المعتقدات والتقاليد ، والقصة المستقبلية التى تنبأ بما سيصير اليه الانسان وتحاول تسديد خطاه الى ما يجب أن ينزع اليه فى مستقبله ، والقصة البوليسية التى تعرض حيل المجرمين وخطط متعقبينهم من الشرطة ، وقصة المغامرات التى تصف أعمال بعض الأفاقين ورحلاته فى المجاهل .

هكذا يتطور القصص ، من نوادر وأساطير بدائية وأهمية القصص المنتشرة النظام ، الى صور فنية محكمة ، ومن أشباح مبهمة وحوادث متضاربة الى شخصيات ناطقة وسياق منطقى منسجم ، ومن الخرافى والخرق والبهيد الى الواقعى والعلمى والحاضر ، ومن الماضى بالهته وإبطاله

وعظائمه الى الحاضر بمشاكله العادية وأفراده المشهودين ، ومن اللفظ الطنان والخيال الشارد والمعطفة الشائرة الى المعنى المتدبر والتأمل الهادى والوصف المفصل ، وهذه الصفات التى تكتسبها القصة فى طورها الراقى تكتسبها معها أو بعدها الرواية التمثيلية التى هى أسبق من صاحبها الى الظهور ، فتهجر الشعر الى النثر ، والخيال الى الدقة ، وتدرس النفس والمجتمع دراسة القصة لهما ، لا تكادان تختلفان الا شكلا وطريقة تناول .

فصاحب الرواية التمثيلية يترك أبطاله يرسمون شخصياتهم وأخلاقهم بأفواههم ، وصاحب القصة لا يدعهم يفعلون ذلك الا الى مدى ، ثم هو يتولى عنهم الشرح ويحللهم تحليلًا دقيقًا ، ويكون من الأدباء من يجمعون بين كتابة الرواية التمثيلية والقصة المقروءة .

كان للانجليز قصصهم وأخبارهم وأساطيرهم قبل أن يتحضروا كما كان لغيزهم من الشعوب ، وكان كل ذلك يتداول شفاهًا ، فلما تحضروا وعرفوا الكتابة كان الشعر كعادته أسبق الى الرقى ، فظهرت فيه قصص تشوسر المسماة حكايات كنتربرى ، ثم ارتقت الرواية التمثيلية فى عصر اليزابث على يد شكسبير ومعاصريه رقبيا عظيمًا ، وبدأت القصة النثرية مرحلتها الثانية ، فاتخذت وسيلة لغيرها : اتخذها صاحب كتاب « يوفيواس » وسيلة لشراح آداب الجنتلمان ، واتخذها مؤلف « يوتوبيا » وسيلة لتصوير المدينة الفاضلة ، واتخذها كاتب « اطلانطس » وسيلة لبسط النظريات العلمية ، وفى كل هذه كان الفن هزيلًا والشخصيات مضموسة أو معدومة والسياق متداعيا .

ثم تهيأت الأسباب الاجتماعية والمادية والمعنوية سائلة الذكر اللازمة لدخول القصة طورها الثالث ، طور الفن المنسجم المذهب الذى يتوفر على تحليل النفس ودرس المجتمع ، وذلك فى أوائل القرن الثامن عشر ، وقد بدا ذلك التطور تدريجيا كما هو الشأن فى كل تطورات الطبيعة والمجتمع الانسانى ، فانسلخت القصة رويدا رويدا عن المقالة الاجتماعية التى كانت منتشرة اذ ذاك فى الصحف الدورية على أيدي ستيل وأديسون : كانت تلك المقالة تهتم بالأحوال الاجتماعية ، وتعرض لشخصيات المجتمع تحليلها ، وأولعت بشخص واحد يدعى سير رودجر ، تتبعه فى شتى المواقف وتنطقه بشتى الملاحظات وتحيطه بمختلف الشخصيات ، فكان من مجموع تلك المقالات قصة ذات تصميم وشخصيات وبطل وحوار ووسط اجتماعى وهلم جرا ، ولم يبق أمام الكتاب الذين جاءوا بعد أديسون وستيل ، الا أن يزيدوا التصميم احكاما والحوار تسديدًا والشخصيات بروزًا .

وكان تاريخ القصة بعد ذلك خلال القرنين السالفين تاريخ تطوّر ورقى مستمرين ، أحكمت أوضاعها وتعددت ضروبها وتتابعت أزيائها ، وظهر فيها كبار المؤلفين رجالا ونساء : منهم فيلدنج وديفو وسمولت كتاب قصص المغامرات ، وجين أوستن وشارلوت برونتي وميسز جاسكل مؤلفات قصص المجتمع ، وسكوت صاحب القصص التاريخية ، ودكنز وبتلر أصحاب القصص الاصلاحية ، وكونان دويل مخترع القصص البوليسية الذى صير اسم شرلوك هولمز علما على ذلك الضرب من القصص ، الى غير هؤلاء من القصصيين الذين لا يحصون ، والى غير تلك من ضروب القصص التى لا تستقصى . وفى تلك القصص تناول القصصيون أطراف الحياة المتباعدة وأمتعوا النفوس وأرضوا الفن ، وما زالت القصة فى صعود وكأنها لما تبلغ ذروتها .

وفى خلال ذلك الوقت كانت الرواية التمثيلية تتطور وتبعث بعثا جديدا ، على صورة مماثلة للقصة المقروءة ، قوامها النشر السهل المرسل والواقع الحاضر ، ومرهاها درس المجتمع والشخصيات وتحليل الآراء والمذاهب ، وظهر فى مجالها أرنولد بنيت وبرناد شو وجالزورذى وغيرهم . والى الأخيرين يعزى الفضل فى كثير من الاصلاح الذى طرأ على النظم الاجتماعية والمذاهب الفكرية فى الجيل الأخير ، حتى شبه شو بمكنسة كهربائية ذهنية ، تنقى أوضاع (١) العقول من خرافات وتعصب وحماقات وتقاليد فاسدة .

وكان للعرب فى جاهليتهم قصصهم وأخبارهم وأيامهم وأساطيرهم ، متداخلا كل ذلك فى شعرهم ونثرهم ، مختلطا بثقافتهم ودينهم ، وقد تخلف كثير من ذلك بعد ذهاب الجاهلية ، وظل مختلطا بالأدب ممزجا بالتاريخ ، يظهر فى كتابات الجاحظ والأصمعي والطبري والأصبهاني ، وغيرهم من الكتاب والمؤرخين على السواء ، وحيكت نوادر جديدة حول أعلام الحب والحرب ، كابن أبى ربيعة وأبى نواس وعنترة ومهلهل ، وحوى القرآن الكريم طرفا جليلا من شائق القصص ، وما زالت السور المحتوية على قصص يوسف ومريم ونوح من أقرب سور القرآن الى نفوس الخاصة والعامة ، ثم انتشرت الكتابة وذاع النشر الفنى ، فدخل القصص طوره الثانى : الطور الذى فيه يستخدم وسيلة لغيره ، فاتخذ فى كيلة ودمنة وسيلة لبث الحكمة ، وفى رسالة حى بن يقطان ذريعة لشرح مسائل الفلسفة ، ولا حاجة الى القول بأن خصائص القصة الفنية فى هذه الكتب وأمثالها كانت ضعيفة واهية .

(١) أوضاع : وضرب فهو وضرب مثل وسخ وسخا فهو وسخ .

ثم تمهدت بعض أسباب دخول القصة فى طورها الثالث الفنى :
 باستقرار الحضارة والرفاهة ، ونضج الثقافة ورواج سوق الأدب وكان
 ذلك فى القرن الرابع ، فبدأت تنمو بدور القصة الفنية التى تدرس
 المجتمع وتحلل الشخصية وتهتم بالتصميم الفنى والفكرة الموحدة ، ويبدو
 كل ذلك فى مقامات بديع الزمان ، فهذا الكاتب يمثل فى العربية من هذه
 الوجهة مكان أديسون وستيل فى الانجليزية ، وقد أبدى فى ثنايا مقاماته
 من نفاذ النظرة وبداعة الوصف وبراعة الفكاهة وتنوع الموضوعات ما هو
 جدير بأسمى أنواع القصص ، واخترع شخصية أبى الفتح الاسكندر
 فكان على الأرجح المؤلف العربى الوحيد الذى اخترع شخصية شائعة
 واضحة من صنع الخيال المجرد . ولم تكن شخصيات المقامات التالية
 فيما بعد الا نسخا مكررة منه لا ابتكار فيها ، وشخصية أبى الفتح
 الاسكندر تعين من مراحل تطور القصة العربية نفس المرحلة التى تعينها
 شخصية سير رودجر ديكفري من تطور القصة الانجليزية .

فمقامات البديع فى الأدب العربى بمثابة مقولات أديسون وستيل
 فى الأدب الانجليزى : تعين بدء ظهور القصة الفنية الاجتماعية التحليلية ،
 بيد أن تطور القصة العربية وقف عند هذا الحد لا يتخطاه . ولم يبلغ
 مرحلته التالية . لأن الأسباب اللازمة لذلك لم تكن مكتملة : فالمقامات
 ذاتها قد ظهرت متأخرة ، ظهرت فى أوج رقى الأدب العربى فى القرن
 الرابع . وكان أجدر أن تأتى متقدمة فى القرن الثانى مثلا ، فليها باقى
 التطور المنشود الذى تلا مقالات أديسون وصاحبه فى الانجليزية ، وما ذاك
 الا لنزعة الجمود والتقليد التى كانت دائما مخيمة على الأدب العربى ،
 تمنع المغامرة الأدبية والابتكار والتنوع فى الأشكال والموضوعات ، وفقدت
 المقامات بعد بديع الزمان صبغتها الاجتماعية وأصبحت لعبا بالألفاظ
 والمعانى .

أضف الى نزعة الجمود تلك اسنمرار اعتماد الأدب على الأمراء دون
 جمهور الشعب ، قلما يصور رجاله مشاكل الشعب أو يحاولون الأخذ بيده
 وقيادته طريقه : فالحريرى مثلا حين تابع بديع الزمان وكتب مقاماته
 لم يكتبها بداع من داخل نفسه يدعوه الى تناول مشاكل المجتمع ومطامع
 الشعب بالدرس والعرض والاصلاح والتوجيه ، بل امتثالا لاشارة بعض
 الأمراء ممن « اشارته حكم ، وطاعته غنم » كما يقول هو فى مقدمته .
 ومحال أن ترقى القصة الاجتماعية فى مجتمع أدباؤه متوصلون من مشاكل
 شعبه لاثنون بطل أمرائه .

زد على ذلك مكانة المرأة فى المجتمع ، التى كانت قد بلغت قبل أن
 يكتب البديع مقاماته حدا من التدهور بعيدا ، بعد ما كان من امتداد

الفتوح واختلاط الأجناس وتفشى التسرى والعيب . فضرب على المرأة
النجاب ، وخيم عليها الجهل واعتزلت المجتمع ، والمجتمع بغير المرأة
لا يخرج القصة الفنية التي تدرس الحب وتقدر الزواج وتشرح العواطف ،
وانما ينتج الشعر المستهتر البذئ كشعر بشار وأبي نواس . وقد كان
انهاض حال المرأة نصب عيني أديسون وستيل وغيرهما ممن تلاهما من
القصصيين كما كان الحب مدار أكثر القصص ، كما كان من النساء جم
غفير من القصصيات كما تقدم .

والى نزعة التقليد التي كانت تسمود الأدب العربي ، كان ذلك الأدب
ينزع الى الصنعة اللفظية : فمقامات البديع ذاتها مثقلة بالصنعة والمحسنات ،
ولا غرو ، فاذا كان الأدب قد تخلص الى حد بعيد عن مشاكل المجتمع ،
فان يبقى له من مواد القول الا النزر اليسير ، فلما أعوزة الافتنان في المعاني
التفت الى التلاعب باللفظ ، والى هذه الزرخصة اللفظية قصد الحريري
أول ما قصد في محاكاته للبديع ، ولم يفكر قط في ابتكار جديد من جهة
المعاني والأفكار ولم يحاول الزيادة عليه من جهة تناول الموضوعات
الاجتماعية ، بل اكتفى بالتقليد الشكلي ، فجعل في كل مقامة شخصين
يروى أحدهما عن الآخر ، وتنقسم المقامة بذلك الى قسمين : دهليز
للقصة كما يقول العامة ، والقصة ذاتها التي تبدأ بظهور البطل ، ولم تجئ
شخصية بطله في وضوح شخصية أبي الفتح وتعدد نواحيها .

فحالة المجتمع العربي ، ونظام الحكم فيه ، ومنزع الأدب العربي ،
كل هاتيك لم تكن ملائمة لتطور القصص الى كماله ، فوقف عند بدء
الطور الثالث ، وهو الطور الفني الصميم ، فعرف الأدب العربي النواذر
والأخبار والسير وما اليها ، وعرف الحكايات ذوات المغزى العلمي أو
الخلقي ، ولم يعرف القصة الاجتماعية والنفسية ذات التصميم المحكم
والشخصيات الواضحة ، والفكرة الموحدة والغاية المستقلة والموضع الفني ،
ولم تسم القصة في الأدب العربي الى منزلة عالية كالتي تمتع بها الشعر
والخطابة والنقد ، وظلت للشعر المكانة الأولى وبقي مستأثرا بأكثر ضروب
القول ، ولم يظهر في القصة من الأعلام أمثال من ظهر في الشعر
والنقد والخطابة ، وترك القصص الطول المحافل بالوصف الاجتماعي
والخيالي للعامة .

أثر المجتمع

فى الأدبين العربى والانجليزى

انما يقصد الأديب فيما ينشئ الى التعبير عن شعوره وأفكاره لأنه يحس حافزا يدفعه الى ذلك التعبير ، ويشعر براحة وغبطة اذا ما طأوع ذلك الحافز ، بيد أنه يتأثر فى كل ما يحس ويفكر ويكتب بميئته الجغرافية ووسطه الاجتماعى وجيله الذى يحيا فيه ، لا ندحة له مهما بلغ من استقلال الشخصية والأصالة فى الابتكار عن التأثير بكل ذلك ، بل لا نغالى اذا قلنا ان عبقرية الأديب ليست الا مجموعة مؤلغة من تلك العوامل ، والأديب الذى يعتزل مجتمعه لا يتأثر به سائر أدبه الى الاضمحلال وان يكن سطحيًا ، وكلما كان الأدب حيا كانت صلته بمجتمعه شديدة التوثق ، وكان هو مرآة لذلك المجتمع واضحة ، وان لم يمنع ذلك أن يزخر بآثار الفردية القوية والشخصيات المتميزة .

فالأديب يتأثر بالمجتمع تأثرا تلقائيا غير مقصود ولا محسوس أحيانا ، ثم هو يتأثر به تأثرا واعيا مقصودا ، وذلك حين يلجأ الأديب عمدا الى وصف ما يحيط به من أحوال المجتمع ، وما يحمد منها وما يذم ، ومن يعسادفهم ويخالطهم فى المجتمع من أفراد ذوى خلائق متباينة ، يلذ للأديب أحيانا عرض كل ذلك فى أدبه كما تعرض الصور والدمى فى المعارض والمتاحف ، ويغتنبط أى اغتباط بقدرته على تصوير ما راعه من تلك الحقائق والسلائق على ما هى عليه ، وقد يزيد فيجلوها فى مجلى الفكاهة والسخرية ، أو يزيد فيندد بما يرى من مساوئ ويدعو الى الاصلاح ويوضح وسائله ، ويؤلف لنفسه مبادئ يرضاهها فى السياسة والاجتماع والاقتصاد والدين وهلم جرا ، ولا يعود معبرا عن شعور الفرد فمحسب ، بل يصبح قائد فكر بين الجماعة كذلك .

هكذا يصبح للأدب غرض اجتماعى اصلاحي ، ولا ريب فى أن غرض الأدب الأول هو غرض كل الفنون ، من التعبير الصحيح عن حسادق الشعور بحقائق الحياة وجمالها ، فاذا ما ظهر بجانب ذلك غرض اجتماعى أصبح للأدب غرضان ، بيد أنهما لا يتنافران بل يأتلفان فى يد الأديب التقدير أحسن ائتلاف ، ويصوران الحياة أصدق تصوير وأجمله ، أما فى

يد الداعية المتحمس لدعوته الاجتماعية دون كبير احتفال بجمال الفن وروعة الأسلوب ، فيوشك أن يخرج الأثر المنشأ من عالم الأدب الى حيز العلم ، فيندرج تحت عنوان الاقتصاد أو التربية أو السياسة أو غير ذلك ، أما الأدب الصميم فلا غنى له عن الجمال والصبغة الفنية ، ووظيفته الكبرى فى بيان الشعور وما اتصل به من أفكار .

وتدبر أحوال المجتمع ونقد أخلاق بنيه لا شك مجال للأدب رحيب ، ومسرح لفن الأديب خصيب ، ومهما تغيرت أحوال المجتمعات على تتابع الأجيال ، فإن طباع الانسان المركبة فيه واحدة لا تتغير ، ومظاهره من كرم ولؤم ونبل وادعاء وغرور ونفاق ، ولع بالمظاهر وتفاخر بالنعمة المحدثه ، كل هاتيك أمور تتكرر ولا تتبدل ، وتبدو فى شتى الأشكال والأزياء وهى فى الصميم سواء ، ومن ثم نرى صوراً لها فى شتى آداب الأمم على تباعد عصورها ومنازلها : فالمسيو جوردان محدث النعمة الذى رسمه موليير متعشراً فى أذبال ثروته مكاثراً بها فى سداجة ، هو أحد « النوابين » المحدثي النعمة الذين أولع بتصويرهم كتاب الدراما الانجليز فى أواخر القرن الثامن عشر ، وهو هو ذلك المحدث النعمة الذى صدع رأس عيسى بن هشام فى المقامة المضميرية بتعداد محتويات بيته وأثمانها ومزاياها ، فالأديب الحاذق يفتن الى الخطوط الرئيسية فى الصورة الشخصية التى يبغى رسمها ، فاذا ما صورها لم تكن صورة فرد من الأفراد ، بل جاءت صورة ضرب من الناس فى شتى الأمم والعصور .

وقد ترك المجتمع آثاره الواضحة على تعاقب العصور فى الأدبين العربى والانجليزى ، واختلط أدباهما بتاريخيهما اختلاطاً شديداً ، ولا غرو فالأدب من بين الفنون أشدها بالحياة اليومية والأحوال الاجتماعية والأحداث السياسية ارتباطاً ، وتبينت فى ذينك الأدبين سمات الأجيال المتتابة ، وكثرت فيهما النظرات الاجتماعية كما كثرت التأملات الفردية ، وقام فيهما من الآثار ما قوامه تدبر أحوال المجتمع ونقد أخلاق أبنائه ، بجانب الآثار التى قوامها نظر الأديب فى ذات نفسه وبوحه بأشجانه واطرابه ، بيد أن الأدب الانجليزى كان أبعد فى تناول الشئون الاجتماعية مدى ، وكان أدباؤه أكثر شغلا بالدعوة الى الإصلاح ، وان لم يهتموا التعبير عن خوالجهم الفردية ، ولم يقصروا فى تصوير شخصياتهم المستقلة .

ترى طابع العصر الاليزابشى فى أدب شكسبير ومعاصريه ، فهو عهد فتوح ومغامرات ، فامتثلت رواياته التمثيلية بذكر الشجعان والأسفار

والحماسة الوطنية وتاريخ إنجلترا ، وهو عصر لم تبدد الثقافة بعد أوهام سواد أبنائه ، فمسيراته تعج بذكر الشياطين والسحرة والأشباح والعرافة والتطير ، ولم تكن نفوس أبناء ذلك العصر قد رقت ولا أذواقهم قد صقلت ، ولذلك تكثر فى رواياته المذابح والمبارزات وسفك الدماء ، وكان عهد تعصب دينى ، ومن ثم يسخر أدباؤه من أبناء النحل (١) الأخرى كاليهود ، ولم يكن الحكم الدستورى قد توطد بعد ، وما تزال للملك اليد الطولى والكلمة العليا فى السياسة الداخلية والخارجية ، ومن ثم ينسج شكسبير لنفسه فى رواية هنرى الرابع وغيرها نظرية سياسية قوامها الملكية المستبدة العادلة ، ويعدها أساس نظام الكون .

ونرى أثر عهد الإصلاح الدينى فى إنجلترا فى أدب عهد المطهرين : اذ خفت صوت الأدب وغيره من الفنون التى لا يطمئن إليها عادة المتشددون من المتدينين ، واتصف الأديبان الكبيران اللذان ظهرا اذ ذاك - ملتون وبنيان - بالاهتمام بالشئون الدينية والتأثر بالكتاب المقدس موضوعا وأسلوبا ، ونرى أثر عصر المجون الذى تلا ذلك فى مسرحياته المملوءة بالسقاط ، حتى اذا ما أشرق العصر التالى وقد اطمأنت النظم الدستورية وانتشرت الثقافة والثروة فى جمهور الشعب ، أوغل الأدب فى تناول الشئون الاجتماعية ، ولم يقنع بالاشكال الموجودة أصلا ، فاتخذ لنفسه شكلا أدبيا هو أليق لتصوير المجتمع ونقده وهو القصة ، وفى قصة القرن الثامن عشر وفى شعره يتجلى ما كان يسود مجتمع ذلك العهد من تألق وتصنع ، وحرص على تعلم اللغات وممارسة بعض الفنون ، ويجرى ذكر خروج الأرستقراط للصيد بخيولهم وكلابهم ، ويبدو مع ذلك ما كان يتخلل المجتمع من نفاق ورذيلة وادمان للشراب وافراط فى الطعام وما كان يعصف بالطرق العامة من عبث الأشقياء .

اتخذت القصة وسيلة لوصف المجتمع ، وقد أدت غرضها ذاك خبر أداء ، وكيف لا تؤديه والقصة فى يد الأديب الحصيف ليست الا قطعة من المجتمع الحى المتحرك منقولة على القرطاس ؟ قطعة من المجتمع طوع بنان (٢) الأديب يؤلفها كيف شاء ويرسم بها من الأشخاص من شاء ويبرز بها من الآراء ما يختار ، فلا غرو أن ازدادت القصة الاجتماعية رقيا وذيوعا فى القرن التالى ، بازدياد المبادئ الديمقراطية انتشارا أعقب

(١) النحل : المذاهب والديانات .

(٢) بنان : أطراف الأصابع .

الثورة الفرنسية ، وانتشار التعليم العام ، وتعبه مشاكل المجتمع بظهور الصناعة الكبيرة ، وانتشار المذاهب الاجتماعية والاقتصادية الخطيرة كالاشتراكية والشيوعية ، ونزاع الرأسماليين والعمال ، ونهضة المرأة ورفق علوم الاجتماع والنفس والتربية ، وخاض الأدباء غمار كل هاتيك الحركات والتيارات المتضاربة ، ونقلوا فى غضون قصصهم صور هاتيك المعارك الفكرية والأحوال المادية ، وفى قصص مريدث ودكنز وبنلر وهسكل وبنيت من آثار كل ذلك ما لا يستقصى ، ومن تلك القصص تستخرج صور لتلك الحركات أوضح مما قد تعرضه التواريخ المنظمة .

وطمت هذه النزعة الاجتماعية الاصلاحية وهذه الصبغة العلمية التحليلية ، فى القصة المعاصرة ، فأقطب القصة والدراما المعاصرون أمثال شو وهاردى وولنر وجالزورذى ، كلهم متأثرون بالكشوف العلمية الحديثة والنظريات الاقتصادية الجديدة ، والأحوال الاجتماعية الراهنة ، ولكل منهم مبادئه ودعواته حتى أصبح الأدباء يختلفون ويعتريهم ، لا على المذاهب الأدبية والآراء النقدية الفنية كما كان الشأن فيما مضى ، بل على المذاهب الفكرية والآراء السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وعلى هذه المبادئ لا على مبادئ الفن والأدب ينقسمون شيعا ومدارس ، ويسرف بعض الكتاب كبرتراند رسل فى التحمس للدعوة الاجتماعية واطراح الأسلوب الأدبى ، حتى لتخرج بعض مؤلفاتهم من عداد كتب الأدب ، ولا تعد الا فى كتب العلم ان كانت لها قيمة هناك !

كان الشعر العربى فى الجاهلية حقا ديوان العرب كما دعوه : كانوا يقولونه فى شرح أحوالهم الفردية ، من حب وذكر للديار ومناجاة للمطايا ، وفى شرح أمورهم الاجتماعية ، من التمدح بالقوى والتفاخر بالبلاء فى الحرب والتواعد بالثأر وابعاء الضيم (١) ، يرسلون كل ذلك على السجية فيجىء رائعا بصدقته معجبا برجولته ، ويصوغونه فيما اتفق من لفظ وعر وأسلوب شديد ، فظل شعر ذلك العصر ممثلا صادقا له رغم عبث العابثين به ، بل لعله كان أهم مصادر تاريخ ذلك العهد حين دون تاريخه ، فقد ظل المؤرخون يذكرون ما يذكرون من حوادث وحقائق ويتبعونها أبيات الشعر مستشهدين .

وظهر أثر عهد الاستقرار والثروة والنجاح فى ظل الأمويين فى غزليات ابن أبى ربيعة وجميل وأضرابهما ، ومفاخر جرير والفرزدق وأشياءهما ، ثم ظهر أثر الافراط فى تلك الثروة والفراغ والاسراف فى اجتثناء لذات الحضارة ، فى شعر بشار وأبى نواس وأمثالهما ، ثم كان

(١) الضيم : الظلم والاذلال .

العهد التالى بدء التدهور والانحطاط المادى والخلقى : فهوت مكانة المرأة الى حضيض من القهر والازدراء والجهالة ، وفشت الرشوة والمحابة والمصادرة بين الحكام ، وكثر الفقر من جراء ذلك وادعاء الفقر والتسول والاحتيال باسم الدين والطب والادب والعلم ، وذاع الفساد وفاحش القول ومبتذل التندر ويبدو أثر كل هذا فى تنديد المعرى بالمرأة وسخر غيره من القراء منها ، وتلك الاقاصيص التى افتن الجاحظ والأصفهاني وابن دريد فى جمعها وتأليفها ، عن عبث النساء وغدرهن وخيانة الزوجات ووجوب تشديد الحجاب عليهن ، فكان ابن دريد مثلاً يبتخرع الحكايات يفسر بها الامثال السائرة فيتخذ ذلك الضرب من حديث النساء مادة لها . وبدا أثر تلك الحال السالف شرحها أيضا فى مقامات بديع الزمان والحريري ، حيث لا يزال بطل المقامات يتنقل من تسول الى احتيال الى خديعة ، ولا يزال الحارث ابن همام يؤكد حرصه فى أسفاره اذا ما هبط بلدا أن يتعرف الى واليه أو قاضيه أو بعض ذوى الكلمة فيه ، يتنقى بمعرفته ظلم الغاشمين والمرتشين من عمال الحكومة ، ويتحاشى غوائل الارهاق والمصادرة والسجن . ويف كاتبا المقامات المذكورة صنفحات ملويلة على استعراض ضروب الشتائم والبذاء يتقاذفها أشخاص الأقصوصة . ويقول ابن الرومي واصفا حال الموظفين والتجار وأضرابهم :

أُسْرَانِي دُونَ الْأَلَى بَلَّغُوا الْآ
أَصْبَحُوا ذَاهِلِينَ عَنْ شَجْنِ النَّاسِ
وَتَجَارَ مِثْلَ الْبَهَائِمِ فَازُوا بِالْمَنَى فِي النُّفُوسِ وَالْأَحْبَابِ
هذه لمحة خاطفة الى آثار أحوال المجتمع المتعاقبة فى الأدب العربى ، اذ كان من المحال تقصى تلك الآثار الاجتماعية التى تنعكس فى الأدب ، مادته وأشكاله ومذاهبه وألفاظه ، وما يزال الناظر فى مخلفات الشعراء والكتاب يطلع من آثار مجتمعيهم على جديد . وفى نوادر أبى نواس وفكاهات الجاحظ وحكايات الأصمهاني دلائل متفرقة على شتى نواحي الحياة الاجتماعية فى عصرهم . واذا قرأنا فى مقامات البديع مثلاً أن أبا الفتح اصطنع فيما اصطنع من حيل لاقتناص الدراهم والدنانير حرفة القراءة ، فرآه عيسى بن هشام مرة وسط جمع من الغوغاء يضحكهم بالأعيب قرودة ، علمنا أن تلك الحرفة التى ما تزال مشاهدة فى بعض البلدان حتى عصرنا هذا بعد انتشار حدائق الحيوان ، كانت تمارس منذ تلك العهود . وكذلك نعلم أن أبناء السند وفدوا فيمن وفدوا من أبناء الشعوب الى مقر الخلافة

يبتغون الرزق تارة بالصيرفة (١) اذ يقول الجاحظ انه لا يكاد يوجد ذو
تجارة رابحة الا وصاحب كيسه سندي ، وتارة باضحاك العامة - شأن
أبي الفتح الاسكندري - بألايب الفيل ، وذلك اذ يقول دعبل :

هذا السندي لا فضل ولا حسب يكلم الفيل تصعيدا وتصويبا

كل هذه الآثار الاجتماعية ما جل منها وما ضؤل ، واضحة في الأدب
العربي شعره ونثره ، بيد أن أغلبها قد جاء في الأدب عفوا أو عرضا ،
ولم يقصد لذاته ، ولم تنظم القصيدة أو لم يصنف الكتاب عمدا لوصفه
وبيانه ، بله نقده واصلاحه ، فأكثر أدباء العربية بعد الاسلام وبعد
استتباب الملك كانوا عن مجتمعهم في شغل ، قد يرون من أموره
ما لا يرضيهم ، وقد تكون لهم آراء في السياسة ومذاهب في الدين
لا ترضى اصحاب السلطان ، ولكنهم كانوا في أغلب الأحوال يكتفون
مثل تلك الآراء والنظريات ، وكيف يبوحدون بنقداتهم وهم بين رجا
لنوال السلطان واشفاق من غضبه ؟ ان النقد الصريح الحر والنظر
الاجتماعي الصادق لا يترعرعان بين ذهب المعز وسيفه ، انما كان يجهز
الأدباء بالنقد والمعارضة في الجاهلية وصدر من الاسلام ، وهما عهد الحرية
واستقلال الفرد ، فلما توطدت الملكية المطلقة خفت أصوات الأدباء
وقطعت السننهم . وكان شعراء الخوارج الكثيرون الذين أطاح الأمويون
رؤوسهم عبرة لسواهم من الشعراء وقد مدح سويف الشاعر بعض
العلويين الثائرين فوأده المنصور ، وثار المتنبي في صباه يبتغى اصلاح
الأحوال المتفاقمة فزج في السجن .

فالملكية المطلقة قد فرضت على الشعب ألا يراجعها في أمر ، وانقلبت
بالأمة العربية بذلك من النقيض الى النقيض . كان العرب في جاهليتهم
مسرفين في الاستقلال والفردية ، فصاروا في ظل الملكية مسرفين في
الخضوع والاستسلام ، وفرضت تلك الملكية على الأدباء أن يعيشوا حالة
عليها وعلى المجتمع ، لا يشاركون الشعب آماله وأعماله ، ولا يقودون
أفكاره وحركاته ، فلم يكن المجال متسعا أمام الأديب العربي ، كما كان
متسعا أمام الأديب الانجليزي ، لوصف المجتمع ونقد أحواله والدعوة الى
اصلاحه . فان هو فعل عرض نفسه للتهلكة ولم يفد المجتمع فتبلا .
انما يؤمل الأديب الانجليزي أن يفيد مجتمعه بآرائه ، لأنه يخاطب بآثاره
الأدبية الرأي العام في بلاده ، الذي هو فوق الحكومة يمل عليها ارادته ،

(١) بالصيرفة : مهنة الصراف .

أما فى ظل الملكية المطلقة فى الدولة الاسلامية ، فلم يك هناك رأى عام ،
وكان رأى الحكومة الأعلى •

لذلك عاش أدباء العربية طالبى فضل ، يمدحون الأمير ويعيشون
من عطاياه ، وهى السبيل التى ألقى إليها المتنبى بعد محنة سجنه ، وعاش
بها حياته على مضض باكيا مما هو به محسود ، واستوزروا للأمراء
والشامل لمجتمعهم • أما أدباء الانجليزية فقل منهم من عاش فى ركاب
الملوك ومن فضلهم على هذا النحو ، وكان أكثرهم اما مثربين غانين عن
العمل لكسب القوت متوفرين على فنهم وحده ، واما مساهمين فى الحياة
العملية بجانب الحياة الفنية ، فكان منهم من ضربوا بسهم فى السياسة
والدين والحرب والكشف الجغرافى وكبار وظائف الدولة ، ومن أولئك
فيليب سدنى وبيكون ورالى وملتون وبنيان وأديسون وبيرون ، وكان أكثرهم
فى صف الشعب وجانب الحرية •

بل كان من أدباء الانجليز من عاف الاجتماع الانسانى قاطبة ، ونقم
على أنظمة الملكية والكنيسة ، وكره التقاليد والأعراف السائدة ، وحاول
انشاء مجتمع جديد تسوده البساطة والمساواة ومن هؤلاء شعراء عهد
الثورة الفرنسية ، فالكتاب الفرنسيون الذين مهدوا لتلك الثورة أمثال
فولتير وروسو اكتفوا بالعمل النظري وتركوا التنفيذ لغيرهم ، أما معاصروهم
ومن جاءوا بعدهم من أدباء الانجليز ، فحاول بعضهم تنفيذ مبادئهم
بأنفسهم ، ولهذا الغرض انتقل بركى الى أمريكا وشلى الى أيرلندة ، يريد
كل منهما انشاء مدينته الفاضلة ، وان كانا قد منيا بالفشل لضخامة
المشروع، وعاضد وردزورث الثورة الفرنسية بقوة لماداتها بمبادئها المعروفة
حتى نقم على دولته اعلانها الحرب على فرنسا الشائرة ، وكاد ينتظم فى
أحد أحزاب الثورة ، ويركب تيارها الخطر ، واستشهد بيرون فى حرب
استقلال اليونان •

ولقد أبدى بعض أدباء العربية فى عهد نضج الحضارة والثقافة
والأدب شغفا بتتبع أحوال الناس ومعايشهم وعاداتهم وأخلاقهم وظهر
ذلك فى كتب الجاحظ ، على أنه كان يروى الأشياء على علاقتها ويخلطها
بفكاهاته ، وفى مقامات البديع ، ولم يكن أيضا يزيد على التصوير المجرد ،
فاذا ما صرح بسخطه على بعض الأحوال والأحكام والأنظمة ، فتصريحا
سريعا فيه تسليم واقتناع بعدم جدوى محاولة الإصلاح وعدم امكان أحسن
مما كان • وظهر ذلك الميل أيضا فى شعر ابن الرومى ، الذى صور كثيرا

من الشخصيات الفكاهية ، على أنه كان يتناولها من ناحيته الفردية وينحى عادة على أعدائه الشخصيين ، وظهر نفس ذلك الميل الى تتبع أحوال المجتمع فى شعر المعرى خاصة ، وذلك من الأبواب التى تغرد بها أو كاد بين أدباء العربية ، وسبق فى التصريح بها عصره ، وله فى ذلك أبيات رائعة ليست الا خلاصة موجزة لبعض مذاهب السياسة والاقتصاد فى العصور الحديثة ، ومن ذلك اعتباره الحكام خدام الرعية ، ونقمته على عدم تساوى توزيع الثروة ، وذلك قوله من لزومياته :

مل المقام فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستباحوا حقها وعدوا مصالحها وهم أجراؤها

وقوله :

لقد جاءنا هذا الشتاء وتحتة فقير معرى أو أمير متوج
وقد يرزق المجدود أقوات أمة ويحرم قوتا واحد وهو أحوج

على أن الشعر ليس بأصلح المجالات للنقد الاجتماعى والاصلاح الشعبى ، وانما مجال ذلك النثر الذى هو أكثر شيوعا وأقرب الى تناول القارئ ، والذى هو أرحب صدرا بالشرح والتفصيل والاسهاب ، والمقالة والقصة فرسا رهان هذا المضمار ، ولكن النثر العربى لم ينهض بهذا العبء ، ولم يزد أن خطأ الخطوة الأولى فى هذا السبيل فى كتابات الجاحظ ومقامات البديع ، وقد جاءت هذه الخطوة متأخرة . ولما جاء الجيل التالى لم تتبعها خطوة أخرى بل أعقبها تقهقر الى الوراء ، فلم تتطور المقامة الى قصة فنية اجتماعية تدرس المجتمع وتقوده فى سبيل الاصلاح ، بل تحولت فى يد الحريرى وغيره الى معارض للألفاظ المزركشة والألغاز المعماة والجيل الملققة ، فقد كانت الأمة فى طريقها الى الانحلال ، والأذهان فى انحسارها الى الخمود ، والحكام يزدادون على مرافق الأمة وطأة ، والأدب يتقلص رويدا رويدا ، ويهجر لباب الحياة الى قشور الألفاظ .

فالأدبان العربى والانجليزى قد تأثرا فى مختلف العصور تأثرا كبيرا بأحوال مجتمعيهما ، وهو أمر لم يكن منه بد ، بيد أن الأدب الانجليزى كان أكثر بالمجتمع تأثرا وأكثر فيه تأثيرا ، وأشد تشابكا وتفاعلا معه ، لما أحاط به من ظروف مساعدة ، مرجعها سيادة الحكم الديمقراطى وانتشار حرية القول والعمل وقوة الرأى العام ، أما الأدب العربى فلبلوغه أوج ازدهاره فى ظل الملكية المطلقة ، قد كاد يقتصر تأثره بالمجتمع وتأثيره

فيه على ما جاء عرضا غير مقصود ، وما تم بحكم الظروف وملبائع الأشياء ،
وكان تناول أدبائه لشؤون مجتمعهم رفيقا محدودا ، وفيما عدا ذلك كان
كل منهم عاكفا على وصف خطرانه وأشجانه وصبواته ، مولعا بدم أعدائه
ومساجلة صحابته ، الى غير ذلك من الشؤون الفردية •

الوصف

فى الأدبين العربى والانجليزى

الوصف من صميم الفن ولبسبب الأدب وأدل ضروب القول على صدق الشعور وذكاء القلب ، اذ أن روائع المشاهدات وطرائف المحسوسات وجديد المراتب من أشد الأمور تأثيرا فى نفس الأديب ، واستجاشة (١) له الى التأمل ، ودفعها له الى القول ، وليس خير الوصف ما أحاط بكل حقائق الموصوف وأحصى كل دقائق أجزائه ، كما تحصى الصورة الشمسية كل صغيرة وكبيرة من الشيء المصور ، وانما خير الوصف ما أظهر المهم الرائع من أجزاء تلك الصورة ، وأبان عن أثرها فى النفس ، وما تبعثه فيها من ذكريات وأطياف وأشجان واطراب ، وارتحال الأديب من صنع الى آخر ، ومن بلد الى سواء من دواعى لجوئه الى الوصف ، يعرض فيه ما يتوالى على عينيه وحواسه من آثار ومظاهر ، ومن ثم كانت الرحلة من أهم الأحداث فى حياة الأديب بل من أهم مكونات شخصيته .

والوصف من أشد آثار الأدب امتاعا للنفس واستدعاء لانتباهها وارضاء لغرائزها : اذ هو يرضى من الانسان غريزة التقليد والحكاية لشتى المراتب والمحسوسات ، ويروى منه الميل الى احساس صدى عواطفه لدى الآخرين ، فهو يستريح الى الأديب الذى يصف من المشاهدات ويروى ما قد يكون القارىء من به فى مختلف أطوار حياته . والوصف أيضا يحرك الخيال ويمتعه ويفسح له مجال العمل ، ويبعد به وراء حدود الحياة اليومية الحاضرة . ومن ثم نرى البيت أو البيتين يعرضان فى القصيدة الطويلة مشتملين على وصف رائع لمنظر أو حادث أو احساس ، فيكونان غرة القصيدة وأحب أبياتها الى النفوس .

ولما كان الوصف ضربا من القول فنيا صميما ، وكان يحتاج لتجويده الى اطالة النظم وطول التقصى ورياضة الكلام ، وكانت موضوعاته أكثر من أن تعد وأوسع من أن تغنى كان الوصف يبلغ أوج ازدهاره حين يبلغ

(١) استجاشة : جاشت نفسه - جاشا : اضطربت من حزن أو فزع .

الأدب طوره الفنى ، باستقرار الأمة وتحضر مجتمعيها وذيوخ الثقافة بين أبنائها ، واستعمال الكتابة الخطية وتوفر الفراغ للتروى والمعالجة والمعودة للمنشآت الأدبية فالوصف من أهم أبواب القول التى تتسع وتترقى فى طور الأدب الفنى ذاك • ومصداق ذلك واضح فى الأدب اليونانى قبل ازدهار الحضارة وبعده : ففى أشعار هوميروس لا يأتى الوصف الا عرضا ولا يوصف من الأشياء الا ما دعت اليه الضرورة ، وأكثر الاهتمام مصروف الى القصص ، فلما جاء شعراء الدراما واستغلوا نفس موضوعات هوميروس أحيانا ، وشوها ببديع الأوصاف الفنية المقصودة لذاتها •

وفى الشعر العربى الجاهلى شذرات من الوصف رائعة ، اذ كان ذلك الشعر بلغ من الفنية حدا لا بأس به ، وكان لبعض الشعراء المام بالموضوعات يبدون فيه ما عرف به العربى من توفد القريحة ونفاذ البديهة وبلاغة الإيجاز ، ولهم أوصاف حسنة لبعض أنواع الحيوان ولا سيما الجياد والابل والظباء ، وللمواقع والأطلال والأنواء ، وفى المعلقة نماذج لكل ذلك ممتعة ، حيث يصف كل من عنتره وامرئ القيس جواده ويصف لبيد ناقته ، ويصفون جميعا أطلال ديار أحببتهم •

ومن أجود أوصاف الحرب فى الشعر الجاهلى قول القائل :

صريف أنيابها صوت الحديد اذا	قضى الحديد بها أنباؤها الوقور
فى جوها البيض والمأذى مختلط	والجرد والمرد والخطية السمر
جاءت بكل كمى معلم ذكر	فى كفه ذكر يسعى به ذكر
لهم سراويل من ماء الحديد ومن	نضح الدماء سراويل لهم آخر
مضاعفات عليهم يوم بأسهم	لونان جون وأخرى فوقهم حمر

وبانتشار الحضارة وذيوخ الثقافة اتسع باب الوصف فى العربية أعظم اتساع ، ووصف الشعراء مظاهر العمران والترف وقصور الملوك ومواكبهم وحدائقهم وجيوشهم وسفائنهم ، ووصفوا الخمر ومجالس الشرب والطرب ، ووصفوا الجوارى والغلمان ، ووصفوا الصيد والسباق ، وأولع الجاحظ وبديع الزمان بوصف الأحوال الاجتماعية ، فصوروا مناظر فى الحمام وفى السوق ومواقف التخاصم والتقاضى ، وأجريا الحوار بين شتى الأشخاص عاليهم وسافلهم • واشتهر أبو نواس بوصف الخمر ، والبحترى بوصف القصور ، والمتنبى بوصف الحروب ، وابن الرومى بوصف الفواكه والمأكول وتصوير الشخصيات الهزلية •

ولما تغلبت الصناعة وطلبت البراعة اللفظية والنكتة المعنوية والثائق والتطرف ، انعدم الحس أو كاد في الوصف ، وتعلق الأدباء بوصف توافه الأشياء أو الاسطرلاب أو القلم أو الكأس ، أو ما شابه ذلك مما هو في غنى عن الوصف ، وما وصفه الا تحصيل حاصل واضاعة وقت ، فان الأصل في الوصف الفني كما تقدم أن يكون له باعث من شعور صميم ، لا أن يكون الغرض منه حكاية تفاصيل باردة فاترة • وقد أولع بذلك الضرب من الوصف النظري ابن المعتز وابن خفاجة وكشاجم ، فلما أوغل الأدب في التصنع وجانب الأدباء كل ذوق وكل معقول في التعميل والاغراب ، انقلب الوصف في أيدي أكثرهم الغازا ، فالغزوا في أنواع الماكل والأشياء والآلات ، وبأمثلة هذا الضرب من الأحاجي السقيمة تمتلئ مقامات الحريري وأشعار ابن نباتة المصري وأضرابه •

والأدب الانجليزي حافل منظومه ومنثوره بمحاسن الأوصاف ، بيد أن باب الوصف فيه مخالف للوصف في الأدب العربي من وجوه شتى : فهما مختلفان في الموضوعات التي اتخذها كل منهما مادة وأدمن طرقها ، فقد تناول الأدب العربي - كما تقدم - وصف أنواع من الحيوان ، ووصف مظاهر اللهو والرفاهية ، وتناول بعد ذلك قليلا من وصف الطبيعة والمجتمع ، أما الأدب الانجليزي فهو أحفل بوصف هذين الأخيرين منه بوصف أى شيء آخر ، فالطبيعة كانت قبلة أكبر شعرائه وكتابه وشغلهم الشاغل ، ووصفها كان دأبهم أيا طرخوا من موضوعات القول ، فامتلا الأدب الانجليزي بكنوز من أوصاف الطبيعة ، تكاثرت ما قيل في أى باب آخر من أبواب الشعر والنثر ، فالوصف الطبيعي مادة جانب عظيم من الشعر الانجليزي ، كما أن الوصف الاجتماعي مادة جانب عظيم من القصص والدرامات •

وفي الأدب الانجليزي ضرب آخر من الوصف يستأثر به دون الأدب العربي ، على أنه من صميم الفن وأعلق نواحيه بالانسانية الشاملة والشعور العميق ، ذلك هو وصف آثار الأقدمين من عمائر وحصون وتماثيل وصور وأبناء وعظائم ، ففي ذلك كله منادح للخيال ومجال للابتداع ومذاهب للفكر ، وتأملات في أحوال الانسان وتقلب العصور والأحداث ، وتعظيم لقدرة الانسان وتقدير للفنون ، وكل ذلك يكاد يكون معدوما في الأدب العربي ، والمثل الرائع الفريد في هذا الباب هو سينية الباحثرى الشى لو كشرت مثيلاتها في الأدب العربي لكان أرفع قدرا ، وكان أعلامه أسير في العالمين ذكرا •

ولم يقتصر أدباء الانجليزية على آثار التاريخ يستوحونها ما فيها من منادح الوصف الشائق والتصوير المجسم ، بل عمدوا الى الخرافة ولعلها أحفل بذلك من التاريخ ، اذ كانت أحفل منه بآثار الخيال وأحلام الانسانية ومثلها العليا فى القوة والجمال والسعادة ، فاتخذ الشعراء والقصاصون تلك الخرافات مادة وهيكلًا لمنشآتهم ، ورصعوها بما شاءت لهم براعتهم من أوصاف ووجدوا فى أشعار هوميروس وفرجيل وقصص العصور الوسطى وأساطير الشرق والغرب مجالا لفنهم ، فأعادوا سرد ما راعهم من حوادثها ومواقفها سردا فنيا مسهب الوصف مشبعا بجميل المناظر والعواطف .

وكما يختلف الوصف فى الانجليزية عنه فى العربية فى الموضوع اختلافا كبيرا ، يخالفه فى الوسيلة مخالفة معدودة ، ففي العربية أوصاف بالغة من الكمالات والامتياز ، بيد أنها جميعا تعتمد على المعنى دون اللفظ ، وعلى التشبيهات والمجازات ، وتحتوى على كأن أو كاف التشبيه ظاهرة أو مستترة ، أما فى الانجليزية فيستعين الشعراء بجانب هاتيك جميعا بوسيلة أخرى ، ليست أقل أداء للغرض وتصويرا للمنظر واشباعا للخيال والحواس ، تلك هى الملاءمة بين صسوت اللفظ وبين المعنى المصوغ فيه .

وهذه الطريقة التى ياجأ اليها الانسان عمدا وعن وعى فى طور الأدب الفنى ، قد لجأ اليها فى عهوده البدائية ، أيام كان يصوغ ألفاظ لغته ويطلق كلامها على كائن من الكائنات ، أو صوت من الأصوات ، أو عمل من الأعمال ، أو غير ذلك . فألفاظ الرشاش والشواط والسلسبيل والسكون وغيرها ، تدل بنطقها على مدلولها لأن الأقدمين انما اشتقوها من هيئة مدلولاتها ، فعلوا ذلك عفوا وبداهة ، حتى اذا ما بلغ الأدب الطور الفنى واستعان الشعراء والكتاب بالتدوين وأطالوا التجويد لما ينشئون استرعت الألفاظ انتباههم بعد أن كان جل اهتمامهم موجها الى المعانى ، وعند هذا الحد من التطور افترق الأدبان العربى والانجليزى فى طريقة استخدام الألفاظ . فأما الأدب العربى فجعل اللفظ غاية فى ذاته ، وجعل التأنيق فيه مطمعا مستقلا ، وأما الأدب الانجليزى فعالج اللفظ وراضه وتأنق فى صياغته ، ولكن لا على أنه غاية فى نفسه ، بل على أنه وسيلة للمعنى لا أكثر .

فان كان المنظر المراد تصويره حركة كجريان نهر أو عدو جواد ، استخدم الشاعر الانجليزى بحرا من بحور الشعر يلائم تلك الحركة ،

وأذا كان به صوت أو أصوات مختلطة كهدير الأمواج أو قصف المدافع ، اختار من الألفاظ تلك التي تحتوى على حروف خشنة قوية ، وإذا كان يصنف منظرا ساكنا وادعا لم يذكر ذلك في القصيدة ذكرا ، وإنما استعمل الألفاظ ذات الحروف اللينة كالسين مثلا ، وهناك عدا هذا وذاك ضروب شتى من الملاءمة بين الصيغة والمعنى يفتن فيها الشاعر الوصاف ما شاء له فنه ، ككثرة العطف أو القطع ، وتكرار الحروف أو الكلمات أو التراكيب أو الشطوور أو الأبيات الكاملة * وقد اشتهر بالتفنن فى هذا التصوير اللفظي تينيسون وسبنسر وملتون ، بل سائر أقطاب الشعر الانجليزى ، بل جارا هم فى ذلك بعض الكتاب مثل ستيفنسون * .

وقد وقع شيء من ذلك فى بعض أشعار الوصف فى العربية ، ولكنه كان الهاما مجحضا أو اتفاقا عارضا ساقط الشاعر إليه الصدفة السعيدة أو السليقة المجيدة ، دون أن يتعمده عن وعى أو يتكلف فيه عناء كالذى تكلفه فى استخراج ما به من تشبيه ومجاز * ويتجلى الفرق بين الأدبين فى هذا الصدد فى علم البديع فيهما : فالبديع فى العربية يشمل الجناس والسجع وهلم جرا ، وهى محسنات للفظ مستقلا بنفسه وليست لها علاقة بالمعنى ، أما علم البديع (١) فى الانجليزية فيشمل الملاءمة بين جرس الألفاظ وبين المعانى التى تؤدبها ، ويشمل تشابه الحروف الأولى فى جميع الفاظ الجملة الواحدة لأداء المعنى بطريق الجرس أيضا ، وغير ذلك من حيل بلاغية ليست لها مصطلحات تترجم إليها فى العربية ، لأنها لم تكن من مألوف أدبائها * .

واللغة العربية بغزارة مادتها وتلاطم عباها وتعدد أوزانها وقوافيها ، وجمعها بين وعى الألفاظ ولينها ، ودقيق الأوصاف وجليها ، وما لها من مرونة فى التراكيب ورحب فى الأساليب ومطاوعة لفن الأديب ، هى خير معوان له على إبراز شتى الصور من جرس الحروف وتتابع الألفاظ وتجاوز التراكيب ، وتدفع الأوزان ورنين القوافى * انظر الى الوزن كيف ساعد على إبراز المعنى فى قول بشار فى صوت مغنية :

تميت به أرواحنا وقلوبنا مرارا وتحيين بعد هجود

(١) ليس لى اللغات كلها أوسع ولا أدق من علم البديع فى اللغة العربية * والمحسنات المعنوية فيه ثلاثة أرباعه * والنوع الذى يصفه الكاتب الفاضل فى الانجليزية يشبه (ائتلاف اللفظ والمعنى) فى العربية - (الرسالة) *

وقول ابن المعتز في خيل السباق :

خرجن وبعضهن قريب بعض سوى فوت العذار أو العنان
تري ذا السبق والمسبوق منها كما بسطت أناملها اليدان

ساعدت السليقة المواتية أو الجذد الموفق بشارا ، فجاء بيته ذاك
ببحره الطويل وحروف اللين المتتالية الوئيدة الحركة في « تميت »
و « أرواحنا » و « قلوبنا » و « مرارا » و « تحيين » و « هجود » أصدق
مصور لصوت المغنية اذا هي مددته وخالفت بين المدات فيه والقصرات ،
ويبدو ذلك جليا اذا قرئ البيت على مهل . كذلك حالف التوفيق ابن
المعتز فاختار لبيتية البحر الوافر المتدفق تدفق الخيل في مجالها ،
وحالف التوفيق مرة أخرى فذكر العذار والعنان ، وفضلا عن أن تتابع
هذين اللفظين مما يزيد الحركة جلاء فان ذكرهما مما يزيد الصورة
تجسما ، فان ذكر جزء من الصورة دون بقية الأجزاء كثيرا ما يزيد الصورة
وضوحا ، ويبعث من تلقاء نفسه باقي الأجزاء الى الخيال . ولذلك مثال
آخر في قول جميل :

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الأباطح

فذكر الأعناق هنا بلاغة فائقة ، فهو يستتبع الى المخيلة منظر الابل
والأباطح والركب ، ويرسم حركة المطى معا . ومما يزيد الحركة تصويرا
أيضا اختيار الشاعر البحر الطويل البطيء النغم . وهناك وسائل أخرى
لتجسيم الحركة البطيئة ، منها كثرة العطف ففيها دلالة على التناول
والتواني ، ومنها كثرة الألفاظ القصيرة فانها تستغرق نفس القارئ حتى
يكاد يلهث بعد قراءتها ، ومن ثم يشعر بالبطء في المعنى تبعا للبطء في
اللفظ . ومثال الوسيلة الأولى قول امرئ القيس في تناول الليل :

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل

ومثال الثانية قول المتنبي :

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه وفي أذن الجوزاء منه زمازم.

فقد احتوى بيت امرئ القيس على ثلاث جمل معطوفة ، واحتوت
السطرة الأولى من بيت المتنبي على خمس كلمات كلها قصيرة ، اذا قرأها

القارئ مترويا جاءت بطيئة مشعرة ببطء الجيش أو موجية بضخامته ، فلم يذكر المتنبي صراحة ومباشرة أن الجيش كان ضخما ، فيعتمد على المعنى وحده فى اعطائنا الصورة ، بل أوحى إلينا بمعنى الفخامة بوساطة كلمات الشرق والغرب والزحف ، ولا علاقة لهذه الكلمات فى غير هذا البيت بالضخامة قط ، وبذلك استخدم المتنبي اللفظ ونطقه لأداء المعنى وهى هى الوسيلة التى استغلها أدباء الانجليزية قصدا وعمدا أكبر استغلال وأبدعه • أما الحركة السريعة فيؤديها البحر الكامل المتدفع ، وهو لذلك خير ما يصور فيه عدو الجياد ، كما فى قول المتنبي :

أقبلت تبسم والجياد عوابس يخبن بالحلقي المضاعف والقنا

وقول ابن هانئ الأندلسى :

وفوارس لا الهضب يوم مغارها هضب ولا الوعر الحزون حزون

ففى هذين البيتين تصوير رائع لعدو الخيل • وقد ساعد التوفيق الشعارين فى الفاظهما بجانب الوزن الذى اختاراه ، فتكرار حرف الباء فى بيت أبى الطيب مما يزيد وقع حوافر الخيل فى بيته جلبية ووضوحا ، وتكرار كلمتى الهضب والحزون فى بيت ابن هانئ يوحى الى المخيلة تتابع الهضب والروابى أثناء عدو الفوارس ، حتى يكاد يتخيل الانسان سيقان الخيل وهى تنهب تلك الحزون وتقفز من ربوة الى ربوة • ويكاد البيت يعرض أمامك شريطا سينمائيا متحركا ، ومتى بلغ الشاعر هذا المدى من دقة التصوير وروعته ، فقد أوفى على الغاية من الفن والشاعرية ، كذلك نرى الوزن واللفظ قد اصطلحا على إبراز المعانى فى قول مسلم بن الوليد فى مفازة :

تمشى الرياح بها حيرى مولهة حسرى تلوذ بأطراف الجلاميد

وقول ابن حمديس :

وراقصة لقطت رجلها حساب يد نقرت طارها

وقول المتنبي :

فى سعة الخافقين مضطرب وفى بلاد من أختها بدل

ففى بيت مسلم تكاد تحس الرياح المحرقة تافح وجوهنا ونتمشها
تضرب جوانب الصخور ، وفى بيت الصقلى تتمثل حركة الراقصة السريعة
الخاطفة ، وفى البيت الثالث تتمثل المتنبي على ظهر ناقته وهى تخالف
بين أظلالها (١) ممعنة فى الذهاب ، لما يمتاز به بحر المنسرح من اضطراب
الحركة واندفاعها ، على حين يمتاز بحر الخفيف بالتؤدة ورنه الحزن ،
مما يجعله أليق البحور بالمراثى والوجدانيات ، وهو من أهم أسباب
سيماء الوقار والشمجن التى تتسم بها دالية المعرى المشهورة التى
مطلعها :

غير هجد فى ملتى واعتقادى نوح باك ولا ترنم شهاد

وصفوة القول أن الأدبين العربى والانجليزى قد احتويا على بدائع
من الوصف ، هى غذاء اللب ومتاع الخيال ، بيد أن آثارها فى الأدب
الانجليزى أغزر ، ونواحيها أكثر تعددا ، ونصيب الطبيعة منها أوفر ،
ووسائلها أكثر عددا واختلافا ، وأدباء الانجليزية كانوا أكثر بصرا بها
وأطول رياضة لها ، وكان نجاحهم فيها راجعا الى المجهود المتبصر الواعى ،
بجانب الطبع الصادق الموائى ، على حين كان نجاح أدباء العربية الذى مرت
بعض أمثلته راجعا فى أكثر الأحيان الى عفو الخاطر وهداية البديهة ، وما ذاك
الا لأن أدباء الانجليزية كانوا أكثر عكوفاً على فنهم ، وتفرغاً لأدبهم ،
على حين كان أدباء العربية يولون الأمراء وذوى الهبات من اهتمامهم
وتفرغهم ما كان فنهم به أحق ، وشاعريتهم به أولى .

(١) أظلالها : الظل الذى هو الظفر المشقوق للبقرة والشاة والظبي ونحوها والجمع
(أظلال) .

الخيال

فى الأدبين العربى والانجليزى

الخيال ، أو القدرة على انتزاع شتى الصور الذهنية من الواقع واستحضارها والتصرف فيها ، هن المواهب التى يمتاز بها الانسان على سائر الأحياء ، ويمتاز بها النابغة على سائر الناس . رقى العلم رهين برقيه ، واتساع الأدب متصل باتساعه ، وهو بين الجماعات الأولى مصدر تلك الأساطير والأوهام التى تسود بينهم ، كما أنه مصدر ما تغص به اللغات من معجازات وتشبيهات ، بها تتسع جوانب اللغة وجوانب التفكير معا أيضا اتساع ، ولولا الخيال لالتزم الفكر الانسانى الواقع المتحجر أى التزام .

والخيال قوام جانب عظيم من الأدب ، ان لم يكن قوام الجانب الأرقى فيه ، ان لم يكن قوام الأدب جميعا : فبالمجازات والتشبيهات يتأتى للأديب أن يصور شعوره ويبرز تفكيره ، اذ يمثل لنصرة الخد بنصرة الورد ، ولطلعة البطل بهيبة الأسد ولجيشان المعركة بتدافع الأذى ، وهلم جرا . وبالخيال يستطيع الأديب أن يسبك موضوعه ويجمع أطرافه ، وينبذ ما لا حاجة به اليه من تفصيلات قد تشوهها هو بسبيله ، ويضفى ثوبا من الجمال والانسجام على ما ينشئ . والخيال أظهر ملكات الشائى وأول مميزات الشعر التى تفرق بينه وبين النثر .

وارتقاء الخيال واتساعه وكثرة آثاره أهم ظواهر دخول الأدب فى طوره الفنى : فانه اذا خرجت الأمة من بداوتها وعزلتها وبسطت سيادتها واتصلت بجيرانها القريين والبعيدى ، وتحضرت وثقفت ، اتسعت أذهان أبنائها وتراعى خيالهم وتصوروا من الحقائق والمعانى والممكنات ما لم يكونوا يتصورون ، وغزر المعين الذى يستمدون منه التشبيهات والاستعارات ، وينتزعون منه الحكم والأمثال ، ويتوفر الفراغ ويتسع للمجهود الأدبى المتصل ، فتظهر القصة والدراما والقصيدة الطويلة ، ويخلق الأدباء فى أجواز (١) الخيال وآماد الماضى والمستقبل ، مبتعدين عن دواعى الحاضر

(١) أجواز : الجوز من كل شىء وسطه والجمع (أجواز) .

الحازبة (١) ومجالاته الضيقة ، ولا يبلغ الأدب أوج رقيه حتى يرتقى الخيال فيه هذا الارتقاء وحتى يشغل أكثر جوانبه .

وللخيال فى الأدب الانجليزى مكان رفيع وأثر بعيد شامل يشتمل فى موضوعات الأدب وأشكاله وطرائق تناول الأدباء لما هم بسبيله : فالأديب الانجليزى غزير العاطفة ، اذا جاشت أطلق لها العنان واسترسل مع خياله ، وأثار به منظر طبيعى أو غناء طائر أو ذكرى طارئة أو أثر من آثار الغابرين أو أسطورة من أساطيرهم شتى الأحلام والأطياف ، وتناهت به عاطفته الى حدود الأمانى وآفاق الماضى والمستقبل ، وهذا الاسترسال مع الخيال اذا أثارته فكرة رئيسية هو مرجع وحدة القصيدة فى الانجليزية .

وهناك عدا هذا الخيال المنبث فى كل مناحى الأدب أشكال خاصة من الأدب قوامها الخيال ، ينهض بكيانها ويوثق وشائجها . وهذه هى الملاحم الطوال فى الشعر والقصص الممثلة أو المقروءة شعرا أو نثرا ، وفى هذه لا يلتزم الأديب الواقع المجرد بل يفترق عنه أفترقا جسيما ، ويؤلف من شتى أفكاره وتجاريبه وأمانيه وصور الحياة التى مرت به ، عالما بجيش بالحياة والحركة ويموج بالعواطف والنوازع ويفيض بالجمال والامتاع ، بهذه الضروب القائمة على أساس من التخيل المحض يحفل الأدب الانجليزى .

فقد عالج الملاحم والمطولات من القصائد ملتون وسبنسر وهاردى ووردزورث وكثيرون غيرهم . وأشعار الملاحم تعج بالبطولة ، وهى على رغم هذا لا تخرج عن عالمنا الانسانى ولا تغفل النفس الانسانية ، بل تظل نوازع تلك النفس ومشاعلها هى الهدف الذى يرمى اليه ناظموها : اذ فيها يتخذ أولئك الأرباب والجبابرة طبائع الناس وميول الأفراد ، وان فاقوا البشر قوة وعظما ، ومن هنا يتأتى للشاعر أن يبسط آراءه فى ميدان متسع والى هدى فسيح ، فيستعرض مشاغل عصره ويبث خوالج نفسه ، فالخيال هنا لا يعدو الحقيقة وانما يوضحها أحسن توضيح ، فضلا عما يمتع النفس به من قصص متسق وجمال وجلال .

وفى الأدب الانجليزى ما لا يعد من قصص فى الشعر والنثر ممثلة ومقروءة ، وقوام القصة بطبيعتها الخيال ، وان تراوح نصيبها منه ،

(١) الحازبة : حزب الامر حزبا ، أى اشتد .

فهناك القصص التي ترمى الى أغوار الماضي وتدور حول عظماء التاريخ والأساطير ، من طموح يبيع نفسه للشيطان كي يعينه الشيطان على ادراك مطامحه ، الى دائن يتقاضى دينه من لحم غريمه ودمه ، كما في روايات مارلو وشكسبير . وهناك القصص الواقعية التي تلتزم الحقيقة الى حد بعيد ، وتصور المجتمع الحاضر تصويرا دقيقا لا يدع شاردة ولا واردة ، كقصص هاردي ، ودرامات جالزوردي ، ولكل من الضرين متعته .

ولتشغف الانجليز بسبجات الخيال ، وميلهم الى اطلاق الفكر في أجوازه ، لجأوا في شعرهم ونثرهم الى تصوير حوادث التاريخ وغرائب الأساطير ، فاستقى شعراؤهم وكتابهم عذب القصص وممتعته من تاريخ انجلترا وتواريخ اليونان والرومان وبنى اسرائيل وغيرهم ، واتخذوا من خرافات الأمم مجالا لفنهم ، فعرض سبنسر وتينيسون وكولردج وغيرهم تلك الخرافات عرضا شعريا رائقا مرصعا بجميل الوصف وبدائع المناظر الطبيعية ، وشائق مواقف الحب والبطولة .

ومن ثم امتلأ الأدب الانجليزي بأسماء الشخصيات الخيالية التي اخترعها الأدباء من مخيلاتهم ولم يكن لها قباهم وجود أو كان لها وجود سبهم في عالم الخرافة فأخرجوها بعقرياتهم الى عالم النور والوضوح ، وألبسوها ثوبا من الجمال والجاذبية ، وأصبح بعض هؤلاء الأشخاص الخياليين الذين امتلأت بذكرهم وأخبارهم الملاحم والقصص والشعر والنثر ، أعلاما على طبائع في الانسان معروفة ، ورموزا على حقائق في النفس البشرية مشهودة ، فشكسبير مثلا لم يكن يدع خلقا انسانيا نبيلًا أو ضميعة الا صوره في رواياته وخلق ما لا يعد من الشخصيات الحية . مثل هاملت وروميو وجولييت وياجو وشيلوك ، وغيرهم ممن صار لهم وجود قائم في عالم الأدب كوجود أعلام الماضي في عالم التاريخ .

لم يجر الأدب العربي الى هذا المدى من الخيال ، فلم تكن فيه ملاحم ولم تكن المطولات من هم شعرائه ، ولم يرتق فيه القصص ولم يحتو على شخصيات متخيلة من خلق الأدباء ، وظل الحاضر القريب والواقع المحقق ديدن (١) أدبائه ، فالأديب العربي كان شديد الإيجاز في مقاله وتعبيره عما يحس ، يعبر عن أفكاره أشتاتا كلما عن له حافز الى الكتابة ، لا يدخر أفكاره ولا يربط منها حاضرا بماض ، بل يرسلها الشاعر على السجية أبياتا محكمة النسيج موجزة البيان ، ويرسلها الكاتب روايات

(١) ديدن : العادة والدأب .

قصيرة متتابعة منسوبة كل رواية منها الى صاحبها أو راويها أو شهودها ، فأحسن أشعار المتنبي حكم موجزة متتابعة مستقل كل منها ببيت لا تكاد تجمعها علاقة ، وقوام كتب كثيرة كمؤلفات الجاحظ والثعالبي وابن عبد ربه روايات وشواهد متتابعة ، لا يكاد يكون للأديب فضل غير جمعها وتبويبها .

كان الشعر الجاهلي محدود الخيال قريب المأخذ لمكان أربابه من البداوة وبعدهم عن الثقافة ، فلما تحضر العرب وثقفوا واختلطوا بالأمم واطلعوا على أحوال الأقطار البعيدة ، اتسع من جراء ذلك خيالهم وبان أثره في شعرهم ونثرهم ، فالمحدثون من الشعراء لا شك أبعد خيالا وأكثر تفننا في التشبيهات من الجاهليين ، وظهر ضرب من القصص الخيالي يتجلى في مقامات بدیع الزمان ، ورسالة الغفران ، ففي هذه وتلك مواقف وحوادث محلها من اختراع الخيال ، ثم هناك الروايات والأخبار العديدة التي كان يخترعها الرواة والكتاب يطلبون الاغراب والتطرف والرواج ، أو يؤيدون الحجاج والمذاهب .

بيد أن هاتيك جميعا آثار ضئيلة الشأن ، وهي اذا قيست بما في الانجليزية من سبجات الخيال ، لم تكن الا شبيهة بطيران الدجاجة الخفيف مقبسا بتحليق البازي الكاسر . ورسالة الغفران على جمال فكرتها ومشابقتها لما في آداب الأمم الكبيرة في جريان حوادثها في عالم الخلد وامتلائها بممتع المواقف والمحاورات ، مكتظة بمسائل النحو والأدب النظرية العقيمة ، التي كان كثير من الأدباء ينفقون أعمارهم في غيائها غافلين عما هو أهم منها من حقائق الحياة وجمالها ، ولم يكن الخيال ولا الجمال ولا القصص غرض المعري الصحيح حين أملاها ، وانما كانت تلك المسائل اللغوية هي مقصده الأول : ومقامات البديع على جمالها واهتداء البديع الى اختراع شخصية أبي الفتح فيها مكتظة كذلك بالالاعيب اللفظية والبراعات اللغوية ، فالمقامات ورسالة الغفران جميلتان على أن تكونا خطوتين الى ما بعدهما ، ومرحلتين في طريق نمو القصص الصحيح وازدهار الخيال الراقى ، بيد أن ذلك النمو لم يطرد وذلك الرقى وقف في أول الطريق وان من العجائب حقا أن يكون أعظم أثر خيال في الأدب العربي من صنع شاعر كفيف محجوب عن آفاق الحياة ومباهجها ! فكبح عنان الخيال كان دأب أدباء العربية حتى بعد دخول الأدب عصره الفني ، فالفكرة التي تخطر للأديب الانجليزي فيؤلف حولها قصة تموج بشئ الصور المنتزعة من الحياة ، أو ينظم حولها قصيدة طويلة تجمع أشعثات الأفكار والمعاني ، يكتفي الأديب العربي بصوغها في بيت شعر محكم يذهب

مثلا ويروع بايجازه وشموله ، لا بتقصيه واستيعابه ، فكل بيت من أبيات المتنبي السائرة يحوى نظرة نافذة الى حقائق الحياة ، هى بنفسها محور صالح أن تدور حوله قصة أو دراما . بينما الأديب العربى قد أودعها أوجز لفظ وأعمه .

وقد نظم شلى قصيدة فى قرابة مائة بيت ، حين استرعى تفكيره هبوب ريح الشتاء الباردة فى ايطاليا ، فصور عصفها بالأوراق الجافة ، ودفعها البذور الى حيث تنام فى التربة حتى ينبهها الربيع بدفنه وطيب أوانه ، وشبه ثوران عاصفتها على الأفق بالشعور المتهدلة عن رأس مايناد احدى العرائس الخرافية ووصف اقشعرار النبات المائى فى قاع المحيط لدى احساسه مرور تلك الرياح ، ثم طلب الى الريح أن ترفعه كما ترفع تلك الأوراق وتدفعه كما تدفع تلك البذور ، وتنفع فيه من قوتها ، وتتخذ نايا لها عله يستطيع أن يطير بأجنحتها ، ويبذر بين الخلق بذور أفكاره الاصلاحية التى كان أمينا لها طول حياته .

ولشكسبير مقطوعة عن ريح الشتاء أيضا فى رواية « كما تشاء » يستمرسل فيها فى التأمل على ذلك النحو ، أما الشاعر العربى فاذا استرعى انتباهه ، هبوب الريح فانه يودع خاطره أوجز لفظ ، واصفا تهيج الريح لذكرياته أو محملا اياها سلامه الى أحبائه كما قال بشار :

هوى صاحبي ريح الشمال وانما أحب لقلبي أن تهب جنوب
وما ذاك الا أنها حين تنهى تنهى وفيها من عبدة طيب

والغريب انه برغم غنى الادب الانجليزى بآثار الخيال وندرة تلك الآثار فى الادب العربى ، نرى كلمات الخيال وخيال الشعراء والمخيلة وغيرها كثيرة التداول فى العربية نادرة الورد فى النقد الانجليزى ، وانما كان نقاد العربية يظفون اسم الخيال على أبعد الأقوال عن مجال الخيال الصحيح ، يطلقونه على ما درج عليه الشعراء المداحون من اختراع مواقف الغرام فى استهلال قصائدهم وتلفيق صفات الجود والبأس لمدوحيههم ، ومن ثم اشتهر البحترى بالخيال لا لأنه دمج القصص المحكم أو نظم المطولات الرائعات، بل لأنه كان من أمضى الشعراء فى بابى المديح والغزل الاستهلالى ومن أكثرهم ذكرا للأطيف والوداع واللقاء ، وليس تحت مثل هذا الخيال طائل . اذ قوامه التكلف والمحال والايقال فى البعد عن حقائق الحياة والشعور ، بينما اخص خصائص الخيال الفنى الصحيح صدق البيان للشعور فى أعماق أعماقه وأرحب آفاقه ، فاذا قال بشار ان الجود من كف ممدوحه يعدى ، وقال أبو تمام ان ممدوحه

لا يستطيع قبض أنامله لأنه تعود بسطها بالعطاء ، وقال المتنبي أن أسنان صواحيه برد خشي أن يذيقه من حر أنفاسه فكان هو الذائب من حر أشواقه ، وإذا شبه ابن المعتز الهلال بمنجل يحصد نجوم الليل حصدا ، أو شبه ابن خفاجة النهر وعيث ضفافه بهذب يحف بمقلة زرقاء ، فقد باعدوا جميعا وأغربوا وخالفوا حقائق المنطق والشعور وجاءوا بما هو أشبه بعث الصبيان وهذر المخمورين وكان قولهم أبعد الأشياء عن الخيال ، فالخيال ليس هو تجاهل حقائق الحياة ونحديها والتفنن في منافستها ، وإنما هو قدرة الفكر على استيعابها والاشتمال على قريبها وبعيدها ، والتصرف فيها والتفنن في عرضها ، ولا غرو إذا كانت تلك نظرة نقاد العربية الى الخيال أن قالوا ان أعذب الشعر أكذبه ، والحق أن أعذب الشعر أصدقه وأجود الخيال أكثره اشتمالا على الحقيقة وغزارة آثار الخيال في الأدب الانجليزي ترجع لا شك الى اختلاف مناظر الطبيعة في انجلترا وتعددتها وتقلب أحوال الجو ، ثم ترجع الى اتساع أذهان الانجليز باقتباسهم حضارة أوروبا ومساهماتهم فيها ، وإلى الكشف الجغرافية العظيمة التي عاصرت نهوض الأدب الانجليزي ، وهي ترجع أيضا الى اطلاع الانجليز على الأدب اليوناني الحافل بروائع الحوادث والاساطير ، المملوء بأشعار الملاحم والدرامات .

فقد كان لشعراء الانجليزية ، وكتابها من ذلك معين لا يفنى وكان الاطلاع على التراث الكلاسي بمثابة كشف جغرافي آخر واطلاع على عالم ثان غير هذا العالم المعهود مما أطلق الأذهان الى غايات الخيال ، وكان للأدب العامي في ذلك أثره أيضا . وترجع ضالة حظ الأدب العربي من الخيال الصحيح السامي وكثرة ما به من آثار التخيل الزائفة الى نزعة الجمود التي كانت تسوده وتقره دائما على محاكاة الأقدمين واحتذاء الأدب الجاهلي ، وهذا لطبيعته المتبدية وبيئته الصحراوية التي ترعرع فيها أدب أولى قليل الحظ من الخيال كثير الالتزام للواقع الحاضر ، هذا الى اشتغال الأدباء بمدح ذوى السلطان واجتهادهم في تخيل كل منقبة وضافتها اليهم ، أضف الى ذلك أن الأدب العربي لم ينتفع كما انتفع الأدب الانجليزي بأدب الاغريق ، فحجبت عنه تلك العوالم الزاخرة بالحقائق والخيالات . وقد اطلع العرب على فلسفة الاغريق فحاكى غير واحد من فلاسفتهم جمهورية أفلاطون يتخيل المدينة الفاضلة ولو اطلعوا كذلك على أدبهم لاستفادوا منه فائدته المحتومة .

ظل الأدب العربي مكبوح الخيال ملتزما للواقع مؤثرا للايجاز متشبها بالرواية التاريخية المسندة ، وترك الخيال الواسع للعمامة

يسبحون في عوالمه التي تستهوى النفس الانسانية ، فجالوا في نواحي القصص يودعون أفكارهم على ما بها من قصور ، وآمالهم على ما بها من سداجة وما يشوبها من شهوات الحس ، وثقافتهم على ما يخالجها من جهل واضطراب ، وجاء الأدب العربي الفصيح في أزهر عصوره مشتملا على ضروب من التخيل الفج لا يستسيغها لب ولا يقرها فن ، مشتملا بجانب ذلك على وجدانيات صادقة وحكم وأمثال رائعة موجزة ، هي خير ما في الأدب العربي من لباب الفكر والشعور ، فالأدب العربي يبلغ قمة مجده بما فيه من آثار الحكمة لا بما يحويه من صور الخيال *

التاريخ

فى الأديين العربى والانجليزى

التاريخ قصة الانسانية وحكاية ماضيها ، يصف حياة الانسان من قديم عهوده ، وتقلب أحواله على مرزور العصور ، وكفاحه فى سبيل التقدم والسعادة ، ويعرض أعمال الأمم وعظائم الأفراد وتعاون الشعوب حيناً وتعاديلها أحياناً ، ويشرح سريان الحضارة والثقافة من صقع الى صقع ، ومن جيل الى جيل ، ومن أمة الى أخرى ، وما أضافته اليهما عبقرية كل شعب ، من مستحدثات العلوم والفنون والصناعات ، فالتاريخ سجل مليء بالعظائم والدروس ، حافل بالمتنعات والطرائف ، يتمتع اللب سياقه القصصى ، وينبه الخيال بعده الزمنى ، ويملا النفس أحياناً بالفخار الوطنى ، وينتقف الانسان فى حاضره ويصيره بما بين يديه ، حين يعرض عليه أنباء الماضى ووقائعه .

ولا يستمد التاريخ مما دونه المؤرخون فى كتبهم فقط ، بل يستمد بجانب ذلك من آثار الفنون المتخلفة عن الأمم ، من عمارة ونحت وتصوير وأدب ، ففى كل هاتيك صور من عقلياتها ومذاهبها ومجتمعاتها ومنازعتها ، فتاريخ الحضارة المصرية القديمة لا يستمد الا أقله مما دونه المصريون أنفسهم أو من جاء بعد عهدهم من مؤرخى الأمم التالية ، أما أكثر ما يعرف عن حياتهم الاجتماعية وتقاليدهم وديانتهم وعلومهم ، فمستقى من مخلفاتهم فى عالم البناء والنحت والنقش والصناعة ، وقل مثل ذلك فى تاريخ اليونان والرومان ، وغيرهم من الأمم التى أنشأت الحضارات وكان لها فى العلم والفن شأن يذكر .

فتاريخ الأمة وفنونها متصلان أوثق اتصال ، فالعوامل النفسية التى تسيطر على المجتمع والحكومة وتؤدى الى الأحداث والتطورات السياسية والاقتصادية ، هى هى العوامل النفسية التى تسيطر على فنون الأمة ، فيميل أبنائها الى فنون دون أخرى ، وينحون بفنونهم أنحاء خاصة دون غيرها ، فقدماء المصريين الذين كانوا يخضعون للملكية مطلقة دينية النصبغة ويؤلهون ملوكهم ، نبغوا فى عالم العمارة فى بناء المعابد والمقابر دون القصور ، ونحتوا التماثيل للملوك والآلهة ، لا للأبطال والزعماء

والخطباء والرياضيين كما فعل الاغريق ، ولم يرتق فيهم الأدب الذى يترجم عن مشاعر الفرد ، ويعبر عن خوالج المجتمع .

والأدب أشده الفنون اتصالا بتاريخ الأمة وارتباطا بتطورات المجتمع ، اذ كان صدى ناطقا دقيقا لما يحس به الفرد والمجتمع ، بل الأدب مصاحب فى بدئه للتاريخ فى ظهوره ، يتمازجان لدى الجماعات البدائية فى محاولتها تفسير ظواهر الكون والنغنى بمفاخر أسلافها ، ويشاب كل ذلك بالخرافات ، ويظل الأدب والتاريخ مختلطين على ذلك النحو ما دامت الأمة فى عهد بداوتها ، فاذا ما تحضرت ودونت الكتب بدأت العلوم تتفرق وتتميز ويستقل كل منها بنفسه ، فظهر المؤرخون واستقلوا بأمرهم عن الأدباء ، بيد أن الصلات بين الأدب والتاريخ تظل محكمة ، اذ كان كل منها مرآة للمجتمع تعكس صورته من زاوية مختلفة .

فالأديب لا غنى له عن درس تاريخ الماضيين والتبصر فى تاريخ عصره ، كى يتشقف عقله ويحصف فكره لأحوال البشر ، والمؤرخ لا غنى له عن النظر فى كتب الأدباء ليفهم روح العصر الذى يؤرخ له ومثله العليا ، ولا غنى له اذا أراد أن يجيء تاريخه كاملا عن أن يفرد جانباً منه لدرس الحياة الأدبية لذلك العصر ، والمؤرخ للأدب لا غنى له عن درس التاريخ السياسى للمصور الادبية ، والبيئات السياسية والاجتماعية التى عاش فيها الأدباء الذين يترجم لهم ، وقد كان من عظماء اليونان والرومان أمثال ديموستين وتيوسيديد وقيصر وشيشرون من جمعوا بين البلاغة الأدبية والتأليف التاريخى ، أو بين حرفة الأدب وحرفة السياسة وصناعة الحرب .

اذا ما بلغت الأمة طور الحضارة والاستقرار والثقافة ، ودخل الأدب فى طوره الفنى ، وتميز التاريخ وقام علما مستقلا بنفسه كما تقدم والتفت اليه الأدباء فوجدوا به مجالا لفنهم رحيبا ومرتعا لابتكارهم خصيبا ، فهم لا يكتفون باستيعاب حقائقه واجتناء فوائده ، بل يتخذون من مساهمه وأحداثه ورجاله مادة وغذاء لأقلامهم ، ومسارح لخيالهم ومناوح لبيان آرائهم فى الانسان والحياة ، وشواهد لندعيم حججهم فى المذاهب والمشاكل ، فيتخذ منه الشعراء موضوعات لقصيدهم ، والقصصيون ميالاً لقصصهم ، ويجدون فى عوالمه البعيدة وحوادثه القريبة وعظمائه النابيين ، مهربا للنفوس من عقال الحاضر القريب ، وأحداثه العادية .

كان الشعر فى الجاهلية ديوان العرب لانه - هو والقصص - كانا يحويان أخبار العرب ، ويحفظان مشهور حوادثهم وأيامهم ، ويحكيان أخبار رحلاتهم واستقرارهم ، ويشيران الى ما وراء ذلك من عوامل اقتصادية واجتماعية وعصبية ، فلم يكن العرب اذ ذاك يعرفون من التاريخ الا حفظ الأنساب ، فلما تحضروا واستقروا فى المدن تضاعف شأن النسابة وظهر التاريخ المدون ، ظهر أولا لغرض عملى شأن كل العلوم والفنون ، لحفظ أخبار الفتوح وسيرة النبی الكريم وصحابته وتفسير بعض آيات الذكر الحكيم ، وارتقى التاريخ شيئا فشيئا وصارت له أغراض غير هذه وتناول موضوعات أخرى أرحب وأعم .

بيد أن التاريخ لدى العرب - كالأدب - ترعرع فى ظل الملكية المطلقة ، فجاء كلاهما مشتملا على نفس النقائص : احتفى كلاهما بأمر الملوك وأغفل جانب الشعوب ، واهتم بالأحداث السياسية والحروب وتجاهل التطورات الاجتماعية والاقتصادية ، واتسم كلاهما بالمحافظة والتقليد والنقل فى غير نقد ، لأن وطأة الملكية كانت تضطر كلا منهما الى الاطراق (١) والاغضاء والتغافل عن مواطن الضعف ودواعى الاصلاح ، وكما كان الشعراء يقرضون الشعر ليتقدموا به الى الأمراء متزلفين (٢) ، فيملأونه بالمدح المغالى فيه ، كان بعض المؤرخين يصنفون أسفارهم ليرفعوها الى بعض الخلفاء والسلطين بغية الثواب والحظوة ، فيملأونها بمدحه ومدح أسرته وتعداد مآثره ومفاخر دولته ، ويؤيدون دعواه وينحون على عداه ، ويتغاضون عما عدا ذلك .

وقد ظل الاتصال قائما بين الأدب والتاريخ بعد تدوين الكتب واستقلال علم التاريخ بنفسه ، فظلت كتب الأدب تحوى كثيرا من أخبار الجاهلية والاسلام ، بل كانت تلك السير والأخبار والشذرات والنوادر من أهم مواد كتب الأدب العربى ، ووردت فى أشعار الشعراء شتى الاشارات الى أحداث الماضى ورجاله ، كما أن المؤرخين وكتاب التراجم والمعاجم كثيرا ما كانوا يلجأون الى الشعر مستشهدين لما هم بصدد من تحقيق حادثة ، أو تصويب رواية ، وكان بعضهم يعيرون الشعراء اهتمامهم فيترجمون حياتهم ترجمة موجزة ، وكان بعض الشعراء ينظم فى أحداث جيله ، كما فعل ابن الرومى فى ثورة الزنج وفى مقتل بعض العلويين الخارجين . وكان كتاب الأمراء يتناولون مسائل السياسة فى رسائلهم ،

(١) الاطراق : سكت لحيه أو خوف أو نحوهما .

(٢) متزلفين : تزلف : تقدم وتقرب .

فتندرج أشعار أولئك وكتابات هؤلاء فى تراث التاريخ اندماجها فى
كنسوز الأدب •

بيد أن الأدب العربى الذى أغفل كثيرا من موضوعات القول الذى
ينهافت عليها الأدب اذا ما بلغ طوره الفنى ، أهمل التاريخ اهمالا كبيرا ،
فلم يتخذ من حوادثه وحيا للنظم ، ولا من أعاجيبه مدارا للقصص ، ولا من
أبطاله أمثلة للتمجيد ، فليس من بين أدباء العربية الكبار من استهزه
حادث تاريخى قرأه ، أو أثر تاريخى وقف به ، الى نظم قصيدة أو انشاء
رسالة يستجلى فيها عبر التاريخ ويمجد قوة الانسان ، أو يندب ضعف
حيثه ازاء جبروت المقادير • وليس من كتاب العربية ذوى الأساليب
الجزلة من شمر عن ساعد الجذ والمحدث والاطلاع حتى كتب تاريخا رفيعا
لبعض العصور أو الرجال ، تاريخا يعد تحفة فى عالم الأدب كما قد يعد
مرجعا فى عالم التاريخ ، وانما كان بعض الشعراء يتنصلون من الشؤون
الاجتماعية والسياسية ، ويتبرءون من الاشتغال بمسائل التاريخ ،
كما قال ابن المعتز :

قليل هموم القلب الا للذة
ينعم نفسا آذنت بالتنقل
ولست تسراه سائلا عن خليفة
ولا قائلا : من يعزلون ؟ ومن يلى ؟
ولا صائحا كالعبر فى يوم لذة
يُنَاطِرُ فى تفضيل عثمان أو على

أما فى الانجليزية حيث كان الأدباء والمؤرخون كغيرهم من أفران
الشعب يشاركون فى الحياة الاجتماعية والسياسية بآرائهم ومذاهبهم ،
بل بأعمالهم ومساعيهم ، فقد جاء كل من الأدب والتاريخ أكثر حرية وأقرب
الى جانب الشعب ، وأكثر طروقا لمواضيع المجتمع ومشاكل بنيه ، وجاء
الاتصال بين الأدب والتاريخ شديد التوثق ، وجاء الأدب الانجليزى أحفان
بآثار المجتمع الذى قيل فيه من الأدب العربى ، ومن ثم تدرس النصوص
الادبية الكثيرة فى أثناء دراسة التاريخ فى الجامعات ، فتدرس آثار ملتون
مثلا عند دراسته عهد المطهرين فى انجلترا •

ووجد أدباء الانجليزية فى التاريخ مجالا واسعا لفنهم وابتداعهم ،
فجال فيه شكسبير ومعاصروه جولات عديدة ، واتخذوا مشاهد رواياتهم

فى بلاد اليونان أو ايطاليا أو الدانمارك أو انجلترا القديمة ، واشتق ملتون ودريدن موضوعات كثيرة من قصيدهم من تاريخ اليهود وأبناء ملوكهم وأنبيائهم ، فلما ظهر النشر الفنى بجوار الشعر لم يغفل التاريخ ولم يكن أقل لموضوعاته طرقا من الشعر ، بل كان أحرى أن يشتمل على حقائقه ودقائقه ويعالج مسالكه ودروبه ، بما يمتاز به على الشعر من ربح جوانبه ودقة تعبيره ، فعالج جيبون وهيوم وآدم سميث وكارليل وغيرهم التاريخ والاجتماع وفلسفتيهما فى أسلوب أدبى شائق وجمع بعض الأدباء أمثال ماكولى وأرنولد بين الكتابة فى الأدب والتأليف فى التاريخ فكان الأدب والتاريخ لديهم كلا واحدا يجولون فى نواحيه بلا تفريق ، وبقيت كتاباتهم يدرسها طلاب الأدب كما يدرسها باحثو التاريخ .

بل بلغ غرام بعض الأدباء بالماضى ، وشغفهم بتقاليده وأزيائه ومحبتهم لأفكاره وعظمائه حدا بعيدا ، وقد كان سكوت من ذلك الضرب الذى يحيا فى الماضى وبجلائله ولآلئه وبطولته ، ولا يكاد يلتفت الى الحاضر أو يعنى بالمستقبل ، وفى ذلك العالم السالف كتب سكوت أحسن قصصه . ومن كتب فى الروايات والقصص التاريخية أيضا تنيسون وبرواننج ودرنكورتروشو ، وقد نرى موضوعا تاريخيا حديثا كالثورة الفرنسية ، وقد تناوله المؤلفون الانجليز من شتى النواحي : فمحلل لحوادث الثورة وشخصياتها ككارليل ، مندب بمبادئها كبرك ، ومرحب بشك المبادئ مترنم بها كوردزورث ، ومتخذ من قصة وليد تلك الثورة نابليون موضوعا للمحمة طويلة كهاردى ، وهكذا تحيا حوادث التاريخ فى أذهان مطالعى الأدب مصورة من شتى النواحي .

ولا شك فى أن هذا التاريخ الأدبى ، اذا سميناه كذلك ، أجدد بالقراءة وأحق باهتمام المثقف من التاريخ المجرد ، اذ فى آثار الأدباء تحيا حقائق التاريخ وتذب فيها روح انسانية جديدة وتمتلىء بالامتع ، ويعود التاريخ والأدب وكلاهما مظهر لحياة الانسان المطردة التطور والتغير ، وتفكيره الدائب الحركية والتقلب ، وفى هذا التاريخ الأدبى يرتبط الحاضر بالماضى ، والقريب من الأمم بالبعيد ، وتتقاصر مسافات الزمان والمكان ، ولا يبقى الا الانسانية الشاملة ، وهذه الانسانية هى مجال كل فن صميم .

هذا التاريخ الأدبى لم يعرف فى العربية ، فكان هناك المؤرخون وكان هناك الأدباء ، ولكن كلا منهما كان مستقلا عن الآخر استقلا كبيرا ، ولم يكن الأدباء يعدون التاريخ مجالا من مجالات أدبهم ، أو مطمحا من مطامح فنهم ، يبتكرون فى مجاله وينشئون ، وما ذاك الا لانشغالهم

بالقريب الحاضر من شؤون العيش ، عن البعيد المتراعى من أمور الحياة
وآفاق الفكر لأن الأدب ظل أكثره مرتبطا بالبلاط يمدح الأمير ويحرر
رسائله ، وكان الفوز بتلك الخطوة مطمح الأديب ووسيلته الكبرى الى
الظهور فاذا ما بلغ ذلك المكان لازم ذلك الضرب الوحيد من القول ، ولم
يصرف أدبه الى التأمل فى شئون الماضى والمستقبل ، وهكذا أغفل الأدب
العربى التاريخ فيما أغفل من موضوعات هى صميم الفن ، لوثيق صلتها
بالانسانية .

بيئات الأدباء

فى الأدبين العربى والانجليزى

أثر البيئة فى الانسان ومجتمعه وعلومه وفنونه من النواميس النى اهتم العلم الحديث بكشفها وتتميع مظاهرها والرجوع اليها فى شنى الدراسات . وأثر البيئة فى أدب كل أمة على اطلاقه واضح مشاهد ، بيد أن لكل أديب بيئة خاصة داخل البيئة العامة التى تحيط به وبغيره من أدباء أمته ، ولهذه البيئة الخاصة أثر بعيد فى تشكيل عبقريته وتوجيه ميوله وصيغ نظريته الى الحياة وتكوين فهمه للأدب ، ولهذه البيئة فى أكثر الأحيان فضل توجيه عبقريته الى الأدب دون غيره من الفنون والحرف الانسانية .

فالوراثة لها أثر فى فن الأديب ، لاشتراكها فى تكوين مزاجه وميوله ، وذلك الأثر الوراثى ملحوظ فى أدب شلى وبيرن من شعراء الانجليز ، بل فى حياتهما اذ عاش كل منهما ساخطاً قلق المقام مضطرباً بين البلدان مساجلاً المجتمع حرباً لاتهدأ ، وقد كان كلاهما منحدراً من أسرة أرسقراطية عرفت صفات الجماع والتمرد فى غير واحد من أسلافها . وللوراثة أثرها الواضح فى أدب ابن الرومى الذى جاء لانتمائه الى الروم مخالفاً أدب غيره من فحول العربية ، فى النظرة الى الحياة والطبيعة ، وفى استقصاء المعانى وتوليدها .

ولتكوين جسم الأديب ، بين الصحة والمرض والكمال والنقص والوسامة والدماغة أثره كذلك فى أدبه ، فالأديب سليم الجسم يكون صافى المزاج معتدل النظرة الى الحياة ، والآخر المعطل الصحة المنهوك بالأوصاب (١) ، كالمعري وابن الرومى فى العربية ، وبوب وسويقت وجرأى فى الانجليزية ، يكون ضيق العطن أو قائم النظرة الى الحياة أو كثير النقمة على معاصريه شديد الشغب معهم . وقد قيل قديماً ان للأدب ضريبة على محترفه يتقاضاه اياها من ذات جسمه أو ذات نفسه ، فلا تكاد ترى أديبا الا محروبا أو شقيا أو معسرا ، ولعل فقـدان الأديب لبعض

(١) بالأوصاب : الوصب : الرجع والمريض والجمع (أوصاب) .

ما يتمتع به سواء من بهجة الحياة من دواعي ارهاق حسه وصرفه الى التأمل وعطفه الى الأدب ، ولعل المعرى لولا عماه وانجاسه عن متع الدنيا على ذلك الوجه ، لما حفل بالتفكير فى الأرض والسماء وأصل الخلق ومصير الانسان وهلم جرا .

وللتربية والنشأة المنزلية أثرهما فى تكوين الأديب ، فكثيرا ما تنتج عبقرية الناشئ الى الأدب لأن أباه أو كافله مشغول بالأدب ، وقد كان ذلك شائعا بين العرب ، اذ كان الآباء يقومون بتأديب أبنائهم ، فنشأ كثير من الأدباء كالمصاحب وابن العميد وابن المعتز وابن زيدون فى بيوت فضل وأدب . وقال ياقوت فى ترجمة المعرى : « وكان فى آباءه وأعمامه ، ومن تقدمه من أهله وتأخر عنه من ولد أبيه ونسله ، فضل ، وقصة وشعراء ، أنا ذاكر منهم من حضرنى لتعلم نسبه فى العلم » . ولحظ البيئة المنزلية من الرقى أو الحطة أثره كذلك فى أخلاق الناشئ ومنزعه ، ومن ثم يتسم أدب الشريف الرضى فى العربية وتنبسون فى الانجليزية بنزعة التسامى والتدين ، لانتمائهما الى أرومة شريفة دينية ، بينما تبدو لوثة العامية والتبذل فى أشعار بشار وأبى نواس .

ولنصيب الأديب من الغنى أو الفقر أثر بعيد فى حياته وعقليته وأدبه ، فلا بد للأديب من حظ من المال يستطيع معه أن يتفرغ الى فنه أو يتفنن فى ابتكاره ، أما اذا كان لا يكسب رزقه الا بجهد جهيد فهيهات أن يوفى الأدب حقه . والأديب المعسر المخفق كابن الرومى لا ينفك شاكيا نى شعره متحرقا ، ولا يشكو هذه الشكوى أديب نشأ فى بيت نعمة كابن المعتز أو نجح فى ادراك الغنى كالبحترى ، فشعر هذين أكثر امتلاء بوصف اللذات وأوقات الصفاء . وقد وجد ابن الرومى على البحترى وهجاء حسداً وغيظاً ، فرد عليه البحترى رداً هادئاً وأتحفه بهدية ، فعل المظمئن الى نفسه الراضى فى بحبوخته ، ولم يطلب الطغرائى شططا حين قال :

أريد بسطة كف أستعين بها

على قضاء حقوق للعلى قبلى

ولنوع الثقافة التى يتلقاها الناشئ ، والأدب الذى يقرأ ، والأستاذ الذى يأخذ عنه ، والأديب الذى يقدمه ويشغف بآثاره ، والأدب الأجنبى الذى يدرسه ، لكل ذلك أثره فى توجيه أدبه وفلسفته فى الحياة . فآراء المتزندقة التى فشت فى صدر العصر العباسى ظاهرة الأثر فى شعر

بشار وحماة وأبى نواس ، والآراء الفلسفية التي ذاعت بعد ذلك ظاهرة في أشعار الطائي والمعري والمتنبي ، ولم يتأثر أدباء العربية بأدب اجنبي تأثرا ذا بال ، أما أدباء الانجليزية ففضلا عن اغترافهم جميعا من مناهل الأدب اليوناني ، كان منهم من تأثر بالأدب الايطالي كسبنسر ، وبالالماني كشلي وسكوت وكارليل ، وبالفرنسي ككثير من كتاب القرن الثامن عشر وشعراء القرن السابع عشر ، وكما أثر مذهب أبي تمام الشعري في تلميذه البحتري وفي المتنبي وغيرهما ، كان للمتون أثر بعيد في كثير من شعراء الانجليز منهم وردزورت وتنيسون .

ولجيل الأديب ، سياسته وأدبه وأخلاقه وأزيائه وفنونه ، أعظم أثر في أدبه : فبعض الأدباء ينحاز الى حزب سياسي ويخصص جانباً من كتاباته للدفاع عنه ، كما كان الكميث ودعيل وعمارة اليمنى شيعيين ينتصرون لآل البيت ، وكما كان بشار عقلياً بالولاء ينتصر لمضر ويفخر بغضبته التي تهتك حجاب الشمس ، وكما كان ابن الرومي علوياً بالولاء أيضا . وكان أدباء الانجليزية أكثر اتصالاً بشئون المجتمع والسياسة وتأثروا بها ، فعرضوا لمشاكل عصورهم في أشعارهم وقصصهم ، وحين ملأ دكنز قصصه بوصف أحوال الطبقات العاملة ، إنما كان متأثراً بأحوال عصره الصناعي ، وإذا امتلأ شعر المتنبي بذكر القنا والصوامر والفتكة البكر وتضريب أعناق الملوك ، فإنما كان ذلك صدى عصر التناسخ والقلقل الذي عاش فيه .

وتؤثر حرفة الأديب كذلك في أدبه ، موضوعه ولغته وتشبيهاته : فالأديب الجندى كعنتر وأبى فراس لا يكاد يخوض في غير حديث النجدة والعزة والباس وإطاحة الرؤوس عن الأجسام ، والأدباء الوزراء الذين عرفوا في الدول الإسلامية تتعلق خير كتاباتهم بالسياسة والولاية والعزل وهلم جرا ، والشاعر المداح كالبحثري لا ينفك عن ذكر أحوال الملك ومظاهر أبيته ، وتوماس هاردي الذي كان مهندساً معمارياً مشغولاً بفن العمارة لا يزال يبدى ويعيد في وصف العمائر والصروح في شعره وقصصه ، ويستخدم في ذلك من المصطلحات العلمية ما لا يكاد يفقه إلا خبير مثله بتلك الشئون ، أما الأديب المنقطع الى الأدب فلا يكاد يخوض في غير شئون الأدب وسير الأدباء . وقد أورد الجاحظ هذه الحقائق مورد الفكاهة في رسالة صناعات القواد ، اذ جعل الطبيب والخياط والخباز المؤدب وصاحب الحمام وغيرهم ، يتحدثون في الأدب وينظمون الشعر فيستخدم كل منهم مصطلحات حرفته في استعاراته وتشبيهاته .

وللاقليم النمر يختاره الأديب مستقرا ومقاما ، والأقاليم التي يرحل إليها في أدوار حياته ، أثر عظيم في موضوعاته وأسلوبه : اذ هو يشتق أسباب القول مما يحيط به في حله وترحاله ، ولا ريب في أن الأديب كثير الرحلة يكون أوسع افقا وأغزر مادة وأعمق فكرة من الأديب القاعد ، اذ كان من يعيش يرى ومن يسير يرى أكثر كما يقول المثل العامي . وقد كان وردزورث يقطن مقاطعة البحيرات في إنجلترا وكان كثير التجوال بين الجبال والروابي ، فجاء لفظه مجردا عاريا عرى الصخور وتجردها ، وكثرت فيه ألفاظ الوحشة والوحدة وهلم جرا . ونشأ كبلنج في الهند فامتلا شعره وقصصه بوصف غياضها وأدغالها ، وحفل بالتعصب الجنسي المتطرف ، وترك رحلات المتنبي بعض الآثار في أشعاره ، من وصف الطبيعة كوصف بحيرة طبرية وشعب بوان ، الى وصف الأحوال السياسية في مثل قوله :

بكل أرض وطئتها أمم ترعى بعبد كأنها غنم

فالى البيئة التي ينشأ فيها الأديب وتضطرب في محيطها حياته ، مرد ما يمتاز به أدبه من اتجاه خاص وطرق موضوعات دون غيرها ، ونناول لها على نحو خاص ، وما يتصف به من سمو أو ضعة ، وورع أو استهتار ، وفكاهة أو انقباض ، وتفاؤل أو تشاؤم ، وعمق أو سطحية ، يختلف حظه من كل ذلك عن حظوظ أبناء أمته بل أبناء جيله بل أصحابه وخلفائه ، وبسبب عوامل البيئة تلك يختلف عنقرة وعمر بن أبي ربيعة والشريف الرضي والمتنبي في العربية في الموضوع والنزعة واللفظ والأسلوب ، كما يختلف وردزورث ويرون وسكوت وشلي في الانجليزية . حتى يستغث الثاني شعر الأول أى استغثات ، ويحمل الثاني رأيه في الأخير في قوله : ذلك الملحد شلي ! وما ذاك الا لاختلاف ما يحمل رأس كل منهم من آثار الوراثة والثقافة والعقيدة والتربية والنشأة ، على نعاصرهم وتشاركهم في وجوه أخرى ، وعلى كونهم يعبدون اليوم أبناء مدرسة واحدة .

على أن اختلاف بيئات الأدباء أشد ظهورا في الانجليزية منه في العربية ، لأن أدباء الانجليزية أكثر اضطرابا في المجتمع وادخلا له في أديهم وأكثر ارتحالا في البلدان وذهابا في آفاق الفكر واعرابا عن أفكارهم الصميمة وآثار تجاربهم ، ولأن المجتمع الانجليزي تغير وتجدد على توائى العصور من عهد اليزابث الى الوقت الحاضر ما لم يتغيره المجتمع الاسلامي ، والثقافة الانجليزية تطورت بتقدم العلوم ما لم تتطوره الثقافة العربية ،

المحافظة كانت أغلب على المجتمع والفكر العربيين ، وهى أيضا كانت
سمة الأدب العربى وديدن أدباء العربية ، ومن ثم تشابهوا كثيرا فى
الموضوعات والأساليب على تباعد المواطن والعصور .

فأدباء العربية بعد قيام الدولة الإسلامية ودخول الأدب طوره الفنى
الراقى ، كانوا يأخذون أنفسهم بضروب من القول يطلبون بها البراعة
الفنية أو الشهرة أو الحظوة والنجاح ، كالتمدح بجليل الصفات والتفاخر
بتأله (١) المجد ومدح الأمراء . وجروا فى ذلك على سنن مألوفة واغترفوا
من مناهل مطروقة ، حتى تشابه أولهم وأخيرهم وبعيدهم وقريبهم . فإذا
قرأت مئات القصائد التى نظمها مروان بن أبى حفصة وبشار وأبو تمام
والبحترى وغيرهم فى مدح الخلفاء ، كى ترى أثر البيئة الخاصة للشاعر
فى كل ذلك فلن تظفر بطائل ، لأنهم إنما نظموها لأغراض مادية وعلى
أنماط مأثورة ، لا دخل للنفس ولا لثقافتها الفكرى فيها . وإذا قرأت
قول أبى نواس :

ومستعبد أخوانه بثرائه لمست له كبرا أبر على الكبر
لقد زادنى تيهها على الناس أنمى أرانى أغناهم وإن كنت ذا فقر
فوالله لا يبدي لسانى حاجة الى أحد حنى أغيب فى القبر
فلا يطعن فى ذاك منى سارقة ولا ملك الدنيا المحجب فى القصر

كدت تحسب قائل هذا الشعر شريفا حسيبا عفيفا ، يزهد فى
غرور الدنيا ويقنع بالقليل استمساكا بالأنفة والكبرياء ، ولم تعز هذا
الفخر المغرق الى ذلك المداح السأل الذى أنفق العمر فى اجتداء عطايا
الحكام ليبذرهما فى انتهاب اللذات الجسدية ، وما ذاك الا أن أبى نواس
اقتفى فى نظم هذا الشعر الطنان أثر أشرف الجاهلية الذين كانوا يتمدحون
بالأنفة ، وأراد أن يظهر أنه لا يقصر عن شأوهم فى ذلك الباب من أبواب
القول . والأدب العربى حافل بهذا الضرب من الانشساء التقليدى الذى
لا أثر فيه يذكر للشخصية المستقلة والبيئة الخاصة .

هذا ، ونشأة كثير من أدباء العربية مجهولة ، وبيئتهم الأولى غامضة ،
وأكثرهم لا يظهرون فى ضوء تاريخ الأدب الا حين يصلون الى ذرا الأمير ،
وقد كان ذلك الوصول غاية أكثرهم ، ومن ثم نرى فى تاريخ الأدب العربى
بيئتين كبيرتين تتلو احدهما الأخرى وتشملان أكثر اعلام الأدب العربى :
الأولى بيئة القتال التى كانت بيئة الجاهلية ، وكان الجلال فيها هم

(١) بتالد : يقدم .

الأشراف ، والتمدح بالبلاء فى الوغى هم الشعراء ، وكان الأشراف فى كثير من الأحوال هم الشعراء وهم الخطباء الفحول ، يشفقون بلاءهم فى الهيئات ببلاغتهم فى القصيد والارتجال ، والبيئة الثانية بيئة البلاط التى اضطرب فى محيطها أكثر الشعراء والكتاب بعد الاسلام وقيام الدولة ، وناتروا بها ونظموا فيها ونشروا •

فبيئات أدباء العربية المادية والذهنية كانت كثيرة التشابه من وجوه ، والبيئات الأولى التى شب فيها كثير منهم مبهمة غامضة ، وقد كان نقد العربية قليل العناية بأمر البيئة وأثرها فى تكوين الأديب ، انما كانوا يعرضون لبعض التواريخ الجافة المتعلقة بمولد الأديب ووفاته ورحلته الى بعض العواصم واتصاله ببعض الحكام ، ويستحسنون بعض ما أنشأ أو يستهجنونه ، ويفضلونه أو يفضلون عليه ما قال أديب غيره فى نفس الباب ، ولهم فى ذلك بعض العذر ، اذ كانت للقول كما تقدم أوضاع وأنماط معروفة ، يأخذ الأديب بها نفسه ما استطاع ، ويحاكى الأقدمين فيها ما أمكنته براعته • أما بيئته الخاصة وتراثه الذهنى والنفسى ، فيذر جانبا وقلما يدخله فى أدبه •

ولا يرد ذكر البيئة وأثرها فى كتب النقد العربى الا عرضا ، كالى ورد من أن ابن الرومى سئل لم لا يشبه كتشبيهات ابن المعتز ، فقال لسائله : أنشدنى شيئا من قوله الذى استعجزتنى عن مثله ، فأنشده بعض أشعار ابن المعتز التى يشبه فيها النجوم والأزهار بالفضة والعنبر ومداهن الغالية وهلم جرا ، فصاح ابن الرومى : واغوثاه ! لا يكلف الله نفسا الا وسعها ! ذاك انما يصف ماعون بيته ، وأنا أى شىء أصف ؟ ووضع الجاحظ رسالته سألقة الذكر على لسان أرباب المهن ، فأجرى القول فيها مجرى الدعابة والمغالة ، وكان أولى لو عرض للأمر من ناحيته الجديدة • واستعرض بديع الزمان فى بعض مقاماته عددا من فحول الشعراء المتقدمين فقال ان أحدهم أشعر الناس اذا غضب ، والآخر أشعرهم اذا رهب ، والثالث اذا شرب وهلم جرا ، فلم ير الا أن هذه جبلتهم التى فطروا عليها ، ولم يتخيل لبيئة كل منهم فى ذلك أثرا •

أما فى الأدب الانجيزى ، ولاسيما فى العصر الحديث ، فدرس أثر البيئة وعواملها من وراثية وتربية وثقافة وعقيدة ، أساس كل دراسة أدبية وكل نقد وترجمة ، والوسيلة الأولى لفهم الأديب وقدر آثاره حق قدرها ، وما ذاك الا نتيجة ارتقاء العلوم والاجتماعيات فى العصور الحديثة ،

واستفادة الأدب الانجليزى بمجهودات أدباء الأمم الأخرى ، كأدباء الإيطالية
الذين ارتقوا بعلم تاريخ الأدب ، وأدباء الفرنسية الذين هذبوا أصول
النقد ، وقلده درس الأدب الانجليزى و ترجم أدباؤه على ضوء هذه القواعد
والأصول ، فبلغ من الوضوح والترتيب ما لم يبلغه تاريخ الأدب
العربى بعد .

المعنى والأسلوب

فى الأدبين العربى والانجليزى

المعنى الصادق الرفيع والأسلوب المحكم الجميل هما قوام كل أدب خالق بهذا الاسم ، لا يغنى أحدهما اذا غاب الثانى ، فلا بد من شعور عميق ، أو تفكير ثاقب جدير بعناء الانشاء والقراءة ، ولا بد بجانب ذلك من عبارة منسجمة جميلة تعرض المعنى على احسن وجه واحبه الى النفوس ، وكبار الأدباء فى شتى الأمم يجمعون دائما بين الفكر الواسع المتصرف فى شؤون الحياة ، وبين المقدرة اللغوية التى تدلل لهم أعنة البيان ، ويتصرفون بها فى الالفاظ والتراكيب ، ويكون لكثير منهم فضل ترحيب جوانب اللغة واكساب تعبيراتها جدة ومرونة ، واعطاء بعض ألفاظها منزلة سامية لورودها موردا حسنا فى بعض آثارهم ، وشأن الأديب الكبير فى ذلك شأن غيره من رجال الفنون ، فالمصور مثلا لا يبلغ الذروة فى فنه حتى يجمع الى خصب مشاعره بصرا بتأليف الألوان والأصباغ ، وكل فنان لابد له من الجمع بين رقة الشعور وبين البصر بالآلات التى يكون بها أداء ذلك الشعور .

والفكر واللغة ، أو المعنى واللفظ ، شديد التوثق والتوشيح ، فلا ندحة للأديب عن التأثير بروح اللغة التى يكتب فيها وتراثها على مدى الأجيال ، ولا سبيل له الا الانشاء والنظم فيها حتى يختلط بروحها ، وتمتزج أفكاره بالمفردات والأساليب التى تبيئها له اللغة ، والأديب الصانع يختار من المفردات تلك التى تنهض بأفكاره ومشاعره فى أوجز لفظ وأحكمه وأوضحه بيانا ، بما تمتاز به تلك المفردات من أجواء من المعانى رحيبة تجمعت حولها على مرور الأجيال وتوالى الاستعمال ، حتى غدت يثيرها مجرد ذكر تلك المفردات على نحو خاص ، وذلك ما يجعل آثار بعض الأدباء المقتنين والشعراء المجودين متعذرة الترجمة الى غير لغتها ، لتعذر نقل هذه الأجواء المعنوية برمتها من لسان الى لسان ، بل يتعذر أحيانا التفريق بين المعانى والأساليب التى هى مفرغة فيها . لتمازجها تمازج الروح والجسد .

ويبلغ الأدب كماله حيث يسود القصد والاعتدال بين اللفظ والمعنى ، فاذا استبد المعنى بالأهمية كلها وتحييف اللفظ خرج الأثر النشأ من حظيرة

الأدب الى حيز العلم ، واذا تحيف اللفظ المعنى وصار غاية فى ذاته هبطت قيمة الأثر الأدبى ، وأصبح أشبه بالزخرف والصناعة منه بالفن السامى . ويغلب الاحتفاء بالزخرف اللفظى فى عهد طفولة الأدب ، اذ يكون الشعر مجرد أهازيج وقواف موسيقية تافهة المعانى، وفى عهود انحطاط الأدب حين ينصرف الأدباء عن لباب الحياة الى القشور ، وبالزخرف اللفظى والبراعة اللغوية والأسجاع والايقاع الموسيقى يكلف الأديب الناشئ أول عهده بالأدب ، وكلما نضجت نفسه وحصف ذهنه بتجربة الحياة واستيعاب المعارف تحول اهتمامه الى المعانى والحقائق والتزم اللفظ فى آثاره منزله الصحيحة ، وهى كونه وسيلة للمعنى لا غاية فى ذاته .

وقد عرف أقطاب الأدب الانجليزى بواسع بصرهم بأسرار لغتهم ، واليه يرجع فضل توطئة جوانبها وتعبيد مسالكها ، ولكل منهم فى هذا الباب أثر : فشكسبير قد استخدم فى رواياته أكبر عدد من مفردات اللغة استخدمه أديب ، وصرف تلك المفردات على شتى الوجوه ، وسبىسر أغنى اللغة بما أدخل فيها من ألفاظ جديدة لم تعرفها قبله ، وملنون أصبح اسمه علما على ضرب من النظم عذب الموسيقى فخم الرنين ، وبوب بلغ الغاية من احكام الصناعة وجزالة الأسلوب ، ووردزورث كان دائم التجارب فى الأساليب يحاول أن يشق للشعر أسلوبا جديدا ، وتيسون تفنن فى استخدام الألفاظ وتحوير التراكيب يؤلف بها روائع الصور الشعرية ، ولا تزال مخطوطات بعض أولئك الأدباء موضع دراسة النقاد والأدباء ، يتفقهون بها فى أسرار اللغة ويزدادون بصرا بخصائص الألفاظ والتراكيب . ويرون كيف يحل لفظ محل لفظ فتشرق به ديساجة البيت من الشعر ويسفر به وجه المعنى جميلا بعد خفاء والتيث (١) .

على أن أولئك الأدباء برغم احتفائهم بالأسلوب ذلك الاحتفاء لم يغلبوه على المعنى ولم يجعلوه غاية فى ذاته ، ولم يصبح الأدب فى أيديهم براعة فى اللفظ وتأنقا فى النسج ، بل ظل اللفظ لديهم دائما خادما للمعنى ، وظل غرضهم الأول من الانشاء الافصاح عن الفكر والشعور . ولم يسرف الأدباء فى الاحتفاء باللفظ الا فى عهد انحطاط الشعر فى بعض القرن الثامن عشر ، فى حقبة لم تنجب شاعرا كبيرا ، ولم يحظ بالشهرة فى حياته والذكر بعد موته من أدباء الانجليزية الا من أهله لذلك نظيرة فى الحياة صادقة عميقة ، ولم تكن كل بضاعته أسلوبا مزخرفا ، منمقا ، بل عرف من كبار الشعراء من لم يكن يولى أسلوبه كبير احتفاء ، ومع ذلك رفعه

(١) التيث : لاث بالشئ أى خلطه به ومرسه .

فكره الجوال فى آفاق الحياة ، ونفسيته الجياشة بأشتات الأحاسيس الى قصة المجد ، فبيرون كان كما قال عن نفسه لا يعاود النظر فى بيت شعر خطه ، ووردزورث نظم كثيرا من بدائع شعره فى أبسط لفظ يستعمل فى النشر والتحدث ، وهاردى لم يكن شعيره الا نثرا جيد النظم عاريا مجردا من تلك الألفاظ الشعرية ذات الأجواء المعنوية ، ومن ثم لا يسمو به النقاد الى طبقة الفحول كشكسبير وملتون ، بل ينزلونه الطبقة الثانية بين الشعراء ، وهذا الأسلوب العارى المجرد يزداد شيوعا فى العصر الحديث .

أما فى العربية فكان الأمر على نقىض ذلك : فلم يكند يكون بين كبار أدبائها بعد دخول الأدب طوره الفنى من أهمل الأسلوب واحتفى بالمعنى وحده ، وان كان أكثرهم ليقدم الأسلوب على المعنى ويحتفى للفظ ورنينه أى احتفاء وان تضاعف المعنى وتقه ، فاذا كان النثر العربى يبلغ ذروته من الكمال على أيدي ابن المقفع والجاحظ ، والشعر العربى يجرى الى غايته فى آثار المتنبى وابن الرومى والمعرى ، حيث يجتمع صدف النظرة وجمال الأسلوب ، فان غيرهم من مشهورى أدباء العربية انما نبه ذكرهم لبلاغتهم اللفظية ، لا لفلسفة فى الحياة معدودة ، ولا لرسالة فى الأدب عتيده . ومن أولئك البحترى ومن نحا نحوه من الشعراء والمداحين ، والصاحب بن عباد ومن سلك دربه من المنشئين المسجعين ، فالناظر فى الأبيات الآتية من نظم أشهر شعراء العربية ، يرى أن حظها من المعنى ضئيل ونصيبها من جزالة الأسلوب ورنين اللفظ وعذوبة الموسيقى كبير ، قال أهو نواس فى مديح بعض الوزراء :

عباس عباس اذا احتدم الوغى والفضل فضل والربيع ربيع

وقال البحترى فى النسيب :

لما مشين بنى الأراك تشابهت أعطاف قضبان به وقدود
ومتى يساءلنا الوصال ودهرنا يومان يوم نوى ويوم صددود

وقال أبو تمام فى رثاء طفلين .

مازالت الأيام تخبر جاهلا أن سوف تفجع مسهلا أو عاقلا
بدران شاء الله أن لا يطلعا الا ارتداد الطرف حتى يأفلا
ان الدجيجة بالرياض نواضرا لأجل منها بالرياض ذوايلا

نصيب هذه الأبيات جميعها من الفكرة البعيدة أو النظرة المستقلة أو الشعور الصميم ضئيل . وماذا فى قول أبى نواس ان العباس

عباس والفضل فضل والربيع ربيع ، الا أنه ظرف وأحسن نظم تلك الأسماء مزدوجة في سلك البيت ؟ وأى الناس لا يعبس اذا احتدم الوجد ؟ ولو قال : عباس بسام لكان وصفه بالشجاعة التي لاتحفل بالموت المحقق . ثم ماذا من جديد في جمع المحترى بين الغصون والقودود وشكواه النوى والصدود ، أو في تشبيه أبى تمام للطفلين بالبدرين الآفلين مرة وبالروضين المصوحين أخرى ؟ انما فضيلة هذا الشعر كله حسن اختيار اللفظ النقي وجمال الموسيقى ولطافة التقسيم والمقابلة ، أما المعنى فلا عمق فيه ولا ابتكار .

فبالاحتفاء باللفظ ولو على حساب المعنى قد تزايد في العربية تدريجا مع دخول الأدب طوره الفني ، طور التبريد والتجويد ، وتزايد الوجد بالتسجيع والمطابقة وغيرهما من المحسنات اللفظية . وكاد الوجد بالسجع عند الصاحب بن عباد فيما روى يبلغ حد الجنون ، حتى قيل انه عزل قاضيا بناحية يقال لها (قم) لأنه أراد أن يتم سبعة فقال : أيها القاضي بقم ، قد عزلناك فقم . وتكلف في بعض أسفاره كما حدث عنه ابن العميد أن يذهب الى قرية غامرة ذات ماء ملح يقال لها الدوبهار لا شيء الا ليكتب اليه : كتابي هذا من النوبهار ، يوم السبت نصف النهار ، وما زال اللفظ يستبد باحتفال الأدباء ويطغى على المعنى ، حتى ارتد الأدب في عصور التدهور زخرفا لفظيا صرفا ، ولم يبق من المعنى الا هذيان كهذيان المخالطين .

فلا نبالغ اذا قلنا ان المعنى كان في أزهر عصور الأدب العربي يحتل المكان الثاني بعد اللفظ ، وهذا واضح في أقوال النقاد . قال الآمدي في موازنته بين الطائيين : « وليس الشعر عند أهل العلم به الا حسن التأني وقرب المأخذ واختيار الكلام ووضع الألفاظ في مواضعها . . فان اتفق مع هذا معنى لطيف أو حكمة غريبة أو أدب حسن فذلك زائد في بهاء الكلام ، وان لم يتفق فقد قام الكلام بنفسه واستغنى عما سواه » . وقال الخليل في سياق حديث له أورده ياقوت في ترجمة الصاحب بن عباد : « الشاعر يطلب لفظا حرا ومعنى بديعا ونظما حلوا وكلمة رشيقة ومثلا سهلا ووزنا مقبولا » ، فكل الاهتمام هنا موجه الى لطافة النسيج والتجويد لا الى عمق الفكرة والشعور .

كان الشعراء في الجاهلية وصدر الاسلام يرسلون القول على سجيته في نسج محكم يرمون به الى بيان أفكارهم وشعورهم على أقصد سبيل وأقربه ، فلما كان عهد التحضر والتثقف أحاطت بالأدب عوامل

أدت الى تقديم اللفظ على المعنى ، منها فساد اللغة بمخالطة الأعاجم فاشتد
الحرص على طلب اللغة الصحيحة واتقان أساليب العرب الأقحاح وتقليد
فحول المتقدمين . وزاد هذا الحرص شدة اشتغال الأعاجم أنفسهم بالأدب
وجدتهم فى تحصيل لغة العرب ولسان الكتاب المنزل ، وسبقهم فى العلوم
والنأليف ، وتفاصحهم بمحاكاة أدب الجاهلية وصدر الاسلام ، وتظاهروا
بالقدرة على التصرف فى الألفاظ والتراكيب ، فكان همهم صحة التعبير
وبلاغته قبل صدق المعنى وعمقه .

ومما زاد الأدباء انصرافا الى اللفظ وتجويده واختيار الأسلوب
والافتنان فى صياغته وتجويده ، انتشار المدح والتكسب بالأدب ، فانه
لما كانت الفضائل الانسانية ، ولا سيما تلك التى كانت مشهورة مطلوبة
فى المجتمع الاسلامى ، محدودة معروفة ، كان مجال القول فيها محدودا
ومجال الابتكار ضيقا ، فطلب الشعراء المداخون السعة فى جانب اللفظ ،
يتأنقون فى تزويقه وترصيعه ، ويعتاضون عن الابتكار فى المعانى
بالأوزان الرشيقية والقوافى الرخيمة والتشبيهات اللبقة ، والتقسيم
والمقابلة والسجع والتجنيس . وبهذه المحسنات البديعية - ما راق منها
وما سمح - تحفل مدائح أبى نواس وأبى تمام والمحترى والمتنبى
وابن الرومى ، اذا جردت من زيناتها اللفظية لم يبق من نسيبها الاستهلالى
ومدحها المغرق شئ ذو بال ، من ذلك قول أبى تمام فى مدح بعض القواد ،
ولا داعى لذكر اسم ذلك القائد أو صفته ، فما كان لكل ذلك أى دخل فى
نظام مثل ذلك القصيد :

وجرد من آرائه حين أضمرت به الحرب حدا مثل حد المناصل
وسارت به بين الفنايل والقنسا عزائم كانت كالقنا والقنابل
وقد ظلمت عقبان أعلامه ضحى بعقبان طير فى الدماء نواهل

فكل هذه المعانى الدائرة حول شجاعة القائد وأمرائه التى تفوق
الجيش ، وعزائمه التى تفل السيوف ، والعقبان التى تتبع أعلامه لتنهل
من دماء أعدائه ، كل هذه المعانى مطروقة من قبل أبى تمام ، مذكورة بعده
فى ميمية المتنبى المشهورة وغيره من مدائحه لسييف الدولة ، ولا غرو فقد
غدت أكثر معانى الأدب فى أبواب المدح والهجاء والفخر والوصف والحكمة
وغيرها ، تراثا متداولاً بين الشعراء من جيل الى جيل ، اذا تفنن الشاعر
صاغ بعضه صياغة جديدة أو ولد منه بعض التوليد ، فاذا اتفق له أن
صاغ معنى قديما صياغة جديدة يفوق صياغة صاحبه الأول صفق له النقاد

وقالوا سرقة مغفورة ولص ظريف هو أولى بالمعنى من صاحبه .لأنه أجود
لفظا ، كما قيل فى بيت البحتري فى مدح المتوكل :
فلو ان مشتاقا تكلف فوق ما فى وسعه لمشى اليك المنبر

أخذه وتصرف فيه من قول أبى تمام :

تكاد مغانيه تهش عراصها فتركب من شوق الى كل راكب

كان الشعراء اذا صرفوا القول الى المديح اتوا بالمعاني الجوفاء.
الهزيلة ، واحتفوا باللفظ يدارون بزخارفه ركافة المعنى ، وكان اكابر
شعراء العربية فى طور الأدب الفنى مداحين ، فامتلا الأدب العربى بذلك
الضرب السقيم المعانى الطنان الألفاظ ، وانما كان الشعراء يبتكرون
المعاني الجيدة يلبسونها من اللفظ أجمل لبوس حين ينظمون فى غير المديح
من الوجوه التى يدفع الى النظم فيها شعور صحيح وفكر ثاقب ، فكانت
من ذلك حكم المتنبي وأوصاف ابن الرومى ونظرات المعرى ، كما ظهرت
فى الأدب العربى تلك الظاهرة الفريدة ، وهى أن أشعار كثير من المقلين.
وممن يعدون فى الطبقة الثانية من الشعراء كالصولى والامام الشافعى ،
ترويع النفس بصدقها وحصافتها أكثر مما تروعهها أشعار المكثرين
المشهورين ، لأن أولئك المقلين كانوا لا ينظمون الشعر الا تلبية لحافز
نفسى ، وهؤلاء المكثرين كانوا ينظمون ابتغاء النوال .

ومن عوامل احتفاء أدباء العربية باللفظ أيضا ، أن الأدب العربى فى.
ظل الدولة الاسلامية كان أكثره أدبا بلاطيا وأرستقراطيا ، مكفوفاً عن
شؤون المجتمع ، منزويا عن أكثر مباحث القول ومجالات الفن ومسارح
الأدب ، من وصف الطبيعة والتأليف التاريخى الفنى ووصف آثار الأقدمين
فى عالم الحضارة والفنون ، وسبجات الخيال فى عوالم الحقيقة والخرافة ،
وتصوير آثار الرحلات والمغامرات ، فلما حرم الأدب طرق هذه المواضيع
الجمّة الخصبة التحافلة بمناوح التفكير والشعور والقول ، لم يبق لديه
كبير مجال للابتكار فى المعانى ، فتوفّر على الافتنان فى الألفاظ يدور بها فى
مجالاته المحدودة الموروثة عن المتقدمين .

وزاد مجال القول ضيقا حرمان الأدب العربى من الاطلاع على الأدب
اليونانى ، فلو كان على اتصال مستمر بذلك الأدب * لتمهدت أمامه
مناوح للقول من جهة ، ولانصرف اهتمامه من جهة أخرى الى المعانى دون

الألفاظ ، لأن المعانى دون الألفاظ هى التى تتشارك فيها آداب الأمم المختلفة ، أما أدباء العربية الذين لم يطلعوا على أدب أجنبى راق ، فكان اعتدادهم بتفوق اللغة العربية على اللغات شديدا ، وكانت ألفاظهم وتعبيراتها تقوم فى مخيلتهم مقام الحقائق المتحجرة ، وكان التجويد فى استخدام تلك الألفاظ والتعبيرات فى الأبواب المطروقة من قديم غاية الأديب ، فظل بيت زهير بن أبى سلمى الذى قاله فى عهد البسادة ، يصدق على شعراء العربية فى أوج عهد الحضارة والثقافة :

ما أرانا نقول الا معاراً أو معاداً من قولنا مكروراً

ثم لاشك فى أن حياة الترف وزخارف العيش التى انغمس فيها العرب بعد الفتوح ، وأبهة البلاط التى كان الأدباء يحومون حولها ويتزاحمون فى مراكبتها ، كانت من أسباب شيوع الزخرف فى الأدب الذى هو مرآة للحياة المحيطة به ، فإذا كان الأدب الفارسى قد كان فى ذلك العهد من الضالة بحيث لم يؤثر كثيرا فى أدب العرب ، فقد أثر الفرس فى الأدب العربى بمظاهر الترف والبدخ المادية التى نقلها عنهم المباسيون وتركت آثارها فى الأدب ، وهذا الترف الأدبى كالترف المادى دليل الرخاوة والضعف ، والسير الى الانحلال .

وقد ساعدت طبيعة اللغة العربية ذلك الميل الذى غلب على أدبائها ، الميل الى التأنق فى اللفظ ، وتثقيله بالمحسنات التى ينوء المعنى تحتها ويتضائل ، وذلك لما للغة العربية من بلاغة أصيلة وموسيقى فخمة ، وما لألفاظها وتراكيبها فى النفوس من روعة وبهاء ، وما لأوزان الشعر العربى وقوافيه من رصانة وجلال ، وما للغة من ثروة طائلة وغنى بطرف الاشتقاق وامتلاء بالمتراذفات ، واتساع لصنوف التشبيهات والمجازات ، بحيث يستطيع المتمكن من كل هذا أن يجمع حوله المستجيدين ويستولى على الألباب ، دون أن يبتدع فى المعنى أو يتعمق فى الشعور . كما تصرفك عذوبة اللحن الموسيقى عن تفاهة المعنى المتغنى به ، وقد استغل كتاب العربية كابن العميد والصاحب والبديع والحريرى ثروة اللغة هذه أبعد استغلال ، وجاءت رسائلهم ومقاماتهم معارض مائجة بثلث الكنوز العظيمة .

ففى الأدبين العربى والانجليزى آثار بالغة حد الفن من الصديق والعمق والجمال ، تجمع بين حرارة الشعور وجودة الأسلوب ، غير أن الأدب العربى لاحاطة تلك الظروف والعوامل به ، أحفل من الأدب

الانجليزى بالآثار التى يغلب فيها اللفظ على المعنى ، وتظهر الصنعة على الطبع ، وتبدو فيه دلائل الاحتفاء بالأسلوب واضحة ، حتى فى مخلفات أكبر أدبائه وأعظمهم حظا من النبوغ والشاعرية . ويعد بين أقطابه أفراد لم تؤثر عنهم فلسفة فى الحياة خاصة أو شخصية مستقلة ، ولم يرفع ذكرهم الا اقتدارهم على تصريف الكلام . ويسمى الأدب بآثار أولئك الأدباء التى تعجب بحلاوة أسلوبها وان لم تعجب بمعنى نكرتها ، فليسنا نسرف اذا قلنا فى الجملة ان الأدب العربى كان أدب أسلوب ، والأدب الانجليزى أدب معنى .

أثر الأخلاق

فى الأدين العربى والانجليزى

التخلق من صفات الانسان الذى يحيا فى الجماعة ، تضطره الحياة الاجتماعية الى تعديل كثير من طباعه الفطرية التى يجبل عليها ، وكبح ما يتنافى منها مع مصلحة المجتمع ، والأخذ بما فيه تلك المصلحة ، فالأخلاق الحسنة أو الفضائل هى الصفات التى بها يكون صلاح الفرد والمجتمع ، ومن أجل هذا الصلاح يحمده الصدق والشجاعة والعفة ، ويذم الكذب والجبن والفجور ، وهذه الأخلاق الحسنة التى هى مزيج من طباع الانسان المركبة فيه ، ومقتضيات المجتمع التى يفرضها عليه ، تكاد تتفق بين جميع الأمم فى شتى الأصقاع والعصور ، فما من أمة لا يحمده فيها الكرم والإيثار والقباعة وتذم الرذائل المضادة لهذه الفضائل ، معايير الأخلاق هذه يكاد يتحد فيها الجميع ، إنما تختلف الأمم والأفراد فى مدى مراعاتها حقا واتباعها عملا ، باختلاف الجبلات والأوساط الجغرافية والاجتماعية .

وللأخلاق أثرها المحقق فى آداب الأمة وأدب الفرد . تنعكس الأخلاق فى مرآة الأدب كما تنعكس العقليات ، ويكون ظهور آثارها فى الأدب أحيانا بدهيا تلقائيا غير مقصود ، كما يكون أحيانا مقصودا معينا ، اذ يلجأ الأديب الى تصوير أخلاقه الذاتية وأخلاق غيره من أفراد مجتمعه . وتختلف صبغة أدب الأمة الأخلاقية من جيل الى جيل ، حسب ما يتوالى على المجتمع من عوامل الفضيلة والرذيلة ، ومتانة العقيدة الدينية أو انحلالها ، وارتفاع المثل العليا التى يتوخاها المجتمع أو انحطاطها ، أنسر كل ذلك واضح فى آداب الأمة المكتوبة وفى أقاصيصها الشعبية وأناشيدها المتداولة .

وفى الأخلاق الفاضلة كما تقدم صلاح المجتمع ، بيسد أن تحبب الفضيلة وذم الرذيلة ليسا وظيفة الأدب الأولى ، إنما وظيفته تصوير الجمال ووصف الشعور وبيان الحقائق على ما هى عليه غير موهمة ، والعبقرية الفنية والفضيلة ليستا دائما توأمين ، بل ربما كان الكثير من رجال الفن أميل الى الإفراط والتفريط فى حياتهم ، وأبعد عن القصد

والاعتدال من عامة الناس ، وقد ترقى الفنون وتزدهر فى عصور الادبار الخلقى ، كما كانت الحال فى ايطاليا فى عهد النهضة الاوربية ، على أن الأدب وان لم تكن غايته نشر الفضيلة ، ولا وظيفته ترقية الأخلاق ، ان هو الا مظهر من مظاهر رقى الانسان وتحضره ، وناحية من نواحي حياته الاجتماعية يجب عليه أن يخضع لما يخضع له سائر مناحى تلك الحياة من مقاييس خلقية فيها صلاح المجموع •

فاذا لم يكن واجب الأدب الوعظ والارشاد الى الخلق القويم فواجبه الذى لا شك فيه ألا يصادم الخلق القويم ولا يتحدى تقاليد المجتمع الصالحة ، وواجبه أن يتجه ما استطاع وجهة الخير ويتنكب (١) مواضع الفساد ودواعى التبذل ، وكل أثر أدبى مهما بلغت براعته وصدقته ودل على عبقرية صاحبه ، اذا خالطه الفجور والافحاش واتسم بالاستهتار وتوخى الهنات والسوءات ، لابد أن يمحه الذوق السليم وينفر منه الطبع الكريم ، لما فيه من منافاة للأخلاق السامية التى يأخذ نفسه بها كل متحضر مهذب مثقف ويدرج عليها حتى تتأصل فيه وتصير له طباعا ثانية •

وكانت للعرب فى الجاهلية أمثلة عليا من الأخلاق الفاضلة التى تملئها حياة البادية كالشجاعة والذود عن الذمار والدفاع عن المحريم والجود والقناعة واجارة المستجير ، وحول التمدح بتلك الأخلاق يدور جانب عظيم من الشعر الجاهلى ، يعزو الشاعر تلك الفضائل الى نفسه تارة كما فعل عنتره فى معلقته ، والى قومه عامة كما فعل عمرو بن كلثوم وليبد والسموأل ، والى ممدوحه كما كان يفعل زهير والأعشى ، ول بعض أشراف الجاهلية كالأفوه الأودى وحاتم الطائي وذى الأصبع المدوانى ، آثار فى ذلك رائعة ببلاغتها وقوة أسرها وسمو منزعها ، ويرسلها بعضهم قصيدا رصينا ، وبعضهم يرسلها نصائح للمخاطب ، ويصوغها بعضهم وصايا الى أبنائهم ، وبعضهم يجعلها حوارا بينه وبين زوجه على تلك الطريقة العربية الجميلة ، وطلب العرب حسن الأحداث وطيب الأثر ، ولم يدخروا فى ذلك قولا أو فعلا ، قال حاتم الطائي :

وتذكر أخلاق الفتى وعظامه مغيبه فى اللحد بال رميمها

وبدهى أن التمسك بكل هاتيك المثل العليا الخلقية لم يكن ديدن جميع العرب ولا التغنى بها دأب جميع الشعراء ، بل كانت أسباب الشر

(١) يتجنب : (١)

والفجور موفورة ، ودواعي المجون والخلاعة عديدة ، تتجلى في سيرة امرئ القيس الذي لم يكن يكاد يفيق غراما أو خمارا ، وحياة طرفه التي صورها في معلقته ، حيث وصف ثلاث حاجاته في الحياة ، فمنهن سبقه العاذلات بشربة كميت (١) ، وتقصير يوم الدجن ببهكنة (٢) تحت الخباء (٣) المعمد ، وتراه اذا نادى المضاف محنبا (٤) ، وكان ذبوع المفاسد قبيل ظهور الاسلام سبب ظهور كثير من الحكماء الذين أخذوا أنفسهم بالزهد ودعوا اليه ، كما أخذ كثير من أشرف العرب أنفسهم بمجانبة الخمر والقمار ونحوهما ، ومن أولئك عامر بن الظرب الذي يقول وقد حرم في جماعة من السادة الخمر على أنفسهم :

أقسمت بالله أسقيها وأشربها حتى يفرق ترب القبر أوصالي
مورثة القوم أضغانا بلا احن مزية بالفتى ذى النجدة الحالى

وظل أكثر المثل العليا الأخلاقية في الاسلام كما كان في الجاهلية ، بعد أن هذب الاسلام من حواشيها وكفكف من غلوائها ، فتمدح شعراء الاسلام بالفضائل كالكرم والوفاء وحسن الجوار وكتمان السر والحلم عن السفيه والتصون عن الفحشاء والترفيع عن المماراة والمجازاة بالحسنة عن السيئة ، كما فعل مسكين الدارمي وأوس بن معن ، والمقنع الكندي والشريف الرضى ، وتفاخروا بالبلاء في الحروب والاباء على الضيم والتعالى على الجاهل وطلب السيادة والمعالى ، كما فعل أبو فراس والمنبى ، ومدح الشعراء بمدوحهم بهذا وذاك ، ورموا مهجويهم بأضداد تلك الفضائل ، وتهكموا فى مداعباتهم بالبخلاء والجبناء والمنهزمين والأدعياء والمتطفلين . ومن محاسن أشعار امتداد الخلق الكريم قول سالم بن ابصة الذى يتمثل فيه الروح الاسلامى :

أحب الفتى ينفى الفواحش سمعه كأن به عن كل فاحشة وقرا
سليم دواعى الصدر لا باسطا أذى ولا مانعا خيرا ولا قاتلا هجرا
إذا ما أنت من صاحب لك زلة فكن أنت محتالا لزلته عذرا

(١) كميت : الخمر .

(٢) ببهكنة : أى المرأة اليضة الناعمة .

(٣) الخباء : بيت من وبر أو شعر أو صوف يكون على عمودين أو ثلاثة ويشير

هنا الى بيت طرفة بن العبد :

ويقصر يوم الدجن والدجن معجب ببهكنة تحت الخباء المعمد

(٤) محنبا : حنب الفرس ، أى اخرجت ساقاه ، والمحنب : المقوس والمنحنى .

وقول الشريف الرضى :

يصول على الجاهلون وأعتلى
لساني حصاة يقرع الجهل بالحجى
ولا أعرف الفحشاء الا بوصفها
ولا أنطق العوراء والقلب مغضب
ويعجم فى أثقالون وأعرب
إذا نال منى العاضه المتأوب

وكان احتواء الشعر على تلك الآداب النفسية من أسباب ضمن العرب الشديد به ، وتسميتهم إياه ديوانهم ، وأخذهم أبناءهم بحفظه . وكانت دراسة آثار أبطال العرب وأشرفهم تلك تقوم فى التربية العربية مقام دراسة أشعار هوميروس فى التربية اليونانية القديمة ، كل منهما تقدم للناسى نماذج من الفضيلة وأمثلة من الشخصيات العظيمة يحاكيها ويتشبه بها ، وهذا الباب من أكرم أبواب الشعر العربى وأجمعه لخير ميزات الأدب العربى ، من البلاغة والصراحة والإيجاز ونفاذ النظرة .

على أنه بجانب هذه النزعة الخلقية السامية المتخلفة عن أشرف الجاهلية ، والتي رفعتها فضائل الاسلام درجات من الرقة والسمو ظهرت رويدا رويدا نزعة مضادة لها كانت ذات أثر فى الأدب واضح وضوح نزعة التسامى تلك أو هو أوضح ، وتلك هى نزعة الاستهتار والمجون والاباحية التى كانت نتيجة محتومة لاتساع الفتوح واختلاط العرب بأشنيات الأجناس واستفحال الترف واتساع الثروة وتفاقم دواعى الشهوات ، ثم انحطاط مكانة المرأة من جراء ذلك واختفائها من المجتمع . حتى ذاعت فيه الآداب الحشنة والألفاظ الفاحشة ، بدل أن يتهذب مع الحضارة ، ويتخلص من جفوة البداوة الجاهلية .

وانعكس أثر كل هذا الفساد فى الأدب العربى ، فجاءت كتب الأدب محملة بالحكايات المخزية والعبارات النابية والاشارات المندية ، وشبه الشعراء بالذكور ، وتمدحوا بالتسلل الى الخدور ، وتفاخروا بالاسراف فى الشراب والعكوف على سماع الألحان ، وجاهر بعضهم بالزندقة وتهكموا بعقائد المجتمع الدينية ، ووقع بعضهم فى خصومهم بأقذع الهجساء وتهجموا على أعراضهم واتهموا حلالهم . وفى أشعار جرير والفرزدق وبشار وأبى نواس والمتنبى وابن الرومى من ذلك الشئ الكثير .

أوغل الشعراء فى تلك الأبواب إغلا لا يكاد يصدقه العقل ، ومن العجيب أن الطريقة التقليدية التى يحرق عليها تاريخ الأدب العربى

لاتزال تعد من فحول العربية شعراء لم يكد يؤثر عنهم مقال فى سوى تلك الأغراض الحيوانية . ومن البدهى أنه مهما تفنن الناظم فى وصف الحمر وتصوير الشهوات ، فلن يرفعه ذلك الى مصاف الشعراء العظام . ودواوين ابن أبى ربيعة وبشار وحماة وأبى نواس وأمثالهم ان هى الا استهتار وتمدح بالمخازى ومجاهرة بالفسوق محكمة الديباجة بارعة النظم ، فاذا كان هؤلاء من فحول الأدب العربى فما أقصره عن بلوغ المثل الأعلى للأدب الراقى . ومن أيسر مجون أبى نواس قوله :

ألا فاسقنى خمرا وقل لى : هى الخمر

ولا تسقنى سرا اذا أمكن الجهر

فهو لا يقنع أن يفرط فى الشراب ما شاء ، بل يأبى الا الامعان فى الفجور والا أن يتم لذته بالجهر بالعريضة .

ولئن خدمت الحرية الفكرية التى كان يتمتع بها الفلاسفة والعلماء فى كثير من الدول الاسلامية ، فما كذلك هذه الحرية التى استباحها المجان من الأدباء : الأولى حرية تساعد تقدم الفكر ورقى العلم ، والثانية تؤدى الى انحطاط الخلق وتضرب فى دعائم المجتمع . الأولى حرية فكرية نافعة ، والثانية اباحية خلقية ضارة ، والأدب يرسم للمجتمع - وان لم يقصد - مثلا عليا يتوخاها ، فاذا تمادى فى تصوير دنىء النوازع فانه يهبط بالنفوس الى مستوى منحط لا تريد عنه ارتفاعا . وليس شك فى أن أشعار أبى نواس وأمثاله كانت من أكبر أسباب انحطاط المجتمع الاسلامى ، وقد كانت حياة الصعلكة التى كان يحياها ، وأشعار العريضة التى نظمها ، نموذجا للأدباء فى عصور الادبار ، فكان الأدب والصعلكة وادمان الشراب ووصف الخمر فى نظريهم توائم لابد أن تجتمع .

ففى الأدب العربى آثار من الخلق الكريم وتمدح بالفضيلة ، بجانبها آثار من الأخلاق المنحطة ومجاهرة بالاستهتار ، وفى الانجليزية طرف من هذه وطرف من تلك أيضا : فقد تأثر بعض شعراء الانجليزية بالمثل العليا الأخلاقية التى سميتها المسيحية ، بجانب تلك التى أثرت عن الوثنية ، وظهر أثر ذلك فى أشعار سبنسر الذى جعل كل فارس فى ملحمة « الملكة الحسناء » عنوانا على فضيلة من الفضائل المسيحية . وبدا ذلك أيضا فى أدب عهد المطهرين ، ففى كتاب « رحلة الحاج » لبنيان تتشخص الفضائل والذائل على ذلك النحو ، ثم كان تينيسون وكبلنج يمزجان النزعة المسيحية بالنزعة الوطنية ، وظهرت فى الأدب الانجليزى بجانب

ذلك نزعة الاستهتار والمجون فى بعض الفترات ، كما حدث فى بعض القرن السابع عشر من جراء التأثير بالبلاط الفرنسى المترف ، وفى أواخر القرن التاسع عشر من جراء التأثير بالأدب الفرنسى أيضا ، الا نزاع بعض القصصيين الانجليز كاوسكار وايلد الى ذلك الضرب التحليلي من القصص الذى يسرف فى تصوير اللذات ، واستكناه دنى العواطف وخسيس النزعات .

على أن كلا الأمرين - أعنى التمدح بكريم الأخلاق والمجاهرة بالاستهتار والتبذل - كانا ضئيل الأثر قصيرى العمر قليل الأتباع فى تاريخ المجتمع والأدب الانجليزيين ، فالتشدد بالمحامد والمكارم ليس يعجب الذوق الانجليزى الذى يؤثر الصمت ويفضل العمل على القول ، ومن ثم لم تنفق أخلاقيات تنيسون وأضرابه بين صفوف المثقفين ، بل كانت من أسباب خمول ذلك الشعاع بعد وفاته ، والتمادى فى التحدث بالشهوات بعيد كذلك عن طبع الانجليزى والاجترار على قواعد الفضيلة ومراسيم الحشمة وتقاليده المجتمع لا يحظى منه بغير الإنكار والاعراض ، ومن ثم ثار بالتهورين من الشعراء والكتاب أمثال بيرون وشلى واوسكار وايلد ، فالجأ الأولين الى حياة المنفى وزج بالثالث فى غيابة السجن ، ولم تشفع لهم لديه مواهبهم الممتازة ولا صيتهم خارج انجلترا ، بل قد يغلو المجتمع الانجليزى فى الغيرة على تقاليده الى حد يسميه بعض الناس نفاقا اجتماعيا ، فيغضب على أدباء كرام سليمى الطوية ، كما غضب على هاردى ولورانس من القصصيين المحدثين .

فالتبع الانجليزى يأبى أن يكون الأدب مطيعة للتفلسف الخلقى والفخر الطنان ، كما يأبى أن يكون الأدب معرضا للتبذل والتوقع ، وانما رسالة الأدب الانجليزى التى ورثها عن الأدب الاغريقى هى الجمال والشعور الصادق ، يحوط ذلك جو من الوقار والتسامى كان يعوز حتى الأدب الاغريقى ذاته أحيانا ، وانما احتفظ الانجليز بصفات الرجولة والرزانة تلك لأنهم - فضلا عن طبيعتهم الهادئة التى هى وليدة جوههم البارد - لم ينساقوا فى تيار من الترف الموبق بانتشار فتوحهم وتراهم أملاكهم ، كما فعل غيرهم من الأمم التى شادت الامبراطوريات فى عصور التاريخ ، لأن تشييد الامبراطورية البريطانية جاء تدريجيا هادئا كالنمو الطبيعى ، وبنجاة الانجليز من مفاسد الترف والثروة المفاجئة سلمت لهم أخلاقهم القوية .

أضف الى ذلك تمتعهم بالحكم الديمقراطى ، أى بحكمهم أنفسهم وخضوع الشعب لمشيئة الشعب وحدها ، مما جعل للرأى العام الكلمة

العليا في المحافظة على الأخلاق والذب عن تقاليد المجتمع اذا تحداه متحد وقع عليه الغرم المادى والأدبى، وطاشت دعوته قبل أن يتأثر بها سواء ، على حين كان رأى العام فى الأمم الاسلاميه ضعيفا مستخزيا أمام جبروت الملكية المطلقة ، فكان أفاضل القوم ينقمون على حركات الاستهتار فى المجتمع وآثار المجون فى الأدب ، ولكنهم كانوا مغلولى الأيدى لا يستطيعون عن عقيدتهم دفاعا ، وألف بعضهم حيناً جمعيات للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والضرب على أيدي العابثين فأصابهم من بطش السلطان وتعبه ما لم يصب أولئك العابثين .

وكانت الملكية فى الدول الاسلاميه أحيانا تشجع التهاجى بالمقذعات بين الشعراء شغلا لهم وللجمهور عن شؤون السياسة وظل بشار يتحدى عقائد الناس ويسخر من فضائلهم وينال من أعراضهم وهو آمن معافى ، حتى تطاول على عرض الخليفة ذاته فكان فى ذلك تلفه . ولما لم يكن للناس من قوة الرأى العام حارس ومدافع ، عمد من استطاع منهم بحول أو مكيدة الى الانتقام بنفسه ممن تعرض له بالفحش ، فلقى كل من المتنبى وابن الرومى حتفه على يد مهجوه . هكذا استفحل المنكر فى المجتمع والاباحية فى الأدب من أثر ذبوع الترف وتحكم الملكية المطلقة ، رغم أن المجتمع كان مجتمعا اسلاميا والدولة كان أساسها دينيا ، وكان الأجدر أن أدبا يزدهر فى ظل الدين الاسلامى الحنيف ، يكون أعف الآداب لفظا وأشرفا قصدا .

وقد تقدم القول أن سريان ذلك الفساد فى كيان المجتمع الاسلامى عقب الفتوح أدى الى انحطاط المرأة واختفائها من المجتمع ، وكان ذلك من دواعى انتشار هجر القول فى الأدب فان وجود المرأة فى المجتمع عامل تجميل وتوقر وتعفف فى المسلك والمقال ، وهو عامل ساعد به الأدب الانجليزى فكان من أسباب تساميه الخلقى ، وظلت النظرة الى المرأة فى الانجليزية سامية عفيفة ، وظلت صحبتها منبع وحى وداعية تكرم لدى الأدباء ، وقد قال ستيل عن صاحبة له فاضلة ان محادثتها هى ثقافة قائمة بذاتها .

فالأديب الانجليزى لا يتمدح بالمحامد ولا يجاهر بالمبازل ، لأن طبعه لا يستسيغ هذا ولا ذاك ، ومجتمعه لا يقبلهما منه ، ثم هو لا يهجو غيره ولا يفحش فى الهجاء . وانما يصور أخلاق أفراد المجتمع بما فيها من فضائل ومعائب ، ويتهكم بالمتشدين بالفضائل والمتظاهرين بالعلم

أو بالثروة أو بالعظمة ، أى بالمسرفين فى كل شئ المجاوزين حد القصد
والاعتدال ، والتوسط الذى هو خير الأمور ، فالاعتدال شعار الانجليزى
فى مسلكه وفى أدبه والتطرف ينير سمخريته واحتقاره ، وهذا الميل منه
واضح فى مواضع الأدب الفكاهية وضوحه فى أغراضه الجدية .

الحكمة

في الادبين العربي والانجليزى

يولد المرء جاهلا ثم لا تزال التجارب تبصره بحقائق الحياة ولا يزال الدهر يعلمه ويؤديه ، ولا يزال هو بشاغب فكره ، يتعظ بماضيه وينتفع بمشاهداته ، ويصوغ من جزئيات التجارب التى يمر بها كليات يلخص فيها نواميس الحياة وطباع الأشياء ، التى يجدر بالعاقل أن يسايرها ويحتال لها ، لا أن يصادمها ويجرى على غير سننها ، وتلك هى الحكم التى هى لباب التجارب وثمار المعرفة ، والتى يغتبط الأديب أى اغتباط حين يستخلص عصارتها من مرير الشدائد وعصيب الأزمات ، ويتجلى له ضياؤها بعد أن تنقشع غيوم المطامع وعواصف المخاوف ، ويتوارثها الناس جيلا بعد جيل ، وتتشكل مع اختلاف بيئاتهم وتقاليدهم ، ويشهدو بها الصغار وهم ناشئون ولا يعرف صدقها الا الكبار ، بعد أن يخوضوا أتون (١) التجارب الذى ينضج النفوس .

فالحكمة خلاصة التجربة العملية ، ولا تقرأ فى الكتب ولا تؤخذ عن المؤدبين . ومن ثم يستوى فيها الخاصة المثقفون والعامة الأميون ، اذ كان كلاهما يستقى من معين الحياة المشهوددة ، وتذيع بين العامة أمثال وحكم هى غاية فى الصدق ونفاذ النظرة وبلاغة التعبير . وقد يطابق بعضها أمثال الخاصة والحكماء فى كتبهم ، وتدل تلك الحكم السائرة بين الشعب على الكثير من أخلاقه وأعماله ، من سعى وتوان ، ووقار واستهتار ، وامعان فى الحروب واستراحة الى السلم والدعة ، ومن ثم نرى كثيرا من الأمثال المتخلفة عن جيل الانحطاط الماضى ، رغم صدقها وعمقها مصوغة فى ابدأ لفظ وأفحش صورة ، ونرى كثيرا منها يبحث على القناعة والتواكل والقعود .

ومن الحكم ما ترسل موجزة مستقلة كأنها القضايا المنطقية مبدوءة ببعض حروف الشرط أو أسمائه ، ومنها ما تصاغ فى قصة محكمة ذات مغزى ، ومن تلك القصص ما ينسب الى حكيم من الأقدمين كلقمان ، أو الى

(١) أتون : الاتون : الموقد الكبير .

شخص خيالى مثل جحا الذى صاغ العامة حوله قصصا بالغة غاية الحكمة والمتعة والفكاهة ، ومن تلك القصص ما يجرى على ألسنة الحيوان ، ويقوم الأسد فيها بدور السلطان ويلعب الثعلب دور المكر والاحتيال ، ويمثل الذئب دور الغدر والافتئات ، وقد كان للأمم القديمة كالمصريين والفرس والهنود ، من كل هذه الضروب حظ رفير ، وفيها يبسط الحكماء المجربون لأبناء جلدتهم ثمار تجاربهم . ويحضون على حسن المعاملة ويدعون الى الفضيلة .

والشرق ، مهد المدنيات القديمة والامبراطوريات العظيمة ، والملوكيات المطلقة ذات الحول والأبهة والبذخ ، والموارد الواسعة والكنوز الطائلة ، هو مهد الحكمة ومطلع الحكماء والأنبياء ، فيه تتجلى طباع الأشياء على جهارتها ، ويتجاور البذخ المفرط والبؤس المرمض ، وتتابع السعود والنحوس ، وتتقلب الأيام والدولت وتعتب عصور الرخاء والازدهار عهود الشدائد والادبار ، ومن كل ذلك تستخلص عبر الحياة وعظاتها ، ويتجلى لذوى النفوس العالية غرونها وبهارجها ، وتنصرف همه الحكماء والفضلاء الى هداية مواطنيهم الى سبيل الخير والسلامة وتلقينهم كيف يعيشون فى أمن من جور الغاشمين وبطش الأقدار ويسعون جهدهم لتخفيف ما حولهم من آثار البؤس والبلاء ، واصلاح ما يرون من أسباب الفوضى والفساد ، وهكذا كان يظهر المصلحون والأنبياء بين اليهود والهنود وغيرهم من أمم الشرق ، بين الفترة والفترة .

للحكمة الصادقة المصوغة فى اللفظ البليغ المحكم مكانها فى أدب كل لغة : ففى كل أدب ما لا يعد من الحكم المتواترة يقتبسها الأدباء فى مواطنها ، وقد نسبت أسماء قائلها وضاعت نسبتها وصارت من تراث الأدب المشاع ، وفيه كذلك ما لا يعد من آثار الشعراء والكتاب التى أساسها الحكمة وقوامها خلاصات التجارب التى عركتهم ، وفى الأدبين العربى والانجليزى تراث حافل من الحكم والأمثال ، وفى كل منهما أدباء اشتهروا خاصة بصوغ الحكم وجرت آثارهم على الأقاليم والأفواه ، لما تمتاز به من صدق النظرة وشمول الفكرة وإيجاز اللفظ .

ففى الانجليزية اشتهر شكسبير أولا وبوب ثانيا بروائع حكمهما . وسارت كثير من آبياتهما مسير الأمثال ، لما امتاز به كلاهما من التمكن من اللغة وبلاغة الأداء ووجازة التعبير ، رغم اختلافهما فيما عدا ذلك من نظرة الى الحياة ومذهب فى الفن ، وندر من كبار أدباء الانجليزية من لم يسر له مثل أو أكثر فيما توفر عليه من موضوع كالطبيعة والجمال .

والاجتماع والمرأة وهلم جرا . ومن الانجيل سرت فى اللغة الانجليزية المكتوبة والمتكلمة أمثال وحكم عديدة ، لاتزال تحمل طابعها الاسرائيلى وتدل بأسماء أعلامها ومواطنها على نشأتها الشرقية ، وسرت فى الانجليزية كذلك أمثال عديدة من الاغريقية واللاتينية يترجمها الأدباء اذا استعملوها وقد يشبهونها فى لغتها الأصلية .

بيد أن ذلك هو كل ما هنالك ، والحكمة فى الانجليزية نادرة الى حد بعيد ، وهى لم تكن من مطلوب أدبائها ولا من هم شعرائها يتوخونها عمدا ويودعونها اللفظ البليغ الموجز ، ولم يكن الايجاز من دأبهم كما كان من دأب شعراء العربية وأدبائها فى أحسن آثارها وأزهر عصورها ، فالأديب الانجليزى اذا أخذ فى الكتابة أرسل لخياله العنان ، وأبرز فكرته الواحدة فى شتى الصور متسلسلة مستتبعة غيرها من الأفكار ، أما الأديب العربى فيؤثر الايجاز البليغ ويودع المعنى الواسع الشامل البيت الموجز أو العبارة المحكمة وينتجه الى غيره ، وهذا الايجاز المشهود فى جيد الشعر الجاهلى راجع بلاشك الى أمية العرب وحاجتهم الى الاستغناء بالقول الجامع ، والاجتزاء بالحكمة الساسلة ، وقد توارثت هذه الخلقة من خلال الأدب الجاهلى فيما تلا ذلك من عصور الأدب العربى كما توارث غيرها من خلال .

ومما حجب العرب فى جاهليتهم فى الحكمة أخذهم بحياة الحلى والترحال ، واشتغالهم أبدا بالقتال وإدراك الثارات : فتملك حياة شديدة كانت تتطلب كثيرا من العمل وقليل من الكلام المفيد مع قلته . وكان الانتفاع بالتجارب من أكبر أسباب النجاح فيها ، والاشتهار بالحكمة والدراية من صفات الشيوخ والرؤساء ، ومنهم كان كثير من فحول الشعر ورجال البيان ومصاقع (١) الخطباء كالأفوه الأودى وأكثم بن صيفى وقس بن ساعدة الأيادى . ومن ثم أثر عن الجاهليين ما لا يعد من روائع الحكم نظما ونثرا . ومن أمثلتها خطبة قس بن ساعدة وحكم زهير بن أبى سلمى فى معلقته . وقد أعجب المتأخرون من الشعراء والأدباء بهاتيك الحكم أيما إعجاب ، وشمروا عن ساعد الجدل للاتيان بأمثالها ، وعدوها محك قدرة الشاعر وبرهان الشاعرى الصادقة ، وكاد يلهيهم الاشتداد فى طلبها عن ابتكار شئ جديد فى الشعر .

(١) مصاقع : المصقع : البليغ يتفنن فى مذاهب القول .

وكان العرب في الجاهلية لا يعدون الشعاع فحلا حتى ينطق بالحكمة . فما لم يات بشيء منها فهو عبد عن لم ينضجه بنور (١) التجارب ولم تتكشف له حقائق الحياة ، وظل الأعشى فيما قبل مزويا عن مرتبة الفحول ، رغم ضربه بسهم في مجالات المدح والهجاء والاعتذار ووصف الخمر ، حتى قال في مدحه سلامة ذو فائش : « والشئ حينما جعل » فرفعته هذه الجملة الموجزة الى مصاف النابغة وامرئ القيس . وروى حكايات كهذه عن شعراء الاسلام : فقد قيل ان جريرا سمع داليلة عمر بن ابي ربيعة التي يقول فيها : « انما العاجز من لا يستبد » ، فقال : « ما زال هذا الفتى يهذى حتى قال الشعر » ، فهو لم يحفل بكل ما قاله القى في التشبيب ، حتى ضرب على وتر الحكمة فاستثار اعجابه .

وادب الجاهلية وصدر الاسلام حاول بملك الحلم البليغة المستمدة على تجارب قائليها من سادة القبائل واشرافها ، الجامعة لنظراتهم في الحياة وخلقتهم وسنتهم فيها ، وتمدحهم بما رسموه لانفسهم من مناصح وما أخذوها به من فضائل ، وهذا الباب من اكرم ابواب الادب العربي وادعائها الى الاعجاب ، ومن اجله كان العرب في تلك العهود يغالون بالشعر وينشئون ابناءهم على مدارسهم ، وكانوا يسمون هذا الباب من الشعر بالادب ، لأن حفظ آثاره والسير بها يؤدبان القيس ويهذبان الخلق ، وذلك هو الاسم الذي أطلقه ابو تمام في حسانته على ذلك الضرب من القول الشامل للحكمة والتمدح بالفضيلة . وقد استمع معنى هذا اللفظ فبعد أن كان اسم جزء صار اسما لكل وأطلق على الشعر جميعه والتميز معا . وليس شك في أن هذا التطور الطبيعي البسيط هو منطوقا كلمة أدب اللغة ، وان يكن بعض المشرقين قد حذلق وزعم أنها مقلوبة عن كلمة داب ، فذلك من قبل النظريات المأخوذة التي لا تبلغ مباح اليقين أبدا ، وليست الا من قبل التطرف العلمي والمظاهر بالعمى في المحب ، وان لم يجد ذلك العالم فتيل (٢) ، ولم يدرك يوما منزلة الاقناع .

كانت الحكمة من اظهر ابواب الادب في الجاهلية وصدر الاسلام ، وكان من أقطابها في الجاهلية من ذكر ، وفي الاسلام الامام علي والأحنف ابن قيس وكثير من الصحابة ، ويطيرون الاسلام ثم توطد الدولة زاد العرب كلفا بالحكمة وزاد الداعي اليها أهمية ، فقد جاء القرآن الكريم والحديث

(١) تنور : القنور غرن يخبر فيه .
(٢) فتيل : الفتيل الذيل الذي في شوق الدواة .

حافلين بروائع الحكم وجوامع الكلم ، التي أربت (١) على الغاية من البلاغة والسمو ، وحثا على طلب الحكمة التي هي ضالة المؤمن ، وقد ظل الكتاب والحديث دائما نموذج الأدباء ومستقاهم ، فلما فرضت الملكية المطلقة سلطتها كاملة ، وأخرست الأفواه وأسكتت النقد ، عادلة حيناً وجائرة أحيانا ، وجد الناس في الحكمة الشاملة المعجمة سلوة للنفوس المقهورة ، وعزاء عن التآرب المحظورة ، وتنقيسا عن المطامع المستورة ، واتقيا لشبهات السلطان ، فأجريت الأمثال والمواعظ على السنة السلف الصالح ، وملوك الأمم الغابرة وحكائنها وفلاسفتها ، ووضعت على أفواه الحيوان والأرواح ، وأرسلت شعرا ونثرا . وترجمت عن اللغات ، وكان من ذلك مترجمات ابن المقفع .

وكانت الصبغة الدينية التي لازمت توطد الدولة الإسلامية ونطور المجتمع الإسلامي ، داعيا آخر الى انتشار الحكمة في الأدب وفي الحكمة كتب ونظم كثير من رجال الدين ، ومن آثار الحكمة التي مبعثها الشعور الديني أشعار أبي العتاهية وابن عبد القدوس والامام الشافعي ، ومما زاد هذه النزعة الدينية احساسا ، وهذه الحكم الدينية ذيوعا ، ما كان يجاورها من مظاهر الترف المغرق وآثار اللذات والمفاسد ، فكانت تلك رد فعل لهذه ، وكان من الشعراء المغرقين في المجون والتبذل كأبي نواس وبشار ، من تعاودهم رجعات من التنبص في الحياة وغرورها ، حين تسمهم اللذات ويرهقهم بشمها (كثرتها) وخمارها ، فيرسلون في أشعارهم من الحكم ما قد ينسب الى أزهد الزهاد وأحكم الحكماء .

وبدخول الأدب العربي طوره الفني طلب الشعراء البراعة والتفنن بصوغ الحكم وضرب الأمثال محاكاة للأقدمين وتوليدا من معانيهم ، وكانوا يشفعون الحكمة الانسانية أحيانا بمصادقها من عالم الطبيعة والحيوان والجماد ، فاذا أرسل أبو تمام حكمة في ظهور فضل المحسود على بد الحاسد ضرب لذلك مثلا اشتعال النار فيما جاورت واعلانها بذلك طيب عرف العود ، ويقول في موضع آخر منتزعا مصداق كلامه من ظواهر الطبيعة :

وإذا رأيت من الهلال نموه أيقنت أن سيكون بدرا كاملا
ويقول غيره :

يعيش المرء ما استحيا بخير ويبقى العود ما بقى للحاء

(١) أربت : أرب الشيء : عقده واحكمه .

واشتغل المسلمون بدراسة الفلسفة اليونانية دون الأدب اليوناني ، فتأثر أدباؤهم بتلك الدراسة ، وازداد ولعهم بالحكمة ، واتخذت حكمتهم صبغة فلسفية أقرب الى القضايا المنطقية وأشبه بالاستقراء العلمي ، وذلك واضح في أشعار المتنبي والمعري اللذين انحرفا بذلك بعض الانحراف عن الأسلوب العربي الأصيل ، الذي يمتاز بالبلاغة والوضوح والاطلاق ، وبلغ من تأثر شعر الحكمة في العربية بروح الفلسفة اليونانية ، أن أبا علي الحائمي وضع رسالة يرد فيها أكثر حكم المتنبي الى كلام أرسطو . وفي شعر المتنبي بلغت الحكمة العربية أوج رقيها ، أو بالأحرى بلغ الشعر العربي ذروة عظمته ، وبلغ من احتفاء الشعراء بتضمين الحكمة أشعارهم أن قيل في الموازنة بين أبي تمام والمتنبي والبحترى أن الأولين حكيمان ، والشاعر البحترى ، لكثرة ما في شعرهما من الحكم ، وأبو تمام هو القائل في ذلك الضرب من الشعر :

يرى حكمة ما فيه وهو فكاهة ويقضى بما يقضى به وهو ظالم
ولولا خلا سنها الشعر ما درى بغاة العلا من أين تؤتى المكارم

فالولع بالحكمة ظاهر في الأدب العربي : فاقتنباس المأثور من كلام المتقدمين أكثر ذيوفا في العربية منه في الانجليزية ، والحكمة مادة جانب عظيم من كتب الأدب التي تحفل بما أثر عن الحكماء والخلفاء والفقهاء من جوامع الكلم ، وهي موضوع مطولات كثيرة كمقصورة ابن دريد ولاميته ابن الوردى وأرجوزة صاحب كتاب الصادح والباغم ، وبها تمتلئ الخطب المنسوبة الى وفود العرب الى كسرى والى أهل بيت المهدي عند مشاورته لهم في حرب خراسان . وقد أولع الكتاب بنثر حكم الشعراء في رسائلهم مسجوعة منمقة ، كما أولع الشعراء بنظم الحكم السائرة وأمثال العامة ، وكان الشعراء أكثر لجوء الى نظم الحكم وسرد العبر والاستشهاد بعظات التاريخ خاصة في قصائد الرثاء ورسائل التعزية وأشعار الشكوى والوجدانيات ، وكثيرا ما كانت تساق الحكم في هيئة نصائح . ويقول ابن عبد القدوس : « والنصح أغلى ما يباع ويوهب » ومن شعر النصيحة جيمية محمد بن بشير التي يقول منها :

قدم لرجلك قبل الخطو موضعها فمن علا زلقا عن غرة زليجا

أما الموضوعات التي طرقتها الحكمة في الأدب العربي فلا تحصر ، فقد جالت في شتى نواحي الحياة : من غرور الدنيا وتقلبها ووجوب الحذر منها وتوقع زوالها ، الى مزايا الشدائد وامتحانها للرجال ، الى ندره

الصدق الصدوق ، ومن شؤون الحياة اليومية الى سياسة الدول وحكم الشعوب ، ومن آداب الحوار الى آداب مصاحبة السلطان وكان بعض الشعراء يتفرون على ضروب دون غيرها من الحكمة ، حسب ما توجههم اليه بيئاتهم ونفسياتهم ، فأبو العتاهية كان دائم الذكر للموت ، والمتنبي كان يشتق حكمه من حياة التناحر والمطامع والمعارك الأدبية والسياسية التي كان يحياها ، والمعري كان يستقي حكمته ويستخرج عبره من ظواهر الكون التي كان دائم الاشتغال بها ، فهذان البيتان من نظمه يحملان طابع تفكيره ولا يمكن أن ينسبا الى سواء :

يغادر غابة الضرغام كيما ينازع ظبي رمل في كناس
سجايها كلها غدر ولؤم توارثها أناس عن أناس

فكثير من الظروف التي أحاطت بالأدب العربي في الجاهلية والاسلام كانت تدعو الى انتشار آثار الحكمة فيه ، فجاء حافلا بها منشوره ومنظومه على متعدد الصور ومختلف الأوضاع ، ومثل هاتيك الظروف لم تصاحب الأدب الانجليزي ، ومن ثم كانت الحكمة فيه أندر كثيرا ، فلا البدوة ولا الملكية المطلقة ولا رد الفعل المنعكس من الترف المفرط ، ولا الروح الديني المتغلغل في المجتمع ، لم يؤثر شيء من ذلك في الانجليزية تأثيره في العربية ولم يقتصر الانجليز على دراسة الفلسفة الاغريقية بل درسوا معها الأدب الاغريقي ، وعنه تلقوا رسالته وهي الجمال ، فصارت هذه رسالة الأدب الانجليزي أيضا ، فكان الأديب الانجليزي يتوخى الجمال فيما يشاهده ويحس ويكتب ، في حين كانت الحكمة والعبرة والموعظة قبلة الأديب العربي في كل ذلك ، ومن الأدب الاغريقي تعلم الأديب الانجليزي أيضا أن يطلق لفكره العنان ويفسح لبيانه المجال ، على حين ظل رائد الأديب العربي بلاغة الايجاز ، وكبح جمحات الخيال .

ومن ثم تمثل خير ما في الأدب العربي في حكم الشعراء والخطباء والكتاب ، وجوامع كلمهم وموجز بيانههم ، وتمثل خير ما في الأدب الانجليزي في سبحات الخيال المطلق المطنب ، من درامات وملاحم وقصص ، فالعيب الاجتماعي أو النقص السياسي الذي كان يراه الأديب العربي ، فتحمله الظروف سالفة الذكر على أن يصوغه حكمة موجزة عامة لا تشير ريبة السلطان ، كان يحوك حوله الأديب الانجليزي في قصة

اجتماعية رحيبة الجوانب تشخص موضع الداء تشخيصا ، وتعين الدواء ،
ويتجلى الفرق بين الأدبين ، فى هذا الصدد فى نوع عبقرية شاعريهما
الفذين : فقد بلغت العبقرية الشعرية الانجليزية ذروتها فى آثار شكسبير
صاحب الدرامات الممتلئة بالخيال المطلق ، وبلغت العبقرية الشعرية
العربية أوجها فى قصيد المتنبى الحافل بالحكمة البليغة .

التشابه والاختلاف

فى الآدين العربى والانجليزى

يرور الناظر فى الآدين العربى والانجليزى شدة ما بينهما من تباعد ، وكثرة ما هنالك من وجوه الاختلاف ، وقلة ما فيهما من وجوه التشابه والانفاق ، ولا غرو فان الظروف الجغرافية والتاريخية التى أحاطت بنشأة كل منهما ونموه وازدهاره ، كانت متباينة أى تباين ، والعوامل الاجتماعية والسياسية التى تترك آثارها فى الأدب كانت متضادة أى تضاد ، فجاء الأدبان اللذان هما وليدا تلك الظروف والعوامل مختلفين أعظم اختلاف ، فى الموضوعات والأساليب والأشكال والأغراض ، ولم يتفقا الا فى كل عام من الوجوه التى يستوى فيها جميع الآداب لشيوعها بين جميع شعوب الانسانية .

فالأمة العربية أمة سامية ضربت فى فيافى الجزيرة أحقابا ، وترعرع أدبها تحت سماء البادية ، ثم خرجت من جزيرتها فورثت حضارات الأمم الشرقية ، وأخضعت لسلطانها أغنى بلاد الشرق وسيرت تحت لوائها شعوبا أرقى منها مدنية وأعرق فى العلم والصناعة ودانت لحكومة ملكية مطلقة ، وكان الدين أساس دولتها وشارة مجتمعيها ، والأمة الانجليزية أمة آرية خرجت من جزيرتها المنعزلة فجولت فى البحار ، وشاركت فى تراث الاغريق والرومان ، واعتنقت المسيحية ، وساهمت فى الحضارة الأوروبية ، وتمسكت بنظام الحكم الديمقراطي ، فهما أمتان مختلفتان فى الجبلية ونوع المجتمع ومتجه التفكير ، فاختلف أدباهما تبعا لذلك ، ولم يتفقا كما تقدم الا فى وجوه عامة ومناح عارضة :

فعصر الجاهلية فى تاريخ الأدب العربى شبيه بعصر ما قبل اليزابث فى التاريخ والأدب الانجليزىين : ففى ذينك العصرين كان كل من الشعبين يعيش داخل جزيرته فى عزلة كبيرة عن العالم ، على حال شبيه بعصر الأبطال فى بلاد اليونان الذى أنتج ملاحم هوميروس ، وكان الأدبان تبعه لذلك جافيين ، وعرى اللفظ والأسلوب ، ساذجى المعنى ، بعيدين عن الصناعة الفنية ، وكانا أقل رقىا من الأدب الفنى الذى جاء فى العصر النالى ، وان يكن الأدب العربى بلغ فى عهد الجاهلية والبداءة والعزلة

مبلغا من الرقى أعلى كثيرا مما بلغه الأدب الانجليزى قبل أن يتصل اتصالا وثيقا بثقافات الأمم الأخرى وآدابها .

ونهضة العرب بظهور الاسلام تماثل نهضة الانجليز فى عصر اليزابث ، بوصول النهضة الأوروبية الى انجلترا ، واتجاه نظر الانجليز الى ما وراء البحر ، وفى كل من هذين العصرين بدأت الامه تخرج من محيط جزيرتها وتشب عن طوق عزلتها ، وتتصل بالعالم وتتصنع حضارته ، وتبنى لنفسها امبراطورية مترامية الأطراف ، وارتقى أدبها من جراء ذلك ارتقاء عظيما ، ورقت ديباختة ودخل فى طوره الفنى ، طور الانشاء المحكم والمجهود الأدبى المتصل ، وانتشرت كلتا اللغتين فى بقاع الأرض وافتتحت آدابها كثيرا من الأمم : فاللسان العربى الذى لم يكن يتجاوز حدود الجزيرة فى الجاهلية ، صار يتكلم (بضم الميم) من تخوم الصين الى المحيط الأطلسى ، وأثر فى لغات وأزال غيرها وحل محلها ، واللغة الانجليزية التى لم يكن يتكلمها الا ملايين معدودة فى عهد شكسبير أصبحت تتكلم وتدرس فى مشارق الأرض ومغاربها ، وأصبح أدبها عالميا كما كان أدب العرب عالميا على عهد عظمته .

ولم تكن كل من الأمتين توطد أركان امبراطوريتها حتى انسلاخ عنها جانب من أملاكها ونما مستقلا حتى طاولها فى النفوذ والسلطان ، ودانها فى ازدهار العلوم والآداب : فكما انفصلت الأندلس عن الخلافة العربية ، استقلت الولايات الأمريكية عن الامبراطورية البريطانية ، بيد أن البلاد الأصلية احتفظت بالزعامة الأدبية على طول المدى : فلم تنجب الأندلس من الأدباء من بدوا فحول العباسيين ، ولا ظهر فى أمريكا ولا غيرها من أنحاء الامبراطورية البريطانية من دأى شكسبير وملتون ، فعمل التراث الثقافى الحافل ، والماضى التاريخى المؤثر من ضروريات ازدهار الأدب الأساسية ، وذلك ما كان يعوز الأندلس الاسلامية ، وما يعوز أمريكا الحديثة ، فظلت كلتاهما تلتفتان الى الوطن الاول فى ظل النموذج والمنهاج والوحى .

وكلا الأدبين العربى والانجليزى تأثر الى حد بعيد بالكتاب السماوى الذى تدين به أمتة : فأثر القرآن فى المجتمع العربى وتاريخ اللغة العربية وآدابها وثقافة أدبائها وأساليبهم جسيم شامل ، فقد كان منذ جاء مثلا أعلى فى البلاغة وثقافة قائمة بذاتها ، والانجيل منذ ترجم الى الانجليزية فى عهد الإصلاح الدينى كانت له اليد الطولى فى تثبيت الأسلوب النثرى الانجليزى ، وتثبيت مفردات اللغة وادخال مفردات جديدة ، واشتقاق

غيرها ، واختراع طرق للاشتقاق أدت الى توسيع جوانب اللغة ، وكان دائما قدوة للأدباء يحتذونها في اسلاس الأسلوب ، وله أثر مباشر جلي في كتابين هما من ذخائر الأدب الانجليزي ، أحدهما « رحلة الحاج » لبنيان والثاني « الفردوس المفقود » للمتون ، ففي كليهما يقوم أساس القصة على ما ورد في الانجيل من أنباء الخلق والبعث والحساب ، بل ان دراسة الانجيل كانت هي الثقافة الوحيدة التي نالها بنيان ، الذي كان قسا ضئيل الحظ من العلم ، ومع ذلك يعد أسلوبه المبني على أسلوب الانجيل في الذروة في أدب اللغة .

تلك امثلة من وجوه التشابه في الأدبين ، وظاهر أنه تشابه عام نارض محدود ، أما وجوه التناقض فعديدة تشمل نواحي الأدب وتضرب جذورها في صميمه : فالأدب العربي ازدهر في كل دولة اسلامية فهو أشد تائرا واصطبغا بالنزعة الدينية من الأدب الانجليزي ، ومع ذلك قد جرى العرب الى غايات من الترف واجتباء اللذات لم يبلغ بعضها الانجليز ، وبدا أثر ذلك الترف المغرق بجانب ذلك الروح الديني في أدبهم ، وقضت التقاليد التي نمت في المجتمع الاسلامي باسدال الحجاب على المرأة ، فتقلص ظلها من المجتمع وضؤل أثرها في الأدب ، وازداد ضالة بمرور الأيام بدل أن يزداد جسامة بتوطد الحضارة وذيوع التعليم واتساع جوانب الأدب ، فكانت المرأة الانجليزية أبين أثرا في أدبها - كاتبة ومكتوبا عنها - من المرأة العربية .

وعرف الانجليز فنونا لم يحمل بها العرب كثيرا كالتصوير والنحت ، وأغرموا بما اطلعوا عليه من آثار تلك الفنون من مخلفات الأمم القديمة ، وامتلأ أدبهم بوصف كل ذلك وتقديره والأدب العربي يكاد يكون خلوا من ذلك ، وانكب أدباء الانجليزية على دراسة الآداب الأوروبية المعاصرة وأفادوا منها كثيرا ، وتوفروا خاصة على دراسة الأدب الاغريقي القديم ، فكان لهذا الأدب أبعد الآثار وأشملها في الأدب الانجليزي : رحب آفاقه وبسط أساليبه وأشكاله ، ومد أمامه منادح القول ووجه نظره الى جمال الحياة الذي تصويروه غرض الأدب والفن جميعا واكتسب الأدب الانجليزي صبغة اغريقية ظل الأدب العربي بعيدا عنها ، فان هذا الأخير لشديد اعتداده بنفسه لم يحاول أن يطلع على آداب غيره ، أو يستفيد من تراث اليونان الأدبي الحافل فكان ذلك الاقبال على الأدب الاغريقي من جانب الانجليز ، وذلك الاعراض عنه من جانب العرب من أكبر دواعي اختلاف الأدبين وتباعدهما .

وفى عهد الدولة والحضارة والثقافة ، عهد الطور الفنى للآدب حين بلغ أوج رقيه ، رضى العرب للملكية المطلقة ، والملكية تكف الشعب عن الحكم وتكف الآدب عن النقد والاصلاح وتلحق الآدباء بحاشيتها ، فجاء الآدب العربى بلاطيا فى جملته ، يتمدح بمآثر الملوك ويصف مواكبهم ومظاهر عظمتهم ، ويغفل الشعب وأحواله وآماله الى حد بعيد ، على حين اعتمد الآدب الانجليزى فى أكثر عصوره على استجلاب رضى الشعب ، وتصوير أحواله ونشيدان آماله ، فامتلا الآدب الانجليزى بالنظرات النقدية والقصص الاجتماعية والبحوث السياسية ، وحفل بتمجيد الحرية والديمقراطية واحترام الفردية والرأى العام ، على حين امتلا الآدب العربى بالمذائح والرسائل الديوانية ، فمن أكبر مظاهر اختلاف الآدبين العربى والانجليزى ، صبغة الأخير الشعبية الفردية وصبغة الأول البلاطية الرسمية .

وهذا الانضواء تحت لواء الملكية اكسب الآدب العربى صفات وخصائص ظل الآدب الانجليزى خلوا منها : فغلبيت على الآدب العربى — الذى تعود الاغضاء والرضا بالكائن وعدم محاولة الاصلاح — نزعة المحافظة والتقليد ، على حين سادت الآدب الانجليزى روح التجديد ، وتجدد على طول العصور لفظا وأسلوبا وموضوعا ، وكان من دواعى تلك المحافظة أيضا اشتغال غير العرب بالآدب العربى ، بل ظهورهم على العرب فى جمال الصناعة الأدبية ، وقدم من جراء ذلك كله الأسلوب على المعنى ، وكان يعد أدبيا من تمكن من أصول اللغة وأحكم انشاء الجمل البليغة . لا من لطف حسه وأرهف شعوره ، واتسعت نظرته وسامت فكرته فى الحياة ، وكان من أثر نزعة المحافظة والجمود التى سادت الآدب العربى أن عجزت أشكاله وموضوعاته ، فلم تتطور أشكاله وتتميز وتتنوع ، ولم تتجدد موضوعاته وتتكاثر وتتوالد ، على حين كان تاريخ الآدب الانجليزى تاريخ تجدد مستمر واخصاب متزايد فى هذه النواحي جميعا .

ولسير الآدب العربى فى ركاب الأمراء ، واعتماده على عطفهم دون عطف الجمهور ، أهمل الآدب موضوعات كثيرة هى من صميم الفن ولباب الحياة ، وهى هم الآديب المفكر المحسن ، كعبادة مفاتن الطبيعة والفن فى عرضها ، واستلهاهم حكم التاريخ والتألق فى وصفها ، واستتيحها ، جلائل البطولة وتصوير روائعها ، واستخلاص مواضع الفتن والمتعة والجمال من خرافات الأقدمين ، وارضاء الفن بنظمها وتجديد شبابها ، وعرض آثار الرحلات التى يقوم بها الآديب ووقعها فى نفسه ، والسبح فى عوالم الخيال البعيدة الساحرة ، والضرب فى أعماق الماضى وآما

المستقبل وآفاق الانسانية الواسعة . كان الأدب العربى - لاعتماده على صلات الامراء - فى شغل شاغل يحاضر العيش وقريب المطلب عن كل تلك العوالم الزاخرة بالفن والحياة والشعور والمتعة ، فأهمّل بعضها ولم يمس بعضها الا مساً رقيقاً ، وبكل هاتيك العوالم وذخايرها وأصدائها يحفل الادب الانجليزى .

هذا الاختلاف المطرد الشامل فى البيئة والمجتمع والموضوع والاسلوب ، مرجع ذلك الاختلاف الرائع الملحوظ بين كتب الأدب العرب وكتب الادب الانجليزى ، وفجول هذا واقطاب ذاك ، وسيرهم وآثارهم وعقلياتهم وشخصياتهم ، حتى ما نكاد نرى فى الأدبين شاعرين متماثلين او كاتبين يذكرنا أحدهما بالآخر ، من جهة العقلية والاسلوب او الموضوعات ، أو يتشابه موضوع كتاب هنا وموضوع كتاب هناك . او تخال فكرة قصيدة فى هذا الادب صادرة عن نفس الحالة النفسية المصادرة عنها أخرى فى الأدب الآخر ، ليس هناك شئ من ذلك ، وليس بين الأدبين الا التباعد والتناكر ، كما يتباعد ويتناكر شخصان غريبان مختلفا الموطن والنشأة والتربية ، والعقيدة الدينية والثقافة ، والنزعة فى الحياة والمتجه فى التفكير .

فاذا وازنا بين كبرى شعراء الأدبين ، المتنبى وشكسبير ، بدا لنا الاختلاف والبون العظيم : فجانبا كبير من شعر المتنبى موقوف على المدح والهجاء ، ولم يقل فيهما شكسبير حرقا ، وشعر المتنبى ملى بالحكم البليغة الموجزة المتجاورة يزاحم بعضها بعضا وشعر شكسبير حافل بوصف الشخصيات وتحليل النفوس تحليلا مسهبا لا يتوخى بلاغة الايجاز فى شئ ، وجانبا المدح والهجاء والحكمة وما يتصل بذلك لم يكد المتنبى يطرق موضوعا آخر بعيدا عن دائرة حياته الشخصية ، بينما روايات شكسبير وقصائده تعج بوصف الطبيعة وتقديس الفنون كالموسيقى وتمجيد الأبطال ، وتضرب فى شعاب الخرافة وأرجاء التاريخ ، وشكسبير يراوح فى نظمه بين أشكال الشعر المختلفة ، بين الشعر المرسل والدوبيت والسونيت ، والفقرات المتراوحة طولا ، المتداخلة القوافى ، وقد دعى ضرب السونيت باسمه لما أكسبه بعبقريته من مرونة ، على حين طل المتنبى - وهو الشاعر العظيم المتمكن من اللغة والأدب المطلع على حقائق الحياة - متمسكا بالشكل الشعري الوحيد الذى وصل اليه من المتقدمين ، وهو القصيدة المصرفة المطلع الموحدة الوزن والقافية غير الموحدة الفكرة ، فامسح الأدب العربى شكلا ولا موضوعا لم يكن من قبله ، وعاش المتنبى ومات دالماحا الى الملك وتضريب الأعناق ، ساخطا على تهريزه فى

هضماد الأدب الذى كان يحسد عليه ويكاد له من أجله ، ولم يكن شىء من ذلك مما يخطر لشكسبير على بال •

وجلى واضح أن هذه الفروق بين الشعارين العظمين انما ترجع الى العوامل الاجتماعية والسياسية ، التى كانت تحيط بكل منهما وتكون نفسيته وعقليته ، والى هذه العوامل ذاتها يرجع التباين الشديد بين أبى نواس وأبى تمام والبحترى وابن العميد وبديع الزمان من جهة ، وبين ملتون وبيرون وشلى وكيثس وجيبون وكارليل وماكولى من جهة أخرى ، وهو تباين يجعل من المحال تشبيه واحد من الفريق الأول بواحد من الفريق الثانى ، فى سيرته فى الحياة أو فلسفته الفكرية أو مذهبه الأدبى ، وان كان من أسهل الأمور استخراج العديد من أوجه الاختلاف والتضاد •

هذا الاختلاف فى البيئتين الجغرافية والظروف التاريخية ، والعوامل الاجتماعية والاقتصادية ، والجميلة والتقاليد والمنازع ، وهذا التباين بين الأدبين فى المشرب والأسلوب والموضوع وشخصيات الادباء وسيرهم ، كل ذلك يجعل الموازنة بين الأدبين من أمتع الدراسات الأدبية وأحفلها بالدروس والعبر ، وأدعاهما الى استخلاص المبادئ والنظريات الأدبية ، والى التفطن الى العوامل المؤثرة فى الآداب ونتاجها ، وقديما قيل : وبضدها تتميز الأشياء ولو كان الأدبان شديدى التشابه وليدى ظروف متقاربة وعوامل مؤثرة متماثلة ، لما كان فى الموازنة بينهما كبير طائل ، ولا كان تتبع ظواهرهما يستحق طويل عناء ، ولأشبهها أن يكونا أدبا واحدا مشتركا بين أمتين ، موزعا بين لسانين •

ثانيا : مقالات أخرى

تشستر ثون

زعيم الرجعية فى عصر التطور

شهدت اواخر القرن الماضى واوائل الحاضر تحولا عاما فى المبادئ السياسية والاجتماعية والأدبية فى انجلترا : اذ نفر الناس تدريجا من المبادئ التى كانت تسود تلك المناحي فى العصر الفكتورى : كانت النزعة الاستعمارية فى العصر الفكتورى تسود السياسة حتى ساقط انجلترا الى حرب جنوبى أفريقيا التى كبدتها خسائر فادحة ، وكان للفكتوريين اعتداد شديد بحالتهم الراهنة ومبادئهم السائدة ، تجعلهم يشمخون عن كل جديد ويتمسكون بما لديهم ، وكان الفرق الاجتماعى فى ذلك العهد بين الطبقات كبيرا ، وكان مركز المرأة تثقله القيود ، وكانت الاخلاق تتسم بالتزمّت والتحرج المفرق ، وكانت معايير الأدب تتمثل فى اشعار تيسون وقصص دكنز ، حتى مل الناس تلك المبادئ والمعايير كما هو دأب المجتمعات الحية من دوام التطور والتبدل .

وكان زعيما التطور الفكرى الذى تجلى فى مستهل القرن الحاضر هما برنارد شو وهـ . جـ . ولز ، هذان الكاتبان العظيمان أوسعا الأحوال الراهنة والآراء المعقدة نقدا وتفنيدا وتجريحا ، وفتحوا للناس أبوابا من الفكر لم تكن معروفة ، وحثا الجمهور القارى على اصلاح مساوىء المجتمع الراهن والتطلع الى مجتمع فى المستقبل أقرب الى المثل الأعلى يحيا فيه انسان هو أقرب الى السوبرمان ، فبينما كان الفكتوريون يعتقدون أن مجتمعهم هو المثل الأعلى للحضارة ، اذا ولز يقول ان الحضارة الانسانية لم تبدأ بعد لأن تاريخ البشرية فى الماضى لم يكن الا سلسلة أخطاء ومجازر وجرائم ، واذا شو ينادى بانسان أعلى ، نسبة الانسان الحاضر اليه كنسبة القرود الينا .

فوجئ الناس بهذه الآراء الجريئة وهذه العوالم الجديدة يعرضها على أبصارها ذاك الكاتبان القديران ومن مائلهما فكرا وقل عنهما عبقرية وشهرة ، وكان حريا أن يفاجأ الناس ويعجبوا فى مجتمع كالمجتمع الانجليزى معروف بمحافظته واجلاله للتقاليد ، وكان حريا بجانب الإعجاب الذى قوبل به المذهب الجديد أن يقابل من كثيرين بالبغض والنفور

والنقد والهجوم ، وهذا ما كان ، بل ان شو نفسه لم ينل مكانته الحاضرة لقمة سائغة بل اضطر الى أن يسلك اليها شتى الطرق ويتذرع بشتى الوسائل . أما الحملة المضادة للمذهب الجديد التي كان حتما ظهورها فقد كان فارسها المعلم جلبرت كيث تشسترتون زعيم الرجعية فى عصر التقدم السريع والتطور المطرد .

ولد ج . ك . تشسترتون فى لندن عام ١٨٧٤ ، ومات منذ نحو ثلاث سنين ، ونشأ عظيم الجسم ، مديد القامة ، حتى قال عنه شو : انك حين تخاطبه يظل نصف منه خارجا عن متناول بصرك ! ويقول هو عن نفسه فى ترجمة حياته بقلمه : انه كان أكولا مجبا للطعام مشغوقا بشرب البيرة ، وهو فى ذلك يناقض شو البيوربتانى النزعة الذى لا يشرب الخمر ولا يقرب اللحم ويتجنب أشتات اللذات ، والتحق تشسترتون بمدرسة للفنون لميله الى التصوير ، ولكنه لم يتم دراسته بها ، واحترف الصحافة والنقد الفنى والأدبى ، وظل ذلك عمله الى آخر حياته الخالية من مهم الأحداث ، وزار ألمانيا وأسبانيا وبولندة والولايات المتحدة وغيرها للمحاضرة فى الأدب الانجليزى .

لم يكن تشسترتون تلميذا نجيبا ، بل هو يعترف فى ترجمته لنفسه بأنه كان غبيا ، وقد هجر الدراسة قبل أن ينال شهادة ما ، بيد أنه كان منذ صغره مجبا للأدب بارعا فيه ، فأنشأ هو ورفقة من زملائه فى المدرسة الابتدائية مجلة جذبت اليهم الأنظار ونالت تشجيع ناظر مدرسته ، وفى مدرسة الفنون سألقة الذكر بلغ تشسترتون مبالغ الرجال ونضجت أفكاره وهاجمته شتى مسائل الحياة ، حتى استولى عليه القنوط ، وتملكه التشاؤم وتزعزعت عقيدته الدينية ، بيد أنه ما زال فى بحثه وتفكيره حتى اهتدى الى العقيدة التى استراح اليها ضميره واستقرت بها بلائله، ولم تكن تلك الا العقيدة المسيحية ذاتها ، تلك العقيدة التى هجرها منذ مدة باحثا عن الحقيقة فما لبث أن عاد اليها مهتديا .

قال فى هذا الصدد فى مقدمة كتاب « السنة » : « لقد كانت نفسى تحدثنى دائما بكتابة قصة خيالية عن بحار انجليزى أخطأ فى قياس طريقه حتى اكتشف إنجلترا وهو يحسبها جزيرة من جزر البحار الجنوبية » ويستطرد فيبين أن ذلك مثله هو نفسه : اذ خرج طائفا باحثا عن الحقيقة فاهتدى الى القانون الكنسى الذى كان يعرفه حق المعرفة قبل ذلك المطاف ، ذلك بأن التشاؤم الذى ران على نفسه حقبة كان قد أرهقها وهى الميالة بطبيعتها الى المرح ، فوجدت نفسه ضالتها فى المسيحية التى

تدعو الى قبول الحياة على علاقتها فى بشر ، ومنذ ذلك الحين صصار
تشسترتون زعيم التفاؤل وعدو نزعة التشاؤم السائدة فى كتابات بعض
معاصريه كنوماس هاردى وهوسمن ، فهو يقول عن هاردى فى كتابه عن
الادب الفكتورى انه « ملحد ريفى قابع فى اكتئاب يلعن ويجدف فى احتفائه
بأجلاف القرويين » .

ففى عصر الشك والمروق تمسك تشسترتون بعقيدته الدينية، وتعلق
بأهداب مسيحيته وعاب على معاصريه فى مقدمة ما عاب زيغ عقيدتهم ،
ولم يقف عند هذا الحد ، بل مازال وهو البروتستانتى النشأة يميل
رويدا رويدا الى الكاثوليكية فى آرائه ، حتى اعتنقها رسميا وهو فى
الثامنة والخمسين من عمره * ولعل صديقه الحميم هيلرييلوك هو الذى
ساقه الى اتخاذ هذه الخطوة ، وييلوك هذا كاتب مؤرخ فرنسى الّاب
كاثوليكي المذهب تعرف به تشسترتون فى مطعم — وهذا تشبيه بتشسترتون
الكثير الارتياح للمطاعم — فسرعان ما توافقا فى الرأى والمزاج ، وأعجب
المترجم بصاحبه أشد اعجاب ، وكانا بعد ذلك يدا واحدة فى الحملة على
شو ، حتى عدّهما شخصا واحدا أو غولا واحدا يقوم هو بمجالدتهما ،
كان الفرسان فى القديم يجالدون الغيلان والوحوش ، ويجالّد شو ذلك الغول
» تشسترييلوك « .

أحب تشسترتون الكاثوليكية لما فيها من روح البشر والتفاؤل الذى
يلأثم طبعه ، وتولى الدفاع عنها ازاء حملات البروتستانت الذين يصمونهم
بالرمزية والوثنية ، ودافع عن تقاليد الاعتراف والكفارة وغفران الذنوب،
وقال ان المذهب الكاثوليكي الرومانى يحل كل مسائل الفكر التى كانت
نعترضه ويرضى نزعتة الى الحرية ، وله فى كل ذلك كتابات طويلة ولما
كتب فى هذا الصدد أول كتبه دهش القراء ولم يكادوا يصدقون أنه جاد ،
وانما ظنوه يبنى الطرافة وينوخى الاغراب ، ولكنه لزم موقفه ذاك فى
اخلاص وشجاعة وحماسة الى آخر حياته ، واصطبغت كتاباته بهذه النزعة
الدينية الغالبة : فهو كثير الطرق لمواضيع الدين ، ومعظم أبطال قصصه
قسس أو فلاسفة متدينون ، حتى انه لما كتب جملة قصص بوليسية على
نمط قصص شرلوك هولمز جعل بطلها المحقق قسيسا حلّالا للمعضلات
كشافا للغوامض * ومن آثار نزعتة الدينية هذه قصيدة له طويلة عن
موقعة « لينتو » البحرية بين العثمانيين وبين أساطيل أوروبا المتحدة ،
فهو يرى فى تلك الموقعة نصرا للمسيحية حمى بيضا .

ورغم هذه المسيحية المتأصلة لم يكن تشستر تون في نظرته السياسية داعية سلام ولا مؤمنا بالسلام ، نعم انه كان من كبار معارضي حرب البوير في منصرف القرن الماضي ، ولكن تلك المعارضة لم تكن لحب في السلام بل لاعتقاد بخطأ البواعث التي دفعت بالانجليز الى غمارها . كان يرى البوير على صواب والانجليز على خطأ ، لان البوير انما كانوا يدافعون عن استقلالهم وحماهم ، وقد كان تشستر تون من أكبر المؤمنين بالوطنية - وفي هذا أيضا مناقضة لمبادئ المسيحية التي تسوى بين البشر - وكما كان يحب انجلترا ويغار على وطنيته ، كان لا يحب الاعتداء على وطنية الآخرين ، وهو لذلك كان يمتدح الامبراطورية لان الامبراطورية لا تقوم الا باهدار بعض الوطنيات والحريات .

انما كان تشستر تون يحب انجلترا وحدها دون امبراطورية ولا مستعمرات : انجلترا كما كانت في عهد اليزابث وشكسبير ، وكما كانت في العصور الوسطى ، وهنا تلتقي آراء تشستر تون الدينية وآراءه السياسية معا : فهو يعشق العصور الوسطى التي كانت للمسيحية فيها البولة والسلطان ، كما يعشقها لان انجلترا في عهدها كانت جزيرة مستقبلية بشأنها غير ذات مشاكل خارجية ولا امبراطورية مبنية على اهدار قوميات شعوب أخرى . وقد كانت الحماسة التي دافع بها تشستر تون عن وجهة نظره في مسألة الحرب البويرية بدء ترامي شهرته وارتفاع مكانته ، وقد تولى هو ونخبة من أصحابه اصدار جريدة لهذا الغرض وانتهى الامر بهم الى شراء جريدة الديلي نيوز لنشر آرائهم ، فكان تشستر تون وكبلنج في هذه الحرب على طرفي نقيض يقود كل منهما معسكرا ، وظلت هذه الخصومة الفكرية بينهما قائمة فيما بعد .

أما حين نشبت الحرب الكبرى فكان لتشستر تون موقف أخسر ، اذ عدها حربا ضرورية للدفاع عن القومية الانجليزية والثقافة الانجليزية ضد « بربرية برلين » وقام بمجهود عظيم في نشر الدعوة هذه المرة تحبيذا لمواصلة الحرب ، فكان يكتب في الصحف وينشر الكتب ويعمل على توزيعها في الداخل والخارج ، وكان يكتب في صحف حزب الأحرار حتى اختلف معها فصار يكتب صحيفة العمال ، حتى انقلبت ورحب الحرب دائرة الى تحبيذ السلام ، فهجرها وهجر الأحزاب جميعا ، وبعد الحرب خرج من ميدان السياسة جمعا بعد أن جال فيها جولات مشهودة ، وكانت له مقابلات مع ملك الانجليز وكبار الوزراء أمثال كيرزون وهيو سيسل وبلفور وماكدونالد وغيرهم .

وانما انحاز تشسسترون الى الأحرار دون المحافظين حقبـة
بحكم طبقته ، اذ نشأ فى أسرة متوسطة الحال ، وكان معظم أبناء الطبقة
الوسطى يشايعون حزب الأحرار ، أما تشسسترون ذاته فكان أميل الى
المحافظة بل الى الرجعية : كان فى طباعه رجلا عاديا يحب الحياة العادية
فى المدينة ، ولا يرى من وجوه النقص فى الحياة الراحنة مثل ما يجد
شو الدائب النقد والطنن ، فهو يعيب على شو أنه صعب ارضائه ، واذا
وجد تشسسترون للحياة الحاضرة عيوباً فهى مخالفة للعيوب التى تتقضى
بها عين شو ، بل هى مضادة لها : شو يرى المجتمع الانسانى الحاضر
متأخرا عما يجب ويقول : اما أن ينهض الانسان بالعبء الذى اختارته له
الطبيعة ، عبء تعمير هذه الأرض ونشر المدنية الصحيحة فيها ، واما أن
الطبيعة تنحيه وتختار لهذا العمل حيوانا سواء أصلح . أما تشسسترون
فلا ينظر الى المستقبل على هذا النحو بل ينظر الى الماضى ، ولا يرى المجتمع
متأخرا عن المدى الذى يجب أن يقطعه ، بل يراه قد جاوز الحد فى سيره
وعليه أن يقفل راجعا ، الى أين ؟ .

الى العصور الوسطى : حين كانت الحياة بسيطة غير معقدة ، حين لم
تكن الآلات تتخيم المدن وتخلق الحياة الروحية ، حين كانت القرية الصغيرة
لا المدينة الرحبة وحدة المجتمع ، وحين كانت المسيحية هى الوطن وهى
الدولة ، وهى نبراس الناس فى تفكيرهم وفى فنونهم وآدابهم ، وهو
يشمر عن ساعد العزم للدفاع عن العصور الوسطى ضد من يتهمونها
بالنوحش أو بالجهل أو بعقم الفن أو الأدب ، ومما كتبه فى هذا الصدد
كتاب عن القس المشهور القديس فرانسيس آسيسى ، والفيلسوف
المسيحى المشهور أيضا توماس أكويناس ، فاذا وجد كل من شو وولز
« طوباه » أو مدينته الفاضلة فى المستقبل ، فان تشسسترون يجدونها
فى الماضى .

يدافع تشسسترون بهذه الحماسة عن العصور الوسطى التى
تسمى احيانا بالعصور المظلمة ، لفرط ما نفر الناس منها ومن ذكرها .
وبمثل هذه الحماسة يدافع عن العصر الفكتورى الذى أمعن شو وولز
وأمثالهما فى التهمك عليه والتحقير له والكشف عن مساوئه ، فهو يدافع عن
فضائل الفكتوريين من حب الاحتشام والوقار والاعتزاز بالمهنة والاعتداد
بالطبقة التى يمت اليها المرء ، والتى كان التعليم يطبعها بطابع خاص باق .
وبدافع عن المعلم فى العصر الفكتورى الذى كثرت حملات الجاهل عليه ،
فيقول ان معلميه اكتشفوا مواهبه الأدبية ، وشجعوهوا وتعهدهوا ،
حين لم يكن هو نفسه يفتن اليها أو يهتم بها ، ولغرامه بذلك العصر كتب

ترجمة لاثنين من فحول أدبائه . هما الشاعر براوننج والقصصى دكنز ، وكلاهما يشبهانه فى نزعة التفاؤل ، ويشبهه دكنز خاصة فى ديمقراطية نظرتة والتفاته الى حياة الرجل العادى . واعتقاده أن تلك الحياة العادية تقدم أكبر الفرصة لصوغ المأساة .

وكان حريا أن يقع الصدام بين تيسنرتون وبين مملى نزعة التطور والتجديد ، وكان تيسنرتون البادى ، اذ نشر كتابا سماه « الهوانفة » تقدم فيه مذهب العصريين وعاب تهورهم فى كسر الحواجز وهدم الحدود ، ونيل العقائد ، فالمرء فى نظره لا يحبا بغير عقيدة ، والمادية عقيدة من يعتقدون ألا عقيدة لهم ، وأنهم تحرروا من جميع القيود والأنيار . وكان شو وولز خاصة هدف سهامه فى هذا الكتاب ، رغم ما كان بينهما وبينه من صداقة واعجاب كل واحد من الثلاثة بالآخرين كل اعجاب ، فلما دعاهما وأتباعهما بالهراطقة سألوه اذ لم ترقه عقيدتهم أن يبدى لهم ما عنده هو من عقيدة وفلسفة ، فما كان اسرعه فى اخراج كتاب « السنة » يشرح فيه مذهبه المستند الى الدين المصطنع بالكاثوليكية المعتمد على التفاؤل القتال بحرية الاختيار المنادى بالرجوع عن الطريق المادى المهور الذى اندفع فيه العالم منذ القرن الثامن عشر .

ومن أقوال تيسنرتون الجامعة لمذهبه فى هذا الصراع الذى دار بين القديم والجديد ، بين دعاة التطور وزعيم المحافظلة على التقاليد ، بين الداعين الى المستقبل والداعى الى الماضى ، قوله فى وصف أتباعه اتباع التطور السريع والهدم الذى لا يبقى ولا يذر : « فالاحاد نفسه فى نظرنا اليوم ذو صبغة دينية لا تطاق ، والثورة ذاتها نظام لا يحتمل ، والحركة نفسها تشمل قيودا لا صبر لنا عليها ، ولسنا نقبل احكاما عامة . وقد عبر ميستر برنارد شو عن هذا المذهب فى صيغة محكمة قال : « ان القاعدة الذهبية أنه ليست هناك قاعدة ذهبية » ، ونحن نزداد كل يوم ملا الى مناقشة التفاصيل فى الفن والسياسة والأدب ، ونهتّم مثلا برأى المرء فى الترام أو فى المصور بوتيتشيل ، أما رأيه فى كل شىء فلا يهم ، وندعه يبحث وينقب فى مليون من الأشياء ، ولكن لا نرضى أن يهتدى الى ذلك الشىء الغريب - الكون ! لأنه ان فعل صبار له دين وبذلك يضل ، فكل شىء يهم - ما عدا كل شىء .

وكان انتاج تيسنرتون الأدبى متنوعا ننوعا بعيدا المدى ، كتب الاشعار والقصص القصيرة والظولية والمقالات والتراجم الأدبية والتاريخية وقد ظل منذ سنة ١٩٠٥ الى مماته - أى زهاء ثلاثين سنة - يكتب مقالا

كل أسبوع بلا انقطاع لمجلة خاصة هي « أخبار لندن المصورة » ، وأسلوبه الأدبي جزل ممتع فكه يشوق القارئ حتى من غير المعتنقين لآرائه سالفة الذكر ، وكان له ولع خاص بصوغ ضرب من الجمل المتناقضة المعنى في الظاهر ، يريد بذلك الاغراب وادخال الروعة في قلوب قارئيه ، كقوله في النبذة سالفة الذكر : « فكل شيء يهم ما عدا كل شيء » وقوله وهو يريد اثبات أن العقل وحده لا يجدى المرء دون الاعتماد على المحسوسات وانتزاع النظريات والأمثلة من الواقع المتحجر : « ان الرجل المجنون هو رجل قد فقد كل شيء الا عقله » ، ومن توخيه المبادهة والاغراب قوله وقد عجب بعض الناس من عدم تخلييف الرومان آثارا في انجلترا : « كيف لا ؟ اننا معشر الانجليز كلنا آثار رومانية » وقد طغت هذه النزعة الى الاغراب والتناقض على كتاباته في آخر أيامه حتى ردت كثيرا منها مستثغلا محنتها .

والحق أن كتابات تشستر تون في شتى المناحي سالفة الذكر كثيرة جدا مترامية الأطراف ، ولكن كثيرا منها صحافي الصبغة زائل الألوهية ، يموت - بل قد مات - بمضى ظروفه الأدبية أو السياسية ، وكثير من الباقي هراء ممجوج ، ولكن كثيرا جدا مما كتب يحوى فكرا صائبا وأدبا جميا واسلوبا رفيعا ، وبعضه يستحق الخلود . وتشستر تون فوق هذا له فضل عظيم على الجيل الذي عاش فيه : بحمله لواء المحافظة بل الرجعية في وجه دعاة التجديد المغرق والهدم الذريع ، اذ كان لمواقفه وحملاته أثر عظيم في تخفيف غلواء المجددين والاشارة الى أخطائهم والاعراب عن موقف جانب من الشعب تجاههم . ولعل تشستر تون وان لم يبلغ عبقرية شو ولا ولز قد كان أحب الى قلوب أكثرية الانجليز من أى منهما ، لما يمتاز به درنهما من الطبع الانجليزى الأصيل وما يتفرد به عنهما من تمثيل جبال الشعب الانجليزى الوئيد الحركة المحافظ النزعة .

الفن يعيد نفسه

من الأمثال السائرة أن التاريخ يعيد نفسه ، وذلك أن الناظر في صفحات التاريخ لا يزال يعثر بظواهر متشابهة وحوادث متماثلة ، من عصر إلى عصر ومن إقليم إلى إقليم ، وهذه الظواهر المتماثلة هي التي تقوم عليها قوانين فلسفة التاريخ ، كتلك القوانين التي يحفل بها كتاب مقدمة ابن خلدون ، فكثير مما ذكره ذلك المؤرخ الكبير من نظريات عن الدولة ونشوتها وتطورها وعوامل ارتقائها وانحطاطها وما تمر به من أطوار الحضارة والثقافة وال عمران - كل ذلك يصدق على شتى الأمم التي عرفها ابن خلدون وأرخ لها ، وتلك التي لم يؤرخ لها ولم تكن قد ظهرت بعد في عهده . والقول السائر بأن أفريقيا (بلاد الاغريق) المقهورة في الحرب قهرت الرومان قاهريها في ميدان العلم والحضارة والفن ، قول يصدق . أتم الصدق على ما كان بين العرب والفرس بعد الفتح الاسلامي الفارس .

وانما تتماثل ظواهر التاريخ وتكرر حوادثه لأن الطبيعة البشرية واحدة في أي عصر كانت وبأي إقليم استوطنت ، والمجتمعات البشرية التي هي نتيجة لهذه الطبيعة البشرية تتماثل الظواهر التي تبدو فيها في شتى مناحي العمل والفكر والنزعات والصناعات والفنون ، ودواعي السلم والحرب ، ولا يختلف جيل عن جيل ، ولا شعب عن شعب إلا اختلافات عرضية والجوهر واحد ، وهذا التماثل في الظواهر والأحداث هو ما يشير إليه ذلك المثل السائر ، وإن كان مصوغا في صيغة عليها سيماء الاغراب ، مما نجعل بعض الناس يتخذون صحنه ويتشككون في صدقه ، وهكذا شأن الانسان إذا استخلص الحكمة أو العبرة من تجاربه ومشاهداته مال بطبعه إلى صوغها في أوجز لفظ وأروع ، ولو بدت الحكمة اذ ذاك في صورة قريبة من الاغراب أو المفارقة ، وهذه السيماء تدعو أحيانا إلى رفضه أو التشكيك في قيمته ، بيد أنه مما لا شك فيه أن التاريخ يعيد نفسه على النحو الذي فسرناه .

ويحق لنا أيضا أن نقول ان الفن يعيد نفسه على ذلك النحو أيضا ، ومثل هذا السبب المتقدم ذكره ، وهو تماثل النفس البشرية في طباعها في شتى العصور والشعوب ، وهل يعبر الفن في أي عصر أو قبيل إلا عن الحب

والالام والكراهية واللذة والذكريات والأمانى والتساؤل والتعجب والتفكير
فى شؤون الكون والحياة ، وما يدخل تحت هذه الموضوعات من أمثالها
وسا يلحق بها من أشباهها ؟ واذ كان شعور النفس الانسانية فى كل
العصور وعكسها لتأثير البيئة المحيطة بها واحدا ، وكان الفن هو المعبر عن
منه الشاعر ، كان حريا أن يعيد نفسه من جيل الى آخر ومن أمة الى
سواها ، رغم تطور الأحوال قليلا وتغير الأزياء ، وتبدل طرق التعبير
واوضاع الفنون .

فكم من شاعر مثلا وأديب وقصصى تحدث عن جمال الطبيعة أو لوعات
اللب أو حركات فقد الأهل والأحباب ، أو شكوا خطوب الدهر ، وندب تبدل
الأحوال وعدم دوام الصفاء واغارة الليل والفناء على كل شيء ، وكم أديب
او مفكر صرف مقلتيه فى هذا الكون المترامى الأطراف ، يحاول النفاذ الى
اسراره وبواطنه ، وأطال التفكير فى مصير الانسانية ومآل العالم ، ووازن
بين قصر حياة الانسان وخلود معالم الكون وآثار الطبيعة ! هذه كلها
موضوعات خبت فيها وأوضحت السنة الشعراء وأقلام الكتّاب من قديم ،
ولم يكند المتأخر يعدو أن يقول ما قال المتقدم فى صورة جديدة وزى قشيب .

وأحظى الغرائز باحتفاء الأدباء من قديم هو الحب طبعاً ، وموضوعاته
ومعانيه المترددة المتكررة أشهر من أن يشار اليها أو يقتبس منها ، ولكن
هناك غرائز وعواطف أخرى أولع الأدباء بعرضها فى شتى الصور ، ومنها
الغيرة والحسد والسعاية والبخل والتفاخر بالنعمة المجددة ، فالبخل
أوسع شعراء العربية وصفا وتهكما وتفنيدا كلما خاب ظنهم فى ممدوحهم
المتصفين بتلك الخلقة ، وقد صور الجاحظ صورا من البخل فى كتابه
المعروف ، وصور موليير صورة أخرى لبخيل آخر ، ورسم شكسبير
الصورة المشهورة لليهودى شاييلوك فى تاجر البندقية ، وللقصصى دكنز
لبخيل ذاع أمره فى المجتمع الانجليزى حتى غدا مثلاً سائراً فى البخل ،
فيقال : فلان ان هو الا « سكروج » آخر ، فيعرف المخاطب لفوره ماذا
يعنى صاحبه .

والغيرة قد صورها شكسبير واضحة فى رواية « عطيسل » حيث
تنفث سمومها المهلكة فى نفس القائد المغربى حتى تنتهى الى خنق زوجته
وهى أظهر النساء وأوفى الأزواج . وصور أناتول فرانس تأثير تلك
الغيرة القائنة فى روايته « الزنبقة الحمراء » حيث يغار بطل الرواية

من منافس له قديم قد نبذته حبيبته نبذا نهائيا ، وتوفرت على حبيبها الجديد بكل روحها مخلصا ، وصور توماس هاردى نفس تلك الازمة النفسية فى روايته « عينان زرقاوان » حيث لا يكاد « نايث » يعلم أن محبوبته التى كان افترض فيها النقاء التام ، كانت قد عرفت شابا آخر قبله . وإن كانت معرفة عابرة غير ذات أثر . حتى يهجرها هجرا قاسيا تهتز له أركان نفس الفتاة الوفية ولا تبلى من عقابيله حتى يحملها الداء الى قبر باكر . وقد عبر الشاعر العربى القديم عن شعور الغيرة الكريه فى أبيات ساذجة لا تطاول تلك الآثار الفنية سالفة الذكر ، ولكنها ليست دونها صدقا وروعة تصوير قال :

نبأوها بأننى قد تزوجت فظلمت تكاتم الأمر سرا
ثم قالت لجارة وللأخرى كمدا : ليته تزوج عشرا
وأسرت الى نساء لديها لا ترى دونهن للسرا سيرا
ما نلقى كأنه ليس منى ؟ وعظامى كأن فيهن فترا ؟
من حديث نسا الى فطيم خلت فى القلب من تلظيه جمرا

وحلول البلى وجفاف الجمال وسقوط الجبابة ونزول الهرم والعودة الى الثرى . هذه كلها موضوعات دارت على أقلام الكتّاب والشعراء فى شتى العصور ، وأبدع كل منهم فيها على طريقته وطرأه ، وما تزال رغم ذلك التكرار جديدة تسترعى الاهتمام والتأمل ، لأن دواعيها فى النفس مازالت يقظة ثائرة ، تحسر كثير من الشعراء على جفاف جمال عهدوه فى صباهم أو طفولتهم رائعا ناضرا ، ثم التقوا به بعد غياب سنين فإذا هو ذاو ذابل ، ومن ذلك الباب قصة صغيرة لموباسان على ما أذكر يصف فيها فتاة عرقها كاعبا رشيقا تطفر كالغزال ، ثم لقيها بعد سنوات ، فإذا هى امرأة ذات بعل وبنين بدينة ثقيلة الفهم والحراك ، وهو يعجب لقيمة ذلك الجمال الذى لا يدوم من عهد نضجه الى عهد ذبوله أكثر من عشر سنوات . وفى كتاب « صديقى » يصف أناتول فرانس فتاة جميلة أخرى عرفها «ى صغره وضاعة الجمال ، وعرف أمها تلبس السواد ، وكانت عجوزا شمطاء ، ودار الدهر دورته ، ولقى أناتول السيدة ذات الرداء الأسود وعرفتة ، وإذا هى الفتاة الفاتنة بالأمس غدت اليوم عجوزا شمطاء ترتدى السواد ، وقد سكنت أمها للحد منذ زمان .

وربما عيات عمر الخيام حافلة بهذا التأمل فى دوران الفلك وهرم الصغير وجفاف كل حسن نضير ، وللمعرى فى ذلك أشعار كثيرة منها تلك

التي فيها يتحسر على كل صائن خده عن قبلة قد سلطت الأرض على خده ،
ولكل حامل جيسده ثقل الثرى ، وكان يشكو جيسده ذاك ثقل العقد ،
ولتوماس هاردى قصيدة فى هذا الموضوع اسمها « أمابل » يقول منها :
« راقبت ضموها الخابى وآراءها العتيقة المتزمتة ، وتساءلت : أيمكن أن
تسكن أمابل فى ذلك الشبح ؟ ونظرت الى ثيابها التي كانت فيما مضى
وردية ، فإذا هى اليوم داتنة قاتمة ، كلون الأرض ، فخيّل الى ان ذلك
السبدل ينبغى الى أمابل ، وقد فقدت خطاها الآلية نشاط عهد الربيع ،
وغدت ضحكتها التي كانت قلما ترن رنينا عذبا ، كريهة ممجوجة من
أمابل ، فسألت نفسى : منذ الذى يترنم اليوم بالنشيد الذى كنت
أترنم به قبل أن تخبو حرارة هذه الحياة ، ومنذا الذى يظن أن شعره
يصف محبوبته أمابل ؟ » *

وهناك عدا هذه موضوعات أخرى كثيرة تداولتها أفكار الكاتبين
وأقلامهم من قديم كشتى ضروب الغرور والادعاء ، من تفاخر محدثى النعمة
بنعمتهم تفاخرا ساذجا ثقيل ، الى ادعاء المدعين العلم أو الفن والبصر
باللغات ، الى المتباهين برحلاتهم فى الأقطار ورؤيتهم الآثار ، الى تكلف
الأناقة فى الحديث والدلاقة فى الخطاب — لن يخلو من ذاك وأشباهه
أدب راق فى الشرق والغرب مكررا على أقلام كتاب كثيرين يمتون الى متتابع
العصور ، وان عالجه كل منهم معالجة مخالفة لسواه باختلاف مشربه
واحوال عصره .

وكم من موضوع أو فكرة عولجت على شتى الأشكال فركزها شاعر
متبلورة موجزة فى بيت شعر ، وجعلها كاتب موضوع مقالة ضافية ،
وأنشأ منها مؤلف مسرحى روايه ذات فصول ، وحاك حولها قصصى قصة
تجيش بالحركة والحياة ، كل حسب ما تنزع اليه عبقريته وتتجه اليه
ميوله وتؤهله له ثقافته ، ومن العصور ما يحفل بأحدى هذه الصور من
الأدب ، ومنها ما يتجه الى شكل منها آخر يصوغ فيه أفكاره ونظراته ،
والأفكار فى جواهرها واحدة وان اختلفت الأشكال والصور ، ومن الأدب
ما تحفل بأحد هذه الأشكال الأدبية دون غيره ، كان للشعر فى الأدب
العربى الصدارة فخص بخير انتاج الفكر العربى فى عالم الأدب ، وكان
للدراما فى الأدب الاغريقى مثل تلك المكانة ، وزادت الآداب الأوربية
الحديثة على هذه وذاك القصة المقروءة ، ففيها يسجل الكتاب اليوم كثيرا
من خواطرهم وبقواعدها يتقيدون عدا قواعد الشعر والدراما .

واذ كان الأمر على هذا النحو من التشابه بين منتجات الآداب في شتى العصور والأمم ، لتشابه دواعيها وخوافيها من الطباع الانسانية ، كانت مهمة أولئك النقاد الذين لا يحتفلون بشيء احتفالهم باتهام منقوديهم بالسرقة الأدبية وتتبع آثار جرائمهم الى مصادرها الأولى .

كانت مهمة أولئك النقاد أسهل المهمات ، فلن يعدموا تشابها بين آثار من ينقدون وبين آثار كثيرين جدا ممن تقدموه ، اذ كانت الطبيعة البشرية مستقي الجميع ومورد الأول والأخير ، وانما يحكم على الأديب بالاصالة أو التقليد بمجموع آثار ، فان كانت الآثار تنم عن شخصية قوية واضحة مستقلة فهي آثار عبقرية صادقة مهما كان هناك من تشابه بينها وبين آثار المتقدمين أو المتأخرين .

ومن أعجب ما يروى في هذا الباب ما ذكره الشاعر الانجليزي رديارد كبلنج في ترجمته بقلمه من أنه في بعض أسفاره في أمريكا لقي شابا انجليزيا راقيا لا شك في صدقه ، فقص عليه هذا الشاب قصة رائعة اتفقت له هو نفسه في بعض تلك البقاع ، وتأثر كبلنج بتلك القصة الرائعة ، واتجه ذهنه توا كعادته الى صوغ قصة منها لقرائه ، ثم شغلته عن عزمه أمور ، حتى كان يوما يتصفح مجلة قديمة العهد جدا ، فاذا هو يقع فيها على قصة مماثلة لقصة الشاب في جوهرها وتفصيلها ، يقول كبلنج متأملا : منذا الذي كان يحجم عن اتهامي بالسرقة الأدبية لو أنني كنت نفذت عزمي وحررت تلك القصة التي سمعتها من الشاب ؟

وما يصدق على الأدب من تكراره لنفسه من جيل الى جيل ، يصدق على غيره من الفنون كالتصوير والنحت ، اذ كان شأن تلك الفنون كشأن الأدب ، تستمد وحيتها وموضوعها من الغرائز والطباع الانسانية الثابتة على توالي العصور ، فكم من صورة قد صورت أو تمثال أقيم أو نقش نقش لبيان جمال الجسم الانساني ، أو جمال الطبيعة من شروق وغروب وروض وزهر وغدير وبحيرة ، وللأعراب عن حالات النفس من أمل أو يأس وحبور ، أو شجن وحزن ، أو حذب واشفاق ، تكاد تكون كل صورة أو كل تمثال لاحق نسخة جديدة من أخرى قديمة ، لولا عبقرية الفنان الكامنة ، وشخصيته المتميزة ، التي تخلع على كل ما يمس جودة ولذة

ويكفي لكني تتبين جيدا تكرار الفن نفسه على مدى العصور أن نوازنه في هذا الشأن بالعلم ، فالعلم لا يكرر نفسه أبدا إلا أن تندثر حضارة بأكملها ، وتندك معالم علومها ، ويلزم البناء من جديد . أما فيما

عدا هذه الحالة النادرة فالعلم فى تقدم مستمر ، ينظر دائما الى الامام ، ويتنكر دائما لماضيه ، وبينما يعود الفنانون عمدا من حين الى آخر الى آثار السالفين يحاكونها ويستلهمونها ، نرى العلم كلما تقدم استغنى عن ماضيه ، وغدا أصغر المبتدئين فى دراسته ، يعلمون من شتى حقائمه وقوانينه ، ما كان يجهله أرسخ علماء القديم وأعظمهم عبقرية ، أما الفن فلا يعدو أن يتبدل طرازا بعده طراز وزيا بعد زى كالشعبان ينفض ثوبا قديما ويستجد آخر .

انما يتكرر الفن لأنه يترجم عن مشاعر النفس الانسانية المتكررة ، وعن تأثر تلك النفس بطواهر الطبيعة المتكررة هى أيضا . ليست الطبيعة ذاتها دائبة التكرار لنفسها كالعجوز التى كملت ذاكرتها ، فلم تعد تذكر الا احاديث بعينها تبدى فيها وتعيد ، فنهار يتلوه خريف ، وشروق بعده غروب ، وجيل من الأزهار والنبات يخرج كل عام ويتلوه جيل جديد فى العام التالى ، وجيل من الناس يولد ويهزم ويندر ، ويتلوه جيل جديد يحاكيه فى جل أعماله ، وجيل من الحسان الفاتنات يملأ الأرض بضرة وبهاء ، ثم يذوى كما يذوى القضيبي من الرند ويهرم ويرتد بشعا ثم يذهب ويأتى سواء ، وجيل من الأطييار الصادحة تفتح عيونها كل عام للنور وتنفق بالحياة وتهزج بالأناشيد ، ثم تذهب وتحل محلها على نفس الفصون أطياف أخرى تثري مثل ثرائرها فى عبادتها للضوء والحياة .

ولست أرى جيلا من الأدب يذهب وجيلا يتلوه أمام المكاتب والأوراق والكتب والمحابر ، الا كذلك الجيل من الأطياف القصير الأعمار قائما على منابر غصونه ، كلاهما يثرثر بشعوره عن الحياة الجديدة التى أتى اليها وتفتحت عيناه فى نورها الساطع ، ثم يغفى اغفاء أبدية ، وكأنه ما كان . وكأنه ما ثرثر ، جيل الأطياف وجيل الأناسى شبيهان فى هذا ، وهما كذلك شبيهان فى أن الجيل المتأخر لا يكاد يزيد عما قال السابق له ، وإن خيل اليه فى طوبه وحبوره بالحياة الجديدة أنه يستبدع ما يقول ويرتجل ما ينشد ، وانما هو الفن الخالد يعبد نفسه على السنة جيل من الوحش والأناسى بعد جيل .

السياسة فى الأدب العربى

العرب من أشد الأمم استخداما للأدب فى شؤون السياسة ، وما سمي الشعر « ديوان العرب » الا لاحتوائه منذ الجاهلية على أيامهم ومفاخراتهم وخصوماتهم ، ومن روائع الشعر السياسى فى الجاهلية أبيات الأعشى فى يوم ذى قار ، وأبيات زهير فى حرب عيسى وذبيان ، وأبيات الأفوه الأودى فى حكومة السادة ودولة الطغام . وقد كان أمثال الأفوه . وذى الأصبع العدوانى ، وهانىء بن قبيصة الشيبانى سادة فى عشائريهم يقودونها يوم الهيجاء ويخطبونهم فى الحادث الجلل ، ويفصحون عن مشاعرهم نظما ، ومن ذلك الشعر المعبر عن مشاعر القبيلة قصيدة السمؤال التى يقول منها :

إذا سيد منا خلا قام سيد قؤول لما قال الكرام فعول
وما أخدمت نار لنا دون طارق ولا ذمنا فى النازلين نزول
وأيامنا مشهورة فى عدونا لها غرر معلومة وحجول

فلما كان الاسلام تطور الأدب السياسى لتأثر العرب بالدين والفتوح العظيمة وحياة الحضارة ، ورغم بقاء العصبية القبلية وعودتها الى الاشتداد بعد حين ، لم تعد وحدها محور الخصومات ، بل اختلط بها العنصر الدينى والنزاع على الخلافة ، وصحبها التنافر بين العرب من جهة وبين الشعوب المفتوحة من جهة أخرى .

ومن ثم حفل الأدب العربى فى الاسلام بالضرب السياسى ، بعضه يتعلق بادارة الدولة وسياسة الرعية ، وبعضه يدعو الى الدولة القائمة والخليفة القائم ويناجز أعداءهما ، وبعضه يهاجم تلك الدولة ويؤلب عليها ، واتسع ديوان الرسائل فى الدولة الاسلامية ما لم يتسعه فى غيرها ، واختار الخلفاء كتابهم ووزراءهم من بين الفصحاء المقاول (١) ، وكان هؤلاء يتألقون فى صوغ رسائلهم الديوانية تأنفهم فى الكتابات الاخوانية ،

(١) جمع مقول وهو اللسان والمقصود بها البلغاء .

على حين تكون الرسائل الرسمية في الدول الأخرى ملأى بالرموز والتعقيدات .

كان الجيل الأول من الخلفاء والولاة يتولون بأنفسهم إنشاء كتبهم ، ويخطبون الناس في مهمات الأحداث في أيسر لفظ وأجزله ، فكان على ابن أبي طالب رضى الله عنه مثلاً ينظر في شئون الرعية ، ويقود بنفسه الجند ، ويخطب الناس مبيناً حاجته داعياً إلى الجهاد ، ويملى الكتب إلى ولاته أو إلى معاوية أو غيره من مشاعبيه ، فأثر عنه من كل ذلك تراث أدبي سياسى رائع .

أما الأمويون فكانوا أقل خوضاً لمعالم القتال والبيان ، وبذلك عيهم عبد الله بن الزبير في خطبة له عقب مقتل أخيه ، وكان أفصحهم عبد الملك الذى قال ان ارتقاء المنابر هو الذى شيب فوديه . على أن الخطابة ظلت قوية إلى عهد أوائل العباسيين ، وكان المنصور من أخطب الناس وأقواهم حجة ، كما ظهر فى الخوارج خطباء مصاقع (١) وشعراء فحول ، وما اضمحل أمر الخطابة باستقرار الدولة ، الا وقد ارتفع أمر الكتابة وظهر أكابر الكتاب والوزراء .

ومن روائع الخطب السياسية قول أبي بكر :

« أيها الناس انى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فان رأيتمونى على حق فأعينونى ، وان رأيتمونى على باطل فسدّدونى . أطيعونى ما أطيعت الله فيكم ، فاذا عصيته فلا طاعة لى عليكم . ألا ان أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ الحق له ، وأضعفكم عندى القوى حتى آخذ الحق منه . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم » .

ومن محاسن الكتب السياسية كتاب على إلى معاوية يحاجه ويدعوه :

« سلام عليك . أما بعد فان بيعتى بالمدينة لزمته وأنت فى الشام ، لأنه بايعنى الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بوعوا عليه ، فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يرد ، وانما الشورى للمهاجرين والأنصار ، فاذا اجتمعوا على رجل وسموه اماماً ، كان ذلك لله رضى ، وان خرج عن أمرهم خارج ردوه إلى ما خرج عنه ، فاذا أبى قتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين ، وولاه الله ما تولى ، وأصله جهنم وبئست مصيراً » .

(١) البلقاء .

ومن نماذج تلك الكتب قول أبى جعفر المنصور من رسالة فى الرد على محمد النفس الزكية الثائر بالحجاز :

« ولقد خرج منكم غير واحد فقتلكم بنو أمية ، وحرقوكم بالنصار . وصلبنوكم على جذوع النخل ، حتى خرجنا عليهم فأدركنا بشاركم اذ لم تدركوه ، ورفعنا أقداركم وأورثناكم أرضهم وديارهم » . وهى معان رددتها فى خطبة له يقول منها : « وان أهل بيتى هؤلاء من ولد على بن أبى طالب ، تركناهم والله الذى لا اله الا هو والخلافة ، فلم نعرض لهم فيها بقليل أو كثير ، فقام فيها على بن أبى طالب فتلطح وحكم عليه الحكمان ، فافتقرت عنه الأمة واختلفت عليه الكلمة » .

ونظم ابن المعتز نفس المعانى فى أبيات يقول منها :

أبى الله الا ما ترون فما لكم	عتاب على الأقدار يا آل طالب
تركتناكم حينما فهلا أخذتمو	تراث النبى بالقننا والقواضب ؟
زمان بنو حرب ومروان ممسكو	أعنة ملك جائر الحكم غاصب
الا رب يوم قد كسبوكم عمائما	من الضرب فى الهامات حمر الذوائب
فلمما أراقوا بالسيف دماءكم	أبيننا ولم نملك حنين الأقارب
فحين أخذنا نأركم من عدوكم	قعدتم لنا توروون نار الحباب

وكانت للعباسيين حجج أخرى برع فى صياغتها والاستشهاد لها بآيات من القرآن الكريم مروان بن أبى حفصة ، قال من قصيدة يخاطب العلويين :

هل تعلمسون من السماء نجومها	بأكفكم ؟ أو تحجبون هلالها ؟
أو تجدون مقالة من ربكم	جبريل بلغها النبى فقالها ؟
نزلت من الأنفال آخر آية	بشرائهم فأردتمو إبطالها

وقال يخاطب المهدي :

يا ابن الذى ورث النبى محمدا	دون الأقارب من ذوى الأرحام
الوحى بين بنى البنات وبينكم	قطع الخصام فلات حين خصام
ما المنساء مع الرجال فريضة	نزلت بذلك سورة الأنعام
أنى يكون - وليس ذاك بكائن -	لبنى البنات وراثة الأعمام ؟
ألغى سهامهم الكتاب فحاولوا	أن يشرعوا فيها بغير سهام
ظفرت بنو ساقى الحجيج بحقهم	وغررتم بتوهم الأحلام

وقد رد شعراء العلويين عليه دعواه قالوا :

لم لا يكون - وان ذاك لكائن - لبنى البنات وراثة الأعمام ؟
للبنت نصف كامل من ماله والعلم متروك بغير سهام
يا للطلق وللثراث ! وانما صلى الطليق مخافة الصمصام

فلم نر برع من هذا سجلا ، ولا أعجب حوارا . يحتاج صاحب
العباسيين بسقى العباس للحجيج ، فيرد عليه صاحب العلويين بتسميته
بالطلق وتعبيره بالتأخر عن الدخول فى الاسلام ، ويقول الأول ان بنى
البنات لا يرتون شيئا دون الأعمام ، فيرد عليه الثانى محورا الكلام ببراعة
من بنى البنات الى البنات ، ويقول ان البنت توث النصف وتنجب الحم .

وكان الأدب المناصر للعلويين أنفوس الآداب السياسية وأصدقها
شعورا وأغزرها مادة ، لأن قضية العلويين ظلت منشورة الصحائف فى
عالم السياسة الاسلامية قرونا طويلة ، ولأن جمهور الأمة كان ميالا اليهم ،
ولأنهم طول ذلك الكفاح لم يلقوا الا الاضطهاد الشديد ، ولم يظفروا
كالأمويين والعباسيين بالحكم فترة من الزمن تتبين فيها للناس أخطاؤهم ،
ومن أشهر الشعراء والكتاب لهم الفرزدق والكميت والسيد الحميرى ودعبل
وابن الرومى والخوارزمى .

لقى الفرزدق الحسين بن على فى مسيره الى الكوفة خارجا على
يزيد ، فسأله الحسين عن حال أهلها فقال : تركت قلوب الناس معك
وسيوفهم عليك ، ونصحه بالرجوع ، فأبى وتابع سيره الى كربلاء ، وكان
الفرزدق بعد ذلك بسنين طويلة يطوف بالبيت الحرام ، وكان فى الطائفتين
الخليفة هشام بن عبد الملك ، وعلى بن الحسين المعروف بزين العابدين
الذى كان أسر فى كربلاء صبيا ، ونشأ سيد الناس جمالا وخصالا وعفة ،
ورأى هشام الناس تفسخ الطريق لزين العابدين وتلقاه بالاجلال ، فغار
وتساءل متجاهلا : من هذا ؟ فنظم الفرزدق ميميته التى مطلعها :

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم
ومنها :

فليس قولك من هذا بضائره العرب تعرف من أنكرت والعجم
أما الكميت فألف ديوانا كاملا فى آل البيت تعرف قصائده
بالحاشميات ، نظم فيها ولاءه لهم وأيد حقهم فى الخلافة ، وندد بغاصبيها

الأمويين ، ومدح رجالهم وذكر أيامهم وتفجع لآسيهم ، ومن محاسن أقواله
فيهم بآيئته الطويلة التي يقول منها :

بختكم غصبا تجوز أمورهم	فلم أر غصبا مثله يتغصب
بحقكم أمست قريش تقودنا	وبالفد منها والردفين تركب
إذا اتضعونا كارهين لبيعة	أناخوا لأخرى والأزمة تجذب
وقالوا ورثناها أبانا وأمننا	وما ورثهم ذاك أم ولا أب
يرون لهم حقا على الناس واجبا	سفاهنا وحق الهاشميين أوجب

وكان دعييل الخزاعي يمقت العباسيين ويهجوهم جهارا ، هجا الرشيد
وعجب من أن قبره وهو قبر شر الناس يجاور بطوس قبر موسى الرضى
العلوى وهو خيرهم ، وهجا المأمون وفخر عليه بأن قبيلته قتلت أخاه
وشرفته بمقعد ، وذلك لأن طاهر بن الحسين قائد المأمون كان مولى لخزاعة ،
وهجا المعتصم ثامن العباسيين وشبهه بكلب أهل الكهف ، كما سلب
لواذع سمخه على إبراهيم بن المهدي وعلى المتوكل ، وفي الوقت نفسه
كان لا يالو العلويين مدحا وولاء ، ولا ينفك يتحسر على مصايرهم المفجعة ،
فمن ذلك قوله :

وليس حى من الأحياء نعلمه	من ذى يهان ومن بكر ومن مضر
الا وهم شركاء فى دمائهم	كما تشارك أيسار على جزر
قتل وأسر وتحريق ومنهبة	فعل الغزاة بأرض الروم والخزر
أرى أمية معذورين ان قتلوا	ولا أرى لبنى العباس من عذر

ومع أن ابن الرومى كان مولى لبعض بنى العباس كان هواه مع
العلويين ، وأروع ما نظم فى الولاء لهم جيميته الفاخرة التي رثى بها فى
شبيبته علويا خارجا يدعى الحسين أبا يحيى ظفر به العباسيون ونكلاوا
به ، فتجددت لنكبته أشجان المسلمين من أجل العلويين ، ومن هذه
القصيدة يقول ابن الرومى :

بنى المصطفى اكم يأكل الناس شلوكم؟	لبلواكم عما قليل مفرج
أما فيهم راع لحق نبيه	ولا خائف من ربه يتخرج ؟
لقد عمهوا ما أنزل الله فيكم	كان كتاب الله فيهم ممحج
الا خاب من أنساه منكم نصيبه	متاع من الدنيا قليل وزبرج

ولأبى بكر الخوارزمى رسالة بليغة فى التفجع لآل على والنقمة على العباسيين يقول منها عن هؤلاء : « يقتلون بنى عمهم جوعا وسغبا ، ويملاؤن ديار الترك والديلم فضة وذهبا ، يستنصرون المغربى والفرغانى ، ويجفون المهاجرى والأنصارى ، ويولون أنباط السواد وزارتهم ، وقلق العجم والطماطم قيادتهم ، ويمنعون آل أبى طالب ميراث أمهم وفى جدهم » .

وكان من العباسيين من يعنف على العلويين كأبى جعفر والمتوكل ، ومنهم من يحسن اليهم كالسيفاح والمهدى ، ومال الخلفاء منذ تدهور الخلافة الى استصلاح الطالبين ومنحهم حقوقا ، وجعلوا لهم نقابة كان صاحبها الشريف الرضى على عهد الخليفة الطائع ، وكانت للشريف فيه مدائح يعتز فيها بنسبه فى الوقت عينه ، ومنها قوله :

مهلا امير المؤمنين فاندسا فى دوحة العلياء لا نتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت أبدا كلانا فى المعالى معرق
الا خلافة ميزتك ، فأننى أنا عاطل منها وأنت مطوق

وترى للشريف أبياتا أخرى يحن فيها الى الخليفة العلوى الفاطمى بمصر . والحق أن قيام الدولة الفاطمية بمصر تعين حدا فاصلا فى تطور الأدب السياسى الشيعى ، كان هذا الأدب الى هذا العهد حزينا باكيا لما طال على العلويين من اضطهاد وتنكيل ، ثم تغيرت هذه النغمة بظفر الفاطميين وتأسيسهم دولة تناهض دولة العباسيين ، فتغنى مادحهم بالظفر والغلب ، يتجلى ذلك فى قول ابن هانىء الأندلسى :

يقول بنو العباس قد فتحت مصر فقل لبنى العباس قد قضى الأمر
فلا تكثروا ذكر الزمان الذى مضى فذلك عصر قد تولى وذا عصر

وكانت الدعوة العلوية لما عاثته من كبت وقسوة قد اندفعت الى الغلو وامتزجت بالسرية ، واتسمت عقائد الشيعة بالجموح ، وبذلك اتسمت أشعار مداح الفاطميين وأولهم ابن هانىء الأندلسى وآخرهم عمارة اليمنى ، وفى أشعارهم نظم لكثير من عقائد الشيعة فى الامامة والرجعة وغيرها .

وقد لجأ الشعراء منذ صدر الاسلام الى نظم عقائدهم الدينية والسياسية ، فنظم الشيعة والمرجئة والمعتزلة غير قليل من آرائهم فى

ديباجة رائقة معجبة ، قال كثير عزة يروى عقيدة الشيعة في حصر الخلافة
في علي وأبنائه الثلاثة الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية ، وقولهم ان
مجددا هذا لم يمت ، وانما هو متغيب ، وسيرجع فيكون هو المهدي الذي
يملا الأرض عدلا :

ولا ان الائمة من قریش	ولا الحق أربعة سواء
على والثلاثة من بنيہ	هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسيب سبب ايمان وبر	وسبب غيبته كربلاء
وسبب لا يذوق الموت حتى	يقود الخيل يقدمها اللواء
تغيب لا يرى فيهم زمانا	برضوى عنده غسل وماء

وقال ثابت قطنة في مبادئ المرجئة :

نرجى الأمور اذا كانت مشبهة	ونصدق القول فيمن جار أو عندا
المسلمون على الاسلام كلهم	والمشركون استبوا في دينهم قددا
ولا أرى أن ذنبا بالغ أحدا	م الناس شركا اذا ما وجدوا الصمدا
لا نسفك الدم الا أن يراد بنا	سفك الدماء طريقا واحدا جددا

وقال صفوان الأنصاري يصف أحوال المعتزلة ومساعيهم لنشر
دعوتهم ويمدح زعيمهم واصل بن عطاء :

له خلف شعب الصين في كل ثغرة	الى سوسها الأقصى وخلف البرابر
رجال دعاة لا يقل عزيمهم	تهكم جبار ولا كيد ماكر
اذا قال مروا في الشتاء تطاوعوا	وان كان صيفا لم يخف شهر ناجر
بهجرة أوطان وبذل وكلفة	وشدة أخطار وكد المسافر

وبينا أتباع هذه المذاهب يهتمون بالمبادئ الدينية ويجدون في
تأييدها ، كان آخرون مشغولين بالمنافرات العصبية التي احتدمت على
عهد الأمويين ، وكان فرسانها المجلون جريرا والفرزدق والاخلط ، وكان
العرب من جانب والشعوب الأخرى ولا سيما الفرس يتفاحرون
ويتخاصمون ، وكان شعراء الفرس أشد احتداما في تلك المعركة لانتمائهم

الى الشعب المغلوب على أمره ، ومن أجمع ما قالوه فى هذا الباب قول المتوكل الشاعر :

أنا ابن الأكارم من نسل جم وحائز اوث ملوك العجم
ومخين الذى باد من عزهم وعفى عليه ظنوال القدم
وطالب أوتارهم جهرة فمن نام عن حقهم لم أنم
معى علم الكايبان الذى به أرتجى أن أسود الأهم
فقل لبنى هاشم أجمعين هلموا الى الخلع قبل الندم

وكان العرب من جانبيهم يحسون بالخطر من تدخل الفرس أولا والترك ثانيا فى شؤون الدولة ، وكان منهم من يتهمون البرامكة بالكيد للدين والرغبة فى إعادة ملك الفرس ، وبذلك اتهم الفضل بن سهل ، ودبر قواد المعتصم العرب مؤامرة لاغتياله هو وقواده الترك ، ويتمثل تملل العرب من تغلغل النفوذ الأجنبى فى دولتهم فى قول يزيد المهلبى يخاطب العباسيين من مرثية للمتوكل :

لما اعتقدتم أناسا لا حلوم لهم ضعتم وضيعتم من كان يعتقد
ولو جعلتم على الأحرار نعمتكم حمتكم السادة المذكورة الحشد
قوم هم الجذم والأنساب تجمعهم والدين والمجد والأرحام والبلد
إذا قرئش أرادوا شه ملكهم بغير قحطان لم يبرح بها أود

ان للدولة الاسلامية خصائص تميزها فى الحضارة والثقافة والتاريخ عن سائر الدول ، ومن تلك الخصائص اختلاط الدين بالسياسة فيها أشد اختلاط ، واختلاط الدين من جهة أخرى بالفلسفة واختلاطه بالدولة ، واختلاط الأدب بهذا جميعه ، فكان الأدب بعد الاسلام كما كان قبله ديوان العرب .

وهذا الاختلاط بين الدين والسياسة والأدب والفلسفة يجعل الباحث فى أحد تلك المناحى يلم بباقيها ، وكثيرا ما يرى أن أعلام هذا المنحى من النشاط الفكرى هم أعلام بعض المناحى الأخرى ، فشخصية على بن أبى طالب رضى الله عنه مثلا تصادف الدارس للأدب العربى ، كما تصادف الدارس للتاريخ الاسلامى ، كما تصادف الناظر فى السياسة والفرق والمذاهب .

ولهذا كان الأدب العربى من أدل الآداب على تواريخ الشعوب ،
 وكانت الحقائق التى يمكن استخلاصها من كتبه عن سياسة العرب
 ومجتمعهم من أمتع الحقائق وأنفعها ، ولما تجد ملكا فى أمة أخرى يوصى
 عامله بمثل ذلك الكتاب البليغ الذى أوصى به عمر بن الخطاب رضى الله
 عنه أبا موسى الأشعري ، أو تجد واليا يستنهض مليكه الى مسائل السياسة
 والحرب بمثل الشعر الرصين الذى استنهض به نصر بن سيار مروان
 ابن محمد الى قتال أهل خراسان ، ومن ثم كانت كتب الأدب العربى كتب
 تاريخ وأدب معا .

فن الحياة

فطن الناس من قديم الى ما فى الحياة من مظاهر الجمال وأولعوا به ، وتغنوا بحبه المركب فى نفوسهم ، وقصروا على ذلك الشغنى بجمال الحياة فنونا عرفت بالفنون الجميلة ، هى الشعر والموسيقى والتصوير والرقص والنحت وما جاراها ، اليها يفزعون كلما نفضوا أيديهم من طلب الرزق ، وإلى مناجاتها يستريحون كلما أثقلتهم هموم الحياة ، فالفن عندهم جزء من الحياة ، وان كان أحب أجزائها الى نفوسهم ، والجمال جانب واحد من الحياة ، وقد شابهت لها جوانب أخرى عديدة ، والفن كمالى يستأثر من وقتهم بساعة ، وان كانت أحب الساعات .

تلك كانت فى أغلب الأحوال نظرة الناس الى الفن ، وتلك كانت نظرة أكثر كبار رجال الفن أنفسهم ، كانوا مهما سميت آثارهم فى عالم الفن وتعددت ، تعج حياتهم العادية بمناحي البؤس وأسباب الشقاء ، ويحفل الوسط الذى يضطربون فيه بمظاهر القبح والسيء ، وتركت تلك الحياة الشقية القبيحة أثرها فى مخيلاتهم التى تحفل بالشكوى والتوجع والقنوط ، وانتهت أيام كثير منهم انتهاء فاجعا ، وما ذاك الا لأنهم عرفوا الفن وجهلوا الحياة ، لأنهم قصروا الفن على جانب واحد من شتى جوانب الحياة ، لأنهم حصروا جمال الحياة فى باب أو أبواب معدودة ، جعلوها موضوع فنه ، ثم أهملوا بقية الجوانب ، فلم يروا فى الحياة بعد ذلك الا قبحا وشقاء .

أجل ، لقد اصطلح أرباب الفنون من قديم على منح من الحياة ، عدوها مظاهر الجمال ، وتوفروا على تصويرها وأهملوا أو كادوا ما عداها . وكم حفلت أشعار الشعراء وصور المصورين بأوصاف الطبيعة والجسم الانسانى ، وبأواعج الحب والحنين والذكريات ! فهل حب المرأة والشغف بمحاسن الطبيعة هما كل ما يتحرك له وجدان الانسان ؟ وهل العيون والشغور والنجوم والأزهار قد استبدت بالجمال ، فلا تستريح النفوس الى سواها ، ولا يتغذى الشعور بغيرها ؟ ان الجمال الذى تهوى اليه الأفئدة ليتجسم فى هذه المجالى حقا ، ولكنه غير مقصور عليها ، وانما

هو منبث في كل مظاهر الطبيعة ومناحي الحياة ، كائن حيث أرادته
الانسان وسعى اليه .

الجمال كائن في كل مظاهر الحياة ، والحياة كلها جميلة في عيني
من أرادها ، وتهدى الى محاسنها بنفاذ البصيرة ، وعمل على تجميلها
وتدارك هناتها بثاقب نظر ولطافة حس ، والفنان الحق من لم يقصر فنه
على قصيد ينظمه ، أو لحن يردده ، أو لوحة يصورها ، بل شمل الحياة
كلها بنظرته وشعوره ، ونشر رواق الجمال على أيامه كلها حيث أقبل
في الحياة وأدبر ، واتخذ الحياة كلها قصيدة يعالجها ، أو نعمة يؤلفها ،
أو منظرا يتفنن في ابتداعه . الفنان الحق هو من عرف فن الحياة ، أى
من عاش عيشة فنية يشملها الجمال ، وإن لم ينظم بيتا ولم يخرج للناس
لحنا ولا صورة في قرطاس .

وللفن أصول معروفة ، فهو يقصد الى الجمال دائما ، وهو عملية
واعية مقصودة لذاتها ، يتصرف فيها الفنان بما يدور في نفسه وتحت
حسه من مشاهد ومشاعر ، فعلى من أراد الحياة الفنية أن يتبع هذه
الأصول : ينزع الى الجمال في كل ما يمارس من شؤون الحياة ، ويؤلف
عناصر حياته تأليفا واعيا مقصودا ، يستبعد كل بغيض وناب ، ولا يستبقى
الا كل متنسق ملئ ، وهذا التبصر الدائم في تنسيق أجزاء حياة المرء
والملاءمة بين عناصرها ، هو أول شروط النجاح في الحياة ، وليس يرجع
شقاء الكثيرين في حياتهم أو ملالهم منها الا الى اغفالهم ذلك التبصر الدائم
والتنسيق المتتالي لعناصر حياتهم المادية والفكرية وتركهم الأمور على
غواربها .

والجمال الذى يروعنا في الطبيعة ويقوم الفن على أساس منه ،
انما يتألف من عناصر الانسجام والائتلاف ، والتقابل والبساطة ،
والاستقامة والصحة ، والحيوية والقوة ، ومباشرة الطبيعة ، والسليقة
القوية . فاذا نحن أشعنا هذه العناصر في حياتنا أشربناها الجمال ،
ونشرنا عليها سمة الفن ونهجتنا بها سبيل السعادة . ولن تكون سعادة
صحيحة بغير جمال ، ولن ترى شقيا متعبرا الا لأنه أغفل بعض عناصر
الجمال هاتيك ، فأفقرت منها حياته ، فأشقاها ما فيها من قبح ونبو
وشذوذ ، وقاسى من جراء ما بها من منادح افراط أو تفريط .

لكى تكون حياتنا سعيدة يجب أن نجعلها فنا ، يجب أن نعالجها
معالجة الفنان قطعة فنية ، يجب أن نقصد فيها الى الجمال دائما ، وأن
ننشر عناصره في نواحيها المادية والمعنوية ، يجب ألا نفكر الا فيما هو

جميل وسام ونبيل ، يجب أن نترفع عن الهين والصغير ، ونعزف بأنفسنا عن كل ما هو مناقض لعناصر الجمال سالفة الذكر ، ونصد عما من شأنه أن يخرج بنا عن نهج البساطة والاستقامة والصحة والقوة ، أو يميل بنا الى التواكل والرخاوة والشذوذ والنبو .

وإذا كان التناسب والتقابل والائتلاف من عناصر الجمال وأسس الفن ، كان علينا أن نتوخاها في حياتنا ، ننال من كل غرض نبيل بقدر ونلزم سبيل القصد ، نوازن بين العمل والاستجمام ، ونناسب بين التفكير والعمل ، ونؤلف بين اللذة والألم ، ونقصد في الاجتماع بالناس وطلب الوحدة والبعد عنهم ، ونقسط في قسمة رعايتنا واهتمامنا بين العقل والجسم ، وبين الحاسة والذهن ، ونتوسط في الميل بين العقل والعاطفة ، ونعتدل بين مشاركة الناس شعورهم والاستقلال عنهم بأرائنا ، ونلزم الحزم في طلب المال الذي هو قوام الحياة ، وفي انفاقه في وجوهه ، نؤلف بين هاتيك العناصر التي تتكون منها حياتنا ، فتجىء حياتنا كالقطعة الفنية المجودة المنسجمة ، وما نتيجة ذلك الا أن تكون سعيدة .

وكثير من الناس توفرت لهم عناصر الحياة وأسباب السعادة ، وهم مع ذلك أشقياء ، لأنهم جهلوا فن الحياة وعجزوا عن تأليف قطعة الحياة الفنية والمناسبة بين عناصرها ، فاذا فيها اقواء أو استطراد كالذي يعيب القصيدة ، واذا فيها نشاز ونبو كالذي يعيب اللحن ، فمنهم من شقى لأنه أسرف في العمل وأهمل الاستجمام ، فكذ ذهنه وأعل جسمه ولم يغن عنه جده ، ومنهم من شقى لأنه أهمل العمل واستناب الى الراحة ، فملكه الضجر وثولاه القنوط ، ومنهم أشقياء لأنهم انصرفوا سراة (معظم) حياتهم الى حياة الفكر وحدها ، حتى اكتظت أذهانهم ، وترهلت أبدانهم ، وحسدوا رجال العمل على نشاطهم واقتدارهم على الخلق والتنفيذ .

ومن الناس أشقياء ما تزال الأحزان تلاحقهم ، وكأنما تلح عليهم عن قصد وعمد ونكاية ، وما ذاك الا لأنهم استنابوا اليها واستسلموا لها ، وكان أولى اذا نزل بهم خطب أن يتدروا العزم ويستخلصوا ما فيه من درس وعبرة ، فلا يخرجوا منه الا أبصر بالحياة وأقدر على كفاحها ، فلما استنابوا الى الأحزان صارت الذلة لها والمسكنة طبيعة فيهم ، وصار الهم خدنا لهم ، يفقدونه اذا غاب عنهم ويكادون يسعون اليه سعيا ، ويغضبون بعودة أسبابه اغتباطا ، وأكثر من هؤلاء شقوة من أرادوا العيش كله لذة ومتاعا ، فسرعان ما يشمو (أنخموا) من اللذات وما يريدون عنها

اقلاعا ، انما يمنعون فيها تماديا ، ويتكلفونها تكلفا ممقوتا ، لا يرد عنهم
المال طويلا .

وأسرف كثيرون — منذ تحضر الانسان وسكن المدن — فى رعاية
العقل ونبد الجسم وتحقيره ، حتى تعاورته العلل والأسقام ، واحتاجوا
الى الاستكثار من الثياب لا ليدفعوا بها حرا ولا بردا ، ولكن ليستروا
جسوما ألوى بها الاهمال ، فارتد منظرها مشوها منفرا ، بعيدا كل البعد
عن الجمال والفن ، ومن التناقض البين أن يزعم المرء أنه كلف بالجمال ،
معنى به فى مظاهر الأرض والسماء ، وفى آثار الفنانين ، وقد حرم بدنه
هو نفسه أبسط أسباب الجمال والصحة والاستقامة ، وما ذاك الا اثر
من آثار الحياة غير الفنية التى يحيها أكثر الناس مهما نالوا من تثقيف
وتهذيب .

ومن أظهر أسباب الشقاء التنازع بين العقل والعاطفة ، فكثير من
الناس ولا سيما البسطاء ، ومن لم ينالوا حظا من التعليم ينقادون
للعاطفة انقيادا يوردهم موارد العطب ، وآخرون ممن أصابوا غاية من
التثقيف وطمحوا الى التسامى فى كل الأمور ، يحاولون تحكيم العقل فى
كل أمر وكبت العاطفة ، وتسلك التقاليد فى هذا الصدد أحيانا سبيل
التعسف ، تنقاد لعواطف بلهاء أحجى أن تقمع ويغلب عليها العقل ،
وتضرب الحجب والأسداد على عواطف هى أجدر بالتعهد والرعاية ، وفنان
الحياة الحق من أحسن التوفيق بين أوامر العقل ومطالب العاطفة ، فمال
مع ذلك مرة ومع هذه أخرى وفق ما يقضى به الطبع السليم ويتطلبه فن
الحياة ، فان حياة يتحكم فيها العقل وحده لجافة مقفرة ، كما أن حياة
منساقفة فى تيار من العواطف متدافع ، هيهات أن تكون سعيدة أو ناجحة
مثمرة .

وما أكثر من يشقون لاستعباد المال نفوسهم حتى يلوى وجوههم
عما عداه من مطالب الحياة ، فهم من أجله مضحون بالوقت والجهد ،
مهملون حق أنفسهم على أنفسهم وحق الناس عليهم ، وهم يجدون فى ذلك
ولا شك بعض اللذة والسعادة ، ولكنها لذة منغصة ، وسعادة ولا شك
ناقصة أفحش نقص ، وإذا كانت عبادة المال تشقى هؤلاء فان الجاهل
بقدره يشقى قوما آخرين لا يقلون عددا ، فان المال قوام الحياة وأساس
النجاح ودعامة الاستقلال الفردى وحصن الكرامة الشخصية ، ولا مجد
فى الدنيا لمن قل ماله كما قال المتنبى ، والجاهل بقدر المال المبذر له فى
غير وجوهه لن ينال السعادة ولا النجاح ، وسيقعد يوما ملوما محسورا ،

انما يقتضى فن الحياة التوسط فى الحرص على المال والزهد فيه ،
والاعتدال فى طلب النفع المادى والغنى الأدبى .

وتنظيم علاقة المرء بمجتمعه خير محك لمقدرة فنان الحياة ، فالانسان
حيوان اجتماعى ، والراهب أو المنشائم الذى يعتزل المجتمع أو لا يواصل
الناس الا اماما هو رجل مخفق فى الحياة لم يحدق فيها ، كما ان الرجل
المنغمور فى المجتمع الغائب فى ثناياه ناقص أسباب السعادة والنجاح ،
اذ لابد من الخلوة ليرجع المرء الى دخيلة نفسه ويتدبر صفحة حياته ويحدد
عزماته وينظم آراءه ويوجه خطته ، وبالجمله يتبصر فى هذه القطعة الفنية
التي يقوم على تأليفها تأليفا منسجما : قطعة الحياة .

ولكى تظل عناصر الجمال نصب أعيننا وملء نفوسنا لابد أن نحيط
بها أنفسنا فى حلنا ورحيلنا ، فى عملنا وهواننا ، فى كل مظاهر المادة
المحيطة بنا ، يجب أن تكون مظاهر الائتلاف والانسجام والبساطة والصحة
والحيوية ماثلة فى المسكن والمكتب ودار الاجتماع والسمير والاستجمام ،
وفى الملبس وفى المطعم وفى الأشخاص المحيطين بنا فى كل هؤلاء ، فان من
يحيط به مظاهر الجمال المادية حيث يدور وينظر، لن يكون الا هادئ النفس
رضى البال .

وليس يكفى ان يكون المسكن والملبس والمطعم والندى جميلة
متناسقة محبة اذا كان كل ذلك من صنع الآخرين ، ان الجمال والفن
والسعادة واللذة فى أن نقوم نحن بتنسيقها وتحبييها الى أنفسنا ، أو
نشارك فى ذلك بعض المشاركة على الأقل ، فصاحب الدار المشبعة الأثاث
القييحة النظام الصاخبة المضطربة ، يكون بلا شك مشوش الفكر على
ذلك النمحو ناقص أسباب السعادة ، ولكن ليس خيرا منه بكثير من تبدو
داره منظمة منظفة بفضل الخدم الأجراء ، فان مشاركته هو نفسه فى
ذلك تزيد مظاهر المادة حوله بهاء وتزيد تمتعه بما يرى من مظاهر
الجمال .

ان الخبير بفن الحياة يشارك أتم المشاركة فى تنضيد داره وغرفته ،
وفى انتقاء ثيابه وصنعها ، وفى اختيار مأكله واعدادها وتهيئة الخوان ،
لا يرمى فى شئ من ذلك الى السرف والبذخ والتظاهر والتكثر والشخمة ،
بل الى البساطة والانسجام والاستقامة والصحة والحيوية، وتتغذى نفسه
متى جلس الى الخوان بشعوره بحسن اختياره واعداده ، وبما هناك
من رونق وتناسق ، أضعاف ما يتغذى جسمه بما ثمة من مأكلا
ومشرب .

والخبير بفن الحياة يعرف كيف يستخلص أعظم المتاع من قليل الحطام ، وكيف يحل الجمال والسعادة حيث يتوهم غيره القبح والشقاء ، وكيف يدخل الفن على أشد تفاصيل عمله اليومي الراتب املا ، فإذا هو محبب غير ممل ، وكيف يدخل الجمال والبهجة على كل حديث يطارحه صاحباً حميماً أو طارئاً عابراً ، وكيف يوغل عنصر الجمال على شتى التجارب القاسية والأحداث المؤلمة ، بأن يتدبر ما فيها من منادح للعبارة ومعارض للدرس ومجال لنفوس البشر وطبائع الأشياء ، وكيف يستغنى تمام الاستغناء بما يكون عما لا يكون ، مع تملى الحياة ملء نفسه دون تزهد أو تقشف أو رفض لها .

ان الحياة فن جميل ، والسعادة فى اتقان ذلك الفن ، وخير للمرء أن يتقنه من أن يبرع فى أى فن من الفنون الجميلة المتعارفة ، خير له أن يبسط الجمال فى كل مناحى حياته من أن يحصر الجمال فى نواح خاصة ، يعبّر عنها بصور وأساليب خاصة ، ثم يترك بقية حياته نهياً للقبح والاضطراب والشقاء ، وهل كانت الاكاذك حياة كثير من الفنانين المفلوكن (الفقراء) كأبى نواس وبشار وجولد سميث وبايرون وموباسان وفرلين ؟

خير للمرء أن تكون حياته ذاتها فناً يحياه فى صمت ، وجمالاً يستوعبه فى سكون ، من أن يملأ طباق الجو بدعوى فنه ، وحياته تعجس بأسباب القبح والشقاء كأولئك ، أو أن يستعبده فنه الجميل استعباداً ، ويستترقه حب الاشتهار به استرقاقاً ، فيحرم نفسه لذات الرياضة والحديث والاضطلاع والحركة والرحلة ، حرصاً منه على التزود من أسباب فنه والاستمرار على الانتاج فيه انتاجاً يديم ذكره فى أخلاق الناس وعلى شفاههم ، كما آلت اليه حياة الناقد سانت بييف والقصى بروسست اللذين غدوا بفضل التوفر على الأدب رهن محابس كثيرة لا محسبين اثنين .

واذ كانت السعادة فى أن تكون الحياة فناً يتوفر عليه صاحبها كان الأخير فى أن ننشئ الجيل الصغير على عقيدة أن الحياة فن ، ونعلمهم منذ حداثتهم كيف يتملون حياتهم على هذا النحو الفنى ، وكيف يتوخون الجمال فى كل قصة وكل عمل ، فقد قال قوم ان غاية التربية هى تزويد الناشئ بالعلوم التى تعينه على اكتساب حياته ، ودرس ذلك المذهب وظهرت أهمية تهذيب الخلق بجانب ذلك ، ثم امتد الاهتمام الى الناحية الجسمية ، ولكن كل ذلك غير مغن حتى يسود التربية مذهب فنى ، حتى

تشمل النزعة الفنية كل غايات التعليم ووسائله ، وليس يغنى أن نلقن الحدث كثيرا من العلوم وبعض الفنون حتى نلقنه فن الحياة •

وانما أشرت الى وجوب تلقين هذا الفن للنشء ، لأن هذا الفن لخطره وشموله الحياة بأجمعها لا يتلقن على كبرة ولا يحذقه كل من أراد ، وأكثر من نشأ فى حياة متنافرة العناصر قبيحة المظاهر يصعب عليه متى كبر أن يفقه الحياة الفنية أو يمارسها مهما نال من العلم والثروة والجاه ، ويظل — وان أعجب بالحياة الفنية الجميلة التى يحيها غيظه — عاجزا عن ضم شتات حياته وتقليد غيره فيما يصنع ، ذاك بأنه تلقن فى صغره علوما كثيرة وفنونا ، وحرّم أهمها وأجلها : وهو فن الحياة •

الأجناس والقوميات

بزغ فجر التاريخ وقد انشعب البشر قبائل وشعوبا ، تستوطن
 متناثري بقاع الأرض ، وتفصلها في كثير من الأحوال تضاريس اليا بس
 وفجوات الماء ، وقد تطبعت كل قبيلة أو أمة بطباع اقليمها التي تفرضها
 عليها ظروفها المناخية ووسطها الجغرافي ، وتوارثت تلك الطباع والعادات
 والميول والتقاليد ، حتى اتسعت شقات الخلاف بين الأمم والشعوب
 في صفاتها الجسدية والعقلية ، وأصبحت اذا اتصل بعضها ببعض في
 حرب أو تجارة أو رحلة ، راعتها تلك الفروق ، حتى كادت تنسبها ما بين
 البشر جميعا من اتفاق في الأرومة واشتراك في العنصر والمنشأ ، ولم يدر
 في خلد كل أمة نالت نصيبا من الحضارة مهما قل الا أنها خير الأمم ،
 وأنها الشعب المختار . وكانت تلك العقيدة ، وتلك الفروق ، وما ساد بين
 الأمم من جهل بعضها ببعض ، أكبر أسباب اشتعال الحروب بينها في
 قديم العصور .

تختلف شعوب الأرض في شتى الوجوه : في ألوانها التي تتراوح
 بين البياض والسواد ، والسمرة والصفرة والاحمرار ، وفي قامتها التي
 تتراوح طولا ، وفي أشكال رؤوسها التي تميل تارة الى الاستعراض ،
 وطورا الى الاستطالة ، وأحيانا الى البيضوية ، وفي ألوان شعورها
 وعيونها وأشكال أنوفها ، وتختلف الشعوب في لهجاتها ولغاتها ، وفي
 أديانها وعقائدها ، وفي عاداتها وتقاليدها ، وفي أخلاقها وأزيائها ، وطرقها
 في الحديث والحركة والمشيبة . وقد عملت الحضارة الحديثة ، ذات
 الصبغة القربية من العالمية ، على محو بعض الفروق القابلة للمحو ، وما يزال
 أكثرها باقيا واضحا .

تنبعت الأمم المتحضرة الى تلك الفروق من قديم الزمن ، واهتمت
 بتسجيلها كتابة وتصويرا ، فخلف المصورون والنحاتون ، والكتاب
 والشعراء ، والمؤرخون والجغرافيون ، والرحالون والسفراء ، آثارا غزيرة
 في التحدث عن شعوب الأرض المختلفة وعاداتها المتباينة ، فكان قدماء
 المصريين أنفسهم باللون الأحمر ، ويصورون بالأصفر أعداءهم الآسيويين ،
 وبالأسود زنوج أفريقيا ، ولما عرفوا أهل الشمال صوروهم باللون

الأبيض . وأفاض الرحالة هيرودوت فى وصف أحوال الأمم التى طاف ببلادها ، وكذلك فعل مؤرخو الرومان ، ومنهم تاسيتوس الذى ترك وصفاً مسهباً لأحوال البرابرة القاطنين على حدود الامبراطورية ، وهو يمتدح أخلاق الجرمان القوية ، ويوازن بينها وبين أخلاق الرومان المترفين ، ويشير الى صلابه أجسادهم ، وامتداد قاماتهم ، وزرقة أعينهم ، وشراسة نظرتها .

وفى العصور الوسطى أوالع العرب بجوب الأقطار والممالك ، واجتياز المفاوز والمسالك ، وكتب كبار رحالتهم كتباً قيمة تجمع بين التاريخ والجغرافيا ، وبين وصف الأرض ووصف الجماعات التى تقطنها ، واشتهر منهم ابن جبير وابن بطوطة والمسعودى والادريسي وآخرون كثيرون ، كما ظهر رجالون أوربيون فى أواخر تلك العصور ، أشهرهم ماركو بولو الذى ترك وصفاً شائقاً لأحوال الصين ، وقيام النهضة الأوربية دخل الأوربيون عصراً من الرحلات والاستكشافات عديم النظير ، ومن أوائل من اهتموا بالرحلة وتدوين ملاحظاتهم عن الشعوب وعاداتهم الطبيب الانجليزى أندرو بورد من أهالى القرن السادس عشر ، فقد طاف فى أوروبا والشرق الأدنى ، وهو فى كتاباته شديد الاعتداد بالانجليز والتنويه بصفاتهم ، شديد الحملة على من عداهم ، وإن اعترف لهم أحيانا ببعض الحسنات .

ومنذ توشجت العلاقات بين الشعوب ولا سيما شعوب أوروبا والشرق الأدنى من أواخر العصور الوسطى ، نشأت عادة ارسال السفراء والقناصل الى الخارج ، وكانت البندقية وغيرها من مدن ايطاليا التجارية أسبق الدول الى ذلك ، وكان السفراء فى ذلك العهد يقفون بتعريف الشعوب التى يمثلونها بالشعوب التى يسفرون لديها ، فيكتبون التقارير الضافية عن أمزجة تلك الشعوب وعاداتها وأزيائها ، وتقاريرات سفراء البندقية الى حكومتهم ما تزال من أمتع الوثائق فى هذا الصدد ، ومن أهم مراجع تاريخ تلك العصور .

كان أولئك الرحالة والجغرافيون والسياسيون يدونون ما يرون دون كبير تعليق أو تحليل . ثم كان العلماء من قديم الزمان يحاولون دراسة الانسان جسماً وعقلاً وجنساً ومنشأً ، وكان أسبقهم الى ذلك أبو الطب . بقراط ، فقد أشار الى اختلاف أجسام الأجناس ، ولا سيما فى أشكال رؤوسها ، وذكر أن رؤوس بعضها شديد الاستطالة ، ورجح أن مرجع ذلك أمر صناعى ، وتكلم عن تأثير المناخ على الجسم والخلق ، وتبعه

أرسطو الذى جعل الانسان فى زمرة الحيوان ، ولاحظ ما بينهما من وجوه الشبه ووجوه الاختلاف ، وأشار الى امتياز الانسان بكبر حجم مخه ، واختلاف شكله .

وجاء العالم الرومانى لوقريطس فكان أول من فطن الى فكرة تطور الانسان والأحياء عامة ، فسفه تفسير الخرافات الاغريقية والرومانية لخلق العالم ونشأة الانسان ، ورفض الفكرة الذائعة من أن الانسان عاش قديما فى عصر ذهبي انحدر منه ، ورأى بالعكس أن تاريخ البشر تاريخ رقى متصل ، فكان الانسان فى أول أمره وحشاً ضارياً عارياً يسكن الكهوف ، لا يعرف قانوناً ولا خلقاً ولا فناً ولا علماً ، وليدفع الحيوان عن نفسه استعمال الحجارة ، ثم صنع أسلحة ساذجة من النحاس ثم عرف النار صدفه لاندلاع حريق من صاعقة أو ظاهرة جغرافية أخرى ، وتكونت على لسانه اللغة تدريجاً بحكم الضرورة ، ومن العجيب أن هذه الصورة التى رسمها لوقريطس للانسان البدائى استنباطاً دون كبير بحث علمى وتنقيب ، ما تزال صادقة فى جملتها لم يزلها البحث إلا توطيداً .

وفطن علماء العرب فى العصور الوسطى الى تأثير الوسط الجغرافى فى بنية الانسان وطباعه وحضارته ، ولحظوا ما بينه وبين القردة العليا من تشابه ، ولمحوا آثار تطور الانسان والأحياء عامة . والمقدمة لابن خلدون حافلة بآثار هذه النظرة العلمية الى الانسان والمجتمعات الانسانية . قال يفند الفكرة الذائعة فى تلك العصور عن مرجع أجناس البشر : « وقد توهم بعض النسابين ممن لا علم لديهم بطبائع الكائنات أن السودان هم ولد حام بن نوح ، اختصوا بلون السواد لدعوة كانت عليه من أبيه ظهر أثرها فى لونه ، وفيما جعل الله من الرق فى عقبه ، وينقلون فى ذلك حكاية من خرافات القصاص ، ودعاء نوح على ابنه حام قد وقع فى التوراة ، وليس فيه ذكر السواد . . . وفى القول بنسبة السودان الى حام غفلة عن طبيعة الحر والبرد وأثرهما فى الهواء ، وفيما يتكون فيه من الحيوانات » .

وكتب ابن طفيل قصة حى بن يقظان فزعم أن حيا هذا تولد فى جزيرة حارة من تفاعل العناصر ، ونشأ وحيداً جاهلاً حاله كحال الانسان البدائى الذى وصفه لوقريطس ، فما زال يتعلم بالتجربة حتى تثقف : اتخذ من غصون الشجر عصياً يذب بها الوحوش . ثم مازال حتى تضلع

فى تشريح الحيوان ، واهتدى بذلك الى وحدة الأحياء رغم اختلافها الظاهرى ، والى وحدة الوجود جميعا .

وعبر القزوينى فى « عجائب المخلوقات » عن هذه الفكرة وذلك التطور قال : « أول مراتب هذه الكائنات تراب وآخرها نفس ملكية طاهرة ، فإن المعادن متصلة أولها بالتراب وآخرها بالنبات ، والنبات متصل أوله بالمعادن وآخره بالحيوان ، والحيوان متصل أوله بالنبات وآخره بالإنسان ، والنفس الانسانية متصلة أولها بالحيوان وآخرها بالنفوس الملكية » .

وكان المعرى شديد الشعور بتلك الوحدة بين المخلوقات ، يدل على ذلك أقوال له منها قوله :

ولا يرى حيوان لا يكون له فوق البسيطة أعداء وحساد
وقوله :

ينغادر غابه الضرغام كيما ينزاع ظبي رمل فى كناس
سجايها كلها غدر ولؤم توارثها أناس عن أناس

وكان ابن سينا كأستاذة أرسطو معنيا بأحوال البشر وأجناسهم ، وكان ينظم الشعر فى الفلسفة والطب ، قال من أرجوزة فى الأخير يشير الى اثر المناخ فى البشرية :

بالزنج حر غير الأجسادا حتى غدا كسا جلودها سوادا
واكتست الصقالب البياضا حتى غدت جلودها بياضا

ولما كانت النهضة الأوروبية كان الاهتمام بالإنسان ودراسته من أخص صفاتها ، ظهر ذلك فى عالم الفن ، اذ التفت المصورون والنحاتون الى درس الجسم الانسانى ، وتأديته تأدية دقيقة وتصوير محاسنه ، فحرص رافائيل وميكلائيلو وليوناردو دافنشى ودورر وغيرهم من الفنانين على دراسة تركيب الجسم الانسانى ، وترك دافنشى آثارا ما تزال لها قيمتها فى علمى التشريح والنبات ، كما أن دورر استدرك خطأ كان النحاتون قبله ماضين عليه ، اذ كانوا يمثلون رؤوس نبلاء الألمان الذين يطلبون اليهم صنع تماثيل لهم مستديرة ، على حين أصر دورر على تصوير الرأس الألماني كما هو فى حقيقته مستعرضا مسطحا من الخلف بعض التسطح .

وفي القرن التالي وهو القرن السادس عشر ظهر أبو علم الأجناس الحديث العالم البلجيكي أندرياس فيسالياست الأستاذ بجامعة بادوا بإيطاليا ، وطبيب شرلكان بعد ذلك ، وقد قام بأبحاث وملاحظات خاصة في الاختلافات الجسمية بين الشعوب المختلفة ، ولا سيما في شكل الرأس ، ولاحظ أن كثيرا من أهل البحر المتوسط ، ومنهم أهل جنوة واليونان والترك ، مستديرو الرؤوس ، وقال ان ذلك عندهم من أسباب الجمال ، وهو ملائم لعاداتهم من لف الرؤوس بالعمائم ، على حين رؤوس الألمان عريضة مسطحة المؤخرة كما تقدم القول ، بينما رؤوس مواطنيه البلجيكين أميل الى الاستطالة . بيد أن فيسالياست لا يرد ذلك الى عواهل طبيعية ولى تطور الأجناس البشرية ، بل يرجعه الى عامل صناعى موضعى هو معاملة القوابل والأمهات للأطفال فى مهودهم .

كانت الأراضي المنخفضة فى عصور النهضة وما وليها من أنشط بلدان أوروبا وأرقاها ، وقد أنجبت طائفة من خير علمائها ، منهم أرزمس عميد النهضة ، وجروتياس واضع القانون الدولى ، وفيسالياست ، هذا الذى قيل انه أدى فى تلك العصور من الخدمات لعلم الأجناس ما أداه جاليليو وكوبرنيك لعلم الفلك ، ثم جاء بعده العالم الهولندى أندريان فون سبيجل ، فكان أول مبتدع لمقاييس تقاس بها اختلافات الأجناس والأفراد الجسمية ، اذ وضع طريقة « الخطوط الرأسية » فمد خطوطا أربعة فى اتجاهات معينة داخل الجمجمة ، فاذا كانت هذه الخطوط متساوية كان الرأس المقيس بها منتظم التكوين .

وفي القرن السابع عشر خطا علم الأجناس خطوة أخرى على أيدي الأطباء أيضا ، اذ بدأ الطبيب الانجليزى ادوارد تيسون تشريح القرود العليا ، وفي القرن التالي ظهر العالم الألمانى بلومنباخ ، الذى وضع التقسيمات الجنسية البشرية على أساس من القياس ، فكان من أوائل من جعلوا علم الأجناس مستقلا عن الطب ، ونادى بوحدة الأجناس البشرية قاطبة جسما وعقلا ، وان اختلفت درجة لا نوعا ، حتى قيل ان الجنس البشرى كان قد نسى وحدة أصله حتى أذكره بلومنباخ اياها ، وبلومنباخ أول من استعمل لفظة القوقازى للتعبير عن الجنس الأبيض الأوروبى .

وفي القرن التاسع عشر ترقى علوم الأحياء عامة رقيا بعيد المدى ، وغزى البحث فى علم الأجناس ، فاستنبط العالم السويدي أندرس رذياس « النسبة الجمجمية » أى نسبة النهاية القصوى لطول الجمجمة الى النهاية القصوى لعرضها ، للاستعانة بذلك فى التفريق بين شتى

الأجناس ، ولم يعد العلماء يقصرون ملاحظاتهم وتجاربهم على جماجم الموتى ، بل التفتوا الى دراسة جماجم الأحياء وأحوالهم الجسدية الأخرى ، وكان أسبقهم الى ذلك العالم الانجليزى جون بيدو الذى طاف طويلا فى أنحاء بريطانيا العظمى ، ثم نشر فى أواسط القرن الماضى كتابا حافلا عن سكان الجزر البريطانية مايزال مرجعا فى الجغرافيا البشرية لتلك البلاد .

وأتت تلك الدراسات للجنس البشرى الى النظر فى منشئه وتطوره ، وكان من أوائل من قال بأن الانسان تطور فى سالف العصور ، ولم يكن دائما على حالته الراهنة ، العالم الانجليزى لورد مونبودو ، من أهل القرن الثامن عشر ، واشتغل بتتبع العلاقات بين الانسان والقرود العليا ، ثم تابع تلك البحوث العالمان الفرنسيان لامارك وسنت هيلير ، فمهدا السبيل لداروين ، الذين وضع نظريته المفصلة فى كتابه عن أصل الانسان ، وسلالة الانسان ، وزاد هكسلى تلك النظرية شرحا وتطبيقا على الانسان من بين الأحياء ، وتلاه سبنسر ، فطبق النظرية على المجتمع الانسانى قاطبة ، ومن ثم ذاعت نظرية التطور وطبقت فى شتى العلوم .

ترقى علم الأجناس فى القرنين الماضى والحاضر ، وتوفر عليه علماء كثيرون ، واستقل بنفسه ، وإن كان من الصعب أن تنقطع العلاقات الوثيقة بينه وبين الطب والتشريح وعلم الأحياء والجيولوجيا وغيرها من العلوم ، وظهرت فيه نظريات كثيرة ، ودأب علماءه على البحث والاستقراء واجراء التجارب على أجساد الموتى والأحياء ، وحفروا الحفائر ، وعشروا على بقايا الانسان فى شتى العصور القديمة .

على أن علم الأحياء مايزال غير وطيد الأسس ، ولا ثابت النظريات ، مما تزال حقائقه فى تبدل كل حين ، ومما تزال نظرياته لكثرة ما يجرى من البحوث تتبدل وتبلى قبل أن تطبع ، ويحل محلها غيرها قبل أن تضيع ، ومايزال علماءه فى حيرة من أمرهم فى كثير من فروع هذا العلم ومسائله ، لأن دراسة الانسان أصعب جدا من دراسة أشنيات الحيوان ، لما يمتاز به دونها من أنه أكثر تطورا ، وأنه أشدها هجرة واختلاطا ، وأنه من دونها يورث أجياله المتعاقبة ثمار تجاربه ، فتتكون من تراكمها الحضارات والثقافات ، وتختلف العقليات والبيئات ، حتى عجز العلم عن تقسيم البشر الى أجناس مستقلة محددة ، الا أن تكون التقسيمات عامة مبهمة

تحتوي من دونها على تقسيمات أخرى واستثناءات ، بل ذهب بعضهم الى القول باستحالة تقسيم الناس الى أجناس بعد ما كان من اختلاط الأجيال والشعوب .

هذه كلمة العلم الذي يحرص على الحقيقة وينبذ التعصب والوهم ، بيد أن التعصب والوهم كانا سائدين في العصور القديمة ، وما تزال لهما الى اليوم سيطرة في عقول عامة الشعوب ، كان كل شعب كما تقدم القول في صدر هذه الكلمة يعد نفسه أرقى الشعوب ، ويبراه الشعب المختار ، اصطفته الآلهة ليسود ويحكم الشعوب الأخرى ، ويخلق على الأمم الأخرى صفات البربرية والأعجية وما عداها ، وكانت ديانتها ذاتها تشجعه على ذلك ، لاختصاص كل أمة أو قبيل بآلهة يعبدونها دون غيره ، ولم يكن يخالجه شك في اختلافه في الجبل والطبيعة عن سائر الشعوب ، وامتنياز عنصره بفضائل حرم منها غيره .

كان قدماء المصريين يقولون لرواد الاغريق كما روى هيرودوت : انكم معشر الاغريق لستم الا أطفالا ، وما تعلمون من العلم شيئا . وكان الاغريق يعتقدون بهلينيتههم ، حتى أيام كانت تجتاحهم جحافل روما ، وكذلك كان شأن بنى اسرائيل ونكبات الأجنبي تتوالى عليهم ، وقل مثل ذلك في شأن الرومان والعرب والترك وكل دولة شادت - حضارة أو بنت سلطانا ، ولما ظهرت دول أوروبا الحديثة كانت كل منها - وما يزال أكثرها - لا ترى الصدارة الا لنفسها دون الأمم ، وفي آداب لغات تلك الأمم شواهد تتمثل في كتابات دانتى الايطالى ونييتشه الألماني وهوجو الفرنسي وكبلنج الانجليزى وغيرهم .

وأحدث حركات التعصب الجنسى والكبرياء القومية فكرة تقسيم البشر الى آريين وساميين ، فأما الساميون فممنسوبون الى سام بن نوح ، اذ ورد في الكتب المقدسة أن أبناء نوح - ساما هذا وحاما أبا السود ، ويافثا - انتشروا في الأرض وتناسلوا ، وأما الآريون فهم في نظر أصحاب تلك النظرية سكان أوراسيا القاطنون شمالي الساميين ، فهم يحلون في هذه النظرية محل اليافثيين في النظرية القديمة ، والى يافث ينسبون أحيانا في النظرية الحديثة ، كما يسمون أحيانا بالشسماليين ، وتارة بالهندوآوريين ، وطورا بالجرمان ، وانما يسمون بالآريين لزعم أصحاب تلك النظرية أنهم انتشروا من آريا ، ومحلها أفغانستان الحالية ، فكان منهم الهنود والفرس ، ومن آريا اشتق اسم ايران ، وكان منهم الأوروبيون المحدثون أيضا .

وكان أول مدخل لكلمة الآرية في عالم الفكر الأوربي الحديث المستشرق الانجليزي سير ويليام جونز الذي درس اللغة السنسكريتية وغيرها من اللغات الهندية المقاربة لها ، أيام كان قاضيا في الهند ، وترجم عنها الى الانجليزية ، وأشار الى التشابه بينها وبين كثير من اللغات الأوربية ، ووردت كلمة الآرية في بعض تراجمه تلك ، وكان ذلك في أواخر القرن الثامن عشر ، وفي أوائل القرن التالي تابع العلماء أبحاثه ، وتبين لهم تقارب اللغات السنسكريتية والبهلوية والأرمنية واللاتينية والاعريقية والتيوتونية والسلافية وغيرها ، وسميت هذه اللغات بالآرية ، ثم سرى الاسم بالمجاز الى الأمم التي تتكلمها .

وكانت ألمانيا اذ ذاك تعج بحركة قومية شديدة متأثرة بالثورة الفرنسية ومبادئها وحروب نابليون ، وكانت تطمح الى الحرية والوحدة والاستقلال والسيادة ، وكان يمثل تلك المشاعر والأمانى أدباء الحركة الرومانسية بها ، وكان أولئك الأدباء مهتمين بالدراسات الشرقية ، فشفغوا بمباحث سير ويليام جونز وترجماته ودراسات العلماء من بعده ، ورأوا في فكرة الآرية مركزا صالحا تتبلور حوله النهضة القومية ، اذ كانت الأمم في نهضاتها تلتفت الى مجد غابر تشبث به ، ولم يكن لألمانيا مثل ذلك الماضي المجيد ، فعمل أدباؤها على خلقه ، فزيفوا كثيرا من حقائق العلم ، ومن أشهرهم فردريش فون شليجل وأخوه أوجست ولهم فون شليجل الذي تولى تدريس السنسكريتية في جامعة بون ، وكذلك ماكس مولر .

وانتشرت فكرة الآرية في ممالك أوروبا الأخرى . ففي فرنسا كتب الكونت جوزيف دي جوبينو « رسالة عن عدم تساوى الأجناس البشرية » ، ونادى بتفوق الجنس الآرى ، وكتب مواطنه لا بوج كتاب « الآرى » فكان أشبه ايجالا فى الوهم والتعصب ، وتأثر بالفكرة من أدباء انجلترا توماس كارلايل ، غير أن العلم رفض تلك النظرية ، ودحضها بما لم يتبق بعده أثارة للشك ، اذ لم يقد دليل على أن « آريا » هى منشأ الشعوب التي تتكلم تلك اللغات المتشابهة ، ولا على أن تلك الشعوب ترجع الى أصل واحد ، ولا على أن تلك اللغات على تشابهها تفرعت عن لغة أصلية واحدة ، وانما يشهد العلم بأن اللغات يكتسبها شعب عن شعب بالمخالطة ، وأن الشعب النقى تمام النقاء لم يعد له وجود بعد ما توالى على سطح البسيطة من مهاجرات وامتزاج فى الدماء .

كانت الأديان الوثنية القديمة كما تقدم القول من أسباب التعصب بين الشعوب ، لاختصاص كل قوم بآلهة ، حتى جاءت الأديان السماوية تدعو الناس جميعا بلا تفرقة الى السلام والاخاء ، فعبرت عما كان يشعر به عقلاء الناس ومتعلموهم فى شتى العصور ومختلف الشعوب ، من أخوة البشر ، وتماثلهم على ما بينهم من فروق عرضية • جاء فى التوراة : « فليكن الأجنبى الذى يحل بينكم بمنزلة من ولد بين ظهرائيك ، ولتحبوه كما تحبون أنفسكم ، فقد كنتم أنتم غرباء فى أرض مصر وأنا الله ربكم أجمعين » ، وجاء عن السيد المسيح أنه قال : « ليس هنا يهودى ولا أغريقى ، ولا حر ولا عبد ، فانكم جميعا تتحدون فى ذاتى » ، وقال القديس بولس : « الله خلق الشعوب من دم واحد ليعمروا الأرض » ، وجاء الاسلام للناس كافة لا يفضل عربى فيه أعجميا الا بالتقوى ، وجاء فى الذكر الحكيم أن الله خلق الناس قبائل وشعوبا ليتعارفوا •

بيد أن الجهل فى تلك الأزمنة القديمة كان ما يزال فاشيا ، والتعصب ما يزال متمكنا من النفوس ، فلم تع تلك الحكم البالغة التى جاءت بها الأديان المنزلة ، وإذا الدين الذى انما جاء لمحو الفروق بين الناس ، اذا هو من أكبر وجوه الاختلاف بينها والصراع ، يصارع دين دينا وينشق أبناء الدين الواحد على أنفسهم مذاهب متناحرة • حتى انجلت عصور الظلمة وانتشر شعاع العلم الحديث ، ولم يعد العلم وقفا على طبقة من الناس محدودة ، وبدأ الناس يفرقون بين حقائق الحياة وبين جهالات التعصب ، فنبذوا كثيرا من عصبيتهم واعتدادهم بأنفسهم واحتقارهم لغيرهم ، فخطوا فى سبيل السلم خطوات واسعة •

أثبت العلم الحديث وحدة الناس أصلا وتطورا وجسما وعقلا ، على اختلافهم أشكالا وعادات ، وأثبت أن اختلاف أمة عن أمة لا يرجع الى ارتقاء هذه وانحطاط تلك ، ولا يرجع الى الأصل الطبيعى والتركيب الفسيولوجى ، بمقدار ما يرجع الى الوسط الاجتماعى ، والعقلية السائدة فيه والتقاليد والثقافة والتربية ، وأن صفات الانسان العقلية والجسمية معا قابلة للتغير بمرور الزمن وتطور البيئة ، وأرى الناس جبهة أن الأمة ليست وحدة جنسية ، بل هى مزيج من الأجناس ، وانما أهم مشخصاتها اللغة والدين والثقافة واشتراك المصالح ، والتعاون على دفاع كل طارئ يهدد الجماعة ، والنظر الى الأمة من هذه الوجهة يقضى على الاعتقاد بأنها وحدة قائمة لا تلتئم مع غيرها ، ويقوى الأمل فى أن تتحد الأمم فى المستقبل مع احتفاظ كل منها بتلك الشخصيات المحلية ، لتكون جميعا نواة الدولة العالمية •

علم السياسة عند العرب

لم يكن لعرب الحجاز فى الجاهلية بصر بالعلوم المدونة ، ولكنهم كانوا فى حالة اجتماعية متقدمة ، وحالة فكرية راقية ، يشهد بها رقى اللغة العربية ، ويشهد بها تهيو العرب لفهم القرآن الكريم ، وكانوا ذوى نظام سياسى محكم يوافق حياتهم نصف المتبدية ، وكان أشرفهم يتغنون فى أشعارهم بحسن الرأى وتدير الأمور وسيادة العشيرة ، ومن أحسن ما وصل إلينا من ذلك قول الأفوه الأودى :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة اذا جهالهم سادوا
تبقى الأمور بأهل الرأى ما صلحت فان تولت فبالأشرار تنقاد

فلما جاء الاسلام خطا العرب فى نضجهم السياسى خطوة فسيحة ، اذ كانت سيرة النبى صلى الله عليه وسلم وصحابته وخلفائه أمثلة عليا فى الحكم ، ووسع القرآن الكريم من روائع الأحكام وجوامع الكلم ما وسع افق العقلية العربية ، وحث على استصلاح أمور الرعية ، ثم اطلع العرب على نظم الروم والفرس ، ودرسوا التراث الفكرى لليونان والهنود وغيرهم من الأمم الخالية ، ولما نشطت الحركة الفكرية اشتغلوا باستنباط الأحكام من القرآن والسنة ، كما اشتغلوا بالفلسفة والمنطق ، وعالجوا السياسة فيما عالجوا من بحوث ، وقد اجتمع لهم من تراثهم الفكرى الحافل مادة غزيرة للبحث .

ففى القرآن الكريم آيات كثيرة تتعلق بسياسة الرعية كان يلجأ اليها الباحثون فى السياسة الاسلامية ، كقوله تعالى : « يا ايها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » وقوله : « وشاورهم فى الأمر » وقوله : « الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمرنا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور » ومن الأحاديث التى جرت فى غضون الأبحاث السياسية قوله عليه الصلاة والسلام : « الأئمة من قريش » وقوله لعلى رضى الله عنه فيما روى : « أنت منى بمنزلة هارون من موسى الا أنه لا نبي بعدي » ومن حكمه الاجتماعية البالغة قوله : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » وقوله : « كلكم راع

وكل راع مسئول عن رعيته » وقوله : « عدل ساعة في حكومة خير من عبادة ستين سنة » .

وكانت خطب الخلفاء الراشدين ووصاياهم وكتبهم الى العمال والقواد والقضاة نماذج من حسن السياسة ، ومنها كتاب أبى بكر الى عمرو ابن العاص اذ وجهه الى فلسطين وكتاب عمر بن الخطاب الى أبى موسى الأشعري في القضاء ، وكتاب على بن أبى طالب الى الأشتر النخعي اذ ولاه مصر . وتتابع الخلفاء من بنى أمية وبنى العباس فكان لهم في الحكم ابتداءات ومآثر ، فكان معاوية اذا اراد أن يولى رجلا عملا بدأ فولاة الطائف ، فان أجاد العمل ضم اليها المدينة . وقال الوزير ابن الفرات سمعت أبا العباس أخى يقول : من استقل ببادوريا استقل بديوان الخراج ، ومن استقل بديوان الخراج استقل بالوزارة .

وانجبت الدولتان العباسية والأموية طائفة كبيرة من حذاق الولاة والقادة ، والوزراء والكتاب ، أثرت عنهم غرر من الحكم السياسية ، ومنهم زياد بن أبيه ، والحجاج ، وعبد الحميد الكاتب ، وابن المقفع ، والبرامكة ، والفضل والحسن ابنا سهل ، وطاهر بن الحسين وابنه عبد الله ، ويفضل « موير » في كتابه عن الخلافة زيادا على الحجاج ويعده أعظم رجل سياسي في عصره ، وقد رويت عنه آثار سياسية منها خطبته البتراء المشهورة ، ومنها قوله : « هلاك السلطان أربع خلال : العفاف عن المال ، والقرب من المحسن ، والشدة على المسيء ، وصدق اللسان » .

وكتب طاهر بن الحسين عهدا الى ابنه عبد الله تدارسه الناس وبلغ أمره المأمون ، فاشتد اعجابه به ، وأمر فأرسل الى أنحاء البلاد ، وهو طويل ، ومنه يقول : « واعلم أن الأموال اذا كثرت وذخرت في الخزائن لا تثمر ، واذا كانت في اصلاح الرعية واعطاء حقوقهم وكف المؤونة عنهم ، نمت وربت ، وصلحت به العامة ، وتزينت به الولاة ، وطاب به الزمان ، واعتقد فيه العز والمنفعة ، فليكن كنز خزائنك تفريق الأموال في عمارة الاسلام وأهله » ، وهو مبدأ يقول به علم الاقتصاد الحديث ويؤيده .

ومما تدوول بين المسلمين من حكم الفرس السياسية ، كتاب ابرويز من السجن الى ابنه شيرويه : « اعلم أن كلمة منك تسفك دماء وأخرى تحقن دماء ، وأن سخطك سيف مسلول على من سخطت عليه ، وأن رضاك بركة مستفيضة على من رضيت عنه ، وأن نفاذ أمرك مع ظهور كلامك ، فاحترس في غضبك من قولك أن يخطيء ، ومن لوناك أن يتغير ، ومن

جسدك أن يجف ، فإن الملوك تعاقب حذرا وتعفو حلما ، واعلم أنك تجل
عن الغضب ، وأن ملكك يصغر عن رضاك ، فقدّر لسخطك من العقاب كما
تقدّر لرضاك من الثواب » .

واطلع العرب كذلك على كتابات يونانية فى السياسة منها كتاب
«الجمهورية» لأفلاطون الذى كان له عظيم الأثر فى فلاسفتهم ، وكتاب فى
الحكم السياسية لأرسطو سموه « السياسة » نقله حنين بن اسحاق ،
وجرت على أqlامهم حكم كثيرة لأرسطو وسقراط وزينون وغيرهم ، منها
نصيحة أرسطو فيما قيل الى تلميذه الاسكندر حين خروجه لغزو الشرق :
« املك الرعية بالاحسان اليها تظفر بالمحبة منها ، فان طلبك ذلك باحسانك
أدوم بقاء منه باعتسافك ، واعلم أنك انما تملك الأبدان ، فاجمع لها
القلوب بالمعروف ، واعلم أن الرعية اذا قدرت أن تقول قدرت أن تفعل ،
فاجتهد ألا تقول تسلم أن تفعل » .

وعلى هذا الكلام وأمثاله من مسحة الحكم الملكى الفردى ما يشكك
فى نسبته الى أرسطو الاغريقى ، والحق أن المسلمين كما لم يتعمقوا فى
درس الأدب اليونانى لم يتعمقوا فى درس النظم الحكومية اليونانية ،
ولم يأخذوا عن اليونان فى هذا الباب بعض ما أخذوا عن الفرس ، لأسباب:
منها بعد ما بين المشربيين ، واستغناء العرب بما عندهم من الأحكام متمثلا
فى القرآن الكريم والسنة الشريفة ، وكون النظم الاغريقية القديمة قد
بادت واندثرت ، وحلت محلها فى بلاد اليونان ذاتها دولة ملكية مستبدة
هى الدولة البيزنطية الشرقية الصبغة من وجوه كثيرة ، على حين كانت
نظم الفرس الحكومية ماتزال قائمة المعالم والرسوم ، وقد استولى
المسلمون على بلاد الفرس جميعا ، واستقروا فى حاضرتها واختلطوا
بالفرس أعظم اختلاط ، وساهم الفرس فى انشاء الدواوين الاسلامية ،
وشاركوا فى انشاء الدولة العباسية .

من ذلك التراث الفكرى المتشعب استمد الكتاب مادتهم حين
انصرفوا الى التأليف النظرى فى السياسة ، فانشعبوا فرقا حسب نصيب
كل منهم من ذلك التراث ، وحسب اتجاه حياتهم العملية ، فهناك المؤلفون
الذين عالجوا الكتابة أو الوزارة أو الولاية قبل توفرهم على البحث
العلمى ، فجاءت كتابتهم عملية المنحى ، ومنهم عبد الحميد الكاتب ،
وعبد الله بن المقفع ، ونظام الملك ، وابن خلدون ، وعبد الحميد وأن لم
يتعمد الكتابة فى علم السياسة فإن فى كتبه كثيرا من مبادئ هذا
الموضوع ، ومنها كتابه الى ولى عهد مروان الثانى .

ثم كانت هناك طبقة ثانية هي طبقة الفقهاء الذين درسوا علوم الدين ، وبحثوا في الخلافة عقب بحثهم في علم الكلام ، ومن أشهرهم ابن حزم الأندلسي صاحب كتاب « الفصل في الملل والأهواء والنحل » والماوردي صاحب « الأحكام السلطانية » وفيه يستعرض تاريخ البيعة لأبي بكر وغيره من الراشدين . ثم يذكر شروط الخلافة التي يجب توفرها فيمن يترشح لها ، ثم يتكلم على واجبات الخليفة الدينية والدنيوية .

ثم كانت هناك طبقة الفلاسفة الذين تشربوا حكمة الاغريق وفتنوا بجمهورية افلاطون ، فتداولوا فكرة الدولة المثالية ، ومنهم الكندي والغاربي وابن باجه وابن رشد واخوان الصفا ، ثم كان هناك أدباء ومفكرون متفرقون ، وكثير منهم يمت الى المعتزلة ، صنفوا في هذا الموضوع ، وسارت بعض حججهم على السنة الفقهاء والباحثين من بعدهم ، وخير ممثل لهذا الفريق الجاحظ الذي كتب فصولا في استحقاق الامامة ، وفي حجج النبوة ، وفي بنى أمية ، وفي فضل هاشم على عبد شمس وهلم جرا ، ويمتاز كلامه ككلام المعتزلة بحرية الرأي واستعمال القياس والبرهان .

وهناك كتاب وأدباء خلطوا الأبحاث السياسية بغيرها من الموضوعات في كتبهم أدبية كانت أو تاريخية ، لأن كثيرا من العلوم كانت مازال سديما مختلطا لم يتميز كل منها بنفسه ، ويستقل بمباحثه ، فجاء كثير من الأبحاث السياسية مشتتة في كتب ، كالآدب الكبير لابن المقفع ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، وعيون الأخبار لابن قتيبة ، والفخرى لابن الطقطقي .

وابن المقفع أول من عنى بالكتابة في سياسة الملك مستقلة عن غيرها ، متميزة بذاتها ، اذ كان ينتمى الى دولة فارس ذات المجد التليد ، والمغلوبة على أمرها لعهد ، ونشأ في بيت ذى صلة بالسلطان ، اذ كان أبوه عاملا للحاج ، والتحق هو نفسه بالأعمال ، وكان في آخر حياته كاتباً لعيسى بن علي العباسي ، وكان صديقا لعبد الحميد . وشهد زوال الدولة الأموية وحلول العباسية محلها ، ومن ذلك كله كان ابن المقفع شديد التفات الذهن الى أمور السياسة .

فنقل ابن المقفع كثيرا من قصص الفرس وتواريخهم ونظمهم ، وترجم خاصة كتاب « كليله ودمنة » الذي يزخر بمسائل الحكمة والسياسة ، ويحتل

الأسد فيه مكان الملك ، اذ كان ابن المقفع على الأرجح يخشى التصريح بما يخافه من نظرات سياسية ، حتى خطأ خطوة أخرى نحو الصراحة ، فنبت ذلك الأسلوب « الحيواني » وتكلم عن « السلطان » كلاما صريحا فى أول كتاب الأدب الكبير ، ويبدو من فقراته أن ابن المقفع كان ينتزع أحكامه من عصره الحاضر ، ويقصد بخطابه السفاح أو المنصور ، اذ يتكلم مثلا على الدولة الجديدة العهد ، والسلطان المعتمد على أقوام قد لا يثق فى اخلاصهم ، وكلامه هناك قسمان : أحدهما فى الصفات التى يجب أن يتحلى بها السلطان والآخر فى الصفات التى تجب لمصاحبه من وزير أو كاتب أو مناصح .

ثم خطا ابن المقفع الى الصراحة خطوة أخرى ، فخاطب المنصور فى كتابه « الصحابة » رأسا لم يكن بالأسد ، ولم يعبر بلفظ السلطان ، وهو يوصيه فى ذلك الكتاب بحسن اختيار صحابته ومشيريه . لما يترتب على أخلاقهم من اصلاح الأمور أو فسادها ، وبلغت نظره الى اضطراب أحوال الخراج . ويدعوه الى توحيد نظم الدولة المالية حسب الكتاب والسنة ، والى توحيد النظم القضائية أيضا ، والى تحسين حال الجند وتعليمهم ، والفصل بين الجندية والادارة ، وكان ابن المقفع فى كل ذلك معبرا عن شعور سائد فى عصره ، وبهذه الأمور اهتم المنصور فعلا واهتم خلفاؤه من أوائل العباسيين ، وكان من نتيجة ذلك ظهور كتاب الخراج للقاضى أبى يوسف والموطأ للإمام مالك .

وقد كانت الخلافة أول موضوع اختلف فيه المسلمون وتفرقوا فرقا بين شيعة وسنية ومعتزلة وخوارج ، وقد تناول الخلافة بالبحث فقهاء منهم ابن حزم الأندلسى ، والبيرونى ، ونظام عروضى ، وشهاب الدين سهروردى ، فعالجوها على العموم من تسعة وجوه : بحثوا فى هل هى انتخابية أو وراثية ، وجمهورهم على أنها انتخابية ، وبحثوا فى الخلاف الذى وقع بين الصحابة عند انتخاب أبى بكر ، ثم فى أواخر عهد عثمان ، والسنيون يرون صحة انتخاب الراشدين والحسين بن على رضى الله عنهما ثم معاوية بعده .

ثم أفاضوا القول فى واجبات الخليفة ، وتحملوا عن ولاية العهد ، وهل يجوز للخليفة أن يعهد الى من بعده ، واستعرضوا ما كان من ذلك فى عهد الراشدين ، وجوزوا للخليفة أن يعهد متى كان محمود السيرة ، وعلى أن يستشير أولى الراى ، فان جاز الخليفة وبدل وجب هزله .

أما الفلاسفة فكانوا لا يقصرون القول على البحث فى رئيس الدولة الأعلى ، بل يبحثون فى الدولة جميعا على طراز مثالى أفلاطونى ، جاء فى كتاب « عيون الأنبياء وأخبار الحكماء » أن الفارابى فى كتاباته « وصف أصناف المدن الفاضلة وغير الفاضلة ، واحتياج المدينة الى السيرة الملكية والنواميس النبوية ، ثم انه أتى على العناصر المختلفة المكونة للطبيعة البشرية وخواص النفس ، وبين الفرق بين الوحى والحكمة ، ووصف الهيئات المنظمة والجماعات غير المنظمة » .

والم ابن باجه بذلك الموضوع فى كتابه « تدبير المتوحد » وفيه يقول : « ومن علامات الحكومة الفاضلة ألا يكون بها أطباء وقضاة ، فان أهل المدينة الكاملة ليسوا فى حاجة الى المداواة ، لأنهم لا يتناولون من الغذاء الا ما يوافقهم .. أما الاستغناء عن القضاة فلأن العلاقات بين أبناء البلد يكون أساسها المحبة ، فلا يقع الخلاف بين الأصدقاء ، ثم ان الحكومة الفاضلة كفيلة بأن يبلغ الفرد فيها أرقى ما يمكن بلوغ الفرد اليه من مراتب الكمال » .

وأفرغ ابن الطفيل فلسفته فى قالب قصصى ، فكتب قصة « حى ابن يقظان » وفيها يذكر أنه علم من السلف الصالح أن جزيرة من جزر الهند التى تحت خط الاستواء ، وهى الجزيرة التى يتولد فيها الانسان من غير أم ولا أب ، تكون بها الحرارة شديدة بسبب الحركة وملاقاة الأجسام الحارة والاضاءة ، ثم يصف كيف تولد بطله بها ، وكيف نشأ وحيدا ثم تعلم بالتجربة كيف يتغلب على الحيوان ، ويسود الطبيعة ، ويلتفت الى فهم الوجود ، والتفكير فى الخالق ، وهى طريقة فى البحث تلتفت من جهة الى التراث الفكرى الاغريقى ، وتسبق من جهة أخرى البحث الأوروبى الحديث .

ولابن رشد كذلك آراء فى الحكومة الفاضلة ، وهو يرى أن الحكومة الاسلامية لعهد الراشدين كانت على نظام بجمهورية أفلاطون ، ولكن معاوية هدم نظامها وأتلف جمالها بأن ردها ملكا عنودا ، وكان من وراء ذلك انتشار الفوضى فى بلاد الاسلام ، ويرى ابن رشد أن المرأة تستطيع القيام بكل ما يقوم به الرجل ، ويرثى لحالها فى المجتمع الاسلامى ، حيث تعيش عالة على الرجل فيتجطل ثلثا الجماعة

أما ابن خلدون فقد جمع بين مزايا كل من ذكرنا من الكتاب السياسيين ، كان كابن المقفع من رجال العمل اذ تقلب فى شتى الوزارات

فى أفريقيا والأندلس ، وكان فقيها فى الدين ، تولى القضاء بمصر أعواما ، وكان محيطا بالفلسفة اليونانية وان تنكر لها فى أواخر أيامه ، ووعى ابن خلدون تراث الدولة الإسلامية التى بلغت لعهده غاية رقيها وبدأت فى الانحلال ، فجاءت كتاباته فى السياسة والعمران فى مقدمته فريدة فى بابها .

عقد فى المقدمة فصولا فى الخلافة تناول فيها مسائلها المعهودة ، فكان أحيانا يكرر ما قال سابقوه وأحيانا يخالفهم ويزيد أو ينقص ، وينفرد عنهم بالبرهان المبتكر ، وهو يرى كما يرون أن القوانين السماوية خير القوانين ، يقول : ان صلاح البشر رهن بقيام قوانين تعين الحقوق والواجبات « فإذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبصرائها كانت سياسة عقلية ، وإذا كانت مفروضة من الله بشعار يقررها ويشرعها ، كانت سياسة دينية نافعة فى الحياة الدنيا والآخرة » .

فالملك عنده ثلاثة ضروب : الملك الطبيعى ، والملك السياسى ، والملك الدينى . فالطبيعى هو ما يعبر عنه كتاب العصور الحديثة « بالحالة الطبيعية » حيث تسود الفوضى ويتحكم القوى . والسياسى هو الذى تدبره قوانين أرضية وضعها عقلاء الأمة كما كانت الحال عند الفرس الأقدمين . والدينى هو الذى يقوم على أساس من دعوة دينية أى نبوة ، ويتبع النبى من بعده خليفة ، وهذا الأخير أحسن الأنواع وأرقاها .

على أن ابن خلدون لم يقتصر على النظر فى المجتمع الإسلامى ، بل نظر الى الجماعة البشرية بأكملها ، فرأى أن البشر على اختلاف أجناسهم نوع واحد ، يخضعون للنواميس الطبيعية خاصة ، وهذه النواميس هى التى تؤثر فى أبدانهم وسحناتهم ومجتمعاتهم وصناعاتهم ، وأهم العوامل المؤثرة فى كل ذلك الاقليم والمناخ والدين ونظام الحكم ، وكان يرى كغيره من علماء المسلمين متابعة لأرسطو ، أن الانسان مدنى بالطبع وأن الغرض من المجتمع هو مصلحة الفرد ، وإذا قام المجتمع من بثلاثة أطوار : البدوى والغزوى والحضرى .

فيكون المجتمع فى أول أمره قبيلة متبدية تدفعها أخلاقها البدوية القوية الى غزو جيرانها ، والاستقرار فى بلادهم ، وترقى فى معارج الرقى ، وتزدهر بينها الحضارة والثقافة ، ثم يفسدها لين العيش ، وتستسلم

للذات ، وتأخذ في الانحلال ، فيطمع فيها جيرانها المتبدون ، وتبدأ الدورة
من جديد .

ليس ابن خلدون أعظم مفكر سياسى فى الاسلام فحسب ، بل هو
فى مقدمة مفكرى العالم وأشدهم ابتكارا ، وهو اذا قوبل بكتاب السياسة
المجسدين ، كمكيا فيلى ومونتسكيو وهوبز ، لم يقصر عنهم ، بل فاقهم
سعة مجال فى البحث وشمول نظرية ، وله عليهم فضل التقدم فى الزمن ،
والنفرد بين أبناء جيله ، بل بين أمته جميعا ، على حين كان أولئك الكتاب
يستمدون مادتهم من حركة فكرية عامة ، لم يكونوا الا بعض المعبرين
عنها .

وجملة القول أن العرب قد بلغوا شأوا بعيدا فى السياسة العملية ،
وغاية عظيمة من البحث فى السياسة النظرية ، وكما شادوا فى الشرق
والغرب دولا زهت فى أكنافها الحضارة ، وأنجبت عظماء الملوك والولاة
والقواد والوزراء ، كذلك ناقشوا شتى مسائل السياسة فى كتاباتهم من
واجبات السلطان وحقوقه ، وواجب الرعية نحوه ، ووسائل سعادة
المجتمع ، واستقرار الدولة ، كما بحثوا فى أطوار الأمم والدول عامة ،
وخصوا بعنايتهم الخلافة ، وهى النظام الخاص بهم المتميز
بتاريخهم .

قصة المرأة في المجتمع

أثبت العلم الحديث في منتصف القرن الماضي ، أن للمرأة من النصيب في تكوين الجنين مثل ما للرجل ، وكان الاعتقاد قبل ذلك أن الرجل هو الذي يستقل وحده بذلك العمل ، وأن المرأة ليست إلا « ماعونا » يحافظ فيه على جراثيم اللقاح حتى تنمو وتتطور ، وكان لذلك الكشف أثره في رفع منزلة المرأة الى قدم المساواة مع الرجل ، وبهذا وذاك أثبت العلم ما هناك من وجوه التماثل وما هناك من وجوه الاختلاف بين الرجل والمرأة ، وبين الوجوه التي يرجع الاختلاف فيها الى الطبيعة المقطوعة ، وما يرجع الى تأثير المدنية والعادات والتقاليد الحاطة ، فأبدى أن المرأة ليست منحلة عن الرجل كما اعتقد الانسان الى زمن قريب ، كما بين أنها ليست مماثلة للرجل في كل شيء ، قادرة على محاكاته في كل عمل اذا منحت مثل تعليمه كما ادعى بعض أنصار الحركة النسوية الحديثة .

لم يفهم الانسان الأول أن الاختلاف الجنسي ان هو الا تقسيم لعمل الطبيعة في المحافظة على النوع وترقيته ، بل حكم بالظواهر التي تبدو لعينيه ، فقد رأى الرجل المرأة أضعف منه بنية ، فكانت تلك أول خطوة في سبيل اعتبارها أضعف منه ، والانسان بطبعه نزاع الى اعتقاد التفوق في نفسه على غيره ، فأرضى تعاليه على المرأة وغروره ، ثم رأى ما يعتام المرأة من طمث ومن حمل ووضع ، وما يخامرها من أطوار دورية جسمية ونفسية، فاعتبر المرأة مخلوقا دنسا يتجنب وتضرب حوله أنواع التبو (١) أثناء زمن الطمث والوضع وبعده ، ثم رأى ما يجذبها نحوها رغم ذلك من ميل جنسي ، وأدرك ما يحل به بعد الافراط في علاقته بها من خور وقنوط — وقد كان الانسان الأول بالطبع لا يعرف الاعتدال — فاعتبر المرأة كائنا مرييا خطرا ، يجب على الرجل الحذر منها وعزلها والابتعاد عنها بقدر الامكان .

فالمرأة في المجتمع البدائي تكذب كثيرا وتقيده حريتها كثيرا ، ولكنها

(١) المحرمات الدينية .

ليست من الشقاء بحيث يتصور الانسان المتمدين ، لأنها من جهة متعودة ذلك الوسط الذى تحيا فيه ، مؤمنة بأن منزلتها هي حيث يضعها الرجل ، بل حيث تضعها عقائدها الدينية التى تعتنقها ، ولأنها من جهة أخرى حائرة لشروطين كبيرين من شروط السعادة ، كثيرا ما تحرمهما المرأة المتمدينة التى قد تعد نفسها أسعد حالا من أختها المتوحشة ، فالمرأة المتوحشة تعمل دائما كما يعمل الرجل وان اختص كل منهما بعمله ، والعمل يكسبها صحة كثيرا ما تعوز أختها المتمدينة ، ويحميها السام الذى كثيرا ما تشكوه المرأة المتمدينة وتعانى المرض بسببه ، وينيلها مكانة اجتماعية محدودة لم تكن لتطمح فيها لو أنها كانت عالة على المجتمع لا تعمل شيئا .

ثم ان المرأة الهمجية تؤدى وظيفتها الطبيعية التى هيئت لها ، والتى من أجلها كان الاختلاف كما تقدم القول بين الجنسين ، وظيفة التناسل ، فهي دائما زوج وأم ، فالمرأة الهمجية تنزوج حالما تراهق ، والرجل والمرأة معا يسعيان لاحراز الأطفال حالما يخرجان هما عن طور الطفولة ، والعزوبة والعقم عاران لا ينالان عند المتوحشين الا الاحتقار والاذلال ، ولا ريب فى أن قيام المرأة بتلك الوظيفة المهمة فيه صحة لجسدها وراحة لنفسها ، على حين تقل نسبة الزواج فى المجتمعات المنحصرة لشمس الأسباب ، فهي فى إنجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وغيرها من الأمم المنحصرة اليوم تتراوح حول الخمسين فى المائة من الفتيات والنساء البالغات مبالغ الزواج .

واعتقاد الخصوبة فى المرأة ، هو مرجع قيامها وحدها فى بعض الجهات كبلاد أورينو فى أمريكا بكل أعمال الحقول ، لأن الغرس الذى تغرسه المرأة يتضاعف محصوله ، وهذا الاعتقاد أيضا سر ظهور المرأة فى بعض المجتمعات المتأخرة ونيلها جانبا عظيما من السلطة ، رغم الاعتقاد آنف الذكر بدنسها ، وهكذا لا نرى أن مكانة المرأة تتحسن فى مجتمع لدعوة خلقية أو مثالية تعمه ، بل بمقدار ما يعتقد المجتمع فيها النفع . ومن أمثلة رقى مكانة المرأة بين البدائيين ما تتمتع به بين قبائل « الحاسى » فى أنام من سلطة فى الأسرة وفى المجتمع ، فتلک قبائل تزرع الأرز وتحتفى كل الاحتفاء بانتشار الحصب وانعدام الجذب ، وهناك تعد الأم رئيسة الأسرة ، وهى التى تمتلك الأملاك وتورثها ، وهى التى تتولى أهم الشعائر الدينية ، والأرواح الخيرة والشريرة التى يعتقد بها أولئك القوم معظمها اناث ، وقد كانت الحضارات الكبيرة القديمة تقوم على أساس من الزراعة فى وديان النيل ودجلة والفرات والسند والكنج ، وفى آسيا الصغرى وبلاد اليونان والرومان ، فكانت للمرأة فى معظم هذه البلاد مكانة عالية اذا قيست بما كانت عليه فى غيرها ، كانت كبيرة الالهات كما تقدم القول

الهة الخصوبة ، وكان يحتفل بها كل عام احتفالا تشارك النساء فى الكثير من شعائره . وتبدى لنا قوانين حمورابى كما تبدى لنا نصائح الحكيمى المصرىين « آى » و « بتاح حتب » أن مكانة المرأة فى بابل ومصر كانت أعلى وحريتها كانت أوفر مما كانت عليه فى كثير من العصور التالية .

فقد كانت المرأة فى مصر القديمة - كما يتجلى فى الآثار - سافرة تشارك فى الأعمال ، وكانت هى المالكة للأموال فى الأسرة ، حتى كانت الملكة تعد صاحبة أرض مصر ، ولا يعد الملك الا الأمير المتزوج من الملكة ، ومن هنا نشأت عادة تزوج الأخ أخته محافظة على أملاك الأسرة . وفى كلتا مصر وبابل كان الزوج بوحدة هو القاعدة ، وكانت المرأة البابلية مساوية للرجل فى معظم الحقوق ، وكان لها أن تحترف المحاماة والقضاء ، وتكون فى المحلفين والكتبة ، فكانت منزلتها أعلى من بعض الوجوه من منزلة المرأة الانجليزية أو الأمريكية فى القرن الماضى ، مع أن حمورابى حكم فى القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد .

بيد أن من عجائب التاريخ أن البلد الذى سطعت فيه الحضارة القديمة أزهى ما سطعت ، وهو أثينا أو بلاد الاغريق عامة ، كانت مرتبة المرأة فيه شديدة الانحطاط ، تنحط فى بعض الوجوه عنها بن البدائيين فإن الحضارة الاثينية كانت تقوم على استخدام العبيد ، فهؤلاء وفروا على المرأة العمل ، وقد رأينا أنه على قدر ما تعمل المرأة وتفيد المجتمع ترقى مكانتها ، ووفر العبيد العمل على الرجال أيضا ، فتوفر هؤلاء على أعمال الحرب من جهة ، وعلى البحث الفكرى الذى شغف به الاثينيون ، ومن هذين العاملين حرمت المرأة ، فلا هى تجالذ يوم القتال ولا تجادل يوم البحث والمناظرة .

انما كان المثل الأعلى للعقيلة التى يرضاهها الاثينى العادى امرأة طيبة تقيية غير متعلمة تحتجب فى دارها ترعى أبناءهما ولا تبرز فى المجتمعات ، وكان الاثينى يقيم المرأة التى تخب أن تبدى لنفسها شخصية متميزة ، أو تشارك فى الأعمال العامة . وقد ذكر بركليس فى خطبته الرثائية أن خير امرأة من لا يدور ذكرها بين الرجال بخير ولا شر ، وكان أهل أثينا لنزعتهم تلك الجامدة يتهمون بنساء اسبرطة ورجالها ، حيث كانت المرأة الاسبرطية تعد قرينة الرجل فى كل شىء ، تمارس من الألعاب الرياضية مثل ما يمارس ، وتشارك فى الأعمال العامة ، وتغشى المحافل والأسواق عارية أو نصف عارية ، تباهيا بكمال تكوينها ، وحشا لغيرها على احتذاء

مثالها ، اذ كانت اسبرطة أمة حربيين لا هم لهم الا انجاب نسل قوى
صحيح الأبدان »

واذ كان الأثيني يكره أن تكون للمرأة شخصية يتحدث عنها .
أحنته من يوريبيدس توفره على دراسة الشخصيات النسوية في دراماته ،
قال يوريبيدس على لسان احدى النساء فى رواياته : « نحن النساء أتعس
الكائنات ذوات الحياة والحس ، علينا أن نشترى بالذهب زوجا هو فى
الوقت نفسه - واأسفاه - مالك نفوسنا ، وعلى خلقه ساء أو حسن يتوقف
مستقبلنا ، لأن الطلاق يعد عارا على المرأة ، ولا تستطيع المرأة التبرؤ من
بعليها ، وحين تلقى نفسها وسط أخلاق وعادات جديدة غريبة عليها ،
نعوزها ملكة التنبؤ - ان لم تكن قد لقنت فى دارها - لتعلم خير الطرق
لمعاملة حليلها ، وإذا أفلحنا فى استبقاء أمانتنا أزواجنا لنا فلم يفروا منا ،
عدنا أنفسنا فى زمرة السعداء ، والا فليس هناك الا الموت ، والرجل
اذا مل المقام بداره أمكنه أن يخرج ليرفه عن نفسه بين أصدقائه ومعارفه .
أما نحن فليس لنا من نتوجه اليه سواء ، وهم يقولون لنا اننا نحيا حياة
وادة فى بيوتنا ، بينما يذهبون الى الحرب ، ولكن هذا هراء ، فاني أؤثر
ان أخوض الوغى مرتين على أن أحمل طفلا مرة واحدة » .

وكانت منزلة المرأة الرومانية فى العصور الأولى منحلة جدا حيث
كانت تعد فى نظر القانون قاصرا يتولى رعايتها أبوها ثم زوجها ، وتعد
فى نظر القانون اذا ما تزوجت ابنة لزوجها ، ولا تشارك فى الأعمال
ولا تقبل منها شهادة ، ولكن تلك المنزلة ارتقت بتوالى الأيام ، واما عدل
نص القانون الجائر واما تحويل عليه ، حتى نالت المرأة الرومانية تمام
حريتها وحتى شاركت فى الأعمال والسياسة ، وكان لها أثر عظيم فى
انشاء كبار رجال روما ، ويقدم التاريخ الرومانى حفلا حافلا من أسماء
الفضليات من النساء ، على حين يخلو التاريخ الاغريقى من مثيلاتهن ،
ومن أولئك كورنيليا أم ثلاثة من زعماء العامة فى صراعمهم ضد الأشراف ،
يعرف كل منهم باسم جراكوس ، قامت كورنيليا على تربيتهن حتى ترشحوا
لتلك الزعامة ، ثم كانت هى الدافع لنشاطهم ، فلما قتلوا واحدا بعد
واحد فى الأحداث الهوجاء التى كانت تتوالى ، اذ ذاك فى روما ، انحازت
أهيم الى الريف وقد أسنت ، حيث توفرت على الأدب ، وغدا منزلها الريفى
صالونا يؤمه الأدباء .

لقد كان تاريخ المرأة فى مجتمعات الحضارات القديمة اطرادا
لحياتها فى البيئات البدائية ، قد هذب من حالها رقى الثقافة وانبساط

العمران ، وأدى ارتقاء الثقافة والحضارة الى ارتقاء النظرة اليها بعض الارتقاء ، ولكن الحضارة ذاتها تجلب مشاكل في حياة المرأة لا تعرفها المجتمعات الهمجية ، فبينما الديمقراطية تكاد تسود في المجتمع البدائي حيث تكاد تتساوى جميع النساء في المنزلة والأعمال ، تظهر الطبقات المتفاوتة في المجتمع المتحضر ، وتختلف النساء بين مرهقة بالعمل وبين مترفة لا تعمل ، ويزداد الاغراق في التميز بين عمل الرجل الخاص به وعمل المرأة الذي تتوفر عليه ، ويقل نصيب المرأة من العمل على العموم ، ويزداد نصيب الرجل ، اذ تنشط العلم والفنون ويختص بها الرجل ، ويجد فيها شغلا عن الحياة الزوجية ، وتظهر آفة لا تعرف على الاطلاق في كثير من المجتمعات البدائية ، هي آفة البغاء الذي تؤدي اليه الأحوال المعقدة في المجتمع المتحضر .

كان احتفاء الوثنيين القدماء - في كل من المجتمعات المتوحشة والمتحضرة - بخصب الأرض وازدهار النماء ، داعية ارتفاع لقدر المرأة كما تقدم القول ، اذا اتخذت رمزا لكل ما في الطبيعة من مظاهر الكثرة والوفرة ، فلما جاءت ديانات التوحيد المنزلة فقدت المرأة تلك الميزة وان كسبت غيرها : اذ أن ديانات الوحدانية قضت على كل ما كان قبلها من آلهة خرافية ومن عبادة لمظاهر الطبيعة ، كما أن الوحدانية خرجت من الصحراء فجاءت دياناتها داعية الى التقشف والاعتدال ، على حين كانت العبادات القديمة تتسم حفلاتها بالقصف والعردة ، ولخروجها من الصحراء جاءت من جانب قوم لا يالفون الزراعة ولا يرون في المرأة رمزا للخصب ، وانما يرونها عبثا في الحل والترحال .

لذلك كانت المرأة في بلاد اليهود ترسف في قيود شديدة الوطأة ، والتراث الأدبي اليهودي حافل بقصص كقصص شمشون تصف خديعة المرأة ووجوب الحذر منها ، وأثرت عن حكماء اليهود أقوال في ذلك كقول سليمان الحكيم : « المتعلق بحبال امرأة كالتقايض على حية » ، وفي التوراة والانجيل تشديد للنكير على المرأة التي انخدعت للشيطان وجرعت زوجها غصص حوبتها ، وكان آباء الكنيسة الأولون شديدي التقييد لحركة المرأة ، وللقديس بولس كتابات كثيرة في هذا الصدد ، قال من بعض رسائله : « أريد اذن أن يتحلّى النساء بمحتشم الثياب في حياة واعتدال ، فلا تطريز ولا ذهب ولا لآلى ولا فاخر زينات ، انما يتحلين بصالح الأعمال التي هي جديرة بالنساء الصالحات ، وللمرأة أن تتعلم في خشوع وخضوع ، ولكنى لا أسمح لامرأة أن تتولى التعليم أو تستبد بالامر دون الرجل ، انما عليها أن تلتزم السكينة ، لأن آدم خلق أولا ثم

خلقت حواء ، ولم يخدع آدم وانما خدعت المرأة فغوت ، على أنها ستكفر عن خطيئتها بقيامها بالنسل ، اذا هى تابعت سبيل الايمان والبر والصلاح والاعتدال » *

ومن ثم نرى فى أوروبا فى العصور الوسطى أن المرأة تزدرى ويرتاب فى شأنها ويحجر عليها ، ونرى الكنيسة تثبط الزواج وتدعو الى ترهب النساء فى الأديرة ، وعدل القانون الرومانى فمحيت الفروض التى كانت مفروضة على العزوبة ، وقام القانون الكنسى بجانبه يقيد الزواج بقيود ترمى الى الحد منه ، فحرم الطلاق لسبب من الأسباب ، وحرم التزاوج بين كثير من الأقرباء ، وجعلت كل امرأة فى حل من التخلّى عن بعولتها وإن كره زوجها ، لتلجأ الى الدير وتكون « زوجا للمسيح » ، وكانت الكثيرات يؤثرن اللجوء الى حياة الرهبنة تلك ، فرارا من عالم يعج بأسباب الشقاء للمرأة ، فقد كانت زوج الفارس أو الشريف المقيمة فى القصر تقضى حياتها سئمة من فراغها المطلق من كل عمل ، ومن جهل زوجها وأقربائها الذين لا عمل لهم ولا حديث الا الحرب وسفك الدماء . أما المرأة العامة فكانت مملوءة المخيلة بأشباح الشياطين التى أوقع رجال الدين فى نفسها أنها تعمل دائما على اغوائها ، كما كانت تتوجس دائما من خطيئتها الأبدية لكونها امرأة *

وقد لقيت المرأة العربية فى بعض القبائل بلاء كثيرا وعنتا فى عصر الجاهلية ، فكانت تعد عبئا وتكايد الوأد والسبى والابتذال ، فأصلح الاسلام من حالها ورفع من قدرها وعلت فى صدره مكابقتها وظهرت المرأة فى عالمى السياسة والأدب . بيد أن الامعان فى الحروب والتمادى فى الفتوح والانهماك فى الترف كلها أعداء لمكانة المرأة ، والجهل والخرافة عدوان لدودان لها أيضا ، فلما فشلت بين العرب نتائج الحرب من ترف ورخاوة ، وانتشر التسرى والغزل بالذكور فى العصر العباسى وما بعده ، وران الجهل وتغلّبت الأوهام والخرافات فى العهود المتأخرة ، اشتد النكير على المرأة وهبطت منزلتها هبوطا سحيقا ، وأنحى عليها الشعراء وفيهم أبو العلاء بقوارض الكلم ، ولم يرتفع بالدفاع عنها والتنبيه الى سامى وظيفتها فى المجتمع الا صوت ابن رشد ، الذى قال ان ثلثي المجتمع الاسلامى معطل لكون المرأة تحيا عالة على الرجل ، وقال بجدارة المرأة بمعالجة شتى الأعمال التى يعدها الرجل وقفا عليه ، وما ذاك الا لاستيعاب ابن رشد لكتاب « الجمهورية » ، الذى يضع فيه أفلاطون المرأة على قدم المساواة الثامنة مع الرجل ، وقد كان أفلاطون فى ذلك كما كان فى وجوه أخرى سابقا لعصره *

ولما بزغ فجر الحضارة الحديثة فى القرن الخامس عشر ابتدأت المرأة الأوروبية تنسجم بعض الحرية وتمتتع ببعض الرعاية ، فشاركته فى النشاط الفنى الذى غمر أوروبا منذ ذلك العهد ، وظهرت فى سماء السياسة أسماء نساء قديرات كاليزابث ملكة إنجلترا وكاترين قيصرية روسيا وكاترين دى مديشى فى فرنسا ، وظهر أدب يتوخى رضا المرأة يتمثل فى عصر النهضة فى كتاب يوفىوس ، للكاتب الانجليزى اليزابثى ليلى (بكسر اللامين) ، وكتابات ستيل وأديسون بعد ذلك ، وكان تحسن مركز المرأة الاجتماعى مقرونا بظهور القصة الاجتماعية الحديثة ، وبها أولعت وفى مجالها برزت كثيرات من القصصيات ، وما زالت المرأة حتى مزقت كل الحجب التى أسدلتها عليها جهالات القرون الوسطى ، وبرزت الى المجتمع وشاركت فى أعماله وضربت فى التعلم والتعليم بسهم وافر .

بيد أن ذلك التقدم كان بطيئا جدا ، لأن عقائد العصور الأولى وأوامها كانت شديدة الوطأة على العقول . وظلت المرأة فى أرقى البلاد الأوروبية الى القرن الماضى تعد أحط من الرجل منزلة وتقام من حولها القيود والأسداد ، وظل كبار الكتاب على إعجابهم بأفراد هنا وهناك من نوابغ النساء ، يسيئون الظن بالمرأة ويدعون الى الحد من نشاطها . والآراء الماثورة عن جونسون وروسو مثلا فى هذا الباب تردد صدى عقلية الانسان البدائى ، بل رددت ذلك الصدى كتابات كبيرات من نوابغ النساء أنفسهن ، كالكاتبة الانجليزية حنا جراى ، التى حملت على أنصار الحركة النسوية الناشئة ، ومدام ستايل التى قرطت كتابات روسو الجائرة عن المرأة .

قال روسو فيما قال : « لقد خلق الرجل والمرأة أحدهما للآخر، ولكن اعتماد أحدهما على الآخر ليس من فوخ واحد ، فانما يعتمد الرجل على النساء لارضاء رغباتهم ، بينما يعتمد هؤلاء على الرجال بحكم رغباتهن وضرورتهن معا ، ففى امكاننا أن نحيا بدونهن فوق ما يمكنهن الحياة بدوننا . . ومن ثم يجب أن يظل تعليم النساء دائما نسبيا دون تعليم الرجل ، فواجبات المرأة فى كل العصور هى أن تنال رضاها ، وتكون نافعة لنا وتجعلنا نحبها وتقدرها ، وأن تعلمنا ونحن صغار وتعنى بنا كبارا وتمدنا بالنصح والسلوى وترد حينئذنا مأنوسة محببة ، وهذا كله ما يجب أن تتعلمه فى الصغر » .

وكان أول صوت ارتفع لتنفيذ أمثال هذه العقائد والمناذاة بحقوق المرأة فى الوقت الذى بدأت فيه المناذاة بحقوق الانسان ، صوت الكاتبة

الانجليزية ماري ولستونكرافت في أواخر القرن الثامن عشر ، فقد كتبت في ذلك كتابا قالت منه معلقة على الصورة التي رسمها روسو للمرأة المثالية في رأيه : « مثل هذه المرأة يجب أن تكون ملاكا واما أن تكون أنا ، فاني لا أرى أثرا للطبيعة الانسانية من عقل أو شعور ، في هذه الأجرة الكادحة في دارها ، المفقود وجودها في وجود طاغية متحكم » .

لقد قاست الانسانية بلاء كثيرا من جراء جهل الانسان وقصور عقليته في أزمنته الماضية ، فقامت الشعوب بغى الطغاة المستبدين ، وذاق الرقيق صنوف الهوان على أيدي مالكيه ، ولقيت المرأة الويل والثبور في المجتمعات المتأخرة والجاهلة ، وعانى الأطفال العنت والارهاق من آبائهم ومريرهم بحجة احسان تنشئتهم ، وشقى الفقير بالعنى والعامل بالمالك والضعيف بالقوى ، ولكن العلم هو الذى أنار سبيل الانسان خلال تلك الظلمات ، وهو الذى بصر بمكانه فى الكون ووظيفته وغرضه ، وخلصه من تحكم الوهم والخرافة ، وأراحه مما كان يكبل به نفسه من قيود ودواعى شقاء بلا مبرر ، فما ارتقى العلم فى العصر الحديث حتى كفت سطوة المستبدين من الحكام ، وحرر الرقيق واستعمل الرفق فى معاملة الطفل والعامل والمسجون والمريض ، وأزيح عن كاهل المرأة أعباء موقرة من الارهاق والهوان والجهل والانحطاط .

على أن الخطوة الأخيرة فى كل هذه الأبواب لم تخط بعد ، وأسباب البؤس والشقاء ما تزال كثيرة مستفيضة ، ومنزلة المرأة ولاسيما بين الطبقات الفقيرة ما تزال فى حاجة الى اصلاح كبير ، ومسائل كثيرة مما يتعلق بالمرأة ما تزال قائمة لم تحل بعد ، ونظرة الكثيرين الى المرأة ما تزال مصطبغة بصبغة عصور الخرافة والوهم ، ومسائل الجنس ما تزال كما كانت عند الانسان الأول موضع تحريم أو تبو ، الخوض فيها جرأة على الآداب ، ويحمد تجنب بحثها ، وان كان فى ذلك الجهل بحقائقها ، وهذا النفاق فى أدب الجنس يسبب شقاء كثيرا لكلا الجنسين وللأسرة ، ولن تتم السعادة الجنسية والانسجام الاجتماعى ، الا يوم يزاح عن الجنس كل أثر من آثار الألغاز والأسرار ، ويماط عن المرأة ما خلعت عليها عصور الجاهلية من قيود ، ولا يكون بينها وبين الرجل من فرق الا الفروق التى أقامتها بينهما الطبيعة لغاية من غاياتها من تقسيم للعمل ، وتحسين للنسل وترقية للحياة .

الجنةة يحاكمون الأبرياء

لقى أحرار الفكر والمصلحون والمجددون والعلماء والفلاسفة والأدباء صنف المحن وضروب الاضطهاد ، على أيدي أعداء ثلاثة رئيسيين : الدولة . رجال الدين على تكفير من تخشى بأسهم أو تأثير أفكارهم ، واستنجد منها على البطش بذوى النفوس الكريمة والأفكار النيرة ، فاستعانت الدولة رجال الدين على تكفير من تخشى بأسهم أو تأثير أفكارهم ، واستنجد رجال الدين بالدولة على الفتك بمن يناهض عقائدهم أو يعمل على اصلاح المفاسد التي يدخلونها في العقائد والشرائع ، وعبثت الدولة ورجال الدين معا بالعامية ، ينشرون بينهم الدعوة يستثيرون جهالتهم وتعصبهم وخبيث نزعاتهم ضد من يرمون الى الايقاع به .

والتاريخ يعج عجيجا بحوادث الاضطهاد والتعذيب والمصادرة ، بالفتن والحروب التي مرجعها التعصب وشهوة الاضطهاد والبغى على الأبرياء ، ولكن الأم ضروب ذلك الظلم الذي يحفل به التاريخ ، ذلك الضرب الذي كان يجرى على صورة محاكمة ، لا يكتفى المضطهد بمجرد القبض على فريسته والفتك بها ، مجاهرا بالشر ، مصرحا بقبيح طويته ، وانما يعتمد الى ستر تلك الطوية ، وتبرير عمله ، و اظهار ظلمه في صورة العدل الناصع ، لظروف تحمله على ذلك ، من بقية احترام للرأى العام ، أو رغبة خبيثة في الاعماع في النكاية واطالة زمن العبث بالفريسة ، كما يلعب القط بالفأر برهة قبل تمزيقه وازدراده .

عرف الاغريق مثل ذلك العهد من الانتقال حوالى القرن الخامس قبل الميلاد ، حين اصطلمت الفلسفة الجديدة بالمعتقدات الوثنية القديمة ، وانجلى ذلك الصدام فيما انجلى عنه عن محاكمة سقراط ، وعرف ذلك العهد الانتقال لى العرب في العصر العباسى ، حين اصطلمت العلوم الاغريقية المنقولة بالأراء الدينية المتغلغلة ، فكانت بين المسلمين أزمات فكرية واضطهادات حول مسائل القدسية وخلق القرآن ، والفلسفة عامة ، والتصوف ، وغير ذلك .

ونسب الكثيرون الى التزندق ، وحوكم الفيلسوف ابن رشد فى قرطبة ، وعرف الأوربيون المحدثون عصر الانتقال الفكرى هذا فى النهضة الكبرى حوالى القرن الخامس عشر ، وفى ذلك العصر والعصور التالية حوكم من رجال الفكر جون برونو وميخائيل سرفيتس وجاليليو ، وعشرات غيرهم .

فالاغريق على رقيهم السياسى لم تكن لديهم طبقة خاصة من القضاة المحترفين المتوفرين على مهنتهم ، بل كان كل مواطن حراً بالغ صالحاً للجلوس مجلس القضاء ، وكانت المحكمة لديهم أشبه بدار نيابة فى كثرة عدد أعضائها ، فكانت أحكامها تتسم بما تتسم به أحكام الجماعة من اندفاع وراء العواطف وتقلب فى الأهواء ، وكانت التهم توجه فيها الى المتهمين فى لفظ موجز مجمل هو أدنى الى قرارات المجالس النيابة منه الى قرارات الاتهام المفصلة ، وكان النظام القضائى الرومانى تخالطه بعض هذه المثالب ، رغم رقى القانون الرومانى رقى عظيمًا .

أما القانون فى الدول الاسلامية فكان دينياً مأخوذاً من الكتاب والسنة ، اللذين توفر جلة العلماء والفقهاء على استخراج الأحكام منهما ، وكان القضاء بين الناس من أول ما اهتم به الخلفاء ، وظل بعضهم يجلس لرد المظالم الى أزمنة متأخرة ، وعرف القضاة المسلمون لا سيما فى الصدر الأول بشدة الورع والعدل والتحرّج ، حتى كان كثير من العلماء يتجنبون مناصب القدمات اتقاء الخطأ فى التأويل والحكم ، على أن الطغاة الظالمين من الحكام لم يعدموا - لا سيما فى العصور المتأخرة - من يمالئهم من القضاة على أهوائهم ومظالمهم . ويروى لنا المقرئى أخبار بعض القضاة الذين لم يستنكفوا من تغيير حكمهم فى مسألة واحدة عدة مرات ، نزولا على ارادة بعض سلاطين مصر .

كانت المحاكمة فى أوربا فى العصور الوسطى وما بعدها الى القرن الثامن عشر تقوم على ما يشبه الاعتقاد مقدما بأن المتهم مذنب ، ويرمى التحقيق فى السجن وفى المحكمة الى ارغامه بكل الطرق على الاعتراف ، وكانت تتبع فى التحقيق تقاليد مقررة اكتسبت بطويل المران : من الوعد والوعيد والمخادعة والتمليق ، وكان اعتقاد المحققين فى غالب الأحيان أن للمتهم شركاء ، فهم يبذلون الجهد لاستدراجه الى ذكر أسمائهم ، بل كان يتهم بمشاركة المتهم فى جريته من يتطوع للشهادة لمصلحته أو لمساعدته أو للدفاع عنه على أية صورة ، فكان الخوف من تلك العاقبة يحرم المتهم معونة من يستطيعون اثبات براءته .

تحت تلك النظم القضائية القاسية قدم أحسار الفكر للمحاكمة متهمين تارة بالزندقة ، وطورا بالسحر ، وتارة بالاباحية ، وأمام المحاكمة الكنسية حوكم برونو ، وحاكم جاليليو ، وحوكمت جان دارك ، وأسلم الاول والأخير بعد المحاكمة الى السلطات المدنية لتفرغ من شأنهما « بدون سفك دم » وهو التعبير المصطلح عليه اذ ذلك لاحراق المحكوم عليه علنا في بعض الميادين أو الأسواق ردعا له وزجرا لغيره ، فاذا كان المحكوم عليه مفكرا ساقته الى ذلك الموقف كتبه التي احتوت على زائغ الآراء ، كالقول بالدورة الدموية في جسم الانسان ، أو بالدورة الأرضية في الفضاء ، احرقت مع جسمه كتبه ، وحرمت تداولها .

بقيت تلك الوسائل البربرية في القضاء الجنائي سائدة الى القرن الثامن عشر حتى هب علماء ذلك العصر المسمون بالفلاسفة من أمثال فولتير وروسو ينددون بتلك الشناعات ، التي لا نظير لها بين كثير من الجماعات الهمجية ، فيبدأ اصلاح المساويء تدريجا ، بدأ من أواخر ذلك القرن وفي غضون القرن الماضي ، عملت على ذلك حقوق الانسان التي أعلنتها الثورة الفرنسية ، فقررت مثلا ألا يحاكم المرء على جريمة الا اذا كان هناك قانون قائم يعاقب عليها ، ثم ألغى التعذيب في التحقيق وأصلحت أحوال السجون ، وتغيرت النظرة الى المجرم والعقاب .

فلما انتشر الروح العلمي في القرنين الأخيرين وذاعت مبادئ الانسانية نظر الى المجرم نظرة رحمة وإخاء ، فان كان جرمه راجعا الى جنون أو اختلال ما ، كان أحق بالعلاج منه بالعقاب ، وان كان امرا صالحا كما تشهد القرائن قد سيق الى جرمه في ظروف تاعسة استعمل الرفق في امره وأرجى تنفيذ عقوبته رجاء استصلاحه ، ولم يدخر العقاب الصارم الا للمجرم المصر العائد الذي ثبت أنه لا يستصلح ولا يرجو ، وتحول الغرض من العقاب من الرغبة في الانتقام الى الرغبة في التربية .

على أن هذه المبادئ النبيلة التي انتهى اليها العصر الحديث ووضع بها حدا لبربريات العصور الوسطى كانت سائدة بدهية لدى المسلمين في عصورهم الزاهرة يشهد بها كتاب عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى أبى موسى الأشعري ، والتعذيب الذي كان عند أوربيى العصور الوسطى والنهضة وما بعدها قاعدة مقررة لا غبار عليها من قواعد التحقيق ، كان محرما ممقوتا لدى المسلمين لا يكاد يكون معروفا في القضاء ، فقد روى أن عمر بن عبد العزيز أتى برجل أقر بذنب بعد أن عزر وضرب ، فخلى سبيله وأبى مؤاخذته ، وجاء في كتاب الحراج لأبى يوسف : « ومن ظن به

أو توهم عليه سرقة أو غير ذلك فلا ينبغي أن يعزر بالضرب والتوعيد والتخويف فإن من أقر بسرقة أو بحد أو بقتل وقد فعل به ذلك فليس إقراره ذلك بشيء ولا يحل قطعه ولا أخذه بما أقر به .

قلنا إن المفكرين كانوا يتهمون أمام أنصار القديم بالكفر أو الإباحية الخلقية أو السحر ، وبالأولين اتهم سقراط وهو أول مفكر عظيم ينتهي إلينا التاريخ استشهاده في سبيل تعاليمه .

وممن حوكموا على آرائهم ابن رشد في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي في زمن خلفاء الموحدين ، فإنه لنبوغه في الفلسفة تنكر له رجال الدين وكادوا له عند الخليفة ، حتى تحول من العطف عليه إلى الغضب منه ، ويقال إن من أسباب ذلك التغيير أن ابن رشد في تعليقه على كتاب الحيوان لأرسطو ذكر أنه رأى الزرافة « عند ملك البربر » وفاته أن يذكر الخليفة بالتعظيم والتفخيم ، فلما بلغت مودة الخليفة حدها أمر بإبن رشد وتلاميذه فأحضروا في المسجد الجامع بقرطبة ، وقام فقيهان فخطبا بتهمة إهم بالمروق ويستوجبان لعنتهم ، ولم يدافع ابن رشد عن نفسه ، وأمر الخليفة به وبأصحابه فنقلوا إلى ناحية قاصية ، وأحرقت كتبهم ، وصدر منشور يشرح ذنوبهم ويحذر الناس منهم ويؤلبهم عليهم .

وقال ابن رشد : « أعظم ما طرأ على في النكبة أني دخلت أنا وولدي عبد الله مسجدا بقرطبة وقد حانت صلاة العصر فثار لنا بعض سافلة العامة فأخرجونا منه » .

على أن النفي والاهانة لم يشفيا على ما يظهر نفوس أعدائه الذين لم يكن يروى غليل تعصبهم إلا قتله وقتل أتباعه شأنهم في ذلك الدين . شأن رجال الدين اللتفين بالأمراء في كل العصور .

وقد قاسى العالم الفلكي جاليليو طعم « مقام الحزى » هذا جزاء على أبحاثه في علم الهيئة وإن لم يكن مبتكرا لما قال به ، ولم يكن إلا مرددا - بعد استعمال منظاره المعظم - لما قال به كوبرنيق قبله بزهة نصف قرن ، فقد أبطل كوبرنيق مذهب بطليموس القائل بثبات الأرض ودوران الأجرام السماوية حولها كما توهم به حركة تلك الأجرام اليومية ، وأثبت أن الشمس ثابتة وأن الأرض تدور حولها وتدور حول نفسها ، ولكن كوبرنيق لم يعذب على هذه الزندقة لأنه أثر العافية فلم ينشر كتابه في

حياته ولم ينشر الا عقب موته ، فلما أيد جاليليو نظريته في لفظ معمم متحفظ اقتيد الى المحكمة الكنسية في روما وهو شيخ سقيم وسجن واستجوب ولم ينجح من الاحراق الا اعترافه بجرمه وندمه على ما فرط منه واعلانه خطأ كوبرنيق وصواب بطليموس وتقريره توحيته عن اذاعة النظرية الجديدة .

وممن حوكم في الدولة الاسلامية متهما بالزندقة لغضب السلطان عليه القائد الأفشين : كان حديث عهد بالاسلام فلم يمنع ذلك المعتصم ان يوليه القيادة على جند المسلمين ، فلما دبت عقارب السعاية بينهما اتهمه بالزندقة والردة والميل الى المجوسية ، ولف لمحاكمته محكمة كان من اعضائها الوزير محمد بن عبد الملك الزيات المعروف عنه تفننه في تعذيب خصومه واختراعه آلة لذلك ، وكيلت للأفشين بجانب الزندقة تهمة التآمر على سلامة الدولة أيضا ، وقد رد على كل تهمة وجهت اليه أسد رأى وأشده اقناعا ، فلم يمنع ذلك أن يجوع في سجنه حتى يموت ثم يحرق مصلوبا .

وفى أوائل القرن الرابع عشر تنابعت في شتى أنحاء أوروبا محاكمات ظالمة ، كان قضائها متشابهين وضحاياها متماثلين وتهمهم جميعا متقاربة ، أولئك الضحايا هم فرسان المعبد ، وهم جماعة دينية تآلفت في عهد الحروب الصليبية لحماية الحجاج من قطاع الطريق ، وكان من مبادئ الصرامة والتقشف ، ولكن لم تنته الحروب الا وقد أثرت تلك الجماعة اثراء فاحشا ، وركن أعضاؤها الى الدعة وتثمين الأموال والضياع ، حتى طمع في أملاكهم فيليب الجميل ملك فرنسا ، ومهد له السبيل لاضطهادهم مشيره القدير المحامي ديبوا المشهور بمشروعه الرامي الى توحيد أوروبا تحت زعامة فرنسا ، كما ساعده في محاربتهم جماعة دينية أخرى ، هي جماعة الدومينيكان ، وطالما كان بعض الجماعات الدينية في أوروبا حربا على بعض ، كما مالا اليسوعيون لوييس الرابع عشر مثلا على القضاة على الجنسيين .

أصدر فيليب الجميل أمره فجأة بالقبض على فرسان المعبد ، وقدموا للمحاكمة في شتى بقاع فرنسا بتهم الزندقة والاباحية والاتصال بالشيطان وعبادة الأوثان ، وكتب الملك الى ملوك أوروبا يستحثهم على حذو مثاله ، وبملااة البابا اياه - وكان اذ ذاك تحت نفوذ ملك فرنسا - استطاع فيليب أن يقيم المحاكم المدنية والكنسية على قدم وساق سنين عددا تنكل بفرسان المعبد في أنحاء أوروبا ، وكانت التهم الموجهة اليهم

فى بادىء الأمر مبهمة متخاذلة ، ولكنها بمضى الزمن والمران اتخذت أشكالاً أشد تحديداً وتخصيصاً ، وتم لفيليب ما أراد من استتصاف أموال الجماعة ، وأزاح من وجه الملكية التى كان يعمل على توطيدها فى فرنسا عدواً قوياً دولى النظام دىنى الصفة .

وكانت هناك تهمة خطيرة تفشى وباؤها فى أوربا خاصة فى العصور الوسطى وعصر النهضة وما بعده ، تلك تهمة السحر ، وكانت تلك التهمة تكال أول الأمر لأعداء الكنيسة المتهمين بالبقاء على دين الوثنية ، إذ كان قيامهم بمراسيم الأعياد الوثنية يعد اتصالاً بالشيطان ، ثم صارت التهمة توجه إلى كل زائغ مخالف ، وانتشرت عدوى تلك التهمة فى عهد الإصلاح الدينى ، وبعده فى شمالى أوربا ، أى فى الأقطار البروتستنتية خاصة ، ولعل ذلك كان أثراً من آثار انكبابها على دراسة الكتاب المقدس ، وهو كثير التوكيد لشرور الشيطان ووجوب الحذر منها .

انتشر الاعتقاد بالسحر فى أوربا ، وطما فى عصر أحياء العلوم ذاته ، فكان من أعاجيب التاريخ ، فالعصور التى أنجبت لوتر وارزمس وشكسبير ودورر وغيرهم من المفكرين والفنانين ، كانت تؤمن بالسحر وتعتقد بقدرة ممارسيه وممارساته — وقد كانت المرأة خاصة متهمه بممالة الشيطان — على نفع بنى الإنسان وضرهم وعلى الشفاء والأمراض والقتل ، وعلى الأخبار بالغيب ، وفى روايات شكسبير كماكبث مثلاً شواهد لذلك وفيرة ، وقد صور لنا مارلو ثم جوته صوراً من اتصال الإنسان بالشيطان فى روايتيهما عن فاوست .

وكانت جان دارك فتاة نقية لم تتجاوز السابعة عشرة ، عرفت فى قريتها بالصالح ، واشتهر عنها إيمانها الدينى العميق ، ولم تعد أن دافعت عن بلادها ضد الغاصب ، فكان من الصعب اختراع التهم لها ، فلم يكن غير السحر تفسيراً لقواها الخارقة وأقدامها فى الحرب وتأثيرها فى الجند وارتدائها ثياب الرجال وما ثدعيه من رؤى تراها وأصوات تهتف بها ، وعذبت الفتاة فى سجنها شهوراً طوالاً ، وأجرى التحقيق معها على النحو الوحشى السالف وصفه ، ومع ذلك وقفت فى المحكمة وقفة إباء نادر ، وأبت التراجع وتلقت حكم الإحراق بثبات وإيمان .

ومن قضايا التعصب الدينى الحديثة التى كان لها أثر عميق فى الأذهان أدى إلى إصلاح القضاء ونبت التعصب وأثبت حقوق الإنسان ،

قضية « كالاس » فى فرنسا التى كان بطلها فولتير ، فقد اتهم كالاس هذا من أهالى تولوز بأنه قتل ابنه لمنعه من اعتناق الكاثوليكية ، اذ كان اعتناقها اذ ذاك ضروريا لاحتراف المحاماة ، ومع أن كل القرائن كانت تدل على أن الابن انتحر لضيق نفسه ، عذب الشيخ الثاكل تعذيبا بربريا ، فأصر على براءته ومع ذلك أعدم ، فلما علم فولتير بالقضية وكان يمتك التعصب والقسوة كل المقت ، استأنف القضية أمام مجلس الملك وصرف عليها من جهده وماله الكثير ثلاث سنوات حتى صدر الحكم بتبرئة الشيخ وإدانة برلمان تولوز .

أما المحاكمات التى يتجلى فيها ظلم الشعب وتحكم العامة فأروع أمثلتها فى حوادث الثورة الفرنسية ، ومنها محاكمة الملك لويس الحادى عشر والملكة ماري أنطوانيت والزعيم دانتون وأتباعه ، والعشرات أو المئات من الأشراف وغيرهم ، حيث كانت تكال التهم جزافا ولا يسمح للمتهم بالكلام طويلا أو الدفاع عن نفسه ، ويهدد أعضاء المحكمة ويؤثر فيهم بمختلف الوسائل ، فكان داخل تلك المحاكم مدانا محكوما عليه قبل أن تفتتح الجلسة ، ومن ثم كان كثير من الأشراف يرفض الكلام ويلزم الصمت ويسير الى المقصلة فى ثبات ، ومن أمثال تلك الفتن والمحاكمات ينجلي أن رجل الشارع أشد بطشا واستبدادا فى بعض الأحيان من الطاغى المتوج .

تلك أمثلة من تعصب الانسان لرأيه ومذهبه وضيق ذرعه بمخالفيه وفتكه بالواقفين فى طريقه ومحاولته لباس ظلمه لباس العدل وإظهار نوازه الشريرة فى مظهر الفضل والنبيل والغضب للحقيقة ، وأمثلة تلك المحاكمات المغرضة فياضة يجيش بها التاريخ ، تتجلى فيها ألوان الجور والتنكيل والقسوة والوحشية ، فلا غرو أن قال بعض الكتاب انه لو أقيم متحف يمثل تاريخ القضاء الجنائي ، يضم ما استعمل فى الماضى من آلات التعذيب ، وما تخلف من الوثائق والأسانيد ، وما كان هناك من طرق للعقاب والانتقام ، وما قاساء المسجونون فى غياهب السجون من بلاء ، لجاء ذلك المتحف حافلا بكل مفظع بشع ، ولتمثلت بين جوانبه صفحة من أظلم الصفحات فى تاريخ الانسان !!

أبو العلاء بين شعراء العربية

يُميّز المَعْرِى عن شعراء العرب ؟ وما هى الخصائص
الفكرية التى يتفرد بها والتى جعلته انضج ثمرة من ثمار
الادب العربى ؟ هذا ما يبحثه كاتب المقال *

ليس أبو العلاء أحد فحول شعراء العربية فقط ، يحل منهم فى
الطبقة الأولى بجانب المتنبى وأبى تمام وابن الرومى ، وليس هو فقط أحد
أساطين كتابها ، يبارى ابن المقفع والملاحظ وبديع الزمان بصرا باللغة
وتكنا من أساليبها واحاطة بترائها . بل هو بين أدباء العربية شخصيه
فذة فريدة : يتشابه الآخرون فى أشياء كثيرة حتى كأنهم أبناء عصر واحد ،
ويختلف عنهم جميعا فى أشياء كثيرة كأنه ابن عصر وحده ، أو كأنه يمت
الى أدب غير أديهم وتراث ثقافى غير تراثهم ، وهذا التميز أهم سمات
أبى العلاء *

فقد كانت نزعة المحافظة غالبة على الأدب العربى منذ عرف العرب
الحضارة والثقافة ، قد احتفظ أهلوه بتقاليد ورثوها عن فحول الجاهلية
وصدروا الاسلام ، وحرصوا على اتباعها ولم يحبوا أن يبدلوا عليها كبير
تبديل ، فقصروا الشعر والنثر على موضوعات خاصة لم تتجدد كثيرا .
وأما كان هم أكثرهم أن يجازى المتقدمين فى طرقها . فالفخر والحماسة
 والمدح والهجاء والنسيب الاستهلال فى الشعر ، والرسائل الديوانية
والاخوانية فى النثر ، والأسلوب المحلى بالمحسنات البديعية فى هذا
وذاك . وقد طمع أكثر الشعراء فى جوائز الملوك فقصروا أكبر جانب من
فصيدهم على المدح ، وطمع الكتاب الى الكتابة فى دواوين الأمراء فتوفروا
على تحبير الرسائل الانشائية ، وعاش هؤلاء وأولئك فى حياة صاحبة بين
هواكب الحاكمين ومحافلهم ، وبين مظاهر الترف المادى وأسباب اللذات
الحسية ، ومن ثم كان الأدب العربى والاسلامى أكثره أرسقراطى *

أما أبو العلاء المعرى فسللك طريقا وحده امتاز بها عن أبى نواس
والبحترى والطائى ، كما امتاز بها عن عبد الحميد وابن العميد والصاحب

وغيرهم من الكتاب الوزراء ، فجاء أدبه أكمل من أدبهم ، وشخصيته مفترقة ممتازة عن شخصياتهم ، وكان تراثه الأدبي من شعر ونثر أعظم قدرا وأخلد أثرا وأشد امتاعا للأديب العصري من تراث من ذكروا ممن هم على شاكلتهم .

فأبو العلاء لم يتعلق بحبال الأمراء ولم يقل فى مدحهم الا القليل الذى أودعه ديوان «سقط الزند» ، على أنه لم ينظم ما نظم فى ذلك الباب طلبا لنوالهم ولا استظلالا بجاههم ، ولكن نظمه مجاملة أو مودة أو رياضة للقصيد وتلهيا بمعارضة المتقدمين ، ولم يستغرق ذلك الا جانبا ضئيلا من شعره ، ولم يستأثر بمعظم ما نظم كما استأثر المدح والهجاء بمعظم ما نظم البحرى والطائى ومهيار وغيرهم .

انما التفت أبو العلاء الى التأمل المجرد والتفكير الحر المنزه ، على أنه لم يطرق الابواب المعهودة المتوارثة فى الأدب العربى ، والتي كان يطرقها الشعراء حين يتحسرون من المدح والهجاء ، كالوعظ الذى شغل به أبو العنانية وأمثاله ، والحكمة التى أولع بها الطائى والمتنبى وسواهما ، والتمدح بمكارم الاخلاق والتحدث عن الاخوانيات اللذين كلف بهما الشريف الرضى وغيره . كل هاتيك كانت موضوعات مألوفة تقليدية فى الأدب العربى ، تداولها الشعراء فى مختلف العصور ، وتشبهوا فى كثير منها. بالمتقدمين . أما أبو العلاء فانفرد بالتأمل فى أحوال الانسانية جمعاء : ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، فصرف ذهنه فى التاريخ وتدبر أحوال الغابرين ، وتسائل أين القبور من عهد عاد ، ورجح أن يكون قبل آدم أدام آخرون ، وتصور سائلا فى المستقبل يسأل عن مكة كما يستخبر المستخبرون عن جديس وطسم ، الى غير ذلك من نظرات الفكر الذى يروعه قلب العصور وتغير الأجيال والشعوب والبلدان ، ولا يقنع قناعة أكثر شعراء العربية بالنظر الى حاضره واغتنام عاجله ، عن التأمل فى الماضى والمستقبل وتقصى بعيد الآفاق .

ولم يقتصر أبو العلاء على النظر فى شئون الانسان ، بل وسع فكره وشمل اهتمامه عالم الحيوان واحتفى له احتفاءه ببنى جنسه ، بل عد الانسان والحيوان متماثلين فى الصفات والطباع ، متماثلين فى رضوخهم لصروف الأقدار والنواميس الطبيعية ، وخضوعهم لتنازع البقاء وما يستتبع من سجايا كلها غدر ولؤم كما يقول ، وهو ينهى على الأحياء بغيتها بعضها على بعض ، ثم يرثى لها جميعا لأنها لا معدى لها عن ذلك الصراع الدائب ، وتراه يتحدث فى شعره عن الضرغام والظبى والصقر

والحماسة والذئب والشاة والنحلة ، حديثه عن أناس يعنيه أمرهم ويحرص على مساعدتهم ويود لو يستطيع اصلاح ذات بينهم .

وما هكذا العهد يذكر أدباء العربية الحيوان والطير فى آثارهم :
انما كانوا يذكرون الليث والذئب ليدعوا الفخر بالتغلب عليهما ، والطبى والكلب للتفكه بذكر الطرد والقنص ، والحمائم والبلابل تغنياً بجميل أصواتها ، ويستعيرون صفات هاتيك السباع والاطيار لما يتخيلون لأنفسهم أو لمندوحهم من القوة والهيبة ، ولعشوقاتهم من حور العيون وتلع الأحياء . وسحر اللغات ، أما الاحتفاء للحيوان ذاته والحدب عليه وطول التأمل فى أحواله ، فميزة من الميزات العظيمة التى انفرد بها أبو العلاء .

ولم يقف فكره الجوال وتأمله الشامل عند الاحياء ، بل كان معنياً بشئون الجماد كذلك موكلاً بالتفكير فى الأكوان والكواكب والآباد ، يعبر عن كل ذلك فى أساليب شعرية ممتعة : فيقول ان جبريل لو طار بقية عمره ما استطاع الخروج من الدهر لأنه أزل ، ويقول ان لنار المربخ من حدثان الدهر مطلقاً وان علت فى اتقاد ، وان مولد الشمس يعيى المرء تحديده ، وأن النور محدث والأزلى هو الزمان المظلم ، الى غير ذلك من نظرات تجمع بين النزعة العلمية والحلاوة الشعرية . وبدهى أن أحداً غيره من أدباء العربية لم يعن بالفلك بعض هذه العناية ، أو يكلف ذهنه فى مجاهر الفكر بعض هذا العناء .

كان أبو العلاء فى تأمله هذا فى شئون الخلق متشائماً ، يكره ما يرى من تصارع الأحياء وتنازعهم البقاء ، ويحزنه ما يشاهد من ضعف الانسان وقصور باعه وذهنه ، ويملؤه غما ما يرى فى طباع الناس والأحياء كافة من الزم وأثرة وخديعة وعدوان . وهو تشاؤمه أيضاً نسيج وحده فى العربية ، فالتفاؤل هو السمة الغالبة على الأدب العربى ، وان كثرت فيه شكوى الزمان والاخوان والوعظ والتذكير بالموت والبلى ، والمتنبى مثلاً على طول ما خاصم معاصريه ولاقى منهم ، ورغم خيبة مساعيه وضيقه أمانيه ، ظل عمره حريصاً على الحياة كما قال مستهماً بها صبا .

وانما أفضى بأبى العلاء الى التشاؤم طول تفكيره فى شئون الخلق والحياة ، كما تقدم ، وتوقله فى قمم الفكر العالية الباردة ، بجانب ما رزى به من فقد البصر الذى كان فاتحة رزايا أخرى ، وما امتاز به من رهافة الحس ، هذا الى ما كان يعج به عصره من فساد واضطراب ، أما شعراء العربية الآخرون فنأى بهم عن التشاؤم انصرفهم - كما تقدم

القول - الى حاضريهم ، واقبالهم على دواعى الحياة العملية ، واعراضهم عن طول التأمل فى مظاهر الحياة والغازها ، فأبو العلاء هو ممثل التشاؤم فى العربية ، وهو فى هذا أيضا فذ متفرد .

ولأبى العلاء فلسفته الالهية ، وهى جانب كبير من فلسفته ، والدين من أهم المسائل التى شغلت لبه طول حياته ، وهو شاك رافض لمعظم ما كان يدين به معاصروه من عقائد ، متعجب لما يرى من خلاف بين أتباع اليهودية والمسيحية والاسلام . وليس ينفرد أبو العلاء بالشك والزيغ بين أدباء العربية ، ولكنه يمتاز عن سواء فى هذا الأمر امتيازاه عنه فى سواء : فان المتردقين من أمثال بشار وحماة وأبى نواس كانوا قوما مستهترين متهاكين على اللذات ، لا يكربهم أمر الدين الا ريشا يتحكمون بالمؤمنين ويتحدون عقائدهم ويغيظونهم بفتكهم ، وكأنهم فرحون اذ خلعوا عذار الايمان وخلصوا من ربقة الدين .

أما أبو العلاء فكان زاهدا لا مستهترا ، محرما على نفسه متع الدنيا لا متهافتا عليها ، وما انتهى الى الشك اعتباطا ولا استهتارا ، ولا لسوء صحبة أو ضعة بيئة أفسدت خلقه ومعتقده ، وهو الناشء فى بيت التقى والفضل ، وانما انتهى فكره الناصب الى الشك بعد طول التأمل والنظر وبعد شديد العناء والجهد ، وبعد أن حاول ما وسعه أن يصل الى اليقين ويقتنع بما يقتنع به غيره دون طویل بحث ولا تساؤل ، وكم طلب اليقين من جهينة كما قال فلم تخبره جهينة سوى الظن ، ولو ارتاحت نفسه الى الايمان عن اقتناع الكان أول المؤمنين وأحسنهم عقيدة .

وعلى سبحات فكره فى آفاق الزمان والمكان ، وعنايته بالماضى والمستقبل ، لم يهمل أبو العلاء حاضره القريب ، ولم يعش بنجوة عن مجتمعه ، بل كان معنيا بأمره ، يأسى لسوء حال الرعية وجور الأمراء على مصالحها ، ويعد أولئك الأمراء أجراء لها عينتهم لينعهدوا مرافقها ويسوسوا أمرها ، وهى نظرية العقد الاجتماعى التى ناقشها فلاسفة أوربا المحدثون . وكان أبو العلاء يأسف لعدم تساوى الناس فى الثروة وتقاربهم فى الحظوظ ، فمنهم أمير متوج بالذهب وفقير معرى فى الشتاء ، ومجدود يرزق أقوات أمة ومنكود يحرم قوت يومه .

وهنا أيضا يمتاز أبو العلاء على غيره من أدباء العربية ميزة عظيمة : فقد كان أكثرهم صنائع للملوك يترجمون عن رغباتهم ويتمدون بأعمالهم ويؤيدون دولتهم وان عتوا وان ظلموا ، قد انحازوا الى صف الحاكمين

وكل همهم أن يغنموا مما يفيثون عليهم ، واعتزلوا المحكومين لا يأبهون بحالهم سعدت أو شقيت ، ولا يترجمون لهم عن شكاة ولا يحاولون لهم أصلاحاً .

وقد كان شعراء العربية وكتابها لاتصالهم بالأسراء وبوهمهم في مرحهم وأنشاء رسائلهم ومشاركتهم في حياتهم الرسمية والخاصة ، مشغولين عن التوفر على الادب الجليل والفن لذاته . ومن ثم نرى الشعراء العظام منهم كانوا شعراء فحسب ، لم يؤثروا غير القصائد . كالمثنبي والبحترى وغيرهما ، والكتاب كانوا كتاب رسائل فحسب ، فلم يؤثروا غير ذلك شيء يعتد به . كالصاحب وابن العميد ، ومن أجاد الشعر من الكتاب كالصاحب وحديد بن سعيد كان مقلدا فيه . ومن توفر على الشعر قلما تظفر له بنشر أو رأى يعتد به في النقد .

أما أبو العلاء فلاعتزاله حياة الأمراء الصاخبة . وتوفره على الادب والدرس توفر الناهن على كهنته ، كان أدبيا مكتملا متعدد نواحي الانتاج ، ضرب في الشعر بقدره على وفي النشر بسهمه وافر ، فصاحب اللزوميات هو أيضا صاحب رسالة الغفران ، وناظم ذلك الشعر الفائق هو كاتب هذا الشعر الممنوع ، وهو في هذا وذاك لا يقتصر على باب من القول دون باب ، بل يجيل ذهنه في شتى شئون الحياة والموت والماضي والحاضر والدنيا والآخرة ، والادب والنقد واللغة والفقه . وهو التساخر العربي الكبير الوحيد الذي أثر عنه نقد وآراء معرفة مفصلة عن سابقه من الشعراء كالمثنبي والبحترى وحبيب الطائي .

وقد كان الادب العربي في جملته على المقام قريبا الأغراض . تقل فيه آثار سبجات الخيال ، وتقل فيه الآثار الفنية المطولة ، فغاية ما باخ فيه الخيال انشاء المقامة ، أو اختراع موقف الغزل ، أو نلفيق الاقصصة القصيرة تنسب الى الجاهلية ويفسر بها خبر من الأخبار أو مثل من الأمثال السائرة ، أما القصة والملاحمة والرواية وما إليها من آثار الخيال الواسع . فان خلو الادب العربي منها معروف واضح . ولكن أبا العلاء أبى الا أن يمتاز على سائر فحول العربية في هذا الفن أيضا ، فرسالة الغفران هي العمل الأدبي الكبير الوحيد في العربية ، الذي يقوم على الخيال المتصل ، ويحوى أروع الصور والأوصاف والقصص والفكاهات ، وتدور حوادثه في العالم الآخر ، مستمدة حقائقه مما جاء في القرآن الكريم ، كما استمد دانتى وملتون حقائق ملحمتهما من أنباء الانجيل ، ورسالة المعرى وان طابقت كل أنباء القرآن الكريم وأظهر صاحبها الاعتقاد بصحتها ، على

جرىء لم يقدم عليه غير أبى العلاء من قبل ، هو عمل جرىء من وجهة الفن والخيال ، وهكذا يمتاز أبو العلاء على غيره من أدباء العربية فى ارساله عنان الخيال وكبحهم اياه ، وانه للكفيف المحجوب وانهم للمبصرون المطلقاء .

ذلك أدب أبى العلاء المعرى ، هو فيه نسيج وحده بين أدباء العربية ، وما كان أدبه الا صورة من حياته ، حياة الزهد والاعتزال والدرس والأدب ، فهو لم يصدف عن حياة الأبهة فى حاشية الأمراء فقط ، ولم ياب على نفسه ما كان يصبو اليه الشعراء والكتاب فحسب ، بل حرم على نفسه ما يتمتع به الفرد العادى : فأقام رهين محبسيه أو فى ظلام الثلاثة من سجنونه كما قال : وترهب فلم يتخذ حليمة ، ورغب عن شهى المطاعم وحرم على نفسه لحم الحيوان ، وكان على اعتداده بقدره شأن كل عظيم متواضعا بعيدا عن الادعاء ، يعلم أنه هو وغيره من طالبى العلم والدرس جهالة لا يقاس ما علموه من شئون الكون بما جهلوه ، هذا على حين كان هم الكثيرين من شعراء العربية وكتابها التفاخر والتناول على معاصريهم .

فأبو العلاء المعرى فى اعتزاله حياة البلاطات ، وتوفره على العلم والأدب وادمانه النظر فى شئون الكون ، ودراسته للحياة دراسة تتجلى فيها النزعة العلمية ، وارساله عنان الخيال فى رسالة غفرانه ، واحتفائه فى نظرائه الاجتماعية بشئون الرعية دون الحاكمين ، هو فى كل ذلك مخالف لغيره من فحول العربية ممتاز عليهم ، وهو لكل ذلك بأقرب الى أدباء الغرب الذين عاشوا فى ظل الديمقراطية أحرار الفكر والنزعة ، معنيين بشئون الحياة والمجتمع لا بأمور الملوك والحكام .

وأبو العلاء لكل ذلك يمثل أنضج ثمرات الأدب العربى ، ولا غرو. فقد عاش بين القرنين الرابع والخامس الهجريين فى العصر الذى بلغت فيه الحضارة والثقافة العربيتان أوجهما وأشرفتا على الاضمحلال . ولولا فساد الأحوال السياسية والاجتماعية الذى أسرع بالحضارة والأدب الى التدهور ، لكانت هذه السنن الحميدة التى سننها أبو العلاء للأدباء ، مبدأ عصر جديد فى الأدب العربى يكون فيه أقرب الى الفن الرفيع ، ويكون الأدباء فيه أكثر توفرا على أدبهم ومغالة بقدره ، وأشد كلفا بالتبصر فى بعيد آفاق الحياة . ولكن عوامل الانحلال كانت تتعاور المجتمع الاسلامى من داخله ومن خارجه ، فلم يقدر للأدب العربى طور احياء جديد ، بل سرعان ما دخل فى طور تدهوره الطويل ، الذى لم يبق منه الا فى العصر الحديث ، وكان أبو العلاء المعرى آخر نجم لمع قبل هبوط ذلك الليل الحال ك .

تطور فكرة السلام العالمى

نشبت الحرب ، وتغلب شيطان الشر على ملاك الخير
والسلام ، وفشل دعاة هذه الفكرة الإنسانية العليا فى
تنفيذها بين الأمم • فمتى نشأت هذه الفكرة ، ولماذا نشأت ،
وكيف تطورت الى أن وصلت الى حالتها الراهنة - ذلك ما
يعالجه كاتب هذا المقال •

لحاجة الانسان الى التعاون ورغبته فى حسم الفوضى والدفاع عن
نفسه ، كون منذ أقدم عصوره مجتمعات ظلت تنمو حتى انتهت فى فجر
التاريخ الى مرحلة الدولة التى تتراوح صغرا وكبرا ، ثم وقف عند هذه
المرحلة لم يستطع أن يخطو الى المرحلة التالية لها والنهاية الطبيعية
لترقية السياسى والاجتماعى ، وهى الدولة العالمية التى تجمع البشر
جميعا وتقطع دابر الحروب وتوطد السلام الدائم ، وظلت فكرة السلام
العالمى أمنية تجيش بها الصدور لم تخرج الى حيز التنفيذ بعد •

وانما تعذر تنفيذ الفكرة على جمالها ونفعها الواضح ونزوع أكثر
الناس اليها لما يعترضها من صعاب ترجع تارة الى النفوس البشرية
وما ركب فيها من حب الغلب والاستئثار بكل الخيرات ، وما طبعت عليه
من الطمع والخوف والغيرة ، وترجع تارة الى الفوارق الجغرافية والجنسية
واللغوية والدينية وبعد المسافات ، لذلك تلاشت أحلام المفكرين الذين
طمحوا الى تشييد طوبى عالمية (١) ، وفشلت مجهودات السياسة والغزاة
الفاتحين الذين هموا بتحقيق تلك الأحلام ، وتبين جليا أن تحقيق فكرة
السلام العالمى تحتاج الى تربية طويلة للشعوب واعداد للأذهان •

(١) دولة فاضلة •

كانت الدول الشرقية الكبيرة التى قامت فى العصر القديم كمصر وآشور وفارس شديدة الاعتداد بقوميتها ، شديدة الاحتقار لغيرها ، والبطش بجيرانها ، لم يفكر حاكموها قط فى انشاء دولة عالمية على أساس من المساواة بين الناس وان عملوا دائما على تأسيس امبراطورية ذات حدود مترامية ، يكون لهم ولأممهم فيها السيادة والغنى ، وللمغلوبين الذل والغرم ، فكانت الحروب مستعرة والرق فاشيا والعلاقات الدبلوماسية السلمية بين الدول تكاد تكون منعدمة .

وكان للدين فى تلك الدول المنزلة الأولى ، وعلى ألسن أنبيائها ومصليحيها الدينيين وفى تعاليمهم ظهرت أول دعوات السلام العالمى بغض النظر عن الجنسية والاخاء الانسانى بلا تفرقة . وفى مصر نادى الملك اخناتون باله واحد لا شريك له يدين له المصريون وغير المصريين جميعا ، لاعتباره الجميع أناسا متماثلين واخوانا متساوين ، وان كانت نزعته العالمية هذه قد أغضبت قومه حتى عفوا آثار مذهبه بعد مماته . وفى التوراة ترد فقرات تتحدث عن يوم منشود لا تشهر فيه أمة فى وجه أمة سيفيا ، وتغدو مصر وآشور واسرائيل أخوات ثلاثا محتجبات وان عجت الثورة فى مواطن أخرى بتمجيد اسرائيل والتنبؤ باليوم الذى تدين فيه الأمم لأورشليم وهى صاغرة كما امتلأت ديانات كونفوشيوس وزرادشت وبوذا بمبادئ الاخاء والسلام والمحبة وان لم يحل ذلك دون اشتعال الحروب بين أتباعهم وأممهم أجيالا .

أما اليونان فكانوا أشد فى العصبية القومية ايغالا ، وفى الاستعلاء على الأمم امعانا ، كانوا يعدون غير الاغريق برابرة . ثم كانت كل مدينة اغريقية تستعلى على المدن الأخرى وتطمح كبرها الى اخضاع الأخريات ، وحيد أرسطو فى كتاباته ذلك الشقاق ، ورضى عن الرق الذى كان أساس المجتمع الاغريقى ، ولم يناد بوقف الحروب بل عدها سنة طبيعية ، ومجد الموت فى سبيل الوطن ، وكذلك فعل أفلاطون الذى أنشأ فى مدينته الفاضلة طبقة من المقاتلة ، ولم يخطر بباله أن السلم العالمى شئ يمكن توطيئه .

وما زالت هذه العصبية المحتدمة والنزعة العسكرية المغرقة حتى دفعنا ببلاد الاغريق الى حرب البلوبونيز المدمرة التى دامت ثلاثين عاما ، خرجت منها البلاد منهوكة القوى ، فوقعت فى يد الاسكندر المقدونى الذى رأى الهلنيين جميعا فى حاجة الى يد حازمة تنشر بينهم النظام والسلام ، بل طمح الى ضم الفرع الآسيوى من الجنس الآرى ، وتوحيد الفرس

والاغريق معا فى دولة عالمية تضم ما بينهما وما حوهم من الشعوب المتمدينة ، فعمل على نشر الثقافة اليونانية ، وانشأ المدن والطرق فى أنحاء امبراطوريته ، وشجع التزاوج بين الفرس والاغريق ، واتخذ هو نفسه الملابس الفارسية ، بيد أن دولته ما لبثت أن تفككت بمسوته الباكر ، ولو عاش طويلا لكان لها شأن آخر .

ولم تزل الحروب الطاحنة منذ القدم تزهد الناس فى القتال لما تعقب من الوبال ، فتنشط على أثرها الحركات السلمية ، فنشطت هذه الحركات فى بلاد اليونان عقب حرب البلوبونيز وغيرها ، وكان أرفع المنادين بالسلم صوتا « زينون » القبرصى المولد معاصر الاسكندر ومؤسس المذهب الرواقى ، وقد انتشر هذا المذهب فى روما الناهضة ، واعتنقه بعض أباطرة الدولة الرومانية ، ومنهم مارك أوريل ، فكان لتعاليم الرواقيين السلمية أثر فى خطة روما تجاه الأمم الأخرى .

لم ينزع الرومانيون الى انشاء دولة عالمية كالتى نصورها الرواقيون ، بل كانوا يرون الحرب علاقة طبيعية بين الشعوب ، فاذا تم لهم الغلب على أمة ربطوها بروما برباط من السيادة يختلف توثقا من اقليم الى آخر ، ومنحوا أبناءها حقوقا بجانب واجباتهم ، وقد نشرت الدولة الرومانية السلام فى ربوعها المترامية أحقابا ، وإن لم تكف عن القتال دفاعا عن حدودها وذودا للبرابرة عن أطرافها ، وكثيرا ما أدخلت هؤلاء فى نطاقها وكسبتهم الى جانب السلم والمدنية .

بيد أن الحروب الداخلية والثورات وظلم الطبقات لم تمنع من ربوع الدولة ، وكان من جراء هذه المفاسد أن تهيأت الأذهان لقبول الديانة المسيحية التى اقترن ظهورها بقيام الامبراطورية ، واقرن انتشارها باضمحلال الامبراطورية تدريجا . وقد نادى المسيحية بالسلم العالمى والاخاء الشام بين الناس بلا فارق والمحبة المساواة ، ثم اقترن انتصارها وصيرورتها الدين الرسمى بانقسام الامبراطورية الى شرقية وغربية ، وباتحاد الديانة والدولة ، فقدت المسيحية كثيرا من نقائها الأول ، اذ صارت لها سلطة كسلطة الأباطرة ، وارتدت تضطهد مخالفيها ، وصار أتباعها لا ينفقون من امتشاق الحسام من أجل الدولة ، ومن ثم لم توفق الكنيسة الى نشر السلام العالمى الذى كان أول تعاليم السيد المسيح .

وبسقوط الدولة الرومانية الغربية فى أيدي البرابرة الشماليين ، بدأت العصور الوسطى ، وعاشت فكرة الدولة الرومانية فى غرب أوربا

بعد سقوط روما ، وظلت الأذهان متشبثة بفكرة الدولة العالمية ، وأدى ذلك أولا الى ارتفاع كنيسة روما الى مقام عال وظهور البابوية ، ثم أدى ثانيا الى احياء الدولة العالمية على صورة جديدة هي الدولة الرومانية المقدسة التي كانت حاصرتها في فرنسا تارة ثم في ألمانيا ثم في النمسا ، ولكن لا البابوية ولا الدولة الرومانية المقدسة تمكنت من نشر السلام والائاخاء ، بل ظلت أوروبا طوال العصور الوسطى تعج عجيجا بالحروب بين الأشراف والأمراء والملوك ، بل احتدم الصراع بين البابوية والامبراطورية نفسيهما .

وفي الوقت نفسه استقلت الدولة الرومانية الشرقية في عاصمتها القسطنطينية استقلالاً سياسياً ودينياً ، وسادت بين أوروبا الشرقية وأوروبا الغربية طوال العصور الوسطى قطيعة سحيقة ألهمت ، وظهر الاسلام في تلك العصور واقتنص العرب أملاك الامبراطورية الشرقية في آسيا وأفريقيا ، لأن الاسلام على دعوته الى السلام والتآخي كان يحض على الجهاد في سبيله ونشر دعوته ، وساد العداء طوال العصور الوسطى بين هذه القوى الثلاث المتميزة كل منها بديانته : أوروبا الغربية التابعة للكنيسة الرومانية ، وأوروبا الشرقية التي تدين لكنيسة القسطنطينية الأرثوذكسية والشرق الأدنى الذي يسوده الاسلام ، وتجلي ذلك العداء في أجلى صوره في الحروب الصليبية التي ختمت تلك العصور .

كان الدين متحدا والدولة في العصور الوسطى : فالخليفة في بلاد المسلمين يتقلد السلطتين الدينية والزمنية ، والبابا في أوروبا الغربية ينتحل لنفسه سلطة فوق سلطة الأباطرة والملوك ، وكذلك الشأن في الدولة البيزنطية ، وكان أتباع كل دين أو مذهب يكفرون الآخرين أو يستحلون قتالهم حتى يدينوا لهم ، فكما كان المسلمون يجاهدون في سبيل دينهم بقتال الروم غربا والترك والصفد شرقا ، كان أتباع البابوية ملوكا وأشرافا يخدمونها بقتال العرب أو الساسانيين كما يسمونهم ، أو محاربة برايرة السلاف الوثنيين .

الدين والدعوة للسلام

لم يكن الناس في العصور الوسطى يرون في الدين داعية سلام كما هو في حقيقته ، وجل ما يظهرون به تمسكهم بأهداف الدين مقاتلة غير معنوية . وفي نفس الوقت كانت دموع كل دولة من تلك الدول الثلاث

نجيش بالانشقاقات الدينية والحروب الاهلية ، فكان الامراء الاقطاعيون في فرنسا وانجلترا وألمانيا وغيرها لا ينقطعون عن التفتان ، ولا يكادون يصيخون الى دعوات البابا ، وكانت الدولة الاسلامية نهب المناقصات بين العلويين والامويين والعباسيين ، ونهب المذاهب المشتجرة والفتن المستعمرة كفتن الزنج والقرامطة ، وجملة القول أن الدين الذي انما غايته الاولى نشر السلام ، كان من أكبر دواعي الشحنة والخصام .

بلغ الصراع الديني غايته كما تقدم القول في الحروب الصليبية ، وبعدها تغيرت رقعة العالم المتدين ونالته ، فتلاشى العنصر العربي نهائيا من عالم الحكم والسياسة ، وتلاشت الدولة الرومانية الشرقية ، ورث الترك ملك الاثني ، وافاقت اوربا الغربية من دياجير العصور الوسطى ومن عمايات التعصب الديني ، فنشطت الآداب والعلوم وقام الاصلاح الديني وهجرت الفكرة الصليبية ، وتقلص سلطان البابا وتوطأت الملكيات في فرنسا وأسبانيا وانجلترا وغيرها . وبالجملة كان عصر النهضة العظيمة ، وعندها نظر الناس الى مسألة السلام نظرة جديدة .

شعر الأوروبيون الغربيون بما بينهم من صلات وثيقة في الجنس والدين والفكر والعلم والأدب : فهم جميعا وارثو حضارة الاغريق والرومان ، وهم جميعا مسيحيون ، والحركات العلمية والأدبية والفنية التي كانت تنتشر في أمة كانت سرعان ما تعم سواها ، كالطرازين القوطي والرومانتيكي في عالم العمارة مثلا ، واللغة اللاتينية كانت لغة عالمية بينها . فرأى المفكرون منهم وجوب توثيق الصلات بين أمم غرب أوربا جميعا حتى يسود بينها السلام ، وتنتفي الحروب التي كانت مستعرة . تمزق أنحاءها وتعزل مساعيها في سبيل التقدم .

وأشهر من طرقوا هذا الموضوع في أعجاز العصور الوسطى ومستهل النهضة ثلاثة : أحدهم أديب عظيم هو « دانتي » الايطالي ، والآخر سياسي هو الفرنسي « بيار دوبوا » مشير فيليب الجميل ، والثالث مصلح ديني انجليزى هو « ويكليف » ، وكان هؤلاء وغيرهم يحسون أن عهد الدولة العالمية ممثلة في البابوية أو الدولة الرومانية المقدسة قد غبر . وأن بين الشعوب من الفوارق في الشخصيات ما تستحيل معه الدولة العالمية الموحدة السلطة والقوانين ، فدعوا الى اتحاد الدول والامارات في اتحاد عام مع احتفاظ كل منها باستقلالها ، نادوا بمنع الحرب الا في النهاية القصوى .

بيد أن أولئك المفكرين حتى حين معالجتهم هذه الغاية الانسانية العليا ، لم يكونوا يستطيعون التخلص من عصبيتهم الدينية ونعرتهم القومية ، فدانتى ودوبوا فى المشروع الذى رسمه كل منهما للاتحاد الاوروبى المنشود قصرا الأمر على مسيحى غرب أوروبا ، أما الترك فى شرقها وغيرهم من الأمم غير المسيحية فكان حلالا بل واجبا قتالها ، ومن جهة أخرى يجعل دانتى للايطاليين فى اتحاد الدولى المكانة العليا ، ويجعل عاصمته روما المدينة الخالدة ، على حين يجعل دوبوا النفوذ الأكبر فى اتحادهم للفرنسيين ، لأنهم فى نظره أصلح الشعوب للحكم لانقيادهم لداعى العقل ، وتنكبهم سبيل الشهوات والعواطف الجامحة ، وكذلك فعلى « توماس مور » الانجليزى من رجال النهضة فى يوتوبيا ، فبينما يسخر من مطامع ملوك فرنسا فى ايطاليا ، يبيع لابناء جزيته الخيالية التى ليست الا صورة لانجلترا استعمار بقاع أمريكا واخضاع أهلها .

وانما امتاز بالتسامح وسعة الفكر من رجال النهضة كبيرهم ارزمس الهولندى ، فانه وان دعا الى اتحاد مسيحى ، حمل على الحرب حملة شعواء ، ولم يستبج مقاتلة الترك الا دفاعا فى النهاية القصوى بعد أن تفشل كل المساعى السلمية ، فاذا وقعت الحرب لزم تجنب سفك الدماء ما أمكن ، ومن أقواله فى هذا الصدد : « اذا كان غرضنا الحقيقى أن نوسع أطراف دولتنا ، وكانت ثروة تركيا هى مطمئنا ، فلم نكسو جشمنا الدنيء باسم المسيح ؟ » وهو يرى أن الحرب لاثمر خيرا لأحد ، وأن التحكيم بين كل متنازعين واجب ، والوصول الى حل مرض ممكن لتوافر الرجال ذوى الحكمة والكفاءة ، والمجالس والبرلمانات ذوات المقدرة والنفع ، ويقول ان الحرب ليست جميلة الا فى عين من لم يرها .

مشروع سولى للسلام

ظلت الفروق الدينية سببا للجفوة لا بين مسيحى أوروبا وبين الترك والشرقيين عامة فقط ، بل بين الأوربيين أنفسهم وبين أبناء الوطن الواحد حتى بعد عهد النهضة ، فقد أدى الاصلاح الدينى الى حروب أهلية ودولية عنيفة فى ألمانيا وفرنسا وغيرهما ، ولم تخمد نار الحروب الأهلية الدينية فى فرنسا الا على يد هنرى الرابع فى أواخر القرن السادس عشر ، وقد اتعظ وزيره العظيم « سولى » بما شاهد من آثار الحروب فى فرنسا والخارج ، فاتجه ذهنه الى توطيد السلم بنشر العدل والمساواة والتسامح بين شعوب أوروبا ، فوضع لذلك « مشروعه العظيم » .

يرى سولى أن تتحد دول أوروبا فى جماعة تفض المنازعات وتحفظ السلام ، ويرى أن تكون الدول متناسبة القوة ليتوطد بينها التوازن ، وهو لذلك يقترح على هنرى أن يساعد الامارات العديدة الخاضعة لآل هابسبرج على التحرر الذى تطمح اليه ، لينقص سلطان الامبراطور الهسائل الذى ينبسط على أكثر بقاع أوروبا ، ولكنه يشترط على ملك فرنسا ألا يحتفظ لنفسه بشبر من الأرض التى يحررها ، ويقترح عليه أن يعطى المثل للأمم الأخرى فيعلن أن ليس لفرنسا مطامع فى الخارج ، وأنه مستعد لقبول التحكيم فى كل مطالبه ومشاكله الدولية ، وهو يحذر ملوك فرنسا عامة من الاندفاع الى الحروب ، لأن فرنسا لم تكسب من الحروب الخارجية والأهلية فيما مضى نفعا ، ولن تكسب من ورائهسا فى المستقبل الا عداا الأمم وضمينتها فى الخارج ، وارهاق الأهلىن بالضرائب فى الداخل .

وبينما سولى يبذل الجهد فى اقناع الملك بمشروعه العظيم لسلام أوروبا الغربية الدائم ، اغتيل الملك وقبر المشروع ، واندلعت نيران الحرب فى أوروبا وأشدها هولاً حرب الثلاثين سنة فى ألمانيا ، واندفع ملوك فرنسا من بعد ولا سيما لويس الرابع عشر الى الحروب التى كسبت فرنسا من ورائها عداا الأمم وفداحة الضرائب ، وانما خلف سولى على تعهد فكرة السلام الدولى مفكر هولندى عظيم هو « جروتياس » مؤسس القانون الدولى الذى قام بسفارات كثيرة فى فرنسا وانجلترا ، وهالته فظائع حرب الثلاثين ودفعته الى الكتابة فى العلاقات الدولية قال : « لقد لاحظت فى سائر بقاع المسيحية اباحية يخجل منها المتوحشون ، اذ يستل الناس السلاح لأتفه الأعذار ، وحالما تعلن الحرب لا ترعى حرمة لقانون الهى أو بشرى ، ولا يكون هناك الا غضب أعمى جائح ، كأنما قد أطلقت أيدي الجميع فى ارتكاب كل أنواع الجريمة » ويرى جروتياس انه كما أن استتباب القوانين فى دولة من الدول لا يكون حتى ينظر الناس الى أبعد من مصالحهم الشخصية ، فكذا الحال فى العلاقات بين الدول ، ويقترح عقد مؤتمرات دولية من حين الى آخر لحسم النزاع .

كتب جروتياس مؤلفاته فى أوائل القرن الساسع عشر والحرب الثلاثينية فى عنفوانها ، وفى أواخر ذلك القرن ، وقد انتهت تلك الحروب بصلح وستفاليا الدولى وتاهب لويس الرابع عشر لحروبه الطويلة ، تناول موضوع السلام الدولى الكاتب السياسى الانجليزى « ويليام بن » الذى أسس مقاطعة بنسلفانيا بأمريكا وعرفت باسمه ومارس فيها مبادئه السلمية ، وقد اقترح فى كتاباته انشاء مجمع أو برلمان أو اتحاد بين الدول يقوم بالحكم فى منازعاتها ، ويكون ذا سلطة تمكنه من تنفيذ قراراته .

روسو واتحاد الدول الأوروبية

وفى القرن الثامن عشر كان أكبر المنادين بالسلام العالمى « روسو » الذى كان مريبا عظيما يرى أن الغرض من التربية اعداد الفرد للعيش فى المجتمع ، ويرى ذلك الاعداد أول واجبات الدولة ، كان روسو وطنيا يمجده الوطن ، ولكنه يطمح الى ما وراء ذلك ، يطمح الى الدولة العالمية التى تنفى الحروب وتبسط السلام ، لان خروج الأفراد من الحال الطبيعية الى تأسيس المجتمعات هو تطور نهايته المنطقية تأسيس المجتمع العالمى ، والوقوف عند مرحلة الدولة شر من الحال الطبيعية الأولى ، لأن اجتماعنا فى الدولة بعدد محدود من البشر يجعلنا أعداء لسائر البشر ، ولأن التطاحن بين الدول أشد هولا من الفوضى بين الأفراد .

لذلك كان روسو ينادى بإنشاء اتحاد للدول الأوروبية أشد توثقا من التحالف واقل توثقا من الاتحاد الفيدرالى ، وكان يرى أن اتحادات كثيرة قد نجحت فى أوربا كالاتحاد الالماني والاتحاد الهولندى والاتحاد السويسرى ، بل كان يرى الأمم الأوروبية جميعا مجتمعا متحدا من شتى وجوه فكرية لموقعها الجغرافى المتقارب ، وماضيها المشترك ، وتوشج علاقاتها التجارية ، وتعاون أدبائها وعلمائها وفنانيها فى ترقية الثقافة والمعرفة الانسانية . فكان مما يؤسى له أن تظل تلك الأمم الشقيقة فى ثقان مستمر لجشع ملوكها الذين لا يربحون مع ذلك شيئا لأن الحرب لا تقيد احدا .

ظهر معظم دعاة السلم فى أوربا من أواخر العصور الوسطى الى النهضة الى القرن الثامن عشر فى فرنسا وهولندا وإنجلترا ، لأنها كانت أسبق من غيرها الى التوحد السياسى والرفاهية المادية . فكان فى فرنسا دوبوا وسولى وروسو وغيرهم ، وظهر فى هولندا أرزمس كبير النهضة ، وجروتياس مؤسس القانون الدولى ، وابراهام ويكفورت أول مؤلف فى الدبلوماسية ، وفى إنجلترا نادى ويكليف ووليام بن ويرك بالسلام ، أما اسبانيا فان قتالها ضد المسلمين أحقابا وامتداد سلطانها فى الأمريكتين فى مستهل النهضة ، وامتداد ملكها فى أوربا تحت ملوك الهابسبرج ، كل ذلك بث الروح الحربية فى أبنائها وجعلها تتوجس من كل حركة سلمية قد تؤدى الى انتقاص أملاكها كما كان يرمى مشروع سولى العظيم .

وأما إيطاليا فكانت متطاحنة منشقة نهب الغارات الأجنبية ، فظهر فيها ميكافيل داعية حرب لا سلام ، مجد الحرب وعدا أكبر وسائل الأمير ،

وأعطاه من الوسائل ما هو أشد هولا ، كل ذلك لشدة شعور ميكافيل
بحاجة إيطاليا الى أمير قادر ينهضها ويوحدها بأى ثمن .

وكذلك كانت ألمانيا منشقة على نفسها متفككة تطحنها الحروب
الدينية ومنازعات الأمراء ، فظلت فى مؤخرة الأمم الى القرن الثامن عشر ،
وحتى مصالحة الدينى الكبير لوثر وافق على الحروب وعدها وسائل طبيعية
للقاب الظالمين والمخطئين ، وكذلك كانت روسيا لتعرضها لغارات البرابرة
الآسيويين متأخرة حتى كان أكثر المفكرين السياسيين ينفونها من حظيرة
المجتمع الأوربى الذى يشيّدونه فى مشروعاتهم السلمية .

دعاة السلم فى العمود الأخيرة

فلما كان القرن الثامن عشر ، ضمت ألمانيا صوتها الى أصوات دعاة
السلم ، ونادى به من فلاسفتها « كانت » ، ومن أدبائها « جوته » ، وكان
« كانت » يرى أن نفس الرغبة فى منع الفوضى التى دفعت الأفراد الى تكوين
الدولة ، ستدفع الدول الى تكوين مجتمع دولى ، وأن شرور الحرب هى
التي ستعلم الناس بالتجارب المرة ما كانوا جديرين أن يعرفوه بغير ثمر.
فادح ، وكان لا ينادى بالمجتمع العالمى والسلم فرارا من أهوال الحرب
فحسب ، ولكن لعلهم بأن ملكات الانسان العالية لن تزدهر حتى يتوطد
السلم ، وأما جوته فقد عرف بحبه للأمم جميعا وهيامه بالآداب الشرقية
ومحبته للفرنسيين حتى أبان الصراع بينهم وبين بلاده حتى اتهم بنقص
عاطفة الوطنية .

وفى القرن التاسع عشر بعد حروب نابليون أصبحت دعوة السلم
عامة ، وسمع فيها صوت روسيا من جانب ، وأمريكا من جانب آخر ،
فكان تولستوى من أكبر مبشرى السلم ، بل من جانب روسيا جاء أول
مشروع رسمى للسلم يعده ملك كبير ، فقد كانت مشاريع السلم الى
ذلك العهد أحلاما فى رؤوس الكتاب وبعض السواس ، والملوك لا يصغون
الى شيء من ذلك ولا يتبعون الا داعى الجشع ، وإن كان الكثير منهم قد
ندم بعد فوات الوقت على تهوره فى الحروب ، منهم لويس الرابع عشر
الذى أوصى ولّى عهده باجتناّب الحروب ، وبمثل ذلك أوصى نابليون ابنه
فيما كتب فى منفاه ، وقد وصف فردريك الأكبر بلاده بعهد حرب
تسع السنوات وصفا مؤسسا .

كان قيصر روسيا أول ملك دعا الدول الى الاتحاد لنشر السلام،
 وفض المنازعات ، وسمى مشروعه بالحلف المقدس ، ولم ينجح تمام النجاح
 لعدم تهيؤ سياسة الدول الأخرى للفكرة . وفى خلال القرن التاسع عشر
 عقدت مؤتمرات دولية كثيرة ساعدت على حل مشاكل كثيرة وان لم تقطع
 دابر الحروب ، وعقدت مؤتمرات أخرى لتقييد التسليح ، وأنشئت محكمة
 لاهائ الدولية ، وما زال سياسة الولايات المتحدة من القرن الماضى الى
 الحاضر يفودون خطى الدول الأوروبية الى السلام والتعاون ، ويضربون لها
 فى ذلك المثل بعقد المؤتمرات وإبرام المواثيق ، وبزعهم التخصيمات على
 طول الحدود بينهم وبين كندا ، وبفضل سياستها أنشئت جمعية الأمم
 الحالية على ما بها من مواطن الضعف ، وقد صار حلم الأوروبيين اليوم أن
 يفوزوا عما قريب بولايات أوروبية متحدة ، كالولايات الأمريكية المتحدة .

المثل الأعلى للدولة الحديثة

يدهى أن الدولة انما وجدت لتوفير السعادة للفرد ، اذ مال الانسان بطبعه الى التعاون مع بنى جنسه لتحقيق مطالبه ودفع الغوائل عن نفسه • وخير الدول هى تلك التى تحقق للفرد ذلك الغرض • وفى المقال التالى يعرض الكاتب شروط الدولة الصالحة ويبسط جوهر الديمقراطية الحديثة •

قاسى الانسان بلاء كثيرا فى العصور الماضية من جراء نقص النظم السياسية التى اختارها لنفسه أو التى قادته اليها المصادفات والظروف الجغرافية ، وما اختلط بها من جهل الحاكمين والمحكومين ومن طمع ارباب السلطة وجشع الأقوياء • فشهدت العصور السالفة ملكيات مستبدة قامت لتوفير سعادة الأفراد فارتدت حربا على الأفراد ، وشهدت طبقات استأثرت بالسلطة والثروة دون غيرها وأذاقتها النكال ، وشهدت ألوانا تقشعر لها الأبدان من اهراق الدماء واهدار الحقوق ومصادرة الحريات ، وخنق الأفكار واضطهاد الآراء والعقائد •

فى أرض يونان

عرف اليونان نظم المدن الحكومية المستقلة بعضها عن بعض • وكانت الديمقراطية تسود فى كثير منها ، ولكنها كانت ديمقراطية يداخلها فساد كثير ويصحبها الرق وتشتعل فى ظلها الحروب بين هاتيك المدن المتنافسة ، حتى جاء نظام الملكية المستبدة على يد الاسكندر المقدونى يقضى على تلك الفوضى المختلطة وينشر النظام • ولكن نظام الملكية المطلقة فى بلاد الاغريق وغيرها من بلاد الشرق والغرب قد عرف له مثالبه ، عرف

بالتجربة أن السلطة المطلقة التي لا يؤاخذها مؤاخذ سرعان ما تعتقد في أحكامها العصمة والتنزه عن الخطأ ، وسرعان ما تعد بقاء الأمر في يدها ضروريا لسلامة الدولة ، وترى مصالحها فوق مصالح الحكوميين ، ويدب الترف والفساد في قصورها ، وتندفع تدريجيا الى توسيع نفوذها ومصادرة كل حرية للرأى واخماد كل نقد أو اعتراض .

وعرف اليونان في بعض أطوار تاريخهم وعرف الرومان وغيرهم نظام الأرستقراطية حيث تنفرد طبقة دون طبقة بالثروة والعلم والسلطة . وذلك نظام له مميزات ولكن مثالبه كثيرة والفساد سريع اليه ، اذ يندفع أبناء تلك الطبقة الممتازة مثل اندفاع الملكية المطلقة الى الاستبداد بعامة الشعب وتقديهم مصالحهم على غيرها وتوسيع مدى امتيازهم وتحكمهم يوما بعد يوم . ويكون امتيازهم بامتلاك الثروة مساعدا لهم على استرقاق من لا يملكونها . ثم عرف الرومان نظام الامبراطورية المترامية الأطراف فلم يكن تاريخها الا صراعا مؤلما مستمرا للاحتفاظ بكيانها دون عادات الفناء التي تتعاورها من الداخل والخارج ، ناسية في أثناء ذلك كل النسيان الغرض الأول لقيام الدول ، وهو سعادة الفرد .

وفي ظل هاتيك النظم جميعا قاست المجتمعات صنوفا من المساوىء والبلايا من تحكم القوى في الضعيف والغنى في الفقير والسيد في العبد ، ومن سطوة الدولة على آراء الناس ومعتقداتهم ولا سيما الدينى منها . وأروع أمثلة ذلك اضطهاد أباطرة الرومان للمسيحيين في أول انتشار تلك الديانة ، ثم اضطهاد أخلافهم للوثنيين بعد ذلك حتى هاجر من هاجر من علماء الوثنية الى فارس وغيرها من بلاد المشرق ، ثم الحروب الدينية الأهلية التي استعرت في فرنسا واسبانيا وألمانيا على عهد النهضة الحديثة .

دروس وعبر للانسان الحديث

ما زالت تلك الدروس الغالية الثمن تعظ الانسان حتى انتهى الى النظام الحديث للدولة الذى يمتاز على سالف الأنظمة بما استفاده الانسان من تلك التجارب . وما زالت مع ذلك تخالطه نقائص وعيوب هي من أثر الماضى وتراثه الوخيم ، لم يتلقن الانسان بعد دروسها ولم يع مرعظها ، ولم يبلغ تملله من مغباتها حد الثورة عليها والاقلاع عن عقائده

وتقاليد الخاطئة التي تفرض عليه تلك النظم فرضا ، ولم يتنبه الا خيرة المفكرين والباحثين فى السياسة الى تلك المثالب ، فهم ينادون باصلاحها فتلقى دعوتهم من الاعراض أو الاستنكار ما تقابل به كل دعوة جديدة ، والزمن كفيف بتحقيق كل الدعوات واطراد ذلك الرقى .

عرف الانسان حديثا أن خير الدول تلك التي تقوم على أساس من وحدة جغرافية تصحبها وحدات فى القومية والشعور والمصالح ، ويتولى الحكم فيها لا فرد مستبد ولا طبقة ممتازة بل الشعب بأكمله ، ويتساوى الناس فيها أمام القانون فى حقوقهم وواجباتهم ، وتسمود فيها الحركة يشتمل ضرورها - من حرية الفكر والاجتماع والمهنة والمسكن والحرية الشخصية وحرية العقيدة الدينية والسياسية - وتنفيد فيها الحكومة بشتمل القيود التي تكف غائلتها عن حقوق الافراد وتصرف وجهتها دائما الى استصلاح أحوالهم . وبالجمله غدا الناس اليوم أشد شعورا بالغرض من الدولة وأشد مطالبة للدولة القائمة بتحقيق الغرض من قيامها وأسرع الى مؤاخذتها وردّها ان حادت عن أداء مهمتها . ولم يعد الحكم حقا مكتسبا ولا موروثا لفرد أو فئة كما كان فى سالف الدهر .

غدا الشعب فى العصور الحديثة لا يؤله حاكميه كما فعل القدماء ، ولا ينصاع فى صمت لما يأمر به ، ولا يرى السلطة حقا لفريق منه دون فريق . انما صارت الحكومة لدى الشعوب الراقية هيئة من الهيئات العامة الكثيرة التي تقوم على التعاون وترمى الى مصلحة المجموع كالشركات والجمعيات الاقتصادية والصناعية وغيرها ، يراقب الشعب أعمالها ويشترك فيها وينقدها ويقومها ويحدد سلطتها ما استطاع ، لا يسمح لها بالتدخل فى شؤونه الا فى الضرورة القصوى .

فالدولة وسيلة لا غاية فى نفسها ، وسيلة لتحقيق السعادة للفرد وتهيئة التعاون بين الأفراد . وسعادة الفرد فى تمتعه بكل حرياته التي تهبه اياها الطبيعة وحقوقه التي تولد معه . ولكن اجتماعه بغيره وتعاونه معه يدعو الى تنظيم علاقاته بالآخرين حتى لا تصطدم حريات فرد بحريات غيره ، ولا تطغى حقوق هذا على حقوق ذاك . وهذا التنظيم يستدعى حدا من حريات الفرد وحقوقه ، ويستدعى تحميله بعض الواجبات فى نظير ما يتمتع به فى المجتمع من مزايا . وواجب الدولة تنظيم هذه العلاقات وتنسيق هذه الحقوق والواجبات دون أن تحد من الحريات حدا لا توجب الضرورة القصوى ودون أن يستفيد القائمون بالحكم فائدة خاصة .

شروط الدولة الصالحة

فاول شروط الدولة الصالحة أن تدع للأفراد أوفر قسط ممكن من الحرية ، لأن الانسان بطبعه يعشق الحرية ، ولأن الحرية لازمة لنشاطه الفكرى ونجاحه المادى . ثم ان حرية الفكر والاجتماع لازمة لأطراد رقى المجتمع وتوثق العلاقة بين الشعب والحكومة وتوفر الحكومة على أداء واجبها نحو الشعب ، لأن الحكومة التى تريد مخلصه خدمة مصالح الشعب وتحقيق رغباته لابد لها أن تعرف ما تلك المصالح والرغبات . ولا سبيل الى معرفتها الا بالاصغاء الى صوت الشعب ممثلا فى كلامه وخطابته وكتبه وصحافته واجتماعاته . ويمكن تقدير مدى اخلاص الحكومة فى خدمة شعبها بمقدار الحرية التى تتركها له فى تقديمها . ولن تقيده حرية الفكر فى دولة الا أن تكون هناك مساوىء يراد حمايتها ، وامتيازات جائرة يخشى عليها صوت العدل .

ولن تتوطد الحرية فى دولة حتى تتوطد معها المساواة : لأنه اذا كانت هناك طبقة ممتازة على غيرها بامتلاك الثروة والحق فى الحكم فانها ستتوفر على مصالحها الخاصة ونعمل جهدها لغنى الطبقة المحرومة ، ومن ثم تجب المساواة بين جميع الطبقات والأفراد فى حق الملكية والعمل والاشتراك فى الحكم . والمساواة السياسية والاقتصادية والاجتماعية تسير عادة جنباً الى جنب ، فان الطبقة الفقيرة المدمة لن يقام رأياً وزناً فى الحكم ، كما أن الطبقة المزوية عن الاشتراك فى التشريع والتنفيذ ستهمل مصالحها الاقتصادية والاجتماعية عند وضع القوانين وتنفيذها .

ان المساواة بين الناس فى الحقوق أمر بدهى تقضى به طبيعة الاشياء ، اذ كان الناس جميعاً منذ يولدون متشابهين طباعاً وغرائز ورغبة فى التمتع بالحياة . فواجب أن تمنح لهم جميعاً الفرص اللازمة لذلك التمتع كل قدر استطاعته على ألا يجور على غيره . على أنهم مختلفون ذكاءً واقتداراً . وهذا الاختلاف الطبيعى وحده هو الذى يجب أن يعين الفرق بينهم لا القوانين التعسفية التى تضعها الدولة تحابى بها طبقة أو طائفة أو عنصراً أو جنساً أو اتباع مذهب خاص . وقد كان عدم المساواة فى شتى عصور التاريخ من أكبر أسباب الثورات .

فاذا تحققت هذه المساواة بين الأفراد فى الحقوق السياسية والاجتماعية كانت الديمقراطية . فالديمقراطية قرينة الحرية والمساواة ، وكلها من ميزات الدولة الحديثة ومن شروط تأدية الدولة الغرض الذى

قامت من أجله منذ أقدم العصور وهو اسعاد الفرد • والحكم الديمقراطي هو الحكم الطبيعي الذى أفسدته على الانسان شتى العوامل التاريخية فى قديم العصور ، حتى هدته اليه تجارب القرون ودروس الماضى — أى بعد أن بلا ما بلا من تحكم الفرد وتعسف الطبقات •

تعريف الديمقراطية

الديمقراطية هى أن يشترك الشعب كله فى تدبير شؤونه • وبهذا وحده يضمن أن تدار تلك الشؤون على ما يريد • وهذا يتأتى فى العصور الحديثة بوسائل تزداد توطدا : منها أن للشعب كله الحق فى انتخاب حاكميه واعادة انتخابهم فى فترات متقاربة حتى لا تطغيهم السلطة ولا تأخذهم العزة ولا يعودوا فى نظر أنفسهم غاية فى أنفسهم ولا يبعد بهم غرور السلطة عن مشاعر المحكومين ورغباتهم ، ومن تلك الوسائل ابداء الآراء فى المجتمعات وعلى صفحات الكتب والصحف • ومنها اللامركزية فى الحكومة — وهى سنة تزداد توطدا فى الأمم الراقية •

فانه لما كان الغرض من الحكومة تدبير شؤن الافراد ، وكان الافراد فى جهة من جهات الدولة أدرى الناس بشؤونهم ورغباتهم ، كان بدهيا أن يترك لهم تدبير كل ما يخصهم ولا يتعداهم الى غيرهم ، فان قيامهم هم بأنفسهم بذلك ضمان لتحقيق رغباتهم على الوجه الأكمل ، ومشاركتهم فى وضع النظم والقوانين يجعلهم أحرص على تنفيذها واطاعتها ، واضطلاعهم بأعباء الحكم يكسبهم خبرة سياسية تجعل منهم مواطنين صالحين • والقوانين المفروضة من سلطة مركزية بعيدة هيهات أن تتوخى من حاجات الاقليم ما تتوخى القوانين المحلية ، ومهما قصد منها النفع فان القوانين التى يضعها أبناء المقاطعة بأنفسهم أنفع •

ومبدأ اللامركزية هذا لا يتبع فى الدول الراقية فى شأن المقاطعات المختلفة فحسب بل فى شأن الهيئات والفئات المختلفة أيضا ، كالمؤسسات الدينية والعلمية والنقابات الصناعية والتجارية واتحادات أرباب المهن المختلفة • كل هذه تترك لها الحكومة استقلالا داخليا كبيرا ، تنظم شؤونها وتتحرى مصالح أفرادها ، ولا تتدخل الحكومة الا بقدر ما يلزم لرعاية المصلحة العامة ، ولا تحتفظ الحكومة المركزية بعد هذا الاستقلال الكبير الذى تحظى به الحكومات المحلية والهيئات الا بالعام من السلطات والتشريعات التى تمس البلاد بأكملها •

والدولة الحديثة على هذا النحو تجمع بين محاسن النظام الملكي الذي عرف في الشرق القديم حيث تنتجع السلطة في يد مركزية تنتشر النظام والوحدة ، وبين نظام المدن الحكومية الاغريقية حيث ينظر أبناء المدينة او الاقليم في شئونهم بأنفسهم . تجمع الدولة الحديثة القائمة من جهة على أساس القومية ، ومن جهة على أساس اللامركزية الحكومية ، بين محاسن دينك النظامين وتتجنب مساوئهما .

الشعب في الدولة الحديثة

والشعب في الدولة الحديثة رغم مشاركته الى ذلك المدى البعيد في ادارة الحكومة لا يمنحها ثقته المطلقة ولا يستنيم الى ترك حرياته في يدها ، انما يقيم عليها الأرصاد والعيون ، ويحف سلطتها بشتى القيود . ومن وسائله في ذلك الفصل بين السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية ، فقد أثبتت تجارب الماضي أن الحكومة التنفيذية لا تحسن القيام على التشريع ولم تتناول وضع القوانين وتطبيقها يوما الا نتجت عن ذلك مساوئ ومضى موظفوها في سبيل التعسف والتخيف للشعب والتزبد من السلطة . ثم من وسائل الحد من سلطة الحكومة فصل القضاء عنها وضمان استقلاله . والقضاء في الأمم السكسونية مفزع الشعب من الهيئة التنفيذية ، ان بغت على حقوقه كانت الهيئة القضائية حكما بينهما .

فالمثل الأعلى للدولة الحديثة هو أن يتولى الشعب نفسه حكم نفسه بمشاركته في الحكومة الى أقصى مدى ممكن ، وبرقائبه عليها ، وتمايم حريته في انتقادها ، وبتعاونها وإياها على اصلاح المساوئ وإستنباط خير أساليب الحكم والاجتماع . والدولة التي هذه حالها لابد أن تكون ديمقراطية تسود فيها الحرية والمساواة وتنعهد فيها الفوارق في الامتيازات والحقوق . وآية الدول المتقدمة التي اقتربت كثيرا من ذلك المثل الأعلى تصاغر تلك الفروق بين الأفراد والطبقات ، على حين تبدو تلك الفروق بين علية القوم وسفلتهم ضخمة هائلة في الدول التي ما تزال أقرب الى طراز العصور القديمة منها الى المثل الأعلى الحديث .

العلم دعامة الحرية

وليشارك الشعب في حكم نفسه على هذا النحو لابد من شرط أساسي هو حسن تعليمه . فالجاهل لا يقدر قيمة الحرية ان أعطيت له ، ولا يعرف كيف يجاهد من أجلها ان هو سلبها ، ومهما كانت حرياته وحقوقه

السياسية فانه ما بقى على جهله سيفقددها شيئا فشيئا حتى يرتد عبدا لمن هم أعلم منه وأقدر . ومن ثم كان نشر التعليم من أول واجبات الدولة الحديثة ، وكان التعليم الإلزامى من خصائص هذه الدولة . ولا ريب فى أن الزام الفرد بالتعلم حد من حريته يضاف الى الحدود الأخرى ، ولكنه حد له ما يبرره .

ولكى يثمر التعليم ويؤدى الى اخراج مواطنين صالحين يجب أن تكون حرية الفكر والتسامح لا ضيق الذهن والتعصب رائد القائمين به . يجب ألا يثبت فى ذهن الناشئ أن أمته خير الأمم ، وأن تاريخها لا يحتوى إلا على مفاخر ، وانها لم تخطئ يوما ، وان أنظمتها كاملة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، فان أمثال هذه التعاليم تخرج ذهننا مغلقا لا يطمح الى اصلاح ولا يوافق على تغيير .

ان التسامح قرين الحرية ، واتساع الذهن شرط أساسى للترقى . فالمرء لن يستحق الحرية ولن يعرف قيمتها حتى يسمح لغيره بها . ولن يتلافى عيوبه وأخطائه حتى يدركها ويعترف بها . ومن ثم وجب أن ينشأ الناشئ على سعة الذهن والتسامح . وكلما توطدت الحرية واتسع نطاق التعليم فى الدولة بطل الحجر على حرية الفكر والثورة على آثار بعض الكتاب أو الشعراء أو المصورين أو العلماء بحجة منافاة آثارهم للتقاليد أو البيانات . ولم يعد الشعب يفرق من كل ما يخالف عقائده ، أو يندفع الى محاربة من يخالفها ، بل يتقبل جديد الأفكار بصدر رحب ، فان كانت حقا قبلها واستفاد منها ، أو باطلا أعرض عنها فى غير جلبه ، فقد أثبتت تجارب الماضى أن ما يعد اليوم هرطقة أو اباحة يصبح فى الغد أحيانا عقيدة راسخة أو حقيقة عادية .

وليس ما يتعلمه الفرد فى صغره هو كل ما يوجه فكره فى مقبل حياته ، بل قد جدت فى الدولة الحديثة عوامل شديدة الأثر ، منها الصحافة ، ومنها الراديو . هذان يوجهان الرأى العام بما ينشران من الحقائق التى يميلها الاخلاص أو الأكاذيب التى توحى بها الدعاية . وكلما تنورت حكومة دولة وانتشرت الحرية فى الشعب وتشرب الديمقراطية الصحيحة تغلبت الحقائق على الأباطيل فى تكوين الرأى العام فيه . وكل جهد فى حسن توجيه الرأى العام وتغذيته بالحقائق وتحذيره من الأباطيل جهد غير ضائع ، لأن الرأى العام كما يتضح مما تقدم هو الذى يحكم فى الدولة الحديثة ، وأيما كانت النظم السائدة فى دولة فان الرأى العام مرجع الحكم فيها . ولن تدوم الحرية والمساواة والديمقراطية فى

الدولة الا اذا واصل الرأى العام سهره عليها وأبدى استعداداه للدفاع عنها .

هذه الدولة المثالية - التى تقرب منها الدول الحديثة وتبعد كل على حسب حظها من الرقى السياسى والاجتماعى - التى تسود فيها الحرية والديمقراطية والمساواة ، ويقوم فيها الشعب على شئون نفسه ، وتعمرها حرية الفكر والتسامح . . هذه الدولة خطوة أكيدة شعر أهلها أو لم يشعروا نحو الدولة العالمية المرجوة . وفى هذه الدولة يثور الرأى العام على الحرب وينفر من فكرة استعباد الشعوب الأخرى ويميل برغبة انسانية أكيدة الى مصافاة تلك الشعوب والتفاهم معها والتعاون وإياها . فكل خطوة تخطوها الدولة نحو الحرية والمساواة والديمقراطية يخطوها العالم نحو الدولة العالمية . وفى تلك الدولة العالمية تحتفظ كل دولة بمشخصاتها الحالية احتفاظ كل مقاطعة فيها بحكومتها اللامركزية . .

الديمقراطية : ضمان الرقى الانسانى

يعتد الينا بهذا المقال المرحوم فخرى ابو السعود قبل وفاته .
بقليل . وهو مفارقة قيمة بين الديمقراطية والديكتاتورية .

لم يظهر الحكم الديمقراطى فى الدول القديمة الا نادرا ، فعرفته مدن الاغريق وروما فى بعض عهودها ، ولم يظهر فى العصور الحديثة الا أخيرا ، اذ تتابعت الحركات الوطنية فى بلاد أوروبا والعالم المتمدين جميعا مطالبة بالدستور مصرّة على حكم نفسها بنفسها مقتبسة النظام البرلمانى الانجليزى . وهذه الندرة وهذا التأخر فى ظهور النظم الديمقراطية دليلان على أنها نبت عزيز لا يزكو فى كل البقاع والظروف ولا بد لنموه من توفر صفات خاصة فى الشعب ووصوله الى حد معلوم من الرقى والتنوير والنضج . فالشعب الحائز لهذه الصفات هو الذى يصير على حكم نفسه بنفسه ويستطيع القيام بذلك . أما الشعب الذى لم يسر التنور والنضج السياسى بين أفرادة فيستسلم للحكم المطلق .

الديمقراطية وخصومها

على أن الديمقراطية لم تعدم خصوما منذ القديم ، لا من الطغاة المستبدين الراغبين فى استعباد الشعوب وحدهم ، بل من كبار المفكرين أحرار الفكر الذين يسوؤهم ما يرون فى الديمقراطية من مكانة للعمامة وحفاوة بالدهماء لا يستحقونها ، فيدفعهم حبهم للتسامى عن كل ما هو سوقى ومبتذل وطموحهم الى المثل الأعلى الى النقمة على الديمقراطية والمناداة بالارستقراطية الذهنية أو الى تفضيل المستبد العادل ظالمين الديمقراطية فى ذلك وأخذها بغير جريرتها ، وحاكمين عليها بشرارها ، وانما يجب أن يحكم على الديمقراطية بالمبدأ الجليل الذى تقوم عليه ، وهو أن يحكم الشعب نفسه . وليس الشعب كله سوقة جهالا . والديمقراطية هى نظام الحكم الوحيد الذى ينتهى الى تحسين حال أولئك العامة وتنويرها ورفع مستواهم حتى يعودوا مواطنين صالحين كغيرهم .

فقد صور أفلاطون الديمقراطية صورة زرية : فلا نظام هناك ولا مسئولية ، وكل فرد يهمل عمله ويتدخل في شئون غيره ، والمهرجون يستثيرون العامة فيكثر اللغط ولا ينفذ عمل . وفي العصر الحديث سدد سهام النقد الى الديمقراطية مفكران عظيمان مجددان ينتميان الى مهد الديمقراطية الحديثة ويعدان فيها من رواد الحرية وطلائع الاشتراكية ، وهما برنارد شو ، وولز ، فالأول يرى أن البرلمانات تتكلم بدل أن تعمل ، والوزراء يضربون وقتهم في الرد على السفسطة بدل أن يحكموا ولا يتساءلون حين يقدمون على عمل : « هل هذا ما يتطلبه الموقف ؟ هل هذا صواب ؟ » وإنما يسألون أنفسهم : « هل هذا يحوز الرضى ؟ هل هذا يثير معارضة ؟ » ، وتغدو صفات البراعة الجدلية والمقدرة الخطابية أهم لديهم من صفات الحكمة والحزم والنظر البعيد ، وتحرم البلاد خدمات الاساسة الذين يترفعون عن تمليق العامة فيزهدون في الحكم .

ويرى شو كذلك أن الفرد العادى لا رغبة له في الاشتراك في الحكم ، ولا يحب أن يفكر فى وسائله . وإنما يؤثر أن يتولى ذلك عنه أمر يأمره فيأتمر ويلقنه فيعتقد، وأن نزعة الانقياد هذه الكائنة فى نفس الفرد العادى هى التى جعلت الكنيسة والجيش فى مختلف العصور أحب الأنظمة الى نفسه وأعلها مكانة لديه . ويرى شو أن الفرق بين الديمقراطية والدكتاتورية أن الدكتاتور يحكم بأمره دون تردد ، بينما الحاكم الديمقراطى يتملق الشعب ويخادعه ليفهمه أنه إنما ينفذ مشيئته ويحكم على هواه ، وفى كتابه « يوتوبيا حديثة » دعا شو الى حكومة من المفكرين الخبراء .

أجل من المفكرين الخبراء : فمن الآراء الشائعة اليوم أن الخبراء فى الاقتصاد خاصة هم وحدهم الذين يستطيعون أن يحكموا الدولة الحديثة . بعد ما عظم حجم هذه الدولة وتشعبت شئونها وتعقدت مصالحها ، وبعد أن ارتدت العوامل الاقتصادية التى تسود العالم الآن هائلة معقدة مترامية التأثير من جراء التقدم العلمى والصناعى الحديث ، ومن جراء رقى وسائل المواصلات الذى رد العالم أجمع وحدة اقتصادية يتأثر قاصيه بدانيه ، فى مثل هذا العالم لم تعد الديمقراطية فى نظر أولئك المفكرين نظاما للحكم صالحا ، لم يعد رجل الشارع مرجعا يهتدى برأيه فى تسيير أمور الدولة ، وإنما مرجع ذلك الخبير العالم .

فهذا عيب من عيوب النظام الديمقراطي في نظر خصومه • وهو جهل الفرد العادي الذي هو مرجع قيام الحكومات وتعيين سياستها بشئون العالم الحديث المعقدة •

والعيب الثاني ببطء النظام الديمقراطي وتعثّر خطواته في عصر السرعة المندفعة ، ولا سيما في أوقات الأزمات والحروب • ثم هناك عيوب أخرى في نظر ناقدى الديمقراطية ، منها أن النظام الحزبى بطبيعته مفسد للسياسة معرقل لأعمال الحكومة ، فالمعارضة تعارض للمجرد الرغبة في النقد والتجريح • وإذا ما تولت الحكم بعد خصومها نكثت فتلهم وعفت على أعمالهم وبذلت سياسة بسياسة • وبذلك تحرم البلاد الاستقرار والاطراد اللازمين لكل رقى ونجاح •

يرى نقاد الديمقراطية أن هذه العيوب تجعل الديمقراطية شكلا للحكم غير صالح للعصر الحديث ويرون أن هذا سبب تقلصها من كثير من الدول حيث حل الحكم المطلق محلها فجارى عصر السرعة والتقدم العلمى والتوسع الاقتصادى وقام بجلائل الأعمال •

ان التطور العلمى الآلى الحديث ، هو الذى أدخل الاضطراب في حياة الناس الاقتصادية والاجتماعية ، حتى تبرم منهم من تبرم بالنظم السياسية القائمة لتخلفها عن مسايرة هذا التطور وقصورها عن حل مشكلات القوم وتوفير مطالبهم • وهذا جعلهم يقبلون في بعض الدول النظام المطلق المستبد ، اذ استغل الدكتاتوريون هذه الظروف المقلقة واستغلوا أتم استغلال وسائل الدعاية التى وفرها العلم الحديث كالراديو وغيره ، وساعدهم ذلك الاستغلال على الوصول الى الحكم ثم ساعدهم على الاحتفاظ به والبطش بمعارضيههم ، ولكن الاستعاضة عن الديمقراطية بالدكتاتورية ليس هو الحل المعقول لمشكلات الدولة الحديثة ، انما الحل المعقول تعديل بعض نظم الديمقراطية ووسائلها لكي تسير التطور وتعالج الأحوال الجديدة •

الدكتاتورية نظام شاذ

ان الدكتاتورية أو الحكم المطلق بطبيعته نظام شاذ ، اذ يستبد فرد بالسيطرة على مصائر أمة فلا يقوم هذا النظام الا في شعب لم يبلغ بعد حد النضج السياسى والثقة بنفسه ، أو شعب فقد تلك الثقة بعد أن

كان حائزا لها وأسلم مقاليدته الى فرد ارتقى الى قمة الحكم فى أعقاب انقلاب • ولشذوذ الدكتاتورية فى منشئها تظل دائما أبدا شاذة فى وسائلها : يرتقى الدكتاتور الى الحكم للتغلب على أزمة أو حالة طارئة ، ولكنه بعد انحسار تلك الأزمة يابى التخلي عن الحكم ، أما استمراره له أو مخافة انتقام معارضيه • ولشعوره بوجود أولئك المعارضين يلجأ الى وسائل الارهاق والمصادرة وخنق الحريات • وقد عرف من قديم أن ليس شئ يفسد الخلق الانسانى مثل حيازة السلطة المطلقة ، ومن ثم فإن الدكتاتور الذى يستولى على الحكم وملء نفسه رغبة الاصلاح كثيرا ما يرتد شريرا ويمعن فى الفساد •

وحتى حين يظل الحاكم المطلق خيرا طيب النوايا تجاه شعبه ، كثيرا ما يشقى به وبحكمه الشعب ، لأن الحاكم يشرع للشعب ولا يخضع لتشريعاته تلك ولا يستطيع أن يضع نفسه موضع شعبه ، وواجب ألا يسن انقانون الا من يخضع له ويحس بأثره ، وقد رأينا أن الدكتاتورية لا تنجح فوق نجاح الديمقراطية فى معالجة شؤون الاقتصاد وعوامله الهائلة التى يخيبط فيها العالم ، وانما الدكتاتورية لتخفى حبوطها وتخمد المعارضة وتبرر وجودها وتدعو الشعب الى معاضدتها والوقوف بجانبها ، ما تزال تعنى بالمظاهرات والاستعراضات واقامة الحفلات والأعياد القومية ، وتغالى فى تمجيد القوة الحربية والاشادة بالأمانى القومية والدعوة الى الثأر والتغلب والاعلان انها تحكم لتدفع خطرا أو تحمى الدولة أو تفتح امبراطورية أو تحمى المدنية ، وما تزال فى خطبها الرنانة وحماستها المفتعلة حتى تنساق الى الحرب رغبة أو مكرهة •

فالحكم الدكتاتورى لا ينجح كما يتبجح به فى السيطرة على العوامل الاقتصادية العالمية التى تتأبى على السيطرة ، وهى تشغل الشعب عن سوء حالته بسفساف الأمور وتهيج فيه غرائز وعواطف ليست هى بخير ما فى البشرية من غرائز وعواطف وقد تسوقه هذه الانفعالات الى الحرب ثم ان الدكتاتورية فوق هذا وذاك تخمد النشاط الفكرى فى بلادها أيضا اخماد ، فهى لا تطبق النقد ولا تقوى على احتمال المعارضة وهى لذلك نشرد كل ذى رأى وتسجن أو تعدم كل معارض ، وهى تحل الجماعات والنقابات الحرة وتستغنى عنها بالجماعات الرسمية التى تشرف عليها الحكومة وهى تحجر على الصحافة والأدب والفن والعلم لا تنطق هذه كلها الا بما تشاء الدكتاتورية وان جانف الحقيقة ، وهى تستأثر بوسائل الدعاية من كتابة وخطابة وصحافة وراديو وسينما وتقيم للدعاية وزارة خاصة تحاول السيطرة على عقول الناس وهى بعد ذلك تسيطر على التعليم وتوجهه •

تتحكم الدكتاتورية في مناهج التعليم وكتبه وأغراضه ، فلا يلحق
النشء الا ما تريد أن يلقنوه ، وينشأون على تمجيدها والايمان بها .
لا تحاول تنمية عقولهم بل تنمية استعدادهم لقبول ما يلقنون من آراء
الآخرين . ولا تعمل على ابراز شخصياتهم مختلفة متباينة ، بل تسعى
لضيقهم في قالب واحد معلوم ، واخراجهم متمثلين فكرة واتجاها وعقيدة ،
ليكونوا لها جندا منصاعين . فالدكتاتورية تضيق ذرعا بالفردية
والشخصية المتميزة ، والعلاقة بين الدولة والشعب في هذا الصدد
متسادلة : كلما تماثل أفراد الشعب واتحدت عقلياتهم ، ساعدوا على
قيام الدكتاتورية وتوطدها ، وكلما بقيت الدكتاتورية وتوطدت عملت على
توحيد العليات ومحو التميز والاختلاف .

ان الحكم الدكتاتوري يقف تقدم الانسانية ويرجع بها الى الوراء
لانه مضاد للحرية والحرية أساس كل نشاط انساني ، محارب للحقيقة
وبغيرها لا يكون تقدم ولا هداية ، مخمد للنقد وهو سبيل كل اصلاح ،
مقيد للعقل وهو أساس الحضارة . فالفرق بين مجتمع متحضر ومجتمع
متوحش أن الأول يسود فيه العقل والثاني تنحكم فيه الغريزة والعاطفة
والخرافة والوهم ، ومن ثم تنتكس القيم في الأمة المبتلاة بحكم الفرد
المستبد ، ومن ثم تضمحل العلوم والفنون في ظل الحكم المطلق على حين
تزدهر في كنف الديمقراطية . فقد ازدهرت العلوم والفنون في بلاد
اليونان الديمقراطية ولم ينبغ فرد واحد في علم ولا فن في بلاد مقدونيا
الملكية المطلقة ، وظهر الشعراء والخطباء في روما الجمهورية وانحدرت
الخطابة والشعر والفنون عامة في ظل الامبراطورية .

وازن حالة الارهاب وخنق الحريات واضطهاد الآراء في ظل الحكم
المطلق ، بما يسود في ظل الديمقراطية من تسامح وحرية ورحابة صدر
بالنقد وترحيب بالجديد من الأفكار وحرص على توخي الحقيقة : قال
الفايكاونت مورلي : « ان من يعبت بالحقيقة لأي غرض كان يعبت بالقوة
الحيوية الدافعة للرقى الانساني » ، وقال جون ستيورات مل : « لا يجوز
للشعر أن يحدوا من حرية فرد منهم في العمل الا لغرض واحد هو حماية
أنفسهم » ، وقال أيضا : « لو كان البشر أجمعون الا واحدا على رأي ورجل
واحد على نقيضه لما جاز للشعر مجتمعين أن يسكتوا ذلك الفرد ، أكثر
مما يجوز له هو لو أوتى القوة أن يسكت البشر » ، وما ذلك الا لايقان
أولئك المفكرين أن توخي الحقيقة هو سبيل الهداية والرقى وأن التسامح
الفكري والتعاون العقلي لازمان للاهتداء الى الحقيقة .

ليس الحكم المطلق اذن هو وسيلة علاج ما يعانيه المجتمع من متاعب ، وليس نجاح ذلك الحكم فى توطيد أقدامه فى بعض الدول دليلا على صلاحيته وأفضليته على النظام الديمقراطي ، بل هو ثمرة حالة قلاقل اجتماعية واقتصادية أدى اليها التطور الصناعى وزادتها الحرب الماضية .
تفاهما ، واستغلها الدكتاتوريون الذين لا تخلو منهم حقبة . وليس النزوع عن الديمقراطية الى حكم الفرد الاستبدادى تقدما للمجتمع البشرى بل هو نكسة الى عهود الجهل والخرمول ، ولن ينجح الحكم المطلق فى معالجة متاعب المجتمع بل سيزيدها بلاء بشدوذ أساليبه وافتعال وسائله ومجانبته للحق والحرية .

انما وسيلة خلاص العالم من متاعبه الاقتصادية وسبيل رقيه المطرد فى حاضره ومستقبله أن يتشبث بالديمقراطية لا يبغى عنها حولا ويدافع عن الحرية التى نالها بجهد طويل فى متتالى العصور فان الحرية لا تكسب مرة واحدة ينال بعدها صاحبها ملء جفنيه ، بل يجب أن يثقل حياته يدافع عنها . قال جون ستيورات مل : « ان ثمن استبقاء الحرية هو اليقظة الدائمة » ، وقال دانييل وبستر : « ان الله لا يمنح الحرية الا أولئك الذين يحبونها والذين هم على استعداد دائم للدفاع عنها » ، ولن تأمن الحرية يوما ما سطوات المغيرين عليها ، وأكبر أعدائها دوام تطور المجتمع البشرى الذى يستدعى تعديل نظم الحكم من آن الى آن ، فاذا قصرت الديمقراطية فى مفاشة العصر على هذا النحو كانت النتيجة اضطرابات اجتماعية واقتصادية يستغلها المتطلعون الى الاستبداد .

وواجب أبناء الديمقراطيات لذلك تعديل بعض النظم القديمة التى ثبت بطؤها وتخلفها عن حركة العصر ، ومن الآراء القيمة فى هذا الباب أن يرجع البرلمان الى وظيفته الأولى التى كان مقتصرا عليها فى أول أمره : وهى وظيفة الاشراف على شؤون الحكومة وأمور الشعب اشرافا عاما متخليا عن وظيفة التشريع لهيئة خاصة تنهض بذلك ، ثم ان على الديمقراطية أن تنشط فى تنظيم الحالة الاقتصادية أكثر مما نشطت الى الآن ، وفى موازنتها وتخفيف آثار مضاعفتها عن الشعب العاجز عن السيطرة على عواملها المترامية ، فانه ما دامت الحالة الاقتصادية مضطربة فستظل الحالة السياسية كذلك وسيظل الباب مفتوحا للمذاهب المتطرفة وللمغامرين من ذوى المطامح .

ان الديمقراطية هى شكل الحكم الطبعى المعقول المحالف للعلم والرقى بينما الحكم المطلق يتعسف ويتحدى العلم والتاريخ ويساير

الغريزة والعاطفة العمياء فتتغدى الدولة فى ظل الدكتاتورية غاية فى ذاتها. ويعتقد الطغاة أن الفرد خلق لخدمة الدولة ولم تخلق الدولة كما يدل المنطق ويشهد التاريخ لخدمة الفرد ، ومتى كانت الدولة غاية فى نفسها فى نظرهم كان بدهيا أنها خالدة ، وان كان التاريخ يشهد بأنها حلقة فى سلسلة رقى تنقل فيها المجتمع الانسانى من الأسرة الى القبيلة الى الدولة ، وكان المعقول أن يطرد ذلك الرقى فتألف الدول جميعا مكونة الدولة العالمية وقد صار تحقق الدولة العالمية بعد أن تقاربت الأمم وتوثقت علاقاتها وغدت وحدة اقتصادية أمرا ضروريا لا محيص عنه اذا قدر للمدنية البقاء .

والديمقراطية هى التى تمهد السبيل لتحقيق الدولة العالمية ، بما تنشره بين الناس من مبادئ الحرية والاخاء والمساواة ، وبازدهار العلم فى ظلها ازدهارا ينشر النزعة العالمية بين المثقفين شيئا فشيئا ، ويشعرهم بوحدتهم فى الانسانية وبغرور أسباب التعصب والتنايد . فاذا قدر للدولة العالمية التحقق يوما فلن يكون تحققها على أيدي الغزاة الفاتحين . أمثال الاسكندر وقيصر و نابليون وأضرابهم من المحدثين ، إنما ستحقق بالوسائل السلمية ، بانتشار النظرة الانسانية الشاملة وتضاؤل التعصب القومى كما تضاءل التعصب الدينى الذى لقيت منه الانسانية صنوف البلاء فى سالف العصور . وفى سبيل هذه النزعة السلمية العالمية قد خطت الديمقراطية الى اليوم خطوات واسعة .

ثالثا : مقالات

عن فخرى أبو السعود.

« هتفت فى نفسى حين رأيت هذه الارادة العاقلة ثابتة كأنها الطود الراسخ :
والله انه لرجل والرجال فينا قليل ! ٠٠٠ ولم يكن عجيبا أن أقرأ بعد
ذلك بأعوام لهذه النفس الجادة الحازمة صرخة توجهها الى « بنى مصر » :

الام تغيب الشمس عنا وتطلع ونلعب فى ظل الحياة ونرتع
نهييم بهزل لا نهيم بغيره ونهرب من جد الحياة ونفزع
ونحجم عن أخطارها وصعابها وتنهبنا لذاتها والتمتع
وان نبتغ العليا ترانا كأنما نساق اليها كارهين وندفع
نسير على رسل وللعر حولنا مواكب فى طرق العلا تتدفع

ذلكم هو المرحوم فخرى أبو السعود كما أبصرته أول مرة .

ولكن حبل الصداقة لم يكن قد ألف بعد بين قلبينا ، والصداقة
« الصحيحة » تدنو من القلوب خطوة خطوة ، ويساقط نداها فى الأفئدة
قطرة قطرة ، فلما انقضى على ذلك الحادث أعوام ثلاثة ، وقفت فى إحدى
المكتبات أقلب ما أخرجه المطابع من كتب ، فرأيت كتابا عن عرابى زعيم
الثورة المصرية قد أخرجه للناس فخرى أبو السعود ، أخرجه ذلك الطالب
الذى ثار يوما على زملائه الطلاب ، وانه لمصيب وانهم لمخطئون ، وتقرأ
الكتاب ، فإذا بالشباب الشائر ينفث على صفحات كتابه شواظا من نار ،
فأدناه ذلك من نفسى لما أدركت بين نفسيهما من أواصر القربى ، والله كم
طربت حين قرأت له بعدئذ هذه القصيدة السماء ، التى أنشدها لقومه
يذكرهم بموقعة التل الكبير ، ومنها :

ولم أر يوم التل عابا وسببا . ولم أره الا أغر وأمجدا
أنجبل ان قمنا ندود عن الحمى ويسحب أذيال الفخار من اعتدى ؟
سلام على قيل تولى زمامها أعف الورى قصدا وأنقاهم يدا
ستذكره مصر الفتية ما ابتغت لدى الحق عهدا أو لدى المجد موعدا
عسى ذكرنا - رغم الهزيمة - أحمدا سيبعث فينا للغنيمة أحمدا

وانطوت أعوام دراسته ، وكان من الناجحين فى طليعتهم ، ولكنه
لم يجد له فى وزارة المعارف مرتزقا ، فاشتغل فى إحدى المدارس الحرة
عاما ، ثم أراد الله فى ختام العام أن يلبح جوهره من جديد ، فأجريت
مسابقة فى اللغة الانجليزية ليبعث بالمتفوقين الى انجلترا ، فكان فخرى من
هؤلاء المبعوثين الى جامعة اكستر ، حيث استزاد من اللغة الانجليزية ليقوم
بعد عودته بتدريسها .

وهل نتوقع لهذه النفس الشاعرة أن تقيم في أرض السحر
والجمال ، فلا تنور فيها الشاعرية أنا بعد أن ؟ لقد بعث إلينا أثناء مقامه
هنالك غر القصائد ، يتلو بعضها بعضا .

قال يصف الجو في انجلترا ، من قصيدة طويلة :

يارب يوم شرود جاء مذهيا	بشمسه ، ونسيم لين عطر
تلاه آخر رواها وأثرها	بوابل مستمر الوكف منهجر
فجاء صبح حديد البرد قارسه	يكوى الوجوه بوخر منه كالابر
فجاء من بعد صبح أبيض يقق	كاس بسلج كزغب الطير منتشر
فجاء صبح يلف الأرض في سدف	من الضباب كثيف اللون معتكر
يكاد يفتقد الانسان راحته	إذا تعرض بين الراح والبصر

وقال يصف السحاب في كمبردج :

مزجى الشتاء بخيله وبرجله	وانذر الدنيا بوشك اياه
تسعى جنود البرد تحت جناحه	والرياح والاعصار حول ركابه
فاذا سرى برد القلال مخالطا	أجزائه وانسل في أعصابه
أوهى عراه وفت في أوصاله	فانصب ملء السهل في تسكابه

وقال يصف الأرض وقد أخذت زخرفها في الربيع في اكستر :

من غازل الروض حتى افتر جذلانا	وكان منقبضا بالأمس غضبانا ؟
وأخرج الزهر من أقصى منابته	فرصع العشب أشكالا واللوانا
وصاح بالرياح حتى قر ثائرها	الا نسيمما بعرف الزهر ملانا
وكفكف الغيث فانجابت عوارضه	وكان لا يأتي هطلا وتهنا
وقشع السحب عن أفق السما فبدا	طلقا وأطلع وجه الشمس ضحيانا

ولم يلبث الشاعر الفرح بما حوله من مباحج الطبيعة أن فجع في
أدبه ، فبعث في رثائها صرخات باكيات ، فقال :

يائتي قد كنت حاضر يومها	وسعدت قبل رحيلها بتزود
وشهدت أنتها بلين مهدها	ورأيت سكتتها بجافى المرقد

فخرى أبو السعود

للاستاذ أحمد فتحي مرسى

قضى الأستاذ الشاعر فخرى أبو السعود - طيب الله ثراه وخلده
مذكراته - فأنطوى بموته صديق يعز على الأصدقاء فقدته ، وأديب يشق
على الأدب رزؤه فيه ، وعالم لن ينساه العلم وإن نسي الكثير غيره ، فمن
حقه على أن أكتب ، ومن حقه على الرسالة أن يتسع صدرها لما أكتبه عن
أديب طالما طلعت علينا بالكثير من آياته وغرره *

قال البعض انه مات منتحرا برصاص مسدسه فى لحظة ضيق بعد
أن خط هذا البيت على رقعة :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثلاثين حولا - لا أبالك - يسام
وقيل انه فقد ولده فى باخرة ترحيل الأطفال الانجليزية التى اغرقها
الألمان ، وقيل انه انقطع اتصاله بأسرته فى إنجلترا ، وقيل ان فى الأمر
جريمة قتل ٠٠٠ الى غير ذلك مما يدبغه الناس فى مثل هذه المناسبات ،
إذا عمى عليهم الأمر ووقعوا فى الحيرة ، فذهبوا يتقصصون الآثار ،
وينتحلون العلل ، ويضربون فى الأوهام ٠٠٠ ثم انبرت أسرته تكذب
كل ذلك وتقول انه مات برصاصة طائشة من رصاص مسدسه أثناء
اصلاحه ٠٠٠ كل ذلك لا شأن لنا به فلقد مات الرجل - يرحمه الله -
وانقضى الأمر ، الا أن ما عرفته نى فخرى طول صحبتى له من صموده
للحياة ، وثقته بالله وعدم تطيره من الحادثات ، يجعلنى كثير الشك فيما
قيل عن الانتحار ٠٠٠ فقد كنت معه مرة فى معرض الحديث عن مقال
فى الانتحار لأديب كبير ، ثم تطرق بنا الحديث الى ذكر فلان من أدباء
الشباب - وكان فخرى يعجب بأدبه ولا يعرفه - وأنه قد حاول الانتحار
فى ذلك الحين ، فسخر فخرى منه ، فلما عرضت على فخرى أن أعرفه
به ابتسم قائلا : « اننى لا أود أن أعرفه » *

★ ★ ★

عرفت فخرى أول ما عرفته فى أول عهده بالتدريس فى المدرسة
العباسية الثانوية ، وكان ناظرها فى ذلك العهد الأستاذ عبد الرحمن

شكري . قدمنى اليه صديق ، فخلت بادي ذى بدء ، أنه أخذ الطلبة ، فقد كان - رحمه الله - ضئيل الجسم ، قصير القامة ، قليل الكلام ، شديد الخجل ، لا تبدو عليه سنه ، فلما قدمه الصديق الى ، خلعت أنه هازل لا جاد ، أو أنه ربما اشتبه عليه الاسم - فكثيرا ما تتشابه الأسماء - ، وساعد على ذلك أن الصورة التي كنت رسمتها لفخري في ذهني - من المطالعة - تتباين مع ما أراه جد التباين ، فسلمت عليه في فتور ووناء ، ثم انه كان قليل الكلام - كما قدمت - فتوهمت أن ذلك قلة مبالاة ، فقابلته بالمثل ، فكانت مقابلة جافية أسرها لي فخري ، وعتب على بعد ذلك بزمان .

ثم مضت الأيام فذهبت اليه في بعض الشآن ، وكنت قد نشرت قصيدة بجريدة الأهرام بعنوان « الصباح » فقابلني مقابلة طيبة ، وجلسنا نتحدث عن القصيدة ، ثم عن الشعر في مصر ، ثم قرأ لي قصيدة عنوانها « نجوم السينما » كان يعدها للرسالة ، وأهدى الى كتابه عن الثورة العربية ، ٠٠٠ ثم تكررت المقابلات بعد ذلك ، واتصلت بيننا أسباب المودة ، فكنا نلتقي في أكثر الأيام .

نقل فخري بعد ذلك الى الرمل الثانوية ، وتركت أنا الاسكندرية ، ثم عدنا فالتقينا في الاسكندرية بعد ذلك بعام ، وكنت قد اتصلت بالرسالة ، وكان قد بدأ يكتب فيها سلسلة مقالاته عن المقارنة بين الأدبين العربى والانجليزى ، فأنارت اهتمام كثير من الأدباء ، وقد أبدى لي الأستاذ الزيات إعجابه بها أكثر من مرة ، وكتب الى فخري يقول في ختام خطاب له - أطلعني عليه فخري - : « فاستزيدك ، ثم أستزيدك ، ثم أستزيدك » . وكان في نية الأستاذ الزيات طبع هذه المقالات بعد أتمامها ، ولكن فخري لم يتمها .

ظهرت بعد ذلك مجلة الرواية ، وبعد ظهورها بنحو عام وقعت جفوة بين فخري وبين الزيات أدت الى قطع هذه المقالات ، وانقطاع فخري عن الرسالة ٠٠٠ قابلته بعد ذلك بحين فشكا لي شيئا من ركود ذهن بعد انقطاعه عن الرسالة ، وقال لي انه شديد الخجل لأن الأستاذ الزيات ما زال يرسل اليه مجلتي « الرسالة » و « الرواية » في حين أنه لا يؤدي له أية خدمة نظير ذلك ٠٠٠

وظهرت في ذلك الحين مسابقة وزارة المعارف في التأليف ، فعرض على بعض ما كتبه . وكان - رحمه الله عليه - كثير الشك في الفوز ،

فطمأنته ورجوته أن يتم ما بدأ ، فأنتمه - وأطنه فاز بجائزتين - ، ثم انقطع حيناً عن الكتابة وانصرف إلى القراءة ، وكنت ألقاه في ذلك الوقت كل يوم تقريباً ، فتمضى سيرا على الأقدام في طريق « الكورنيش » ، ويمتد بنا الحديث في الأدب والجدل أحياناً حتى نجد أنفسنا في جهة لم نكن نقصدها ، وكثيراً ما كان يشغلنا الحديث حتى نقطع في السير مسافات بعيدة دون أن ننتبه ، فقد كان رحمه الله يؤثر السير على الجلوس ، وكان شديد النفور من المجتمعات ولا أذكر أنني رأيته مرة في مقهى أو منتدى ، ولعل ذلك هو السبب ، في سعة اطلاعه ، ووفرة إنتاجه ، فكان يقسم فراغه بين التريض والقراءة ، والكتابة . والظاهر أن ذلك يرجع إلى طبيعته الهادئة ، فقد كان يكره الضجة ، ويتجنب الناس . وكان منزله في بقعة هادئة من رمل الاسكندرية ، وحتى طفله يبدو لي أنه ورث عنه هذه الميزة ، فكان ينفر من الغريب ، ويبتعد عن الناس ، أذكر أنه تركه معي مرة وذهب لبعض شأنه ، فجعل الطفل يصرخ ويبكي ويتملص مني ليجري ، وعيناً حاولت تهدئته ولكنه لم يهدأ حتى عاد والده فسار إلى جانبه مهتعداً عني .

ولا أود أن أختتم هذه اللماسة قبل أن أشير إلى دراسة فخرى واتجاهه في الأدب ، فقد تخرج في المعلمين العليا واشتغل بعض عام بالصحافة . ثم اختارته وزارة المعارف في بعثة لها فتخرج في جامعة اكسترا في إنجلترا - وهناك تزوج من زميلة انجليزية له في الدراسة - فلما عاد اشتغل بالتدريس في المدرسة العباسية الشانوية بالاسكندرية . وكان فخرى - رحمه الله - كما علمت منه مكباً على القراءة من صغره ، ولا سيما قراءة القديم ، حتى أوشك أن يستظهر كتباً بأكملها ، ويظهر ذلك جلياً في أسلوبه ، فتمتاز كتابته بقوة الأسلوب وجزالة الألفاظ . كذلك تبدو في شعره محاولة تقليد القدماء ، وقد تأثر في هذا بالبارودي ، وكان يحفظ جل ديوانه ومختاراته . وكان يؤثر من الشعراء القدماء أبا تمام وبعض شعراء الجاهلية لا سيما طرفة بن العبد . كل هذه الدراسات القديمة كان لها أثر واضح في شعره لا يخفى على قارئه ، وكان يختار منها أكثر شواهد في مقارنته بين الأدبين العربي ، والانجليزي . وكان يؤثر العقاد على شوقي وحافظ ، وكثيراً ما قام بيننا جدال طويل في ذلك . وكان رحمه الله ينظم الشعر في سيره فتراه يغمغم في سيره بكلام لا تستبينه لانخفاض صوته ، حتى إذا جلس كتب ما قال ، ولا يزال كذلك حتى يتم القصيدة .

وهناك ناحية تجب الإشارة إليها هنا وهي ضيق صدره بالنقد ،
وإن كان سلم منه في الصحف ، وكثيرا ما كنت آخذ عليه ذلك . حدث
مرة أن عثرت له على بعض أخطاء في نسبة الشواهد ، وعلى هنة لغوية
في قصيدة له ، وكان في ذلك العهد يقضى الصيف بانجلترا ، فانتظرت
حتى عاد فنبهته لذلك فغضب مني ، ودعاني في اليوم التالي وقد
جمع لي بعض ما كتبت في الرسالة وجعل ينتقد لي بعض المعاني حتى
يرد على بالمثل .

وقد نشر فخرى القسطنطين الأكبر من كتابته بمجلة الرسالة ، واتصل
في أواخر أيامه بمجلة الثقافة وجعل يكتب بها حتى توفاه الله وفيما عدا
ذلك له متفرقات بجريدة الأهرام والهلل وغيرهما من الصحف : هذا غير
كتابه (الثورة العربية) وقصة (تيس) .

رحمك الله يا فخرى ، وأجمل هزاء الأدب فيك ، ولطف بأصدقائك
وعارفيك . فقد كنت نعم الأديب ونعم الصديق . . .

هذا بعض حقك على ، أرجو أن تجد لي العذر إن كنت قد قصرت
فيه أو أخطأت ، فإن الحزن يغالب خاطري وذاكرتي كلما أمسكت القلم
لأكتب عنك ، أو أنا كما يقول شوقي :

رئيسك لا مالكا خاطري من الحزن الا قليلا خطر
سبقتك الدموع فان لم يدمن كعادتهن سقاك المطر

شعر التصوير والعاطفة

عند فخرى أبو السعود

بقلم الأستاذ محمد عبد الغنى حسن

كان للمرحوم فخرى أبو السعود شعر لا شك أن قراء الهلال والمقتطف والرسالة والثقافة قرءوه ، واستمتعوا بما فيه من لذة وجمال . فهو شعر سائغ المعنى ، سائغ العبارة ، وكل سائغ من المعانى والألفاظ يختلب اليه الألباب ، ويجذب اليه القراء .

ولا شك أن (فخرى) قال الشعر وهو طالب بمدرسة المعلمين . العالية . ولا شك أن هذا الشعر كان ككل محاولة يتصدى لها من كشف فى قرارة نفسه عن موهبة شاعرية أودعها الله فيه .

فلم يكن شعره أول الأمر قويا ، ولا أخذا ، ولم يكن حافلا بالمعانى التى تتكاثر بالقراءة ، وتتراحم بالمطالعة ، وتزيدها التجارب فى الحياة والاختلاط بالناس ، والاندماج فى البيئات المختلفة والأوساط المتباينة .

ولكن الشاعر يولد ومعه مغزفه . فهو يعالجه بالنغم ، ويرأحه ويغاديه من حين الى حين بالمحاولة حتى تنم له الأداة ، وتستوفى له العدة ، فيدهش الناس بالمطرب من الأنغام والعلوى من الالهام ، والقدسى من الترجيع ، والمبدع من التوقيع .

وهكذا كان فخرى أبو السعود - رحمه الله - فقد رزق المعزف ، ووهب الناي ، وأعطى القيثارة الخالدة لينقر عليها انفعال نفسه ، ورقة حسه ، وينقل على أوتارها تموجات مما يجيش فى صدره ويعتلج فى نفسه ، ويطلع عليها مرائى لحظه ، ومشاهد بصره ، فينقلها فى أمانة ودقة ، واحكام وضبط ، حتى لا تكاد تفلت من مرائيه شاردة ولا واردة .

وسبيل الشاعر الى اجادة الشعر ، واتقان التصوير هو احساسه وعينه ، ولقد كان حظ فخرى منهما عظيما ، ونصيبه وافيا ، وقد شاهدت ذلك منه رأى العين ونحن فى واد ضيق من وديان انجلترا الجنوبية الغربية ، تنبسط على جانبيه سهول فيها النجد وفيها الغور ، وفيها

السهل وفيها الحزن(*) ، وتلونها شيات شتى من ألوان أبدع الله تصويرها ،
وأجمل تقديرها .

وفى هذه البقاع الجميلة كل الجمال ، الفاتنة كل الفتون
كان يستريح فخرى من عناء الدرس ليسلم نفسه الى الطبيعة
المرحة حيناً ، العابسة أحياناً ، لينتزع منها سرها ، ويستوحىها خبيثة
نفسها ، ومستكن فؤادها .

وهو لا يكتفى الى ما يراه بالنظرة العاجلة ، أو الرؤية الخاطفة ،
ولو كان كذلك ما رأينا فى شعره النظر العميق ، والفكرة البعيدة ،
والمعاني الناهية الى أعماق بعيدة الغور .

وهو حين يصور الطبيعة أو يصف منظراً من مناظرها يوفى الوصف
حقه ، ويعطى الصورة ثوبها الحقيقي ، فيخيل اليك وأنت تقرأ شعره
أنك تنظر الى لوحة من صنع رسام ماهر ، ويخيل اليك - فى غير مبالغة -
أنك تسمع الشجر اذا حف ، والأقحوان اذا رف . . . والندى اذا تقاطر ،
والطير اذا تهامس ، والبحر اذا تلاطم ، والركام اذا تصادم . . . ويخيل
اليك أنك تشم العطر اذا تآرج ، والياسمين اذا تنفس .

وهل هناك صورة للياسمين أصدق من الصورة التى حلاه فيها
فخرى بقلمه الجميل :

ندى الميحا اذا الصبح لاح	وقد ظل ليلاً وقد نضرا
كان أزاهره بسـمات	يلاقى بها العين مستبشرا
ونعم السـمير اذا الليل جن	ولاحت بعيداً نجوم السرى
اذا بث فى الليل أنفاسه	وعطس فى الجو ما عطسرا
دعانى أن أقضى الليل طرا	ثواء لديه وأن أسهرا

(*) الحزن (بفصحى) : ما يرد من الأرض والجميع : الحزن .

ثم يصف رقة الياسمين ، ووشك ذهابه ، وسرعة انفراطه ، فيقول :

وشيك الذهب اذا نظمه تكامل أو شاك أن ينشرا
أعد ضحاياه في كل يوم وتووعا هوامد فوق الثرى

فأى صورة أرق من صورة الياسمين وهو متناثر على الأرض ، مبعثر
العمد ، بعد أن كان يزين الجدار فى عقد منتظم وشمل ملتئم ؟



وله فى الجبال أبيات ستتظل خالدة فى الشعر التصويرى العربى ،
لأن قليلا هم الذين صوروا الجبال ، واحتفوا بأن يقفوا أمامها لحظات
— طالت أم قصرت — ليستشعروا ضآلتهم بالنسبة الى عظمتها ، ويحسوا
أنهم أقزام بالنسبة الى جسمها المارد ، وعلوها الباسق ، ويلتمسوا فى
قننها المرتفعة ، وقممها المثقلدة من وشاح النجوم ، ارتفاع النفس عن
صغائر الدنيا وسفاسف الحياة . . . ويحاولوا أن يستلبوا منها سر
الوجود ، واكتناه المصير الذى أعيا عليها ، فمضت السنون وهى بكم
لا تبين ، وصم لا تسمع .

اسمعه يقول فى الجبال الشواهى :

قامت سوامق فى الفضاء وفوقها من يانع الأدواح سمام سمامق
وتفردت فى وحدة فكأنها لما تلاقت فى الخلاء أصادق
وكانهن من الأنيس نوافر أو من ضجيج الحاضرات أوابق

ويصف الروابى المتسامية ، وقد حجبت الأفق ، وأشرفت على
الكواكب :

قليل تسامت فى الجواء وحجبت أفق السماء الى الكواكب تومى
أنى رفعت الطرف قصر شأوه اشراف مرفوع السيموت جسيم
وكان خطوى فى دروب وعورها نمسل يلدب على سرات أديم

ثم يصف وحدته فى تلك الروابى واستيحاشها منه ، وانكارها
هيبته :

وكأنما أنكرت ظاهراً هيئتي وكأنما قد راعهن قدومي
وأنا أغمغم بينها بقصيدة عربية الألفاظ والتنغيم
ويخلص من ذلك إلى حينه إلى حرارة وطنه ، ووهج شمس في
أبيات رقيقة .



ولقد زار الشاعر مرة حديقة الحيوان ، فأوجت إليه بقصيدة رائعة،
أحسن فيها التصوير ، وأحسن الفلسفة ، وكشف فيها عن معاني الرحمة
وانحب التي كانت تفيض وتضرب بين أحناء نفسه . أما حسن تصويره
فلأنه أخرج لنا في القصيدة لوحة جامعة احديقة الحيوان ، لا يستطيع
أى رسام أن يأتي لنا بها مجموعة في لوحة واحدة ، فهنا عرين الأسد ،
وأسراب الطير الملونة ، وأوكار الشعابن الرقش ، وجماعات الطباء ،
قد تجاوزت في غير عداوة ، وألفت بينها مرارة السجن ووحشة الغرب :
تجاوزت الأعداء لا حرب بينها وكف أذى ناب وشرة مخلب
وفل شبا ثاراتها وحقوقها على رغم طبع في النفوس مركب
حوتها جميعاً غربة لا ترى لها أياها إذا ما آب كل مغرب

ثم يتفلسف بعد هذا وينتهي إلى قوله :

وكم من ضعيف آمن السرب وادع دهته دواهي الراصد المشرق
وكم من رضيع ليس بالدافع الأذى يفرق من أم حنون ومن أب
شرايع سنتها الحياة لأهلها ومن عف عن تلك الماكل يسغب



وله قصيدة عنوانها السفينة ، أجاد فيها الوصف ، وأحكم الصورة .
وكان رقيقاً جداً حين صور وقفة الوداع والرحيل في قوله :

يودعها بالشط حرى جوانح ويرقبها في البعد أفئدة جنلى
فمن راحل بالشط غادر أهله إلى راكب قد يمم الصحب والأهلا
ولم قضوا حق العناق وكفكفوا غوارب دمع أو أذالوه فأنهلا
وأرسل بالقبلات في الجو مرسل ولوح بالمنديل آخر مخضلا
تهادت بأهلها تشق طريقها من اليهم لم تنكل ولا استثقلت ثقلا

ثم يصف النار التي تدفعها وعقل الربان الذي يدبرها بقوله :

يخوض بها فى بارد الماء جاحم من النار تصالى منه أحشاؤها مهلا
يدبرها فى رأس جؤجؤها امرؤ خبير بأوضاع الطريق فما ضللا

ومن صوره الفكهة الصادقة صورة فتى أعمى ينغم فى القرآن ،
ويرجع الأنفاس به ، وهو يدير يديه على عارضيه ، وكلما زاده
السامعون استحسانا زادهم من حركاته ونغماته ، ورفع صوته ، يقول .
فيها :

ففى حلقومه نأى رخييم تخف النفس من طرب اليه .
إذا ما رجع الأنفاس فيه وقد دارت يداه بعارضيه
سما بك صوته صعدا وألقى اليه الحفل طرا مسمعيه !
إذا زادوه مدحا زاد زهوا وهن من التخاييل منكبيه .
ومال ترنحها يهنى ويسرى وصعر فى التنغم أخدعيه .

لقد كان فخرى أبو السعود شاعرا حسن التصوير ، زاهي
الالوان ، وصف الطبيعة ووقف قلمه عليها ، فأبدع الأداء وأحسن
الوصف . ومن الغريب أنك لا تعثر فى شعره المبعثر هنا وهناك الا على
القليل جدا من الشعر الغزلى ، أما المديح فقد حاوله مرة أو مرتين فى
جريدة الأهرام ، ولكنه سكت عنه سكوتا تاما ، كما يسكت اليوم سكتته .
الأبدية . . .

ملحق بأسماء وتواريخ وأماكن نشر المقالات.

مقالات في الأدب المقارن لمجلة الرسالة

في العدد (٤١) ١٩٣٤

الأدب العربي والأدب الغربي

في العدد (٤٤) ١٩٣٤

التصور في الشعر العربي

في العدد (٤٩) ١٩٣٤

الأثر اليوناني في الأدب العربي

في العدد (٥٣) ١٩٣٤

القصة في الأدب العربي

في العدد (٨٠) ١٩٣٥

ظواهر متماثلة في تاريخ الأدبين العربي والانجليزى

في العدد (٨٣) ١٩٣٥

النزعة العملية في الأدبين العربي والانجليزى

في العدد (١٦٨) ١٩٣٦

الأثر الأجنبي في الأدبين العربي والانجليزى

في العدد (١٦٩) ١٩٣٦

طور الثقافة في الأدبين العربي والانجليزى

في العدد (١٧٠) ١٩٣٦

الفكاهة في الأدبين العربي والانجليزى

فى العدد (١٧١) ١٩٣٦

أسباب النباهة والخمول فى الأدبين العربى والانجليزى

فى العدد (١٧٢) ١٩٣٦

الطبيعة فى الأدبين العربى والانجليزى

فى العدد (١٧٣) ١٩٣٦

أثر الدين فى الأدبين العربى والانجليزى

فى العدد (١٧٣) ١٩٣٦

أثر الدين فى الأدبين العربى والانجليزى

فى العدد (١٧٤) ١٩٣٦

الخرافة فى الأدبين العربى والانجليزى

فى العدد (١٧٥) ١٩٣٦

أثر الفنون فى الأدبين العربى والانجليزى

فى العدد (١٧٦) ١٩٣٦

شخصيات الأدباء فى الأدبين العربى والانجليزى

فى العدد (١٧٧) ١٩٣٦

أثر البيئة فى الأدبين العربى والانجليزى

فى العدد (١٧٨) ١٩٣٦

النقد فى الأدبين العربى والانجليزى

فى العدد (١٧٩) ١٩٣٦

أثر نظام الحكم فى الأدبين العربى والانجليزى

فى العدد (١٨١) ١٩٣٦

عرض الأدب فى الأدبين العربى والانجليزى

فى العدد (١٨٢) ١٩٣٦

أثر الشرف فى الأدبين العربى والانجليزى

العدد (١٩٨) ١٩٣٧

القصص فى الأدبين العربى والانجليزى

العدد (١٩٩) ١٩٣٧

أثر المجتمع فى الأدبين العربى والانجليزى

العدد (٢٠٠) ١٩٣٧

الوصف فى الأدبين العربى والانجليزى

العدد (٢٠١) ١٩٣٧

الخيال فى الأدبين العربى والانجليزى

العدد (٢٠٢) ١٩٣٧

التاريخ فى الأدبين العربى والانجليزى

العدد (٢٠٣) ١٩٣٧

بيئات الأدباء فى الأدبين العربى والانجليزى

العدد (٢٠٤) ١٩٣٧

المعنى والأسلوب فى الأدبين العربى والانجليزى

العدد (٢٠٥) ١٩٣٧

أثر الأخلاق فى الأدبين العربى والانجليزى

العدد (٢٠٦) ١٩٣٧

أثر المرأة فى الأدبين العربى والانجليزى

العدد (٢٠٧) ١٩٣٧

الحكمة فى الأدبين العربى والانجليزى

العدد (٢٠٨) ١٩٣٧

التشابه والاختلاف فى الأدبين العربى والانجليزى

مقالة فى يناير ١٩٣٧

أشكال الأدب فى الأدبين العربى والانجليزى

العدد (١٨٦) ١٩٣٧

الأدب العامى فى الأدبين العربى والانجليزى

العدد (١٨٧) ١٩٣٧

الانسان فى الأدبين العربى والانجليزى

العدد (١٨٨) ١٩٣٧

التفاؤل والتشاؤم فى الأدبين العربى والانجليزى

العدد (١٨٩) ١٩٣٧

البطولة فى الأدبين العربى والانجليزى

العدد (١٩١) ١٩٣٧

موضوعات الأدب فى الأدبين العربى والانجليزى

العدد (١٩٢) ١٩٣٧

الرومانسية والكلاسيكية فى الأدبين العربى والانجليزى

العدد (١٩٣) ١٩٣٧

الحرب فى الأدبين العربى والانجليزى

العدد (١٩٤) ١٩٣٧

الطير والحيوان فى الأدبين العربى والانجليزى

العدد (١٩٥) ١٩٣٧

الذاتى والموضوعى فى الأدبين العربى والانجليزى

العدد (١٩٦) ١٩٣٧

الشعر والنثر فى الأدبين العربى والانجليزى

العدد (١٩٧) ١٩٣٧

الطور القمتى فى الأدبين العربى والانجليزى

مقالات مجلة الثقافة

العدد (٣٠) ١٩٣٩

تشترتون زعيم الرجعية فى عصر التطور

العدد (٦٢) ١٩٣٩

الفن يعيد نفسه

العدد (٦٨) ١٩٣٩

السياسة في الأدب العربي

العدد (٧٨) ١٩٤٠

فن الحياة

العدد (٨١) ١٩٤٠

الأجناس والقوميات بين العواطف الوطنية والحقائق العلمية

العدد (٩١) ١٩٤٠

علم السياسة عند العرب

العدد (٩٥) ١٩٤٠

المرأة في المجتمع

العدد (٩٩) ١٩٤٠

الجنة يحاكمون الأبرياء

مقالات مجلة الهلال

العدد لشهر يونية ١٩٣٨

أبو العلاء بين شعراء العربية

العدد لشهر أبريل ١٩٤٠

تطور فكرة السلام العالمي

العدد لشهر يونية ١٩٤٠

المثل الأعلى للدولة الحديثة

العدد لشهر أبريل ١٩٤١

الديمقراطية ضمان الرقي الانساني

مقالات عن فخرى أبو السعود

عدد ٢٩ أكتوبر ١٩٤٠

مجلة الثقافة

مقالة زكي نجيب محمود

(أديب مات)

عدد نوفمبر ١٩٤٠

مجلة الرسالة

مقالة أحمد فتحي مرسى

(فخرى أبو السعود)

عدد نوفمبر ١٩٤٠

مجلة الثقافة

مقالة عبد الغنى حسن

(شعر التصوير والعاطفة عند فخرى أبو السعود)

- جابريل باير
تاريخ ملكية الاراضي في مصر
الحديثة
- اسطوئي دى كرسينى وكينيث هينج
اعلام الفلسفة السياسية
المعاصرة
- دوايت سوين
كتابة السيناريو للسينما
- زافيلسكى ف. س
لغزمن وقديسه (من جزء من
البليون جزء من الثانية وحتى
مليارات السنين)
- مهندس ابراهيم القرضاوى
اجهزة تكييف الهواء
- بيتر رداى
الخدمة الاجتماعية والانضباط
الاجتماعى
- جوزيف داموس
سبعة مؤرخين في العصور
الوسطى
- ش. م. بورا
التجربة اليونانية
- د. عاصم محمد رزق
مراكز الصناعة في مصر
الاسلامية
- يونانلد. د. سمبسون ولورمان د.
الدرسين
- العلم والطالب والدارس
- د. انور عبد الملك
للشوارع المعمرى والفكر
- ولت ريتمان روستو
حوار حول التنمية الاقتصادية
- فرد س. هيس
تبسيط الكيمياء
- جون لويس بوركهارت
العادات والتقاليد المصرية
من الامثال الشعبية في عهد
محمد على
- الان كاسبيران
التذوق السينمائى
- سامى عبد المحسن
التخطيط السياحى في مصر
بين المتنارية والتطبيق
- مويل وشاندرا ويكراما سينج
البذور الكونية
- حسنين حلمى المهندس
مرايا النشاهة (بين النظرية
والتطبيق) للسيلمساو التليفزيون
٢ ج
- روى دوبرتسون
الهيرويين والابتن واثرهما في
المجتمع
- دور تاس ماكليرول
صور افريقية . ٥ فقرة على
حيوانات افريقية
- هاشم النحاس
لجيب محفوظ على النشاهة
د. محمود سرى طه
- الكومبيوتر في مجالات الحياة
- بيتر لمورى
المخدرات عقائضى نفسية
- بوريس فيدوروفيتش سيرجيف
وظائف الاعتناء في الالف
النساء
- ويليام بينز
الهندسة الوراثية للمجتمع
- ديفيد الدرثرين
تربية اسماك الزينة
- احمد محمد الشنوانى
كتب غيرت الفكر الانساني
- جون . ر. بوردا ونيلتون جولدبيرج
الفلسفة وقضايا العصر ٣ ج
- انولد تويلبى
الفكر التاريخى عند الاغريق
- د. صالح رضا
ملاحم وقضايا في الفن
التشكيلى المعاصر
- م. ه. كنج وآخرون
الفقضية في البلدان النامية
- جورج جاموف
بداية بلا نهاية
- د. السيد طه السيد ابو سديره
الحرف والصناعات في مصر
الاسلامية منذ الفتح العربى
حتى نهاية العصر الفاطمى
- جاليليو جاليليه
حوار حول المفاهيم الرئيسيين
للكون ٣ ج
- اريك موريس والان
الارهاب
- سيرل الدريد
اختلاوتون
- ارشر كيستلر
القبيلة الثالثة عشرة ويهود
الدهم
- ب. كرملان
الاساطير الاغريقية والرومانية
- د. ترماس . ا. هاريس
التوافق النفسى - تحليل
المعاملات الانسانية
- لجنة الترجمة
المجلس الاعلى للثقافة
الدليل الببليوجرافى
روائع الادب العالمية ١
- روى ارمز
لغة الصورة في السينما المعاصرة
- ناجى متشيد
القدرة الانسانية في اليابان
- بول هاريسون
العالم الثالث غدا
- ميكائيل المي وجيمس لفلوك
الانقراض الكبير
- آدامز فيليب
دليل للتعليم المتاحف
- فيكتور مورجان
تاريخ النقود
- محمد كمال اسماعيل
التحليل والتوزيع الاوركسترا
- أبر القاسم الفردوسى
التشاهمة ٢ ج
- ببرتون بورتر
الحياة الكريمة ٢ ج
- جاك كرايس جونيور
كتابة التاريخ في مصر القرن
التاسع عشر
- محمد فؤاد كوبرلى
قيام الدولة العثمانية
توسى بار
- التمثيل للسينما والتليفزيون
تاجور شين ين . نج وآخرون
مختارات من الادب الاسيوية
- ناصر خسرو على
سفرنامه
- نادين حورديمير وجريس اوجو
آخرون
سقوط المطر وقصص اخرى
- احمد محمد الشنوانى
كتب غيرت الفكر الانسانى
٧ ج
- جان لويس بورى وآخرون
في النقد السينمائى الفرنسى
- العثمانيون في اوربا
بول كركاز

كريستيان ساليه
السيناريو في السينما الفرنسية

بول وان
خفايا ققام النجم الأمريكي

جورج ستاينر
بين تولستوي ودوستويفسكي
٢ ج

يانكو لافرين
الرومانتيكية والواقعية

حمود سامي عطا
الفيلم التسجيلي

جوزيف بتس
رحلة جوزيف بتس

متانلى جيه سولومور
أنواع الفيلم الأمريكي

مارى ب. ناش
الحسن والبيض والسود

جوزيف م. بيرج
من الفرقة على الأفلام

كريستيان ديروشي نويلكم
المرأة الفرنسية

جوزيف بندهام
جزء قاريخ العلم والحضارة
في الصين

ليونارد دافنشي
نظرية التصوير

ج. ه. جيه
نظريات الزراعة

رونولف فون هابيسبرج
رحلة الأمير رنولف الى الشرق
٣ ج

مالكوم برادبرى
الرواية اليوم

وليم مارسل
رحلة ماركو بولو ٣ ج

هنرى بيربين
اريخ أوربا في العصور الوسطى

سعيد شنشيز
نظرية الادب المعاصر وقراءة الشعر

اسحق عظيموف
العلم وفاق المستقبل

رونالد دافيد لانج
حكمة والجئون والحماقة

كارل بوبر
حقا عن عالم افضل

مورمان كلارك
الاقتصاد السياسى للعالم
والاقتصاديات

د. بيارد نودج
لأزهر في ألف عام

ستيفن رانسيمان
العمليات الصليبية

ه. ج. واز
مسلم قاريخ الانسان
٤ ج

جوستاف جروننيارم
حضارة الإسلام

د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ
حلة بيرتون الى مصر والحجاز
٣ ج

جلال عبد الفتاح
الكون ذلك المجهول

ارنولد جزل واخرون
الطفل من الخامسة الى العاشرة
٢ ج

بادى اوليمود
افريقيا - الطريق الآفر

محمد زينهم
فن الزواج

مسلو مالينوفسكى
السحر والعلم والدين

اسم متز
الحضارة الإسلامية

فاس بكارد
الهم يصلعون البشر

عبد الرحمن عبد الله الشيخ
مئات رحلة فاسكو دا جاما

ايهرى شاموس
كونفا المتقدم

سودارو
الفلسفة الجوهرية

مارفن فان كريفد
حرب المستقبل

فرانسيس ج. برجير
الإعلام الطبقي

عبد مباح
لبحرية المصرية من محمد علي
للسادات

ج. كارفيل
تبسيط المفاهيم الهندسية

توماس ليبهارت
من الماييم والباينتيم

ادوارد مريومو
التفكير المتجدد

ويليام ه. ماثيور
ما هي الجيواوجيا

موريس بير برليز
صناع الخلود

زيجمونت هين
جماليات فن الاخراج

جوناثان ريلى سنيث
الحملة الصليبية الاولى وفكرة
الحروب الصليبية

الفريد ج. بتلر
الكائنات القبطية القديمة
مصر ٢ ج

ريتشارد شاخز
رواد الفلسفة الحديثة

نراثيم زرادشت
من كتاب الاستقامت المقدس

الحاج يونس الحمري
رحلات تاريخية

ميرت ثيلر
الاتصال والهيمنة الثقافية

برتراند راسل
السلطة والفرد

بيتر نيكلز
السينما الخيالية

ادوارد ميرى
الفلسفة السينمائية الامور

نعتالى لوييس
مصر الرومانية

سيفر. ورمشت
القاريخ من شفى جوليه ٣ ج

بنو سراج. تاجزور
السينما العربية من الخليج الى
المحيط

فاس نكار
لهم يصنعون البشر

سأب محمد الجدر
ماسقريخت

ابراهيم كريم الله
من هم التتار

ج. س. مريير
الكاتب الحديث وعالمه
٣ ج

موريل عبد الله
حديث النهر

من روايت الاداب الهندية

لوريتو تود
سخل الى علم اللغة

سحر عظيموف
الشموس المتفجرة

اسرار السوير ثوبا
مارجريت رور

ما بعد الحدائق

السيد نصر الدين السيد	ونفرد مولر	ديفيد سكولز واحمدون
اطلالات على الزمن الاتي	ثالثت ملكة على مصر	الحاق ادب الضياع العلمى
مسرح عطية	محمس هنري برون	ديفيد سكولز
البرنامج النووي الاسرائيلي	تاريخ مصر	المفهوم الحديث للسكان والزمان
والامن القومي العربى)	بول دافيد	ديفيد سكولز
ادريوسكالد	المقاتل الثلاث الاخيرة	اشهر الرحلات الى شرق افريقية
الحظ	ديفيد وهادى فلدما	ديفيد سكولز
ايغور ايفانوف	دينامية الفيلم	تاريخ الفرق فى اسيا الوسطى
مجلد تاريخ الادب الانجليزى	ج. كوين	فلايدى دى سكولز
ميرپورت ريد	الحضارة الفيلقية	تاريخ اوروبا الشرقية
التربية عن طريق الفن	ارمستاد كاسيدو	ج. سكولز ج. سكولز
وليام بيتر	فى المعرفة التاريخية	الجمال فى الملاحة
معجم التكنولوجيا الحيوية	ادب ا. ا. ا. ا.	ديفيد سكولز
الذين تولوا	ومعنى الثاني	الشمسك
تحول السلطة ٢ ج.	جاس بول سارتر واحمدون	مصطفى محمود سليمان
يوسف شراة	مختارات من المسرح العالم	الزلازل
مفكرات القرن الحادى والعشرين	وزالند. وجياك. بامس	م. و. تروچ
والعلاقات الدولية	الطلال المصرى القديم	شمس المهنس
رولاند جاكسون	ميكولاس مايد	ج. و. ج. و.
الكيمياء فى خدمة الانسان	شولوك هولز	الحيلون
ش. ج. جيمز	ميجيل دى ليون	ديفيد سكولز
الحياة ايام الفراغة	الفلران	لمختارات السامية
جرج كاشمان	جوديبى دى لونا	ديفيد سكولز
لماذا تنشب الحروب ٢ ج.	موسوليني	ديفيد سكولز
مسام الدين زكريا	الوزير جردام	تاريخ الشعوب العربية
الطون بروكتر	مختارات	محمود فاسم
ارراف مرجل	على حد الزموت النمر	الادب العربى المكتوب بالفرنسية
المعجزة اليابانية	م. ت. من النمر الاسيليم	

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٧/٩٦٦٧

ISBN — 977 — 01 — 5409 — 1

كانت حياته كالشهاب الخاطف، لم يكد يومض حتى انطفأ ولفه
الظلام... ولم تكذ مخايل نبوغه تلمع مبشرة بطلوع نجم فى فلك الأدب
والنقد حتى احتضر الموت عوده وهو فى نضارة الشباب.

وإذا أخذنا بمنطق المدرسة الأمريكية القائلة بإنسانية الأدب
وعالميته - بمفهوم إنسانى حقيقى لا على النحو الذى طرحه رينيه
ويلك - فإن دراسة فخرى أبو السعود تكتسب مشروعية كاملة فى
انتمائها إلى الأدب المقارن، والطريف فى الأمر أن كاتبنا المصرى كان
على وعى كامل بهذا المفهوم قبل أن يبلغ العقد الثالث من عمره وقبل
أن ينادى ويلك بنظريته بأكثر من عشرين سنة، وذلك حينما اتخذ
عنواناً شاملاً لمقالاته هو «الأدب المقارن».

وإننا إذ نقدم هذه الباقية من مقالات فخرى أبو السعود بين دفتى
كتاب واحد فإنما نستحيى بذلك أثراً رائعاً من تراث أدبنا النقدى
استطاع صاحبه أن يتبوأ منزلة الريادة فى ميدان جديد من ميادين
الدرس الأدبى وهو لم يناهز بعد الثلاثين من عمره.